

مصر الحديثة

دورية سنوية محكمة تعنى بتاريخ مصر الحديث والمعاصر

العدد الأول ٢٠٠٢



١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م



مركز تاريخ مصر المعاصر

مصر الحديثة

دورية سنوية محكمة تعنى بتاريخ مصر الحديث والمعاصر

العدد الأول

٢٠٠٢

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
رئيس مجلس الإدارة
د/ صلاح فضل

مجلة مصر الحديثة: دورية سنوية محكمة تعنى بتاريخ مصر الحديث والمعاصر / مركز تاريخ مصر المعاصر . - س ١ ، ع ١ (فبراير ٢٠٠٢) -
. - القاهرة :
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، ٢٠٠٢
مج ؛ ٢٨ سم .
سنوية.

إخراج وطباعة :
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٢/١٢١١١



دار الكتب والوثائق القومية

مصر الحديثة

دورية سنوية محكمة
تصدر عن مركز تاريخ مصر المعاصر
بالهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

الآراء الواردة فى المجلة تعبر عن رأى كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة

تصميم

مهندس فتحى عبد رب النبى

إخراج فنى وماكيت

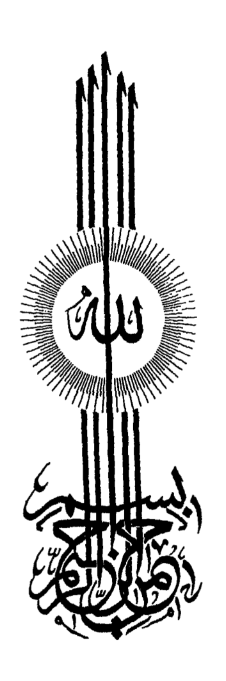
محمود يونس سيد

توجه المراسلات الخاصة بالمجلة إلى رئيس التحـرير الأستاذ الدكتور

جمال زكريا قاسم

على عنوان الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ـ مركز تاريخ مصر المعاصر ـ كورنيش النيل رملة بولاق ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

المحتويات



الافتتاحية

بقلم الدكتور يونان لبيب رزق

مقرر اللجنة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر

صدور العدد الأول من المجلة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر التابع لدار الكتب له قصة، والتى بدأت مع الأخذ بنظام اللجنة العلمية فى إدارة هذا المركز قبل ثلاث سنوات، وهى اللجنة التى أخذت على عاتقها تحديث هذا المركز.

فبعد أن كان العمل داخل هذه المؤسسة العلمية بعد قيامها منذ نيف وثلاثين عاما، منحصرا فى إصدار الأعمال العلمية ذات الطبيعة التوثيقية، سواء كانت أوراقا خاصة مثل مذكرات الزعماء السياسيين، محمد فريد وعبدالرحمن فهمى وسعد زغلول، أو البحث فى مضابط المجالس النيابية، أو نشر بعض أوراق الحكومة المصرية المستخرجة من دار الوثائق القومية، هذا فضلا عن بعض القضايا الهامة المستمدة من محفوظات المتحف القضائى، رأت اللجنة أن الوقت قد حان ليصبح هذا المركز اسما على مسمى.

وفى خلال الفترة القصيرة المنصرمة من عمر هذه اللجنة (ثلاث سنوات) استقرت القسمات الجديدة التى ارتأتها لهذا المركز، فهى لم تفرط بأى شكل فى طبيعة العمل الذى يقوم به، بنشر الأعمال الوثائقية المتعلقة بتاريخ مصر الحديث، بل أضافت إليها ...

أضافت أولا موسمًا ثقافيا سنويا يدور حول محور بعينه، واهتبال مناسبة تاريخية بذاتها لتكون موضوعا لهذا المحور، كأن يكون عام ١٩٩٩ بمناسبة مرور ثمانين عاما على ثورة ١٩١٩ ، وكأن يكون فى العام التالى حول القضايا المستقبلية، وكأن يكون عام ٢٠٠١ حول الانتخابات التى جرت فى عام ٢٠٠٠ والتى أثارت كثيرا من المناقشات والهواجس، وقد اعتبرت اللجنة العلمية أنها مسئولة عن تقديم التأصيل لبعض الظواهر التى عرفتها هذه الانتخابات.

وأضافت ثانيا موسما للندوات كان أهمها الندوة التى انعقدت بمناسبة مرور خمسين عاما على قيام دولة إسرائيل وتفجر ما عرف فى التاريخ العربى بالقضية الفلسطينية، حيث شارك عدد من أكثر المتخصصين فى هذه القضية الملتهبة، والتى يبدو أنها ستبقى على التهابها لأمد غير قصير..

وأضافت ثالثا «المجلة العلمية» وكانت أكثر المهام التى قامت بها اللجنة مشقة، فقد كان مطلوبا أن تخرج بمذاق مختلف عن مثيلاتها التى تصدرها الجمعيات العلمية، خاصة الجمعية التاريخية، أو التى تخرج عن أقسام التاريخ بكليات الآداب بالجامعات المصرية، وهو الأمر الذى استغرق الثلاث سنوات الماضية.

المذاق المختلف بدأ أولا فى التأكيد على التخصص الضيق للمركز، تاريخ مصر الحديث، الأمر الذى دعانا إلى التدقيق فى اختيار عنوان المجلة، فخرج على ما هو عليه معبرا عن هذه الحقيقة، وبالطبع ليست القضية عنوان فحسب، فالأهم من ذلك كان المضمون، ومن ثم جاءت اختيارات هيئة تحرير المجلة التى تشكلت برئاسة الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم ترجمة لهذه الحقيقة، مما يستطيع أن يتبينه القارئ بسهولة بمجرد الإطلاع على عناوين الدراسات التى تضمها دفتيها.

بدا ثانيا في المشكلة التى واجهت هيئة التحرير، فالكتابة فى تاريخ مصر، مع هذا الفيض من الكتابات التى عرفها خلال العقود الأخيرة، أدت إلى تضييق الهامش الذى يستطيع الكتاب أن يقدموا فيه جديدا، فما أصعب «الحرث» فى أرض محروثة.

وبدا ثالثا فى تنوع الموضوعات على نحو واجه معه الدكتور جمال زكريا وزملاؤه مأزقا تحريريا، فقد جرت العادة فى مثل هذه المجلات العلمية على ترتيب موضوعاتها تبعا للعصور التاريخية.. قديم ووسيط وحديث، غير أن مجلتنا كلها تقع فى العصور الحديثة، أو تبعا للأقطار التى وقعت فيها الأحداث التاريخية غير أنها بالمقابل تعالج تاريخ قطر واحد وهو مصر، ولم يكن أمام الهيئة فى مثل هذا الوضع غير المسبوق سوى أن تصنف بحوث المجلة على نحو موضوعى.. سياسة، اقتصاد، ثقافة .. إلخ .

وبدا رابعا فى إضافة قسم للوثائق قلما كان محل اهتمام المجلات السابقة، حيث أنه لما رأينا أن مركز التاريخ تابع لدار الكتب، والتى تجمعها صلة قرابة حميمة مع دار الوثائق القومية، أن نستفيد بهذا الوضع فننشر فى كل عدد ملفا وثائقيا مستمدا من أوراق هذه الدار الأخيرة على أن يقوم متخصص أو أكثر بتقديمه.

وقد استغرق التوصل إلى الشكل النهائى لهذه المجلة على النحو الذى خرجت به الأن إلى أيدى القراء جلسات عديدة، سواء على مستوى هيئة التحرير، أو على صعيد اللجنة العلمية كاملة، والتى دارت خلالها حوارات اتسمت بالحدة أحيانا، فقد أردنا أن تكون مجلة متميزة لتصبح إضافة نوعية وليس مجرد إضافة كمية.

هذا ويقطع أعضاء اللجنة على أنفسهم عهدا أن تصدر مجلة «مصر الحديثة» بعد ذلك بشكل سنوى لتصبح إضافة هامة فى التاريخ المصرى، هذا من ناحية ولتلبى احتياجات الأجيال الجديدة بمزيد من المعرفة التاريخية لبلادهم، من ناحية أخرى.

﴿وعلى الله قصد السبيل﴾



الدراسات والبحوث

الحملة الإنجليزية إلى مدينة الإسكندرية
(١٦ - ٢١ مارس ١٨٠٧)

د. حسن صبحى

أستاذ التاريخ الحديث

بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

الحملة الإنجليزية إلى مدينة الإسكندرية

(١٦ - ٢١ مارس ١٨٠٧)

جاء الإنجليز إلى مصر فى عام ١٨٠١ حلفاء للباب العالى ، ونجحوا فيما جاءوا من أجله : هزموا الفرنسيين فيما يسمونه معركة الإسكندرية (مارس ١٨٠١) ، وأرغموهم على الجلاء عن مصر . وفى عام ١٨٠٧ عاد الإنجليز إلى مصر ، خصوما للسلطان هذه المرة وفشلوا فشلا ذريعا، فحملتهم حينئذ كانت - كما يعتقد Douin - خطأ فى الفكرة والإعداد والتنفيذ[١].

ومهما كانت أوجه الاختلاف بين الحملتين ، فمن المؤكد أن الإنجليز فى كلتيهما لم يجيئوا إلى مصر لغزو البلاد أو لاحتلال دائم لها [٢]. والحملتان أيضا قد جاءتا تمشيا مع سياسة بريطانيا العظمى، وإهدارا لخطط فرنسا إزاء مصر والباب العالى . فباتفاقية عام ١٧٩٩ تحالفت بريطانيا مع السلطان العثمانى ضد مشروعات فرنسا فى الشرق ، ضامنة له ممتلكاته بلا استثناء كما كانت قبل مجىء حملة بونابرت إلى مصر، ومتعهدة بإعادة مصر إلى حوزته .... وكان الإنجليز مخلصين فى تعهدهم إلى أبعد الحدود ، وخرج الفرنسيون من مصر ... أما حملة عام ١٨٠٧ فقد جاءت لتأمين مركز بريطانيا الحربى فى جنوب أوروبا إذا ما اضطرت إلى خوض غمار حرب فى إيطاليا ، وإضعاف مركز السلطان بعد تقاربه من الفرنسيين وقيام الحرب التركية الروسية (١٨٠٦- ١٨١٢) .

بمعنى آخر، حدث ما جعل العلاقات تتدهور بين بريطانيا العظمى والدولة العثمانية، وتطور الأمر من جفاء إلى عداء ... ففى ٢١ نوفمبر ١٨٠٦، يرسل The Right Hon. W. Windham رسالة سرية إلى الجنرال Fox قائد القوة الإنجليزية المرابطة فى صقلية ، يقول له فيها إن تصرفات الباب العالى أخيرا قد جعلت الحاجة ماسة إلى اتخاذ إجراءات ضرورية وسريعة وحاسمة إزاء الحكومة التركية ... وعلى ذلك فقد صدرت الأوامر لإرسال أسطول كاف من السفن ليتجه دون إبطاء إلى القسطنطينية حيث يتخذ وضعا عدائيا يمكنه وقت اللزوم من توجيه ضربة إليها[٣] .

ثم يشاهد شتاء عام ١٨٠٧ تصاعدا فى توتر العلاقات بين تركيا من جانب وكل من روسيا وبريطانيا من جانب آخر ...[٤] وجاء – Vice – Admiral Sir John T. Duckworth وكان تحت إمرته اثنان من كبار القادة البحريين هما Vice-Admiral Louis & Sidney Smith على رأس أسطول من سبع سفن Vaisseaux ، واثنين Frigates ومجموعة من السفن من نوع Corvettes وBomberdes ، واقتحم الدردنيل بدون خسائر وفى يوم ٢١ فبراير ١٨٠٧ صار الأسطول الإنجليزى أمام القسطنطينية ، ولكنه فشل فيما جاء من أجله . وعاود الإنجليز الكرة فى ٣ مارس ، ولكنهم فشلوا أيضا ، واستمر صمود السلطان [٥] .

وفى الوقت نفسه الذى كانت فيه الحكومة البريطانية تعد لهذا العمل العدائى ضد السلطان فى عقر داره ، كانت تعد أيضا لعملية عسكرية أخرى ضده ، ولكن فى مكان آخر من أملاكه، فى مصر والإسكندرية على وجه التحديد [٦] . وتصدر التعليمات إلى قائد الأسطول فى نفس الوقت ، أنه إذا تطورت الأمور فى القسطنطينية ، وفور بدء العمليات العسكرية هناك ، وبدون انتظار لأوامر ، عليه عمل الترتيبات والاستعدادات لنقل قوة من خمسة آلاف رجل إلى مصر [٧] .

وتتابعت الأوامر والاستعدادات بالتالى لتنفيذ العمليتين فى وقت واحد . فترسل الأوامر إلى Sir Sidney Smith قائد الأسطول الذى يحمى صقلية للانضمام إلى أسطول Duckworth الذى تقرر ، كما قلنا ، أن يعمل ضد القسطنطينية . كذلك يكلف قائد أسطول قبرص بالإعداد لنقل سبعة آلاف جندى ، ويرشح الجنرال Fox ، قائد الجيش فى صقلية ، لقيادة تلك الحملة ، فقد كان أكثر القواد علما بطبيعة المكان الذى سوف ينزل إليه جنود الحملة فى مصر . [٨]

ثم يتلقى فوكس التعليمات أنه فى حالة تطور الأمور وبدء القتال فى القسطنطينية، فعليه أن يرسل قوة من خمسة آلاف رجل إلى مصر، وأن تكون تلك القوة مستعدة للإبحار إلى مصر فى ظرف ساعتين من إخطار Vice – Admiral Sir John Duckworth له ببدء القتال فعلا بعد وصوله إلى مضايق القسطنطينية . [٩] ...

نلاحظ هنا أن بريطانيا - فى نطاق تدابيرها لتوجيه الضربات إلى السلطان العثمانى- قد خططت فى نفس الوقت للاستيلاء على جزيرة Milo باليونان كمحطة بحرية. ولكن الافتقار إلى القوة الضاربة واللازمة حينئذ من ناحية ، وسوء الأحوال هناك من ناحية أخرى، قد جعل سير جون دوكورث يقرر تأجيل تلك العملية. فالقوة العسكرية اللازمة لها، ستكون على حساب أمن جزيرة صقلية أو على حساب القوة المزمع إرسالها إلى الإسكندرية (١٠). يضاف إلى ذلك أن الجزيرة - رغم خلوها من أية قوات عثمانية أو حتى من السكان - كانت غير صحية والمياه فيها غير صالحة (١١) .

ومسألة الإسكندرية بالنسبة لخبراء الحرب البريطانيين حينئذ - كانت أهم من أى موقع آخر شرقى المتوسط. وفوكس فى تعليماته إلى Fraser بشأن حملة الإسكندرية- يلفت انتباهه إلى التركيز على الاستيلاء على مدينة الإسكندرية ، حتى ولو طلب منه الأدميرال سيرجون دوكورث قواتا لاحتلال أى جزيرة بالأرخبيل كمحطة لأسطول جلالة الملك فى هذه المياه . وعلى فريزر - هكذا تقول تعليمات فوكس - فى هذه الحالة أن يقتطع أقل كم من القوات تحت إمرته يراه مناسبا لهذه العملية ، ولكن دون إضعاف لقواته إلى الحد الذى يهدد مركزه فى الإسكندرية . ثم يترك له فوكس الخيار - تبعا لتقديره الخاص -فى رفض أو قبول مثل هذا الطلب . (١٢)

على أى حال ، كانت هناك فى أوائل فبراير ١٨٠٧ قوة من خمسة آلاف رجل على أهبة الرحيل ، ويقودها Major-General Fraser ، وكان رجلا ، كما يقول فوكس مستقيما ذا سلوكاً قوياً ومؤهلا لمثل هذا المركز(١٣)، لذا يعطيه فوكس صلاحيات الاتصال بوزير الحرب البريطانى مباشرة مع تزويده بصورة من تلك المراسلات (١٤) .

وتتوالى الأحداث ، ففى ١٧ فبراير ١٨٠٧ يظهر أسطول بريطانى بقيادة دوكورث أمام القسطنطينية بعد اقتحامه الدردنيل، ولكن سرعان ما يضطر إلى التقهقر بعد فقد سفينتين(٣ مارس) بسبب استعدادات الترك التى أوعز بها Sebastiani بالقسطنطينية(١٥)، وأصبحت الحملة إلى الإسكندرية أمرا لا مناص منه وأرسل سيرجون دوكورث من على ظهر السفينة Royal George، بالقرب من الدردنيل، يوم ٧ مارس، إلى الجنرال فوكس

بصقلية يقول له أن الحكومة التركية قد اتخذت جانب فرنسا، لذا هو يشعر بالرضا لاستعداد القوات للإبحار إلى الإسكندرية (١٦) .

كانت هذه هى الظروف التى فى ظلها وجهت بريطانيا حملتها إلى الإسكندرية فى مارس ١٨٠٧ .

أقلعت الحملة من ميناء مسينا بصقلية فى صباح يوم الجمعة ٦ مارس ١٨٠٧ بقيادة فريزر (١٧) . وكانت تتكون فى جملتها من ٦٦٠٤ رجلا ، منهم فئة لا بأس بها من قوات غير إنجليزية يراها فوكس ذات نوعيات ممتازة ، منتظمة ومدربة جيدا ويمكن الاعتماد عليها(١٨)، وكانت عبارة عن خمس مجموعات من المتطوعين من صقلية عددهم ٦٦٦ (Royal Sicilian Volunteers) وضمت الحملة أيضا ٨٨ من الفرسان، ٤٦ حصانا ، ٢١٧ من رجال المدفعية ، ٦ من المهندسين ، ٣٦٤ إمرأة ، ٣٢٣ طفلا ، وهيئة طبية (١٩) . ويصف فوكس الحالة المعنوية للحملة بأنها كانت على درجة عالية من المرح والإرادة القوية (٢٠).

وأبحرت القافلة فى طريقها إلى الإسكندرية ، وكانت مكونة من سفن الأسطول ومعها ثلاثة وثلاثون سفينة مرافقة وناقلة للحملة. وكان الأسطول تحت قيادة Captain Hallowell وبعد يوم من الإبحار ، انفصلت السفينة (الفرقاطة) Apollo ومعها ١٩ من سفن المواصلات ، بينما استمرت السفن الباقية وعددها ١٤ سفينة ومعها السفينة الحربية Tiger إلى ميناء الإسكندرية (٢١) .

وقبل وصول الأسطول ، جاءت سفينة إنجليزية إلى الميناء دون أن تخبر أسباب حضورها (٢٢)، ثم وصلت السفينة الحربية Wizard (٢٣) إلى ميناء الإسكندرية يوم ١٤ مارس تحمل رسالة من فريزر إلى Major Misset ، تدعوه للانتقال إلى السفينة لحمله إلى الأسطول تحت قيادة هالويل بهدف تزويده بكل التعليمات التى فى حوزته(٢٤) ، ففريزر كان قد تلقى التعليمات من قبل بما ينبغى اتخاذه قبل النزول إلى البر وبعده ... فكان على فريزر لدى وصوله عند مشارف الإسكندرية أن يتصل بالقنصل الجنرال

البريطانى ميسيت ليلحق به ليعلمه بحالة الدفاع عن الإسكندرية ، وموقف القوة التركية هناك وحالة بطاريات الدفاع عنها . ذلك، بالإضافة إلى نصائح القنصل ، كان يراه فوكس مفيدا جدا عند بدء العمليات الأولى [٢٥]، فلبى ميسيت الدعوة ، ومضى لمقابلة من بالسفينة ثم عاد إلى المدينة . فميسيت وجد أنه من مصلحة الحملة أن يظل بالمدينة لإحباط خطط ومؤامرات القنصل الفرنسى ضد الإنجليز [٢٦] . فى نفس الوقت يزود ميسيت الحملة بكل مالديه من معلومات ونصائح، مشيرا إلى ضعف الحامية وموقف السكان الودى إزاء الحملة [٢٧] . ويبدو أن ميست كان واثقا من صحة قراره إلى حد كبير فقومندان [٢٨] الإسكندرية وكبار العلماء بها قد أعطوا له أقوى الضمانات بأنه لن يمكن لأحد المساس به تحت أى ظرف، من ناحية أخرى هو يجد فى بقائه فائدة بالنسبة لعمليات الإنزال إلى الشاطئ ثم الاستيلاء على المدينة[٢٩].

وفى اليوم التالى (١٥ مارس) وصل Hallowell إلى برج العرب Arab's Tower مع ١٤ سفينة من القافلة ، وكانت قد انفصلت ١٩ سفينة ليلة ٧ مارس - كما قلنا - نظرا لظروف جوية . ولم يشأ فريزر إنزال الجنود حتى يتلقى المعلومات عن قوة الأتراك . وتقدمت السفينة Tiger حيث ألقت مراسيها فى الميناء الغربى . وهناك انتظرت يوم ١٦ مارس وفريزر على ظهرها لاستقبال ميجور ميسيت المقيم البريطانى بالإسكندرية ونائبه Mr. Briggs ومعرفة مقدار القوة ومركز الحامية وسكان المكان . وتلقى فريزر فى مساء نفس اليوم من ميسيت معلومات مطمئنة عن موقف السكان الودى ، والاحتمال الضئيل لمجابهة أى مقاومة لدى نزول الإنجليز إلى البر[٣٠] .

وفى اليوم نفسه نزل من السفينة ضابطان طلبا مقابلة قومندان المدينة (أمين أغا)، وكان من ضباط الأستانة ، وتكلموا فى شأن تسليم المدينة والقلعة ، مع وعد بالحماية للناس وممتلكاتهم. وعلى عكس ما توقع الإنجليز ، فقد رجع الضباط فى صباح اليوم التالى (١٧ مارس) مع تصريح من الحاكم بأنه سوف يدافع عن المكان إلى أقصى حد[٣١]. فى نفس الوقت يتوالى وصول السفن إلى ميناء الإسكندرية . أما السفن المفقودة وعددها ١٩ سفينة للمواصلات ، فقد وصلت إلى ميناء « أبو قير» فى صباح

يوم ٢٠ مارس ، وبعد يومين (٢٢ مارس) ، وصل أسطول سير جون دوكورث إلى الإسكندرية [٣٢].

وتحركات الحملة ، منذ وصولها إلى مياه الإسكندرية وحتى استيلائها على المدينة، ترويها مراسلات كل من قائديها : فريزر وهالويل ...

فمنذ بدأ الاتصال بين الحملة وميسيت ، والأخير يكرر النصح بنزول القوات فى الحال إلى الشاطئ ، فثقته كل الثقة فى موقف الأهالى الودى إزاء الإنجليز جعلته يؤكد بأن فريزر سوف يستولى على المدينة دون طلقه رصاص واحدة !! [٣٣]، ذلك بالإضافة إلى تكرار تأكيده لضعف استحكامات المدينة وحاميتها ... ولكن حالة النقص الشديد فى قواته لعدم وصول السفن المفقودة بعد ، جعلت فريزر يتريث فى قراره بالنزول ... وهو - على أية حال ومنذ وصوله ، قد بدأ حربا نفسية نشطة ضد المدينة وحماتها فأرسل مساعده الكابتن A. Court مع بيان مفصل بشروطه ، كما حمله بيانا (منشورا) إلى حاكم المدينة وسكانها [٣٤] .

وهكذا ، ومن على ظهر السفينة Tiger ، يجيء إنذار فريزر كقائد للحملة ، وهالويل كقائد للأسطول المهاجم ، لأهالى الإسكندرية وحاكمها . وفيه يعلن القائدان أنهما قد جاءا للاستيلاء على مدينة الإسكندرية وميناها وقلعتها والجهات التابعة لها ، وأنهما لم يجيئا لغزو البلاد وإنما لمجرد منع الفرنسيين من العودة والاستيلاء على البلاد ، وللتمكن من حماية الأطراف التى تتبنى علاقات الصداقة فى كل الأوقات مع بريطانيا العظمى [٣٥] .

وفى الإنذار يتبع القائدان تعليمات الوزير - عن طريق الجنرال فوكس - والتى تقول بأن على فريزر عند اتصاله بالأتراك أن يبالغ فى ذكر عدد أفراد الحملة ومعداتها ، وأن يفقدهم الأمل فى المقاومة [٣٦] . وهما كذلك يبينان أن الإنجليز لا ينوون الإضرار بأحد [٣٧] فإنسانية وشرف وحرية الشعب البريطانى أمر معروف لدى أهل هذه البلاد، وأن الثقة كاملة فى أن أهل البلاد أنصار للهدوء والنظام، وأن الإنجليز إذا دخلوا البلاد سلما فسوف يجد كل شخص الحماية وتحرم ملكيته الخاصة . أما إذا كان الأمر عكس ذلك فعلى الأهالى والحامية تحمل النتائج[٣٨] .

ولكن البيان لم يلق النتيجة التى كان يرجوها الإنجليز وينتظرونها . فقد قابل أمين أغا ، حاكم المدينة ، إنذار الإنجليز - كما يقول فريزر - بالاحتقار [٣٩] . وحينئذ ، وجد فريزر أن العدو قد تأكد من نواياه ، فإن كل تأخير من جانب الإنجليز - بالنسبة للنزول والاستيلاء على المدينة - يمنح العدو فرصه لتقويه مركزه . هذا بالإضافة إلى أن تعليمات الجنرال فوكس له من قبل ، كانت تقضى بأن يستولى على الإسكندرية فورا وبدون حصار ، وذلك بحركة جريئة وسريعة[٤٠] . لهذا يصمم الجنرال على النزول فى الحال مع القوة التى كانت معه ...

وهكذا يبدأ النزول مساء يوم ١٧ مارس [٤١] . أما حالة المدينة حتى ذلك الوقت، فيمكن الإلمام بها أساسا مما كتبه ميسيت ، بشىء من الدقة والدراية فى مراسلاته . وقد أشار الجبرتى إلى ذلك الأمر ، ولكن الحقيقة ربما تاهت هنا بين «الشائعات والمراسلات» و«الأخبار الصحيحة». والجبرتى على أية حال - على عكس الأمر بالنسبة لميسيت - لم يكن بالإسكندرية حينئذ ... وهو يقول فى حوادث شهر ذى الحجة ١٢٢١ (فبراير ١٨٠٧)، أنه بمجرد انتشار الأخبار عن قرب وصول حملة إنجليزية إلى مصر ، شرع أهل الإسكندرية فى تحصين قلاعها وأبراجها وكذلك أبوقير. كذلك أخذ عمال محمد على فى تحصين الأماكن بالقرب من الإسكندرية وقلعة البرلس[٤٢].

ومن الطبيعى أيضا أن يكون للقنصل الفرنسى فى الإسكندرية Drovetti دوره فى سير الأحداث حينئذ .. فبوصول أنباء القسطنطينية - فيما يتعلق برحيل السفير البريطانى - إلى مصر ، عمل القنصل الفرنسى فى المدينة جهده لإقناع كل من حاكم المدينة التركى وأهالى الإسكندرية[٤٣] بالسماح للألبان ، جنود محمد على ، بالدخول إلى المدينة لتقوية الحماية بها. فمحمد على كان قد تلقى الأوامر من القسطنطينية ليجعل كل منطقة فى مصر فى حالة دفاع . كذلك أمر محمد على بأن يقاوم بكل ما لدية من قوة أى إنزال لقوات بريطانية فى البلاد . وقد عرف هذا الأمر علانية فى البلاد[٤٤]. كذلك كان القنصل الفرنسى غاية فى النشاط فى اتصاله بحاكم المدينة وتوجيهه إلى كيفية تحسين وسائل الدفاع عن المدينة [٤٥] . ولكن ميسيت يعمل

جهده لإحباط العمل الفرنسى ، ويجتهد فى إقناع الحاكم التركى بأن السماح للألبان بدخول مدينته إنما هو علامة على فقدانه السلطة على المدينة وهو كذلك يوضح للأهالى ما يسببه الألبان من محن أينما حلوا ... ولذلك يبقى ميسيت فى الإسكندرية لا يغادرها - بعكس دروفتى- حتى نزول الإنجليز، وذلك من أجل إحباط خطط الفرنسيين...[٤٦] . بمعنى آخر ، كانت تدور فى مصر حرب إعلامية بين الفرنسيين والإنجليز ، وفيها كان الإنجليز يعانون الكثير، وذلك بسبب صعوبة الحصول على المعلومات ؛ فالأتراك كانوا قد احتجزوا مجموعة من السفن فى رودس، ومنها السفن الحاملة للرسائل من أزمير والقسطنطينية [٤٧] .

ووفقا لأوامر محمد على ، أظهر حاكم المدينة الاهتمام بالإصلاح السريع لأسوار الإسكندرية ، ووضع بضعة مدافع على القلاع بطريقة تدافع بها عن مدخل الميناءين القديم والحديث[٤٨]، وإعداد كمية من الذخيرة غير كافية لكل مدفع[٤٩]. والمدينة - على أية حال ، وقبل شهرين من وصول الإنجليز إليها - كانت فى حالة لا تسمح لها بمقاومة الغزو . فالقلعتان الرئيسيتان Cretin & Cafarelli ، كانتا فى حالة غاية من السوء والتدمير ، والحاكم لا يملك وسائل الإصلاح ، ويجهل فن ترميم هذه القلاع . أما الحامية ، فكانت صغيرة لا تصل إلى ٣٠٠ رجل ، وتجهل تماما الخطوط التى ينبغى عليها حمايتها .

والحاكم ، رغم أنه وضع عدة مدافع إضافية بجانب البطاريات ، إلا أنه لم يكن يملك رجال المدفعية اللازمين لتشغيلها .. وعلى ذلك فميسيت كان يتوقع أن يكون احتلال الإنجليز للمدينة أمر يسير جدا [٥٠] ، وأن فريزر سيستولى على المدينة دون إطلاق رصاصة واحده !!.

أما بالنسبة لأهالى الإسكندرية فكان ميسيت لا يتوقع مؤازرتهم لحاميتها فى حالة هجوم بريطانى على مدينتهم[٥١]. وميسيت لم يكن مطمئنا فقط إلى أهالى الإسكندرية، بل كان يتوقع أيضا مساعدة بعض قبائل العرب للحملة. فالقنصل الإنجليزى كان يعقد الاجتماعات مع زعمائهم بهذا الخصوص، وأصبح يعتقد أنه من المحتمل الاعتماد

عليهم إذا كانت الحاجة ماسة إلى ذلك: [٥٢] . وظل ميسيت على اعتقاده حتى قبيل نزول الحملة وهو يكتب إلى فريزر موضحا أن الشيخ محمد المسيرى - وهو رجل ذو نفوذ لا شك فيه عند أهل المدينة - قد أرسل إليه فى ذلك الصباح (١٥ مارس) ليؤكد له ما سبق أن وعد به من قبل ، وهو أنه فى حالة غزو البريطانيين لمصر، فإن أهل الإسكندرية لن يعترضوا إطلاقا على ذلك ، بل إنهم سوف يقابلون الإنجليز بالأحضان !![٥٣] .

كان ميسيت إذن غاية فى التفاؤل بالنسبة لنجاح الحملة وإتمام المهمة بدون خسائر ، وهو فى مراسلاته إلى فريزر ، لا يوضح الموقف فى المدينة فحسب ، بل ينصح أيضا بما ينبغى اتخاذه من خطوات لضمان نجاح الحملة . فهو ينصح فريزر بالنزول فى « أبوقير»، ولاسيما وأن قلعة « أبوقير » كانت متهدمة ويحتلها حوالى العشرين فردا . وهكذا كانت الاستحكامات حول الإسكندرية قليلة الأهمية ... وقال إنه يمكن الحصول على الماء فى المنطقة من أبوقير إلى الإسكندرية عن طريق حفر بضعة أقدام. أما إذا حدث واتخذ الأتراك لهم مواقع فى هذا الطريق ، فهو يؤكد أنهم لن يصمدوا لمجموعة من القوات البريطانية وهى تهجم بحراب البنادق . كذلك هو ينصح بإنزال عدد من حوالى الألف وخمسمائة جندى غرب الإسكندرية عند جزيرة Marabout ، ويعطى بيانا عن خط الدفاع بين الموقع والإسكندرية ، وهو خط لا يشتمل إلا على بطارية من مدفعين غربا ، ومدفع واحد إلى الشرق . هذا فضلا عن أن الأتراك - فى تصوره - لا يفهمون فى فن المدفعية [٥٤].

قرر إذن فريزر النزول فى الحال : هناك أولا وجهات نظر ميسيت ونصائحه، من ناحية أخرى كان الغزو هو الوسيلة الوحيدة لمنع وصول الألبان إلى المدينة [٥٥]، ومنع المدافعين من تقوية استحكاماتهم . هناك كذلك تعليمات الجنرال فوكس، وأخيرا كان فريزر قد كشف عن نواياه وهدفه من القدوم إلى مصر ، فكان لابد إذن من الإسراع فى النزول ...

بدأ الجنود فى النزول إلى الشاطئ بقدر ما وسع ذلك العدد الضئيل من قوارب النقل المتاحة حينئذ ، فى بقعه تقع على بعد بضعة أميال من شرق Marabout [٥٦]، دون مقاومة . وكان لدى فريزر حينئذ ، ما بين ستمائة إلى سبعمائة جندى، من بينهم خمسة مدافع ميدان وستة وخمسون من البحارة تحت قيادة الملازم Boxer. فأخذوا يفدوا إلى الشاطئ بدون مقاومة ، واتخذوا لهم موقعا لقضاء الليل ، ثم حالت أمواج البحر دون نزول الباقين الذين أكملوا النزول بعد ظهر اليوم التالى (١٨ مارس) [٥٧] .

وارتفاع الأمواج وحالة الجو عموما ، كانا يحولان دون إحضار المؤن إلى الشاطئ أو الاتصال بالسفن الراسية .. ولكن بمجرد اكتمال العدد قرر فريزر أن يشق طريقه لمهاجمة دفاعات العدو بهذه القوة الصغيرة التى كانت لديه حينئذ ، متوجها إلى القلاع التى كانت تسيطر على المدينة . فى نفس الوقت رأى فريزر أن يتوجه جيشه إلى الشرق من المدينة حتى يستطيع أن يتلقى المؤن من«أبو قير»[٥٨].

بذلك يتحرك الجيش وعلى رأسه فريزر حوالى الساعة الثامنة من مساء يوم ١٨ مارس. وكان هناك خندق عميق يمتد من قلعة الحمامات Fort de Bains إلى بحيرة مريوط ، ويحمى هذا الخط ثلاث بطاريات تحمل مدافع خفيفة ، بخلاف قلعة الحمامات إلى الشرق منه وقد ركب عليها ١٣ مدفعا . وقد وقعت هذه النقاط فى أيدى الإنجليز بسهولة ، وبخسائر طفيفة جدا رغم أنهم تعرضوا لنيران ثقيلة من المدافع والبنادق [٥٩] . وتقدم فريزر بقواته ، التى لم تكن تتعدى الألف رجل ، حتى صار على بعد ياردات من باب بومبى ، وعسكر تحت أسوار المدينة حيث كانت الحامية مستعدة لاستقباله بالمقاومة وكان الباب محصنا والحوائط تعلوها القوات المتراصة والأهالى المسلحون[٦٠] ... وشعر فريزر بضعف مركزه وأن المخاطرة بالهجوم ستكون عظيمة ، لهذا قرر التقدم شرقا ..

وفى صباح يوم ١٩ مارس اتخذ فريزر مواقعه إزاء أرض استولت عليها قواته فيما بعد (يوم ٢١ مارس) ، وأرسل جنودا للاستيلاء على قلعة أبو قير ، وعلى «القطع» أو الممر بين المعدية ومريوط . وكان ذلك هو طريق مواصلات النجدة الألبانية والتى كان

من المتوقع وصولها إلى الإسكندرية . ونجح فريزر فى تحقيق هدفين : الاستيلاء على الموقع ومنع مرور القوات الألبانية[٦١] . فى نفس اليوم (١٩ مارس) وصلت السفينة Apollo ومعها بقيه الأسطول أمام الإسكندرية ، ثم تقدمت أبوللو ومعها كل سفن المواصلات إلى خليج أبوقير حيث بدأوا إنزال قواتهم [٦٢]

وفى اليوم التالى (٢٠ مارس) عاد فريزر ووجه بيانا إلى الأهالى حمله إليهم أحد العرب من أصدقاء الإنجليز كان قد غادر المدينة وانضم إليهم ، وفيه يحذر فريزر الأهالى من الخلط بين الأصدقاء والأعداء فى حالة الاستيلاء على المدينة بالقوة ، ويحثهم على إرغام الحاكم على الاستسلام [٦٣] .

ويبدو أن مظاهر القوة والعظمة ، التى كان فريزر يبالغ فى إظهارها ويحاول إقناع الأتراك وأهل الإسكندرية بها ، وإنذاره لأهل المدينة بالويل والثبور فى حالة دخول المدينة عنوة ، كان له أثره فى دفع الحاكم والأهالى إلى التسليم. يقول هالويل فى رسالة إلى دوكورث، أن احتلال قلعة «أبو قير» ووصول بقية سفن الأسطول وظهور التعزيزات الحربية الجديدة، قد أقنعت الحاكم بعرض شروط التسليم [٦٤] . يضاف إلى ذلك، أنه حالما حدث الهجوم البريطانى على خط الدفاع القائم من الميناء القديم إلى بحيرة مريوط كما بينا، واتخاذ الإنجليز لمواقعهم شرق الإسكندرية، انتاب الجميع الرعب، فغادر الأتراك مواقعهم، وهرب معظمهم، وأسرع سكان المدينة بعرض الاستسلام [٦٥] .

وهكذا يوقع صك الاستسلام يوم ٢٠ مارس ١٨٠٧ (العاشر من محرم ١٢٢٢هـ) ووقعه السيد محمد نعيم أفندى نيابة عن أمين بك حاكم المدينة ، والحاج محمد كاتف وإبراهيم باصا عن الجانب السكندرى ، وميجور جنرال فريزر قائد قوات الغزو ، وكابتن هالويل قائد السفينة الحربية Tiger... وتنص المادة الأولى منه على حماية الممتلكات الخاصة بالأهالى فى البر والبحر ، واحترام العقيدة والمساجد [٦٦] .

والجبرتى يورد فيما جاء بصك الأمان هذا فيقول أن الإنجليز «شرطوا على أهالى البلد شروطا منها أنهم لا يسكنون البيوت قهرا عن أصحابها ، بل بالمؤاجرة والتراضى،

ولا يمتهنون المساجد ولا يبطلون منها الشعائر الإسلامية ، وأعطوا أمين أغا الحاكم أمانا على نفسه وعلى من معه من العسكر وأذنوا لهم بالذهاب إلى أى محل أرادوه ومن كان له دين على الديوان يأخذ نصفه والنصف الآخر مؤجلا . ومن أراد السفر فى البحر من التجار وغيرهم فليسافر فى خفارتهم إلى أى جهة أراد ما عدا إسلامبول . وأما الغرب والشام وتونس وطرابلس ونحوها فمطلق السراح لا حرج ذهاب وإياب ... ومن شروطهم أيضا أنهم لو احتاجوا إلى مال، لا يكلفون أهل الإسكندرية بشىء من ذلك، وأن محكمة الإسلام تكون مفتوحة تحكم بشرائعها ...والحمايات من أى بنديرة تكون مقبولة عند الإنكليز الموجودين بالإسكندرية ، ويقيمون مأمونين رعاية لخواطر أهل الإسكندرية ... حتى الفرنساوية .. والكمارك من كل الجهات على مائة اثنان ونصف .. انتهت الشروط» (٦٧) .

وصارت الاتفاقية سارية المفعول من بعد ظهر نفس اليوم (٢٠ مارس) ، وأخذ الإنجليز مواقعهم على قلاع Caffarelli و Cretin فى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى (٢١ مارس) (٦٨) .

وسقوط الإسكندرية فى أيدى الإنجليز بشئ من السهولة قد جعل البعض يشير بأصابع الاتهام تارة إلى أهلها ، وأخرى إلى حاكمها أمين أغا - واتهام الأخير بأنه تقاضى من الإنجليز رشوة ليسلم لهم المدينة لقمة سائغة : فالرافعى يقول إن الإنجليز دخلوا الإسكندرية ليلة ٢١ مارس دون أن تطلق رصاصة واحدة ، وأنهم استولوا على المدينة دون قتال(٦٩) ، بينما ما يذكره الجبرتى عن ظروف التسليم وكيفيته ، يختلف عن ذلك كل الاختلاف ... يقول الجبرتى فى أحداث عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) ، أنه فى يوم ٩ محرم (٢٠ مارس ١٨٠٧) ، «وردت مكاتبات مع السعاة(٧٠) من ثغر الإسكندرية وذلك فى يوم الخميس العصر ، وفيها الأخبار بورود مراكب الإنجليز وعدتهم اثنان وأربعون مركبا فيهم عشرون قطعه كبارا والباقى صغار فطلبوا الحاكم والقنصل ... وطلبوا الطلوع للثغر فقالوا لهم لا نمكنكم من الطلوع إلا بمرسوم سلطانى ... «فقال الإنجليز» وإنما مجيئنا لمحافظة الثغر من الفرنسيس ... وقد أحضرنا صحبتنا خمسة آلاف من

العسكر نقيمهم بالأبراج لحفظ البلدة والقلعة والثغر ... «فقالوا» لم يكن معنا إذن وقد أتتنا مراسيم بمنع كل من يصل عن الطلوع من أى جنس .«فقالوا» لا بد من ذلك فإما أن تسمحوا لنا فى الطلوع بالرضا والتسليم وإما بالقهر والحرب والمهلة فى رد الجواب بأحد الأمرين أربع وعشرون ساعة «فكتبوا بذلك إلى القاهرة وأرسل المسئولون هناك إلى محمد على بالصعيد يطلبونه للحضور» ولما انتهت المدة التى جعلها الإنجليز أجلا بينهم وبين أهل الإسكندرية وهم فى المخالفة ضربوا عليهم بالقنابل والمدافع الهائلة من البحر ، فهدموا جانبا من البرج الكبير وكذلك الأبراج الصغار والسور وعندئذ طلبوا الأمان فرفعوا عنهم الضرب ودخلوا البلدة وذلك يوم الجمعة» (٧١).

وفريزر يعطينا بيانا بعدد القتلى والجرحى من الإنجليز فى هجوم يوم ١٨ مارس بقيادته كالآتى : (٧٢) .

القتلى : سبعة منهم ضابط هو الطبيب Assistant Surgeon Catanazo

الجرحى : عشرة منهم ضابط هو الملازم Cameron

أما حامية المدينة فكانت قبل استسلامها كالآتى :

٢١٥ جندى .

٤٤ طوبجى .

٢٠٨ بحارة وجنود بحرية .

ومجموعهم ٤٦٧ وهؤلاء فر منهم مائتان وأربعون وأسر استسلاما مائتان وسبعة وعشرون ..

وفى الميناء استولى الإنجليز على ثلاث سفن حربية تركية ، فرقاطتين ، وثالثة Corvette ومركب عليها جميعها مدافع نحاسية ؛ وتحمل سفينة منها ٢٨ مدفعا (١٨ رطلا) على السطح الرئيسى ، ٦ مدافع Carronades (٧٣) (١٨ رطلا) ، وكذلك ٤ مدافع طويلة

(9 Pounders) على سطحها ، ومدفعين (9 Pounders) عند مقدمتها ... والسفينة الثانية تحمل ستة وعشرين مدفعا (١٢ رطلا) على السطح الرئيسى وثمانية مدافع (٦ رطل) على السطح . أما الثالثة ، فهى من نوع Corvette وتحمل ١٤ مدفعا (٦ رطل) ، ومدفعين اثنين (١٨ رطلا) ، وهى مدافع طويلة ..(٧٤)

كذلك استولى الإنجليز على مخازن الذخيرة والسلاح لدى حامية الإسكندرية ، وكانت تغص بالمدافع والذخيرة . ويبدو ، كما قال Misset (٧٥) أن المدافعين كانوا يفتقرون إلى الرجال المدربين على استخدم المدافع . وبيانها كما أورده فريزر كالآتى :

أولا : المدافع وعددها :-

٥٢ من البرونز لقذائف وزنها من ٣ إلى ٤٢ رطلا .

٢٩ مورتار (برونز) قطر كل منها من ٨ إلى ١٥ بوصة .

٢ Howitzers أحدها ١٠ بوصات ، والآخر ٨ .

١٧٢ مدفعا من الحديد وسعتها تختلف من ٤ إلى ٣٢ رطلا .

١٢ من عربات المدافع منها اثنتان غير صالحتين للعمل.

ثانيا : الذخيرة :-

كانت تتكون من قذائف من مختلف الأوزان يربو عددها على الأربعين ألف قذيفة (٧٦) .

وفى الإسكندرية لقى الإنجليز كل ود وتعاون ، ورحب الشيخ المسيرى - وكان يعتبر من الأولياء بالمدينة - بقدوم الإنجليز وأظهر الود إزاءهم، واقتنع الإنجليز بأن الأهالى قد أرغموا على حمل السلاح ضدهم يوم ١٨ مارس !! (٧٧) .

وموقف أهل الإسكندرية من الإنجليز إذا ما قورن بموقف أهل البحيرة ورشيد، قد يبدو للبعض بأنه كفيل بإدانتهم. ومع ذلك، فأهل الإسكندرية - منذ البداية - كان موقفهم مشرفا إزاء مدينتهم ، ولا أقول وطنهم(٧٨) ، وإزاء أنفسهم . وفريزر عند تقدمه إلى

أسوار المدينة ، وجد الأهالى مسلحين ، بجوار الحامية ، متراصين على الأسوار فى انتظار استقباله بالمقاومة. ويخشى فريزر أخطار الاقتحام ويتجه شرقا(٧٩). كذلك تحصن الأهالى وراء أبوابهم حينئذ ، ولم يفتحوها أو يرغموا الحاكم على التسليم كما كان يتوقع الإنجليز . ويفسر ميسيت ذلك تفسيرا غير مقنع حينما يقول - عن تقاعسهم عن مساعدة الإنجليز قبل الاستسلام - بأن ذلك يرجع إلى فقدان الأهالى لنشاطهم بعد ذلك الظلم طويل المدى الذى قضى على روح الهمة فيهم(٨٠) ... كذلك لا ينبغى أن ننسى أن الأهالى لم يطلبوا الاستسلام إلا بعد أن أذاع فريزر منشوره الثانى ، ينذر فيه الأهالى بالاستيلاء على مدينتهم بالقوة ، ويحثهم فيه على إرغام الحاكم على الاستسلام، وذلك بعد اتخاذ الإنجليز لمواقعهم شرق المدينة، واستعدادهم لدخولها قسرا ، وكان الجند الأتراك قد هربوا أمام قوات فريزر، فعرض الأهالى الاستسلام(٨١) .

وأهل الإسكندرية، كما رأينا، قد اشتركوا بممثلين منهم فى توقيع صك الاستسلام ، فكان عليهم أن يلتزموا بما تعهدوا به، ولاسيما، وهم الجانب المغلوب ، كانوا يتعاملون مع الغالب. ولم ينس لهم الإنجليز موقفهم ، فكان أهل الإسكندرية من موضوعات اتفاق الإنجليز - بعدئذ - مع محمد على للجلاء عن البلاد(٨٢) ...

هناك أمر آخر يتعلق بأمين أغا ، قومندان مدينة الإسكندرية كما تلقبه الوثائق الإنجليزية، أو محافظ المدينة كما يود البعض أن يلقبه ، أو حاكم المدينة كما يشير إليه الجبرتى ... فهل كان الرجل مرتشيا حقا كما يتحدث عنه الرافعى ؟ ... نلاحظ هنا أن أمين أغا كان من ضباط الأستانة ، يعينه الباب العالى حاكما للإسكندرية ، لأن الحكومة العثمانية كانت تعد الإسكندرية حتى حينئذ تابعة لها مباشرة(٨٣) والرافعى يقول(٨٤) إن أمين أغا كان متواطئا مع الإنجليز على أن يسلم لهم المدينة مقابل رشوة تسلمها من ميسيت ، فلما قابله الضابطان القادمان من السفينة الإنجليزية (١٤ مارس) اتفق معهما على أن يسلم المدينة دون مقاومة، ثم انقضى يومان بعد نزول الإنجليز فى العجمى (مساء يوم ١٧ مارس) ، فى مفاوضات صورية بين الإنجليز وأمين أغا الذى سلم نفسه كأسير حرب ومعه حامية المدينة (٨٥) .

وفيما يتعلق بأمر «الرشوة»، فلم يرد بالوثائق البريطانية المتاحة ما يؤكد ذلك أو حتى ما يشير إليه ... ولكن ورد بها على أية حال ما قد يجعله البعض عرضة للتأويل ... هناك مثلا تعليمات الجنرال فوكس إلى فريزر استعدادا للحملة والخاصة بتخويله سلطة «إنفاق مبالغ للخدمات السرية فى مثل هذه الأحوال ، وحرية ما يراه واجب الإنفاق فى الحالات العاجلة مع مراعاة واجب الاقتصاد وعدم الإضرار بالمال العام »(٨٦) . هناك أيضا ما كتبه ميسيت إلى فريزر (١٥ مارس) ، أنه حالما يظهر الأسطول البريطانى فى الأفق، سيحاول إقناع الحاكم بالاستسلام (٨٧) .

والواقع أن أمين أغا كضابط عثمانى ، إنما كان مصمما على الدفاع عن مدينته ضد أى عدو للسلطان أو طامع فى أملاكه .. ولكن الظروف ونقص الإمكانيات، كانت أقوى منه. فمن أول الأمر ، وحينما وصلته أنباء الحرب التركية الروسية ، وأوامر السلطان باتخاذ إجراءات الدفاع عن المدينة، وهو يعتبر أنه لا يقاوم أيضا أى هجوم من قوات محمد على الذى يهدف إلى الاستحواذ على المدينة التى لا تدخل فى نطاق سلطته(٨٨). وهو حينما التقى بالضباط الذين أرسلهم هالويل إليه إبان رسو السفينة Tiger فى الميناء الغربى بالإسكندرية (١٦ مارس) لإنذاره بالتسليم ، رفض وقال أنه سوف يدافع عن المكان لأقصى حد (٨٩) . ويقول فريزر فى رسالته إلى وندهام ، أن أمين أغا قابل طلب الإنجليز تسليم المدينة بالاحتقار (٩٠) . أخيرا لا ننسى أن أمين أغا ظل على رفضه التسليم ثمانية وأربعين ساعة . غير أن ميسيت يفسر ذلك بأن أمين أغا فضل ذلك ليحمى نفسه من غضب حكومته !! (٩١).

من ذلك يبدو أن الدلائل تشير إلى سلامة موقف أمين أغا ، ولكن نقص إمكانياته وعدم توفير رجال المدفعية لديه ، وضآلة الحامية وضعف الخبرة ، وكل ما كان يظهر أن الشرق مازال متمسكا بسماته : الضعف والتخلف ، هذا بجوار القوة البريطانية ، وحسن التدريب والخبرة، وكل ما كان يعكس قوة الغرب وتقدمه، والذى أظهره هجوم يوم ١٨ مارس، وفرار الحامية التركية وتفرقها، كل ذلك كان ينذر بأفدح الخسائر للمدينة وأهلها إذا صمم أمين أغا على مقاومة غير مجدية. فوافق الحاكم ووافق الأهالى على التسليم.

ولكن هذا النصر السريع والحاسم، سرعان ما أرغمت الأحداث أصحابه على التخلى عنه والإسراع بالانسحاب ... فهناك أولا هذه الهزائم التى منوا بها بعدئذ، بالإضافة إلى زوال العوامل التى من أجلها جاءت الحملة إلى الإسكندرية. من ناحية أخرى، تحقق للإنجليز أن حملتهم هذه إلى الإسكندرية ، كانت حقا خطأ فى الفكرة والإعداد والتنفيذ (٩٢) .

والإنجليز بعد أن استتب لهم الأمر فى الإسكندرية وما حولها ، وجدوا أنه لابد لهم من السيطرة على مواقع إلى الشرق والشمال، ولاسيما الرحمانية ورشيد... فالإسكندرية حينما سلمت كانت كمية القمح بها لا تكاد تكفى أهل المدينة سوى لمدة أسبوعين، والرياح فى خليج أبوقير قد أعاقت المواصلات . فكان من العسير استقبال أى إمدادات من الأسطول . لهذا اضطر الجيش إلى استخدام جانب من القمح المخصص أساسا لسكان المدينة. كذلك كان من الصعوبة بمكان تدبير أمر اللحوم اللازمة للجيش لمدة يوم واحد فقط. ونتيجة لذلك، كان أهل المدينة عرضة لحرمانهم من أية مواد تموينية، ولن يكون للجيش حينئذ من حل سوى استخدام المؤن المملحة Salt Provisions ، وهو نوع من الطعام يفتقر إلى سلامة الاستخدام فى الجو الحار ...

لذلك ينصح ميسيت بضرورة الاستيلاء على مدينة رشيد فورا ، وكذلك السيطرة على موقع الرحمانية جنوبها. فمن رشيد كان القمح والأرز يصدران إلى الخارج ، والاستيلاء على الرحمانية يمكن من السيطرة على إقليم البحيرة الذى كان يمد الإسكندرية بالحبوب والغنم والجاموس والعجول . هذا فضلا عن أن فصائل الألبان كانت حينئذ تتعاقب على مصر باستمرار ، وهم عادة يصلون إلى البلاد عن طريق دمياط. لذلك ينصح ميسيت فريزر باحتلال دمياط أيضا ، أو مرابطة سفينة حربية هناك لمنع استقبال قوات جدد من الألبان ..(٩٣). وكان ذلك يعنى استيلاء الإنجليز على ثغور مصر على البحر المتوسط، وبالتالى خنق النظام الجديد بها(٩٤).

ويتبع فريزر نصيحة ميسيت ، ويرسل فى الوقت نفسه إلى وندهام (٢٧ مارس) يشكو نقص قواته فى مصر ويطلب تعزيزها(٩٥) .وتحدث كارثة رشيد (٣١مارس) ، وفيها بلغ

عدد القتلى من الإنجليز ١٨٥ منهم ضابط برتبة ميجور جنرال هو Wauchope، واثنان برتبة كابتن هما John Robertson ، B.de Senocovrt ، وثالث برتبة ملازم هو D'Almiel أما الجرحى فكانوا ٢٥١ جريحا منهم ١٨ ضابطا من بينهم ضابط برتبة بريجادير جنرال[٩٦] هو Brigadier- General Hon. Robert Meade .

وتتوالى الكوارث بالنسبة لفريزر وحملته ...

وفى الحماد (٢١ أبريل) تحدث الكارثة التالية ...

فالإنجليز حينما جاءوا إلى الإسكندرية ، كان محمد على يقاتل المماليك فى الصعيد ، ففاوض المماليك ، وأبرم معهم الصلح ، تاركا لهم الصعيد ، وأسرع بقواته إلى سفن النقل بالنيل ، فى الطريق إلى القاهرة [٩٧] ، بينما احتل المماليك عواصم الوجه القبلى وتقدموا إلى الجيزة . ووصل محمد على إلى القاهرة ليلة ١٢ أبريل واستعد لملاقاة الإنجليز .

وهكذا تحدث معركة «الحماد» ، وكانت هزيمة مرة للإنجليز ، بلغت خسائرهم فيها كما ترويها وثائقهم خمسة من القتلى وتسعة وتسعون من الجرحى ، وثمانمائة ثمانية وثلاثون من المفقودين ، بينهم ضابط برتبة Lieutenant Colonel ، واثنان برتبة Major وعشرة برتبة كابتن ، وخمسة عشر برتبة ملازم ، وثلاثون طبيبا.

وفى أوروبا ، لم تكن الأمور – بالنسبة للإنجليز – بأقل سوءا .. فنابليون كان فى أوج مجده وقد سيطر على معظم القارة ، وبصلح Tilsit[٩٨] ، أضاف نابليون إلى انتصاراته نصرا سياسيا باهرا قلب موازين الأمور بالنسبة للسياسة البريطانية ، وأحس الإنجليز بأنه – بعد هزائمهم فى مصر ومن منطلق متطلبات سياستهم فى أوروبا – من الضرورى الإسراع بالانسحاب من مصر ... ويكتب Castlereagh ، وزير الحرب البريطانى فى وزارة الدوق De Portland إلى الجنرال فوكس (١٤ يونية ١٨٠٧) ، يشرح له الحالة فى البحر المتوسط ، ويقول أنه من الواضح أنه لا بديل عن الاختيار بين أمرين، إما الجلاء عن مصر، أو ترك صقلية [٩٩] ،فالحملة كانت قد جاءت إلى

الإسكندرية من أجل أمن صقلية ... ولخدمة أمر أكثر أهمية وهو القتال ضد العدو فى إيطاليا بكفاءة ... وكان ذلك يعنى أن الاستمرار فى احتلال الإسكندرية لم يعد مجديا بالنسبة للمصالح البريطانية ، بل بالعكس ، صار ضارا بها .

وفى أواخر أغسطس كان المسئولون الإنجليز مقتنعين تماما بفكرة الجلاء فورا عن البلاد ، وعودة القوات إلى صقلية بأسرع وقت [١٠٠] . بمعنى آخر وجدت بريطانيا أن تضع حدا لهذه المغامرة الجانبية التى لم تف باحتياجات سياستها فقط ،بل صارت عبئا فى مجال الدفاع عن كيانها المهدد فى أوروبا .

وفى دمنهور ، يلتقى محمد على بالجنرال شربروك Scherbrook (١٤ سبتمبر)، الذى فوض فى أمر الاتفاق على الصلح . وهناك يبرم الطرفان المعاهدة التى يوقعها من الجانب الإنجليزى كل من شربروك والكابتن Fellowes، والكابتن هالويل قائد أسطول الحملة ..

وتنص المعاهدة على وقف القتال وجلاء القوات البريطانية فى مدى عشرة أيام ، وتسلم المنشآت العسكرية فى البلاد بحالتها كما هى ، وإطلاق سراح أسرى الحرب الإنجليز . هذا من الجانب العسكرى . أما من الجانب الإنسانى فقد نصت المعاهدة على إطلاق سراح الأسرى الأرقاء الذين كانوا فى خدمة الإنجليز وإبحارهم على سفينة إنجليزية ، وصدور عفو عام عن سكان مدينة الإسكندرية ، لتأمينهم على أرواحهم وممتلكاتهم [١٠١] .

وبذا انتقلت المدينة للمرة الأولى إلى حوزة محمد على ، وأخلى الإنجليز المدينة تماما يوم ١٩ سبتمبر ، وأبحر الأسرى بعدئذ (٢٢ سبتمبر) . ثم أقلع أسطول النقل من أبوقير إلى مسينا (٢٥ سبتمبر) .

خاتمـــة

الحملة الإنجليزية إلى مصر (مارس ١٨٠٧) ، لم تأت كما يعتقد البعض ، طمعا فى الاستعمار والاستقرار ، بل لمهمة تتعلق بالموقف السياسى للدولة العثمانية ، والصراع الفرنسى - الإنجليزى حينئذ ، والموقف فى أوروبا بوجه عام . والجبرتى فى روايته لأحداث عام ١٢٢٢هـ (١٨٠٧م)، يؤكد أن الإنجليز لم يأتوا إلى مصر طمعا فيها، وهو بلا شك موفق فى تلمسه لهذه الحقيقة ولكنه يتجاوزها ببراءة حينما يقول بأن مجىء الإنجليز كان مساعدة للألفى على خصومه باستدعائه لهم واستنجاده بهم ... وما جاء بالوثائق البريطانية ، وحتى فيما يتعلق بمراسلاتهم مع المماليك ينفى مسألة طمع بريطانيا فى استقرار دائم بمصر ... أما مسألة رشيد والبحيرة فكانت بقصد تأمين الموارد الغذائية للإسكندرية ، ومنع الألبان من الوصول إليها .

ولقد بذل كل من أهل الإسكندرية وحاكمها التركى ، الجهد قدر المستطاع للدفاع عن مدينتهم، ولكنهم أرغموا على التسليم .

والإنجليز بعد استيلائهم على المدينة بخسائر طفيفة ، نجحوا فى ضمان تعاون أهل المدينة من ناحية ، «وتخدير» المماليك من ناحية أخرى .. حتى أن هؤلاء ظنوا أن «محمد على» ربما يهرب إلى خارج مصر ، وأخذوا يعدون العدة لأسره بالتعاون مع الإنجليز ... ولكن «محمد على» كان أذكى من الجميع ، وأصاب الإنجليز بالكارثة التى جعلت القول بأن الحملة كانت منذ الإعداد وحتى النهاية خطأ فادحا ، حقيقة واقعة ، أشعرت الإنجليز بالمرارة ، وربما جعلت الكتاب الإنجليز لتاريخ الإمبراطورية يتجاهلون ذكرها ، رغم أنهم - فى نفس الوقت - يهتمون بذكر الإسكندرية حينئذ فى موقعين : أولهما موقعة كانوب (مارس ١٨٠١) التى كان يقود الإنجليز فيها الجنرال هتشنسون Hutchinson ، والتى يسمونها موقعة «الإسكندرية» وفيها انتصر الإنجليز على الفرنسيين وأرغموهم بعدها على الانسحاب من البلاد . وثانيهما ضرب الإسكندرية فى عام ١٨٨٢ قبيل احتلال الإنجليز الدائم لمصر بعدئذ (١٨٨٢ - ١٩٥٦) .

الهوامش

(١) انظر

G.Douin, et E. Fawtier-Jones, L'Angleterre et L'Egypte-La Campagne de 1807, (Le Caire 1928), p. LXV

(٢) يختلف هذا الرأى مع المؤرخ الكبير عبدالرحمن الرافعى . انظر : عصر محمد على ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٧ ، صفحات ٣٧ - ٤١ .

(٣) وندهام إلى فوكس ٢١ نوفمبر ١٨٠٦ (W.O.6-56)

(٤) كانت القوات الروسية قد عبرت الحدود مع تركيا ، وبثت الرعب فى قلب السلطان سليم . ولكن بإيعاز من المبعوث الفرنسى الجنرال Sebastiani طرد الوزير الروسى M.D'Italinski فطالب الروس، يؤازرهم الإنجليز ، بعودة المبعوث الروسى، وطرد سباستيانى ، وإعلان الحرب فورا ضد فرنسا. وقابل السلطان تلك الطلبات بالرفض، وغادر الوزير الإنجليزى Sir Charles Arbuthnot القسطنطينية على ظهر السفينة البريطانية Endymion ومعه موظفو السفارة والتجار الإنجليز، وذلك فى يوم ٢٩ يناير ١٨٠٧ .

انظر :-

M.A. Thiers, Histoire du Consulat et de L'Empire, T.7éme, pp. 433-442.

وكذلك دوكورث إلى فوكس ، ٩ فبراير ١٨٠٧ (F.O. 1- 303)

(٥) بقدوم دوكورث إلى مياه القسطنطينية عم الرعب المدينة وبدت الحكومة التركية على وشك التسليم . ولكن سباستيانى نصح السلطان بالصمود والتظاهر بالتفاوض حتى يتسنى تسليح القسطنطينية ونجحت الخطة ، وتم تسليح المدينة بمعونه بعض الضباط الفرنسيين. ثم انقطعت المفاوضات فجأة لتصميم السلطان على الصمود إزاء المطالب الإنجليزية. وعاد دوكورث للدردنيل، وإبان ذلك أصيب بخسائر فى أسطوله وفى ٣ مارس عاود الإنجليز اقتحامهم للدردنيل ، ولكن الأتراك بمساعدة الفرنسيين أمكنهم إصلاح ما تلف، وأطلقوا على الإنجليز قذائف رخامية قطر القذيفة قدمان ... وعند خروج الأسطول الإنجليزى من المضيق كان معظم سفنه فى حاجة إلى إصلاح سريع ، كما كلف هذا الاقتحام الثانى الإنجليز خسائر أكثر من مائتين ما بين قتيل وجريح ..

انظر :-

M.A. Thiers, Op. Cit., P. 452.

(٦) وندهام إلى فوكس ٢١ نوفمبر ١٨٠٦ (W . O . 6 -56)

(٧) Ibid.

(٨) Lord Collingwood إلى William Marsden ١٥ يناير ١٨٠٧ (Admiralty 1 - 413)

وانظر كذلك

Lord Howick إلى Fox ٢١ نوفمبر ١٨٠٦ (W.O.-304)

(٩) فوكس إلى دوكورث - ٢ فبراير ١٨٠٧ (W.O.-30)

(١٠) فوكس إلى وندهام - ٦ فبراير ١٨٠٧ (W.O.-304)

(١١) دوكورث إلى فوكس -٩ فبراير ١٨٠٧ (F.O.I-303)

(١٢) فريزر إلى فوكس - ٢ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-303)

(١٣) فوكس إلى وندهام - ٦ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-304)

(١٤) فوكس إلى فريزر - ٢ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-303)

(١٥) Langer, W., An Encyclopedia of World History, 1962. p.642

(١٦) دوكورث إلى فوكس - ٧ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-304)

(١٧) فوكس إلى وندهام - ٦ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-304)

(١٨) فوكس إلى فريزر -٢٧ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-304)

(كان فوكس قد خول فريزر السلطة لتجنيد رجال من أية جنسية للمهمة المكلف بها ، نظير المنحة المعتادة وقدرها خمسة جنيهات) .

انظر :-فوكس إلى فريزر - ٢٧ فبراير١٨٠٧ (W.O.I-303)

(١٩) فوكس إلى وندهام - ٦ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-304)

(٢٠) فوكس إلى وندهام - ٤ فبراير ١٨٠٧ (F.O.I-304)

(٢١) فريزر إلى وندهام - ٢٥مارس ١٨٠٧ (W.O.-308)

(٢٢) عبد الرحمن الرافعي - مرجع سابق ، ص ٣٧ .

(٢٣) كانت سفينة من طراز يسمى Sloop ، وهى سفينة ذات صار واحد وقلع واحد خفيفة وسريعة تستخدم فى الحراسة والمهمات الخاصة .

انظر:-

The Concise Oxford Dictionary, p. 1182.

(٢٤) ميسيت إلى وندهام ، ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-348)

(٢٥) فوكس إلى فريزر ، ٢ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-303)

(٢٦) ميسيت إلى وندهام ، ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-348)

(٢٧) ميسيت إلى وندهام ، ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-348)

(٢٨) أى حاكم الإسكندرية (أمين أغا) كما يشير إليه الجبرتى ، أو «محافظ» المدينة كما يسميه الرافعى .

(٢٩) ميسيت إلى وندهام ، ٢١ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-348)

(٣٠) هالويل إلى دوكورث ، ٢٤ مارس ١٨٠٧ (Ad., 1-413)

(٣١) Ibid.

(٣٢) فريزر إلى وندهام ، ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-348)

نلاحظ أنه يبدو أن فريزر لم يكن على وفاق مع دوكورث ، فهو يقول عنه أنه

« Much against my inclinations»

(٣٣) نفس المصدر السابق .

(٣٤) نفس المصدر السابق .

(٣٥) بيان فريزر إلى أهالى الإسكندرية فى ١٦ مارس ١٨٠٧ .

انظر :- Douin, Op. Cit., p. 22

(٣٦) فوكس إلى فريزر ، ٢ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-303)

(٣٧) كانت تعليمات وزير الحرب إلى فريزر أن يحمى سكان الإسكندرية وأملاكهم وذلك لدى نزوله إلى الإسكندرية ، نفس المصدر السابق .

(٣٨) بيان فريزر إلى أهالى الإسكندرية فى ١٦ مارس ١٨٠٧ .

انظر :- Douin, Op. Cit., p.22

(٣٩) فريزر إلى وندهام - ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-308)

(٤٠) فوكس إلى فريزر ، ٢ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1-343)

(٤١) هالويل إلى دوكورث ، ٢٤ مارس ١٨٠٧ (Ad, 1-413)

(٤٢) عبد الرحمن الرافعى ، مرجع سابق، ص ٣٧ .

(٤٣) نلاحظ هنا الاهتمام بالرأى العام حينئذ ، كقوة لها أهميتها بالنسبة للصراع بين القوى .

(٤٤) ميست إلى وندهام ٢٦ يناير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٤٥) ميسيت إلى وندهام ٦ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٤٦) ميسيت إلى ١٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٤٧) ميسيت إلى وندهام ٦ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٤٨) كان بالإسكندرية حينئذ ميناءان : الشرقى وكان يسمى ميناء الإفرنج جاء هذا الوصف فى مكاتبة من محمد على إلى «خازنه» بخصوص مصب «ترعة الإسكندرية الذى ينبغى أن يكون فى البحر المالح من جنب ميناء الإفرنج» (انظر : عمر طوسون ، تاريخ خليج الإسكندرية .

ص٩٩.) ومنذ عهد المماليك كان لا يباح للسفن الأوروبية، التجارية والحربية، الدخول إلا فى هذا الميناء . أما الغربى ،فكان مفتوحا للسفن الإسلامية فقط. وقد سمح محمد على - فيما بعد-للسفن الأوروبية، التجارية منها والحربية ، بالرسو فى الميناء الغربى، كما وسعه وعمقه وأنشأ به الأرصفة الجديدة.

(٤٩) ميسيت إلى وندهام ، ٢٦ يناير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

نلاحظ هنا أن ميسيت يصف هذه الاستعدادات بأن حاكم الإسكندرية قد أجبر على القيام بها ، ربما إشارة إلى نوعية العلاقة بين الحاكم والباشا .

(٥٠) ميسيت إلى فوكس ، ٢١ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

وانظر أيضا :- ميسيت إلى وندهام ، ٢٦ يناير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٥١) ميسيت إلى فوكس ، ٢١ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٥٢) ميسيت إلى وندهام ، ٢٦ يناير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٥٣) ميسيت إلى فريزر ، ١٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٥٤) نفس المصدر السابق .

(٥٥) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٥٦) منطقة غربى الإسكندرية ما بين البحر وبحيرة مريوط .

(٥٧) هالويل إلى دوكورث ، ٢٤ مارس ١٨٠٧ (Ad. 1-413)

(٥٨) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٥٩) المصدر السابق .

(٦٠) كان يقع شمالى دمنهور على قناة الإسكندرية القديمة التى كانت تصل النيل بالقرب من الرحمانية بالإسكندرية

(٦١) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٦٢) المصدر السابق .

(٦٣) المصدر السابق

(٦٤) هالويل إلى دوكورث ، ٢٤ مارس ١٨٠٧ (Ad. 1 - 413)

(٦٥) ميسيت إلى وندهام ، ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٦٦) انظر نص الوثيقة باللغة الايطالية فى : (W.O. 1-348)

Douin, Op. Cit., pp. 23-24.

(٦٧) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار، جـ ٤ ، صفحات ٤٤- ٤٥ .

(٦٨) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٦٩) عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص ٣٩ .

ويذكر المؤلف ذلك بكل ثقة رغم أن كتاب Douin كان بين يدى المؤلف وبه وثائق هجوم يوم ١٨ مارس وخسائره ... (انظر نفس المرجع هامش صفحة ٤٠)

(٧٠) يكاد ما يذكره الجبرتى عن «مكاتبات وردت مع سعاة» يكون أمورا لا تبعد عن الواقع ، بعكس ما يذكره عن «الشائعات» فهذه غالبا ما تكون مغايرة للحقائق ..

(٧١) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر السابق ص ٤٤ .

(٧٢) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٧٣) مدافع قصيرة واسعة القطر .

(٧٤) المصدر السابق .

(٧٥) ميسيت إلى فوكس ٢١ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٧٦) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٧٧) فريزر إلى وندهام ٢٧ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٧٨) هذا وقت لم يكن فيه لكلمات «وطنية» أو «قومية» وجود أو معنى . محمد على - بعدئذ - هو أول من غرس مثل هذه المعانى - ولو من غير قصد - فى نفوس الشعب المصرى، وذلك بتكوينه لجيشه من المصريين ، وقيامه بالإصلاحات ، وإقامته لحكومة مستتبة مركزها القاهرة، وتعتمد فى مواقع منها على مصريين ...

(٧٩) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٨٠) ميسيت إلى وندهام ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٨١) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٨٢) ميسيت إلى وندهام ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

هنا أيضا يفسر ميسيت سلوك الأهالى كما لو كان يعتذر عن سلوكهم فى دفاعهم عن مدينتهم، فيقول أنهم طلبوا الاستسلام حينما تأكدوا أنه لا خوف عليهم من الأتراك (نفس المصدر).

(٨٣) نقلا عن مالجان فى كتابه تاريخ مصر فى حكم محمد على .

(٨٤) عبد الرحمن الرافعى ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٨٥) نفس المرجع السابق.

(٨٦) فوكس إلى فريزر ، ٢٨ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1- 303)

(٨٧) ميسيت إلى فريزر ١٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1- 348)

(٨٨) ميسيت إلى وندهام ١٤ فبراير (W.O. 1- 348)

(٨٩) هالويل إلى دوكورث ٢٤ مارس ١٨٠٧ (Ad., 1- 314)

(٩٠) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1- 348)

(٩١) ميسيت إلى وندهام ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1- 348)

(٩٢) سبق أن هاجم أمر الحملة من قبل تنفيذها عسكريون كبار فى بريطانيا انظر ما كتبه .
Lieutenant, General Sir John Moore

فى مذكراته اليومية فى ٥ فبراير ١٨٠٧ .

Douin , OP. Cit., P. LXV.

(٩٣) ميسيت إلى فريزر ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1- 348)

(٩٤) نلاحظ أن ذلك ما فعله الفرنسيون بثغور الجزائر لدى نزولهم إليها عام ١٨٣٠ ... وفد فطن محمد على إلى الخطر الحقيقى من وجود الإنجليز على سواحل مصر الشمالية ، فأسرع بتصفية مشاكله مع المماليك تاركا لهم الصعيد وانطلق إلى الوجه البحرى لمواجهة الخطر الأشد ...

(٩٥) فريزر إلى وندهام ٢٧ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1- 348)

(٩٦) فريزر إلى وندهام ٦ أبريل ١٨٠٧ (W.O. 1- 348)

(٩٧) ذلك يعتبره المماليك هزيمة ساحقة لمحمد على وقواته ، وبالغوا فى تصوير الموقف وخسائر محمد على فى رسائلهم إلى الإنجليز ، ووضعوا فى الاحتمال أمر هروب محمد على، وفكروا فى أسره بالتنسيق مع الإنجليز !!. انظر رسالة (إبراهيم بك شيخ البلد) إلى فريزر ، ٢٢ محرم ١٢٢٢هـ (أبريل ١٨٠٧م) W.O. 1- 348

(٩٨) اتفاقيات عقدت بين فرنسا والروسيا ، وفرنسا وبروسيا وبها سوت فرنسا مشاكلها مع الدولتين، وصار بونابرت متفرغا للقضاء على إنجلترا .

انظر :- W. Langer, Op. Cit., P. 642.

(٩٩) Castlereagh إلى Fox ٤ يونية ١٨٠٧ (W.O. 1- 304)

(١٠٠) Sir Arthur Paget إلى فريزر ٣٠ أغسطس ١٨٠٧ (W.O. 1- 348).

(١٠١) انظر

Terms Proposed by General Fraser for the evacuation of Alexandria (5 Sept. 1807) & Terms agreed upon for the evacuation of Alexandria (14 Sept. 1807). Douin, Op. Cit., pp. 163- 165 .

المصادر والمراجــع

أولا :- اعتمدنا فى هذا البحث على الوثائق البريطانية المنشورة فى الكتاب الذى أصدرته الجمعية الجغرافية الملكية (١٩٢٤) بإشراف

G.Douin et Mme E.C. Fawtier-Johnes

ومجموعات الوثائق المستخدمة هى كالآتى :

War Office (W.O.)

1-303, 1-304, 1-348- & 6-56

Admiralty (Ad.):

1-413, 1-314

Foreign Office (F.O.):

1-303, 1-348

ثانيا :- مصادر ومراجع عربية

- عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - ج ٤.

- عبد الرحمن الرافعى بك ، عصر محمد على ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٧.

ثالثا :- أعمال بلغات أجنبية

- G. Douin et Mme E.C. Fawtier - Johnes, L'Angleterre et L' Egypte, Le Camagne de 1807. Le Caire 1924.

Thiers, M. A., Histoire du Consulat de L'Empire T. 7éme. Paris 1847.

رابعا :- قواميس

-H.W. Fowler & F.G. Fowler, The Concise Oxford

Dictionary, 4 th. Ed. 1958 .

- Langer, W.L., An Encyclopedia of World History. London 1960.

- درويش النخيلي ، السفن الإسلامية على حروف المعجم . الطبعة الثانية - دار المعارف ١٩٧٩ .

الثورة العرابية والثورة المهدية
علاقة أم لا علاقة؟!

د. يونان لبيب رزق
أستاذ التاريخ الحديث
بكلية البنات - جامعة عين شمس

الثورة العرابية والثورة المهدية
علاقة أم لا علاقة!؟

كان من المنطقى أن يتوفر شكل وثيق من أشكال العلاقة بين كل من الثورة العرابية فى مصر، شمال الوادى، والثورة المهدية فى السودان جنوبه.

ففضلا عن العلاقة التقليدية القائمة بين شطري النيل منذ العصور القديمة والتي تحولت إلى تلاحم سياسي بعد خضوع البلدين لحكم واحد منذ عام ١٨٢٠، وتكوين هيئة نيابية واحدة فى مطلع الثمانينات(١)، تتأسس هذه المنطقية على أكثر من اعتبار:

١. هناك عنصر التزامن، ففي نفس عام تفجر الثورة العرابية -١٨٨١- يعلن محمد أحمد عن مهديته (١٥ مايو)، وبينما يشتعل أوار الثورة فى مصر كان ثوار الجنوب يتقدمون بخطى حثيثة فى طريق تحدي السلطة، ففي نفس شهر وقفة عابدين فى الشمال (سبتمبر) يتأكد فشل محمد باشا سعيد حكمدار عموم السودان فى القبض على المهدى ووقف حركته (٢٧ سبتمبر)، ويستمر إطراد عملية التحدي حتى تصل إلى منتهاها خلال العام التالي.

٢. وهناك عنصر الأعداء المشتركين مما يوفر للثورتين وحدة الهدف ..

كان التدخل الأوربى العدو رقم (١) الذي قامت الثورتان لمواجهته، صحيح أن هذا التدخل اتخذ فى كل من مصر والسودان أشكالا مختلفة غير أن الملامح الأساسية كانت واحدة..

فقد اتخذ هذا التدخل فى أسوأ أشكاله فى مصر التغلغل الأوربي فى الإدارة حتى انتهى الأمر لما انتهى إليه فى عام ١٨٧٨ من تشكيل وزارة مصرية يتولى وزيران أوربيان (إنجليزى وفرنسى) أهم الوزارات فيها.(٢)

وارتكب هذا التدخل فى أسوأ أشكاله فى السودان نفس الفعلة حين نجح الأوربيون فى الاستئثار بعدد من أهم مناصب حكام الأقاليم فى نفس العقد «السبعينات من القرن التاسع عشر». وكان منهم ألمان [٣]، ونمسويون[٤]، وإيطاليون[٥]، ناهيك عن الإنجليز الذين وصل أحدهم، وهو غوردون باشا، إلى منصب حاكم عام السودان.

كان الحاكم المصري من أسرة محمد علي، الخديوي توفيق، العدو المشترك رقم(٢) سواء بالنسبة للثوار المصريين أو بالنسبة للثوار السودانيين، وتتعدد مواقف قيادة الثورة العرابية العدائية من توفيق، وإن كانت قد وصلت إلى ذروتها بعد الاحتلال البريطاني للإسكندرية واحتماء الخديوي بالمحتل الأجنبي مما يبدو فى المنشور الذي حرره عرابي وبعث به إلى «شتى جهات مصر والسودان»، وكان مما جاء فيه:

«.. فالخديوي بدلا أن يرجع إلى مصر (يقصد القاهرة) ليكون خلف الجيش يتمم التجهيزات الحربية ويساعد على تقوية الجند وتعضيدهم قد التجأ إلى العدو وأخذ نساءه وأتباعه ونزل بهم فى مراكبه وجعل الإنجليز حكاما فى الثغر وأهان من فيه مسلمين وأقباطا ولم يراقب الله فى أمة ما جنت عليه ولا على أحد ذنبا».[٦]

نفس المشاعر والآراء أبداها زعماء الثورة المهدية فى الخديوي توفيق فيما نلاحظه خاصة من الرسائل التي بعث بها الخليفة عبد الله التعايشي إلى الحاكم المصري ينذره فيها بالويل والثبور لما درج عليه من الاستعانة بالكفار النصارى عن إخوانه فى الدين مذكرا إياه بالآية الكريمة ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾.[٧]

كان «الترك» هم العدو رقم (٣) للثورتين، وإن اختلفت رؤية زعماء كل منهما لهذا العدو فى جانب واتفقت فى جانب آخر..

الجانب الذى اختلف فيه الطرفان تمثل فى تباين نظرتهما إلى سلطان استنبول، فقد ظل عرابى ورفاقه ينظرون إلى الحاكم التركى على اعتباره خليفة المسلمين حتى

آخر وقت، بينما اتهمه الخليفة عبد الله فى رسالة كتبها إليه بالإعراض «عن إجابة داعي الله إلى هذا الآن ومقرا لرعيتك على محاربة حزب الله المؤمنين مع أهل الكفر والعدوان».(٨)

أما الجانب الذى اتفق فيه كل من زعماء الثورتين تمثل فى كراهيتهم للعنصر التركي بعد أن عانت منه شعوبهم الكثير خلال المرحلة التاريخية السابقة، فزعامة الثورة العرابية كرهت فى الأتراك مزاحمتهم للمصريين واستئثارهم بالمناصب الكبرى دونهم، حتى أن المطلب الأساسى لتحرك العسكريين المصريين كان فى بداية الأمر هو إقالة عثمان باشا رفقي الچركسى من نظارة الحربية لتفضيله لأبناء جلدته عن «أولاد البلد». كما كرهت زعامة الثورة المهدية العنصر التركي فى الحكم حتى أنهم رأوا فى كل المظالم التي دفعت بهم إلى الثورة «مظالم تركية»، ولم يذكروا بالسوء إخوانهم المصريين الذين وصفوهم بأنهم «أهالى الجهات البحرية»!

٣. ويبقى عنصر «الهوية الإسلامية» التي ميزت الثورتين، والطابع الدينى للثورة المهدية من الأمور التي لا خلاف عليها، فزعيم الثورة رجل دين، والدعوة قامت أساسا على تحرير «بلاد الإسلام» من الغزوة الأوربية، أو على حد تعبير زعماء الثورة من «النصارى الكفار».

نفس الطابع حملته الثورة العرابية، وليس أدل على ذلك من قولة مفكرها السيد عبد الله النديم «إن طوابي الإسكندرية إذا أطلقت مدافعها يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب، ومدافع الأستانة إذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر».(٩)، وقد عبر بهذا عن روح التضامن الإسلامى فى مواجهة التهديد الأوربى، على اعتبار أن قبرص كانت وقتذاك مريضا من مرابض الاستعمار البريطانى.

* * *

بالرغم من ذلك لا يكاد الباحث يجد ما يمكن تسميته بالعلاقات العرابية-المهدية.

فالكتاب الذين تصدوا للكتابة فى هذا الموضوع أخذت الحيرة بتلابيبهم، حتى أن أحدهم وضع عنوانا بهذا المعنى فى كتاب له (١٠)، ومن بين عديد من الصفحات جاءت تحت هذا العنوان لم يأت إلا بفقرة واحدة عن تلك العلاقات واعتذر بأن مراجعه الأوربية لم تسعفه فى العثور على المزيد. وهذا باحث آخر وضع كتابا جاء فى عنوانه أنه «دراسة مقارنة فى الأصول التاريخية للثورتين العرابية والمهدية واتجاهات الفكر الثوري فى عهدهما» (١١)، غير أنه مع تقليب صفحات هذا الكتاب نجد أن الدراسة قد انصبت بالأساس على كل ثورة من الثورتين على حدة، حتى أن بابا بأكمله لم يتعرض سوى للثورة العرابية (١٢)، وآخر لم يتعرض سوى للثورة المهدية (١٣) بينما جاء الباب الأخير تحقيقا لكتاب «نصيحة العوام».

الأهم من ذلك وثائق الثورتين التي تم تجميعها وترتيبها خلال السنوات الأخيرة، سواء تلك الموجودة فى دار الوثائق المركزية بالخرطوم والمتعلقة بالوثائق المهدية، أو فى دار الوثائق القومية فى القاهرة والخاصة بالثورة العرابية.

بالنسبة لوثائق الخرطوم فهناك منشورات المهدى (١٤) وبعض مراسلاته، كذا مراسلات الخليفة عبد الله التعايشي، ولا نكاد نجد فى أى منها ذكرا للثورة العرابية أو رسالة موجهة لواحد من زعمائها.. المرة الوحيدة التي وردت فيها إشارة عن العرابيين جاءت فى رسالة الخليفة عبد الله إلى الملكة فيكتوريا، ملكة بريطانيا، حين كتب يقول:

«وإن كنت تظنين توهما أن جيوش المهدية القائمة بتأييد السنة المحمدية مثل عساكر أحمدباشا عرابي الذين أدخلت الغش عليهم بالدنيا حتى افتتنوا بها عن دينهم وتخذلوا عن نصرته ومكنوك من الاستحصال على البر المصرى وصاروا أذلة أسرى لا يستطيعون المدافعة عن أنفسهم فهذا توهم فاسد وغرور كاسد فإن رجال المهدية رجال إلهيون طبعهم الله على حب الموت وجعله أشهى لهم من الماء البارد للظمآن». (١٥)

نفس الظاهرة فرضت نفسها على وثائق القاهرة، حيث انصبت محافظ الثورة العرابية الأربعين على محاكمات رجال الثورة وعلى تقارير عن حادثة ضرب الإسكندرية، وكذا اجتماعات العرابيين.

وتتطلب هذه الظاهرة التي لا تتسق مع منطق الأحداث محاولة للتفسير، وبالإمكان أن نقدم أكثر من سبب لوجودها ..

* أول هذه الأسباب: متصل بعنصر التواكب الزمني، فبالرغم من توافر هذا العنصر كما سبقت الإشارة إلا أننا نلاحظ أنه بينما كانت الثورة فى الشمال تواجه مرحلة السقوط من عمرها القصير، كانت الثورة فى الجنوب تستقبل مرحلة الصعود من عمرها الطويل نسبيا، وقد انشغلت الأولى عن شقيقتها فى الجنوب بالمخاطر التي أخذت تواجهها، وتشاغلت الثانية عما يجرى فى مصر فهي لم تكن ترغب قطعا أن يضاف رصيد الفشل للثورة العرابية إلى حسابها، ولعل ما جاء فى خطاب التعايشي إلى الملكة فيكتوريا، مما سبقت الإشارة إليه، يعبر عن تلك الحقيقة أصدق تعبير.

* السبب الثانى: يتصل بالتعقيدات الداخلية والخارجية التي واجهها الثوار العرابيون، وهو ما لم يواجهه ثوار الجنوب، مما دعا قيادة الثورة الأولى أن تتخذ من المواقف ما كان لا يمكن أن ترضى... مثل على ذلك أنه لم يكن بإمكان عرابي وزملائه مناصبة الدولة العلية العداء، فى نفس الوقت الذى يعملون خلاله على مواجهة النفوذ الأوربي الذى كان قد استفحل أمره فى البلاد، وهو موقف لم يكن ليُرضي بالقطع زعامة الثورة المهدية التى وضعت سلطان استنبول فى نفس الصف مع أعداء الثورة من الأوربيين.

مثل آخر أنه كان بإمكان الثورة المهدية أن تخلع ولاءها للخديوى -المقيم بالقاهرة- منذ الأيام الأولى لقيامها، وهو الأمر الذى لم يستطع العرابيون الإقدام عليه إلا بعد ضرب الإسكندرية، وبعد أن تأكد لجموع المصريين انحياز توفيق للغزاة الأجانب.

*السبب الثالث: يتعلق بطبيعة تركيب المجتمعين المصرى والسوداني مما كان يصعب معه أن تستخدم كل ثورة الوسائط التى استخدمتها الثورة الأخرى، وبالتالي فإن كلا منهما كان يتحدث لغة مختلفة.

فى السودان حيث المجتمع القبلي، وحيث الإسلام باعتباره الدين السماوى الوحيد،وحيث ضعف التأثيرات الغربية مما أدى إلى ندرة وجود جماعات مؤثرة مثل جماعات المثقفين ثقافة عصرية أو مثل جماعات كبار الملاك .. فى مثل هذه الظروف كانت الثورة فى الجنوب ثورة دينية بالأساس، هذا من جانب، ثم إنها فى سعيها لفرض سلطتها قد قامت إما بجذب القبائل التى قبلت بها أو محاربة القبائل الأخرى التى أبت الاستجابة لها، من جانب آخر، الأهم من ذلك فى مجال العلاقة بين الثورتين أن العدو الرئيسي الذى حاربه الأنصار كانت الدولة والقوة العسكرية التى تمثلها مجسدة فى الجيش المصري.

اختلف الأمر فى مصر: فمن ناحية كانت القوة التى حاربها المهديون فى الجنوب هي التى قادت الثورة فى الشمال، تمثلت تلك القوة فى شريحة المثقفين العسكريين من ضباط الجيش المصرى التى قادت العمل الثورى والتى كان عرابي باشا على رأسها. من ناحية ثانية لم تكن الثورة المصرية تستطيع أن تأخذ هذا الطابع الديني القح الذى اتخذته الثورة المهدية، سواء بسبب وجود أقلية مسيحية كبيرة من المصريين أنفسهم مما يمكن أن يترتب عليه لو سارت على نفس النهج أضرار كبيرة بالوحدة الوطنية، أو بسبب وجود جاليات أجنبية قوية كانت حكوماتها ستبادر إلى الصدام مع الثورة إذا تعرضت لأى اضطهاد ديني. من ناحية ثالثة وأخيرة اختلفت الوسائط التى ارتأها زعماء كل ثورة لتحقيق أهدافها .. ففي مصر التى اتصلت طوال القرن التاسع عشر بالفكر السياسى الأوربى سعى الثوار إلى إنشاء مجلس نيابي على اعتبار أن الحياة الدستورية هي الطريق إلى حكم الأمة، وهذا الشكل من الفكر لم تكن له جذور أو فروع فى التربة السودانية، بالعكس فقد أقامت الثورة المهدية دولة من أشد الدول أوتوقراطية فى ذلك العصر.

* * *

لا يعني ذلك أن كل قنوات الاتصال قد تقطعت بين الثورة العرابية والثورة المهدية، فقد تعددت هذه القنوات التى يمكن تصنيفها تبعا لاتساعها، فنبدأ بأكثرها ضيقا لنصل إلى أكثرها اتساعا..

العلاقة بين الثورتين قبل الاحتلال البريطاني لمصر:

مثلت العلاقات فى تلك المرحلة أضيق القنوات اتصالا بين الثورتين، وبعد استعراض بعض الجوانب القليلة التى تم العثور عليها من تلك العلاقة نحاول تفسير أسباب ذلك الضيق ..

جانب منها تمثل فيما ذكره بعض المعاصرين الأجانب ونقله الباحثون المصريون عنهم وجاء فيه أن زعيم الثورة المصرية «أحمد عرابي» كان ينوى لو استقرت له الأمور فى مصر أن يعين المهدى حاكما عاما على السودان. (١٦)

تمثل الجانب الثانى فى محاولة الزعامة العرابية استمالة أهالي السودان بمن فيهم الثوار المهديين بالطبع بعد ضرب الإسكندرية، وبعد أن أحدقت بهم قوات الاحتلال البريطانى المتحالفة مع الخديوى توفيق.

وتحفظ لنا الوثائق المصرية بعضا من هذه المحاولة، فقد تضمنت مذكرات مصطفى ياور حاكم دنقله إبان الثورة المهدية خطابا بعث به إليه وكيل «نظارة وحكمدارية السودان» مرفقا به منشور عرابي الذى يدين فيه الخديوي.

كان مما جاء فى المنشور اتهام توفيق بأنه «ما يريد بذلك إلا تسليم البلاد إلى الإنكليز من غير حرب»، وبوجوب «القتال علينا دفاعا عن البلاد والدين والأعراض»، ثم ينتهي بتنبيه كل فرد من أفراد الأمة ليكون على بينة «من دسائس الخديوى وخدامه».(١٧)

ما جاء فى الخطاب كان الأهم، فقد طالب وكيل نظارة وحكمدارية السودان، بتعليمات من ناظر الجهادية والبحرية -أحمد عرابى- شتى حكام المديريات فى

السودان «بإعلانها لمن يلزم، وحيث فى تاريخه صار النشر لكافة جهات السودان عن ذلك فهذا بالجملة لحضرتكم لمعلوميته وإعلانه للجهات التابعة لذاك الطرف لاتباع الإجراء بمقتضاه». (١٨)

ويمكن رصد أكثر من ملاحظة وراء هاتين المحاولتين:

١- أن عملية الاتصال قد تمت بمبادرة من الجانب المصري، وليس هناك ما يفيد بأى رد فعل من الجانب السوداني، فواضح أن عَرض منصب الحاكم العام للسودان على المهدى لم يتحول من مرحلة النوايا من جانب الزعيم المصرى إلى عمل محدد، ذلك أن الأحداث لم تمهل عرابي لوضع تلك النوايا موضع التنفيذ.

وكان رد الفعل بالنسبة للمحاولة الثانية سلبيا أيضا، وإن كان لا يمكن إلقاء التبعة فى ذلك على عرابي هذه المرة، فقد كان خطأ القناة التى اختارها لتوصيل منشوره الثورى إلى «أهالي السودان»، وبالتالي زعامة الثورة المهدية.. ذلك أنه أسند هذه العملية إلى مديرى المديريات السودانية، وقد كان هؤلاء غير مؤهلين للقيام بهذه المهمة سواء بحكم عداء الأنصار لهم مما كان لا يسمح لهم بتلقي مثل هذا المنشور منهم، أو لأن أغلب هؤلاء انتموا للطبقة التركية الحاكمة التى كان الخديوى على رأسها، ولم يكن من المعقول مع مثل هذا الوضع أن يعمدوا إلى ترويج مثل هذه المنشورات التى تسعى إلى توحيد ثوار الجانبين ضد هذه الطبقة أو رأسها.

٢- لم يتفهم الذين قاموا بهذه العملية طبيعة الثورة المهدية بقدر كاف، فهم فى المحاولة الأولى تحركوا من موقعين، وكان كلاهما الموقع الخطأ..

(الموقع الأول) هو موقع الحكام الراغبين فى إرضاء جانب من الشعوب الخاضعة لهم بتنصيب أحد أبنائها حاكما عليها، وهم بهذا لم يكونوا شركاء ثورة بقدر ما كانوا ممثلي سلطة.

(الموقع الثاني) اعتبار ثوار السودان طلاب حكم، ولم يكونوا كذلك، فقد كان محمد أحمد داعية من الدعاة الدينيين شديدى المراس، وكان يسعى إلى التغيير لا الحصول على منصب، وهو بالتالي لم يكن رجل سياسة بقدر ما كان زعيم ثورة.

وهم فى المحاولة الثانية، وإن كانت محاولة صحيحة من ناحية دعوة السودانيين للاشتراك فى ثورتهم غير أنه أعوزها أيضا نفس الفهم الصحيح، ذلك أن المنطلقات التى تحرك منها المنشور العرابي للثوار السودانيين لم تتفق فى كل نواحيها مع منطلقات ثورتهم، وبالتالي لم يكن متوقعا أن يشاركوا فيها، على افتراض أن الدعوة قد وصلتهم بالفعل.

مثل على ذلك الحرص الذى أبداه عرابي فى منشوره على أن الدولة العثمانية هي مصدر المشروعية، حين ذكر بأن الخديوى «احتمى بالإنكليز بدلا من أن يرجع لدولتنا العلية التى قلدته هذه الإمارة الجليلة» [١٩] مثل هذا الحرص لم يكن ليرضي زعماء المهدية الذين رفضوا أساسا أن يدينوا بالطاعة للسلطان التركي، ويحفل الخطاب الذى أرسله الخليفة عبد الله إلى السلطان عبد الحميد بعبارات الرفض، فيقول فى جانب منه: «(تدعي) أنك سلطان الإسلام القائم بتأييد سنة خير الأنام»، ويقول فى جانب آخر «(تزعم) أنك ولي المسلمين الذاب عن حرم الدين ..الخ..» [٢٠] مما يؤكد اختلاف المنطلق فى هذه النقطة على الأقل.

والحقيقة أن الظروف لم تكن لتساعد على استكمال مثل هذه المحاولة، فمن ناحية لا يمكن الإدعاء أن زعماء الثورة العرابية تمكنوا من التعرف على المعالم الأساسية لفكر الثورة المهدية حتى يمكنهم فى نهاية الأمر اتخاذ موقف منه بالرفض أو بالموافقة، أو حتى بمحاولة التوفيق، ومن ناحية أخرى فإن الأحداث لم تمهلهم للمحاولة، فقد انشغلوا بعد الاحتلال البريطاني للإسكندرية بمحاولة دفعه عن البلاد، وهو ما فشلوا فيه.

بيد أنه بالرغم من هذا الفشل لم تنقطع محاولة عقد اتصال بين الثورتين، وإن كانت تلك المحاولات قد تمت على مستويين..الأول:علاقة بين زعماء العرابيين فى المنفى وثورة السودان، والثانى: علاقة بين مفكرى العرابيين الذين تم نفيهم إلى السودان وبين فكر المهدية.

عرابيو المنفى والثورة المهدية:

بعد دخول الإنجليز القاهرة وإجراء المحاكمات لقادة الثورة العرابية انفرط عقد هؤلاء القادة وخرج جانب هام منهم إلى المنفى وإن كانت قد اختلفت مناطق النفي من مجموعة إلى أخرى..

المجموعة الأولى والأهم، فيما يتصل بالعلاقات العرابية-المهدية، هي المجموعة التى تم نفيها إلى السودان مما يدعونا إلى أن نفرد لها القسم الأخير من هذه الدراسة.

المجموعة الثانية: تتمثل فى زعماء الثورة العسكريين الذين قامت سلطات الاحتلال بنفيهم خارج البلاد، وبالذات الزعيم أحمد عرابي الذى نفي إلى سيلان.

أما المجموعة الثالثة فتتكون من أولئك الذى اختاروا النفي بإرادتهم، والتى يمثلها أصدق تمثيل الشيخ محمد عبده فى منفاه فى باريس، حيث التقى مع جمال الدين الأفغاني ليصدرا مجلة «العروة الوثقى» من العاصمة الفرنسية.

* * *

فيما يتصل بمجموعة سيلان يروى لنا المستر ولفرد سكاون بلنت Blunt وصاحب العلاقات الوثيقة مع أحمد عرابى قصة عن محاولة من الأخير للاتصال بالمهدى فى مجموعة مراسلات تمت بينه وبين الزعيم المصرى، ثم بين هذا الأخير وبين اللادى آن بلنت.

تبدأ المحاولة بالرسالة التى بعث بها بلنت إلى عرابي فى ٢٦ إبريل عام ١٨٨٤ يتحدث فيها عن متاعب بريطانيا فى مصر، وعن استفحال الثورة فى السودان، وعن نيتها فى الانسحاب فى أقرب وقت، ويعرج من هذا إلى الإشارة إلى أن المسئولين قد اقترحوا عليه الذهاب فى بعثة إلى المهدى ليعقد معه اتفاقية سلام، وإنقاذ حياة غوردن الواقع تحت حصار الأنصار فى الخرطوم، ويسأله رأيه فى إمكانية تنفيذ الاقتراح المطروح. (٢١)

ويصل رد عرابى فى ٢ يونيو من نفس العام، وقد جاء فيه ..

«إذا ما اعتزمتم الذهاب إلى المهدى فإني أتوسل إليكم بكل ما أملك أن تحملوا معكم بعض الرسائل الممهورة بختمي حتى يمكنكم أن تستخدموها كبرهان على أنكم الصديق الوفى للعالم الإسلامي، وأنكم سعيتم لإنقاذ حياتنا».(٢٢)

ويتضح من رسالة الزعيم المصرى أمران؛ أولهما: إيمان عرابي بفكرة تلاحم الثورتين حتى أنه تصور أن سبيل الأمان الأساسي لصديقه بلنت سوف يتوفر إذا ما حمل هذا الأخير خطابات تحمل خاتمه. ثانيهما: ما سعى إلى إبرازه باعتبار أن ما قدمه بلنت له وللثورة التى قادها إنما هو خدمة للإسلام، ولا شك أن الزعيم المصرى كان مصيبا فى هذا التصور، وكان بالفعل يمكن لو قدر لبلنت أن يقوم بمهمته أن يكون لمثل هذه الشهادة قيمتها عند المهديين.

غير أن أهم المراسلات كانت تلك التى بعث بها عرابي باشا إلى اللادى آن بلنت والمؤرخة فى ٢ مارس عام ١٨٨٥ أى بعد سقوط الخرطوم، وقد جاءت هذه الرسالة تعليقا على سلسلة من المقالات كتبها المستر بلنت فى التايمز قال فيها أنه يخشى من أفول نجم إنجلترا نتيجة لسوء أعمالها فى كل من مصر والسودان، وقال عرابي فى رسالته..

«ماذا كسبت إنجلترا بغزوها لمصر؟ وماذا فى السودان؟ دعونا نتحدث عن خسارتها لأن الله يعلم أنها لم تربح شيئا. لقد خسرت اسمها الطيب وخسرت صداقة

كل المسلمين وصداقة مولانا السلطان . خسرت أيضا غوردن باشا الذى امتثل لنصائح السوء، كما خسرت هيكس وإيرل وعديدا من الضباط الآخرين. أضف إلى ذلك أنها خسرت الاحترام نتيجة لهذه الحرب التى تشنها «على الرجال الأحرار فى السودان».

«متى ستتوقف إنجلترا عن المضي فى هذا الطريق؟ .. متى ستتوقف عن إرسال أسلحة الدمار ضد رجال ينتقمون لإخوانهم المصريين، ضد رجال يدافعون عن بلادهم وعلى استعداد لشرب كأس المنون ولا يرون أعداءهم يعيشون داخل بلادهم».

«دعنى أخبرك أن ١٥ مليونا من هؤلاء يسيطرون الآن على بلاد السودان ودارفور، وجميعهم من أتباع المهدي، وقد عاهدوه على الموت دفاعا عن القرآن المجيد. ويزداد المهدى قوة كلما زاد العدوان الإنجليزي، وهذا شأن الله فى خلقه، خاصة مع أولئك الذين يرون ويفكرون ويفهمون». (٢٣)

وتبدو أهمية هذه الرسالة فى أنها تمثل أول رأى صريح وواضح من جانب زعيم الثورة العرابية فى علاقة ثورته بالثورة المهدية، حتى أنه رأى أن صدام الأنصار مع الإنجليز هو بمثابة الانتقام لما أصاب الثورة المصرية على أيدى الأخيرين، ثم أنها تضمنت فى نفس الوقت رأيا صريحا وواضحا فى رجال الثورة السودانية الأحرار المستعدين للدفاع عن بلادهم وعن الإسلام حتى الموت.

غير أنه ينبغي قبل التوقف عن قراءة هذه المراسلات التنبيه إلى حقيقتين؛ أولاهما: أن قيمتها تقتصر على التعرف على رأى زعيم الثورة المصرية فى الثورة السودانية، ذلك أن تطور الأحداث لم يمهل المستر بلنت للقيام برحلة الوساطة وتسليم رسائل عرابي للمهدي. وثانيتهما: أن هذا الرأى قد صدر وعرابي فى المنفى، ولا نعلم ماذا كان رأيه لو كان لازال فى موضع المسئولية كما كان الحال قبل هزيمة التل الكبير!؟.

* * *

فيما يتعلق بمجموعة باريس بالإمكان التعرف على موقفها من خلال تقليب صفحات مجلة العروة الوثقى.

جاء فى العدد الأول من المجلة الإسلامية الشهيرة الصادر فى ١٣ مارس عام ١٨٨٤، وتحت عنوان «سياسة إنكلترا فى الشرق» وصفا للمهدي، كان من بين ما تضمنه:

«يقرب إلى الظن أن نفثاته مازجت أفئدة العرب فى فيافى طرابلس (تقصد السنوسيين) أو قاربت، وأن هذه النيران التى يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على امتهانه لا تلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب وفيها يصعد عويل الدين ونحيبه إلى عنان السماء وعند ذلك يمسى باب الهند بين ألسنة النيران من ثلاث جهات». (٢٤)

وجاء فى افتتاحية العدد الرابع وتحت عنوان «انتصار السودانيين على الجيوش الإنكليزية» ما نصه:

«الاعتقاد بمحمد أحمد أخذ سبيلا لقلوب الهنديين حتى كتب إلينا أحد أصدقائنا فى لاهور: أن محمد أحمد لو كان دجالا لأوجبت علينا الضرورة أن نعتقده مهديا»!. (٢٥)

وتضمن العدد العاشر ما نصه: «جاء الخبر أن أهالي جرجا فى هياج شديد يشبه أن يكون ثورة وورد إلى تلك المدينة رجل من أتباع محمد أحمد قادما من القاهرة ودعا الأهالي إلى الأخذ بطريقته، فإذا بينهم جمع غفير يجيب داعيه وهو ما يدل على أن القائم السوداني مهتم بنشر دعوته محتاط لنفسه حاذق فى عمله وله دعاة فى أرجاء الديار المصرية حتى عاصمتها» (٢٦).

يتضح من هذه المقتطفات اتفاق نظرة المجموعة العرابية فى باريس مع نظرة مجموعة سيلان للثورة المهدية، وإن كانت مجموعة الشيخ محمد عبده قد استمتعت

بقدر من الحرية فى التعبير عن موقفها ونشره فى العالم الإسلامي، وهو ما لم يكن متاحا لمجموعة سيلان.

ولاشك أن هذا النشر قد أزعج السلطات البريطانية حتى أننا عثرنا على خطاب أرسله المستر بلنت إلى الشيخ محمد عبده يرجوه فيه عدم المبالغة فى أخبار المهدى لما يمكن أن يكون لمثل هذه المبالغة من آثار وخيمة. (٢٧)

غير أن المسألة لم تقتصر على حرية النشر من مجموعة باريس بل كان هناك ما هو أهم فيما يرويه لنا الشيخ رشيد رضا الذى يشير إلى خطة أعدها كل من الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده للذهاب خفية إلى السودان وتنظيم قوة محمد أحمد «توسلا إلى إنقاذ مصر بها وتأسيس دولة قوية يعتز بها الإسلام والشرق». (٢٨)

ويؤكد تلميذ الإمام محمد عبده أنه لما ترك أوروبا ودخل مصر متخفيا كان من أهم أهدافه التمهيد فيها للذهاب إلى السودان على أن يتبعه السيد جمال الدين إذا نجح فى سعيه هذا. (٢٩)

والواضح أن الشيخ محمد عبده لم ينجح فى مسعاه إذ المعروف أنه قد ذهب إلى سوريا وبقي فيها حتى صدر العفو عنه، وعاد إلى مصر ليقوم بعمله الإصلاحي الذى اشتهر به بعيدا عن ماضيه الثورى!.

العرابيون فى السودان والثورة المهدية:

بعد المحاكمات التى جرت للثوار المصريين فى أعقاب الاحتلال البريطاني للبلاد تقرر نفي مجموعة منهم إلى السودان، وكان من الأمور الطبيعية فى ذلك العصر نفي المذنبين من رجال الحكومة إلى المدن السودانية، ناهيك عن رجال ثورة قامت ضد الخديوي.

وقد اختلفت الظروف بالنسبة لهذه المجموعة عن غيرهم ممن كانوا ينفون إلى السودان فى مناسبات سابقة، كذا عن زملائهم من رجال الثورة المصرية الذين تم

نفيهم إلى بلاد أخرى .. فهم قد اختلفوا عن زملائهم فى أنهم ذهبوا إلى أرض تموج بأسباب الثورة، ومن هنا توفرت المناسبة الوحيدة لالتقاء الثورتين.

تم هذا الالتقاء من خلال شخصية عرابية لم تكتسب شهرة كبيرة غير أنها كانت فى مجال العلاقات بين الثورتين ذات وزن كبير. هذه الشخصية هي «أحمد العوام»، ويشير من أرخوا لبعض رجالات الثورة أنه كان من بين تلك المجموعة من الرجال التى أخذت على عاتقها شحذ الروح الثورية فى صفوف المصريين، جنبا إلى جنب مع خطيب الثورة الأشهر عبد الله النديم.[٣٠]

ويروى نعوم شقير رجل المخابرات فى حملة استعادة السودان القصة الكاملة لأحمد العوام، ولا بأس أن نسمعها منه .. يقول:

«كان فى الخرطوم رجل من خطباء الثورة العرابية يقال له أحمد العوام، وهو مصرى الجنس نُفي إلى الخرطوم بسبب الثورة العرابية فرأى الثورة المهدية فى وجهه فتشيع لها، وقد أطلعت على رسالة له بتاريخ ١٧ رمضان عام ١٣٠١ (١١ يوليو ١٨٨٤) سماها نصيحة أحمد العوام فإذا هى ثورية محضة، وقد أعلن فيها تشيعه للثورة المهدية وكرهه للحكومة الخديوية..

وقد أثرت أقواله تأثيرا سيئا فى نفوس أهل الخرطوم فسجنه غوردن وكبله بالحديد حتى رأى منه انكسار النفس ووعد أنه لا يعود إلى ما كان عليه فعفا عنه وجعله معاونا فى الحكمدارية براتب ١٥٠٠ قرش فى الشهر، ولكن ما لبث أن عاد إلى سابق عهده من انتقاد أعمال الحكومة وتهييج أهل البلاد ضدها. ولما جاء خبر زحف المهدى على الخرطوم وأعلن غوردن خبر قدوم الجيش الإنجليزى جاهر فى تكذيب غوردن وتصديق المهدي، ولم يقتصر على ذلك بل أغرى إحدى النساء فرمت جمرة من شباك على معمل الفشكيلك بقصد إحراق الجبخانة كلها فسقطت الجمرة على بعض الأوراق فأحرقتها فشعر بها الديدبان فأطفأها واعترفت المرأة أن أحمد العوام هو الذى أغراها بذلك فأمر غوردن بقتله فقتله فى سراى الشرق». [٣١]

ويعود شقير ليسجل فى موقع آخر أن «من بين ما وجدناه فى بيت المال مطبعة الحجر التى غنموها من الخرطوم، وأهم ما طبع فيها غير منشورات المهدى ورواتبه رسالة حسن سعد العبادى ورسالة العوام ورسالة الشيخ الحسين إبراهيم ولد الزهراء والجزء الثاني من فتوح الشام وبعض كتابات الخليفة». (٣٢)

نخرج من هذه الرواية بحقيقتين:

١- أن أحمد العوام باعتباره العنصر العرابي المتواجد فى الخرطوم قد وجد المناخ المناسب لممارسة ثوريته، وكان من الطبيعي أن يتخذ موقفا، وهو ما فعله فيما رواه لنا نعوم شقير.

ويلاحظ أنه كان لهذا الموقف جانبان؛ أحدهما عملي بما حاوله الرجل من الإعلان عن مناصرة المهدية داخل المدينة المحاصرة مما تمثل فى أنه قد انتهز فرصة احتفال ليلة النصف من شعبان فى دار الحكومة فى العاصمة السودانية حيث كان حاضرا «رئيس علماء السودان وغيره من القضاة والمفتين فجادلهم على يد ومسمع من وكيلها النصراني رجاء أن يسعوا فى إيجاد الصلح بين الطائفتين المتحاربتين» (٣٣) ، وهو قد حرض على تدمير مخازن ذخيرة الحكومة مما كلفه حياته، كما سبقت الإشارة.

وكان الجانب الثاني نظريا تمثل فى الرسالة التى ألفها تحت عنوان «نصيحة العوام للخاص والعام من أهل الإيمان والإسلام». وإذا كان الجانب الأول قد انتهى بنهاية حياة الرجل، فإن الجانب الثاني قد بقي بعده بامتداد الثورة المهدية حتى القضاء عليها عام ١٨٩٨.

٢- حظي ما جاء فى رسالة العوام باهتمام زعماء المهدية، سواء محمد أحمد نفسه أو خليفته عبد الله التعايشي. يسجل ذلك أحد رجال المهدية فيقول أن النصيحة «تليت لدى مسامع مهدى الله وابتهج لصحة مقولها الكائن لوجه الله ودعا له عقب السماع بالزلفى لدى الله وما ذاك إلا لخير به أراده الله، وقررت بمجالس خليفته الأكبر الأفخر فى الهداية السيد المستند عبد الله». (٣٤)

وتتأكد هذه الشهادة مما سبقت الإشارة إليه من رواية شقير أن رسالة العوام كانت ضمن عدد قليل من المطبوعات التى قامت المطبعة الحجرية فى الخرطوم بطباعتها على عهد المهدية.

* * *

على ضوء ما سبق تستحق «نصيحة العوام» الدراسة باعتبارها التجسيد الأوحد للقاء الثورتين، ذلك أنها اللون الوحيد من ألوان الفكر العرابي الذى نملك الدليل على وصوله إلى زعماء المهدية، كما نملك الدليل على قبولهم إياه وترحيبهم به. وسوف نحاول قصر ما تبقى من الدراسة على ما اتصل بهذا اللقاء بين الثورتين..

أول ما نلاحظه فى هذه الرسالة التى رحب بها المهديون أن العوام لم ينكر فيها هويته العرابية، فهو يقول فى مقدمة رسالته: «أُحضرت من ديارى المصرية منفيا إلى هذه البلاد السودانية بما نسب إليّ من أني كنت خطيبا لفئة العرابية حفظ الله رجالها الذين اتقوه ولم يخشوا إلا الله هو جلّ جلاله وعز ثناءه». (٣٥) ويعود فى الفصل الرابع عندما يتحدث عن توفيق فيصفه «بالشاب الجهول وسوء تدبيره وخيبته ونفوره من عساكره ورؤساء جيشه وهم أبناء رعيته الذين هبوا لمساعدة أحمد عرابي باشا لتحرير الوطن من أسره وربقته ورفعه من وهد الذل وإقالته من عثرته». (٣٦)

الملاحظة الثانية: تتصل بموقف الثورتين من السلطة، فهذا الموقف الذى اختلفت الزعامتان حوله فى أول الأمر تأكد تطابقه أخيرا ومن خلال نصيحة العوام.

وقد مر هذا الموقف من الاختلاف الجزئي إلى التطابق الكامل على ثلاث مراحل؛ كانت أولاها عندما اتفقت الثورتان فقط فى موقفيهما من التدخل الأوربي، بينما اختلفتا فى المواقف من كل من الخديوى والسلطان التركي. وكانت المرحلة الثانية عندما عادى العرابيون الخديوى توفيق بشكل سافر بعد الاحتلال البريطاني للإسكندرية وإن بقوا على ولائهم للدولة العثمانية، من الناحية المعلنة على الأقل.

وجاءت المرحلة الأخيرة بعد احتلال الإنجليز لمصر، فلم يعد ثمة ما يخشاه العرابيون من إعلان عدائهم لسلطان استنبول، وهو ما عبرت عنه نصيحة العوام.

يصف الثائر العرابي توفيق فى الفصل الرابع من نصيحته بأنه «من الغفلة والبلادة وفقد العلم والدين والسياسة والتدبير والحيلة» (٣٧). وهو لا يكتفي بذلك بل أنه يرى عدم شرعية حكم أسرة محمد علي لمصر والسودان، وقد خصص فصلا بأكمله لإثبات ذلك، وكان تحت عنوان: «فى شروط الإمامة العظمى وفساد إمامة بني عثمان وبطلان نيابة من ولوهم أمور المسلمين كنيابة محمد علي وذريته على مصر وملحقاتها من الأقطار السودانية». (٣٨)

الأهم من ذلك، وهو الجديد فى الفكر العرابي الثوري، تكفير الترك، وهو موقف طبيعي من أصحاب هذا الفكر بعد الموقف المخزى من السلطان عبد الحميد الثاني إزاء العرابيين بعد أن أصدر منشوره المشهور بإعلان عصيان عرابي فى لحظة من أشد لحظات الثورة حرجا.

ويقدم صاحب «النصيحة» مبرراته فى هذا التكفير، وكانت: «عدم إقامتهم حدود الشريعة المطهرة وتمسكهم بتلك الأضاليل والأباطيل الافرنكية المعروفة الآن بين الناس بالقوانين السياسية من مقتضيات التمدن والحرية حتى نشأ الفسق والمنكر والفحشاء فى جميع ديار الإسلام التى تحت حكمهم وسرى ذلك فى الرعية مسرى الدم فى العرق .. حتى أفسدت على الرعية أمر دينها وجعلت مصالحهم فى أيدى أعدائهم من اليهود والنصارى وأسلمت بسوء تدبيرها وقبح سيرها كثيرا من ديار الإسلام إلى أعدائنا المشركين والكفار كالهند والجزائر وتونس ومصر..». (٣٩)

ويتحول هذا التطابق الفكرى إلى موقف محدد مما يشكل الملاحظة الثالثة، فقد رفض الثائر العرابي بشكل قطعى هذه الحرب التى تشنها قوات الحكومة على رجال الثورة المهدية أو ما أسماه «بفساد هذا الحرب السوداني فسادا نكرا وإن جميع وزرها على الآمرين بإجرائها القائمين بمباشرتها عن رضاء الغير متبعين فيها أحكام الكتاب

والسنة». [٤٠] ويعرب فى نهاية نصيحته عن أمله أن يكون من خير أعوان المهدى وأنصاره «على إعلاء كلمته وتشييد أركان دينه». [٤١]

صحيح أن هذا الأمل لم يتحقق نتيجة لإعدام الرجل غير أنه يؤكد فى نهاية الأمر ذلك التلاحم الذى انتهى إليه فكر الثورتين، وإن كان تطور الأحداث لم يسمح بأن يتم بين رجالهما!.

الهوامش

(١) محمد خليل صبحي: تاريخ الحياة النيابية فى مصر من عهد ساكن الجنان محمد علي باشا- الجزء السادس.

(٢) د. يونان لبيب رزق: تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨-١٩٥٣، ص ٥٧

(٣) مثل الدكتور شنيتزر (أمين باشا) حاكم المديرية الاستوائية.

(٤) مثل رودلف سلاطين حاكم مديرية دارفور.

(٥) مثل جسي حاكم بحر الغزال.

(٦) وجدنا نسخة من هذا المنشور المؤرخ فى رمضان عام ١٢٩٩هـ ضمن أوراق حاكم دنقلة آنئذ.

(٧) نص الخطاب: نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ص ص ٤٢٤-٤٢٥

(٨) نص الخطاب: نفس المصدر السابق

(٩) أحمد أمين: زعماء الإصلاح، ص ٢٥٥.

(١٠) د.جلال يحيى: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان.

(١١) د.إبراهيم حسن شحاته: مصر والسودان ووجه الثورة فى نصيحة أحمد العوام.

(١٢) الباب الثاني.

(١٣) الباب الثالث.

(١٤) انظر: منشورات المهدية- تحقيق د.محمد إبراهيم أبو سليم (الخرطوم ١٩٨٩).

(١٥) نعوم شقير: المصدر السابق - نص رسالة الخليفة عبد الله للملكة فيكتوريا.

(١٦) د. جلال يحيى: المصدر السابق، ص ٤٠.

(١٧) دار الوثائق القومية: مذكرات ياور حاكم دنقلة- نص المنشور- الوثيقة رقم ٧.

(١٨) نفس المصدر السابق- من وكيل نظارة وحكمدارية السودان إلى مدير دنقلة فى ١١ رمضان ١٢٩٩ هـ.

(١٩) نص المنشور- نفس المصدر السابق.

(٢٠) نص الخطاب- المنشور رقم (١) من مخطوط وصايا المهدى الدينية- مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣٠٣ تاريخ.

(٢١) نص الرسالة فى: Blunt,W.S., Gordon at Khartoum pp.544-545

(٢٢) نص الرسالة فى Ibid., pp.547-548

(٢٣) نص الرسالة فى Ibid., pp.549-548

(٢٤) نقلا عن السيد محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ج١، ص٣٧٢.

(٢٥) المصدر السابق، ج١، ص٣٧٤.

(٢٦) نفس المصدر، ج١، ص٣٧٨.

(٢٧) Blunt, Op. Cit., P.359

(٢٨) رشيد رضا: المصدر السابق، ص ٣٨٠.

(٢٩) نفس المصدر والصفحة.

(٣٠) د.علي الحديدي: عبد الله النديم- خطيب الوطنية، ص ٩٦.

(٣١) نعوم شقير: المصدر السابق، ج٣ ص ٢٦٥.

(٣٢) المصدر السابق.

(٣٣) سوف نعتمد هنا على النص الذى أورده د.إبراهيم شحاته - مصدر سابق، ص ص ٢٢٨-٢٥٣.

(٣٤) تعليق السلاوى على نصيحة العوام- إبراهيم شحاته- مصدر سابق، ص ص٢٧٠-٢٧١.

(٣٥) المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٣٦) نفس المصدر، ص٢٤٩.

(٣٧) نفس المصدر والصفحة.

(٣٨) الفصل الرابع من ص ٢٤٤ إلى ص ٢٥٢.

(٣٩) المصدر السابق.

(٤٠) نفس المصدر .

(٤١) نفس المصدر.

أوراق سرية من (حملة النيل) ١٨٨٢

د. عبد الوهاب بكر

أستاذ التاريخ الحديث

بكلية الآداب - جامعة الزقازيق

أوراق سرية من (حملة النيل) ١٨٨٢(*)

أكدت الدروس المستفادة من الحروب التى نشبت فى القارة الأوروبية وغيرها خلال سنوات القرن التاسع عشر أن المعارك لا تكسب ولا يحسمها حشد الجيوش فقط، وإنما هناك (عمليات) وراء ذلك لابد من إنجازها ، فمعارك (القرم) و(الحرب السبعينية) بين بروسيا وفرنسا - أعطت إنذارا لجنرالات الأركان العامة فى أوروبا ، ومخططى السياسة مؤداه أن التحركات السريعة للجيوش تستلزم الحصول على (معلومات) مؤكدة حتى يمكن إجهاض هذه التحركات .

ثم جاءت (حملة النيل ١٨٨٢) لتؤكد صدق هذه التحسبات.

لقد اكتشف خبراء الحروب فى كل من (بريطانيا) و(ألمانيا) و(إمبراطورية النمسا والمجر) و(فرنسا) و(روسيا القيصرية) أن الحصول على معلومات مسبقة عن خطط الطرف الآخر سواء العسكرية منها أو السياسية - إلى جانب خطوط مواصلاته ومخزونه الإستراتيجى من المواد الاقتصادية والخامات والغذاء تعد أهم من المعارك ذاتها .

وفى السنوات التى تلت سبعينيات القرن التاسع عشر تسبب (أوتوفون بسمارك) Otto Von Bismark مستشار الإمبراطورية الألمانية بسياسته التسلحية ، وسلامه المسلح ، وتحالفاته الثنائية والثلاثية مع روسيا ، وألمانيا ، وإمبراطورية النمسا والمجر - أقول تسبب فى دخول دول أوروبا فى سباق محموم من أجل الحصول على المعلومات عن خطط الطرف الآخر ومشروعاته .

وهكذا لم يكد النصف الثانى من القرن التاسع عشر يصل الى نهاية سبعينياته حتى كانت كلمة (Intelligence) قد أصبحت مجال التنافس بين هذه الدول ، وحل مصطلح الخدمة السرية (Secret Service) محل مصطلح العمليات (Operations).

---

* الاسم الرسمى لحملة بريطانيا على مصر فى ١٨٨٢ لإخماد الثورة العرابية (Nile Campaign)

كانت الجامعات هذه المرة هى مصدر الإمداد بالعنصر البشرى اللازم لهذا النوع من الأعمال ، فالمواصفات المطلوبة فى رجل جمع المعلومات مواصفات علمية وعقلية دقيقة تستلزم من حائزها أن يكون على مستوى ثقافى رفيع .

لذلك فإن الدول الأوروبية اتجهت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى (الجامعات) لتخريج الجواسيس ، وتحولت هذه الجامعات فى تلك الفترة إلى مراكز تعاون للخدمة السرية لتخريج العقول المفكرة التى تلتحق بالجيوش وأجهزة مخابراتها لجمع المعلومات تحت غطاء العلم .

ولعل هذا يفسر احتواء الوثائق التاريخية فى نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على أسماء أولئك الباحثين الأمناء المنقبين فى الخرائب الأثرية ، والأثريين، وأطباء التشريح، والجيولوجيين، والمستشرقين، الذين يقيمون معسكرات البحث فى بلاد المشرق ويلبثون سنوات يحفرون ويجمعون ويصورون ويرسمون الخرائط للأماكن الغريبة والنائية ويسجلون ما تراه الأعين وما تسمعه الآذان .

لكن أحدا فى ذلك الوقت لم يكن يلحظ أن هؤلاء (العلماء) يستهويهم إقامة معسكراتهم العلمية على مقربة من خطوط السكك الحديدية وتقاطعات الطرق والقناطر حديثة التشييد .

ويرتبط هذا النوع من النشاط الذى انتشر فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين بأسماء (دافيد جورج هوجارث) David George Hogarth خريج كلية وينشستر وكلية مودلين Magdalin بجامعة أوكسفورد، وزميل (دافيد مارجوليوث) David Margolioth أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة أوكسفورد . ودانيسون روس Denison Ross رئيس مدرسة الدراسات الشرقية فى لندن والمستشار الخاص لمدير المخابرات الحربية البريطانية .

وقد جند (روس) جرترودبل Gertrude Bell خريجة كلية مارجريت هول بجامعة أوكسفورد، عندما توسم فيها الصلاحية للعمل التجسسى لصالح المخابرات الحربية البريطانية.

وكانت (بل) تغطى نشاطها بالعمل فى الحفريات والآثار القديمة التى تخصصت فيها. ومن بين الذين كانوا يجوسون فى آسيا الصغرى لمساعدة الدور البريطانى فى البلاد العربية فالنتين إغناطيوس شيرول Valentine Ignatius Chirol المشهور بفالنتين شيرول الذى بدأ حياته كاتبا فى وزارة الخارجية البريطانية عام ١٨٧٢ ، ثم عمل بعد ذلك كقنصل بريطانى فى برلين ، وتجول كجاسوس فى تركيا الأسيوية ومصر وفارس والهند .

وتزخر الوثائق البريطانية بأسماء أساتذة الجامعات البريطانية الذين اشتغلوا بالتخابر لصالح بلادهم وجيوشها ، لكن مايخص مصر فى هذا المقام هو شخصية البروفيسور (بالمر) E.H.Palmer الأستاذ بالجامعات البريطانية الذى اشتغل بالتخابر لصالح بلاده (بريطانيا) خلال فترة الثورة العرابية (١٨٨١ - ١٨٨٢) والذى قتل فى صحراء سيناء خلال معارك عرابى ضد الإنجليز ، وتبين أنه كان مكلفا بشراء البدو هناك لتخريب الخطوط التلغرافية ، وكان يحمل معه لدى مقتله ثلاثين ألفا من الجنيهات الذهبية، كما كان يرافقه فى مهمته ضابطين من جهاز المخابرات البريطانية هما جيل Gill وشارنجتون Charrington اللذين قتلا معه[1] .

ما يعنينا فى هذا المقام أن نركز على الترتيبات البريطانية السابقة على نزول قواتها فى الأرض المصرية لتبدأ (حملة النيل) فى يوليو ١٨٨٢ .

وفحص الترتيبات البريطانية هذه وعرضها يؤكد وجهة النظر القائلة بأن نية بريطانيا كانت متجهة إلى احتلال مصر منذ ما قبل الثورة العرابية بزمن طويل ، وأن إعادة النظام والاستقرار والسلطة الشرعية فى البلاد لم تكن سوى ذريعة لتبرير التدخل العسكرى. هذا كله ليس بجديد ، فقضية نوايا بريطانيا تجاه احتلال مصر قضية معروفة وسبق أن خاض فيها وفى تقديم الأدلة على صحتها الكثيرون ، ونحن لا نقدم فيها جديدا ولكن، لدينا من الوثائق عن حقيقة هذه الترتيبات وكيف أن الإعداد لحملة النيل بدأ قبل عام ١٨٨٢ بسنوات طوال كانت بريطانيا خلالها ومن خلال جواسيسها ورجال مخابراتها ،

تفحص وتنقب وتدقق حتى كانت مع بداية الحملة على علم بكل صغيرة وكبيرة فى البلاد .

فى يوليو عام ١٨٨٢ صدر كتاب سرى بعنوان Report on Egypt عن فرع المخابرات التابع لإدارة رئاسة الجيش البريطانى بوزارة الحربية The Intelligence Branch, Quarter Master - General's Department ومن المهم فى هذا المقام وقبل الخوض فى تفاصيل الكتاب ، وهو موضوع دراستنا أن أقدم نبذة عن جهاز التخابر فى بريطانيا فى القرن التاسع عشر ، فهو قصة هذا الكتاب، أو هو قصة هذه الدراسة . فى ثمانينيات القرن التاسع عشر ظهر مسمى المخابرات الحربية Military Intelligence لأول مرة فى تاريخ الجيش البريطانى . ويقترن هذا المسمى بأسماء المؤسسين لهذا الجهاز من رجالات بريطانيا فى ذلك الوقت (لورد نورثبروك) Lord Northbrook نائب الملك السابق فى الهند، (الجنرال براكنبرى) General Brackenbury ضابط المخابرات فى (حملة النيل) على مصر عام ١٨٨٢، (الكولونيل سير جون أرداج) John Ardage ، (كابتن هوزير) Hosier والد زوجة السياسى الشهير ونستون تشرشل Winston Churchil ، (الملازم ايفلين بارنج) Evelin Baring من المدفعية الملكية (لورد كرومر) Cromer فيما بعد ، و (سير ويليام نيكولدسون) William Nicoldson رئيس أركان الجيش الهندى .

كان هؤلاء الرجال هم الذين يكافحون فى تلك الفترة من القرن الماضى ليلاحقوا طفرة التطور والتحديث التى لحقت بالجيش البروسى فى أعقاب الحرب السبعينية وظهور بروسيا كدولة متفوقة على يد أوتو فون بسمارك Otto Von Bismark وكان هؤلاء هم من كانت الصحف البريطانية تشير اليهم بـ (رؤساء الخدمة السرية)(٢).

وعلى أيدى هؤلاء وعلى رأسهم (أرنولد فورستر) Arnold Forster وزير الحربية تم تصميم جهاز المخابرات فى بريطانيا بانشاء سلسلة من القيادات الجديدة المستقلة تماما عن أفرع (إدارة الجيش) Quarter Mastergeneral ،و(إدارة العمليات) التى كانت تدير هذا العمل منذ ١٨٥٣ وقت حرب القرم Crimean War (١٨٥٣ - ١٨٥٦).

رأس هذه المجموعات الماجور جنرال جريرسون Grierson تحت مسمى (مدير العمليات الحربية) DMO ، وقسمت أفرع إدارته إلى الأفرع الأربعة التالية :

MO 1 وتختص بالاستراتيجية وخطط الحرب.

MO 2 وتختص بالمخابرات الأجنبية فى أوروبا ، الإمبراطورية العثمانية ، إمبراطورية النمسا والمجر ، وأثيوبيا .

MO 3 واختصت بمناطق فارس والهند وآسيا والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا القيصرية.

MO 4 وتولت أعمال الطبوغرافية (المساحة العسكرية) ورسم الخرائط.

وفيما بعد أنشئ فرع خامس هو MO 5 للتجسس المضاد (أو مكافحة التجسس)، والأمن التجسسى والمهام الخاصة - ومن هنا جاء مصطلح (الطابور الخامس) فى الكتابات العربية للإشارة إلى عمليات التجسس والتخريب خلف خطوط العدو،كما أنشئ فرع MO6 ويضم عمليات الضباط الأطباء الذين يعملون فى مهام أجنبية [٣] ، وفيما بعد أيضا أسند إلى حكومة الهند الإشراف على أعمال المخابرات فيما يتعلق بشبه الجزيرة العربية جنوب خط يمتد من العقبة إلى البصرة مع استبعاد عسير والحجاز واليمن بينما بقيت شبه الجزيرة العربية وسوريا وبين النهرين تحت إشراف M O 2.

والذى أعد فى نهايات القرن التاسع عشر ليحل محل تقرير سابق كان يسمى (تقرير حربى عن الجزيرة العربية) Military Report on Arabia ، لعله كان باكورة أعمال جهاز المخابرات الجديد .

كان قوام جهاز المخابرات البريطانى الذى اختص بمنطقة الشرق الأوسط ومن بينها مصر مجموعة من رجال أركان حرب الأميرالية Admiralty Staff Officers؛ الملحق الحربى البريطانى فى القسطنطينية الكولونيل فرانسيس ماونسل Colonel Francis Maunsell، ومجموعة الشبان الذين كانوا يشكلون جزءا من مدرسة التخابر السابق الإشارة إليها فى مقدمة

هذه الورقة، والذين كانوا يسمون فى ذلك الوقت بالملحقين الشرفيين Honorary Attachés الذين كانوا يعملون فى السفارات البريطانية بالخارج والذين تميز منهم فيما بعد Mark Sykes صاحب اتفاقية سايكس - بيكو الشهيرة خلال العقد الثانى من القرن العشرين، وأوبرى هربرت Aubrey Herbert وجورج لويد George Lloyd الذين غطت رحلاتهم التجسسية بلاد كردستان وسوريا وبين النهرين .

لكن (ماونسل) كان له عملائه الذين كانوا يتجولون فى بلاد الأناضول وكردستان فى نهايات القرن التاسع عشر أمثال الكولونيل ماسى P .H.H. Massy وهارى بيرى جوردون Harry Pirie Gordon والكابتن سميث من المهندسين الملكيين. وهكذا فإنه خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر كانت فنادق سوريا وبين النهرين وفارس تعج بنوعيات متباينة من الرجال: ضباط من أركان الحرب البريطانية والهندية، مهندسى سكك حديدية ، أثريين، جامعى حشرات، مراقبى طيور يرتدون أشكالا مختلفة من الزى، هذا بقبعة أستاذ جامعى، وذاك بزى عسكرى ، وثالث بكوفية وعقال (أمثال بالمر قتيل الصحراء الشرقية فى ١٨٨٢ الذى كان يمارس مهمته التخابرية لشراء البدو وتكليفهم بتخريب الخطوط البرقية بين شرقى القناة وغربها) ، وتوماس إدوارد لورانس Lawrence Thomas Edward (فيما بعد).

هكذا امتلأت منطقة الشرق الأوسط خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين بعملاء جهاز التخابر البريطانى - والأوروبى أيضا - يجمعون المعلومات ويلتقطون الصور ويسجلون الأنباء .

فيما يخص مصر من هذه الدراسة فإن القصة تبدأ عندى من حملة فريزر Fraser فى مارس ١٨٠٧ عندما أرادت بريطانيا أن تصيب فرنسا بضربة سياسية ظاهرها إيذاء الدولة العثمانية وإعادة المماليك إلى السلطة فى مصر بالقوة .

ولقد كانت الهزيمة الساحقة التى أصيبت بها بريطانيا فى هذه الحملة وتعمد محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٨) إهانتها فى شكل طابور أسراها الذين مررهم فى الطريق إلى

الأزبكية الذى صف على جانبيه رؤوس قتلاها مثبتة على حراب ، وقد كانوا ٤٩٠ قتيلا. كانت هذه الهزيمة وما تلاها من أحداث تتعلق بنمو قوة محمد على ووضعه فى المنطقة، بعض أسباب بريطانيا لاحتلال مصر فيما بعد (٤) .

وإذا كان الكثيرون لا يعرفون عن قضية إحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ (حملة النيل Nile Campaign) سوى تلك المعلومات المتناثرة عن نية بريطانيا المسبقة فى إحتلال مصر قبل ذلك التاريخ بوقت ما،فإن هذا الكتاب السرى من أوراق حملة النيل يكشف عن قضايا فى غاية الأهمية تتعلق - إلى جانب عمليات التجسس والتخابر قبل الحملة على ما ستقدمه فصول الكتاب - بترتيبات غزو مصر قبل حملة النيل بزمن غير قليل ، وفى عصر الوالى محمد سعيد على وجه التحديد، وهو ما يعد كشفا جديدا للعلاقات المصرية البريطانية خلال القرن التاسع عشر، لا يعلم عنه أحد شيئا.

يقع الكتاب الذى تتصدره عبارة (سرى) Confidential فى أحد عشر فصلا من ٤٧٠ صفحة .

جاء الفصل الأول وعنوانه (تاريخ) متضمنا خمسة عناصر أساسية هى :

أ- إسكتش تاريخى لمصر حتى نزول القوات الفرنسية بها فى ١٧٩٨.

ب - قصة الحملة الفرنسية على مصر من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٠.

ج - قصة العمليات البريطانية والفرنسية فى ١٨٠١.

د - قصة الحملة البريطانية إلى مصر فى ١٨٠٧.

هـ - إسكتش تاريخى لمصر من عصر محمد على .

تناول الفصل الثانى وعنوانه (ملاحظة جغرافية ، السكان ، الحكومة ، المناخ) جغرافية مصر ، المظاهر الطبوغرافية والجيولوجية ، السكان ، الحكومة والإدارة ، المناخ - مع التركيز على (البدو) و(الأقباط) و (الديانة الإسلامية).

فى الفصل الثالث وعنوانه (المالية ، الزراعة ، الصناعة والتجارة ، النقود والأوزان والمقاييس والتقويم والنقل) جرى مناقشة ميزانية مصر فى عام ١٨٨٢ ، إيرادات مصر ، الدين المضمون ، الضرائب ، الدين ، النسيج ، الأعمال المعدنية ، الورق ، الطحن والمخابز، محالج القطن .

ويتحدث الفصل الرابع وعنوانه (المدن والموانىء) عن محافظات مصر الإحدى عشر فى وقت كتابة هذا التقرير وهى (القاهرة - القناطر - الإسكندرية - رشيد - دمياط- بورسعيد - العريش - الإسماعيلية- السويس - سواكن - مصوع) ، ويذكر تعداد سكانها. ثم يذكر التقرير المدن الرئيسية فى مصر وعددها (١٨) فى مصر السفلى و (٧) فى مصر الوسطى و (١٢) فى مصر العليا ، ويتحدث عن السكان والمناخ ونظام الإدارة، وحركة السفن فيما يتعلق بالاسكندرية وحجم التجارة فى الموانىء المصرية .

ويبدو من المعلومات الواردة فى التقرير فى هذا الصدد أنه اعتمد سنة ١٨٧٩ معيارا لرصد المعلومات عن مصر ، ففى كل مناسبة يذكر ذلك العام عند ذكر أى معلومة عن المالية أو حركة التجارة أو شكل الحكومة .

خصص التقرير الفصل الخامس للحديث عن (النيل والترع) فوصف النيل وفيضانه ومياهه والملاحة فيه ، والقناطر المقامة عليه ، ونظام القنوات فى مصر ونظم الرى فى سبعينيات القرن التاسع عشر .

أما الفصل السادس فقد خصصه التقرير للحديث عن (قناة السويس) ، وفيه أفاض فى الحديث عن الوصف العام للقناة ، تربتها ، ضفتيها ، طولها - انحناءاتها ، فناراتها ، خطوط البرق ، محطات الإشارات ، مراقبة القناة ، نظام الملاحة فيها، الكبارى والعائمات، الأعمال المائية، المد والجزر، القطاعات، العرض والطول والأعماق، علامات الإرشاد، الرفاصات وسفن القطر والناقلات والكراكات .

فى الوصف الحالى للقناة اعتمد التقرير على تقرير لضابط يدعى توللوش Tulloch كتبه فى ١٨٨٢ ، وكتاب الأميرالية البريطانية Red Sea Pilot وكتاب

Murray's Handbook of Egypt الصادر فى لندن عام ١٨٨٠ ، وتقرير للكابتن Richards واللفتنانت كولونيل كلارك Clarke سبق إعداده فى عام ١٨٧٠ .

وقد ركزت هذه التقارير على وصف القناة من (بور سعيد إلى القنطرة)، (القنطرة إلى الإسماعيلية)، (مقطع الجسر) قرب الفردان (بحيرة التمساح إلى طوسون)، (طوسون إلى سرابيوم)، (البحيرات المرة)، (الشلوفة)، (سهل السويس) . وتتحدث هذه التقارير عن ضفتى القناة فى هذه المناطق ، الأجزاء الرخوة والرملية من هذه الضفاف .

وعن حركة الملاحة فى القنال خلال الفترة ١٨٧٠ - ١٨٧٩ اعتمد التقرير على الجـــداول الرسميـــة المطبوعـة فى مصر تحت عنوان (Statistique de la Navigation pour le Canal de Suez,1880) ، وعلى مجلة تصدر عن شركة قناة الســويس بعنـوان (Le Canal de Suez ,Bulletin decadaire)

على أن أهم ما يلفت النظر فى خلاصة هذه التقارير هو ما أثبته تقريرنا من أن نسبة السفن الإنجليزية التى عبرت القناة فى عام ١٨٧٩ كانت ٧٧٫٤٪ زادت فى ١٨٨٠ إلى ٧٨٫٥٪ ووصلت فى عام ١٨٨١ إلى ٨٢٫٥ ٪، ويعلق التقرير بقوله (وهكذا فإنه يتضح من هذه الإحصائيات القيمة المتزايدة للقناة للمصالح البريطانية - وهو أمر سيتضح مغزاه من مجرى الحوادث بعد ذلك).

يرافق هذه المعلومات فى التقرير موضوع الدراسة خريطة مطبوعة على الليثوجراف Lithography (طبع حجر) فى إدارة المخابرات .Intelligence Dept بوزارة الحربية البريطانية فى يونيو ١٨٨٢ توضح قطاعات قناة المياه العذبة بين القاهرة والإسماعيلية. يبين القطاع الأول منها المسافة من القاهرة إلى سرياقوس وهى (١١ ميلا) ، ويبين القطاع الثانى المسافة من سرياقوس إلى بلبيس وهى (٢٣ميلا) ، ويبين القطاع الثالث المسافة شمال بلبيس وهى (١١ميلا)، كما يبين القطاع الرابع المسافة شمال بلبيس أيضا لمسافة ميلين ، أما القطاع الخامس فهو يبين المسافة بين (الوادى) والقصاصين وهى مسافة تبلغ

خمسة أميال وواضح من هذه الخريطة أنها تبين أماكن المياه العذبة فى المسافة الواقعة بين القصاصين والقاهرة، ولايخفى أن هذه المسافة هى خط سير القوات البريطانية التى زحفت إلى القاهرة بعد هزيمة التل الكبير فى سبتمبر ١٨٨٢. (٥)

استعان التقرير موضوع الدراسة فى مسألة (إعاقة الدفاع عن القناة) بتقرير كان قد أعده الكابتن روسون Rawson من البحرية الملكية وفيه ذكر أن القناة يمكن أن تغلق، أو تجعل بلا قيمة، أو تضار بوسائل عديدة وأن الأخطار الأساسية للقناة كانت :

أ- بسد المداخل من عند البحر.

ب – قطاع المياه العذبة عن القناة.

جـ- إزالة علامات الإرشاد من المجرى الملاحى.

د- سد القناة بسفن غارقة.

هـ - سد القناة بإغراق وحدات محملة بالحجارة والأسمنت ، الخ .

و - تدمير السفن المارة بواسطة ألغام بحرية .

وانتهى التقرير إلى أن احتلال بعض أجزاء من القناة هو الوسيلة الوحيدة لمنع أى قوة من أن تحدث هذه الأضرار لها .

وكان آخر ما انتهى إليه هذا الفصل عن القناة ، ذلك التقرير عن (البدو) المقيمين بجوار القناة شرقا وغربا . ذكر الفصل أن البدو المقيمين فى شبة جزيرة سيناء ضعيفو الإسلام وبعيدون عن التعصب ويكرهون الأتراك والحزب العسكرى فى مصر (يقصد العرابيين) ويحتقرون الفلاحين . غير أنه فى الإمكان استثارتهم دينيا وتحريضهم ضد الأوروبيين إذا أعلن (الجهاد) أو الحرب المقدسة .

ومع هذا فقد ذكر التقرير أنه من خلال التعامل معهم بصورة جيدة يمكن :

(أ) تحت كل الظروف :

١- إبقاؤهم محايدين فى حالة قيام مصاعب بين الإنجليز وأى آخرين.

٢- ألا يؤذوا القناة الملاحية أو قناة المياه العذبة أو الاشغال الأخرى التى قد يكون من الضرورى حراستها.

٣- أن يوفروا الجمال لأغراض النقل.

(ب) تحت أغلب الظروف :

١- أن يصبحوا الحلفاء النشطين لأى جهة تعرف كيفية التعامل معهم .

٢- أن يوفروا العمالة لإصلاح التلفيات التى قد تتعرض لها القناة الملاحية أو أى أعمال هندسية .

٣- أن يوفروا الدوريات والحراس .

وذكر التقرير أن الظروف التى يمكن أن يصبح البدو فيها حلفاء غير نشطين هى ظروف تحقيق خصوم بريطانيا لنصر دبلوماسى أو غيره عليها، أو التهييج الدينى المدبر جيدا . وأن البدو يراقبون جيدا ما يجرى حولهم ويمكن أن يلقوا بثقلهم وراء أى حزب يتوقع أن يفوز على المدى الطويل .

فبالنسبة للحالة الأولى (أ) (تحت كل الظروف) فإن التعامل مع البدو يجب أن يتم من خلال استغلال صفاتهم الشخصية المتمثلة فى حرصهم على مصالحهم الشخصية وحب الأثرة وجشعهم الشديد. ومن هذا المنطلق فقد كان الواجب تعريفهم بأن الحزب العسكرى فى مصر كان يعاملهم دائما معاملة سيئة، وأنه إذا زاد نفوذ هذا الحزب فإنهم (أى البدو) قد يرغمون على أداء الخدمة العسكرية التى تتعارض تماما مع الصفات الشخصية للبدو المحبين للحرية والبعد عن القيود ، وأن أراضيهم قد تصادر ، ويوضعون فى ظل حالة من الامتهان والإذلال.

وإلى جانب ذلك فقد أشار التقرير إلى ضرورة تقديم الهدايا للبدو بصورة شحيحة فى البداية ، مع وعد بأن مصالحهم لن تُنس لو أن الأمور سارت على ما يرام .

وشدد التقرير على أنه يجب ألا ينسى أن البدو أقوام تميل إلى الاستقلال وأن النظام من أى نوع مكروه كلية لديهم ومضاد لكل أفكارهم ومعتقداتهم .

ورغم أن التقرير كان مسهبا فى شرح أحوال البدو شرقى القناة ، وأن المعلومات التى لدى المخابرات البريطانية عن بدو غرب القناة كانت شحيحة ، فإن النتائج أثبتت فشل مهمة بريطانيا فى شرقى القناة عندما قتل البدو (البروفيسور بالمر فى عام ١٨٨٢)، بينما نجحت هذه المهمة فى غرب القناة عندما اشترى البريطانيون ذمم (عربان الهنادى) واستخدموهم عيونا لهم وجواسيس ، وقادوا القوات البريطانية ليلا إلى مواقع القوات المصرية فى التل الكبير ليلة ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ فكانت نتيجة ذلك هى الهزيمة الماحقة للجيش المصرى فى معركة الدفاع عن البلاد .

ويسجل التقرير موضوع الدراسة نظرة بريطانيا لبدو الجانب الغربى لقناة السويس بقوله (It must be stated, however, that our information regarding the western side is not so trustworthy nor so complete as that with reference to the eastern)(٦)

خصص الفصل السابع من التقرير الذى تعرض له هذه الدراسة للحديث عن السكك الحديدية والبرق .

كان أهم ما يلفت الإنتباه فى هذا الفصل - إذا استبعدنا الوصف التقليدى للسكك الحديدية المصرية ومشروعاتها المستقبلية ، والإدارة الأجنبية لها فى ظل قوانين عام ١٨٧٦ المالية (قومسيون إدارة السكك الحديدية المصرية) - هو تحديد جنسيات سائقى القطارات الذين تبين أن عدد الأجانب منهم أربعة وعشرون نصفهم من الفرنسيين، والنصف الباقى من الإنجليز والألمان والبولنديين ، أما الباقى فقد كانوا من (أولاد العرب) وفق لغة العصر فى ذلك الوقت ، وأنواع الخدمات التى تقدمها القطارات

(بريد – نقل ركاب – نقل خيول – نقل ماشية – قطارات بضاعة) و أقطار العجلات فى القطارات ، المسافات بين قضبان السكك الحديدية وأنواع الفلنكات المستخدمة فى السكك الحديدية المصرية ومواعيد القطارات وتوقيتات السفر للقطارات والسرعات المقررة للقطارات وأنواع القطارات المستخدمة فى مصر وأعدادها ، وأماكن التزود بالمياه على طول خطوط السكك الحديدية المصرية ، والمسافات من المحطات وبعضها فى مصر لتوفير الترفيه للقوات المسافرة .....!!!، وكميات الفحم الموجودة فى مصر لأغراض السكك الحديدية والتى قدرها التقرير من ١٠ – ١٥ ألف طن ، وورش السكك الحديدية، وأنواع عربات السكك الحديدية ، وخدمات البرق والإشارات البرقية واللغات المستخدمة فى البرق المصرى ، عربات نقل الخيول .

فى مجال الحديث عن خدمات الترفيه والعناية بالقوات وحيوانات النقل حذر التقرير – فى إطار حديثه عن السكك الحديدية– من خطورة استخدام مياه الخنادق الآسنة لتسببها فى مرض الدوسنتاريا ، وأشار الى توافر المياه لسقيا الخيول وندرة العليق لها، وأشار إلى أن الخيول الأوروبية لن تستطيع أن تأكل القش المدروس (Indian Bhoosa)، كما أن المراعى قليلة فيما عدا حقول البرسيم الحجازى Lucerne الذى يتوافر فى ٢٠ ديسمبر ويستمر ٤٫٥ شهرا .

كذلك فقد أشار التقرير إلى أنه فى حالة تعطل القطارات المقلة للجنود فإن المسافة من الإسكندرية إلى السويس وقدرها ٢٢٤ ميلا يمكن أن تقطع سيرا فى زمن يتراوح بين ١٠٠ – ١٥٠ ساعة ويمكن أن تزود الجنود فى هذه الرحلة بالخبز المقدد (بسكويت) ومشروب الروم الشديد أو الويسكى المضاف إليه الماء Grog .

وتعرض التقرير للخطوط التلغرافية وأطوالها والرموز المستخدمة فيها واللغات التى يستعملها موظفوها وجنسيات هؤلاء الموظفين .

ومن الواضح أن المعلومات عن السكك الحديدية المصرية والبرق كانت فى غاية الأهمية، وأن بريطانيا قد حصلت على معلومات فى غاية الدقة عن هذا المرفق حتى يتسنى لها نقل جنودها من خلاله أثناء حملة النيل .

وقد استعان التقرير فى جمع المعلومات عن السكك الحديدية المصرية بتقرير المستر كيف Cave عن مالية مصر فـــى عام ١٨٧٦ – وتقرير بعنوان Rapport du Conseil d'Administration sur l'exercice كان يصدر سنويا فى مكتب Journal des pyramides ومقـره الإسكندرية – والاحصاءات العامة عن التلغـرافات المصرية لعام ١٨٧٩ (Statitques Generale de la Telegraphie , 1879)

خُصصَ الفصل الثامن من التقرير للحديث عن الجيش والبحرية . فتحدث عن تاريخ الجيش المصرى منذ عهد محمد على (١٨٠٥ – ١٨٤٨) ، ونظام التجنيد ، وتوزيع القوات إلى مشاة وفرسان ومدفعية ودفاع ساحلى ومستحفظين (قوات للشرطة) ، والتنظيم والقوة الفعلية .

وتحدث التقرير عن المؤسسات الفنية بالجيش كمصانع البارود فى طره ، ومصنع الذخيرة خلف القلعة ، ومصنع الأسلحة الصغيرة قرب طره ومسبك المدافع.

وقد كان الفضل فى الحصول على المعلومات الدقيقة عن هذه المؤسسات يرجع إلى أن الشركة التى قامت بتأسيسها كانت هى شركة السير و. أرمسترونج Sir W.Armstrong البريطانية .

وتحدث التقرير عن مصنع الملابس فى القاهرة ومصنع عربات المدافع قرب القاهرة ومخازن الخشب والحبوب والمخبز قرب بولاق .

ولقد بلغ من دقة المعلومات عن الجيش أن بريطانيا كانت تعرف أن ٣٥٠ر٠٠٠ أقة من البسكويت كانت مخزنه فى شونة التاسينات Shunat et-Tasenat وشونة المحابس Mahabehs فى بولاق ، وأن المخابز كانت تنتج خمسة آلاف أقة من البسكويت فى اليوم الواحد ، وأن البسكويت الذى كان مخزونا فى المخازن يوم ٢٥ يونيو ١٨٨٢ كان مقدرا أن يكفى ١٣ر٠٠٠ رجل لمدة شهرين .

وذكر التقرير قدرة الثكنات الموجودة فى القاهرة على استيعاب ٩٥٠٠ جندى أوروبى موزعين على ثكنات (عابدين) و (قصر النيل) و(العباسية) و(القلعة) .

وفى الحديث عن المدفعية حدد التقرير ما تملكه مصر من المدافع بـ ٤٩٧ مدفع طراز كروب Krupp عيار ٧ر٨ و ٥ر٧ سم مع ذخيرة قدرها ٥٠٠ طلقة لكل مدفع،

٢٠٠ مدفع ثقيل طراز أرمسترونج وزن ٥ر٦ - ٥ر١٨ طن.

١ مدفع كروب عيار ١٤ بوصة.

وفى شأن الأسلحة الصغيرة فقد قدر التقرير ما تحوزه مصر فى يونيو ١٨٨٢ بـ ٠٠٠ر١٣٠ بندقية رمينجتون Remington مع ذخيرة قدرها ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠ طلقة، ٠٠٠ر٢٠ انفيلد Enfield مع ذخيرة قدرها ٠٠٠ر٠٠٠ر١ طلقة. وقدر التقرير أن ٠٠٠ر٠٠٠ر١٣ طلقة من هذه الذخيرة من إنتاج مصنع هوكهام Hookham ولودلو Ludlow هى الصالحة فقط للاستعمال ، أما الباقى وهو من إنتاج المصانع المصرية فقد كان غير صالح. وغير خاف أن المصانع الموردة لهذه الأسلحة قد قدمت كل مالديها من معلومات عن التسليح المصرى لبريطانيا .

اعتمد التقرير فى شأن القيمة والكفاءة العسكرية للضباط والجنود المصريين على تقارير للماجور تولوش Tulloch الذى لم يذكر التقرير الجهة التى كان ينتمى إليها ، والكابتن واتسون Watson من المهندسين الملكيين - والمستر ويليام ماك اى داى William Mc E. Dye الضابط السابق بالجيش الأمريكى والكولونيل السابق بهيئة أركان الحرب المصرية ، والكولونيل جوردون Charles Gordon الذى عمل فيما بعد حاكما عاما للسودان وقتل فى يناير ١٨٨٥ عندما كان يدافع عن الخرطوم بصفته حاكما عاما للسودان ضد حصار القوات المهدية الذى استمر من مارس ١٨٨٤ إلى يوم مقتله فى ٢٦ يناير ١٨٨٥[(٧)] ، سير ج. أوترام Sir J . Outram ، وتقرير لليفتنانت كولونيل لوميسورييه Le Messurier ، والتقارير السنوية للجيش الألمانى عن عام ١٨٧٦، وكتاب فالنتين بيكر باشا V. Baker Pasha بعنوان The War in Bulgaria ، وأقوال المارشال مارمون Marshal Marmont عن الجيش المصرى أثناء حروب الشام (١٨٣٢- ١٨٣٩) ، وتقرير المستر إدوين دى ليون Edwin de Leon القنصل العام

السابق للولايات المتحدة الأمريكية فى مصر ، وكتاب إسماعيلية (Ismailia) للسير صمويل بيكر باشا Sir S. W. Baker.

وقد خلصت التقارير إلى أن عيوب الجيش المصرى كانت تكمن فى عدم كفاءة الضباط ، وسوء التدريب.

جاء الفصل التاسع من التقرير موضوع الدراسة ليغطى التحصينات المصرية .

ومن المؤسف أن دفاعات الإسكندرية كلها كانت مصممة فى باريس بمعرفة المارشال سوولت Marshal Soult وتم تنفيذها كلها تحت إشراف المهندسين الفرنسيين.

ومن المؤكد أن هذه الخطط قد سلمت جميعها لبريطانيا ، فشرح الدفاعات المصرية تجاه الغرب لمقاومة أى تقدم من اتجاه مرابوط Marabut (العجمى)، وللسيطرة على الميناء الغربى بواسطة طوابى (العجمى - السلامية - خطوط المكس - الأعمال بين خطوط المكس والمحمودية - قلعة الجسورة - قلعة القمرية - قلعة أم كبيبة - بطاريات الساحل بين المكس والقلاع السابق الإشارة إليها - قلعة صالح) - أقول إن شرح هذه الدفاعات بالتفاصيل الدقيقة التى تضمنها من حيث إعداد المدافع وأماكن مخازن الذخيرة وأقطار المدافع وعدد فتحات إطلاق النيران والخنادق المحفورة وما إلى ذلك يكشف بكل جلاء أن رسومات الخطط الدفاعية ورسومات البناء والتسليح والهندسة قد سلمت كاملة لبريطانيا .

وينسحب نفس القول على خطط الدفاع عن الميناء الشرقى والجبهة الشمالية وبحيرة مريوط وشرقى رشيد ودفاعات أبو قير وبوغاز رشيد وبوغاز دمياط ودفاعات غرب بور سعيد وتحصينات القناطر الخيرية. وقد استعان التقرير موضوع الدراسة بتقارير للسير أوترام والكابتن كولنسون Collinson ،والكابتن باربازون Barbazon ، وبعض ملاحظات للكولونيل هاريسون Harrison والماجورتولوش Tulloch اللذين كانا يتجسسان على الدفاعات المصرية ويكتبان للمخابرات البريطانية . بل إن التقرير اعتمد على معلومات أحد رجال الدين المسمى (بادجر) Rev.Mr.Badger فى شأن

التحصينات الساحلية المصرية وخاصة تحصينات القناطر الخيرية . فقد ذكر (بادجر) أن دفاعات القناطر الخيرية فى عام ١٨٦٢ كانت تشمل ٢٥٦ مدفعا و ٧١ مورتار على الحصن الرئيسى للقناطر، إلى جانب ٩٨ مدفعا و ١٢ مورتار فى موقع آخر ، وخمسين مدفعا فى موقع ثالث ليبلغ مجموع المدافع ٤٠٤ والمورتار ٨٣.

وذكر التقرير تحصينات قلعة القاهرة فقال إن الجانب الغربى الذى يطل على المدينة كان يضم بطارية من ٢١ مدفعا خلف متراس من الحجر سمكه ما بين ٣-٤ أقدام ، وأن الماء يصل إلى القلعة بواسطة طلمبات ضخ قرب قناة الإسماعيلية (الترعة الإسماعيلى)، وأن التسليح فى يونيو ١٨٨٢ كان يشمل ٤٢ مدفعا وعدداً من القذائف اللازمة لهذه المدافع يبلغ ٢١٫٠٠٠ طلقة .

وفى مجال الدفاع عن القاهرة ذكر التقرير أن مدفعاً من عيار ١٤ بوصة طراز كروب Krupp وآخر وزنه ١٨ - ٢٥ طن من طراز أرمسترونج Armstrong كانا فى العباسية ، وكان فوق تلال المقطم ستة مدافع من نفس طراز المدافع المركبة فى القلعة ومعها ٥٠٠ قذيفة .

وكان البريطانيون يعرفون فى ذلك الوقت أماكن المياه التى تزود القلعة بماء الشرب، ومخازن الحبوب، والدقيق، والشيران ، والخراف، والخيول والعليق المخزنة وراء جدران قلعة القاهرة.

وذكر التقرير أن المعسكرات يمكن أن تأوى ١٠٫٠٠٠ رجل فى حالة الطوارئ وآلاف المواضع لإطلاق بنادق الرمنجتون Remington ، وأن مخزنا للبارود يقع فوق المكان الذى جرت فيه مذبحة القلعة عام ١٨١١.

ومن الواضح أن خطط الدفاع عن مصر بصفة عامة والقاهرة بصفة خاصة كانت فى يد البريطانيين قبل معارك ١٨٨٢ ، فالتفاصيل شديدة الدقة عن كل معلومة فى هذا الشأن واردة فى هذا التقرير السرى.

أما الفصلان العاشر والأخير من التقرير فقد تناولا الطرق المصرية وحالة الأرض فيها وصلاحية الطرق لسير المدافع عليها ، وأماكن الاستراحة ، وتوافر مياه الشرب ، والعليق للخيول ، ومواسم العمليات العسكرية فى مصر السفلى (نهاية فبراير إلى نهاية يوليو) وتأثير الفيضان على الطرق فى الوجهين القبلى والبحرى .

يلفت النظر فى التقرير عن الطريق من السويس إلى القاهرة، الإشارة إلى أنه كان أحد الطرق المقترحة للفرقة العاشرة فرسان Iorhussars فى عام ١٨٥٥، كذلك فإن الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية عن طريق الضفة اليسرى لفرع رشيد كان مقترحا للفرقة العاشرة فرسان أيضا فى ذلك العام .

وفى الملاحظات عن هذا الطريق اقترح الكابتن جيل Gill فى ١٤ مارس ١٨٥٥ مايلى (فيما يتعلق بسير فرقة الفرسان العاشرة من القاهرة فإننى أجد أنه من الأصوب تعديل عبور النيل عند بولاق ، والقنطرة فوق فرع رشيد أصبحت كاملة الآن ومتصلة بكل من الشاطئين . وستسير الفرسان على طول الضفة اليمنى للنيل حتى تعبر القنطرة الفرعين الخ) - قسم التقرير عن ذلك الطريق محطات التوقف إلى (القاهرة - القناطر - جلتا أو جتلا - بنى سلامة - مشلا- كفر بولين - جارس - دمنهور - كفر الدوار - الإسكندرية) .

وقد اقترح طريقان آخران للفرقة العاشرة فرسان (من القاهرة إلى الإسكندرية). فأما الأول فقد اقترحه الكولونيل كامبل (Colonel Campbell) الكوارتر ماستر - جنرال (مدير لوازم الجيش) وكان كالآتى : من القاهرة على جسر السكة الحديد على الضفة اليمنى حتى (بنها العسل)، حيث يتم عبور فرع دمياط ، ثم السير على جسر السكة الحديد حتى (بركة السبع) على الضفة اليسرى لترعة (شبين) . ثم إلى (طنطا وكفر الزيات) على الضفة اليمنى لفرع رشيد ثم العبور هناك بواسطة السكة الحديد عند دمنهور إلى الإسكندرية . وميزة هذا الطريق فى نظر صاحبه أنه كاف اتساعا حتى كفر الزيات لثمانية خيول جنبا إلى جنب abreast أما المضار فكانت وجود ثلاث حالات

عبور للنيل (٤٠٠ ياردة عند فرع دمياط) (٨٠ ياردة عند بحر شبين) (٥٥٠ ياردة عند فرع رشيد) وأن كل أراض المعسكرات مبتلة للغاية .

وأما الاقتراح الثانى وكان صاحبه - للعجب - هو (سليمان باشا) الفرنساوى قائد القوات المصرية . فكان هو السير على الضفة اليمنى للنيل حتى القناطر ، ثم عبور فرع دمياط واتباع الضفة اليمنى لفرع رشيد حتى بداية ترعة الخطاطبة على بعد ميلين من (بنى سلامة) وعبور فرع رشيد هناك والتقدم نحو دمنهور [٨].

وفى التقرير إشارة إلى أن الثكنات التى وضعت تحت تصرف الفرقة العاشرة فرسان فى القاهرة كانت ثكنات المدفعية القادرة على استيعاب ٤٥٠ رجل وحصان ، وثكنات الفرسان القادرة على استيعاب ٤٠٠ رجل وحصان ، كذلك فإن فى التقرير إشارة إلى أن الفرقة العاشرة فرسان والثانية عشرة رماح١٢ قد سارتا إلى القاهرة من السويس عبر هذا الطريق بكل سهولة

the 10 Hussars and 12 th lancers appear to have marched to Cairo by the foregoing route with great ease[٩]

ويفهم من هذه الإشارات أن فرقتين من الجيش البريطانى the 10 Hussars and 12 th Lancers جاءتا إلى مصر فى عام ١٨٥٥ وسارتا فى طريق السويس - القاهرة فيما كان يسمى بالطريق الهندى القديم Old Indian Transit Route والذى كان ينقسم إلى ١٥ محطة .

هل يفهم من ذلك أن بريطانيا قد أنزلت فرقتين عسكريتين فى السويس تمهيدا للزحف نحو القاهرة عام ١٨٥٥ ؟

ما معنى الإشارة إلى الفرقة العاشرة فرسان والفرقة الثانية عشر حملة الرماح فى طريق السويس - القاهرة ، ثم القاهرة - الإسكندرية؟.

إن الطريق بين السويس – القاهرة كان يتضمن السير من السويس إلى قلعة عجرود ثم السير فى الصحراء إلى القاهرة موضوعا فى الاعتبار عدم وجود المياه الذى أشار إليه التقرير ، فهل لم تشعر مصر فى ذلك الوقت بتلك المحاولة ؟.

كذلك فإن التقرير لا يشير إلى ظروف عودة القوة إلى بلادها .

ومع هذا فإن التقرير أشار إلى الطريق من السويس إلى القاهرة الذى يبدأ من السويس إلى الشلوفة – جنيفة – فايد – سرابيوم – نفيشه – المحسمة – التل الكبير – بلبيس – الخانكة –القاهرة. (١٠)

ومن المعلوم أن هذا الطريق هو الذى اتخذته القوات البريطانية للوصول إلى القاهرة فى عام ١٨٨٢ ، بعد أن جعل شق قناة السويس ، وحفر ترعة المياه العذبة إمكانية استخدامه أمرا سهلا .

ولقد كان الوصول إلى بلبيس يعنى السيطرة على محطة السكة الحديدية لخط الزقازيق – القاهرة ومن ثم الوصول إلى العاصمة بسهولة .

ويكشف جدول الطرق المرفق بالتقرير أن الطرق من السويس إلى القاهرة كانت تتراوح أطوالها ما بين ٨٤ كم (درب الحمراء ودرب الترابين) و ١٠١ كم (درب الواد) و ٨٦ كم (درب الأنجربيه) و ١٣١ كم (نفيشه) ، إلا أن القوات البريطانية اختارت طريق (نفيشه) السابق الإشارة اليه لتوفر المياه العذبة والتى كانت تسبب مشكلة فى استخدام الطرق الأخرى ، وهى صحراوية كما هو واضح .

وقد استعان التقرير فى التعرف على طرق مصر بأعمال : موراى Murray المسمى Handbook of Egypt المطبوع فى لندن عام ١٨٨٠ وسيرة دافيد بيرد Sir David Baird الذى ألفه ت . هوك T. Hook بعنوان Life of Sir D. Baird ، والجنرال برتراند Bertrand بعنوان Campagnes d'Egypte et de Syrie, 1798- 99 الصادر فى باريس عام ١٨٤٧ ، ولينان دى بلفـــون بك Linant De Belle Fonds Bey بعنوان

Memoire sur les Principaux Travaux d'Utilite Publique Executés en Egypte depuis la plus Haute Antiquité Jusqu á nos Jours المطبوع فى ثمانية مجلـــدات فى باريس عام ١٨٧٢ - ١٨٧٣ . ومن المعـروف أن (لينان) هذا هو المهـنـدس الـذى نفـذ مشـروع الـقـنـاطر الخيريـة ، وبيـديكـر K. Baedeker بعنوان Egypt, Handbook for Travellers المطبوع فى ليبزج Leipzic عام ١٨٧٨ .

كذلك فقد استعان التقرير بتقارير وأعمال عدد من ضباط البحرية البريطانية والمهـنـدسين الـذيـن أجـروا مسوحـات لمصـر خـلال فـترات عـمـلـهم بها كجواسيس متخفين فى شكل سياح أمثال اللفتنات كولونيل ج أوترام .Outram, J واللفتنانت كـولونيل جـى .ب لـوميسورير G.P. Le Messurier اللذان وضعا كتابا أسمياه :
Memoir on the Topography, Fortifications, Military Resourcces of Egypt.Confidential
فى ثمانية أجزاء وتم طبعه فى كلكتا Calcutta بالهند عام ١٨٧٦.

ومن بين من استعان بهم التقرير فى معرفة الطرق المصرية مشايخ العربان فى مصر أمثال الشيخ سليمان مبارك شيخ قبيلة المعازة والمسئول عن حراسة طريق القصير - قنا، والذى أعطى معلوماته عن طريق (القصير - السويس) للفتنانت كولونيل لوميسورير السابق الإشارة إليه. (١١)

وتجدر الإشارة إلى أن سليمان باشا الفرنساوى قائد جيش محمد على ومؤسس الجيش المصرى الحديث قد أعطى بريطانيا مقترحات بشأن طريق القاهرة - الإسكندرية كما أوضحنا فى السطور السابقة ، وهو مايعطى أكثر من علامة استفهام حول حياة هذا الرجل فى مصر والحاجة إلى إعادة دراسته .

ويبلغ مجموع الأعمال التى اعتمد عليها التقرير الذى تقدم ٢٢ عملا للتاريخ والسياسة ، و ٧٧ عملا فى الجغرافيا والرحلات ، و ٣٩ عملا فى الحملات العسكرية ، و١٦ عملا فى الإحصاءات والأعمال العامة ، وسبعة أعمال فى الفيلولوجيا (فقه اللغة)

فإذا أضفنا الى ذلك ، المعلومات التى قدمها:

- ضباط الجيش الأمريكيين الذين خدموا فى الجيش المصرى أثناء حكم إسماعيل،

- القساوسة ورجال الدين الأجانب أمثال (بادجر) الذى قدم معلومات عن التحصينات الساحلية المصرية وتحصينات القناطر الخيرية،

- كبار الضباط الأجانب الذين صمموا خطط الدفاع والتحصينات للبلاد فى الإسكندرية والقاهرة وغيرها،

- المصانع والشركات الأجنبية التى أقامت المصانع العسكرية لصناعة البارود وصب المدافع ومد خطوط البرق وإقامة شبكات الطرق،

- موظفو الحكومة المصرية من الأجانب المشتغلين فى الأعمال ذات الصلة بالمسائل الحربية كموظفى البرق،

- عربان قبيلة المعازة جواسيس بريطانيا عن طرق المواصلات الصحراوية فى مصر،

- كبار ضباط الجيش الفرنسيين الذين استعانت بهم مصر فى إنشاء وقيادة جيشها وتصميم خطط الدفاع والاستحكام أمثال سليمان باشا الفرنساوى Colonel Seve والمارشال سوولت الفرنسى خبير الدفاعات .

وإذا أضفنا إلى ذلك أيضا أعمال الجاسوسية التى قام بها ضباط المخابرات البريطانية ورجالها من الخبراء فى كل المجالات وما أنتجوه من أعمال تتصل مباشرة بالخطط الحربية ضد مصر مثل كتاب (أوترام ولو ميسور يير) الذى شرح طبوغرافية وتحصينات وموارد مصر الحربية، وكتاب الكابتن ريتشارد من البحرية الملكية واللفتنانت كولونيل كلارك من المهندسين الملكيين بعنوان Report on the Maritime Canal Connecting the Red Sea at Suez with the Mediterranean at Port Said والصادر فى لندن عام ١٨٧٠ .

إذا جمعنا كل هذه الأعمال الواردة فى التقرير الذى نقدمه فى هذه الدراسة Report on Egypt فإننا نستطيع أن نفهم كيف أدارت بريطانيا حملتها على مصر فى

عام ١٨٨٢ ، وكيف دبرت وخططت لها ، وكيف استفادت من أعمال المخابرات الحربية فى تأمين حملتها بحيث لم تترك شيئا للصدف أو الظروف . فقد وفرت المعلومات الوفيرة التى يتضمنها هذا التقرير السرى كل ما يحتاجه جيش قادم من قارة أخرى ليغزو بلدا فى قارة ثانية .

ولقد نجحت بريطانيا فى حملتها على مصر نجاحا مدويا ضمن لها البقاء فى البلاد سنوات طوال بفضل خطة محكمة التدبير اعتمدت على العقل والمعلومات Intelligence أكثر من البندقية والمدافع ، فاستحقت أن تفوز فى تدبيرها بجدارة . وهذا الدرس الذى لم تتعلمه مصر بعد.

الهوامش

(١) W.O Records - General - P.R.O.

عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٣٧٤

(٢) W.O. Records - General - Op.Cit.

(٣) Ibid.

حفز الإهتمام الألمانى بالشرق Drang Nach Osten الاهتمام البريطانى بالشرق وجمع المعلومات عنه . وكان ذلك التقرير الشهير(A Military Report on Syria)

(٤)

Report on Egypt - Compiled in the Intelligence Branch, Quarter Master - General's dept. Horse Guards, War Office - London. printed for Her Majesty's Stationery Office, by Harrison & Sons - printed in ordinary to Her Majesty, 1882, p . 36 .

(٥) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ، ص ص ٤٥١ - ٤٥٥ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥، ٤٩٦

(٦) Report on Egypt, Op. Cit., p. 218

(٧) Lexicon Universal Encyclopedia - Lexicon Publications - N.Y., 1983, P.24

(٨) Report on Egypt - PP. 360 -363 , 440

(٩) Ibid., P 363

(١٠) Ibid., p p. 375 - 377

(١١) Ibid., p. 389

المصادر والمراجع

-(Confidental) - Report on Egypt - Compiled in the Intelligence Branch, Quarter Master - General's Department, Horse Guards, War Office - London - printed for Her Majesty's Stationary Office, By Harrison & Sons - Printed on ordinary to Her Majesty. 1882 .

- W.O Records - P.R.O- General.

- Lexicon Universal Encyclopedia - Lexicon Publications , N.Y.,1983.

- عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٣٦.

الوفد الأباظى فى لندن

يوليو ١٩٠٨

جذور فكرة إرسال الوفود المصرية إلى إنجلترا

د. حمادة محمود إسماعيل

أستاذ التاريخ الحديث

بكلية آداب - بنها

الوفد الأباظى فى لندن

يوليو ١٩٠٨

جذور فكرة إرسال الوفود المصرية إلى إنجلترا

تمهيد

لم يكن عام ١٩٠٨ فى تاريخ مصر الحديث عاماً عادياً، بل حمل إلينا العديد من الحوادث التى جعلته يحتل مكانه خاصة، ففي بدايته وتحديداً فى فبراير، كان رحيل مصطفى كامل الزعيم والسياسي الشهير الذى ملأ الحياة السياسية فى مصر حيوية ونشاطاً وكتب اسمه بحروف من نور فى سجل الحركة الوطنية المصرية.

أما ثاني الحوادث، فكان الانقلاب الذى حدث فى الدولة العثمانية وأسمى «الانقلاب العثمانى» والذى كان وراؤه جماعة الاتحاد والترقي، وقد ترك هذا الانقلاب أثراً فى مصر تجلى فى الدعوة للمطالبة بالدستور[١].

ثالث الحوادث، تلك الدعوة التى وجهها إسماعيل باشا أباظة أحد أعيان المصريين وعضو مجلس شورى القوانين[٢] إلى الصحفيين لتناول الشاى بفندق الكونتيننتال، وإبلاغهم عزمه السفر إلى لندن مع زملائه محمد باشا الشريعي عضو مجلس مديرية المنيا، السيد حسين القصبي عضو الجمعية العمومية ومجلس مديرية الغربية، وعبد اللطيف بك الصوفاني عضو الجمعية العمومية ومجلس مديرية البحيرة، وناشد بك حنا عضو الجمعية العمومية، ومحمد بك سالم المحامي. والهدف من الزيارة القيام بمهمة «.....سياسية يريدون أن تكون الصحف على بينة من حقيقتها».[٣]

وقبل أن يتواصل الحديث عن الوفد ومهمته، يجب التوقف أمام عدة أمور:

* إن الشخصيات المشار إليها تنتمي إلى شريحتين من شرائح المجتمع المصري، الأولى شريحة كبار الملاك الذين أسماهم الإنجليز «أصحاب المصالح الحقيقية».[٤] أما

الثانية فهى شريحة البورجوازية المصرية التى تحركت وطرحت نفسها كقيادة منذ الحملة الفرنسية على مصر.(٥)

* إنه ولأول مرة منذ الاحتلال البريطاني لمصر (١٨٨٢) يقوم وفد على هذا المستوى بزيارة العاصمة البريطانية ويجرى لقاءات مع بعض الساسة الإنجليز وهو ما يؤكد أن سياسة التفاوض مع الإنجليز منذ ١٩٢٠ لم تكن من فراغ.(٦)

* إن عبد العزيز الصوفاني -أحد أعضاء الوفد المذكور- كان أحد الشخصيات الموالية للحزب الوطنى وانضمامه إلى هذا الوفد يؤكد الصراعات التى بدأت تنشب داخل الحزب بعيد وفاة مصطفى كامل، وأن هناك خلافات حول سياسات الحزب.

* يشير أحد المصادر المعاصرة إلى أن الذى شجع على هذه الخطوة هو الخديو عباس الثاني، بل أنه زاد على ذلك، بأن طلب إلى السير الدون غورست التوصية عليه لدى وزارة الخارجية وقد فعل ذلك عملاً بسياسة الوفاق.(٧)

قبيل سفر الوفد:

فى تصورنا أن هناك العديد من الأسباب التى وقفت وراء اختيار هذا التوقيت لفتح قناة للاتصال مع الإنجليز للتعامل مع القضية المصرية بشكل جيد، أول هذه العوامل ما أشرنا إليه من قبل حول ما حدث من إنقلاب فى تركيا وما ترتب على ذلك من إرتفاع الأصوات المنادية بالدستور، أما الثاني فهو ما حدث من تغيير فى بعض سياسات إنجلترا تجـاه مصر، وهـو ما بدا من خلال استبدال المعتمد البريطاني لورد كرومر بآخر هو السير (الدون غورست) فى أعقاب حادث دنشواى، أما ثالثها، فيكمن فى محاولة كبار الملاك وفصائل البور جوازيين أن يكون لهم دور أكبر فى القيادة فى ظل تلك المتغيرات. أما رابع العوامل، فهو ما تولد عند البعض، بأنه من الصعب زحزحة الإنجليز من مصر، خاصة بعد ما تم من وفاق بينها وبين فرنسا فى عام ١٩٠٤ ومن ثم كان البحث عن صيغة جديدة.

على أية حال، فعندما قرر إسماعيل أباظة والذين معه السفر إلى لندن، كانوا يعلمون أنهم أقدموا على خطوة خطيرة وهو ما جعل إسماعيل أباظة يبلغ الصحف عن عزمه ومن معه السفر، من خلال الدعوة التى وجهها لهم للإلتقاء فى فندق الكونتننتال مساء ١٣ يوليو، وفى الموعد المضروب ألقى فى المدعوين كلمة وضع فيها النقاط على الحروف من حيث الغاية التى يسعون إليها من السفر إلى لندن وأنهم سيعملون بصفتهم مصريين لا نوابا عن الأمة ولا عن حزب أو هيئة من الهيئات، وأن الغرض من السفر «رفع صوت التضرر والاستياء للأمة الانكليزية بعاصمة بلادها. أولاً: من ممانعة حكومتهم للحكومة المصرية من إجابة مطالب الجمعية العمومية، ثانياً: لتبديد الخرافات والأوهام التى ألصقها بهذه المطالب الحقة العادلة أعداء مصر والمصريين هنا وهناك، ثالثاً: من السياسة التى تسير عليها الحكومة الانكليزية فى بلادنا خصوصاً فى طريقة التعليم وتأخير الصناعة وحفظ الأمن وكيفية تصرفات بعض الأجانب فى المصالح التى يتولونها وحرمان ذوى الاستعداد والكفاءة من المصريين من الوظائف العمومية كلما سنحت الفرصة وساعدت على ذلك الظروف، وفى صرف الأموال وعلى الأخص الاحتياطي منها الذى هو عدة البلاد فى أوقات شدتها قبل أخذ رأى الأمة فى الوجوه التى تكيل فيها هذه الأموال كيلاً، وفى غير ذلك من الأعمال والإجراءات المشهورة التى تشكو منها خاصة المصريين وعامتهم فى جميع الأمور والمصالح والإدارات وبالجملة لتنبيه الأمة الانكليزية لحث حكومتها على الوفاء بوعودها وعهودها للمصريين الذين ينتظرون منها احترام تلك العهود».

أشار إسماعيل أباظة فى معرض حديثه إلى أهمية أن تكون لندن ملتقى أفاضل المصريين فى تيسير الاحتكاك بين الأمتين وتبادل الأفكار وما يمثله ذلك من مزايا للفريقين بدلاً من الحديث عن ظلم الإنجليز لنا فى مصر أى الانتقال من مجال الفعل إلى العقل. أيضاً نفى إسماعيل أباظة فى حديثه ما ردده البعض من هدفه والذين معه هو حب الظهور ولكنهم يسعون لخدمة بلادهم دون أن يكلفوها درهماً وأن الفائدة التى

يسعون إليها هى خدمة الأمة بأسرها، «وإذا فشلوا فى مهمتهم فلا خسارة على البلاد والفرق واضح بين من يسعى لخدمة بلاده ومن يقعد». ونفى فى خطابه أن فكرته فى السفر جاءت بإيعاز من أحد، وأشار إلى أن هذه الفترة من أنسب الفترات للتحرك. كما أشار أيضاً إلى مسألة فى غاية الأهمية وهى أن فكرة السفر هذه تم الترتيب لها فى العام الماضي ولأسباب خاصة بالذين فكروا فيها تأجلت إلى هذا العام. وفى ختام كلمته طلب من أصحاب الصحف فى مصر وطنية وأجنبية مساعدة الوفد فى مهمته.(٨)

على أية حال، فقد كانت هذه أول مرة يعلن فيها بعض المصريين، وعلى الملأ عن مثل هذه المهمة وتلك الخطوة الخطيرة، ومن ثم كان رد الفعل والذى كان بنفس قوة الفعل.

وجاء رد الفعل المضاد قوياً وسريعاً من قبل الحزب الوطني، أقوى الأحزاب المصرية أنذاك، فعلى لسان رئيسه محمد فريد أعلن فى حديث له إلى جريدة «جنيف» الصادرة فى ١٠ يوليو، حيث كان يجول فى أوروبا، أعلن أنه على ثقة من أن الوفد المذكور لن يسافر أبداً(٩) ، وفور عودته إلى مصر فى ١٤ يوليو كتب مقالاً طويلاً فى اللواء الصادر فى ١٨ يوليو أشار فيه إلى أن إنجلترا عندما رأت اشتداد ساعد الحركة الوطنية فى أعقاب حادث دنشواى ١٩٠٦، سعت وراء تكوين لجنة من بعض أعضاء مجلس العموم ورجال الصحافة وشكلت ما أسمته باللجنة البرلمانية المصرية «بدعوى الدفاع عن حقوق المصريين أمام الأمة الانكليزية ليوهموا المصريين بالمساعدة على نيل حقوقهم حتى ينسوا المطالبة بالجلاء أو يسكتوا عنه إن لم يحصلوا من بعضهم على الاعتراف به وقبوله ولو بصفة مؤقتة فأوفدوا المستر روبرستون فى أوائل ١٩٠٧ والدكتور روثرفورد فى أوائل هذا العام لدرس الشئون المصرية والاتفاق مع من يسمون أنفسهم بالمعتدلين على التوفيق بين مصالح المحتلين ومصالح المصريين (كأن هذا من الممكنات)، وكانت من نتائج هذه المساعي سفر بعضهم إلى لوندرة فى العام الماضي وحضورهم الوليمة المشهورة وإلقاء الخطب التى لم يزل صوتها يرن فى آذاننا». ثم تحدث عن وفد إسماعيل أباظة قائلاً

«لكنهم لما رأوا قيام الرأى العام على من صرح منهم لبعض الجرائد الانكليزية بقبوله الاحتلال مؤقتاً سعوا فى مصر بأن يكون الوفد فى هذا العام مؤلفاً من بعض الأعيان وذوى العائلات ليكون لكلامهم تأثير أوقع من وفد العام الماضي فعرضت هذه المأمورية على كثير من رجال الشورى وغيرهم فلم يقبل منهم بعد التى واللتيا من رافق سعادة إسماعيل باشا أباظة ذلك السياسي المحنك الذى لم يقبل الإنضمام إلى حزب الإصلاح وحزب الأمة ليكون فوق الأحزاب».

كذلك أشار محمد فريد فى كلمته إلى أن مطلب الجلاء لم يأت صريحاً فى خطبة إسماعيل أباظة وهو الأمر الذى تسعى إليه اللجنة البرلمانية المصرية، غير أن محمد فريد طالب الوفد بأن يزور أيضاً عواصم الدول الأكثر اشتغالاً بالأحوال المصرية مثل باريس وغيرها. وأنهى محمد فريد كلمته بتحذير المصريين من هذه السياسة «التى يراد بها تخدير أعصاب الحركة الوطنية ولا يغتروا بوعود اللجنة البرلمانية، وليكن الجلاء دائماً فى مقدمة المطالب الوطنية»(١٠) . من ناحية أخرى أشار محمد فريد فى مذكراته إلى أن هذا الوفد تم الاتفاق عليه بالاتفاق مع الخديوى ضمن سياسة الوفاق بين غورست والخديوى لمحاربة الحزب الوطني وأن الهدف هو «قتل الحزب الوطنى والاعتراف ضمناً بالاحتلال الانكليزي».(١١)

ولسنا هنا فى حاجة إلى التعليق على ما قاله محمد فريد ففى كلامه الكفاية بأن الوفد تم التخطيط له مع اللجنة البرلمانية وكان الاتهام صريحاً للوفد ورجاله بالخيانة.

وإذا كان هذا موقف الحزب الوطني، فإن جريدة مصر كان موقفها معادياً ولكن على طريقتها، فقد تبنت وجهة نظر بعض الأقباط فى معاداة الوفد وأخذ العداء أكثر من سبيل فناشد حنا أحد أعضاء الوفد، لم يوكله الأقباط للنيابة عنهم وتمثيلهم فى الوفد وأنه إذا لم يعتزل هذه المأمورية السياسية فسيضطر الأقباط إلى إبلاغ ولاة الأمور فى إنجلترا بعدم اعتباره نائباً عنهم، كذلك تناولت الصحيفة خطاب إسماعيل أباظة بالنقد وكيف أنه تصرف فى الأمور تصرفاً غير مستحسن عندما أعلن أنه ليس نائباً عن الأمة ولا عن هيئة

من الهيئات وأنه بذلك تخلص من الأمة قبل أنه يغادر مصر حتى لا يحاسبه أحد على ما سيفعل، وأنه حق على كل مصرى بذلك أن يحاسب هذا الوفد، وأدانت الصحيفة مسلك رئيس الحزب مسبقاً إذا طلب الجلاء العاجل وتفوه بعبارات الطيش ونادى بالدستور وكيف أن هذه العجلة تضر بمصالح مصر وأن طرق أبواب الإصلاح بالحكمة والتروى وحسن التفاهم مع المحتلين هو أفضل السبل لحل القضية.(١٢)

ومن خلال توجه صحيفة مصر يمكن التوقف أمام مسألتين:

الأولى: أن الجريدة ربطت ربطاً غير موفق بين مطالب الأقباط والإنجليز، وهو ما يحسب عليها حتى ولو كانت تمثل شريحة من الأقباط.

الثانية: جعلت الجريدة المسألة القبطية على رأس الأولويات التى كان يجب على الوفد الإعلان عنها كما أنها أسفرت عن أن مطلب الجلاء دون ضمانات سيضر بالأقباط وهو ما يحسب عليها أيضاً.

وعلى نفس الاتجاه المضاد سارت جريدة المباحث السياسية الأسبوعية، فوصفت أعضاء الوفد بعدم التبصر، فالضرر المتوقع من سفر الوفد مؤكد، لأن الإنجليز معروفون بانتهاز الفرص وسفر هذا الوفد إلى بلادهم ومفاوضتهم سيجعلهم يتصورون أن لهم حقاً شرعياً مقدساً فى بلادنا وليسوا مغتصبين وأن على المصريين أن يرسلوا الرسائل إلى إنجلترا وكل أوروبا يعلنوا فيها براءتهم من الوفد ومن الجاهلين السائرين ببلادنا فى سبيل الدمار المقتربين بنا إلى الهوة البعيدة القرار».(١٣)

إذا انتقلنا إلى الجانب المؤيد للوفد، وجدنا أن الجريدة لسان حال حزب الأمة جاءت على رأسها، فبالإضافة إلى أنها نشرت النص الكامل لكلمة إسماعيل أباظة بما يشير بالتأييد الكامل، فأنها نشرت رسالة لأحد الأقباط ويدعى نصيف جندى المنقبادى الطالب بجامعة باريس تناول فيها مسألة تمثيل أحد الأقباط فى الوفد وسار فى اتجاه مضاد لصحيفة مصر، وهاجم الذين تصدوا لناشد حنا أحد أعضاء الوفد، «وكيف أنهم أناس

يدوسون المصالح العامة المقدسة إرضاء لشهواتهم النفسانية وأمراضهم العقلية ومصالحهم وأن التعصب الديني قتل كل عاطفة وطنية شريفة فى نفوسهم حتى صاروا يكرهون الاستقلال والحرية ويسبحون بذكر الاحتلال مع أثرته واستبداده لمجرد كون الإنجليز نصارى مثلهم ليروجوا بضاعتهم بصناعتهم وليحصلوا على شيء من الشهرة ومن ثم قاموا يطعنون على أعضاء الوفد خصوصاً ناشد حنا». وأهاب نصيف المنقبادى بالأقباط ألا يعضدوا الفكرة التى دعا إليها بعض الأقباط بإرسال وفد قبطي إلى لندن لعرقلة مساعي وفد إسماعيل أباظة[١٤].

هكذا كان رأى الجريدة لسان حال حزب الأمة، والذى هو بالطبع رأى الحزب الذى كان ضمن رجاله سعد زغلول أول من فاوض الاستعمار فى شخص لورد ملنر فى عام ١٩٢٠.

أما حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية فكان موقفه واضحاً تماماً، فلم يكن يتوقع وقد ذهب رئيسه فى العام الماضي إلى لندن والتقى مع بعض ساسة الإنجليز لم يكن يتوقع أن يقف موقفاً معارضاً، فقد نشرت المؤيد كامل خطاب إسماعيل أباظة مع مقدمة عن أهمية الاتصال بالإنجليز وفائدته، إضافة إلى بعض ما نشرته على لسان بعض كتابها عن أهمية الوفد وثناء على رجاله والتنبؤ بنجاح مهمته فى بلاد الإنجليز.[١٥]

وعلى درب التأييد جاء موقف جريدة المنبر لصاحبها أحمد حافظ عوض، وكذا صحف وادى النيل، الأهرام، الشرق.[١٦]

على أية حال فردود الأفعال بهذا الشكل المتباين كان وراءها عدة عوامل، أولها الحياة الحزبية والتى كانت حديثة عهد بالظهور وتباين وجهات نظر تلك الأحزاب، وثانيها تباين اتجاهات الصحف فمنها ما هو حزبي ومنها ما كان موالياً للخديوى، وثالثة تتحدث بلسان فئات معينة، ورابعة موالية للاحتلال، وخامسة تحاول إثبات وجودها فأدلت بدلوها، كل تلك الاتجاهات بما لها أو عليها، أثرت الحياة السياسية فى العقد الأول من القرن العشرين وكانت أحد الأدلة على حيوية مصر.

عامل ثالث: وهو أن خطوة إسماعيل أباظة كانت نقطة تحول مهمة فى شكل العلاقات بين مصر وإنجلترا أو ربما أوغرت هذه الخطوة صدور البعض لأنه أخذ زمام المبادرة وأفسد عليهم ما كانوا يفكرون أيضاً فى فعله ولم تواتهم الشجاعة.

صفوة القول أننا على الصورة السالفة كنا أمام اتجاهين، اتجاه مضاد لوفد إسماعيل أباظة وعلى رأسه الحزب الوطني ومن كان يدور فى فلكه، وآخر على رأسه حزب الأمة وحزب الإصلاح وآخرين وكانت الظروف السياسية فى مصر بعد ذلك كفيلة بترجيح كفة الاتجاه الثانى على الأول وكان الترجمة العملية لذلك ما حدث بعيد ثورة ١٩١٩.

الوفد فى لندن:

كما أشرنا سابقاً، شد إسماعيل أباظة والذين معه الرحال إلى لندن، فغادروا البلاد فى ١٤ يوليو مستقلين الباخرة «إيجيبت» وفى مساء ٢٠ يوليو وصل الوفد إلى لندن حيث كان فى استقبال أعضاء الوفد المستر «فوكس بورن» سكرتير اللجنة البرلمانية المصرية الذى أبلغهم تحيات المستر «روبرتسون» عضو البرلمان. وبعد أن استقر بهم المقام فى فندق «المتروبول» وافقوا على قبول دعوة المستر فوكس لتناول الغذاء ظهر يوم الأربعاء ٢٢ يوليو بنادى حزب الأحرار للتعارف بينهم وبين أعضاء اللجنة البرلمانية، كما وافق أعضاء الوفد على الاجتماع مع أعضاء اللجنة البرلمانية بدار البرلمان مساء الخميس ٢٣ يوليو.

على أية حال بدأ البرنامج الرسمي للوفد فى اليوم التالي مباشرة أى ٢١ يوليو عندما قام أعضاؤه بزيارة المستر فوكس بورن بمكتبه بدار البرلمان الانجليزى رداً على زيارته واستقباله لهم، وهناك التقوا مع المستر «روبرتسون» حيث دارت بينه وبينهم الأحاديث فى مسائل شتى وأشار المستر «روبرتسون» عليهم بمقابلة السير «إدوارد جراى» وزير الخارجية، لأنه -أى- «روبرتسون» فاتح وزير الخارجية فى ذلك فلم يمانع، ولم يمانع أعضاء الوفد أيضاً.

وفى ظهر الأربعاء ٢٢ يوليو توجه الوفد حسب الاتفاق إلى نادى حزب الأحرار، والتقوا مع بعض أعضائه وبعد كلمات الترحيب من الجانبين، ألقى المستر روبرتسون كلمة فى الحضور، أثنى عليها إسماعيل أباظة ثم عقب الوفد بكلمة ألقاها نيابة عن الوفد إبراهيم الشوربجي(*). وقد تناولت الكلمة أحوال مصر منذ الاحتلال البريطانى وكيف أن إنجلترا أدارت الأمور فى مصر لصالحها ومن ثم كانت درجة التفاهم بين الأمتين تسير فى طريق عكسي وكان من الممكن أن تصل الأمور إلى درجة سيئة لولاً المبادرات التى قام بها بعض الإنجليز بزياراتهم لمصر ومن بعض المصريين بزيارتهم لإنجلترا لايجاد قدر من التفاهم بين الأمتين، لساءت الأمور أكثر وإذا كانت هذه المبادرات فى بدايتها إلا أن نتائجها ستكون مثمرة فى النهاية. وأشار الوفد فى كلمته أن الخطوة التى قام بها ستتبعها خطوات كثيرة وستكون نتائجها طيبة فى المستقبل.(١٧)

وفى الساعة الرابعة من يوم الخميس ٢٣ يوليو وحسب البرنامج المحدد التقى الوفد مع بعض قيادات حزب الأحرار وبعض أعضاء البرلمان الإنجليزي، وألقى الوفد كلمته على الحضور والتى تمحورت حول إجراءات إنجلترا فى مصر تجاه التعليم فأبان الوفد فى كلمته كيف أن الحكومة المصرية نفذت إرادة حكومة إنجلترا فى التعليم، وجعله حقل تجارب وما ترتب على ذلك من انحطاط التعليم وفساد الأخلاق وانحدار مستوى المعلمين وعدم استعمال لغة البلاد واسطة فى التعليم وأعطى الوفد أمثلة عن خطايا إنجلترا فى التعليم مثل تقليل البعثات وإلغاء القسم العالى بالمدرسة التوفيقية الذى يتخرج منه المعلمون الأكفاء، ومعاملة الأخيرين معاملة سيئة مما جعل معظمهم يستقيل ومن بقى منهم عين فى وظائف حكومية فخلت كراسي التدريس بمدارس الحكومة من المعلمين الأكفاء.

أيضاً تناول الوفد فى كلمته برامج التعليم، ففضلاً عن أنه سادها الخلط والنقص، فقد ألغيت منها بعض المناهج المهمة مثل التاريخ الطبيعى والكيمياء العضوية وغيرها من العلوم المشابهة، كذلك امتدت يد التخريب فهدمت بعض المدارس وألغت بعضها الآخر

وأنزلت ثالثة إلى درجة الكتاتيب وكيف أن مثل تلك الخطوات ترتب عليها أن الأهالى الذين يريدون تعليم أولادهم أرسلوهم إلى المدارس الأهلية والأجنبية.

ثم انتقل الخطاب ليتحدث عن أساليب العلاج والتى جاءت أفدح فعجز المعلمين يعالج من خلال استقدام مدرسين إنجليز وصفهم الخطاب بأنهم «مجردون من الكفاءة العلمية والخبرة بقواعد التعليم» ويعالج أيضاً من خلال أساليب أخرى أكثر ضرراً وعدد الخطاب أمثلة على ذلك فضلاً عن جعل التعليم باللغة الإنجليزية على حساب اللغة العربية وعندما علت الأصوات بالشكوى اضطرت الحكومة لادخال بعض التعديلات احتراماً للرأى العام وتمويها عليه.

تطرق خطاب الوفد أيضاً إلى البعثات وكيف أن معظمها يرسل إلى إنجلترا وليس إلى أحسن المعاهد العلمية، كما تناول مسائل أخرى مثل زيادة المصروفات المدرسية زيادة باهظة وسن لوائح وقوانين صارمة وعقيمة ... وفى ختام الخطاب أشار إلى عدة أمور:

الأول: إن إطالة الوفد الحديث عن التعليم «لأن المعارف من أعظم أسباب سعادة الحياة فى كل أمة وفى كل بلد» وأن ما قاله الوفد تؤيده المستندات.

الثاني: طلب مساعدة أعضاء البرلمان من الحكومة ألا تستخدم السياسة فى أمور التعليم وأن تفتح الحكومة المصرية أبواب التعليم لطالبيه وأن تنفق عليه بسخاء.

الثالث: أشار الوفد إلى خطورة الاتجاه إلى أقطار أخرى لطلب العلم وما فى ذلك من تأثير بالسلب بسبب استقطاب العناصر الشابة المتعلمة للاستفادة منها فى بلاد أخرى وهو ما يشكل على حد قول الوفد خسارة لمصر ولبريطانيا.

الرابع: أشار خطاب الوفد إلى أن الجهل «يزيد سوء التفاهم بين أمتكم والأمة المصرية ويجعل الخلاف والنفور بيننا وبينكم إلى الأبد وهو ما لا يفيدكم ولا يفيدنا».

الخامس: «إن التعليم النافع الصحيح بلا شك أحسن واسطة تؤهلنا إلى الحرية وتوصلنا إلى الاستقلال الذى هو من حقوقنا الطبيعية والذى كان من أعظم الوعود

والعهود التى وعدتها حكومتكم للأمة المصرية وتعهدت بها للدول الأوروبيةعلى لسان رجالها الرسميين»(١٨).

ولم يمر الخطاب المصرى مرور الكرام على أعضاء البرلمان الحضور فهاجمه بعضهم وطلب منع رجال الوفد من مقابلة وزير الخارجية، وهو ما عارضه المستر روبرتسون ودافع بشدة عن وجهة النظر المصرية وطالب بضرورة أن يتم الوفد برنامج زيارته، كما وجه البعض الآخر أسئلة إلى الوفد بشأن ما ورد فى الخطاب قام بالرد عليها بعض أعضاء الوفد.(١٩)

على كل حال فإنه بناء على ما سبق، ومن خلال الخطاب المصرى والرد عليه يمكن التوقف أمام عدة أمور:

* جاء التعليم على قائمة الأولويات فى إطار حركة الوفد، وإفهام الإنجليز أثر بلادهم السلبي على التعليم وهى مسألة تحسب للوفد. ومسألة التعليم وإثارتها بهذه الصورة يرتبط بما كان دائراً خلال تلك المرحلة حول الدعوة لإنشاء جامعة، وكذا الصراع الذى خاضه سعد زغلول فى نظارة المعارف ضد سياسة المستشار الإنجليزى دنلوب.

* عول الوفد كثيراً على حزب الأحرار وكذا اللجنة البرلمانية، ولكنه نسى أو تناسى أن ما يحدث من صراع سياسي بين الأحزاب إن هو إلا جزء من الحياة السياسية فى بريطانيا فلم يثبت أن أحد السياسيين أو أحد الأحزاب سعى فى غير مصلحة بلاده. وهذا التعويل وقع فيه من جاءوا بعد إسماعيل أباظة و هى مسألة على أية حال لا تحسب للوفد. ولكن هل كان أمام الوفد ومن أتى بعده سبيلاً غير ذلك؟!.

* ما يحسب للوفد أنه طرح قضية الاستقلال، صحيح أنه لم يكرر كلمة الاستقلال سوى مرة واحدة فى رده على كلمة روبرتسون ولم يقرنها بانسحاب إنجلترا إلا أنه على كل حال طرح جديد فى المسألة المصرية.

* نبوءة الوفد بأن ما يدور فى إنجلترا الآن من خلال الوفد، هو خطوة أولى ستتبعها خطوات، جاءت صحيحة، فلم تمر بضع سنين حتى كانت مفاوضات سعد - ملنر ١٩٢٠.

على أية حال فحسب البرنامج كان أهم اللقاءات، لقاء وزير الخارجية «إدوارد جراي» والذى كان محدداً له الأثنين ٢٧ يوليو وقبل اللقاء كان الوفد قد أعد مذكرة تضمنت أهم المطالب العامة التى رأى أعضاء الوفد أنها ستكون أساساً للمناقشة مع وزير الخارجية.(٢٠)

وقد أشارت المذكرة إلى أن ما فيها يعبر عن رأى عدد كبير من المشتغلين بالمسائل السياسية وغير المشتغلين بها فى مصر والمتعلقة بما نحن فى حاجة إليه من الإصلاحات الدستورية وغيرها وأن «الاهتمام بتلك الأراء والعناية بها يساعد حكومتكم على الوفاء بالعهود والوعود التى كررتها مراراً من عهد اللورد دوفرين إلى الآن فى كثير من المواقف الرسمية» ومن أهم تلك الوعود «سعي الحكومة البريطانية واجتهادها فى تمكين المصريين من الاستقلال وإدارة شئونهم بأنفسهم» ثم عرجت المذكرة إلى الحديث عن توسيع نطاق سلطة الأمة وكيف أنه لا توجد بوادر تدل على الاهتمام بوضع أى نظام واف يشتمل على توسيع سلطة الأمة حتى يتسنى لها أن تستقل بأمرها وتدير بنفسها شئونها سواء كانت العمومية أو الإقليمية.

أيضاً أوضحت المذكرة كيف أن مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية بلا سلطة تشريعية كما احتج المصريون فى المذكرة على ما تراه حكومة إنجلترا من أن الشعب المصرى «لم تتوفر فيه إلى الآن الصفات اللازمة بأن يتولى بنفسه إدارة شئونه» وكيف أن ما تراه إنجلترا بعيد كل البعد عن الصواب.

انتقلت المذكرة بعد ذلك إلى مطالب المصريين والتى حصرتها فى منح الأمة المصرية حكومة نيابية من خلال توسيع سلطات الهيئات التى يقال أنها نيابية. وكذا منح مجالس المديريات سلطات الحكم الذاتي من خلال توسيع نطاق سلطاتها والتى من الممكن أن تخولها سلطة ضرب رسوم وقتية على الأطيان تفرضها بمعرفتها بعد تصديق

الجمعية العمومية عليها فى سبيل التعليم بجميع درجاته التى تراها أفيد وأنفع لمصلحه الأمة تحت مراقبة الحكومة. أيضاً أشارت المذكرة إلى مسألة التعليم ثانية من ناحية أن نظامه غير منطبق على مصلحة أبناء مصر وأنه فى حاجة إلى تغيير كامل وأن ذلك يتم من خلال إعادة المواد المهمة التى تم حذفها من المناهج وزيادة إنشاء المدارس العليا لتخريج أساتذة أكفاء وزيادة عدد طلاب الإرساليات وإرسالهم إلى أشهر المعاهد العلمية الأوروبية وأن يكون لمجلس شورى القوانين حق إبداء الرأى والموافقة على جميع نظم وقوانين ولوائح التعليم.

أيضاً طالبت المذكرة من إنجلترا أن تساعد حكومة مصر فى الحصول على مصادقة الدول لأن تسمح للمحاكم المختلطة بأن تمارس حقها الممنوح لها فى قانونها وهو النظر والفصل فى جميع الجنح والجنايات «والتى تقع من الأوروباويين، كما تنظر الآن وتفصل فى المسائل المدنية المتعلقة بهم».

كما طالبت المذكرة بتعيين الأكفاء من المصريين فى الوظائف العليا خاصة وأن المتبع الآن ليس فقط تعيين الإنجليز فى الوظائف التى يسهل على المصريين أن يقوموا بها بل تعيينهم فى الوظائف التى كان يشغلها المصريون.[٢١]

والمتأمل فى المذكرة المصرية، يجب عليه التوقف أمام أمرين:

الأول: أن كلمة الاستقلال التى وردت فى المذكرة هي مسألة وإن كانت تحسب للوفد، إلا أنها لم تكن تعني المعنى الواسع للاستقلال، ولكن بمنطوق المذكرة تعني توسيع نطاق سلطة الأمة من خلال منح الأمة حكومة نيابية وتوسيع سلطات مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وكذا مجالس المديريات وهي ما يمكن أن يطلق عليه «الحكم الذاتي».

الثاني: أكدت المذكرة مرة أخرى على مسألة التعليم بكافة درجاته وهي مسألة تحسب للوفد، ولكن تحقيق ما طالبت به المذكرة كان فى حاجة إلى وقت طويل. كما

أظهرت المذكرة فى نفس الوقت أن التعليم كان أحد المجالات الحيوية والمؤثرة فى إطار حركة إنجلترا فى مصر.

على أية حال فقد رد وزير الخارجية فى كلمته على مذكرة الوفد المصرى وتبنى الدفاع عن موقف إنجلترا والإصلاحات التى قامت بها فى مصر...وبالطبع كان على الوفد أن يرد على كلمة وزير الخارجية ومدافعاً عن مطالب مصر.

وأنهى وزير الخارجية تعقيبه على المذكرة المصرية قائلا «إنكم تطلبون أن تسيروا بسرعة ويظهر لي أن الحكومة تسير فى طريق الإصلاح ببطء وإني أجاهر لكم بأن كلا الأمرين غير محمود وخير الأعمال ما كان فى منهج الاعتدال لهذا فإنني سوف أعدكم بأنني سأوجه كل عنايتي واهتمامي بمطالبكم وأعمل لصالح بلادكم ولخير أمتكم بكل ما يصل إليه حد استطاعتي واجتهادى .... وأن لي عظيم الأمل بأن تثقوا وأن تعتقدوا بأن الحكومة الإنكليزية تود وتتمنى لمصر كل خير وسعادة ثم كلما صادفكم من التصرفات التى يظهر لكم أنها تؤدى لغير هذه الأمنية الحقيقية فتأكدوا أنها لم تحصل والأخطاء عن حسن نية إذ لا يوجد إنسان معصوم من الخطأ.

وإني وزملائي وزراء حكومة جلالة الملك لا يتأخرون عن إجابة كل مطلب عادل ولا يدخرون وسعاً فى انتهاج كل منهج يساعد المصريين على استقلالهم فى بلادهم ويساعدنا على الوفاء بوعودنا التى وعدناها ليعلم المصريون كافة أن استقلالهم بين أيديهم دون غيرهم فإن شاءوا استعجلوه وإن شاءوا استأخروه وعملوا لتأخيره».(٢٢)

ومن خلال الحوارات التى دارت بين الوفد ووزير الخارجية يمكن التوقف أمام عدة أمور:

* أن الوفد أعاد طرح نفس الموضوعات التى طرحها مع بعض أعضاء البرلمان وهي مسألة تؤكد محدودية مطالب الوفد.

* يدخل فى مسألة محدودية المطالب، أن الوفد لم يتعرض لا فى هذه المرة ولا فى لقائه مع أعضاء البرلمان لمسألة الجيش وتقويته بعد أن عبثت به إنجلترا ولكن يبدو، بل

على الأرجح أن أعضاء الوفد خشوا الاقتراب من هذه المسألة لأنها من وجهة نظر الإنجليز غير قابلة للحوار، ومن ثم أراح أعضاء الوفد أنفسهم من عناء الخوض فيها.

لم يبد أعضاء الوفد فى تقريرهم أى تعقيب على كلام وزير الخارجية حول «العمل لخير مصر» ومهمة «إنجلترا العظيمة فى مصر» وكيف أن وزير الخارجية ألقى بالكرة فى ملعب المصريين عندما أشار إلى أن استقلال مصر بيدها دون غيرها، وهذا إسراف فى حسن الظن من الوفد تجاه الإنجليز وهو ما لا يحسب له.

على أية حال فقد أرسل وزير الخارجية تقريراً ضافياً إلى المسئولين الإنجليز فى مصر، عن المقابلة وما دار فيها ولم يختلف التقرير عما أوردناه سابقاً إلا فى الجزئية التى أشار فيها وزير الخارجية وعبر فيها عن إعجابه بهذه المجموعة عندما وصفها بأنها «الجناح المعتدل من حزب الإصلاح فى مصر»[٢٣] وهو ما جعل البعض يعلق قائلا «ولا ندرى من أين جاء بهذا الوصف لأن أعضاء الوفد لم يدعوا بأنهم يمثلون سوى أنفسهم».[٢٤]

أيضاً فى إطار لقاءات ومقابلات الوفد، أقام أعضاؤه مأدبه بفندق «المتروبول» بلندن فى مساء ٢٨ يوليو حضرها لفيف من أعضاء البرلمان الانجليزى وكذا بعض الكتاب والسياسيين الانجليز أيضاً وبعض مراسلي الصحف والوكالات التلغرافية وبعض المصريين المقيمين فى لندن. وفى الكلمة التى ألقاها الوفد أعاد على أسماع الحضور ما قاله مع أعضاء البرلمان وكذا وزير الخارجية وزاد على ذلك مطالبة الرأى العام الإنجليزى تعضيد مطالب المصريين لكي تنفذها الوزارة. ولم يخل الخطاب المصرى من إسراف فى حسن الظن بالإنجليز والإشادة بما قدمه بعض الإنجليز العاملين فى مصر.[٢٥]

أما آخر اجتماعات ولقاءات الوفد فكانت فى ٣٠ يوليو وكان اللقاء فى سراى أحد سراة لندن والعضو المشارك فى مؤتمر السلم العام، والذى كان يعقد جلساته فى فندق «المتروبول» وقد دعى إلى هذا الحفل معظم أعضاء المؤتمر، ووجدها الوفد المصرى فرصة لعرض وجهة النظر عن الحركة الموجودة فى مصر وكيف أنها ليست حركة هياج، كما

روجت لها بعض الأقلام الأوروبية وكيف أنها حركة طاهرة سلمية ولابد منها لكل أمة فى أدوار الانتقال الأولى من قديم إلى حديث أو من حسن إلى أحسن، وكيف أن هذه الحركة نشأت عن عدة ظروف وأسباب أخصها انتشار التعليم وارتقاء المدارك ومعلوم ما يترتب على مثل ذلك من تمزيق الأغشية الأصلية وتكوين أغشية أخرى جديدة تناسب ما يحدث من النمو فى شعور الأمة وفى معارفها. وقد انضمت إلى هذه الحركة العلمية حركة سياسية وأخرى مالية.

وبعد أن تناول الوفد بالشرح الحركتين السياسية والمالية وأسبابهما انتقل الخطاب المصرى إلى الحديث عن مسألة التعصب الديني وكيف أننا فى بلادنا وفى لغتنا لا نعرف معنى للتعصب الديني أو الجنسي، وأن من يدّعى بوجود ذلك لابد وأن يكون قد استند فى دعواه إما على حوادث معينة معلومة أو ما يتوهمه من الهواجس النفسية التى تجيش فى الصدور أو تخطر بالضمائر.

أيضاً تناول الخطاب المصرى علاقة مصر بالدولة العثمانية وكيف أن مصر تفخر بسيادتها عليها ولكن بشرط المحافظة على استقلالها الإدارى والحقوق التى منحت لها بمقتضى الفرمانات المكفولة بضمانات الدول الأوروبية. أيضاً تناول الخطاب المصرى مسألة الصحف ودورها فى مصر وما يثار حولها من قبل الإنجليز وكيف أن الصحف تفيد الأمة لأنها كالصمام للشعور الوطنى ومنبهة له حتى لو كانت فى بعض الاحيان مقلقة.

وأهاب الوفد فى ختام كلمته بالحضور أن ينصفوا مصر أمام ضمائرهم وأمام المعتدين عليها وأن ينشروا من مصر الحقائق فى كل مكان.(٢٦)

ولا يمكن للمتابع لكلمة الوفد إلا التوقف أمام عدة حقائق:

* ما يحمد للوفد فى هذه الكلمة أنها شملت موضوعات مختلفة بعض الشيء عما طرح من قبل فالقضايا السابقة خصت بالأولى العلاقة بين مصر وإنجلترا، أما القضايا الأخرى مثل التعصب الدينى والجنسى وحركة الأحزاب فى مصر وكذا حركة

الصحف فإنها مست الوجود الأجنبى فى مصر بشكل عام. ومن ثم جاءت لغة الخطاب مختلفة هذه المرة.

* ما يحسب للوفد أيضاً تحليله لوظيفة الصحافة ودفاعه عنها، فهي مسألة كشفت عن فهم عميق للمسألة ولم لا؟ فرئيس الوفد كان صاحب جريدة شهيرة هي «الأهالي» والتى صدر العدد الأول منها فى أول سبتمبر ١٨٩٤ كما أشرنا قبلاً.

* ما لا يحسب للوفد أنه فى حديثه هذه المرة عن مسألة الاستقلال، تناول معها العلاقة مع الدولة العثمانية وصار الاستقلال بهذه الصورة لا وجود له فهو استقلال يلغيه وجود إنجلترا والأجانب والتبعية العثمانية.

على كل حال ففي الوقت الذى كان يتحرك فيه الوفد فى لندن بالصورة التى عرضنا لها، كانت الصحف فى مصر تحاول تقصي الأخبار لتحدد المواقف ومن ثم جاءت ردود الأفعال، فعلى الجانب المؤيد وقفت المؤيد لسان حال حزب الإصلاح ومعها «الجريدة» لسان حال حزب الأمة وانضمت إليهما المنبر ليشدوا جميعاً من أزر الوفد ويباركون خطواته.(٢٧)

أما الجانب المعارض فكان من الطبيعى أن يكون اللواء لسان حال الحزب الوطني وهو الامتداد الطبيعي والمستمر لموقف الحزب الوطنى من الوفد منذ بداية ظهوره كفكرة وحتى الآن.(٢٨)

يستدعى هذا العرض المبسط التوقف أمام بعض الأمور:

الأول: أنه بإلقاء نظرة بسيطة على المواقف المختلفة نجد أن أغلبها وقف مؤيداً لخطوة الوفد وهو ما يؤكد اتجاه البورجوازية المصرية لقيادة العمل الوطني من خلال التعامل مع الإنجليز مباشرة ووضع اللبنة الأولى فى بناء الحصول على حقوقنا خطوة خطوة طالما أن إخراجهم بالقوة خلال تلك المرحلة غير مجد، خاصة وأن خيار استخدام القوة لم يكن مطروحاً ضمن برامج الأحزاب آنذاك؟!.

الثاني: إن موقف الحزب الوطني، سببه أن القيادة الثانية للحزب والمتمثلة فى محمد فريد تصورت بشكل خاطىء أن وجهة نظرها فى هذه المسألة، تمثل أغلبية الرأى العام، ونسيت تلك القيادة أن هناك قوى أخرى على الساحة لها توجهاتها. وهي مسألة أوقعت الحزب الوطني فى مأزق لم يستطع التخلص منه وهو ما أدى إلى تآكل دور الحزب تدريجياً.....

الثالث: الأغلبية التى أيدت خطوة الوفد كانت بداية رصيد تدريجي خدم كثيراً البورجوازية المصرية التى تمثلت فى حزب الوفد، عندما دخلت مرحلة التفاوض مع الإنجليز إبتداء من سنة ١٩٢٠ (مفاوضات سعد - ملنر).

الرابع: إن إطلاق اسم الوفد المصرى على حزب الوفد صاحب الدور السياسي الكبير، لم يكن من فراغ فهذه التسمية أطلقتها بعض الصحف على وفدنا موضوع الدراسة، ومن ثم يصبح حزب الوفد بقيادة سعد من ناحية ومن ناحية التسمية والتعامل مع القضية الوطنية هو الخطوة الثالثة للبورجوازية المصرية إذا وضعنا فى الحسبان أن زيارة صاحبي المنار والمؤيد للندن فى صيف ١٩٠٧ كانت الخطوة الأولى.

عودة الوفد:

بعد أن أنهى الوفد مهمته حسب الخطة الموضوعة غادر لندن فى ٣١ يوليو ووصل باريس فى الأول من أغسطس وأثناء وجود الوفد هناك أجرى مصطفى توفيق الجراحي صاحب جريدة «الصحافة» حديثاً مع بعض أعضاء الوفد قام به نيابة عن الوفد عبد اللطيف الصوفاني بسبب غياب إسماعيل أباظة. وقد تناول الحديث موضوعات شتى منها نفي الصوفاني من أن تراجع بعض الشخصيات عن السفر مع الوفد جاء بسبب برنامج الوفد. أيضاً نفى الصوفاني أن يكون وراء تحركهم هذا أحد غيرهم، أيضاً تطرق الحديث إلى ما دار فى لندن بالصورة التى عرضنا لها، كما ورد فى الحديث أن الوفد نجح فى إزالة سوء التفاهم بين المصريين والإنجليز وأنه تمكن من التوفيق بين المصالح المصرية

والإنجليزية، وكيف أنه سيحصل المصريون قريباً على الدستور وكيف أن رجال الوفد يثقون كثيراً فى رجال السياسة فى إنجلترا وخاصة رجال حزب الأحرار.(٢٩)

أيضاً تستدعى مسألة هذا الحديث التوقف أمام عدة حقائق:

* أن الوفد كانت لديه قناعة كاملة بأن الطفرة فى سبيل الحصول على الحقوق ضررها أكثر وأن التدرج هو الأسلوب الأمثل، فالاستقلال يجب أن يسبقه إصلاح نظام التعليم والنظام النيابى.

* الربط الواضح بين مصالح هذه الشريحة المؤثرة من البرجوازية المصرية وبين قضية الوطن، هذا التوحد الذى جعلها تقدم على خطوة التعامل مع الإنجليز بهذه الصورة، لأنه لم يكن أمامها من سبيل آخر كما أشرنا.

* كانت هذه الشريحة التى قادت العمل الوطني خلال هذه المرحلة واثقة مما أقدمت عليه بل كانت نبؤتها بأن المساعى فى المستقبل أكثر نفعاً وهو ما حدث بالفعل.

* ثقة رجال الوفد فى رجال حزب الأحرار مسألة تؤكد عدم الفهم الكامل لرجال الوفد المصرى للعبة السياسة بين الأحزاب فى إنجلترا.

على كل حال فقد استمر الوفد بباريس حتى ١٦ أغسطس ثم غادرها فى نفس اليوم إلى فيشى وفى اليوم التالى سافر إلى جنيف وهناك أجرى محمد فهمى أحد الموالين للحزب الوطني والأستاذ بكلية الحقوق، حديثاً مع الوفد ورغم أن معظم ما ورد فى الحديث لم يكن جديداً إلا أنه ورد فى الحديث بعض المسائل التى يجب التوقف أمامها فقد نفى الوفد أن سفره كان بإيعاز من أحد ولكن كما أشرنا جاء سفر الوفد بمباركة من الخديوى.

مسألة أخرى: وردت فى الحديث عن مدى استجابة أعضاء البرلمان الذين التقى الوفد بهم مع المطالب المصرية فأشار الصوفاني أنه يثق فى صدق وعودهم نحو تحقيق الإصلاح وهى فى تصورنا ثقة فى غير محلها.

مسألة ثالثة ففى سؤال لمحمد فهمي عن الجلاء وهل طلبوه، جاء الرد بأن «هذا الطلب لم يكن مستقلاً كالطلبات السابقة ولكن جاء أواخر طلباتنا، إننا ذكرناهم بالوفاء بوعودهم وعهودهم التى جاهر بها رجال سياستهم وعلمها العالم أجمع» وهى مسألة تعد حجة على الوفد فجوهر القضية هو الجلاء، ولكن قدموا عليه الإصلاحات وجعلوه آخر طلباتهم ومن ثم كان على المصريين الانتظار ما يقرب من نصف قرن حتى يتحقق الجلاء الذى أجبرت عليه إنجلترا فى ظل ظروف دولية ومحلية كان من الصعب تجاهلها.

وعن خطة الحزب الوطنى وكيف أنها لا تختلف كثيراً عن البرنامج الذى أعلنه الوفد خاصة وأن مصطفى كامل كان قد زار إنجلترا منذ عامين مسجلا سبقاً على الوفد، جاء سؤال محمد فهمي، فكان رد الصوفاني «إن الخلف اتخذ خطة أخرى، وأن الوفد دافع عن الحزب الوطني أثناء اللقاءات المختلفة وكيف أن كل طلبات الحزب الوطني طلبات حق وعدل وإن كنا نعتقد أن مديرى شئونه مع إخلاصهم فى وطنيتهم وحبهم لسعادة أمتهم متخذون على زعمنا طريقة الخفة والطيش وحب المظاهرة الذى تخاف عاقبتها». أما إسماعيل أباظة فقد زاد على ذلك قائلا «إنه حزب قول لا عمل، هؤلاء مطالبهم المظاهرات وجر العربات».

وعن سؤال حول إمكانية التعاون مع الحزب الوطني جاء رد إسماعيل أباظة «عند عودتي إلى مصر سأسعى فى عمل لجنة من خواص القوم يتداخلون بحكمتهم عند اللزوم لايقاف كل حزب عند حده حتى نأمن كل ما نخاف عقباه خصوصاً وأن عدونا لنا بالمرصاد وقد كاشفت زملائي بذلك» ثم قال فى نهاية الحديث «وعند عودتي سأحاربه بكل قواي» فجاء تعليق محمد فهمي «كيف ذلك أتحارب الوطن؟!»[٣٠]

والعلاقة بين الحزب الوطني وبعض رجال الوفد بالصورة السابقة تجعلنا نتوقف أمام أمرين.

الأول: إن العداء المتبادل بين الطرفين ناتج عن أسلوب العمل على الساحة فالحزب الوطنى يرى أن قضية الجلاء وخروج الإنجليز تأتى على رأس القائمة، وأن تحقيق ذلك

يتم من خلال الاستعانة بقوى أخرى مثل فرنسا والتأكيد على تبعيتنا للدولة العثمانية والمسألة الأولى فى تصورنا انتهى أمرها منذ الوفاق الودى ١٩٠٤، أما الثانية فتناقض الاستقلال المنشود.

أما رجال الوفد فأسلوب العمل يأتي بالشكل العكسي فطلب الاصلاحات يأتي أولاً ثم يعقبه طلب الجلاء وكان يقلقهم الأسلوب الذى تلجأ إليه قيادات الحزب وكذا جريدة اللواء من إثارة الناس، لأنه أسلوب يضير أكثر مما ينفع فهو من وجهة نظرهم يهدد مصالح البلاد وكذا مصالحهم الشخصية.

الثاني: إن ما أشار إليه محمد فهمي فى آخر الحديث حول التوحد بين الحزب الوطني والوطن أُلقى الضوء على قضية مهمة فى الحياة السياسية المصرية وهي احتكار الحديث عن قضايا مصر ومصادرة الرأى الآخر وهو ما أزعج الأطراف الأخرى، وأتصور أنها إحدى المسائل التى أضعفت حركة الحزب الوطني وجعلته مستهدفا من الآخرين.

على أية حال فقد غادر الوفد جنيف إلى ليون فى ١١ أغسطس ومنها إلى فينير وتريستا وفى ١٣ أغسطس غادر تريستا فوصل الإسكندرية فى السادسة من صباح الإثنين ١٧ أغسطس(٣١) وتوالت ردود الأفعال.

بالنسبة للحزب الوطني أعلنها حرباً شعواء وصلت إلى حد رمى أعضاء الحزب بالخيانة وحفلت صحيفة اللواء بالاتهامات من قبيل، الوفد الإحتلالي، وكيف أن رجال الوفد هم سفراء استسلام ونذر استعباد.(٣٢)

وكانت اللهجة العنيفة التى تحدثت بها اللواء عن الحزب، كافية لتتصاعد الأمور بشكل سيء ففي ١٤ سبتمبر ١٩٠٨ قصد محمد فريد وبعض رجال الحزب مدينة الزقازيق لإلقاء كلمة فى ذكرى دخول الإنجليز مصر، ففوجىء بمظاهرة تهتف ضده وحاول المتظاهرون منع الأحتفال فتصدى لهم البوليس، وأتهم رجال الحزب الوطني الأباظيين بأنهم وراء المظاهرة وهو ما سارع إسماعيل أباظة بتكذيبه ونفى التهمة عنه وعن الأسرة الأباظية.(٣٣)

على الجانب الآخر لم يعدم الوفد الأباظي من يدافع عنه فوجد فى صحف الجريدة، والمؤيد، والأهرام، والمنبر، مصر، الأفكار، التأييد والدفاع والمعاونة.(٣٤)

والمتأمل فى موقف المؤيدين يجد أنه لكل وجهة نظرة فحزب الأمة هو نفسه رافع شعار مصر للمصريين والتخلص من التبعية العثمانية وهو نفس الحزب الذى خرج من عباءته جماعة حزب الوفد بقيادة سعد زغلول وهي الجماعة التى دخلت فى مفاوضات مع الإنجليز بداية من سنة ١٩٢٠ وفتحت الباب على مصراعيه لمفاوضات أخرى باشرها غيرهم.

أما حزب الإصلاح فذهاب قيادته فى العام السابق إلى لندن والالتقاء ببعض الساسة الإنجليز هناك يؤكد أن اتجاه إسماعيل أباظة ومن معه راق كثيراً لرجال الحزب وهو ما جاء على صفحات المؤيد.

وأما جريدة الأهرام، فأصحابها يتمتعون بالرعوية الأجنبية ومن ثم يهمهم أن تكون الأمور هادئة فى مصر من خلال حسن العلاقة بين الطرفين المصرى والأجنبي، ومن ثم يكون هذا الاتجاه هو المؤدى إلى حسن تلك العلاقة.

أما المنبر فطبيعي أن يكون موقفها هكذا فصاحبها زار لندن فى العام السابق مع صاحب المؤيد والتقيا -كما أشرنا- مع بعض ساسة الإنجليز ومن ثم كان ترحيبها بالوفد.

أما جريدة مصر فكان تأييدها للوفد لمواجهة الحزب الوطني والنيل منه، وكان تصويرها لقضية الجلاء والاستقلال والدستور والمجلس النيابي تصورا قاصرا، وصارت تنفخ مع غيرها فى بوق الفتنة فكان ما كان سنة ١٩١١.

أما الأفكار ففي تأييدها كانت تمثل اتجاها خاصا بها، وهو اتجاه أخذ فى طريقه العداء للحزب الوطني.

وفى النهاية تبقى كلمة، أننا لو حسبنا بحسبة بسيطة حجم المعارضة بالنسبة لحجم التأييد، وجدنا كفة الأخيرة أرجح، ومن ثم يكون الاتجاه الموالي للتفاهم مع الإنجليز بدأ يشق مسارا له، ودفعته إلى ذلك دفعا مجموعة عوامل هي فى تصورنا:

الأول: موقف فرنسا منذ الوفاق الودى سنة ١٩٠٤.

الثانى: الاتجاهات الجديدة فى تركيا.

الثالث: سيطرة إنجلترا على معظم شرايين الحياة فى مصر ومن ثم تكون مع الوقت اعتقاد راسخ لدى البرجوازية المصرية بصعوبة إخراجها من مصر، ومن ثم كان التفاهم هو البديل المطروح حفاظا على مصالح الوطن ومصالحها ومن هنا جاء دورها الفاعل.

خاتمة:

وفى النهاية يمكن إجمال أبرز المسائل التى عالجتها الدراسة فيما يلي:

* إن فكرة هذا الوفد لم تكن فجائية فخطوة صاحبي المؤيد والمنبر سنة ١٩٠٧ كانت التمهيد الفعلي، كما جاءت خطوة هذا الوفد لتمهد لحزب سعد زغلول.

* إن تخلف بعض الأعضاء الذين اتفق معهم إسماعيل أباظة على السفر إلى لندن يرجع فى تصورنا إلى الخوف من نتائج هذه الخطوة ورد فعلها على المستوى الشعبي أكثر من الأعذار التى أبدوها.

* أعطى الخديوى الضوء الأخضر لسفر الوفد، وهي مسألة ضمن إطار سياسة الوفاق مع المعتمد البريطاني الجديد «جورست» والتى كان ضمن أهدافها إضعاف دور الحزب الوطني من خلال تصنيع قوى جديدة لها رؤية مختلفة.

* ما لا يحمد للوفد المذكور جعل قضية الجلاء فى نهاية المطالب وقدم الإصلاحات الداخلية بل شبهها -على حد قول بعضهم- «بالكماليات» يجب أن تسبقها الضروريات. كما لا يحمد للوفد تصوره المشوش لاستقلال مصر، فكيف يكون الاستقلال مع وجود الإنجليز والاعتراف بالتبعية العثمانية ووجود الامتيازات، كما لا يحمد له عدم تعرضه لقضية الجيش المصرى حتى ولو كانت الأبواب ستغلق فى وجهه فور الحديث عنه. كما لا يحمد له حسن ظنه الزائد بصناع السياسة الإنجليزية.

* ثبت من خلال تناول القوى المختلفة لمسألة هذا الوفد، أن بعضها كانت رؤيته لقضية الاستقلال والمجلس النيابي تام السلطة، رؤية قاصرة.

* أنه رغم بعض المآخذ على الوفد، إلا أن المثير أن الطريق الذى سار فيه نحو التفاهم مع الإنجليز، ثبت من خلال الدراسة أنه وجد قبولا أكثر من الاتجاه المتشدد، وهو ما يجعلنا نقول أن الاتجاه الموالى للتفاهم مع الانجليز بدأ يشق مساره فى العلاقات المصرية البريطانية.

* التصور الخاطىء للحزب الوطني بأنه المتحدث الأول باسم مصر قاده لتكفير الآخرين ورميهم بالخيانة، وهو ما جعلهم يتصدون له، بل كان هذا التصور سببا مباشرا فى حدوث أول انشقاق فى الحزب ولم يكن قد مر على تكوينه بضع شهور.

الهوامش

(١) أحمد شفيق، مذكراتي فى نصف قرن، الجزء الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٤، صـ١٥٢.

(٢) وعن ميلاد ونشأة وحياة إسماعيل باشا أباظة: انظر: مصطفى الشهابى، إسماعيل أباظة، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٧ صـ صـ ٩، ١٠، ١٢، ١٠٣، ١٧٠، ١٧٤، ٢٠٢

(٣) الأهرام ١٣/ ٧/ ١٩٠٨، اللواء ١٤/ ٧/ ١٩٠٨ وقد أضاف أحد المصادر اسماً آخر إلى هذه المجموعة وهو محمد عثمان بك أباظة. انظر: مصطفى الشهابي، المرجع المذكور صـ١٧٥.

(٤) عبد القادر حاتم وآخرون، المقاومة الشعبية فى الشرق. د. ت صـ٦٩

(٥) صلاح عيسى، البورجوازية المصرية وأسلوب المفاوضة، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٠ صـ١٠

(٦) كان قد سبق هذا الوفد بعام (يوليو ١٩٠٧) زيارة قام بها كل من أحمد حافظ عوض صاحب جريدة المنبر والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وطرحا أثناء الزيارة على بعض المسئولين فى لندن بعض المطالب مثل المزيد من مشاركة المصريين فى الإدارة، وكذا بعض المطالب الخاصة بالتعليم ولم يتطرفا إلى مسألة الجلاء وطلب الاستقلال عن ذلك انظر الأهرام ٢٩/ ٧/ ١٩٠٧ مقال «المصريون فى أوروبا» دون توقيع، عدد ٦/ ٨/ ١٩٠٧، عدد ١٩/ ٨/ ١٩٠٧ رسالة بعنوان «وليمة لندن» بتوقيع الدكتور بهجت بدوي.

(٧) أحمد شفيق المصدر المذكور صـ صـ ١٥٢، ١٥٣، أوراق محمد فريد، مذكراتي بعد الهجرة (١٩٠٤-١٩١٩) الجلد الأول، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٨ صـ صـ ٦١، ٦٢

(٨) الأهرام، ١٤/ ٧/ ١٩٠٨

(٩) اللواء، ٢٠/ ٧/ ١٩٠٨ حديث مع سعادة رئيس الحزب الوطني.

(١٠) اللواء ١٨/ ٧/ ١٩٠٨ مقال «الوفد المصرى بلوندرة «بقلم محمد فريد- وحول نفس الموضوع أدلى محمد فريد بحديث لجريدة النوفل التى تصدر بالإسكندرية، انظر اللواء ١٩/ ٧/ ١٩٠٨

هذا وقد زار المستر «روبرتسون» مصر فى أوائل سنة ١٩٠٧ (٢ يناير-٢ فبراير) وقد زار خلال الفترة المذكورة الإسكندرية والبحيرة والمنوفية والغربية والتقى مع المعتمد البريطاني وبعض الشخصيات المصرية على رأسها أحمد حافظ عوض والشيخ علي يوسف. عن هذه الزيارة والاستقبالات وحفل التوديع انظر: الأهرام ٢، ٣، ٤، ١٠، ١١، ١٢/ ١/ ١٩٠٧،

١٩٠٧/١/١٤ مقال «المستر روبرتسون» دون توقيع، ١٨،٢٣/١/١٩٠٧، وعن حفل وداعه انظر: عدد ١٩٠٧/٢/٢. هذا وقد رافقه فى رحلته أحمد حافظ عوض. انظر عدد ١٩٠٧/٢/٢

أما الدكتور روثر فورد رئيس اللجنة المصرية فى البرلمان الانجليزى فقد وصل مصر فى يناير ١٩٠٨ وزار بعض النظارات والمصالح الحكومية، وقد أقام له حزب الإصلاح حفل استقبال. انظر الأهرام ١٧،١٨/١/١٩٠٨.

(١١) أوراق محمد فريد، المصدر المذكور صـ٦٠

(١٢) مصر، يومية، ١٣/٧/١٩٠٨، ١٩٠٨/٧/١٤، مقال «وفد بلاد الانكليز» دون توقيع، ١٩٠٨/٧/١٥، مقال «وفد بلاد الانكليز واستقلال مصر» دون توقيع، ١٩٠٨/٨/١٧، مقال «الصوت المصرى فى أوربا» دون توقيع.

(١٣) المباحث السياسية، أسبوعية ١٩٠٨/٧/١٥ مقال «الوفد الأباظي من أرسله؟» دون توقيع.

(١٤) الجريدة، يومية ١٩٠٨/٧/١٤ رسالة بعنوان «وفد قبطي فى لندن».

(١٥) المؤيد، يومية ١٩٠٨/٧/١٤، ١٩٠٨/٧/١٧ مقال «وفد الأعيان» دون توقيع، مقال «الوفد الأباظى ومستقبل مصر» بتوقيع ع.أ مقال «الوفد السياسي إلى إنكلترا» دون توقيع.

(١٦) المنبر ١٩٠٨/٧/١٦ مقال «وفد النواب» بقلم أحمد حافظ عوض، عدد ١٩٠٨/٧/١٨ مقال «الأمة ووفد النواب» بتوقيع م.ع الأورينى، عدد ١٩٠٨/٧/٢٠ مقال «الوفد المصرى بلندن» دون توقيع، وادى النيل ١٩٠٨/٧/١٨، عدد ١٩٠٨/٧/١٢ تعليق بعنوان «الأمة بين إحجام وإقدام» دون توقيع، عدد ١٩٠٨/٧/١٤ مقال «خطاب إسماعيل باشا أباظة» دون توقيع، الأهرام ١٩٠٨/٧/١٥ مقال «الدندرة» بتوقيع هي بن بي، الشرق، أسبوعية، ١٩٠٨/٧/١٨ مقال «وفد سياسى مصرى فى أوربا» بتوقيع سياسي عدد ١٩٠٨/٧/١٤ تعليق بعنوان «على الطائر الميمون – الوفد المصرى السياسى» دون توقيع.

(*) هو الدكتور إبراهيم الشوربجي الذى كان يكمل دراسة الطب فى إنجلترا، وهو من عائلة الشوربجي بالبحيرة وقد رافق الوفد طيلة وجوده فى إنجلترا: انظر: المنبر ١٩٠٨/٩/٧ «الوفد المصرى المبارك – بيان لابد منه».

(١٧) الأهرام، المؤيد ١٩٠٨/٨/٢٤ «الوفد المصرى –بيان لابد منه– تمهيد»، المؤيد ١٩٠٨/٨/٢٧ «الوفد المصرى يبدى رأيه»، الأهرام ١٩٠٨/٨/٢٩ «الوفد المصرى فى لندرة» الأهرام ١٩٠٨/٩/١١ «الوفد المصرى فى لندرة – بيان لابد منه»، المؤيد ١٩٠٨/٩/١٢ «الوفد المصرى يبدى رأيه – بيان لابد منه».

(١٨) المنبر ١٩٠٨/٨/٢٧ «الوفد المصرى المبارك»، ١٩٠٨/٨/٢٩ «بيان لابد منه».

(١٩) الأهرام ١٩٠٨/٩/١٧ بيان لابد منه، المؤيد ١٩٠٨/٩/١٩ بيان لابد منه.

(٢١،٢٠) الأهرام، المؤيد ١٩٠٨/٩/٢ بيان لابد منه.

(٢٢) الأهرام ١٩٠٨/٩/٢٣ بيان لابد منه.

(٢٣) F.O. 407/170/No.74 Sir Edward Gray to Mr. Graham, July 31,1908

(٢٤) الأهرام ١٩٩٧/٩/١٨ مقال «الأهرام ديوان الحياة المعاصرة-الوفد الأباظي إلى لندرة» بقلم يونان لبيب رزق.

(٢٥) الأهرام ١٩٠٨/٩/٨ بيان لابد منه، المؤيد ١٩٠٨/٩/٧ بيان لابد منه.

(٢٦) الأهرام ١٩٠٨/٩/١٤ بيان لابد منه، المؤيد ١٩٠٨/٩/١٥ بيان لابد منه.

(٢٧) المؤيد ١٩٠٨/٧/٣٠ مقال «الوفد المصرى فى لندن»، الجريدة ١٩٠٨/٧/٢٥ مقال «وفد الأعيان فى لوندرة، المنبر ١٩٠٨/٧/٢٢ مقال سعادة إسماعيل أباظة زعيم الوفد المصرى فى لندن.

(٢٨) اللواء ١٩٠٨/٧/٢٧ مقال «الوفد المصرى فى لندرة»، عدد ١٩٠٨/٨/٩ مقال «وفد لندرة تناسى أهم المطالب».

(٢٩) المنبر ١٩٢٨/٨/٢٤، اللواء ١٩٠٨/٨/١٣.

(٣٠) المنبر ١٩٠٨/٨/٢٤، اللواء ١٩٠٨/٨/٣١ حديث فى جنيف مع وفد لوندرة.

(٣١) المنبر ١٩٠٨/٨/٢٤ هذا وقد تخلف عن العودة إلى مصر كل من حسين القصبي الذى سافر من باريس إلى الأستانة لمقابلة عائلته هناك، وكذلك محمد شريعي ومحمد عثمان أباظة حيث توجها للاستشفاء فى جنيف. انظر: المصدر نفسه.

(٣٢) اللواء ١٩٠٨/٨/١٦ «خطبة حضرة رئيس الحزب الوطني»، اللواء ١٩٠٨/٨/١٧، ١٩٠٨/٨/١٨ مقال «نصيحة صريحة» بتوقيع أبو حفص، عدد ١٩٠٨/٨/١٩ مقال «مساعي وفد لوندرة»، دون توقيع عدد ١٩٠٨/٨/٢٠ مقال «كلمة اللواء فى الوفد الأباظي»(١) بقلم عبد العزيز جاويش، عدد ١٩٠٨/١٠/٣ مقال «كلمة اللواء فى الوفد الأباظي»(٢) بقلم عبد العزيز جاويش.

(٣٣) أوراق محمد فريد، المصدر المذكور جـ٦١ وعن رسالة إسماعيل أباظة إلى الصحف بشأن المظاهرة انظر: الأهرام ١٩٠٨/٩/٢٤، المؤيد ١٩٠٨/٩/٢٤ بيان حقيقة بقلم سعادة الفاضل الهمام إسماعيل أباظة باشا. وعن تفاصيل المظاهرة انظر: الاتحاد المصري، نصف شهرية ١٩٠٨/٩/٢٧ مقال «المظاهرات ضد الحزب الوطنى» دون توقيع.

(٣٤) الجريـدة ٢٤،٢٧،٢٨،٢٩/٨/١٩٠٨، ٢،٣،٨،٩،١٠/٩/١٩٠٨ «بـيـان لـلـنـاس»، المؤيـد ٢٠/٨/١٩٠٨ مقال «الوفد المصري» بتوقيع مكاتبنا الإسكندري، الأهرام ١٨/٨/١٩٠٨، ٣٠/٩/١٩٠٨، المنبر ١٧/٨/١٩٠٨، ٢٤/٨/١٩٠٨ مقال «إنقلاب الحال....» بتوقيع صحافى قديم، ٣١/٨/١٩٠٨ مقال «الوفد المصري....» بقلم محمد علي المنياوي، ٥/٩/١٩٠٨ مقال «الوفد المصرى المبارك» دون توقيع، مصر ٧/٨/١٩٠٨ مقال «الوفد المصرى» دون توقيع ١٠/٨/١٩٠٨ مقال «وفد لندرة...» دون توقيع، ٢٦/٨/١٩٠٨ مقال «وفد لندن» دون توقيع، الأفكار ١٣،٢٠،٢٢/٨/١٩٠٨ مقال «وفد السلام» دون توقيع، ٤/٩/١٩٠٨ مقال «وفد السلام» دون توقيع، ١١/٩/١٩٠٨ مقال «هذه الحقيقة يا بني مصر» دون توقيع.

محمد فؤاد شكرى
والتأصيل التاريخى لوحدة وادى النيل

د. محمود حسن صالح منسى

أستاذ التاريخ الحديث

بجامعة الأزهر

محمد فؤاد شكرى
والتأصيل التاريخى لوحدة وادى النيل

مقدمة

منذ رزئت مصر بالاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ وإخلاء السودان عام ١٨٨٥ وتوقيع اتفاقيتى الحكم الثنائى عام ١٨٩٩، كانت الحركة الوطنية المصرية تطالب بأمرين حيويين وتسعى لتحقيقهما وهما الجلاء ووحدة وادى النيل. ورغم صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، ثم توقيع معاهدة ١٩٣٦ فإن المطلبين الوطنيين المصريين لم يتحققا خلال المفاوضات العديدة التي جرت بين مصر وبريطانيا.

وبمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ رأت مصر ضرورة التفاوض من أجل تحقيق المطلبين الرئيسيين، وتمخضت المفاوضات عن مشروع صدقى / بيفن ١٩٤٦ الذى رفضه الشعب، وعندئذ لم تجد الحكومة المصرية التى كان يرأسها محمود فهمى النقراشى بدأ من عرض القضية فى عام ١٩٤٧ على مجلس الأمن الدولي التابع لهيئة الأمم المتحدة. وكنتُ وقتئذ ضمن طلاب السنة الثالثة بقسم التاريخ بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) وكان أستاذى الدكتور محمد فؤاد شكرى يدرس لنا مادة تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، وانقطع عن محاضراته لنا فى أثناء العام الدراسي، وعلمنا أنه انتدب للعمل مستشاراً للوفد المصرى الذى سيعرض القضية الوطنية على مجلس الأمن، وبخاصة فى موضوع وحدة وادى النيل، الذى كان موضع اهتمامه وبحوثه، بدليل أن وزارة الخارجية المصرية بعثت بنشرتها إلى الهيئات الدبلوماسية والقنصلية المصرية بالخارج أرفقت بها بعض البحوث عن وحدة وادى النيل «للاستئناس بها فى بيان وجهة النظر المصرية وتأييدها»[1]، ولابد أنه كان منها بحوث دبجها الدكتور محمد فؤاد شكرى، وكان مرفقا بهذه النشرة مذكرة يحتمل أن تكون من وضعه، كما أن المفوضية المصرية فى دمشق بعثت إلى وزارة الخارجية السورية بست نسخ من كتاب الحكم المصرى فى

السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى، وطلبت المفوضية المصرية من وزارة الخارجية السورية أن ترسل هذه المجموعة إلى المفوضيات والقنصليات السورية فى أمريكا الجنوبية(٢) حيث لسوريا جاليات كبيرة هناك.

وسمعنا أن الدكتور محمد فؤاد شكرى وضع دراسة عن وحدة مصر والسودان وأسانيدها التاريخية لتكون عونا لوفد مصر لدى الأمم المتحدة (٣).

وقد أوضح الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكرى فى كتابه «مصر والسيادة على السودان»(٤) أن الهدف الذى يسعى إليه هو:

أ - إيضاح الصلة التي ربطت بين القطرين منذ الفتح المصرى لبلاد السودان فى أوائل القرن التاسع عشر بالإضافة إلى إظهار ما تستند إليه مصر من حقوق تاريخية فى تحديد ما يجب أن يكون عليه الوضع فى هذه الأقطار السودانية فى ظل سيادة شرعية وتتمثل هذه الأسانيد حسب ما عرضها د. فؤاد شكرى في: الفرمانات العثمانية، حق الفتح، اعتراف الدول، مطالبة بعض الزعامات السودانية بالتبعية لمحمد علي؛

ب - إلى جانب نوع الحكم الذى أقامه المصريون فى السودان تطبيقا لهذا الوضع، وهو حكم مستنير صالح مصلح قام بإصلاحات عدة تستهدف أولا وقبل كل شيء مصلحة الأقطار السودانية ورفاهية أهلها فى مختلف المجالات من توفير الأمن، الزراعة، الصناعة، التجارة، المواصلات، التعليم، تدريب السودانيين وإشراكهم فى شئون بلادهم، وأخيرا وليس آخرا محاربة الرق وتجارة الرقيق، وقد دعم المؤلف هذه المعلومات بوثائق رسمية حتى يدحض آراء أولئك الذين شوهوا علاقة مصر بالسودان ووحدة وادى النيل، وطمسوا هذه الحقائق بل وقلبوها إلى عكس المقصود منها، وكان د. فؤاد شكرى يهدف من وراء ذلك القضاء على الفكرة التي رددها هؤلاء المغرضون بأن هدف مصر كان استغلال السودان وأنها لم تعمل لخير السودانيين ورفاهيتهم؛

جـ ـ نوع الحكم الذى يفسر طبيعة السيادة أو العلاقة التي لم تتعرض أية دولة فى أية مرحلة تاريخية للتشكيك فيها بل إن هناك وثائق تاريخية تتضمن اعتراف الدول التام (وفى مقدمتها بريطانيا) بهذه السيادة؛

د – وبالتالي يؤكد الدكتور محمد فؤاد شكرى أنه منذ تأسست الوحدة السياسية فى مطلع القرن التاسع عشر إلى الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ وضياع السودان ثم استرجاعه من المهدية وإنشاء نظام الحكم الثنائي فى السودان أن جوهر العوامل التي شكلت تاريخ شطرى الوادى فى القرن التاسع عشر كان واحدا وأن ما وقع من حوادث فى أحد شطرى الوادى كان ذا رد فعل يؤثر على مجرى الأمور فى شطره الأخر؛

هـ – لم يؤسس عهد المهدية من الناحية الدولية حقوقا فى السيادة على السودان، فقد اعتبرت بعض الدول أن الأراضي السودانية «ملك مباح Res Nelius» بينما اعتبر البعض الأخر من الدول ومن بينها بريطانيا أن المهدية لم تكن سوى ثورة على صاحب السلطان الشرعي حدث بسببها وبصورة مؤقتة فحسب تعطيل مصر عن ممارسة ما لها بحكم تبعيتها للسلطان العثماني وبحكم فتوحاتها من حقوق فى السيادة على السودان؛

هـ كما أثبت د. محمد فؤاد شكرى أن المهدية عجزت عن إنشاء الحكومة القوية الرشيدة التي تستطيع نشر ألوية الأمن والسلام بعد أن أنهت الحكم المصرى فى السودان ثم إخفاقها فى المحافظة على كيان الوطن السودانى بالحدود التى كانت له عند انتقاله إليها(٥).

ولذلك فقد اعتبر الدكتور محمد فؤاد شكرى أنه لابد من الحديث باستفاضة عن النواحي التاريخية التى تتصل اتصالا وثيقا بتلك الحقوق التى تستند إليها مصر فى «ضرورة أن يضم شطرى الوادى سياج واحد تحت هيمنة تاج واحد من منبع النيل إلى

مصبه». ومع اعترافه أن إيضاح هذه الحقوق قد يبدو موضوعا وعرا شائكا لأنه يتناول الكلام عن مسألة السيادة وهناك كثيرون من إخواننا السودانيين ينفرون من سماع لفظ السيادة، ونحن مثلهم فى هذا الشعور، ولكن شتان ما بين سيادة يقصد بها السيطرة والاستعباد وسيادة كتعبير فقهى يقصد بها مقر السلطة السياسية والقانونية العليا فى الدولة.

وقد استقي الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكرى مادته التاريخية وأسانيده التى تؤيد كل ما ذهب إليه من مصادر أصلية فى مقدمتها الوثائق التى أثبت صور الكثير منها كملاحق فى مؤلفاته:

أولا: وثائق غير منشورة

أ. من المحفوظات المصرية

١- دفاتر ومحافظ المعية (تركي)

٢- دفاتر ومحافظ المعية (عربي)

٣- المراسلات الفرنسية

٤- الوثائق الأمريكية

ب.سجلات وزارة الخارجية البريطانية (لندن)

ج. وثائق وزارة الخارجية الفرنسية (باريس)

د. وثائق وزارة الخارجية النمساوية (فينا)

ثانيا: وثائق منشورة

١- الكتب الزرقاء Blue Books

٢- عهد محمد على نقلا عن الأرشيف الروسي (قطاوى - بالفرنسية)

ثالثا: بعض المخطوطات بدار الكتب المصرية وبالمكتبة الأهلية النمساوية فى فينا وبالمتحف البريطاني فى لندن .

رابعا: مؤلفات مطبوعة أجنبية وفى مقدمتها كتب الرحالة الذين زاروا السودان فى القرن التاسع عشر.

خامسا: مؤلفات مطبوعة باللغة العربية وفى مقدمتها مؤلفات وضعتها شخصيات اضطلعت بمهام فى السودان إبان الحكم المصرى وكتب ألفها سودانيون مثل كتاب (السودان المصرى والإنجليز) لمؤلفه الشيخ محمود القباني من الذين شهدوا أحداث السودان أيام غوردون ورؤوف باشا، ودوّن فى كتابه جميع ما وقف عليه بنفسه أو ما بلغه من السودانيين أنفسهم وأضحى فى منزلة الحقائق الصحيحة الصادقة، وفضلا عن ذلك فقد اعتمد الشيخ محمود القباني أيضا على مجموعة عثر عليها فى خزانة المهدى بعد وفاته وبخطه.

وقد أورد د. فؤاد شكرى كل أسانيده فى كتبه المتمثلة فى بحوث جادة رصينة موثقة:

ـ مصر والسيادة على السودان (دار الفكر العربي ١٩٤٧)

ـ الحكم المصرى فى السودان (دار الفكر العربي ١٩٤٧)

ـ مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ط٢ (دار المعارف ١٩٥٨)

*Khedive Ismail and Slavery in the Sudan 1863-1879 (Cairo 1938)

*Ghordon at Khartoum

*Equatoria

أصل حقوق السيادة

وقد قسّم الدكتور محمد فؤاد شكرى حقوق السيادة إلى قسمين:

أ - قسم يتعلق بالسودان الأوسط الذى يخترق إقليم وادى النيل ويمتد حتى جنوب غندكرو على بحر الجبل وهي النوبة وسنار وكردفان ودارفور وجهات النيل العليا.

ب - قسم يتعلق بالسودان الشرقي الذى يمتد على الساحل الغربي للبحر الأحمر وساحل خليج عدن حتى غوردافوى (رأس حافون).

ولما كانت مصر إحدى ولايات الدولة العثمانية فى الوقت الذى فتحت فيه جيوش محمد على بلاد السودان الأوسط، وضم الخديو إسماعيل أقاليم السودان الشرقي، فقد استندت مصر فى سيادتها على جميع تلك الجهات إلى ما يخوّله لها الفتح من سلطان، هذا إلى جانب ما استمدته من حقوق بحكم تبعيتها للدولة العثمانية، وانتقال أسباب السيادة إليها بمقتضى الفرمانات التى كانت تصدرها الدولة العثمانية إلى الولاة والخديويين ووافقت عليها الدول الأوروبية.

ففي الحقيقة لقد استأذن محمد على السلطان محمود الثاني فى فتح السودان، ووافق الأخير على أن يضم محمد على ما يشاء من أراضي السودان على أن يكون ذلك باسم السلطان العثماني ولذلك قدم الزعماء والرؤساء السودانيون خضوعهم وولاءهم للسلطان، وبذلك دخلت هذه البلاد تحت السيادة العثمانية، يقوم بأعباء الحكم فيها باشا مصر على أنها ملحقات تابعة لباشويته تحت السيادة العثمانية مثل مصر تماما [٦]، ولذلك فإنه رغم أن الباب العالي أصدر أمرا إلى محمد على بتعيين ابنه الأمير إسماعيل حاكما على سنار (٩٨٢٢) إلا أن تقليد الحكم صدر إلى الأمير إسماعيل وإلى الحكمداريين التاليين رأسا من محمد علي باعتباره صاحب الولاية على مصر ويدخل فى نطاق هذه الولاية ما تستطيع مصر أن تضمه إليها من ممتلكات جديدة.

ويرى الدكتور محمد فؤاد شكرى أن توطيد السيادة خلال القرن التاسع عشر حدث فى مرحلتين انتهت المرحلة الأولى منها عندما سويت المسألة المصرية فى عامي ١٨٤٠، ١٨٤١ ذلك أنه عندما أخذت العلاقات تسوء بين محمد علي والسلطان صار البت فى مصير السودان من أهم الموضوعات التى شغلت بال محمد علي، فقد اعتبر هذه البلاد جزءا من الأقطار المصرية وتسرى بها جميعا نظم واحدة، وينفق عليها من خزينة واحدة.

فقد استرشد محمد على فى إدارة السودان بقواعد معينة تفسر بوضوح معنى السيادة، ومعنى انضمام السودان إلى مصر فى نطاق ممتلكات الباشا. والبحث فى هذه القواعد يهدم فكرة الاستغلال وإهمال الحكم المصرى لرفاهية السودانيين، وظلت هذه القواعد معمولا بها حتى ثورة المهدي. وأهم هذه القواعد والأسس:

١- اعتبار مصر والسودان قطرا واحدا مندمجا بحيث أصبح يعتبر كأى مديرية من مديريات الباشاوية المصرية. وكان لهذا الاعتبار أثره فى خروج السودان من الظلمات والتأخر إلى النور والعمران والتقدم حيث أصبح محمد علي يريد للسودان ما يريده لمصر، وقد ورد ذلك فى تعليماته إلى خورشيد باشا حكمدار السودان (٧) ، وخطبة محمد علي فى علماء السودان (٨)، وشهادة رفاعة، (٩) وإشراك العناصر الوطنية فى الحكم والإدارة(١٠) ، وتشجيع السودانيين على الدراسة فى الأزهر وإنشاء رواق السنارية.

كما اهتم محمد علي بفرض رقابة على الحكام والمديرين، ولو أن بعضهم كانوا غير صالحين مثل أحمد باشا أبو ودان وخورشيد باشا وهذا يحدث فى كل زمان ومكان.(١١)

ولما كان محمد علي يعتبر مصر والسودان قطرا واحدا فقد اتبع فى السودان نفس السياسة الاقتصادية التى اتبعها فى مصر بهدف عمران القطرين وسد حاجة البلاد ذاتيا مع سد حاجة مصر بما يفيض عن حاجة السودان ومن هذه الأعمال إنعاش الزراعة

وإدخال الصناعة وتشجيع التجارة وتنظيم الضرائب ونشر ألوية الأمن. [١٢] ولما كانت إيرادات السودان لا تكفي النفقات التى استلزمها العمران فقد تحملت مصر الفرق باعتبار السودان أحد مديريات مصر. [١٣]

وكان الباشا ينفق بسخاء على تعمير السودان وإنعاش الحياة الاقتصادية به، وتعليم أبنائه، وتشجيعهم بمختلف الطرق على المضي قدما فى طريق الحضارة، كما أراد محمد علي أن يتدرب السودانيون على حكم أنفسهم بأنفسهم، فعمد - على حد قول بعض المعاصرين - إلى إشراك العناصر الوطنية فى شئون الحكم والإدارة، أى أنه - كما يقول الدكتور محمد فؤاد شكرى - ابتكر تلك السياسة التى صار يطلق عليها دعاة اليوم (١٩٤٧) اسم «سودنة الوظائف».

ولذلك بات يهمه ألا تضيع هذه الجهود سدى، وألا يعود عهد الفوضى التى سبقت الفتح المصرى مرة ثانية فيتخلف السودان عن ركب الحضارة والعمران. ولذلك فإنه عندما تأزمت الأمور بينه وبين حكومة الباب العالي وبات من الواضح أنه إما أن يستقل محمد علي بملك مصر وإما أن يظل فى نطاق الدولة العثمانية بشرط دعم سيطرته على أساس الحكم الوراثي فى مصر، عمد محمد علي إلى توضيح ما كان لمصر من حقوق ثابتة على السودان، غير تلك التى كانت مستمدة من واقع التبعية للباب العالي،وانتهز فرصة تدخل الدول لتسوية الخلاف بينه وبين الباب العالي فقام برحلته التاريخية إلى السودان فى أكتوبر ١٨٣٨ ثم ما لبث بعد عودته حتى أصدر(جرنالا) لهذه الرحلة فى أبريل ١٨٣٩ كان له أهمية عظيمة، فقد أراد الباشا من نشر هذا الجرنال أن يدعو - كما يقول الدكتور محمد فؤاد شكرى [١٤] - إلى نظرية جديدة تؤيد حقوق السيادة المصرية على السودان، وتشبه فى جوهرها ما أخذت به فرنسا بعد ذلك فى حادثة فاشودة المعروفة، وفحوى نظرية محمد علي أن الأقطار السودانية عند افتتاحها لم يكن يملكها أحد فى الحقيقة إذ اغتصبت السلطة من أصحابها الشرعيين فى معظم بلدان السودان، ونشرت قبائل العربان الفوضى فى كل أنحائه، فإذا استطاع حاكم أن ينتزع

هذه الأراضي من قبضة أولئك الذين اغتصبوا كل سلطة وينشئ حكومة موطدة مرهوبة الجانب تذود عن حياضها وتصون أرضها من الغزو الخارجي حق لهذا الحاكم أن يستمتع بكل ما يخوله سلطانه من حقوق السيادة على هذه الأراضي.

وعلى ذلك فقد كتب القنصل النمساوى لاورين Laurin فى ١٩ أبريل ١٨٣٩ إلى حكومته بشأن نشر (جرنال) هذه الرحلة «أن الباشا يقصد من ذلك أن يذيع فى الملأ كل حقوق السيادة التى يطلبها لنفسه على تلك الأقاليم التى يعتبرها خالية لا يملكها أحد Vacant والسبب فى ذلك أن فكرة تأسيس مملكة تضم أقطار السودان قد أصبحت عقيدة راسخة لدى محمد علي ولدى أولئك الذين استطاعوا أن يدرسوا عن كثب رغبات وميول الباشا ... ويغلب على الظن أن نشر جرنال الرحلة ما هو إلا مقدمة لإنشاء مملكة السودان الحديثة »(١٥).

وبالفعل سرعان ما أدرك الباشا غايته عندما توسطت الدول لتسوية المسألة المصرية على أساس إعطاء حكومة مصر وراثية لأسرة محمد علي فى نطاق الدولة العثمانية، ثم إبقاء السودان فى حوزة محمد علي، فصدر فى ١٣ فبراير ١٨٤١ فرمان أعطى لمحمد علي لمدى الحياة حكومة دارفور (رغم أن هذه الأرض لم تفتح أصلا إلا فى عهد الخديو إسماعيل عام ١٨٧٤) بالإضافة إلى النوبة وكردفان وسنار وجميع ملحقاتها، (١٦) فكان هذا الفرمان الحجة الأولى التى دعمت حقوق مصر فى السيادة على السودان مع تبعيتها للباب العالي وبموافقة الدول الأوروبية.

ويرجع الفضل إلى محمد علي كذلك فى رسم خطوط السياسة التى أفضت - فى عهد الخديو إسماعيل - إلى تقرير حقوق السيادة المصرية على السودان الشرقي برمته، فقد كان العثمانيون قد بسطوا سيادتهم فى أوائل القرن السادس عشر على الأراضي الممتدة على طول ساحل البحر الأحمر الغربي حتى باب المندب، واتخذوا بعد ذلك سواكن ومصوع مراكز لتعزيز حكومتهم فى هذه الجهات تحت إشراف والي جدة، إلا أن سلطانهم ظل اسميا مقصورا على الساحل حتى أيام محمد علي.

فرأى باشا مصر أن يجعل من هذه السيادة الإسمية سيادة فعلية، فاحتل جزيرة مصوع فترة من الزمن. ومنذ أن أُعطي إبراهيم حكومة الحجاز صار يلقب بوالي جدة ووالي إيالة الحبش حتى عام ١٨٤٠، وفى عام ١٨٤٦ وافقت الدولة العثمانية على إعطاء سواكن ومصوع لمحمد علي مدة حياته، وكلف حاكمها باتخاذ العدة لاحتلال الشاطئ الإفريقي حتى رأس غردافوى باسم محمد علي إلى جانب غزو الحبشة، ولم يمنعه من تنفيذ ذلك سوى تدخل بريطانيا ومرض محمد علي. وعند تولية عباس الأول ١٨٤٩ أعيدت سواكن ومصوع إلى الدولة العثمانية.

عباس الأول والسودان

وقد وجه عباس الأول عنايته إلى توطيد الحكومة فى السودان الأوسط والمحافظة على أملاك السودانيين وتأمينهم على أرواحهم وتذليل سبل العيش لهم بمنع الأحباش من الاعتداء عليهم فى الأقاليم السودانية الشرقية.

ولم يصدر السلطان العثماني فرمانا منفصلا يعطي الحكم فى السودان لوالي مصر عباس بل اكتفى فى الفرمان الصادر فى ٢٧ نوفمبر ١٨٤٨ بأن تكون لعباس حكومة مصر « مع توابعها» وذلك بالشروط الواردة بالفرمان المرسل إلى محمد علي، على ألا يكون الحكم فى السودان وراثيا بل « لمدى الحياة» فحسب ثم يتجدد هذا التقليد عند اعتلاء باشا مصر أريكة الولاية. وسار عباس على خطى جده بالاهتمام برفاهية السودانيين ورغم أنه أكثر من تغيير الحكمداريين إلا أنه بشهادة السودانيين أنفسهم(١٧) والمعاصرين الأجانب كانوا أكفاء(١٨) . وكانت النشرة التى وجهها عباس إلى رستم باشا بمناسبة تعيينه حكمداراً فى يناير ١٨٥٢ تتضمن المبادئ التى يجب أن يسترشد بها المديرون فى إدارتهم(١٩).

وتتبع عباس خطوات جده محمد علي فى تشجيع معاهد التعليم الديني بالسودان، وإكرام فقهاء السودانيين وعلماءهم وشجع من أراد منهم الدراسة فى الأزهر وأوصى بهم الحكمداريين عند عودتهم إلى بلادهم ومن هؤلاء الشيخ محمد السنوسي والشيخ

أبو بكر محمد. كما أنشأ عباس فى الخرطوم أول مدرسة نظامية بالسودان على نمط المدارس المصرية واختار لهذه المدرسة[٢٠] التى افتتحت عام ١٨٥٣ نخبة من المدرسين الأكفاء على رأسهم ناظرهم رفاعة رافع الطهطاوي.

ولما كان عباس لم يستطع الخروج من أزمة التنظيمات التى أثارتها الدولة العثمانية إلا بفضل معاونة بريطانيا له (مقابل تنفيذ مشروع الخط الحديدى وصرف النظر عن مشروع قناة السويس الفرنسى) حيث نجحت الدبلوماسية البريطانية فى استمالة الدول إلى تأييد عباس فتمكن بذلك من المحافظة على مسند الولاية المصرية.

ولكن انشغال عباس بدفع الخطر عن مسند الولاية لم يترك له متسعا من الوقت لتنفيذ كل رغباته فى الإصلاح أو إحكام قبضته الفعلية على حكومة الخرطوم، فمرت الإدارة المصرية فى السودان بفترة عارضة نشطت فيها تجارة الرقيق واشتط الحكام فى فرض الضرائب[٢١].

محمد سعيد والسودان

لذلك لم يكد سعيد يصل إلى أريكة الولاية فى منتصف ١٨٥٤ حتى حصر مهمته فى العمل على إزالة المساوئ التى كانت مثار شكوى السودانيين، فعين فى مارس ١٨٥٥ أخاه البرنس حليم باشا حكمداراً على السودان لكي ينفذ الإصلاحات الجديدة ويعد العدة لاستقبال سعيد باشا الذى كان يعتزم الانسحاب إلى هناك إذا تحرجت العلاقات بينه وبين الباب العالي، وقام سعيد برحلته المشهورة فى أواخر عام ١٨٥٧ فى زيارة تفتيشية لإزالة المساوئ التى شكا منها الأهلون واتخاذ الإجراءات لتحسين أحوالهم وإعادة تنظيم الإدارة فى السودان واستمالة الشيوخ والزعماء الوطنيين إلى جانب الحكومة [٢٢]، وبحث أنجح الوسائل لمكافحة تجارة الرقيق.[٢٣]

وقد انتهز الشيوخ والزعماء الوطنيون فرصة وجود سعيد بينهم فقابلوه واستمع لشكاياتهم ومطالبهم ووعد بزيادة التوسع فى إشراكهم فى أعمال الحكومة والإدارة. وتحقيقا لآمال السودانيين أصدر وهو فى الخرطوم أربعة مراسيم (فى ٢ يناير ١٨٥٧) لتخفيف عبء الضرائب واستشارة الشيوخ فى تقديرها.

وكان قد أعلن فى بربر قبل ذلك إلغاء الرق، وعين طائفة من الشيوخ فى مكان موظفي الحكومة الذين تبين له سوء تدبيرهم وأدخل نظام اللامركزية بأن يصبح كل مدير خاضعاً لإشراف حكومة القاهرة مباشرة بدلا من تركيز السلطة جميعها فى أيدى الحكمداريين.

وقد عني سعيد بتنشيط وتوثيق العلاقات التجارية القائمة بين مصر والسودان وأتاح للسودانيين فرصة الاتجار مع مصر فألغى الضرائب الجمركية على التجارة الداخلية بين أقاليم وادى النيل وخفض الرسوم على صادرات السودان إلى الخارج ويذكر القنصل النمساوى هوبر Huber أن البضائع الواردة من الأقاليم السودانية أصبحت بضائع مصرية لا تدفع عنها رسوم.

كما قرر مد خط سكة حديد بين بربر وسواكن لتسهيل استيراد المصنوعات الهندية والأوروبية إلى السودان وتصدير حاصلات السودان إلى أسواق اليمن والحجاز. ولم يحل دون تنفيذ المشروع - بعد إعداده - سوى كلفته الفادحة.

ولكن لم تتحقق أهداف سعيد فقد عادت المركزية ونشطت تجارة الرقيق، ويرجع ذلك لانشغال سعيد بشئون الحكم فى مصر ومحاولة توسيع الاستقلال الذاتي وجعل الوراثة صلبية، فلم يتفرغ لمراقبة الأحوال فى الأقطار السودانية، مما أتاح الفرصة لتجار الرقيق الذين أسسوا شركات تحت ستار صيد الفيل وحصلوا من حكومة الخرطوم الضعيفة على حقوق الاتجار فى مساحات واسعة بحيث أنه عند وفاة سعيد كانت هذه المناطق خارج نفوذ الحكومة. (٢٤)

الخديو إسماعيل وحقوق مصر فى السودان

قام بتنفيذ سياسة محمد علي فى السودان الشرقي حفيده إسماعيل حيث كان له برنامج واسع يرمي إلى دعم أركان السيادة المصرية على السودان الأوسط وبسط السيادة المصرية على السودان الشرقي كذلك. فاستطاع أن يشيد إمبراطورية إفريقية كبيرة على

أساس إنساني هو القضاء على الرق والنخاسة فى السودان، وفى مايو ١٨٦٥ حصل من الباب العالي على قائم مقاماتي سواكن ومصوع، وعند صدور فرمان الوراثة الصلبية فى مايو ١٨٦٦ صار الحكم فيهما وراثيا بما فى ذلك توابعهما والملحقات التى كانت تمتد من رأس علبة فى الشمال إلى رهيطة عند مضيق باب المندب فى الجنوب.

ويرى د. شكرى أنه بفرمان الوراثة الصلبية عام ١٨٦٦ الذى تقرر فيه انتقال ولاية مصر مع ما هو تابع لها من الأراضي وكامل ملحقاتها وقائم مقاماتي سواكن ومصوع إلى أكبر أولاده الذكور ومنذ ذلك الحين وكأنما السيادة على القطرين قد توحدت نهائيا مع التبعية للسلطان العثماني، وبالتالي أصبح من المتعذر على حاكم مصر التنازل عن شئ من حقوق السيادة على هذه الأقاليم دون موافقة الدولة العثمانية وموافقة الدول الموقعة على معاهدة لندن ١٨٤١.

وفى عام ١٨٦٦ استولت مصر كذلك على جميع شاطئ خليج عدن الجنوبي حتى رأس غردافوى على اعتبار أن لها الحق فى امتلاك هذا الساحل بمقتضى فرمانات عامي ١٨٦٥، ١٨٦٦.

وعندما أرسلت بريطانيا حملتها التأديبية ضد الحبشة فى عام ١٨٦٩ أكدت الحكومة البريطانية للخديو أنها لا تقصد سوى تأديب ملكها تيودورس، ولم تناقش حقوق مصر فى السيادة على ساحل البحر الأحمر الغربي أو ساحل عدن الجنوبي.

ثم تدعمت هذه الحقوق فى العامين التاليين، وفى عام ١٨٧٢ ضم الخديو إسماعيل إقليم بو غوص فى السودان الشرقي، ثم حصل من الباب العالي على زيلع فى عام ١٨٧٥، وكان من رأى بيردسلي Beardsley القنصل الأمريكي فى مصر أن الاستيلاء على زيلع وضع ساحل البحر الأحمر الإفريقى كله تحت السيادة المصرية. (٢٥)

على أن إسماعيل ما لبث أن ضم إلى أملاكه المصرية بلادا جديدة لم تكن خاضعة للعثمانيين ويقصد بها إمارة هرر فقد سار رؤوف باشا على رأس حملة لفتحها فى سبتمبر ١٨٧٥، وعندئذ بادر أميرها عبد الشكور إلى التنازل عن إمارته إلى الخديو إسماعيل فى

وثيقة رسمية بتاريخ ٧ رمضان ١٢٩٢ هـ / ٧ أكتوبر ١٨٧٥م. (٢٦) مقابل أن يحصل على الحكم الوراثي فى إمارته تحت السيادة المصرية (٢٧) .وهكذا استندت مصر فى سيادتها على هرر - التى كانت سلطنة مستقلة لم يكن لتركيا حقوق فيها - إلى حقوق الفتح وتنازل سلطانها رسميا عن ملكه للخديوية المصرية.

وفى نفس العام أرسل الخديو إسماعيل حملة إلى مصب نهر جوبا، سرعان ما اضطرت إلى الانسحاب.بسبب تدخل بريطانيا واحتجاج سلطان زنجبار.

وقد أدت سياسة التوسع فى السودان الشرقي وعلى طول ساحل البحر الأحمر وفى بلاد الصومال إلى نشوب الحرب بين الحبشة ومصر، وجعلت بريطانيا فى مقدمة الدول التى اهتمت وقتذاك بإثارة مسألة السيادة المصرية على السودان الشرقي وساحلي البحر الأحمر وخليج عدن رغبة منها فى تحديد دائرة هذه السيادة بصورة تكفل إخراج أراضى زنجبار من نطاقها.

وكان الخديو منذ أن بدأ يبسط سلطانه على هذه الأقاليم لا يقل رغبة هو الآخر فى إظهار الحقوق التى كانت لمصر فى السيادة الكاملة عليها، فأعد جعفر مظهر باشا تقريرا ضافيا أوضح فيه هذه الحقوق وذلك فى ٨ أكتوبر ١٨٦٧، وفى يونيو ١٨٧٠ بسط شريف باشا هذه الحقوق فى رسالة إلى ستانتون Stanton القنصل البريطاني فى مصر وسلم البريطانيون بهذه الحقوق الشرعية فى الأعوام التالية. (٢٨)

وفى أبريل ١٨٧٦ أظهروا استعدادهم للاعتراف بحقوق مصر على جميع الشاطئ الصومالي نظير أن يفتح الخديو موانى زيلع وبلهار وبربره وتاجورة للتجارة الحرة، فأبرمت بريطانيا ومصر فى ٧ سبتمبر ١٨٧٧ اتفاقا بشان اعتراف الحكومة البريطانية بحقوق مصر الشرعية تحت سيادة الباب العالي على الساحل الصومالي حتى رأس حافون (٢٩)، ويرى د. شكرى أن لم يكن اعتراف بريطانيا بهذه الحقوق إلا تقريرا لذلك الوضع الدولى الذى كان للسيادة المصرية على جميع أقطار السودان الشرقي وتلك الأقاليم الممتدة على طول ساحل البحر الأحمر و الساحل الصومالي وذلك بمقتضى الفرمانات التى

صدرت بإعطاء مصر سواكن ومصوع وزيلع فى سنوات ١٨٦٥، ١٨٦٦، ١٨٧٥ على التوالي بحكم ما كان للباب العالي من حق السيادة على تلك البقاع، وهي حقوق شرعية اعترفت بها الدول ولم تتعرض لمناقشتها بتاتا. (٣٠)

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحكم فى السودان الأوسط كان قد أُعطي لمحمد على كجزء من التسوية التى وضعت للمسألة المصرية عامى ١٨٤٠، ١٨٤١، ثم أصبح وراثيا بمقتضى فرمان الوراثة الصلبية الذى صدر لإسماعيل فى ٢٧ مايو ١٨٦٦ لتبين لنا كيف أن حقوق السيادة التى كانت لمصر فى شطريه الشرقي والأوسط إنما هي حقوق شرعية وقانونية أقرتها الدول.

ولم تقتصر جهود إسماعيل على إثبات حقوق مصر فى أقاليم السودان بل لقد وقع عليه أيضا عبء معالجة المشكلات التى ظهرت فى فترة الانتقال السابقة، وذلك بالقيام بشتى ضروب الإصلاح مما جعل الأقاليم السودانية تستمتع بنهضة اجتماعية اقتصادية عظيمة مسترشدا بالقواعد التى وضعها محمد علي وسار عليها كل من عباس ومحمد سعيد، وأساسها إنشاء حكومة «أبوية» ذات برنامج إصلاحي واضح يكفل السير بالأقاليم السودانية فى طريق الحضارة والرقي، وتوطيد الأمن ومعاونة الأهلين على الاستقرار حتى يقبلوا على الزراعة والصناعة والتجارة فتنتعش الحياة الاقتصادية ويعم الرخاء ويكثر العمران وينتشر التعليم وتتعزز الثقافة الإسلامية، فتخير أكفأ الرجال لملء مناصب الحكم فى الخرطوم وفى سائر الأقاليم السودانية، موضحا لهم فى تعليماته ضرورة إشراك العناصر الوطنية فى شئون الحكم والإدارة إلى حد لم يسبق له مثيل، حتى لقد شمل هذا المبدأ مناطق الزنوج فى مناطق النيل العليا. (٣١)

فطلب من موسى حمدى باشا حكمدار السودان أن يجعل من الأهالي نظارا «لأجل أن يتمدنوا ويدخلوا فى الإنسانية» كما كتب إليه فى مارس ١٨٦٣ «بما أن تعمير وإصلاح الإقليم المذكور وإدخاله فى عداد المديريات المصرية .... يلزم أن تعاملوا سكانه وقاطنيه بالعدل والحقانية .... وزيادة العمارية ....» (٣٢)

وعندما حل مظهر جعفر باشا محل موسى حمدى باشا فى منصب الحكمدارية سار على نفس السياسة، وكان من أثر الحكومة الرشيدة التى أقامها فى السودان أن انجذبت إليه قلوب السودانيين وتحدث كثيرا منهم عن مناقبه وتألم الجميع لفراقه عندما انتهت مدة حكمداريته.

وعندما عيّن الخديو إسماعيل فى منصب الحكمدارية إسماعيل أيوب باشا ١٨٧٢ طلب منه الخديو أن يعمل على «إخراج الأمور النافعة والمستلزمة لرفاهية وراحة سكانها إلى حيز الفعل». (٣٣)

ولما كان إشراك العناصر الوطنية من القواعد المقررة فى الحكم فقد خطت «السودنة» على أيدى هؤلاء الحكمداريين خطوات واسعة بتعيين السودانيين فى الوظائف الهامة فكان منهم مديرون ونظار أقسام وأعضاء المجالس المحلية التى عممت فى أنحاء السودان، كما كان منهم القضاة ورؤساء التجار ووصل بعضهم إلى الرتب العسكرية ومن أمثلة ذلك:

ـ تعيين الشيخ أحمد أبو سن من كبار الشكرية مديرا للخرطوم، والشيخ زبير عبدالقادر شيخا للمشايخ.

ـ وحصل آدم باشا من كبار الضباط السودانيين على رتبة اللواء كما رقي حسين بك خليفة شيخ العبابدة ومدير بربر إلى الرتبة الثانية.

ـ تعيين الشيخ على ثاني أبناء أحمد بك أبو سن شيخا لعربان الشكرية، وتعيين أخيه عوض الكريم معاونا فى مديرية الخرطوم.

ـ وبعد احتلال زيلع حفظ الخديو إسماعيل لأميرها الشيخ أبو بكر شحيم مكانته فعينه وكيلا لمحافظة زيلع الجديدة ولم يلبث أن عينه محافظا لزيلع ١٨٧٥ (٣٤).

وكان من أثر تلك السياسة الحكيمة أن سعى أبو بكر شحيم لحث محمد بن عبد الشكور أمير هرر على الدخول فى طاعة الحكومة.وقد اجتذبت سياسة السودنة قلوب

زعماء السودانيين فاطمأنوا إلى الحكومة المصرية وانضووا تحت لوائها مثل الزبير رحمت الجميعابي الذى قدم فتوحه فى بحر الغزال هدية لحكومة الخرطوم فعين مديرا لبحر الغزال كما مهد انضواؤه تحت لواء الحكومة المصرية لافتتاح دارفور حيث أسهم بنصيب وافر فى حملات الفتح.

تلك كانت معالم السياسة الوطنية الرشيدة التى اتبعها الخديو إسماعيل فى الأقاليم السودانية، وقد أوجز د. شكرى أثرها فى توطيد دعائم الأمن مما ساعد رجال الإدارة فى أن ينفذوا فى السودان إصلاحات كثيرة أهمها تحسين العاصمة وإنشاء المباني الحديثة بها وبغيرها من المدن، واحتفار الآبار ومد أنابيب المياه العذبة إلى المدن، ومد السكك الحديدية، وتعبيد الطرق لربط أقاليم السودان بعضها ببعض، وربط شطرى الوادى جنوبه وشماله، وتنظيم البريد وخدمة التلغراف، إلى جانب العناية بصحة الأهلين ونشر الثقافة الإسلامية وإنشاء المدارس الحكومية لتعميم التعليم وفق الأساليب المتبعة فى مصر، وتشجيع الرواد والمستكشفين الأجانب على ارتياد الأقاليم السودانية إلى جانب قيام حكومة الخديو ذاتها بأعمال الكشف الجغرافى. ولما كثرت وفود أحباش الجهات المجاورة إلى سواكن وكان أكثرهم على المذهب القبطي أمر إسماعيل ببناء كنيسة لهم، وأخيرا وليس آخرا مكافحة النخاسة وإبطال تجارة الرقيق.

ولما كانت هذه الإصلاحات تقتضي نفقات جسيمة كان لابد من اتباع سياسة جديدة ذات أغراض محددة واعتبر إسماعيل الأقاليم السودانية جزءا من البلاد المصرية أى من مديريات الوادى لا فرق بين تلك التى تقع فى الشمال وتلك التى تقع فى الجنوب،ينفق عليها جميعا من خزانة واحدة، مع إنشاء ميزانية خاصة للسودان لكي تسد الأقاليم السودانية حاجاتها من مواردها الخاصة وتتدخل مصر عند ظهور عجز فى مالية هذه الأقاليم فقط إذا نزل بها ضيق نتيجة احتباس المطر أو زيادة الفيضان، وظل الخديو طوال مدة حكمه يسد ما كان يحدث من عجز فى ميزانية السودان.(٣٥)

إسماعيل وتأكيد السيادة المصرية من خلال مكافحة الرق

وتأسيسا على ما سبق يرى د.شكرى أن إسماعيل عندما وصل إلى منصب الولاية قرر أنه لابد من اتخاذ علاج حاسم وسريع للقضاء على الرق والنخاسة لإعادة سيطرة حكومة الخرطوم على الجهات التى استحوذ عليها النخاسون والجلابون وأقاموا عليها زرائبهم ومراكزهم المسلحة فى أواخر عهد سعيد مهما كلفه ذلك من باهظ النفقات، ويرى د.شكرى أن إسماعيل لم يكن يهدف فقط إلى استرجاع هذه الأقاليم التى دخلت فى حوزة مصر منذ أيام جده محمد علي وهي الأقاليم التى كانت تتكون منها حكمدارية السودان الممتدة بين التاكة شرقا، وكردفان غربا وحول غندكرو جنوبا بل كان يهدف إلى الاستيلاء على أقطار أخرى جديدة فيفتح دارفور ويخضع بحر الغزال ويمد سلطانه على طول الساحل الإفريقي للبحر الأحمر فيستعيد سواكن ومصوع ويبسط نفوذه على أرض البوغوص ويدخل سلطنة هرر ضمن ممتلكاته، ويقيم دعائم الحكم المصرى فى بلاد الصومال المطلة على خليج عدن ويعيد بصورة كاملة كافة حقوق السيادة التى كانت للدولة العثمانية حتى رأس حافون.

وقد عهد إسماعيل إلى السير صمويل بيكر أولا ثم إلى تشارلز جورج غوردون ثانيا بمهمة إقامة الحكومة الموطدة فى جهات النيل الأعلى وتطهير تلك الجهات من تجار الرقيق الذين نزحوا نتيجة لذلك إلى دارفور التى أصبحت مركزاً يهدد منها تجار الرقيق الناقمون حكومة الخرطوم ذاتها، ولذلك فان إخضاع دارفور كان من شانه أن يساعد على إلغاء تجارة الرقيق فسير الجيوش إلى دارفور واحتل المصريون عاصمتها الفاشر عام ١٨٧٤ مما أصاب تجار الرقيق بضربة قاصمة.

ثم اتجه إسماعيل إلى تعقب النخاسين والجلابة فى مواطنهم وإغلاق المسالك التى كانت تخرج منها أو تسلكها تجارة الرقيق إلى مواني التصدير فى سواكن ومصوع وزولا على البحر الأحمر ورهيطة عند باب المندب وتاجورة جنوبها، ثم زيلع وبلهار وبربره الواقعة على خليج عدن، وكانت بلهار وبربره ميناءى سلطنة هرر وبلاد الصومال.

وكان من رأى المعاصر (مونزنجر) أن عودة السيادة المصرية على تلك الجهات من شأنه أن يساعد مساعدة جدية على مكافحة الرق والنخاسة إذ كانت هرر من أسواق الرقيق المهمة تصدره إلى بلاد العرب من مواني بربره وتاجورة وزيلع.

وقد رأينا إسماعيل ينفذ خطته خطوة فخطوة:

فحصل من الباب العالي على قائم مقامتي سواكن ومصوع فى مايو ١٨٦٥، وبمقتضى فرمان الوراثة الصلبية فى مايو ١٨٦٦ صار الحكم وراثيا فيهما بما فى ذلك توابعهما والملحقات التى كانت تمتد من رأس علبة فى الشمال إلى رهيطة فى الجنوب.

وفى عام ١٨٦٧ عين إسماعيل عبد القادر باشا (حلمي) حاكما على سواحل إفريقية الشرقية، وأرسلت تعزيزات للحاميات المصرية فى سواكن ومصوع وكان السبب فى ذلك أن إسماعيل كان يخشى أن تتعرض حقوق السيادة المصرية فى تلك الأصقاع للضياع نتيجة إرسال الإنجليز حملة تأديبية ضد الحبشة.

وفى السنوات القليلة التالية عمل الخديو على تدعيم حقوق السيادة على ساحل البحر الأحمر حتى مضيق باب المندب وعلى بلاد الصومال حتى مصب نهر جوبا، فأرسل الأسطول المصرى إلى تلك المياه وعين ممتاز باشا حاكما على جميع الشاطئ الإفريقي من السويس إلى رأس غوردافوى.

وعين فى ١٨٧١ فرنر مونزنجر Munzinger حاكما فى مصوع، وكلف باحتلال إقليم بوغوص (أو سنهيت) الواقع بين التاكة ومصوع. وفعلا استولى عليه مونزنجر ١٨٧٢ ثم عين فى ١٨٧٣ حاكما على السودان الشرقي من سواكن فى الشمال إلى رهيطة فى الجنوب [٣٦]، بما فى ذلك إقليمي بوغوص والتاكه.

وكان من سياسة التوسع هذه فى السودان الشرقي وفى بلاد الصومال إلى جانب إثارة الحرب مع الحبشة وإثارة مسألة السيادة برمتها على نحو أدى إلى اعتراف بريطانيا النهائى بحقوق مصر فى تلك الأصقاع أن تأيدت حقوق السيادة نهائيا على السودان

بأجمعه أى بقسميه الأوسط والشرقي لا عن طريق ما كانت تخوله الفرمانات من هذه الحقوق أو بحق الفتح فحسب بل باعتراف الدول كذلك وفى مقدمتها بريطانيا (٣٧).

وهكذا خرجت مصر من هذا النضال محتفظة بجميع آمالها فى السودان الشرقي وبلاد الصومال وعلى طول ساحل البحر الأحمر وتأيدت حقوق السيادة التى كانت على هذه الأقاليم بأكملها.

وكان للسياسة التى اتبعها إسماعيل فى السودان الشرقي وعلى ساحل البحر الأحمر الإفريقي وانتهت بالحرب الحبشية من جهة وإرسال حملة جوبا من جهة أخرى أعظم الأثر فى عرض مسألة السيادة برمتها على بساط البحث، وكانت بريطانيا أكثر الدول اهتماما بتحديد دائرة هذه السيادة. ورغم أنها خشيت أن يبسط المصريون سيادتهم على زنجبار فتدخلت لإرغامهم على الانسحاب من جوبا، إلا أنها ما كانت لتتردد قط فى الاعتراف بحقوق مصر الكاملة فى السيادة على السودان الشرقي وجميع الأقاليم الممتدة على ساحل البحر الأحمر حتى رأس حافون أى إلى خط عرض ١٠ تقريبا شمالا مع بقاء مصر تابعة للدولة العثمانية، وكان مما يدعو بريطانيا إلى الاعتراف بهذه السيادة سوى تقرير حقوق شرعية لأصحابها وكذلك اعتقاد ساستها أن خضوع هذه الجهات لنفوذ الحكومة المصرية من شأنه أن يفتح الموانى الواقعة على ساحل البحر الأحمر وخليج عدن للتجارة المشروعة ويساعد على مكافحة الرق والنخاسة والقضاء على تجارة الرقيق قضاء مبرما.

وكان البريطانيون والفرنسيون والطليان قد حاولوا قبل أن يبسط إسماعيل نفوذه على السودان الشرقي وساحل البحر الأحمر الإفريقي أن ينتزعوا لأنفسهم حقوقا فى هذه الجهات ضاربين عرض الحائط بحقوق السيادة التى كانت للدولة العثمانية على أقاليم بعيدة عنها. وكانت هذه الاعتداءات المتكررة من الأسباب التى دعت الخديو إسماعيل لبذل كل ما فى وسعه لصيانة حقوق السيادة الشرعية على السودان الشرقي وساحل البحر الأحمر مستندا إلى ما كانت تخوله الفرمانات ١٨٦٥، ١٨٦٦ الصادرة له.

وفى أكتوبر ١٨٦٧ قدم جعفر مظهر باشا تقريرا إلى إسماعيل أوضح فيه حقوق السيادة المصرية هذه (ما عدا ميناء زيلع فقط)(٣٨) وفى يونيو ١٨٧٠ بسط شريف باشا هذه الحقوق فى رسالة إلى القنصل البريطاني فى مصر الكولونيل ستانتون Stanton. (٣٩)

وقد سلم البريطانيون فى أواخر الأمر بهذه الحقوق الشرعية فذكر سفيرهم فى الأستانة سير هنرى اليوت Elliot عند الحديث عن الوسائل الجدية فى سبيل القضاء على تجارة الرقيق أن الاعتراف بحقوق مصر (ذات التبعية التركية) فى السيادة على ساحل البحر الأحمر الغربي وشواطئ خليج عدن الجنوبية من شأنه أن يساعد على مكافحة الرق والنخاسة،كما أيد الكولونيل ستانتون الغرض نفسه عند احتلال القوات المصرية لبربره، وفى أبريل ١٨٧٦ أظهر البريطانيون استعدادهم للاعتراف بحقوق مصر - مع تبعيتها للدولة العثمانية - فى السيادة على جميع الشاطئ الصومالي (٤٠).

وكانت بريطانيا بعد حملة جوبا والحرب الحبشية تريد أن تحدد بوضوح ما كان لمصر من سلطة شرعية على الساحل الصومالي بحيث تقف هذه السلطة عند رأس غردافوي، ولكنها طلبت ثمن هذا الاعتراف بهذا الحق أن يفتح الخديو مواني زيلع وبلهار وبربره وتاجورة للتجارة الحرة، وكذلك بدأت المفاوضات لعقد معاهدة بين مصر وبريطانيا تعترف فيها الأخيرة بسيادة مصر على هذه الأقاليم حتى رأس حافون بدلا من رأس غردافوى وفى المفاوضات تمسك الخديو بحقوق مصر التى تشمل بلاد الصومال حتى نهر جوبا جنوبا كما رفض إعلان أن مواني زيلع وبلهار وبربره وتاجورة مفتوحة للتجارة الحرة لأن عدم تحصيل رسوم على المتاجر التى ترد إلى هذه المواني يسبب لمصر خسائر فادحة بينما تدفع الخزانة المصرية للدولة العثمانية أموالا سنوية نظير بقاء هذه المواني فى حوزة مصر.

وفى مارس ١٨٧٧ وافقت بريطانيا على أن تشمل السيادة المصرية الإقليم الواقع بين رأس غردافوى ورأس حافون كما وافقت على أن يحصل الخديو رسوما معتدلة فى زيلع وسائر المواني على الساحل الصومالي ماعدا بلهار وبربره، اللتين وافق الخديو على إعلانهما موانئ حرة، وعلى هذا الأساس أبرم فى ٧ سبتمبر ١٨٧٧ بين مصر وبريطانيا

اتفاق بشان اعتراف حكومة صاحبة الجلالة بحقوق صاحب السمو الخديو إسماعيل باشا الشرعية تحت سيادة الباب العالي على الساحل الصومالي حتى رأس غردافوي(٤١) وهكذا نرى كيف أن حقوق السيادة التى كانت لمصر على السودان بشطريه إنما هي حقوق شرعية قانونية أقرتها واعترفت بها الدول ولذلك فإن معاهدة ٧ سبتمبر ١٨٧٧ تحتل مكانة ممتازة لأن هذه المعاهدة كانت آخر الخطوات التى اتخذت لتأييد هذه الحقوق بصفة حاسمة ونهائية.

المعاهدة المصرية البريطانية للقضاء على تجارة الرقيق (١٤ أغسطس ١٨٧٧)

وقد تزامنت المفاوضات التى أسفرت عن إبرام معاهدة ٧ سبتمبر ١٨٧٧ مع مفاوضات أخرى بين مصر وبريطانيا من أجل الاتفاق على الوسائل الفعالة للقضاء على تجارة الرقيق فى السودانين الشرقي والأوسط،وفى الأقاليم المطلة على البحر الأحمر وخليج عدن. ذلك أن الحكومة البريطانية كانت تحت ضغط شديد من جانب الرأى العام البريطاني متمثلا فى (جمعية مكافحة الرق Anti - Slavery Society) ولذلك كانت الحكومة البريطانية تضغط بدورها على الخديو إسماعيل من أجل زيادة الجهود التى يبذلها فى هذا السبيل. ولم يكن الخديو يوافق بريطانيا على رأيها فى ضرورة تحديد وقت معين لإلغاء تجارة الرقيق تماما (سبع سنوات من مصر واثني عشرة سنة من السودان والملحقات المصرية) لأن ذلك لم يكن أمرا سهلا، وتحت ضغط وإلحاح بريطانيا أُبرمت معاهدة إلغاء تجارة الرقيق في ١٤ أغسطس ١٨٧٧.

وقد وجه الدكتور محمد فؤاد شكرى نقدا لاذعا لهذه المعاهدة واعتبرها عملا خاليا من الحكمة وقد كان على حق وذلك على ضوء ما أسفرت عنه من نتائج حيث كانت السبب فى إشعال ثورة محمد أحمد المهدى وبالتالي إلى ضياع السودان، ويؤكد وجهة نظر الخديو إسماعيل آراء شخصيات أوروبية فى مقدمتها غوردون نفسه الذى عين حكمدار على السودان لتنفيذ المعاهدة، وكان يرى أن الخديو لن يستطيع تنفيذ المعاهدة(٤٢)، بل وكان يعتقد أن البريطانيين أرغموا الخديو على عقد هذه المعاهدة. وبعد

ست سنوات كتب الكولونيل ستوارت Stewart فى تقريره المشهور أنه من المستحيل أن يتوقع إنسان زوال الرق فى عام ١٨٨٩ (٤٣).

وكان مبعث الخطر أن ترغم تلك المعاهدة مصر على اتخاذ إجراءات متطرفة غير حكيمة لكي تنفذ نصوص المعاهدة، وهي الإجراءات التى قام بها غوردون كحكمدار للسودان مما أدى إلى اشتعال الثورات والقيام بعمليات عسكرية واسعة لإخمادها وبخاصة فى دارفور وبحر الغزال وكردفان، ولم يكن غوردون موفقا هذه المرة بعكس عندما كان مأمورا لمديرية خط الاستواء، حيث أصبح تجار الرقيق هم قوام الثورات، ورغم قضاء غوردون عليها إلا أن جذوتها لم تنطفئ.

وقد سنحت لهم الفرصة بعزل إسماعيل فى يونيو ١٨٧٩ ومغادرة غوردون السودان فى الشهر التالي وخلفه محمد رؤوف باشا الذى وصلته تعليمات من الخديو الجديد محمد توفيق - بإيعاز من بريطانيا - فاستمرت السياسة التى كان يسير عليها غوردون، وصارت الإدارة ضعيفة، وأصبحت البلاد تغلي مراجلها سخطا على سياسة الحكومة فى إلغاء تجارة الرقيق وفداحة الأعباء المالية على الأهلين، ولذلك لم يكد يظهر محمد أحمد المهدى حتى التف حوله الأهلون، وأقبل تجار الرقيق من كل حدب وصوب يشدون أزره فى قيادة الثورة ضد الحكم المصرى فى السودان (٤٤).

وفشلت محاولات قمع الثورة فى بداية عهد الاحتلال البريطاني عندما أرسلت حملة هيكس التى أبيدت فى شيكان ١٨٨٣ وامتدت الثورة إلى السودان الشرقي ومديرية خط الإستواء وأصبح سلطان الحكومة مهددا بالزوال، وفى هذه الأثناء قررت بريطانيا إخلاء السودان.

تطور موقف بريطانيا من السودان بعد احتلال مصر

استعرض الدكتور محمد فؤاد شكرى موقف بريطانيا من السودان على ضوء ما وقع من أحداث وخلص إلى القول بأن هذا الموقف البريطانى مرّ بمراحل تطور خلالها هذا

الموقف. المرحلة الأولى فى بداية عهد الاحتلال وفيها كانت سياسة بريطانيا تتسم بالسلبية مكتفية بمعرفة ما يجرى هناك ولذلك أوفدت الكولونيل ستيوارت الذى كتب تقريرين فى عام ١٨٨٣ أحدهما من الخرطوم والثاني من مصوع (السودان الشرقي)، وقام مالت Mallet قنصل بريطانيا العام فى مصر بابلاغهما إلى شريف باشا. كما وضع دوفرين Dufferin تقريره المشهور عن تنظيم الإدارة فى مصر بعد الثورة العرابية وتحدث فى تقريره عن السودان، ومما يلفت النظر أن ستيوارت ودوفرين لم يكن من رأيهما فى تقاريرهما أن تترك مصر ممتلكاتها فى السودان رغم الثورة المهدية وهزيمة قوات مصر (٤٥).

إلا أن هزيمة هيكس فى شيكان جعلت بريطانيا تنبذ السياسة السلبية وأشارت على مصر بإخلاء السودان، ولكن حكومة شريف باشا كانت مصممة على الاحتفاظ بالخرطوم وسنار، ولكن جرانفيل وزير خارجية بريطانيا هدد بتعيين وزراء إنجليز إذا تعذر وجود مصريين يقبلون تنفيذ أوامر الخديو التى يشير عليه بها البريطانيون (٤٦) ، وعندئذ لم يجد شريف باشا مناصا من الاستقالة ونفذت بريطانيا سياسة الإخلاء، واختارت الجنرال غوردون لهذه المهمة التى كلفت غوردون نفسه حياته.

وأوجز د. محمد فؤاد شكرى النتائج التى ترتبت على سياسة بريطانيا (الإخلاء) فيما يلي:

١- قوى شأن الدراويش حتى هاجموا الحدود المصرية فى عهد الخليفة عبد الله التعايشى، وعادت تجارة الرق إلى ما كانت عليه ورأت بريطانيا ضرورة استرجاع السودان، لتأمين حدود مصر من ناحية والقضاء على تجارة الرقيق من ناحية أخرى.

٢- ومما جعل بريطانيا ترى أن الظروف فى مصر ملائمة أن أحوال مصر المالية استقامت وصار لها جيش مدرب وأصبحت بريطانيا مطمئنة على مركزها فى مصر.

٣- نشاط الدول الأوروبية الأخرى لاقتطاع أجزاء من السودان أى أن سياسة بريطانيا تطورت من السلبية إلى الإخلاء ثم الاسترداد.

ولكن د. محمد فؤاد شكرى كشف الستار عن السياسة المتناقضة التى كانت بريطانيا تتبعها إزاء السودان، فبينما كانت تحاول رد عدوان بعض الدول التى تطمع فى اقتطاع أجزاء من جنوبيه حيث كانت تلك الدول تزعم أن تلك الأصقاع لم تكن ملكا لأحد، فإن بريطانيا - فى الوقت نفسه - كانت تتخذ من حقوق مصر فى السيادة على السودان - رغم إخلائه - تكئة تستند إليها فى اتفاقات مع بعض الدول الأخرى لتقسيم الممتلكات المصرية فى السودان الشرقي وعلى طول الساحل الصومالي وكانت هذه السياسة من أهم الاسباب التى جعلت بريطانيا توطد العزم على استرجاع السودان.

ورغم أن بريطانيا عقدت فى عام ١٨٩٤ معاهدة مع ولاية الكونغو البلجيكية تنازلت لها بمقتضاها عن الأراضى الممتدة على شاطئ النيل الأيسر من بحيرة البرت إلى فاشودة، إلا أن فرنسا استطاعت فى نفس العام أن تعقد اتفاقا مع الكونغو نالت بمقتضاه منطقة نفوذ تصل إلى بحر الغزال وتشمل جزءا من الإقليم الذى تنازلت عنه بريطانيا لحكومة الكونغو.

ولذلك عملت فرنسا على إرسال حملة إلى النيل الأعلى بقيادة مارشان Marchand الذى وصل إلى فاشودة ورفع عليها العلم الفرنسي فى يوليو ١٨٩٨، كما أبرم معاهدة مع زعماء الشيلوك لإدخالهم تحت الحماية الفرنسية.

ولكن بريطانيا كانت قد قررت منذ مارس ١٨٩٦ إرسال حملة بقيادة كتشنر سردار الجيش المصرى. وبدأت الحملة سيرها فى مايو ١٨٩٨ وبعد أن استولى كتشنر على الخرطوم هنأه مارشان وأبلغه أن قواته احتلت إقليم بحر الغزال وكذلك بلاد الشيلوك على شاطئ النيل الغربي حتى فاشودة، ولكن كتشنر أصر على أن فاشودة من الأملاك المصرية وأن أوامر السلطان العثماني وخديو مصر تلزمه باحتلالها وهدد كتشنر مارشان بأن قواته الأضخم من قوات مارشان تستطيع إرغامه على الاعتراف بحقوق الباب العالي، ورُفع العلم المصرى على فاشودة إلى جانب العلم الفرنسي ، إلا أن الطرفين بريطانيا وفرنسا استطاعا تفادى الاصطدام واضطرت فرنسا للرضوخ للأمر الواقع وأمرت مارشان بالانسحاب من فاشودة وتم ذلك فى ديسمبر ١٨٩٨. (٤٧)

وحين وقعت حادثة فاشودة كتب كتشنر نفسه إلى مارشان بأنه « تلقي تعليمات لإعادة السيادة المصرية على مديرية فاشودة وأنه يحتج على ما حدث من رفع العلم الفرنسي على ممتلكات سمو الخديو»، وبعد ذلك أبلغ كتشنر القائد الفرنسي بأنه «اعتبارا من اليوم استعادت مصر ولاية الحكم رسميا على هذه المنطقة (فاشودة)» (٤٨).

وقد أوضح الدكتور محمد فؤاد شكرى أهمية حادث فاشودة فى أنه أيد حقوق مصر فى السودان بشكل يقضي على كل إدعاء من جانب الدول التى كانت ترى اقتطاع أجزاء منه بدعوى أن إخلاء مصر للسودان قد ترك البلاد أرضا لا يملكها أحد. ويتجلى هذا فى خطاب لورد سولسبورى إلى السفير البريطانى فى باريس فى ٥ أكتوبر ١٨٩٨ «صحيح أن مصر تأثرت حقوقها فى امتلاك ضفاف النيل بسبب نجاح المهدى فأضحت هذه الحقوق معطلة مؤقتا، ولكنها منذ انتصار المصريين على الدراويش لم تعد موضع نزاع أو مناقشة».

وفى حديثه مع كورسل Courcel السفير الفرنسي فى لندن فى ١٢ اكتوبر ١٨٩٨ حرص سولسبورى على أن يبرز بجلاء أن وادى النيل كان وما يزال ملكا لمصر وأن كل اعتداء على هذه الحقوق من جانب المهدى قد انتهى بفضل هزيمة الدراويش فى «أم درمان». وفى ٢٢ اكتوبر ألقى اللورد روزبرى خطابا فى برث Perth جاء فيه « إنما نحن نعمل الآن لكي نعيد أرضا تملكها مصر نفسها طبقا لتصريحات جميع الحكومات الفرنسية المتعاقبة».

اتفاقيتا الحكم الثنائي والسيادة

ولم تكد تمضي أيام قلائل على إخلاء فاشودة حتى كان لورد كرومر بالنيابة عن الحكومة البريطانية وبطرس غالي نيابة عن الحكومة المصرية قد وقعا وفاقا بين الحكومتين « بشأن إدارة السودان فى المستقبل»(٤٩). وقد انعقد رأى المؤرخين على أن لورد كرومر كان صاحب اليد الطولي - على حد قول الدكتور فؤاد شكرى - فى عقد هذا الوفاق.(٥٠)

وكان هدف كرومر من وضع نظام الحكم الثنائي فى السودان أو فيما أسماه «الدولة المولدة» (أى لا هو مصرى ولا بريطاني ولكن بين بين)، أن يفسح المجال لاشتراك بريطانيا فى إدارة بلاد ساهمت فى استعادة فتحها، كما أنها التزمت منذ احتلت مصر بمسئولية الإشراف على استقرار الأمور فى شطر الوادى الشمالي (مصر) صاحب السيادة على شطر الوادى الجنوبي (أى السودان).

وبالإضافة إلى ذلك فإن كرومر كان يزعجه أن يرى الدولة العثمانية التى لم يغير احتلال مصر شيئا ذا شأن من حقوق سيادتها على مصر وملحقاتها ومن بينها السودان ولو من الناحية النظرية على الأقل، أن تشترك فى تدبير أمور بلاد لم تبذل أى جهد عندما فتحها محمد علي أولا، ولم تساهم بشئ عندما استرجعها المصريون بمعاونة بريطانيا أخيرا.

وإلى جانب ذلك فإن كرومر كان يرى أن عودة الحال فى السودان إلى ما كانت عليه قبل ثورة المهدى تؤدى إلى سريان الامتيازات الأجنبية فى السودان بحكم سريانها فى مصر، وذلك ما كان القنصل البريطاني يريد الحيلولة دون وقوعه بأية وسيلة حيث كان كرومر شديد الكراهية لنظام الامتيازات التى كانت تحد من سلطات الحكومة وتعطل «إصلاحاته»لا سيما وأنه عندما أراد تدبير الأموال اللازمة للإنفاق على الحملة المزمع إرسالها إلى دنقلة وقع صدام بينه وبين هذا النظام إذ رفض عضوا صندوق الدين الفرنسي والروسي الموافقة على إقراض الحكومة المصرية ما تحتاج إليه من مال، وأيدتهما المحاكم المختلطة فى موقفهما إزاء الحكومة المصرية. (٥١)

لذلك كان من الضرورى - على حد قول كرومر - اختراع وسيلة ما يكون من شانها اعتبار السودان مصريا بالقدر الذى يحقق مقتضيات السياسة والعدالة دون أن يقيد بريطانيا فى الوقت نفسه بالقيد الذى يمنع الإدارة الحكومية فى السودان من أن تعرقلها النظم الدولية التى كانت تلازم الوضع السياسى فى مصر. (٥٢)

على أن كرومر لم يستطع أن يحسم فى هذا الوفاق المسألة الكبرى والأساسية وهي مسألة السيادة على السودان، حيث لم يكن يستطيع - وقد سبق له الإعتراف بحقوق الدولة العثمانية ومصر فى كل مناسبة وفى أثناء حادث فاشودة الذى وقع مؤخرا - سوى تقرير هذه الحقوق، ولذلك كان من المبادئ التى استرشد بها عند وضع أساس وفاق الحكم الثنائي أنه «من الواجب اعتبار السودان أرضا عثمانية ولذلك يجب أن يحكم طبقا للفرمانات الشاهانية على يد الخديو بما له من سلطة بسبب تبعيته للسلطان العثماني».(٥٣)

فجاء فى حيثيات الوفاق «إن بعض أقاليم السودان التى خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التى بذلتها بالاشتراك حكومتا جلالة ملكة الإنجليز والجناب العالي الخديو، حيث أنه قد أصبح من الضرورى وضع نظام خاص لأجل إدارة الأقاليم المنفتحة المذكورة ... فقد صار الاتفاق».

ويرى د. فؤاد شكرى أن اتفاقيتى ١٩ يناير، ١٠ يوليو ١٨٩٩ لم تتناولا سوى موضوعا واحدا وهو تنظيم الإدارة فى السودان، ولم يمّا حق مصر والسودان فى الوحدة، والتنازل عن جزء من هذا الحق لا يمكن أن يقع إلا بموجب وثيقة قاطعة، ولا يمكن أن يُستفاد هذا من هذا التنازل من اتفاقيتي عام ١٨٩٩ فلم توضع هذه النصوص إلا للنظام الإدارى للسودان. وفضلا عن ذلك فإن مثل هذا التنازل لو حدث لكان من الواجب أن تقره الحكومة العثمانية طبقا لفرماني التولية الصادرين فى عام ١٨٧٩ (لمحمد توفيق) و١٨٩٢ (لعباس حلمى الثانى).

وفى الواقع فإن بريطانيا لم تحاول مطلقا بعد حملة استرداد السودان المساس بحقوق مصر. ولما كانت بريطانيا تعمل فوق ذلك بصفتها حليفة للخديو الذى كان الحاكم الطبيعي لهذا البلد ولأنها كانت تعتبر نفسها حفيظة على المصالح المصرية فلم يكن أن تجرد حليفتها التى تحميها من جزء من حقوقها على الإقليم الذى عاونتها على استرداده. بل على العكس فقد طالبت أن يكون لها فى الميدان الإدارى نصيب مقابل اشتراكها فى حملة استرداد السودان.

وفوق ذلك فإن اللورد كرومر - وهو أقدر سياسي بريطاني يمكنه أن يوضح حقيقة اتفاقيات ١٨٩٩ لأنها كانت من وضعه - حيث كتب فى تقريره عن عام ١٩٠١ ما يلي: «ألاحظ فى تقرير المجلس التشريعى عن ميزانية هذا العام أن المجلس يوافق على المصروفات المخصصة للسودان، إذ يعتبر السودان جزءاً لا يتجزأ من مصر، وهذا الرأى صحيح فى جوهره ..».

و يختتم د. فؤاد شكرى دراسته بإبداء رأيه الحاسم والقاطع بأنه سواء أكان لمصر وبريطانيا أن تبرما هذا الوفاق أو كان الوفاق من الناحيتين القانونية والدولية لاغيا لا وجود له فإن حقوق مصر فى السيادة على السودان بأجمعه من الأمور المقررة إذ إنها تستند إلى حق الفتح، كما تستند إلى الفرمانات العثمانية التى صدرت بموافقة الدول من أيام محمد على إلى عباس حلمي الثاني (١٨٤١ - ١٨٩٢) [أى حتى بعد الاحتلال البريطاني لمصر] وإلى الاتفاقيات الدولية التى تعهدت فيها الدول بالمحافظة على كيان الدولة العثمانية ونفت عن نفسها تهمة الطمع فى اقتطاع شئ من ممتلكاتها.(٥٤)

الهوامش

لما كان الهدف من هذه الدراسة هو ما قدمه الدكتور محمد فؤاد شكرى من أسانيد تاريخية لتأصيل وحدة وادى النيل، لذلك فإن عمدتنا الأساسية كانت المادة العلمية التى أوردها فى مؤلفاته العديدة عن السودان، ولذلك فستكون هذه المؤلفات هي المرجع الأساسي لهذه الدراسة، ولكننا من ناحية أخرى أردنا إثبات المصادر والمراجع التى استعان بها وأثبتها فى حواشى كتبه ليتأكد القارئ من مصداقية هذه المادة العلمية، بالإضافة إلى رغبتنا فى معاونة القارئ فى الرجوع إلى هذه المصادر والمراجع إذا أراد المزيد من المعلومات.

(١) أرشيف وزارة الخارجية المصرية - سرى جديد- محفظة سوريا رقم ١١، ملف ١٠ سرى رقم ٢، ملف بعنوان «السياسة الخارجية المصرية » ، نشرة إلي الهيئات الدبلوماسية والقنصلية الملكية المصرية فى الخارج بتاريخ ١٣ فبراير ١٩٤٧ وبتوقيع محمد كامل عبد الرحيم وكيل وزارة الخارجية.

(٢) أرشيف وزارة الخارجية المصرية - سرى جديد - محفظة سوريا رقم ١١ ملف ١٠ سرى رقم ٢، بعنوان «السياسة الخارجية المصرية »، ١٠ سرى ، بتاريخ ١١ أغسطس ١٩٤٧.

(٣) سمعنا أن هذه الدراسة موجودة ضمن وثائق وزارة الخارجية المصرية، ولكننا لم نعثر عليها ضمن وثائق وزارة الخارجية المصرية الموجودة بدار الوثائق القومية. ولما كان د. محمد فؤاد شكرى قد نشر فى وقت متزامن مع عرض قضية مصر كتابه القّيم «مصر والسيادة على السودان» فى عام ١٩٤٧، فإننا بعد دراسة هذا الكتاب أدركنا أن ما تضمنه من أسانيد تاريخية عن وحدة وادى النيل لن تخرج عما جاء فى دراسته التى قدمها لوفد مصر فى الأمم المتحدة، إن لم يكن الإثنان شيئا واحدا.

(٤) الناشر دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧

(٥) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان - تاريخ وحدة وادى النيل فى القرن التاسع عشر- (ط٢ دار المعارف: القاهرة ١٩٥٨) ص ص ٥،٦

(٦) مصر والسيادة على السودان، ص ٥

(٧) نفس المرجع نقلا عن دفاتر المعية تركي، دفتر ٦٦ رقم ٦٨ أمر محمد علي إلى خورشيد باشا فى ٢٨ ربيع الأول ١٢٥١ هـ .

(٨) مصر والسيادة ص ص ٧،٨ عن الوثائق النمساوية ويقول المؤلف أنه عثر ضمن هذه الوثائق على ترجمة كاملة لجرنال رحلة محمد علي.

(٩) رفاعة رافع الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية (القاهرة ١٩٠٤م) ص٢٦٣.

(١٠) مصر والسيادة، ص ص ٩. ١٠ عن دفاتر المعية تركى ٧٩ ، ٢٦، ٤٢، ١٨٩، ٤١١ .

(١١) مصر والسيادة، ص ص ١٢،١٣ عن دفاتر المعية تركي ٢٦،٥١،٧٧٠

(١٢) مصر والسيادة، ص ص ١٣ – ١٥ دفاتر المعية :رقم ١٩ تركي عن الوثائق النمساوية والفرنسية وشهادات الرحالة:

Puckler , Muscau, Bowring, Lepsius, Tounsy, Werne.

(١٣) مصر والسيادة، ص ص ١٥، ١٦ (ميزانيات ١٨٢٩،١٨٣٣،١٨٣٥، ١٨٤٢،١٨٤٦)

(١٤) مصر والسيادة، ص ١٩ عن الأرشيف النمساوى

Staat- Archiv Turquie 50, Rapport de Laurin, Caire 19/4/1839

(١٥) المصدر السابق

(١٦) مصر والسيادة، ص ص ٢٠ ،٢١ (نص الفرمان فى الملحق رقم ٥ ص ص ٨٧ – ٨٨ من مصر والسيادة)

(١٧) مصر والسيادة، ص ٣٠ عن مخطوط تاريخ ملوك السودان وأقاليمه إلى حكم الخديو إسماعيل

(١٨) مثل قنصل النمسا – تقرير من الخرطوم بتاريخ ١٨٥٢/٥/٢٥ مرفق برساله قنصل النمسا فى الإسكندرية بتاريخ ١٧ / ٨ / ١٨٥٢ (الأرشيف النمساوي)

(١٩) مصر والسيادة، ص ٣١ عن أمين سامي المجلد الأول من جـ٢ ص٤٦

(٢٠) مصر والسيادة، ص ٣٢ عن الأرشيف النمساوى، رسالة قنصل النمسا بالاسكندرية رقم ٤٣٠ إلي القاهرة فى ١٨٥١/٤/١٦.

(٢١) الحكم المصرى فى السودان، ص ٤٩ عن دفاتر المعية تركي دفتر ١٩٥٨ (١٨٥٠)

(٢٢) مصر والسيادة، ص ص ٣٤،٣٥ عن دفاتر المعية تركي ٥٠٥، الأرشيف النمساوى :رسالة قنصل النمسا بالاسكندرية فى ١٨٥٦/١١/١٨

(٢٣) مصر والسيادة، ص ٣٥ عن وثائق الخارجية البريطانية:

F.O. 84 (Slave Trade) no.3, Alex 31/12/58

(٢٤) مصر والسيادة، ص ٣٧ عن وثائق الخارجية الفرنسية Egypte Alex. 9/4/63 ووثائق الخارجية البريطانية F.O. 84 Slave Trade no.5 Alex 31/7/1862 .

(٢٥)مصر والسيادة، ص ٤٣ عن الوثائق الأمريكية بدار الوثائق المصرية

Vol. X no.6, 337, Cairo 15/7/1875

(٢٦)الأرشيف النمساوى Staat. Archiv Cairo 8/11/1875, copie de la circulaire adresse par le Ministre des Affaires Etrangeres Egyptien, Caire 8-11-1875

(٢٧) نص فرمان السلطان إلى الخديو إسماعيل بشأن التنازل لإسماعيل عن زيلع. ملحق رقم ١٤ ص ١١١ مصر والسيادة. ونص خطاب الأمير محمد بن عبد الشكور أمير هرر إلى محمد رؤوف باشا ملحق رقم ١٥ من نفس المرجع.

(٢٨) مصر والسيادة، ص ٤٩ عن وثائق الخارجية البريطانية

F.O 78/3186 no.60 Alexandria 3-6-1870 copy of a despatch from Sherif Pasha 1/6/1870

(٢٩) مصر والسيادة، ص ٥٠ عن وثائق الخارجية البريطانية

F.O 78/3189, India Office 28/3/1877 to F.O.

(٣٠) مصر والسيادة، ص ٥١.

(٣١) شكري: الحكم المصرى فى السودان، ص ٦٩.

(٣٢) الحكم المصرى، ص ٧٠ عن دفاتر المعية تركي رقم ٥٢٦، ٥٢٧.

(٣٣) الحكم المصرى، ص ٧٦ عن دفتر معية تركي دفتر ٢ رقم ١ فى ١١ شوال ١٢٩٠هـ / إرادة لإسماعيل أيوب باشا.

(٣٤) الحكم المصرى، ص ٨٣ عن معية دفتر ١٠ أوامر عربي رقم ٢٢ إلى محمد رؤوف باشا، ورقم ٢٤ إلى أبو بكر أفندى شحيم، ثم رقم ٥٢ أمر كريم إلى أبو بكر أفندى شحيم.

(٣٥) الحكم المصرى، ص ص ١١١- ١١٤ بيان بمقادير المساعدات.

(٣٦) مصر والسيادة، ص ٤٢ عن الوثائق الأمريكية بدار الوثائق القومية

Vol. VI. no. 118, Alex 21/8/1872

(٣٧) مصر والسيادة، ص ٤٥.

(٣٨) مصر والسيادة، ص٤٩ عن الوثائق القومية محفظة ٣ شميس ٧ نمرة الحفظ ٤٥ (مصوع وسواكن) بدون تاريخ.

(٣٩) مصر والسيادة، نفس الصفحة السابقة عن وثائق الخارجية البريطانية

F.O. 78/3186 no. 60 Alex. 3/6/1870 copy of a despatch from Sherif Pash 1/6/1870

(٤٠) مصر والسيادة، ص ٥٠ عن وثائق الخارجية البريطانية

F.O. 78/3187 Elliot to Granvile13/11/1873, F.O. 78/3/88 Memo, Affairs of the Somali Coast, Calcutta 1875

(٤١) مصر والسيادة، ص ٥١ وملحق عن وثائق الخارجية البريطانية

F.O 78/3189 no. 279 Enclos. Convention of Sept. 7,1877

(٤٢) مصروالسيادة، ص ٥٣ عن وثائق الخارجية البريطانية

F.O. 84/1511 Slave Trade no.8, Cairo 29/3/1879

(٤٣) مصر والسيادة، نفس الصفحة

Blue Books, Egypt no.11 (1883) Report of Colonel Stewart p.24

(٤٤) مصر والسيادة، ص ٥٥ عن الأرشيف النمساوي

Staat - Archiv (1881), no. 108, Cairo 17/9/1881, Enclos Khartoum 15/8/1881

(٤٥) مصر والسيادة، ص ص ٥٥، ٥٦

Blue Books, Egypt no. 22 (1883), Enclos no. 15, Mallet to Sherif Pasha 16/5/1883

(٤٦) مصر والسيادة، ص ٥٩ عن

Blue Books, Egypt no.1 (1884), no. 210 Granville to Baring, F.O. 4/1/1884

(٤٧) Cocheris: Situation Internationale de L' Egypte et du Soudan, Paris 1902,p.p. 466,467

(٤٨) Ibid., p.p. 477,483

(٤٩) مجلس الشيوخ ملحق رقم ١ (وفاق بين حكومة ملك الإنجليز وحكومة الجناب العالي خديو مصر بشأن إدارة السودان فى المستقبل) ص ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٥٠) Cocheris, p.p. 405,406

(٥١) Sir Auchland Colvin : The Making of Modern Egypt (Lond. 1908) p. 266

(٥٢) Cromer: Modern Egypt, II (Lond. 1908) p. 115

(٥٣) Ibid., p.p. 113 -114

(٥٤) مصر والسيادة، ص ص ٧٠ - ٧١

Cocheris, op. cit., p.p. 505 - 508

أ. د. محمد فؤاد شكرى فى سطور

- ولد فى حلوان عام ١٩٠٤
- الأسرة قاهرية الموطن سورية الأصل (والده ابن عم الزعيم السورى عبد الرحمن شهبندر)
- تخرج من مدرسة المعلمين العليا عام ١٩٢٩
- حصل من جامعة ليفربول على البكالوريوس الممتازة عام ١٩٣١، ثم دكتوراه من نفس الجامعة عام ١٩٣٥ وكانت رسالته عن الرق فى السودان فى عصر إسماعيل
- عُين مدرسا بمدرسة شبرا الثانوية
- ثم وافق مجلس كلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة) على تعيينه مدرسا فى يونيو ١٩٣٦
- انتدب مفتشا لوزارة المعارف ١٩٤١ ونقل إليها نهائيا عام ١٩٤٣ وحتى ١٩٤٥
- عُين بدرجة مدرس عام ١٩٤٥ ورقي إلى درجة أستاذ مساعد عام ١٩٤٦
- انتدب بناء على طلب وزارة الخارجية المصرية مستشاراً لوفد الحكومة المصرية لإبداء رأيها فى القضية الليبية
- انتدب للعمل مستشارا لهيئة تحرير ليبيا حتى مايو ١٩٤٩
- لم يوافق مجلس الجامعة على تجديد ندبه للحاجة إليه رغم إلحاح وزارة الخارجية المصرية
- رُقي أستاذاً فى عام ١٩٥٢
- انتقل إلى رحمة الله فى ٢٤ نوفمبر ١٩٦٣ عن عمر يناهز التاسعة والخمسين.

بريطانيا ومستقبل السودان فى أعقاب ثورة ١٩١٩
(١٩١٩ - ١٩٢٤)
فى ضوء الوثائق البريطانية

د. خالد عيد الناغية

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

بكلية الآداب - بنها

بريطانيا ومستقبل السودان فى أعقاب ثورة ١٩١٩
(١٩١٩ - ١٩٢٤)
فى ضوء الوثائق البريطانية

كان اختيار «بريطانيا ومستقبل السودان فى أعقاب ثورة ١٩١٩ (١٩١٩- ١٩٢٤)» عنوانا لهذه الدراسة يرجع إلى أهمية هذه الفترة فى العلاقات البريطانية - المصرية عامة، وعلاقات بريطانيا ومصالحها الاقتصادية فى السودان خاصة ، وقيام السياسة البريطانية بمواجهة النزعة الاستقلالية فى مصر إبان ثورة ١٩١٩ بإنهاء ما تبقى لمصر من ثنائية فى السودان.

ويرجع اختيار عام ١٩١٩ بداية لهذه الدراسة إلى أهمية هذه السنة بالنسبة لمصر والأقاليم المجاورة لها التى تأثرت بالثورة المصرية التى قامت فى ذلك العام ، وخشية بريطانيا من انتقال تأثير هذه الثورة إلى الجنوب فتهدد مصالحها ، ولذلك بذلت قصارى جهدها لتحول دون تأثر السودان بهذه الثورة ، بالإضافة إلى أن بريطانيا استغلت قيام الثورة المصرية وقررت تحديد مستقبل السودان وربطه بالإمبراطورية البريطانية .

وتأتى النهاية عند عام ١٩٢٤ حيث أنه فى هذا العام قررت السياسة البريطانية الإطاحة بالوجود المصرى فى السودان ، لتبدأ فترة جديدة فى تاريخ العلاقات البريطانية السودانية .

وقد اعتمد الباحث فى هذه الدراسة على الوثائق البريطانية التى تعددت أنواعها وشملت:

1)Wingate Papers, Durham University, (W.P.D.U.) Box 403/7/1

وهى محفوظة بمدرسة الدراسات الشرقية بجامعة درام بمدينة درام فى شمال إنجلترا.

2) Public Record Office (P. R. O) , Kew, Surrey , England .

مجموعة وثائق وزارة الخارجية البريطانية وهى محفوظة بدار المحفوظات البريطانية.
وشملت:

A) F.O. 371, General Correspondence, Political, Egypt and Sudan. (1919, 1920)

B) F.O. 407 , Confidential Print, Affairs of Egypt and Sudan, (1920).

C) F. O. 848 , The Sudan .

ودارت الدراسة حول أربعة اتجاهات رئيسية بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة ، وشملت الاتجاهات:-

الاتجاه الأول: موقف بريطانيا من تأثير ثورة١٩١٩ على السودان .

الاتجاه الثانى: الدعاية المصرية فى السودان .

الاتجاه الثالث: الدعاية البريطانية المضادة .

الاتجاه الرابع: بريطانيا وتحديد مستقبل السودان .

أولاً: الاتجاه الأول

موقف بريطانيا من تأثير ثورة ١٩١٩ على السودان :

يتبع السودان رسمياً إدارة مصر منذ عام ١٨٢١ ، وقبلها كانت تعيش مصر ولا يربطها بالسودان غير الرباط الشعبى ، ومن خلال هذا الرباط جنت الجماعات المتنقلة ثمار حسن الجوار ، وبعد عام ١٨٢١ جنت بعض الفئات - تجار الرقيق ، والعاج ، والمستغلون من الموظفين - ثمار العمل فى ربوع السودان الداخلية . ولم يشبع السودان أهدافاً اقتصادية ترتقبها مصر من ضم السودان إلى إدارتها ، وربما أشبع تطلعات توسعية لفكر توسعى عاشه محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٨) وحفيده إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) . وجاءت الثورة المهدية فى السودان عام ١٨٨١ وصحب أحداثها فى مصر الاحتلال

البريطانى عام ١٨٨٢ ، وحث الاحتلال على إخلاء السودان من الإدارة المصرية ، وهنا امتلكت مصر عقدة الرباط الرسمى بالسودان ، ورفضت أن يحرمها الاحتلال من هذا الرباط .

ولم تشأ سياسة الاحتلال البريطانى أن تنكر على مصر حقوقها الرسمية فى هذا الرباط دفعا للتوغل الأوروبى على حدود السودان، واسترضاء بالتشدق بالحق المصرى. ومع تهديد أعالى النيل اجتمع الإحساس لدى كل من مصر وبريطانيا بأهمية الرباط بين مصر والسودان اقتصادياً واستراتيجياً . وفى سبيل الحفاظ على هذا الرباط كانت تضحيات مصر فى السودان ، ابتداء من قبول دعوة بريطانيا فى الاشتراك فى حملة عسكرية لاسترداد السودان فى عام ١٨٩٦ . ولم يكن هدف بريطانيا من هذه الدعوة التى وضعوها على كاهل المصريين عودة الحكم المصرى السابق فى السودان ، وإنما السيادة الفعلية فى السودان لبريطانيا(١) .

وقد تجسد ذلك الهدف فى الاتفاق الإنجليزى - المصرى المعروف عادة باتفاق (١٩يناير ، ١٠يوليه ١٨٩٩) الحكم الثنائى(*)، حيث منح السودان وضعا سياسياً مستقلاً عن مصر ، ولم تتعد الرابطة بين البلدين فى الاتفاق إشارات عرضية تتعلق بحق الخديوية المصرية فى الملكية والحكم فى السودان ، وكذا العلاقة المالية بينهما التى لم يكن أمام السياسة البريطانية مفر من إقرارها مادامت ميزانية السودان ستعتمد على المساعدات المالية من مصر(٢) . أى أن الاتفاق جعل مصر من الناحية العملية تقوم بمجرد دور رمزى فى السودان،وليست كشريكة لبريطانيا فى السيطرة عليه.

وأعلنت بريطانيا عقب اتفاق الحكم الثنائى بأنها تقوم فى السودان بدور الوكيل عن مصر ومستشارها ، وذلك حتى لا تثير مشاعر المصريين . ولكن سرعان ما تبلورت حقيقة مهمة وهى أن لبريطانيا مصالح فى السودان . وبعد مضى بعض السنوات صار واضحاً للمصريين أن بريطانيا قد عزمت فى الواقع على اعتبار نفسها السيدة الدائمة لا فى السودان فحسب بل فى مصر أيضاً، فقام المصريون بمقاومة الاحتلال البريطانى فى البلدين (٣) .

وقد تجلت هذه المقاومة فى مصر فى ثورة مارس عام ١٩١٩ التى تعد مرحلة مهمة من مراحل تطور المسألة المصرية فى سبيل الاستقلال التام وإلغاء الحماية البريطانية . وفى حقيقة الأمر أن آثار هذه الثورة لم تكن محصورة داخل الأراضى المصرية بل تجاوزتها إلى غيرها من الدول والشعوب المجاورة ومن بينها السودان . فالسير لى ستاك Sir Lee Stack حاكم عام السودان (١٩١٦-١٩٢٤) كتب تقريراً عميقاً عن أثر الحركة الوطنية فى مصر على المواطنين فى السودان ، فأشار إلى أن موقف المصريين أنصار الوطنية تجاه الاحتلال البريطانى أقنع مواطنى السودان بأنه من الممكن انسحاب بريطانيا من السودان ومنح مصر الحكم الذاتى [٤] .

أما السير ريجنالد ونجت Sir Reginald Wingate المندوب السامى البريطانى فى مصر (١٩١٦-١٩١٩) فقد أكد من واقع خبرته الخاصة التى امتدت سبعة عشر عاماً سرداراً للجيش المصرى وحاكماً عاماً للسودان (١٨٩٩-١٩١٦) ، وعلى أساس معلوماته الوثيقة عن الظروف السياسية التى كانت قائمة فى السودان ، أنه إذا لم يتم علاج الموقف الثورى فى مصر بطريقة تبرز السلطة القوية لبريطانيا ، وكذلك علاج الفورة الوطنية التى تعد مسئولة عن الاضطرابات التى حدثت فى مصر ، فإن موقفاً خطيراً قد ينشأ أيضاً فى السودان[٥] .

وهكذا انزعج المسئولون البريطانيون فى القاهرة والخرطوم من خطورة ثورة عام ١٩١٩ ، وقاموا بحث الحكومة البريطانية على ضرورة مواجهة هذه الثورة بكل حزم من أجل المحافظة على الوضع الراهن ليس فقط فى السودان وإنما فى جميع الأقطار المجاورة- الحبشة ، وأريتريا ، وأوغندة ، وشرق إفريقيا ، والكنغو الفرنسى ، والكنغو البلجيكى- التى من الممكن أن تتعرض للخطر ، إذا ما وصل تأثير الحركة الوطنية المصرية إلى حدودها.

وزاد من انزعاج هؤلاء المسئولين أن الحفاظ على الأمن فى السودان يقع على عاتق الجيش المصرى ، حقيقة أن قيادة هذا الجيش فى أيدى الضباط البريطانيين ، لكن

عددهم محدود بالنسبة للضباط المصريين ولا يتناسب بالمرة مع إدارة بلد مثل السودان يشغل مساحة شاسعة تزيد على المليون ميل مربع ، ومن ثم فإن احتمال تأثر الضباط المصريين فى السودان بالحركة الوطنية فى مصر قد يؤدى إلى قيامهم باستغلال النقص فى عدد كبار الضباط البريطانيين ، وسيطرتهم على الإدارة فى أقاليم السودان وبخاصة النائية منها ، لإعلان الثورة ضد الحكم البريطانى .

ورغم تحذير ونجت من خطورة ثورة ١٩١٩ على السودان ، فإننا نجد السير لى ستاك لا يرى أى سبب للانزعاج من هذه الثورة ، بل راح يؤكد للحكومة البريطانية أنها لن تجابه أى انفجار ثورى أو تمردى فى السودان ، للأسباب التالية :

(١) أن المصريين الذى يوجد عدد كبير منهم فى السودان ، والذين تأثروا بشدة بالحركة الوطنية فى مصر ، إنما عاق نشاطهم أنهم يعيشون فى بلد نائى ، يشعرون فيه بأن أى حركة تمرد سوف تكون عديمة الأثر ومن المحتمل أن ترتد ضدهم ، بالإضافة إلى ذلك فإنهم باعتبارهم جميعاً من مستخدمى الحكومة ولم يكن بينهم أصحاب مهن حرة كالمحامين ورجال الصحافة أو ملاك الأرض، فإن الفصل والتشريد كان ينتظرهم إذا ما وقفوا ضد الحكومة فى حالة فشل حركتهم .

(٢) أن هناك بعض كبار الضباط المصريين استنكروا ما حدث فى مصر على اعتبار أن ذلك سيكون عقبة فى سبيل اتخاذ أى إجراء فى المستقبل من أجل الحكومة الذاتية.

(٣) أن سكان السودان لا يميلون إلى الحركة الوطنية فى مصر ، مما أثر بشدة على موقف المصريين فى السودان ، فالشعب السودانى فيما بين أنفسهم ليسوا على استعداد من الناحية السياسية الحصول على الحكم الذاتى ، فهم ليسوا منظمين تنظيماً كافياً أو مؤهلين لقيام مثل هذه الفكرة بينهم .

(٤) بلادة مشاعر السودانيين وولاء زعمائهم الدينيين إلى بريطانيا ، فقد رفضوا محاولات بعض المصريين لإقناعهم بالانضمام إلى الحركة الوطنية ومعارضة السيطرة البريطانية فى مصر والسودان (٦) .

(٥) عدم تأثر قوات السود والعرب فى السودان بالأحداث فى مصر ، وبالتالى رأت حكومة السودان الاعتماد عليها (٧) .

وإذا كانت هذه الأسباب قد دفعت السير لى ستاك إلى الاعتقاد بأن الاضطرابات التى حدثت فى مصر عشية ثورة ١٩١٩ كانت بعيدة أن تُحدث تأثيراً فى السودان، فإنه من الثابت تاريخياً تأثر السودان بهذه الثورة. ففى بداية شهر مايو ١٩١٩ قام عدد من الضباط والجنود من الجيش المصرى أثناء عودتهم من مصر إلى السودان عبر البحر الأحمر بالتظاهر على ظهر الباخرة الخديوية عند وصولهم إلى بورسودان محيين سعد زغلول مرددين الهتاف بأن مصر للمصريين، وكرروا مظاهراتهم فى عدة محطات فى الطريق ما بين بورسودان وعطبره(٨) .

وواجه حاكم عام السودان هذه الحركة بكل عنف، وأنزل العقاب على المتظاهرين على الفور ، لأنه كان يخشى أن تؤدى هذه الحادثة إلى إثارة الاضطرابات من جديد والتى قد بدأت تخمد ، وبخاصة أن الموظفين المصريين فى السودان حاولوا اتخاذ موقف مساند للثورة المصرية عن طريق جذب عطف وتعاون السودانيين معهم، والظهور بمظهر أن الشعبين مسلمان ، وأكثر ارتباطاً ببعضهما من الارتباط بالبريطانيين وحقيقة أن هذه الحركة لو قامت بشكل جدى ، وانتهت إلى تنظيم أكثر وعياً وحرصاً على يد كبار الضباط المصريين كان من الممكن أن تحدث ضرراً كبيراً للحكم البريطانى فى السودان. ولكن كان فى اعتقاد السير لى ستاك من واقع تقديره للموقف فى السوادن فى ظل ظروف ثورة ١٩١٩ بأنه «سيمضى وقت طويل قبل أن تتحول الثقة الموضوعة فينا للمصريين» (٩) .

وعلى أية حال فإن الثورة فى مصر كان لها تأثير معين فى السودان ، وانحصر هذا التأثير فى البداية فى المنطقة من الخرطوم وصاعداً نحو الشمال ، وهذا فى جانب منه راجع إلى العلاقة الكبيرة بين تجار أم درمان ومدن الشمال والشعب فى مصر ، وظهر هذا التأثير فى الدعوة إلى اتحاد السودانيين مع المصريين لطرد البريطانيين من وادى النيل(١٠). كما كان صغار الموظفين المصريين ، والعنصر التجارى المصرى فى الخرطوم وأم درمان يتكلمون فى حرية كبيرة وحديثهم لا يخلو من أثر على أذهان الوطنيين فى السودان ، فقد تسبب حديثهم فى خلق شعور من القلق ، وإدراك تضمن على سبيل المثال فى أن البريطانيين قد ينسحبون من مصر ، وبالتالى يتركون السودان تحت رحمة المصريين ، لأن هناك شعوراً بأن الانسحاب من مصر فى ظل ظروف ثورة ١٩١٩ يتضمن انسحاباً مماثلاً من السودان ، وهذه الفكرة يذكيها المصريون بدأب .

وقد أثر هذا القلق تأثيراً عظيماً على الوطنيين السودانيين إلى حد أن بعضاً منهم كان يسأل عن مدى صحة الشائعات المصرية التى وصلت حداً من الإقناع إلى درجة أن الزعماء والنبلاء فى السودان ممن عبروا عن مشاعر الإخلاص والولاء للحكومة البريطانية تخلوا عن موقفهم فى إظهار الإخلاص التام للبريطانيين انتظاراً لتحول الأحداث لصالح الثورة فى مصر. وبخاصة بعد أن شاع بين الضباط المصريين بنجاح بعثة سعد زغلول ، وإبعاد جميع الموظفين البريطانيين فى مصر ، وإعادة تنظيم الشئون الداخلية فيها تنظيماً شاملاً على الأساس القومى والنهج الإسلامى .

وقد وصل كل هذا إلى الوطنيين فى السودان بشكل محرف ، متضمناً استبدال الموظفين البريطانيين فى السودان ليحل محلهم فى المراكز العليا الموظفون الأتراك ، وإعادة تجارة الرقيق ، والثأر من السودانيين المتضامنين مع البريطانيين لقيامهم بالتصريح عن مشاعر ولائهم ، كما تضمن نداء عاماً لتعداد أولئك الذين أغضبوا المصريين بأى شكل من الأشكال(١١) .

وهكذا كان للضباط والموظفين المصريين والتجار أثر كبير فى الدعاية المباشرة نحو شعب السودان من أجل حثهم على القيام بعمل مشترك ضد الحكم البريطانى. واعترفت حكومة السودان بالخوف من استمرار خطورة الموقف فى مصر ، وتوقفت الاتصالات بين مصر والسودان لفترة طويلة ، مما أدى إلى نشأة مناخ من الاضطرابات فى السودان ، فى الوقت الذى تعرض فيه إلى نقص عام فى معظم السلع وبخاصة السكر، وكذا ارتفاع أسعار الذرة لنقص محصولها عام ١٩١٩ ، وأن هذا الوضع قد يستغل من جانب العناصر المصرية الساخطة ، وينتج عنه انفجارات من العنف فى شكل نهب من جانب الفئات الدنيا فى المدن . والتى قد تتيح للمصريين الفرصة لمضايقة الحكومة ومنعها من تقديم المساعدة المتوقعة منها.

ولكى تحول الحكومة البريطانية دون حدوث هذه الاضطرابات قررت اتخاذ الاحتياطات التالية:

١- العمل على قيام اتصال بحرى مباشر منتظم بين السويس وبورسودان ، من أجل حمل البريد ، وترحيل المسافرين إلى أوروبا وبخاصة النساء والأطفال .

٢- إرسال كتيبة بريطانية لا تقل قوتها عن ٦٠٠ جندى ، وذلك لتدعيم الحامية البريطانية فى السودان التى وصلت إلى الحد الأدنى من القوة اللازمة ، ولاحتلال نقط مكشوفة فى سكة الحديد السودانية (١٢) .

ثانيا: الاتجاه الثانى

الدعاية المصرية فى السودان:

ولم يقتصر أثر ثورة ١٩١٩ فى السودان على قيام بعض المظاهرات من جانب المصريين المقيمين فى السودان أو إلقاء خطب عامة فى بعض الأقاليم السودانية ، وإنما امتد ليشمل حملة دعائية قامت بها الصحافة المصرية لإثارة الشعور العام فى السودان ضد البريطانيين، واتخذت هذه الدعاية المصرية ثلاثة أشكال:

الشكل الأول، ظهر فى هيئة نشرات محرضة للسودانيين لمقاومة الاحتلال البريطانى، وقد طبعت هذه النشرات فى مصر وأرسلت إلى السودان عن طريق البريد أو باليد أو باللسان، ومن أهم هذه النشرات نشرة بعنوان «إخواننا السودانيين» وهى تحث السودانيين على التخلص من نير العبودية البريطانية عن طريق الارتباط بالمصريين ، وكذلك تشجيعهم على تطهير بلادهم من المستعمر الطاغى من أجل أوطانهم ودينهم وأحفادهم (١٣) .

وأعقب هذا المنشور صدور منشورين آخرين فى مايو عام ١٩٢١، الأول بتوقيع «جمعية إنقاذ السودان» وركز على خلق شعور عدم الرضا لدى مواطنى الجزيرة بسبب مشروع الجزيرة ، وبيّن سلبيات هذا المشروع وأنه سيؤدى إلى إغراق منازلهم وأراضيهم بالماء، وسيجبرهم على هجرها ، وهى التى آلت إليهم كميراث من آبائهم وأجدادهم ، وأنها ستنتقل فى النهاية إلى أيدى الشركات الأجنبية التى هدفها استعباد البلاد .

أما المنشور الآخر فكان عنوانه «المؤامرات البريطانية ضد الإسلام» وكان بتوقيع «جمعية الدفاع عن الدين فى السودان» وتناول الخطط الخبيثة للحكومة البريطانية ضد الدول الإسلامية فى الهند وأفغانستان والدولة العثمانية وولاياتها ، وتتمثل هذه الخطط فى إفساد المسلمين فى هذه البلاد عن طريق نشر بيوت الدعارة وتجارة الخمور ، وإرسال البعثات التبشيرية للتنصير بين المسلمين ، كما ركز المنشور على دعوة المسلمين إلى الجهاد ضد الظلم البريطانى والاستشهاد فى سبيل الله من أجل طرد المستعمر (١٤).

ومما لا شك فيه أن هذا الشكل من الدعاية كان يدعو العالم الإسلامى بصفة عامة والسودان بصفة خاصة إلى الاتحاد فى حرب مقدسة للنجاة بدولهم من نير الحكم البريطانى مما كان له أثره فى خلق شعور بالوعى القومى بين السودانيين .

أما الشكل الثانى، فقد تمثل فى حملة مكثفة تولتها الصحافة المصرية بهدف التأثير على المشتركين وغير المشتركين فى الصحف ، وإثارة الجموع الثائرة فى المدن الكبرى

بالكلمات السياسية الرنانة والتشويه المستمر لكل ماهو بريطاني ، وتفجرت المقالات التى تنادى بالاستقلال التام لكل من مصر والسودان على اعتبار أن كلا البلدين منذ القدم كانتا بلداً واحداً وغير منفصلتين ، وأن اللغة والدين والعادات واحدة ، وبالإضافة إلى أنه مادام السودان يتحكم فى منابع النيل فإن أى استقلال لمصر لا معنى له ، لأن بريطانيا تسيطر على النفوذ فى السودان وبالتالى تملك مفتاح مصر ، وأن الارتباط بين البلدين يتضح فى أنه لم تخل أى مقال تنادى باستقلال مصر أو برقية احتجاج تجاه السياسة البريطانية أو اجتماع أو مظاهرة، إلا وأضافت اسم السودان جنباً إلى جنب مع مصر(١٥).

وجرت محاولات من جانب الصحافة المصرية لتشجيع السودانيين للانضمام إلى الحركة الوطنية لإعلان الثورة ضد الحكم البريطانى ، فحاولت إقناع الطلبة السودانيين فى جامعة الأزهر للإسهام بمقالات قصيرة فى الصحف القومية يعلنون فيها تعاطف السودان مع مصر ، ولكن فشلت هذه المحاولة بسبب القيود التى فرضتها الحكومة السودانية على هؤلاء الطلاب (١٦) .

وعن الشكل الثالث، فقد انصب فى تلك الجهود التى قام بها الموظفون المصريون فى السودان من أجل دفع السودانيين بالتعالى على الإدارة البريطانية ، وتوجيه تعاطفهم مع الطموحات والآمال المصرية ، وامتاز هذا النوع من الدعاية باستغلال سلبيات هذه الإدارة لإثارة الرأى العام السودانى ضد بريطانيا ، فانتهزوا فرصة عدم الرضا التى سادت بين صغار الموظفين السودانيين بسبب التعديلات التى أدخلتها حكومة السودان فى نظام ترقية موظفى الحكومة ، والتى بموجبها حرموا من الترقيات بسبب مستوى تعليمهم، وظلوا يشغلون الوظائف البسيطة فى الجهاز الحكومى ، مما دفعهم إلى رفع شعار السودان للسودانيين ، فالتقط المصريون هذا الخط واستخدموه فى الدعاية ، وأكدوا حقيقة مهمة وهى أن مصر لا ترغب فى امتلاك السودان ، وإنما هدفها طرد البريطانيين من مصر والسودان(١٧) .

ثالثا: الاتجاه الثالث

الدعاية البريطانية المضادة:

لم تقف السياسة البريطانية مكتوفة الأيدى أمام المحاولات المصرية للتأثير على السودانيين لاتخاذ موقف إيجابى ضد سياسة بريطانيا فى السودان ، فرأت أن تقوم ببث حملة مضادة لكى تفوت الفرصة على الدعاية المصرية بكافة أشكالها .

وقد اتخذت الدعاية البزيطانية المضادة نماذج متعددة ؛ كان من بينها التفرقة بين الشعبين المصرى والسوداني ، بإعطاء صورة للأخير بأن هدف مصر من السودان جعله إقليماً مصرياً وجزءاً من مصر ، وأن الموظفين المصريين فى السودان سيستخدمون كل الوسائل التى فى استطاعتهم لجذب السودانيين إلى جانبهم وتقليص النفوذ البريطانى فى السودان ، فى وقت لا يحظى السودانى بأى عاطفة من جانب الموظفين المصريين .

وحاولت الإدارة البريطانية فى السودان أن تبرز كراهية أهالى السودان لعودة النفوذ المصرى إلى السودان مرة أخرى ، فطلبت من حكام الأقاليم السودانية استطلاع آراء السكان حول احتمال زيادة النفوذ المصرى فى السودان ، فأجاب هؤلاء الحكام بأن مواطنى السودان يقدرون جهود حكومة السودان فى منحهم مزيداً من المشاركة فى إدارة شئونهم ، وأنهم سوف يقاومون أى توسع للنفوذ المصرى بمزيد من القلق والاضطراب ، وأكد كبار السن الذين عاصروا الإدارة المصرية فى السودان (١٨٢٠-١٨٨٥) عدم شعبيتها ، وأنها كانت سببا فى نجاح الثورة المهدية ، بينما تمتعوا فى عهد الإدارة البريطانية برخاء مادى (١٨) .

وعلى سبيل المثال فقد ذكر حاكم بربر أن سكان إقليمه يخشون من التدخل فى شئونهم من جانب السلطات المصرية ، وأنه سوف يترتب على زيادة النفوذ المصرى فى السودان شعور بالدهشة وعدم التصديق من سكان بربر الذين طالبوا الحكومة البريطانية أن تعيد التفكير فى قرارها الخاص بمنح مصر مزيداً من النفوذ فى السودان ، لأنهم سيصابون بالفزع لو أن هذا تم دون الاهتمام بمعرفة رغبة مواطنى السودان (١٩) .

أما حاكم النيل الأبيض فقد أشار إلى أن سكان إقليمه أثنوا على الموظفين البريطانيين لمستواهم العالى فى الإدارة ، وبنجاحهم فى كسب ثقة وحب السودانيين ، وأنه من الصعب التضحية بهذه الكفاءة الإدارية واستبدالهم بموظفين أقل خبرة واستقامة، مما يتسبب فى ضعف الإدارة ، كما بيَّن أن النتائج الطيبة التى حققتها حكومة السودان سوف تختفى بسرعة وبالتالى فإن ثقة شعب السودان فى حكومته ستتحطم ويقل ولاؤهم لها (٢٠) .

وقد وضح من إجابات حكام الأقاليم السودانية أنها تركز على مساوئ الإدارة المصرية فى السودان لخلق شعور عام بالكراهية من جانب السودانيين تجاه المصريين ، فى الوقت الذى تؤكد فيه على الفوائد التى جناها السودانيون فى عهد الإدارة البريطانية من إعادة بناء الثقة والتناسق بين الإدارة والدولة ، وتحقيق نوع من الرخاء الاقتصادى ، وأن الإدارة البريطانية تعد مثالاً للإدارة الواعية التى تسعى إلى رفاهية الشعب السودانى ، وبالتالى هيئ الرأى العام السودانى بأنه لا يمكن الاستغناء عنها ، وكذا الوقوف فى وجه المعارضة المصرية لسياسة بريطانيا فى السودان ، والتى تطالب السودانيين بالتكاتف مع مصر لإخراج الاستعمار البريطانى من مصر والسودان .

ووصلت الدعاية البريطانية المضادة إلى ذروتها عندما قامت حكومة السودان بتشجيع الأعيان وزعماء القبائل فى السودان بإرسال برقيات يجددون فيها ولاءهم وثقتهم فى الحكومة البريطانية ، فكتب رؤساء القبائل العربية فى إقليم البحر الأحمر إلى حاكم الإقليم ، وأظهروا معارضتهم للنشرات التى توزع بين السودانيين فى الخرطوم والتى تدعو إلى مقاومة الحكم البريطانى، وصرح رؤساء القبائل أن الحكومة البريطانية منذ دخولها السودان بذلت العديد من التضحيات من أجلهم ، وقامت بالدفاع عن أرواحهم وممتلكاتهم ، وقد اختتموا هذه الرسالة بقولهم «إننا لا نفضل أى دولة على ظهر الأرض إلا بريطانيا العظمى ولا نقبل أى قوة تحكمنا إلا هى لأنها دولة الحق والعدل ومن الأفضل أن نتعامل معها» (٢١) .

واجتمع فى الخرطوم شيوخ وزعماء أقاليم النيل الأبيض ، والنيل الأزرق ، وبربر ، وكسلا ، ودنقله بمناسبة الاحتفال السنوى بزيارة الملك جورج الخامس إلى السودان ، واتفقوا على أن يقدموا التماساً إلى الحاكم العام لمعرفة موقف بريطانيا من المطالب المصرية التى ظهرت فى الصحف المصرية ونادت بالاستقلال التام لمصر والسودان . باعتبارهما بلداً واحداً، وأعلنوا أنهم لا يريدون الانفصال عن الحكومة البريطانية . وقد تضمن التماسهم مطالبة لندن أن تحدد نواياها المستقبلية تجاه السودان ، فهل تنوى منح مصر استقلالها وترغب فى أن يدخل السودان تحت هذا الاستقلال «من فضلكم دعونا نعرف ذلك ، لأننا نؤمن بشدة بمصالحنا وحقوقنا ، ونريد أن نكون على استعداد لحماية هذه المصالح والحقوق فى حالة قيامكم بتسليم أمرنا فى أيدى المصريين» (٢٢) .

وقد أجاب حاكم عام السودان على التماسهم بتقديره للمشاعر المخلصة من جانب أهالى السودان تجاه الحكومة البريطانية وأكد لهم بأنه «مهما كانت نتيجة المفاوضات القائمة بين الحكومتين البريطانية والمصرية بشأن الوضع فى مصر ، فإن مسألة السودان لا تزال خارجة النقاش ، ولا يوجد أى نية بشأن الاستقلال الذى يمنح لمصر أن يكون له تأثير على الوضع فى السودان» ووعدهم بأن الحكومة البريطانية ستستمر فى حماية المصالح البريطانية فى المستقبل كما كانت فى الماضى (٢٣) .

يتضح مما سبق أن الإدارة البريطانية فى السودان كانت تسعى إلى كسب ثقة السودانيين الذين تأثروا بتيار الدعاية المصرية ، والتى تركت انطباعاً لديهم تمثل فى فقدان الثقة كلية فى الحكومة البريطانية ، ولذلك كان على السودانيين أن يختبروا مدى مصداقية الحكومة البريطانية عن طريق الحصول على مزيد من الضمانات تؤكد وقوفها إلى جانبهم ، وبخاصة بعد أن ساد الاعتقاد بين الجانب المفكر من السودانيين بأن هناك تفكيراً فى إجراء تغيير فى وضع مصر ، فانتشر شعور بينهم بأن مثل هذه التغييرات قد تؤثر عليهم ، من هنا جاءت محاولة حاكم عام السودان لإقصاء هذا الشعور من ناحية ، وليؤكد لشيوخ القبائل والزعماء الدينيين بأنه مهما حدث فى مصر فإن السودان سوف

يبقى دون أن يتأثر بهذه الأحداث من ناحية أخرى ، وأصدر تعليماته إلى مديريه بأن يسيروا على الخط نفسه.

ثم أعقب هذه المحاولة محاولة أخرى من جانب اللورد اللنبى Lord Allenby المندوب السامى البريطانى فى مصر (١٩١٩-١٩٢٥) ، عندما وجه خطاباً إلى أعيان السودان أثناء زيارته له فى ٢٦ إبريل عام ١٩٢٢- أكد لهم فيه أن الوجود البريطانى إنما هو لصالحهم ومن أجل جلب الرخاء لبلدهم ، وأن الحكومة البريطانية ليس لديها النية فى إضعاف روابطها بالسودان . ثم صرح بأنه لا يستطيع القول أكثر مما قاله لويد جورج Lloyd George رئيس الوزراء البريطانى- فى مجلس العموم البريطانى بأن السودان قطر مهم جدا بالنسبة للإمبراطورية البريطانية ، وأن حكومة جلالة الملك لن تدع التقدم الذى حدث وبشر بمستقبل عظيم فى السودان على عهد الإدارة البريطانية بأن يتعرض للخطر أو يذهب هباءً ، وأن مصر لن توافق على أى تغيير يحدث فى وضع السودان يؤدى إلى تعرضها لأدنى خطر ، ويهدد الملايين من رأس المال البريطانى التى استثمرت فى تطوير السودان . وختم اللنبى خطابه قائلاً «... أعتقد أن هذا كاف للتأكيد لشعبكم بأن بريطانيا لن تتخلى عن السودان» (٢٤) .

وهكذا كانت السياسة البريطانية شديدة الحرص على كسب السودانيين إلى جانبها وتهدئة مشاعرهم التى أثيرت نتيجة الدعاية المصرية ، إذ أرادت تلك السياسة أن تزيل مخاوف السودانيين لأنها كانت تدرك تمام الإدراك أن الإثارة والحماس فى أى بلد عربى مسلم خطر عليها إن لم يوجها فى مسالك سليمة ، وهذا ما فعلته السياسة البريطانية لإعادة الثقة فى نفوس السودانيين .

ونجحت السياسة البريطانية فى استقطاب الزعماء الدينيين والعشائريين فى السودان إلى جانبها نظرا لتأثيرهم القوى فى الشعب السودانى ، فقد عبر هؤلاء الزعماء فى رسالة بعثوا بها إلى حاكم عام السودان فى ١١فبراير ١٩٢٢ عن امتنان الشعب السودانى للجهود التى بذلتها الإدارة البريطانية من أجل تقدم السودان ، وأكدوا على

عدم ارتباطهم بالدعاية المصرية ، ويرغبون من الحكومة البريطانية أن تواصل عملها فى تطوير السودان ، ومساعدته فى طريق التقدم حتى يصل إلى الوضع الذى تأمله ضمن الدول المتقدمة فى العالم[٢٥] . كما أرسل الشريف يوسف الهندى زعيم الطريقة الهندية رسالة إلى حاكم عام السودان فى ١١مايو عام ١٩٢٤ أعلن فيها عدم ارتباط السودان بمصر ، ورضاءه التام بالحكم البريطانى فى السودان من أجل إتمام المشروعات الكبرى التى أنفق عليها الملايين ، وختم رسالته بقوله «... أنتم تعرفوننا إننا قرشيون ونكره التعامل المزدوج إما أن نثق فى الحكم ثقة كاملة أو لا نثق» [٢٦]. ومن المحتمل أن تكون هذه الرسالة بإيحاء من السياسة البريطانية نظرا لما يتمتع به هذا الشريف من مركز دينى ولإمكانية أن يكون له الأثر على السودانيين .

والواقع أن سياسة الإدارة البريطانية فى اكتساب ولاء السودانيين فى أعقاب ثورة ١٩١٩ لم تكن السابقة الأولى ، فقد سبقتها محاولة قام بها السير ريجنالد ونجت خلال الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ عندما وجه الزعماء الدينيون كل نفوذهم إلى جانب الحكومة والقانون والنظام ، ونالوا تشجيعاً من الإدارة البريطانية فى السودان لإظهار ذلك النفوذ ، ولكن بعد ثورة ١٩١٩ حصل هؤلاء الزعماء على سلطة أكبر من تلك التى حصلوا عليها خلال السنوات الخمس التى سبقت هذه الثورة . فبعضهم كان له خبرة فعلية مع الإدارة المصرية ، وكثير منهم شهد عهد الإدارة المهدية ، واعترف جميعهم بأن مصالحهم وآمالهم العليا فى المستقبل تتمثل فى السيطرة البريطانية .

وكان الأثر الملحوظ للحرب العالمية الأولى فيما يختص بالحجاز وسعى مصر للحصول على الاستقلال هو نمو سريع لفكرة السودان كأمة بين السودانيين ، وقد اعترف ساسة بريطانيا بنمو هذه المشاعر ، إذ أعلن السير ريجنالد ونجت فى ٢٦مارس عام ١٩١٩ أن الحكومة البريطانية فى مواجهة البداية المبكرة لأمة سودانية ، وأنه يجب عليها أن تقرر فى وقت مناسب ما يجب أن تفعله إزاءها ، وأضاف قائلاً «... وأنى لا أتحدث بأية صورة من الانزعاج ، ولا أنذر بقيام حزب فى السنوات القليلة المقبلة - من الوطنيين الذين

أخذوا بأهداب الحضارة الأوربية - شعاره «السودان للسودانيين» . وأعتقد أيضا أننا يجب أن نعترف بأن الحكومة المعتدلة تعمل ما فى استطاعتها على إيجاد شعور من الاحترام الذاتى وأنه لواجبنا أن نقرر كيف نحول هذا الشعور إلى حساب رابح . وأعتقد أن الاحتمال محتم فى أن يكشف هذا الشعور عن نفسه أولاً فى رغبة تهدف إلى الوقوف فى وجه السيطرة المصرية»(٢٧) .

وكان السير لى ستاك يرى أنه على الحكومة البريطانية أن تعد العدة لمواجهة نمو الآمال القومية فى السودان ، باتخاذ الخطوات التى تؤدى إلى ربط السودن ببريطانيا أكثر من ربطها بمصر ، وأن كلاً من مصر والسودان ، وأيضاً بريطانيا التى سوف تكسب بتخفيف الرباط الذى يربط بين مصر والسودان ، وأضاف السير لى ستاك بأن نمو الشعور القومى ظهر بين أولئك الذين يتحدثون نيابة عن الجانب الأكثر وعياً فى السودان - ويقصد بهم الزعماء الدينين - فقد عبر ثلاثة منهم(*) فى محادثات مع الحاكم العام عن رغبتهم فى أن تأخذ الحكومة خط سير أقوى من الذى تسير عليه ، لأنهم كانوا يخشون من قيام الحكومة البريطانية تحت ضغط الثورة المصرية - ربما تعطى لمصر مطالبها- فى أن تشارك فى حكم السودان وإدارته ، كما تحدث السيد على الميرغنى بصفة خاصة عن طموحه فى أن يرى شعب السودان ينمو تحت توجيه الحكومة البريطانية إلى شعب موحد له قوانينه الخاصة وعاداته وإدارته وقادر على حكم نفسه والدفاع عن مصالحه (٢٨) .

وحاول السير لى ستاك أن يبين لحكومته أن الزعماء الدينيين فى السودان لايعبرون عن الرأى الوطنى كلية ، لأنهم من وجهة نظره متشوقون إلى زيادة نفوذهم الخاص فى السودان ، ويقدرون تماما قوة بريطانيا كما ظهرت فى النصر الذى حققته فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، ولذلك يرون أن أملهم الوحيد فى ربط أنفسهم بالوجود البريطانى (٢٩).

ولكن اللورد اللنبى كانت له نظرة مختلفة فى هؤلاء الزعماء الدينيين ، إذ أكد خلال زيارته للسودان فى يناير عام ١٩٢٠(**) أنه تأثر كثيراً للحماس من أجل بريطانيا

الذى شاهده بين جميع طبقات الأمة ، ومن رغبتهم التى عبروا عنها فى حرية فى الإدارة البريطانية ومعارضتهم للإدارة المصرية . وأن الوفد الذى زار لندن فى يوليو عام ١٩١٩(*) كان يعبر حقا عن آراء المفكرين فى السودان ، وهذه الآراء قادها بشكل تام الزعماء الدينيون ورؤساء القبائل المختلفة فى السودان عندما أعلنوا فى محادثاتهم مع الحاكم العام ومستشاريه البريطانيين خلال الاضطرابات التى حدثت فى مصر عام ١٩١٩ عن رفضهم لأى ارتباط مع المطالب المصرية [٣٠] .

وسواء كان هؤلاء الزعماء يعبرون عن آراء الشعب السودانى أو لا يعبرون ، فالحقيقة التى لا مراء فيها هى ظهور نوع من الشعور القومى بين السودانيين رفع شعار «السودان للسودانيين» ، ولم تبد السياسة البريطانية أى مخاوف من نمو هذا الشعور القومى، بسبب حملة التأييد التى حظى بها الحكم البريطانى من جانب عدد كبير من العمد والمشايخ والنبلاء والزعماء الدينيين كدليل على رغبة من المحكومين فى مساعدة الإدارة البريطانية فى اتخاذ الطريق السليم فى تنمية بلدهم .

كما أن خط النقاش الذى اتبعوه مع حاكم السودان ومستشاريه البريطانيين لم يكن له أثر واضح لشعور التضامن الإسلامى ، وهذا كان أهم شئ بالنسبة لبريطانيا ، لأن النتيجة البارزة للحرب العالمية الأولى فى المناطق القريبة من السودان هى إنشاء مملكة عربية عبر البحر الأحمر وهذه المملكة رغم أنها لم تدع الخلافة آنذاك إلا أنها تملك فى الواقع الأراضى المقدسة [٣١] .

رابعاً: الاتجاه الرابع

بريطانيا وتحديد مستقبل السودان:

وإذا كانت الحكومة البريطانية لم تخش من نمو الشعور القومى بين السودانيين، فإن اللورد اللنبى حذر منه ، فقد أعلن أن رؤساء القبائل الذين شاهدهم خلال جولته فى السودان معظمهم من المسنين وممن لهم خبرة فعلية مع الإدارة المصرية ، وأما الجيل

الأصغر من ٢٢سنة فليس لديه خبرة هؤلاء المسنين ، كما تعلم كثير منهم على الأسس الحديثة ، وعندما يزول نفوذ الرجال المسنين سوف يمهد لقيام تربة خصبة لزرع الفكرة الوطنية أو الثورية ، ولذلك رأى اللورد اللنبى أن المخرج الوحيد لمواجهة مثل هذا الموقف «تقرير وضع ومستقبل السودان بشكل قاطع وعلاقته بالإمبراطورية البريطانية ، وتسوية هذه المسألة فى وقت لا يزال فيه نفوذ الجيل الأكبر سناً طاغياً حتى لا تتعرض بريطانيا لأى متاعب فى المستقبل»(٣٢).

وبالنسبة للسياسة فى المستقبل ، قدم السير لى ستاك اقتراحين اختص أحدهما بانفصال السودان عن السيطرة المصرية ، والثانى بث الفكرة القومية بين السودانيين .

وعن الاقتراح الأول الخاص بانفصال السودان عن السيطرة المصرية - فقد واجهته عدة عقبات أهمها .

١- افتقار السودان إلى الهيئة الوطنية الإدارية لتحل محل الموظفين المصريين فى الإدارة الحكومية والجيش .

٢- الحاجة إلى الجيش المصرى وبخاصة ما يتصل بالنفقات على هذا الجيش ، لأن المسألة المالية كانت تشكل عقبة كبيرة أمام الإدارة البريطانية ، إذ إن إيرادات السودان لا تغطى نفقات الجيش دون مساعدة خارجية(*) .

٣- مسألة مياه النيل ، إذ لايمكن إقرارها من غير الاهتمام باحتياجات مصر التى تعتمد فى وجودها على الرى (٣٣) .

وبالرغم من اعتراف السياسة البريطانية بعدم سهولة حل الرابطة بين مصر والسودان بسبب هذه العقبات فمن الواضح أنها كانت ترى أن الوقت قد حان لمواجهة مشكلة تعديل العلاقات بين السودان ومصر على خطوط تمكن بريطانيا بالتدريج من القيام بالجانب الذى تقوم به الحكومة المصرية فى السودان وأن ثورة ١٩١٩ فى مصر تقدم الفرصة والسبب القوى لمحاولة التخلص من كثير مما هو غير مرض فى إدارة

السودان[٣٤] .

وكان ريجنالد ونجت قد حذر حكومته بأنه إذا لم يصدر إعلان من جانبها - عندما يسوى وضع مصر تحت الحماية - يستبعد بمقتضاه السودان كلية ويفصل عن مصر ، فإن المكانة البريطانية فى السودان سوف تتعرض إلى خسارة كبيرة ، ويصبح مركز الحاكم العام ومساعدوه صعباً ، كما يمهد الطريق إلى قيام تضامن إسلامى مع الحركة الإسلامية فى الحجاز أو تضامن أخوى مع المصريين حيث الاختيار الوحيد متروك لشعب السودان[٣٥] .

وحاول ريجنالد ونجت أن يضع حلولاً للعقبات التى تقف فى طريق فصل السودان عن مصر ، فرأى أنه من الممكن توفير الكوادر الإدارية للحكومة وقوات للجيش بدلاً من المصريين بالاستعانة بالعرب والسودانيين من خريجى كلية جوردون ومدرسة الخرطوم العسكرية ، أما عن العقبة المالية فقد أعد عدة وسائل للتغلب عليها ، كان من بينها:

١- أن تقوم مصر بدفع مبلغ ثابت سنوياً عند منحها الحكم الذاتى مقابل التكاليف التى تنفق على الجيش فى السودان لحماية حدود مصر الجنوبية وحماية مصالحها فى مياه النيل .

٢- أن تتعهد الحكومة البريطانية بإقناع دافعى الضرائب فى بريطانيا بضرورة دفع ضريبة إضافية لتغطية متطلبات الجيش فى السودان [٣٦] .

أما الاقتراح الثانى والخاص ببث الفكرة القومية بين السودانيين ، فقد أشار السير لى ستاك بأنه من الأفضل عدم السماح بقيام دعاية نشيطة لهذا الهدف ، والتركيز على اتخاذ الخطوط الإدارية مثل سودنة الوظائف المصرية بإشراك السودانيين تدريجياً فى حكومة بلادهم ، وتدريبهم على حكم أنفسهم ، وتعيين الزعماء والأعيان فى مجالس القرى والمدن ، ومنح بعض القياديين والمستنيرين سلطات قضائية فى بعض الأقاليم . وأكد السير لى ستاك للسيد على الميرغنى وزملائه أن هذه الخطوات هى دليل عملى

على عطف الحكومة البريطانية وأنها أفضل الوسائل للوصول إلى الأهداف التى يسعون إليها (٣٧).

والواقع أن المسئولين البريطانيين فى السودان ومصر بالرغم من اعترافهم بزيادة الوعى القومى بين السودانيين ، فإنهم رفضوا إدخال أى شكل غربى من أشكال التمثيل النيابى أو الحكومة الذاتية الداخلية فى السودان ، لاعتقادهم أن السودان ليس مهيأ بعد لمثل هذا الأمر؛ لأن الغالبية العظمى من سكانه لا يزالون من الفئات غير المتعلمة ، كما لا توجد ضرورة أو حاجة لمنح السودان الحكم الذاتى ، واكتفى هؤلاء المسئولون البريطانيون برؤية تنمية المؤسسات الوطنية على خطوط يفهمها الشعب السودانى .

وأصبح أمام السياسة البريطانية ثلاثة حلول لإقرار مستقبل السودان :

الأول : أن يتبع إزالة السيطرة البريطانية من مصر إزالتها من السودان وإدماج السودان فى مصر ، وهذا ما تطالب به الحركة الوطنية فى مصر .

الثانى : أن يظل الوضع فى السودان كما هو وفق اتفاق ١٨٩٩ .

الثالث : فصل السودان عن مصر نهائياً والتخلص من العنصر المصرى فى الإدارة والجيش فى السودان .

وقد تبنت الحكومة البريطانية الحل الثالث لأن التقارير التى كانت ترد إليها من موظفيها فى القاهرة والخرطوم شجعتها على التمسك بهذا الحل . وكان من أشهر هذه التقارير تقرير كين بويد(*) Keown - Boyd الذى أعد بناء على طلب كل من وزارة الخارجية البريطانية ووزارة المستعمرات ، وقد أشرك معه فى إعداده حاكم عام السودان، واشتمل على تصور للسياسة البريطانية المستقبلية فى السودان .

ذكر كين بويد فى تقريره أن الحل المثالى من وجهة نظر السودان هو الانفصال المباشر عن مصر ، وأن معاهدة السلام مع تركيا يجب أن تتضمن تنازل تركيا عن جميع حقوقها فى حوض النيل لبريطانيا . وأن اللورد ملنر Lord Milner – وزير المستعمرات

البريطانى - قد أوصى فى تقريره بإقامة حكومة ذاتية داخلية لمصر لكنه أشار بسخافة الادعاءات التى يدعيها المصريون بشأن مد القومية المصرية إلى السودان لأن السودان من وجهة نظره يختلف فى العنصر ، والتقاليد ، والعاطفة عن مصر . ومن ثم كان على الحكومة البريطانية أن تتعهد بتحمل كل المسئولية وأن تتكفل بالسودان الذى يجب أن يتطور على خطوط القومية السودانية تحت العناية البريطانية من حيث تأسيس وتدريب مؤسساته الوطنية ومراقبة مصالح شعبه (٣٨).

وحدد كين بويد الخطوط التى يجب أن تسير عليها السياسة البريطانية لتحرير السودان من جميع المؤثرات المصرية ، وإنزال العلم المصرى مع مغادرة أخر جندي مصرى له ، وبالتالى إنهاء الوجود المصرى تماماً .

وتنقسم هذه الخطوط إلى ثلاثة محاور مهمة :

المحور الأول :

وهو يتصل بالجيش المصرى فى السودان الذى يتكون من الوحدات العسكرية التى تضم خمس كتائب وهى الكتيبة الأولى ، والكتيبة الثانية ، والكتيبة الخامسة ، والكتيبة الثامنة ، والكتيبة السابعة عشرة، وكذلك ثلاث بطاريات ميدان ، وفرقتا مدفعية كحامية ، وقوات فنية وإدارية مختلفة ، وعدد من الضباط المصريين الذين يخدمون فى الوحدات السودانية والعربية. وتعتبر الكتائب وبطاريات الميدان الخطر السياسى الرئيسى عندما يستخدمها الضباط والجنود المصريون معتنقو الأفكار الثورية فى مصر ضد حكومة السودان ، ولذا رأى كين بويد أن تسريح القوات المصرية من السودان يمكن الحكومة البريطانية من مواجهة أى انفجار ثورى فى مصر (٣٩).

ورسم كين يويد خطة لتحويل الخمس كتائب وبطاريات الميدان إلى مصر ، والتخلص تدريجيا من الشخصية المصرية داخل الجيش فى السودان حتى لا تواجه بريطانيا بمعارضة شديدة من مصر ، وتقوم هذه الخطة على ما يلى :

١ - أن الكتيبتين السادسة عشرة والسابعة عشرة قد أقيمتا كإجراء حرب وليس هناك حاجة للإحتفاظ بهما . ونظرا لأن تسريحهما يثير نوعاً من التذمر بين الجنود والضباط ، أوصى كين بويد الحكومة البريطانية بتنفيذ الإجراءات الخاصة بالضباط وهى ترقية الرتب العليا ، وتعيين الرتب الأصغر فى كتائب أخرى ، ونشرها فى وقت إعلان حل الكتيبتين .

٢ - أن يقوم مستشار وزارة الداخلية فى مصر باستيعاب عدد من صغار الضباط (اليوزباشية) فى قوة بوليسية أو تعيينهم مأمير فى مصر .

٣ - نقل الكتيبة الخامسة إلى مصر التى مكثت مدة طويلة فى السودان .

٤ - نقل بطارية مدفعية واحدة إلى مصر .

٥ - ترقية السودانيين إلى رتبة المأمور(*) ، وتدريب شباب السودانيين فى مدرسة الخرطوم الحربية (**) ، ومنحهم رتباً عسكرية ، وتعيينهم ضباطاً فى الجيش مباشرة .

٦ - أن الإحلال التدريجى محل الشخصية المصرية فى الوحدات الفنية والإدارية لا يمثل صعوبات كبيرة حيث يقوم رؤساء المصالح بمراعاة ذلك مع البدء فى تدريب مواطنى السودان المطلوبين فى هذه الوحدات .

٧ - أن تقوم الحكومة البريطانية بتسلم ثكنات الجيش المصرى فى بورسودان والعطبرة ، وأن توضع فيهما حامية من الجنود البريطانيين فقط .

٨ - أنه ليس من العدل إعادة العدد القليل من كبار الضباط المصريين المحنكين إلى مصر حيث ثبتت جدارتهم وانحازوا تماماً فى خدمة البريطانيين ، وهناك شعور بضرورة حجزهم فى السودان على قدم المساواة مع الضباط البريطانيين (٤٠).

وخلاصة المشروع يقضى بقيام جيش سودانى (*) ، يخضع تكوينه وتوزيعه للتعديلات تبعاً لطول فترة تنفيذ الخطة ومدى تقدم الإدارة المدنية ، وتكاليف هذا الجيش ستنخفض نفقاته بعد عودة الكتائب المصرية إلى مصر ، حيث إن عدد القوات

المصرية بلغ نحو ١٠.٣٨٠ مقابل ٣,٣٤٩ للعرب ، و ٦,٧٨٤ من السودانيين أى نصف عدد القوات .

وفى الحقيقة أن الجيش فى السودان كان عبارة عن قوة بوليس تتوزع بين عدد من المراكز البعيدة فى بلد كانت المواصلات فيه صعبة وبطيئة ، وكان الهدف من هذه المراكز «الحفاظ على الأمن العام ومعالجة عدد من الانتفاضات المحلية الصغيرة فى الشمال والوسط والتى يقوم بها بعض السكان من المسلمين المتعصبين ، وكذلك مواجهة ثورات السكان الزنوج فى الجنوب الذين لم يخضعوا غير خضوع جزئى» (٤١).ولكن النقطة المهمة أن جيش السودان بتشكيله الجديد لن يكون كافياً لصد أى غزو خارجى خطير على نطاق واسع وعلى سبيل المثال من الحبشة ، ولذلك كان على الحكومة السودانية أن تعتمد على قوات من الخارج عند حدوث مثل هذا الخطر (٤٢) .

المحور الثانى :

وهو يتمثل فى تسريح المصريين من الوظائف المدنية فى السودان .

الإدارات المختلفة	عدد المصريين	عدد السودانين	جنسيات أخرى
مصلحة البوليس	١٤٢	١٩	٦٣
إدارة الزراعة	٣٧	٢٨	٦١
إدارة الجمارك	٤١	٣٦	٢٢
إدارة التعليم	٥٣	٢٨٢	٤٠
اللجنة الاقتصادية المركزية ولجنة الموارد	ــــ	٧	٨
إدارة المخابرات	١	٣	٢٠
إدارة المالية	١١٩	١٠	٦٨
الإدارة المحلية	٦٢	١٤١	٣٣
الإدارة الطبية	٤١	٩	٤٩
إدارة الأشغال العامة	٢٧	١٠	٦١
إدارة السكك الحديدية والبواخر	٢٥٠٠	ــــ	ــــ
إدارة مكافحة الرق	٥	٤	٤
إدارة المخازن وإدارة السجون	٣٤	١٥	٥
إدارة المساحة	١٤	٥٣	١٦
إدارة الطب البيطرى	٢٠	٤	٢١
الكتبة	٥٣٣	٦٠٥	١٦٣
موظفون معتمدون على أبواب الميزانية	٤٤٤	١٤٢	٢٠٥
المجموع	٤٤٣١	عدد ١٣٦٨	٨٣٩

كان العنصر المصرى يمثل دعامة مهمة فى مختلف الأجهزة الحكومية فى السودان. فالجدول يوضح عدد المصريين العاملين فى السودان بالنسبة لغيرهم من الجنسيات الأخرى - سودانى ، وبريطانى ، وسورى وغيرهم(*) .

ويتضح من الجدول السابق أن عدد الموظفين المصريين فى السودان بلغ نحو ١٩٣١ موظفاً بخلاف ٢٥٠٠ مصرى يعملون فى إدارة السكك الحديدية والبواخر وهم فى الأصل كتيبة السكة الحديد التى تتألف من المصريين الذين جندوا فى مصر ، ومن

جنود انتقلوا لأسباب مختلفة من الكتائب الأخرى للجيش المصرى ، أى أن عدد الموظفين المصريين فى السودان صار نحو ٤٤٣١ ، بينما بلغ عدد الموظفين من السودانيين والجنسيات الأخرى نحو ٢٢٠٧ ، وبلغت نسبة الموظفين المصريين إلى غيرهم فى السودان نحو ٦٦.٧٥٪ وبالإضافة إلى أن نسبة الموظفين المصريين فى بعض الإدارات بلغت نحو ٦٩٪ مثل إدارة البريد والبرق ، فهذه الإدارة تكاد تكون مصرية كلية ، وذلك راجع لطبيعة العمل الشاق لساعات طويلة فى هذه الإدارة ، فالسودانيون والعرب غير مستعدين نفسيا للجلوس ست أو سبع ساعات يوميا أمام آلة التلغراف ، ولا يستطيعون احتمال صوت آلة البرق ، بينما اعتاد المصريون على مثل هذا العمل .

وبالرغم من أهمية العنصر المصرى فى الإدارة المدنية فى السودان فإن كين بويد رأى إمكانية الاستغناء بالتدريج عن جميع الموظفين المصريين فى الإدارات المختلفة فى السودان باتباع الوسائل التالية :

١ - إنشاء مدرسة خاصة لتدريب السودانيين فى الخرطوم تحت إشراف موظف بريطانى خبير فى الخدمة الإدارية لتعيينهم فى سلك الأمن فى السودان .

٢ - التوسع فى قبول السودانيين للالتحاق بكلية جوردون التى افتتحت فى أكتوبر عام ١٩٠٣، للاعتماد عليهم عند تخرجهم فى شغل الوظائف الإدارية المختلفة فى السودان.

٣ - توفير موظفى إدارة السكك الحديدية والبواخر ، وإدارة الأشغال العامة بالقيام بتدريب فعال لكثير من السودانيين ممن لم يمنحوا فرصة الالتحاق بكلية جوردون .

٤ - إحلال قضاة بريطانيين محل القضاة المصريين فى المحاكم الشرعية لحين تخريج دفعة جديدة من مدرسة القضاة بكلية جوردون من مسلمى السودان ، ويمكن لهذه المدرسة أن تسد حاجة المحاكم الشرعية من القضاة السودانيين .

٥ - الشروع فى تأسيس مدرسة كتشنر الطبية تخليداً لذكرى اللور كتشنر Lord Kitchener - حاكم عام السودان فى عام ١٨٩٩ - لسد حاجة السودان من الأطباء الوطنيين والاستغناء عن الأطباء المصريين .

٦ - إنشاء مصلحة للمواصلات تتضمن السكة الحديد والبواخر والطرق ، والبريد والبرق ، وذلك لارتباط هذه الإدارات بعضها ببعض ، والاقتصاد فى النفقات .

٧ - تبعية الموانى والفنارات السودانية إلى الموانى والفنارات المصرية ما دامت البحرية البريطانية تسيطر على الأخيرة لكى توفر على حكومة السودان الإنفاق على عمليات الصيانة والمحافظة على مصلحة الموانى والفنارات فى السودان (٤٣).

المحور الثالث :

وهو ينحصر فى اللامركزية

وتنفيذ هذه السياسة فى نظر كين بويد تستهدف ثلاثة أمور :

الأول : فصل منصب سردار الجيش المصرى عن حاكم عام السودان .

الثانى : تنظيم مالية السودان .

الثالث : الاستعانة بخدمات الزعماء والمشايخ المحليين .

وبالنسبة للأمر الأول : فصل منصب سردار الجيش المصرى عن حاكم عام السودان .

فإنه بمقتضى اتفاق عام ١٨٩٩ احتفظ حاكم عام السودان بمنصب سردار الجيش المصرى ، وهذا الارتباط له مبرراته لأن الجزء الأكبر من الجيش المصرى كان يخدم فى السودان ، وتضمن منصب السردار فقط الاعتبار الخاص بالمشكلات الحربية الشرعية الفعلية، وكانت كل مسألة خاصة بالجيش وإن قلت أهميتها ترفع إلى السردار لإبداء رأيه، أى أن جميع الشئون الحربية فى يديه . ولم يكن هناك اعتراض كبير على هذا الإجراء، ولكن مع نشوب ثورة ١٩١٩ اقترح فصل منصب السردار عن حاكم عام السودان(٤٤).

وأوصى كين بويد بسرعة الفصل بين المنصبين بعد تنفيذ خطة إبعاد القوات المصرية من السودان ، على أن يكون حاكم السودان أيضا قائداً عاماً للقوات فى السودان . وبالتالى يتم القضاء على إحدى الروابط مع الحكومة المصرية .

وعن الأمر الثانى : تنظيم مالية السودان .

فقد أشار كين بويد إلى قيام الحكومة السودانية بالعديد من الإجراءات المالية لكى تكون أكثر قدرة على تدبير أمورها بنفسها ، ومن هذه الإجراءات ؛ إغلاق فرع المالية السودانية فى القاهرة كخطوة ضرورية للتمهيد بالفصل بين البلدين ، وللتخلص من الموظفين المصريين فى مصلحة المالية يتم استخدام اللغة الإنجليزية بدلا من اللغة العربية فى حساباتها، وإيجاد وظيفة مراجع حسابات وتبسيط الإجراءات المالية ، وأن تتحول الرقابة الكاملة عليها إلى الحكومة البريطانية ممثلة فى المندوب السامى فى مصر ، وأن يقوم السكرتير المالى فى السودان بمنح المديرين مسئولية أكبر فى السيطرة على مالية مديرياتهم(٤٥).

أما الأمر الثالث : فهو الاستعانة بخدمات الزعماء والمشايخ المحليين .

فإن السودان ينقسم إلى خمسة عشر إقليماً ، وكان من العسير زيادة حجم الأقاليم من الناحية العملية بسبب صعوبة المواصلات وهذا التقسيم يقوم على أساس عنصرى وقبلى ويخضع للعادات أيضاً ومن الصعب تحسينه ، وبذلك أنشأت حكومة السودان إدارات مختلفة تناسب التنظيمات القبلية المختلفة ، فبينما يمارس مشايخ قبائل الرحل الكبيرة فى كردفان سلطات تأديبية ، وتقوم حكومة السودان بتشجيعهم على إدارة قبائلهم الخاصة بهم ، وتتمتع أيضاً القبائل الحامية فى شرق السودان تحت رئاسة قبائلهم بمعدل مماثل من الحرية فى إدارة قبائلهم ، فإن مثل هذا النظام يتعذر إقامته فى المديريات النيلية مثل بربر أو النيل الأبيض ، لأن التنظيمات القبلية ليست كبيرة بشكل كاف ،

وأن الشيخ المحلى مجرد رئيس قرية غير معروف على بعد عدد قليل من الأميال ، لكن أشار كين بويد على حكومة السودان لعلاج مثل هذا الموقف أن تمنح سلطات قانونية لعدد من النبلاء المختارين واستخدامهم قضاة فى قضايا مختارة (٤٦).

خـاتمـة :

من خلال العرض السابق نلاحظ أن بريطانيا اتخذت لنفسها سياسة معينة تسير عليها فى السودان وهى ربط السودان ببريطانيا بشكل أكبر من ارتباطها بمصر تمهيداً للفصل بين مصر والسودان ، وكان دافع بريطانيا للتمسك بهذه السياسة توهج الحركة الوطنية التى حدثت فى مصر إبان ثورة ١٩١٩ وخشيتها من امتداد هذه الاضطرابات إلى الجنوب وبالتالى تتأثر بها الأقاليم المجاورة للسودان ، فقد كانت عملية ربط جنوب السودان بشماله أو فصله عنه تقوم أساسا على مدى وصول النفوذ المصرى إليه ، فعمدت السياسة البريطانية إلى جعل النفوذ القادم من ناحية أوغندة نفوذاً قوياً يدعمه المواصلات النهرية السهلة التى حرصت على إقامتها بين أوغندة وجنوب السودان ، كما كانت الحدود الجنوبية للسودان مجاورة للممتلكات الفرنسية فى الغرب ، والممتلكات البلجيكية والبريطانية فى الجنوب ، ومن الشرق الحبشة والممتلكات الإيطالية فى إفريقيا أى أنها مجاورة - باستثناء الحبشة - مع قوى أوروبية مما ساعد على وجود الأمن على هذه الحدود ، وشجع بريطانيا على الاستغناء عن الجيش المصرى فى السودان .

وكذلك تمسكت بريطانيا بسياسة فصل السودان عن مصر بسبب الدعاية المصرية التى كانت تهدف إلى تحريض السودانيين فى الجيش وفى الإدارات الحكومية المختلفة وبين السكان عموماً ضد الإدارة البريطانية ، وكذلك سعى الحركة الوطنية فى مصر إلى إعادة الحكم المصرى إلى السودان وإقصاء اليد البريطانية عنه .

واعتبرت السياسة البريطانية أن أساس وضعها فى السودان يعتمد على عداوة السودانيين للمصريين، واستغلت تلك السياسة حالة السودان قبل استرداده عام ١٨٩٩

بحالته فى عهد الإدارة البريطانية، وأخذت تدلل على ذلك بما شهده السودان فى عهدها من إعادة التنظيم والتنمية ، وافتخرت أيضاً بالمنجزات التى تحققت فى مجال التعليم بإنشاء كلية جوردون والمدارس التى أقامتها فى جميع أنحاء السودان ، وتقديم المساعدات المالية لرجال الدين ، وتلقى القضاة وغيرهم تعليماً مجانياً وشاملاً فى القرآن والفقه .

والواقع أن الإنجازات البريطانية فى السودان كانت ضئيلة إذا ما قورنت بالإنجازات المصرية لو أتيحت لها فرصة الانتعاش . فقد جاءت الأولى فى وقت صار السودان خالياً من مظاهر الإصلاح ومحطماً بسبب الثورة المهدية ، بالإضافة إلى أنها تمت على حساب الخزانة المصرية التى تحمست للإصلاح فى السودان وبخاصة الاقتصادى منه .

والإنجازات التى تفخر بها السياسة البريطانية كانت تهدف إلى إبراز دورها فى السودان وإخفاء دور مصر لكى تجد التبرير المناسب لبقائها فى السودان ، وتدعيم الرابطة مع السودانيين ، وخلق روح الانفصال بين مصر والسودان ولذلك مال البريطانيون إلى اعتبار سودان القرن العشرين المتزايد الرخاء وذى الحكومة الجيدة اعتباره من صنعهم الخاص دون منازع .

وبناء على ذلك فإن البريطانيين قد صدموا واندهشوا عندما قدم المصريون مطالبهم بطريقة تبدو ثورية ومتطرفة ، وبطريقة مماثلة فإن المصريين قد صدموا عندما رد البريطانيون مطالبهم على أساس أنها خيالية ، وعلى هذا فقد وجد فى الجانبين كل عناصر عدم الفهم التى نضجت وأدت إلى نتائج عنيفة فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ عندما اغتيل السير لى ستاك، وقررت بريطانيا إخراج مصر نهائياً من السودان .

هوامش الدراسة

(1) Wingate Papers, Durham University (W.P.D.U.), Box. 403 /7/1 pp. 2,3.

مذكرة بشأن مستقبل الوضع فى السودان ، من السير لى ستاك إلى اللنبى فى ٢٥ مايو ١٩٢٤.

(*) نصوص اتفاق عام ١٨٩٩ وردت كاملة فى مذكرة اللورد كرومر إلى سالزبرى فى ١٠ نوفمبر ١٨٩٨ .

(2) Holt, P.M. : The Modern History of the Sudan, London 1961, pp.111,112.

(3) Fabunmy, L.A.: The Sudan In Anglo - Egyptian Relations
A Case Study in Power Politics. London 1960, P. 62 .

(4) F.O. 371/3711. Enclosure in No. 4. From Sir Lee Stack to R. Wingate
Feb. 23, 1919, Note on the Growth of National Aspiration in the Sudan.

(5) Ibid.,R. Wingate to Earl Curzon, April 3 , 1919.

(6) Ibid.,3717, No. 207. Allenby to Curzon, Cairo, May 4 , 1919.

(7) Ibid., 3711, From Stack to Earl Curzon, Khartoum, March 21, 1919.

(8) Ibid., Stack to R. Wingate, May 8 , 1919.

(9) Ibid.

(10) Duncan, J. S.R.: The Sudan , A Record of Achievement, London,
pp. 136, 137.

(11) F.O. 371/3711. Stack to R. Wingate , Khartoum, March 22, 1919.

(12) Ibid., M. Cheetham to Earl Curzon, Cairo, March 23, 1919.

(13) W.P.D.U. Box, 403 /7/1 . p. 40.

(14) Ibid., p. 41.

(15) Ibid., p. 44 .

(16) Ibid., P. 45.

(17) Ibid .

(18) Ibid., pp. 57, 59.

(19) Ibid., pp. 69, 71 , Governor of Berber Province to Civil Secretary,
Khartoum, May 12, 1924.

(20) Ibid., p. 57. Governor White Nile Province to Civil Secretary,
Khartoum, May 20, 1924.

(21) Ibid., p. 52. (Signed by Various Tribal Sheikhs of the Red Sea Province).

(22) Ibid., pp. 52, 53. (Signed by a number of Tribal Sheikhs and Notables of the Blue Nile, White Nile, Berber, Kassala and Dongola Provinces).

(23) Ibid., p. 48.

(24) Ibid., p. 56. Speech Addressed by the High Commissioner to the Notables of the Sudan at Khartoum on April 26, 1922.

(25) Ibid., p. 53 .

(26) El - Sherif Yusef - El - Hindi to Governor .General, May 11, 1924.

(27) F.O. 371 / 3711. No. 4 . R. Wingate To Earl Curzon, March 26, 1919.

(*) السيد على الميرغنى ، والشريف يوسف الهندى ، وعبد الرحمن محمد أحمد المهدى .

(28) F.O. 371/3711 . Enclosure in No. 4 Note on The Growth of National Aspiration in the Sudan, From Sir Lee Stack to R. Wingate, Feb. 23, 1919.

(29) Ibid .

(**) هذه الزيارة غير الزيارة التى قام بها فى أبريل ١٩٢٢

(*) اقترح عدد من نبلاء السودان بأن يذهب إلى لندن وفد يمثل الموظفين والقادة الدينيين والإداريين نيابة عن السودان لتقديم التهانى إلى ملك بريطانيا بمناسبة توقيع معاهدة الصلح التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ، وتشكل الوفد مما يلى :

الرسمى : الشيخ الطيب أحمد هاشم — مفتى السودان

الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم — رئيس مجلس العلماء

الشيخ إسماعيل الأزهـــــرى — قاضى مديرية دارفور

ومن الزعماء الدينيين :

السيد على الميرغنى ، والشريف يوسف الهندى ، والسيد عبد الرحمن المهدى الذى أضيف إلى الوفد بناء على توصية من السير لى ستاك نظراً لنفوذه الكبير فى السودان حيث إنه الابن الأكبر للمهدى ، ولذلك لم تعترض الحكومة البريطانية على إدخاله ضمن الوفد لاعتقادها بأن ذلك سيترك انطباعاً حسناً بين السودانيين .

وأضيف إلى الوفد أيضاً الشيخ إبراهيم فرح ناظر الجعليين لأنه وقبيلته أدوا خدمات بارزة للقـوات البريطانيـة أثنـاء إعـادة ضم السودان ، كما ضم الوفد وكيل ناظر الشكرية عوض الكريم أبو سن . ورأى ونجت أن حضور النواب وحسن استقبالهم ورحيلهم دون أن يتحملوا أية نفقات

شخصية لأن ذلك سوف يترك أثراً جيداً عندهم ، وقد وصل الوفد إلى لندن فى ١٩ يولية وظل بها حتى ١٤ أغسطس ١٩١٩ ، وخلال الزيارة استقبلهم الملك ، وقدموا له خطاباً أعربوا فيه عن إخلاصهم وتهنئتهم له ، كما عبروا عن رضائهم تحت الحكم البريطانى وعن آمالهم فى مستقبل السودان .

F.O. 371 /3711. No. 6. R. Wingate to Earl Curzon, London, April 3, 1919

(30) Ibid., No. 14. Allenby to Earl Curzon, May 17 , 1919.

(31) Ibid., 4983. No. 46, Allenby to M. Cheetham, Feb. 10, 1920.

(32) Ibid., M. Cheetham to Earl Curzon, Cairo, Feb. 10, 1920.

(*) كانت الحكومة المصرية منذ عام ١٨٩٩ تقدم إعانة مالية سنوية إلى حكومة السودان لمواجهة العجز فى ميزانيتها . وقد بلغت الإعانات الممنوحة سنوياً لسد عجز الإيرادات من ١٩٠٤ حتى ١٩١٢ نحو ٢١٥, ٣٥٣ , ٥ جنيهاً ، ومع ازدياد دخل السودان رأى المسئولون البريطانيون فى السودان قطع هذه المعونة ابتداء من عام ١٩١٣ باستثناء التى تقدم للإنفاق على الجيش المصرى فى السودان والتى بلغت نحو ٨٠٥ , ٤١٨ , ٣ جنيهاً من عام ١٩١٤ حتى ١٩٢٢ .

W.P.D.U. Box, 403 /7/1, pp 7,8.

(33) F.O. 371/3711. From Sir Lee Stack to R. Wingate, Feb. 23, 1919.

(34) Ibid., R. Wingate to Earl Curzon, March 26, 1919.

(35) Ibid., R. Wingate to Earl Curzon , June 4, 1919.

(36) Ibid.,4983. No. 3 R. Wingate to Lord Hardinge , March I, 1920.

(37) Ibid., 3711. Sir Lee Stack to R. Wingate, Khartoum, Feb. 23, 1919.

(*) الموظف البريطانى فى دار المندوب السامى البريطانى فى مصر .

(38) Ibid., 4984. No. 2889. Allenby to Earl Curzon, March 24, 1920.

(39) Ibid.

(*) وظيفة المأمور فى السودان أشبه بوظيفة معاون الإدارة فى مصر أى محقق إدارى.

(**) أنشئت مدرسة الخرطوم الحربية فى عام ١٩٠٥ ، وكانت شروط الالتحاق بهذه المدرسة أن يكون تلاميذها من أبناء الوجهاء ذوى الأعراق الطيبة ، وأذكياء العقول ، وأقوياء الأجسام.

Sudan Annual Report , 1910. pp. 154, 155.

(40) F.O. 407 / 186. Enclosure 1,2 in No. 164 Mr. Keown - Boyd to Allenby, March, 14, 1920.

* يتألف هذا الجيش من :

١- القوات الراكبة :

١ فرقة من الفرسان

٤ فرق من المشاه الراكبين

١ فرقة بنادق آلية راكبة

٢- وحدة السيارات :

١ بطارية بنادق آلية

٣- المدفعية :

١ مدفعية ميدان

٢ بطارية بنادق آلية

٢ فرق مدفعية حامية

٤- المشاه :

١ كتيبة مشاه بريطانيين

٧ كتائب سودانية

١ كتيبة عربية

١ كتيبة إستوائية

٢ فرق من بحر الغزال

٥- جك. قوات الهجانة :

(أ) قوات الهجانة وتتألف من :

٢ فرقة جمال

١ فرقة مشاه راكبة

١ مشاه Idaras

(ب) هجانة عرب الشرق وتتألف من :

١ فرقة جمال

١ فصيلة مدفعية ميدان

١ فصيلة مدفعية حامية

٤ مشاه Idaras

(ج) هجانة عرب الغرب وتتألف من :

٢ فرقة مشاه راكبة

١ فصيلة مدفعية ميدان

١ فصيلة مدفعية حامية

٤ مشاه Idaras

أما مراكز القيادة فتنقسم إلى تسع مراكز وهى الخرطوم ، وكسلا ، وسنار ، وكردفان ، وجبال النوبة ، وأعالي النيل والسوباط ، وبحر الغزال ، ودونقلة ، ودارفور .

Ibid ., Enclosure I in No. 164. Mr. Keown - Boyd to Allenby,

Khartoum, March 14, 1920.

فى أثناء كتابة كين بويد لتقريره كان يوجد فى الجنوب نحو ٣٠٠٠ جندى فى دوريات تأديبية وإدارية ضد قبائل قامت بقتل ضابطين بريطانيين ، وكانت هذه القبائل تشكل مصدر إرهاب لجيرانهم وتهدد الإدارة البريطانية فى السودان فى منطقة شاسعة المساحة وبسبب قربها للحدود الحبشية تحصل منها على كميات الأسلحة والذخيرة .

F.O. 371/4784. Allenby to Earl Curzon, Cairo, March 24, 1920.

(41) Ibid.

(42) Ibid .

(*) الجدول من عمل الباحث مستعينا بالأرقام التى وردت فى تقرير كين بويد

(43) F.O. 848/6/ D. Allenby to Earl Curzon, June 26, 1920.

(44) W.P.D.U. Box 403 / 7/1, pp. 8, 9.

(45) F.O. 407/186. Enclosure I No., 164. Mr. Keown - Boyd to Allenby, March 14, 1920

(46) Ibid .

مصر فى العلاقات العراقية السودانية
١٩٥٥ - ١٩٥٨
«دراسة وثائقية»

د.عبد الحميد عبد الجليل شلبى

أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة الأزهر

مصر فى العلاقات العراقية السودانية

١٩٥٥ - ١٩٥٨

«دراسة وثائقية»

جرت عادة الباحثين فى تاريخ العلاقات بين قطرين مختلفين أن يكون بين هذين القطرين علاقة ما مباشرة، إما علاقة جوار، كالحديث عن العلاقات السورية العراقية، أو العراقية السعودية مثلاً، أو علاقة زعامة وتنافس كالعلاقة بين مصر والعراق، وإما علاقة بين دولتين إحداهما عظمى ذات مصالح وأخرى صغيرة، كالحديث عن العلاقات البريطانية وقُطر من الأقطار التى كانت تحت السيطرة البريطانية فى فترة الاستعمار. أما الكتابة عن قطرين ليس بينهما علاقة من هذا القبيل أو ذاك فهو أمر نادر الحدوث وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بقطرين عربيين، ولذلك كان اختيارى لموضوع البحث وهو بعنوان «مصر فى العلاقات العراقية السودانية ١٩٥٥/١٩٥٨ م» وهو موضوع لم يتطرق إليه - على حد علمى - باحث أو كاتب بالدراسة، بسبب صعوبة الموضوع، ولذلك سيكون الموضوع فى جملته دراسة فى ضوء الوثائق المصرية، حيث كانت هذه الوثائق أجدر من غيرها على متابعة تلك العلاقة وذلك التقارب، فضلا عن ذكر ردود الأفعال المصرية بصورة مباشرة، أى أن هذا التقارب كان له ردوده لدى الجانب المصري، فضلا عن أهدافه لدى الدولتين، وهي إبعاد السودان عن مصر، وأيضا الفترة المهمة والحرجة التى وقع فيها هذا التقارب، فقد كان هذا التقارب ضربا من ضروب الاستقطاب العراقي لقطر عربي آخر، لعمل جبهة مضادة للجبهة المصرية / السورية / السعودية(١).

أما لماذا هذه الفترة دون غيرها، فتعود إلى أن عام ١٩٥٥ هو بداية الاستقلال السوداني، حيث كان البرلمان السوداني قد أعلن فى ديسمبر عام ١٩٥٥ استقلال السودان عن مصر، أما عام ١٩٥٨ وهو العام الذى انتهت عنده فترة الدراسة فقد شهد انهيار المملكة العراقية، وكان أيضا بداية التحول فى السياسة السودانية نحو الأفضل تجاه مصر (ج.ع.م).

أ- مرحلة الاستقلال السودانى :

مما لا شك فيه أن العلاقات المصرية السودانية كانت ولا زالت وسوف تظل إن شاء الله تعالى علاقة أزلية، قوامها المودة والعلاقات الطيبة، حتى لا يكاد المرء يستطيع أن يفرق بين أهل الشمال فى مصر وأهل الجنوب فى السودان، وإذا ما مر عارض بين الدولتين فإنه دائما لا يلبث أن يزول، ثم تعود بعده العلاقات بين البلدين أقوى مما كانت عليه، وإن أى خلاف يحدث بين الدولتين لابد وأن يحدث أثره لدى أعداء الأمة، وليس أدل على ذلك من قيام إسرائيل بإرسال برقية تهنئة إلى الأزهرى رئيس وزراء السودان - عقب إعلان استقلال السودان - بمناسبة الاستقلال(٢). وسواء صحت هذه الرسالة أم لا فإنها لم تجد استجابة لدى المسئولين فى السودان، ولكنها أثبتت أن أعداء الأمة يقفون لها بالمرصاد.

ومهما يكن من أمر، فإن المرحلة التى أعقبت الاستقلال السودانى، كانت واحدة من مراحل التوتر فى العلاقات بين البلدين وخاصة الفترة التى تولى رئاسة الوزراء فيها عبد الله خليل، حتى أن سوء النية بين الحكومتين قد بلغ مداه فيمن يأتى إلى مصر أو يذهب إلى السودان، واتجهت الصحف والتقارير السياسية فى البلدين تراقب من تحوم حوله الشبهات بحجة أنه يتجسس على سياسة الدولة لصالح الطرف الآخر(٣).

ونتيجة للتوتر القائم بين مصر والسودان عقب الاستقلال، ونتيجة - أيضا - للتوتر الذى كان قائما بين مصر والعراق، بدأ العراق فى انتهاج سياسة التقارب مع السودان، واحتوائه فى النزاع السياسي الذى كان دائرا بين مصر والعراق، فقد عملت الحكومة العراقية على جذب السودان واحتوائه، حتى فى الفترة التى سبقت الاستقلال، حيث دأبت الحكومة العراقية على انتهاز كل فرصة لاستغلالها فى سبيل حمل السودان على الثقة بها والاعتماد عليها. ففي مايو (أيار) ١٩٥٥ دعت الحكومة العراقية وفوداً من الأحزاب والصحافة السودانية إلى حفل تسليم مطار الحبانية، وقد استقبلهم ملك العراق فيصل الثانى مرتين، وفى أحد لقاءاته بهم صرح قائلا «إنه يتطلع إلى يوم ينال فيه السودان استقلاله وحريته، وأنه يعتبر العراق بلداً للسودانيين»(٤).

وحينما أعلن السودان قراره بإعلان السودان جمهورية مستقلة، طلب نورى السعيد من أصحاب الصحف العراقية تأييد هذه الحركة، كما أرسل وفداً عراقياً إلى السودان فى ٢٩ يناير (كانون ثان) ١٩٥٦ للتهنئة بهذا الاستقلال، وقد عرض هذا الوفد على حكومة السودان تقديم مساعدات اقتصادية وخبراء عراقيين(٥) وهذا العرض يعني محاولة إبعاد السودان عن مصر، والحيلولة دون انضمامها إلى معسكر مصر، كما عرض الوفد رفع التمثيل الدبلوماسى (السياسى) بين السودان والعراق إلى درجة سفارة(٦).

وعلى الرغم من أن الوفد العراقى كان يحمل تهنئة حكومته باستقلال السودان، إلا أن لجنة السياسة الخارجية بالسودان أفهمت الوفد عن طريق رسالة رسمية أن السودان لن ينضم إلى الأحلاف الغربية وسوف يقف إلى جانب أشقائه «مصر وسوريا والمملكة السعودية»(٧).

ويبدو أن حكومة إسماعيل الأزهرى لم تكن تود الإفصاح عن سياستها بصراحة قبل استقرار الأوضاع الحزبية والسياسية فى البلاد، خاصة وأن انتخابات الجمعية التأسيسية كانت على الأبواب فى ديسمبر عام ١٩٥٦، ولذلك لم تشأ الحكومة السودانية الارتماء كلية فى أحضان العراق، وكانت تتبع طريقا مهادنا فى سياستها حتى يحين الوقت المناسب للإفصاح عن تلك السياسة.

وقد بدأت الحكومة السودانية فى التقارب مع العراق على طريقة الخطوة خطوة حتى تتكشف لها الأمور، ومن ذلك زيارة وفد سوداني للعراق للاشتراك فى حفلات مشاريع الإعمار بالعراق، وكان على رأس الوفد السيد «ميرغنى حمزة» وزير الزراعة والرى، وعدد من رؤساء تحرير الصحف السودانية وكانت الزيارة فيما بين ٢ - ٩ أبريل (نيسان) ١٩٥٦ ونزل الوفد ضيفا على الحكومة العراقية(٨).

وفى ديسمبر ١٩٥٦ زار وفد من ضباط الجيش السوداني العراق للمشاركة فى احتفالات الجيش العراقى(٩) وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على مدى اهتمام الحكومة العراقية بالسودان واستجابة الأخيرة لهذا الاهتمام وذلك التقارب.

ب- محاولة العراق استقطاب الإعلام السودانى

كان الإعلام - ولا زال - واحداً من أخطر الأدوات الدعائية، وعلى هذا الأساس سعى العراق إلى تحسين صورته لدى الشعب السودانى عن طريق الدعاية الإعلامية، سواء عن طريق الإذاعة، أو الصحافة، وليس أدل على خطورة هذا الأمر من أن عبدالله خليل(*) سكرتير حزب الأمة أرسل إلى السيد إسماعيل الأزهرى رئيس وزراء السودان - عقب إعلان الاستقلال - مذكرة يطلب منه فيها منع وإلغاء ركن السودان فى الإذاعة المصرية لأنه بعد الاستقلال أصبح للسودان كيان دولي.(١٠) ولكن الأزهرى كان يرى فى ذلك دعاية مجانية للسودان، وأنه لا يرى غضاضة فى ذلك، بالإضافة إلى أنه كان يرغب فى تحسين العلاقات مع مصر، ولا يريد إثارة مثل هذه المسائل فى ذلك الوقت(١١).

وبما أن للإذاعة دوراً كبيراً فى التأثير على الرأى العام، بادر العراق فى ديسمبر عام ١٩٥٦ بإرسال رسالة شخصية من نورى السعيد رئيس الوزراء إلى السيد عبد الرحمن المهدى (مؤسس وزعيم حزب الأمة) عن طريق القائم بأعمال السفارة العراقية فى الخرطوم، تضمنت أن يتوسط المهدى لدى الحكومة السودانية لإذاعة بيانات السفارة العراقية أو حكومتها عن طريق الإذاعة السودانية، فاتصل المهدى برئيس الوزراء - إسماعيل الأزهرى - ووزير الشئون الاجتماعية - محمد أحمد أبو سن - الذى استدعى مدير الإذاعة وأبلغه أمر رئيس الوزراء بإذاعة بيانات السفارة العراقية وإرسال مراقب الأخبار بالإذاعة «محمد صالح فهمي»، لمقابلة القائم بأعمال السفارة العراقية «يس عمر» ليتسلم منه بيانا لإذاعته.(١٢) وفى لقائه بمحمد صالح فهمي طلب القائم بالأعمال العراقي منه أن ينشر أحاديث عن العراق فى الإذاعة والصحف نظير مائة جنيه شهريا(١٣).

وفى محاولة لترغيب الحكومة السودانية فى إذاعة أنباء العراق فى الإذاعة السودانية، اتصل «يس عمر» القائم بالأعمال فى السفارة العراقية بالخرطوم، بوزير

الشئون الاجتماعية السوداني وأبلغه أن الإذاعة العراقية ببغداد بصدد إنشاء ركن خاص بالسودان على غرار ركن السودان بالإذاعة المصرية، وطلب معاونة الإذاعة السودانية للإذاعة العراقية بمدها بالأغاني السودانية والتعليقات(١٤).

وعلى الرغم من أن القائم بالأعمال العراقي فى الخرطوم أرسل إلى الإذاعة السودانية نشرة من السفارة لإذاعتها، إلا أن النشرة لم تذع كما كان متفقا عليه، مما جعله يحتج لدى وزير الشئون الاجتماعية الذى أجرى تحقيقا فى هذا الشأن(١٥). ويُستدل من ذلك على أن هناك بعض العناصر السودانية التى كانت ضد إذاعة بيانات عراقية فى الإذاعة السودانية، مما جعل السفارة العراقية تنشط فى توزيع المنشورات الدعائية الخاصة بالسفارة بدلا من الاعتماد على الإذاعة السودانية(١٦).

أما على جانب الإعلام المقروء (الصحافة) فقد سعت السفارة العراقية فى الخرطوم سعيا حثيثا لاستمالة عدد من الصحفيين السودانيين لعمل دعاية مناسبة للسياسات العراقية بوجه عام، وكان من أشد الصحفيين السودانيين تحمسا للسياسة العراقية هو السيد «أحمد يوسف هاشم» صاحب جريدة (السودان الجديد) الذى كان دائم الاتصال بالسفير العراقي فى الخرطوم «نجيب الراوي» وكذلك القائم بالأعمال العراقي «يس عمر» وكانت جريدته تقوم بنشر الدعاية الطيبة للحكومة العراقية وساستها، وعلى رأسهم نورى السعيد(١٧).

وفى مقابل الدعاية التى كان يقوم بنشرها أحمد يوسف هاشم للعراق، كانت هناك دعاية مضادة تقوم بها بعض العناصر المؤيدة لمصر وللسياسة المصرية، مما أزعج القائم بالأعمال العراقي فى الخرطوم الذى تقدم باحتجاج إلى رئيس الوزراء السوداني فوعده ببحث الموضوع(١٨). ويعني هذا أن الدعاية المؤيدة لمصر كانت ضد السياسة العراقية، وإنها أشارت إليها من قريب أو بعيد، ولتفادى مثل هذه الدعايات المضادة للعراق، سعت الحكومة العراقية إلى استمالة بعض الصحفيين السودانيين، فقامت بدعوة وفد صحفى سودانى لزيارة العراق فى ديسمبر ١٩٥٦، ولكنها لم تنجح فى ذلك إذ لم يلب

دعوتها أى صحفي آنذاك، نتيجة لتدخل اتحاد الصحافة السوداني[١٩]. ولكن المحاولة نجحت فى فبراير (شباط) ١٩٥٧، إذ تم تنظيم رحلة لوفد من الصحفيين السودانيين لزيارة بغداد بعد أن يؤدوا مهمة أخرى وهي زيارة محمية عدن، وكان ذلك بالاتفاق مع وزير الشئون الاجتماعية والقائم بالأعمال العراقي بالخرطوم[٢٠].

ومحاولة منها لاستمالة بعض الصحفيين السودانيين رصدت الحكومة العراقية مبالغ ضخمة على سبيل إعانات للصحف والمجلات، ومن بين المجلات التى كان لها نصيب كبير من هذه الإعانات جريدة (السودان الجديد) حيث تلقت السفارة العراقية بالخرطوم برقية من مكتب التوجيه والإرشاد العراقي يوافق فيه المكتب على إعطاء إعانة مالية شهرية لجريدة (السودان الجديد) المملوكة للسيد «أحمد يوسف هاشم»[٢١]. كما قامت السفارة العراقية بالخرطوم بنشاط كبير فى سبيل استمالة العديد من الصحفيين السودانيين مثل «السيد أحمد جمال الدين» صاحب مجلة (الشروق)، و«صالح عرابي» صاحب جريدة (التلغراف) وغيرهم[٢٢].

وقد أتت تلك المحاولات ثمارها، حيث نشرت بعض الصحف السودانية مقالات دعائية تشيد بالسياسة العراقية، وكان القائم بالأعمال العراقي يكتب بنفسه - كما يقول التقرير - بعض التعليقات على السياسة الخارجية فى جريدة السودان الجديد[٢٣]. كما قامت بعض الصحف بنشر بعض المقالات المؤيدة للسياسة العراقية، فنشرت جريدة (السودان الجديد) مقالات مؤيدة للعراق وللسياسة العراقية قام بكتابتها صاحب الجريدة أحمد يوسف هاشم[٢٤]. وفى الوقت نفسه قامت جريدة (الناس) بنشر مقالين حملت فيهما على مصر وسياستها، مما جعل السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» يطلب من الحكومة المصرية الاحتجاج لدى رئيس الوزراء «عبد الله خليل» لأن هذه الجريدة تنتمي إليه وهو الذى يمولها[٢٥].

ومما سبق يتضح أن الدعاية العراقية المصرية قد وجدت فى الشعب السوداني وأرضه، مجالا خصبا للتنافس، وذلك محاولة من الدولتين لاستقطاب السودان حديث

العهد بالاستقلال، فمصر سعت إلى ذلك من منطلق علاقاتها السابقة مع السودان ولما لها من مكانة فى نفوس الشعب السوداني، والعراق فى محاولة لإيجاد حليف يقف معه ضد المعسكر المصرى / السورى / السعودي. وكإجراء مضاد لاستمالة العراق لبعض الصحفيين السودانيين، قامت مصر بهذا العمل نفسه - على الرغم من أنها ليست فى حاجة إلى ذلك نظراً لمكانتها فى قلوب الشعب السودانى كما ذكرت - ويدلل على ذلك أن التقارير المصرية التى كانت ترسلها المخابرات الجوية المصرية من الخرطوم، ذكرت بأن السفارة العراقية فى الخرطوم تقوم بنشاط كبير لشراء ذمم أكبر عدد ممكن من الصحفيين السودانيين، وعددت من بينهم السيد «صالح عرابي» صاحب جريدة (التلغراف)، ويذكر التقرير قائلا «والذى سافر إلى مصر حتي إذا عاد بدون نتيجة من القاهرة فلاشك فإنه سيعمل لحساب سفارة العراق» (٢٦).

ومهما يكن من أمر فقد كانت الدعاية الإعلامية واحدة من المحاولات التى سعى إليها العراق فى السودان لجذبه إلى معسكره وإبعاده عن المعسكر المصري، ولكنها من وجهة نظرى لم تلق آذانا صاغية فى السودان نظرا لما كانت تتمتع به مصر فى السودان من مكانة، وأيضاً لوجود التيار الوحدوى الذى كان يرفض الانسلاخ عن مصر وسياستها.

جـ - موقف السودان من حلف بغداد:

كان حلف بغداد من أشد أسباب التوتر الذى كان قائما بين مصر والعراق، كما كان ذلك الحلف سبباً - أيضاً - فى إيجاد أحلاف عربية عربية، وانقسام العرب إلى كتلتين، إحداهما بزعامة مصر، والأخرى بزعامة العراق، ويمكن القول أن وجود ذلك الحلف، وما سببه من أحلاف عربية عربية، كان من أكبر الأسباب وراء محاولة التقارب العراقي السوداني، ومهما يكن من أمر، فإن وجود هذا الحلف لابد وأن يكون مثار جدل فى أروقة السياسة السودانية، خاصة وأن العراق كان يبحث عن زميل من المجموعة

العربية يسانده فى الانضمام إلى ذلك الحلف، وعن موقف ساسة السودان من الحلف، فقد تباينت آراؤهم بين معارض، ومؤيد ومحايد.

١ - الدعاية العراقية لحلف بغداد فى السودان:

كان العراق يبحث - كما ذكرت - عن زميل عربي ينضم معه إلى حلف بغداد، فما أن أعلن السودان استقلاله حتى أسرع العراق بعمل الدعاية اللازمة لجره إلى ذلك الحلف، وقد تنوعت هذه الدعاية تارة عن طريقَ الأفراد السياسيين، وأخرى عن طريق الأحزاب، ومن ذلك ما حدث مع مبارك زروق وزير الخارجية السودانى، ففى مايو ١٩٥٦ التقى به نجيب الراوى سفير العراق فى السودان للتأثير عليه خلال اجتماع وزراء الخارجية العرب فى القاهرة، مدعما ذلك ببعض المعونات المالية للحزب الوطني الاتحادى [٢٧].

وقد استمرت السفارة العراقية فى الخرطوم فى دعوتها لحلف بغداد وخاصة فى أوساط حزب الأمة الحاكم الأكبر فى الحكومة الائتلافية - مع بداية يناير ١٩٥٧ - لمحاولة الحصول على تأييده لحلف بغداد [٢٨].

ولم تكتف السفارة العراقية - بإيعاز من الحكومة - بالدعاية للحلف فقط، بل أن القائم بالأعمال بالسفارة العراقية اجتمع بعبد الله خليل رئيس الوزراء السوداني، وحثه على الانضمام إلى حلف بغداد، موضحا له إن وقوف السودان موقفا محايدا قد يعرضه للأخطار، وخاصة من جانب مصر التى تهدف إلى ضم السودان إلى محورها، ساعية من وراء ذلك إلى تحقيق الوحدة السودانية المصرية التى فشلت فى تحقيقها [٢٩].

كما التقى القائم بأعمال السفارة العراقية بالخرطوم، بالسيد عبد الرحمن المهدى مؤسس ورئيس حزب الأمة الحاكم بالسودان، وعرض عليه استعداد العراق لتقديم العون المادى للسودان، ونبه للخطر الشيوعى الذى يهدد الشرق العربى، والذى يقف أمامه حلف بغداد [٣٠].

ومما سبق يتضح أن العراق سعى عن طريق السفارة العراقية فى الخرطوم إلى جر السودان إلى ذلك الحلف، فما هو يا ترى موقف الحكومة والمعارضة السودانية من ذلك؟.

٢- موقف الرسميين السودانيين من حلف بغداد:

مع بداية الدعاية العراقية لحلف بغداد، صرح وزير خارجية السودان «مبارك زروق» أن السودان لن ينضم إلى حلف بغداد أو أى أحلاف أخرى، إلا إذا وافقت جميع الأحزاب السياسية على ذلك [٣١]. ويبدو أن غرض مبارك زروق من التصريح هو إفهام العراق أن الحزب الوطني الاتحادى لا يمانع فى انضمام السودان إلى الحلف إذا وافقت الأحزاب الأخرى - وهو أمر بعيد المنال.

ويبدو أن الدعاية العراقية للحلف قد أثرت فى بعض السياسيين السودانيين ومن بينهم الدرديرى محمد عثمان عضو مجلس السيادة السوداني، ففي لقاء بينه وبين محمود فهمي درويش مدير الدعاية العام بوزارة الزراعة العراقية، وسكرتير عام جمعية إنقاذ فلسطين بالعراق شكا له الأخير من الدعاية التى تطلقها مصر ضد العراق وضد حلف بغداد، فأجابه الدرديرى محمد عثمان بأن السودان لو كان فى مثل الموقع الجغرافى للعراق لما تردد فى دخول حلف بغداد والانضمام إليه مختاراً بإرادته درءا للخطر الروسي المحدق به عن قرب[٣٢]. وبعد عودة الدرديرى محمد عثمان من جده إلى السودان، التقى بالقنصل العام المصرى بالخرطوم «محمد يحيى حسن» وبعض أعضاء السفارة المصرية، وخلال اللقاء أعرب الدرديرى محمد عثمان عن تفهمه لانضمام العراق إلى حلف بغداد بسبب موقعه الجغرافي، وأن على مصر أن تترك نورى السعيد حرا ليضم من يشاء إلى هذا الحلف[٣٣]. وفى ذلك اللقاء ربط عضو مجلس السيادة السوداني بين حلف بغداد، وبين اتفاقية الجلاء المصرية البريطانية، معتبرا تلك الاتفاقية حلفا بين مصر وبريطانيا، لا فرق بينه وبين حلف بغداد[٣٤]. وحينما كان الدرديرى محمد عثمان يجد مقاومة لأفكاره من كل المصريين الذين كانوا يتباحثون

معه بشان الحلف، أعرب فى النهاية عن وجهة نظره بأنه من الخير لمصر أن تدع نورى السعيد وأمثاله لشعوبهم لتأخذ على عاتقها هدمهم والاقتصاص منهم[٣٥].

أما حكومة عبد الله خليل التى تولت الحكم فى ديسمبر ٥٦ / يناير ١٩٥٧ فلم تخل تصريحات مسئوليها من آراء حول حلف بغداد، وقد عبر عن هذه الآراء كل من «عبد الله خليل» و«محمد أحمد محجوب» وزير الخارجية، ففي ديسمبر ١٩٥٦ أدلى وزير الخارجية بتصريح عن حلف.يغداد والأحلاف العربية الثنائية أوضح فيه وجهة نظر حكومته فى هذه الأحلاف، وفيما يخص حلف بغداد فال وزير الخارجية «إن العراق يقول إنه يخاف الشيوعية، ولذلك دخل حلف بغداد، ولذلك فنحن نعتبره مسألة داخلية تهم العراق وحده، ولا نتدخل فيه، ولكن إذا حاول العراق أن يفرضه على أى دولة عربية أخرى، فإن ذلك يهدد سلامة الدول العربية وسنقاومه»[٣٦]. ويبدو أن تصريحات وزير الخارجية السوداني قد جاءت لإرضاء مصر، خاصة وأن السودان كان فى بداية الاستقلال، وليظهر للحكومة المصرية أن سياسة السودان الخارجية لا تتعارض مع السياسة المصرية وأنها تتفق معها إلى حد كبير، وخاصة فيما يتعلق بالأحلاف العسكرية، وإنهم لا يميلون بل ولا يعتزمون الانضمام إلى ذلك الحلف فى يوم من الأيام طالما أن السودان يعتبر أن هذا الحلف يخص العراق وحده ويحقق مصالحه.

ولم تخرج تصريحات رئيس الوزراء «عبد الله خليل» كثيراً عن تصريحات وزير خارجيته، فحينما سئل من أحد الصحفيين فى الخامس من يناير عام ١٩٥٧ عن حلف بغداد ورأيه فيه قال «إن الناس لم تقرأ نصوص حلف بغداد وأنهم تأثروا تأثيراً عاطفياً بما تذيعه محطات الراديو من مصر ودمشق والسعودية وغيرها، وقال بأن العراق حر فى أن يتصرف بما يوافق مصالحه خصوصا وأن العراق مُعرض لخطر الشيوعية» وقال «إن العراق لم يفرض حلف بغداد على أى دولة عربية، وعليه لا ينبغي أن تتدخل أى دولة عربية فى شئون العراق الداخلية، ثم وصف الجيش العراقي بأنه أقوى جيش فى الشرق الأوسط وأقوى من الجيش المصرى ذاته»[٣٧]. ويعنى هذا التصريح إن مهاجمة حلف

بغداد يُعد تدخلا فى شئون العراق الداخلية، ولا يحق لدولة ما أن تهاجم هذا الحلف، وفى إشارته للجيش السودانى، يلمح رئيس الوزراء أن العراق قد استفاد من حلف بغداد والدليل على ذلك أن الجيش العراقي يعتبر – من وجهة نظره – أقوى جيش فى الشرق الأوسط بل وأقوى من جيش مصر التى تهاجم هذا الحلف.

وفى لقائه بالقائم بالأعمال العراقي فى الخرطوم، أوضح رئيس الوزراء السودانى عبد الله خليل ضرورة انتهاج السودان سياسة حيادية، ولا يوجد خطر على السودان من اتباع هذه السياسة طالما يحرص على صداقة مصر ويعمل على تقريب وجهات النظر بين الدول العربية(٣٨).

وقد علقت إدارة الشئون الأفريقية بوزارة الخارجية المصرية على تلك التصريحات بأنها جاءت نتيجة لحرص الساسة السودانيين على اختلاف ألوانهم لكسب الرأى العام – فى الأونة الحاضرة – والذى يرفض الانحراف مع تيار المعسكر الغربى(٣٩).

أما موقف «عبد الرحمن المهدى» مؤسس ورئيس حزب الأمة من الحلف فقد عبر عنه فى لقائه بالقائم بأعمال السفارة العراقية فى الخرطوم، حيث ذكر أن سياسة السودان تهدف إلى صداقة جميع الدول والوقوف على الحياد (٤٠).

وقد أكد برنامج السياسة الخارجية للسودان فى مارس ١٩٥٨ على هذا الحياد، حيث عقدت الحكومة الائتلافية (حزب الأمة والشعب الديموقراطى) اجتماعا لدراسة وضع سياسة خارجية تسير عليها الحكومة، وقد أعلنت عدة نقاط كسياسة خارجية تلتزم بها الوزارة الائتلافية ومنها:

الابتعاد عن الأحلاف العسكرية أيا كان مصدرها أو اتجاهها، إلا دفاعا عن السودان فى حالة الاعتداء عليه من أى دولة.

عدم الانحياز إلى أى من الكتلتين الشرقية والغربية، مع التعاون مع أى منهما حسبما تمليه مصلحة السودان.

عدم الانحياز لأى من المعسكرات العربية والعمل على التوفيق بينها[٤١].

ومهما يكن من أمر، فإن هناك عوامل أخرى قد تكون مساعدة فى عدم انضمام السودان للحلف وهي أن المملكة العربية السعودية قد جعلت للاستثمارات السعودية فى السودان شرطا أساسياً هو عدم انضمام السودان لحلف بغداد، حيث ذكر وزير السعودية المفوض فى السودان الشيخ «عبد الرحمن الحليسي» للسفير المصرى فى السودان «محمود سيف اليزل خليفة» إن جلالة الملك سعود أوصاه بالعمل على ذلك، ولذا فإنه قال لعبد الله خليل « أن عليه زيارة المملكة السعودية قبل سفره للعراق مخافة أن يجره نورى السعيد إلى الحلف وتضيع الفرصة»[٤٢]. فربما يكون للضغوط السعودية المصرية، فضلا عن الرأى العام السوداني دوره الفعال فى عدم انضمام السودان للحلف.

وعلى الرغم من السياسة الحيادية التى أعلنتها الحكومة والرسميون السودانيون، إلا أن بعض الأنباء قد تسربت عقب قيام الثورة العراقية تفيد بتسريب بعض وثائق حلف بغداد والتى تشير إلى أن مفاوضات سرية وجادة كانت تدور بين العراق والسودان بشأن انضمام الأخير إلى الحلف، حيث نشرت جريدة (التلغراف) المستقلة بعددها الصادر فى ١١ أغسطس ١٩٥٨ خبرا تحت عنوان «عملاء حلف بغداد» جاء فيه «تسربت أنباء من بغداد إلى الخرطوم بأنه وجدت بين أسماء عملاء حلف بغداد صحفي وسياسي مستقل وأن الإثنين تقاضيا مبالغ ضخمة وضحت فى حياتهما »، وكانت صحيفة أخبار اليوم المصرية قد نشرت خبرا مشابها ، مما جعل الخارجية السودانية تنشر نفيا لذلك الخبر فى جميع الصحف السودانية جاء فيه «نشرت جريدة أخبار اليوم المصرية الصادرة صباح يوم السبت ٩ أغسطس ١٩٥٨ خبرا زعمت فيه إن رئيس الديوان الملكى العراقى قد أرسل تقريراً إلى عبد الاله فى أمريكا بتاريخ ٤فبراير١٩٥٧ جاء فيه إن الوفد السوداني العسكرى الذى زار العراق قد رفع تقريرا سرياً أوصى فيه بانضمام السودان إلى حلف بغداد، وتود وزارة الخارجية السودانية أن تنفى هذا الخبر نفياً باتاً وأن تؤكد إنه

لم يحدث أن رفع الوفد السوداني العسكرى أى تقرير سرى أو غير سرى يوصى فيه بانضمام السودان إلى حلف بغداد، وأن حكومة السودان لم تفكر لحظة واحدة فى الانضمام إلى هذا الحلف، وسياسة السودان واضحة ومنشورة ومعروفة فى هذا الصدد»[٤٣].

ويرجع ذلك الاعتقاد - بأن مفاوضات جادة سودانية عراقية قد حدثت بشأن انضمام السودان للحلف - إلى تعاطف الحكومة السودانية مع العراق فى ذلك الحلف على الرغم من السياسة الحيادية التى انتهجتها الحكومة السودانية بشان الأحلاف بوجه عام.

٣- موقف المعارضة السودانية من حلف بغداد

انتهجت المعارضة السودانية منهجاً واضحاً للتعبير عن رأيها فى حلف بغداد، وقد عبر عن هذا النهج أكثر من حزب سوداني، ومن بين هذه الأحزاب كانت جماعة الختمية التى أكدت على لسان السيد على الميرغني «إن الختمية يحاربون حلف بغداد ويؤيدون حلف مصر / السعودية / سوريا»[٤٤].

وفى فبراير ١٩٥٧ تم عقد المؤتمر القومي السوداني المكون من ثمان وعشرين هيئة وحزب ونقابة، وقد بدأ الاجتماع فى يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٧ بغرض اتخاذ قرارات نحو ما يجب أن تتخذه هذه الهيئات والأحزاب والنقابات من إجراءات إزاء موقف الحكومة من تأجيل الانتخابات والإبقاء على حالة الطوارئ وكانت أهم القرارات التى اتخذت فى هذا الاجتماع هي:

«أقر المؤتمر مبدئيا أن تكون السياسة الخارجية للسودان هي وقوفه على الحياد الإيجابي، ومعارضة الأحلاف العسكرية ونظرية الفراغ الأمريكية، على أن تترك تفاصيل السياسة الخارجية للجنة الدائمة للمؤتمر لتقديم مذكرة تفصيلية بشأنها فى الاجتماع القادم للمؤتمر»[٤٥].

ثم عقد المؤتمر اجتماعه الثاني، وكانت أهم القرارات التى صدرت فى هذا الاجتماع هى :

«أن يقف السودان داخل الجامعة العربية موقف الحياد الإيجابي، ويعمل على تدعيم وتقوية القومية العربية، ويناهض الارتباط بالأحلاف الأجنبية وفى مقدمتها حلف بغداد»[٤٦].

وبناء على ما سبق يتضح أن المعارضة السودانية كانت أوضح رأياً من الحكومة بشأن حلف بغداد، وإن كانت المحصلة النهائية أن العراق لم يفلح فى جر السودان إلى ذلك الحلف وإن استطاع أن يكسب عطف حكومته وكبار ساسته فقط.

د - زيارة عبد الله خليل للعراق:

ركزت السياسة العراقية دعايتها فى السودان على حزب الأمة ليتبنى مسألة التقارب العراقي السوداني، وذلك لما عرف عن هذا الحزب من ميول انفصالية عن مصر وعن السياسة المصرية، وكان رئيس وزراء السودان وسكرتير حزب الأمة السيد عبد الله خليل بمثابة الفارس الذى تراهن عليه السياسة العراقية لتحقيق أغراضها، فمنذ توليه رئاسة الوزراء مع نهاية عام ١٩٥٦ ترددت أقوال بأن السياسة التى ينتهجها ترضي الدوائر السياسية العراقية، ففي تقرير أرسله إليه وزير الخارجية السوداني «محمد أحمد محجوب» من الولايات المتحدة الأمريكية تضمن أن مندوب العراق فى الأمم المتحدة أخبره بأن الحكومة العراقية وملك العراق مرتاحان للخطة التى تسير عليها حكومة عبد الله خليل بالنسبة للنزاع القائم بين مصر والعراق[٤٧].

وتمشيا مع سياسة التقارب العراقي السوداني قامت الحكومة العراقية برئاسة نورى السعيد بدعوة عبد الله خليل لزيارة العراق عن طريق رسالة سلمها له القائم بالأعمال العراقي فى الخرطوم، وقد قبل عبد الله خليل هذه الدعوة[٤٨]. وبالفعل قام رئيس وزراء السودان بزيارة العراق ضمن جولة طاف فيها بعدد من الدول العربية،

وخلال زيارته للعراق تقابل مع نورى السعيد الذى شكا له من سياسة مصر وعبد الناصر تجاه العراق ومعاداته حلف بغداد الذى يهم العراق وحده، كما طلب منه أن يعمل على موازنة داخل الجامعة العربية(٤٩).

ومحاولة منه لاستقطاب السودان وإبعاده عن مصر، عرض رئيس الوزراء العراقي على نظيره السودانى أن يقوم العراق بمد السودان بأسلحة وخبراء عراقيين لتدريب جنود وضباط الجيش السودانى، كما أعرب رئيس وزراء العراق عن عدم تفهمه لبقاء السودان بدون محالفة مع بريطانيا وهى التى ساعدته حتى نال استقلاله(٥٠). وفى نهاية اللقاء صدر عن الطرفين بياناً مشتركاً ومما جاء فيه:

العمل على جمع كلمة العرب

عدم تدخل أى بلد عربى فى شئون أى بلد آخر

من الخير لكل بلد عربي أن يدرس الإعانات الخارجية وفقاً لظروفه الخاصة وما تقتضيه ظروف شعبه وفى حدود سيادته، وأن يراعى فى ذلك عدم الإضرار ببلد عربي آخر.

تعزيز العلاقات الاقتصادية وزيادة التبادل التجارى بين البلدين، واستعداد العراق لمعاونة السودان فى نهضته الاقتصادية والتعميرية، وترحيب السودان بمساهمة رؤوس الأموال العراقية فى مشروعات التنمية الاقتصادية فى السودان.

التعاون الثقافى بين البلدين بتبادل الأساتذة وقبول الطلبة السودانيين فى جميع معاهد العراق. (٥١)

ويُلاحظ على هذا البيان أن العراق استطاع الحصول على تأييد ضمني من السودان بأن العراق حُر فى أن يعقد ما يشاء من معاهدات وأحلاف، ويجب على جميع الدول العربية ألا تتدخل إحداها فى شئون الأخرى، أى أنه يتعين على مصر أن تكف عن عدائها لحلف بغداد والحكومة العراقية لأنه لا يوجد فى هذا الحلف ما يضر بمصر.

وإمعاناً فى الترابط العراقى السودانى وإبعاد السودان عن مصر، أوضح البيان ضرورة تعزيز العلاقات الاقتصادية والثقافية بين البلدين، وهذا أمر شديد الوضوح بأن العراق على استعداد أن يحل محل مصر صاحبة النفوذ الأكبر فى المجالات الاقتصادية والثقافية بل والعسكرية فى السودان.

وما من شك أن رئيس وزراء السودان عبد الله خليل قد تأثر بهذه الزيارة أيما تأثر، حيث صرح عقب عودته إلى السودان بأن العراق من أحسن البلاد التى احتفت به، وأن نورى السعيد صاحب شعبية كبيرة فى العراق، وأنه شاهد بنفسه حب الناس له والتفافهم حوله، مما يدحض افتراءات مصر وإذاعتها وصحفها، وأن التعمير القائم الآن فى العراق سيجعل منه فى القريب العاجل بلدا غنيا وقد يكون أغنى بلد عربى [٥٢].

هـ - مشروعات المعاهدات العراقية السودانية

كان الرابط الذى يربط السياستين العراقية والسودانية - آنذاك - هو عدم الارتياح للسياسة المصرية، ولذلك فان أى محاولة للتقرب بين الدولتين تعني عزل مصر، وكلما زاد عدد الدول المتعاونة مع العراق زادت عزلة مصر عن مجموعة الدول العربية، ومن هذا المنطلق لاحت فى أفق السياسة العراقية السودانية بوادر معاهدة بين البلدين، حيث نشرت جريدة (الأنباء) السورية بعددها الصادر صباح يوم ٢٤ / ٢ / ١٩٥٦ خبراً مفاده أن مباحثات سرية تجرى بين الحكومة السودانية الجديدة والحكومة العراقية، بغية الوصول إلى عقد معاهدة ثنائية دفاعية بين الدولتين، ولمحاربة الحركات الهدامة فى كل منهما [٥٣]. وإن دلت هذه الأنباء على شئ فإنما تدل على مدى اهتمام العراق بالسودان ومحاولة ضمه إلى محوره.

وعقب إذاعة هذا الخبر، أعلن السيد إسماعيل الأزهرى رئيس وزراء السودان من دهشته لهذا الخبر، ونفاه نفيا باتا، مؤكدا عدم حدوث أى اتصالات فى هذا الشان مع العراق أو غيره [٥٤]. كما نفي السيد مبارك زروق وزير خارجية السودان هذه الأنباء أكثر من مرة خلال لقائه بالسفير المصرى بالخرطوم، وفى خطابه للقائم بأعمال السفارة

السودانية فى القاهرة، حيث أعلن – مبارك زروق – «إن مجرد التفكير فى هذا الأمر يعتبر خيانة» (٥٥).

وحينما تولى عبد الله خليل رئاسة الوزارة تردد فى الأوساط السودانية أنه تلقى رسالة من نورى السعيد يطلب منه فيها أن يدرس إمكان إبرام معاهدة صداقة وتحالف مع العراق،(٥٦) إلا أن التقارير المصرية ذكرت أنه على الرغم من ذلك فإن أعضاء حزب الأمة لا يميلون لهذا الرأي لأنه يعادى الدول العربية.(٥٧) وقد أكدت السفارة المصرية فى الخرطوم ذلك موضحة استبعاد عقد مثل هذه المعاهدة فى الوقت الحاضر خاصة وأن الحكومة الحالية حكومة انتقالية، ولا يوجد تجانس بين أعضائها، ولن تستطيع مواجهة الرأى العام بمثل هذه المعاهدة (٥٨).

وقد واجهت الخارجية المصرية هذه الأنباء بعمل دعاية مضادة لها، ومحاولة إثارة الرأى العام السوداني، واقترحت إدارة الشئون الأفريقية عدة اقتراحات لمواجهة ذلك الأمر منها:

الاتصال بالقائمين على الإذاعة المصرية حتى تتناول الموضوع وتعرضه على مستمعيها بشتى موجاتها وأركانها، بالطريقة التى تكفل تهيئة أذهان الجماهير لكي تثور شكوكهم حول أمثال هذه الاتفاقيات، ولكى يحترس الساسة ويتحرزون من الوقوع فى خطأ إبرامها، والارتباط بطريقة أو بأخرى بالأحلاف العسكرية.

فى هذه التعليقات الإذاعية الوسيلة السريعة الموجهة التى تُقدم للمستشار الصحفي بالسفارة المصرية بالخرطوم المادة التى يستطيع أن يمد بها الصحف السودانية، وأن يوجه على هديها الرأى العام السودانى.

الكتابة إلى سفير مصر بالخرطوم لكي يوافى إدارة الشئون الأفريقية بمدى نصيب الأنباء الواردة من بغداد من الصحة، وصداها بين صفوف السودانيين، وما يقترحه إزاء هذه الأنباء من إجراءات(٥٩).

وقد قامت السفارة المصرية بالخرطوم بإعداد حملة صحفية ضد مشروع المعاهدة وتوعية الرأى العام السودانى بمدى خطورته (٦٠).

وعقب فشل مشروع المعاهدة العراقية السودانية، أو بالأحرى فشل هذا المقترح، ظهرت بوادر مشروع آخر لإبعاد السودان عن مصر وضمه إلى محور العراق بطريق غير مباشر، فقد نشرت جريدة (الرأى العام) السودانية فى عددها الصادر بتاريخ ٣ مايو ١٩٥٨ ترجمة لمقال نشرته مجلة نيوزويك الأمريكية فحواه «إن وزارة الخارجية البريطانية تدرس اقتراحا تقدم به رئيس وزراء السودان لعقد حلف يضم السودان وأثيوبيا والمملكة العربية السعودية، وذلك لأن إحساس هذه الدول الثلاث بالتوسع السوفيتي والمصرى نحو البحر الأحمر والصومال قد قرّب بينها»(٦١). وتعقيبا على هذا المقال أصدر مكتب رئيس الوزراء السودانى بياناً نشرته الصحف فى اليوم التالي يرد فيه على ما نشرته المجلة الأمريكية، ومما جاء فيه:

إن الصحيفة التى ترجمت الخبر قد أخطأت فى كلمة حلف التى يفهم منها أنه حلف عسكرى مقابل كلمة Coalition التى لا تعنى أكثر من ائتلاف أو تآلف.

أنه إذا صح أن رئيس وزراء السودان تقدم باقتراح يخص العلاقات بين السودان والسعودية وأثيوبيا فإن مثل هذا الاقتراح يقدم لحكومتي هذين البلدين لا للحكومة البريطانية.

إن سياسة السودان معروفة، وقد أعلنها رئيس الحكومة فى أكثر من مناسبة وتتلخص فى الابتعاد عن الأحلاف والمحافظة على الحياد بين المعسكرات الدولية المختلفة .... الخ.

وختم البيان بقوله «إن العلاقات بين السودان وأثيوبيا والسعودية تقوم على أساس التفاهم الودى وحسن الجوار، وهي سياسة تقتضيها مصلحة البلاد، وسنعمل على تدعيمها وتقويتها لمصلحة الجميع» (٦٢).

وقد أصدر وزير الخارجية السوداني – أيضاً – تصريحاً نفي فيه ما جاء بالمقال، وأن ما جاء بالمجلة الأمريكية لا أساس له من الصحة إطلاقاً (٦٣).

ولكن عبد الله خليل لم يدل بتصريحات فى هذا الشأن، تمشيا مع سياسته التى أعلنها، وقد صرح بها قبل إثارة الموضوع فى المجلة الأمريكية، حيث التقى به مندوب رويتر الخاص بالخرطوم طالباً منه تلخيص سياسته الخارجية فى حالة فوزه فى الانتخابات التى كانت تجرى فى السودان آنذاك، فأخبره «إننى آمل فى عقد معاهدة دفاعية واقتصادية مع المملكة العربية السعودية وأثيوبيا، وربما بمضي الوقت مع العراق وليبيا، إننى أعرف أن هذه البلاد تشاطرنا وجهة النظر فى تفضيل المعسكر الغربى، وقد أخبرتهم بأننا نستطيع جيداً أن نسلك نفس الطريق» (٦٤).

وقد ذكر عبد الله خليل للملحق العسكرى بالسفارة المصرية بالخرطوم، بأنه لم يقصد بتصريحه عن حلف البحر الأحمر كلمة حلف، لأن سياسته ضد الأحلاف، ولكن ما يعنيه هو الدخول فى اتفاقيات ومعاهدات Treaties مع الدول المجاورة لتنظيم العلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية. (٦٥)

وقد أرجعت مصر التخطيط لهذا الحلف إلى الغرب والولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة، حيث أن خطة الحلف ترتكز على قيام حلف ثلاثى بين أثيوبيا والسودان والسعودية، ثم ينضم الحلف إلى العراق من جهة الشرق وإلى ليبيا من جهة الشمال الغربى، وبذلك يصبح مكونا من (العراق – السعودية – السودان – إثيوبيا – ليبيا) وهو أمر يتمشى مع سياسة الغرب فى عزل مصر، ويرتبط بحلف بغداد عن طريق العراق، وستكون الدعاية لهذا الحلف هي أن السودان بلد ضعيف عسكريا، ولا تسمح ماليته بتكوين جيش كبير للدفاع عن أراضيه الشاسعة، وأن السبيل الوحيد إلى ذلك هو عقد حلف دفاعى اقتصادى مع بلاد تملك القوة وتعتمد على الغرب بإمكانياته العسكرية والاقتصادية (٦٦).

ومهما يكن من أمر، فإن سياسة المعاهدات والأحلاف التى حاول العراق أن يربط بها السودان قد فشلت، ولم تر تلك المشروعات النور، وذلك لعدة عوامل منها:

معارضة الرأى العام السوداني لمثل تلك المشروعات .

الدعاية المصرية المضادة لتلك المشروعات ومواجهتها منذ البداية .

عدم تحمس الحكومة السودانية لمثل هذه المشروعات بالشكل الكافى.

و- موقف السودان حكومة وشعبا من الثورة العراقية ١٩٥٨:

من الأمور الهامة التى يجدر الإشارة إليها، أن تقريرا أعده مكتب الملحق العسكرى المصرى بالخرطوم أشار فيه عقب زيارة فاضل الجمالي وزير الخارجية العراقي للسودان فى نهاية شهر أبريل عام ١٩٥٨ إلى أن السيد عبد الله خليل رئيس وزراء السودان أبلغ فاضل الجمالي بأنه «علم أن مصر تحاول إحداث انقلاب عسكرى فى العراق بواسطة بعض الضباط العراقيين، وقد اهتم فاضل الجمالي بهذا الخبر وشكر عبد الله خليل على هذه المعلومات القيمة» (٦٧). وهذا إن صح، يدل على مدى ما وصل إليه حزب الأمة والحكومة السودانية - آنذاك - من تقارب مع العراق، ومحاولة زيادة هذا التقارب حتى ولو على حساب مصر التى كانت ترى فى هذا التقارب ضررا بالمصالح المصرية فى السودان، وتعتبر هذا التقارب أمراً غير طبيعى.

ومهما يكن من أمر، فإن الثورة العراقية قد قامت فى الرابع عشر من يوليو ١٩٥٨، وقد أطاحت بالنظام الملكى، وتم إعلان الجمهورية فى العراق، وكانت الثورة العراقية حينما قامت تسترشد بالثورة المصرية التى أطاحت بالنظام الملكى فى مصر عام ١٩٥٢. وقد كان لهذه الثورة صدى عميق فى نفوس الشعب السوداني على اختلاف هيئاته وأحزابه بدءاً من الرأى العام السودانى - وهو القاعدة - وانتهاء بالحكومة التى لم تجد بداً من الاعتراف بهذه الجمهورية الناشئة.

١- الصحف السودانية والثورة العراقية

اختلفت بطبيعة الحال ردود أفعال الصحف السودانية تجاه الثورة العراقية تبعاً لميول كل جريدة، والحزب أو الجناح الذى تنتمي إليه، وفى مساء يوم الثورة كتبت جريدة العلم(*) لسان حال الحزب الوطنى الاتحادى، بملحقها الصادر مساء ١٩٥٨/٧/١٤ كلمة تحت عنوان «الله أكبر الله أكبر» جاء فيها «فقد انهد عرش من عروش الفساد، واندك صرح من صروح التآمر، وزال وكر من أوكار الجاسوسية العالمية، وانزاح كابوس جاثم على صدر شعب العراق والشعوب العربية .... الخ» (٦٨). وفى عددها الصادر بتاريخ ٢٠ / ٧ / ١٩٥٨ كتبت الجريدة مقالا تحت عنوان «السودان وثورة العراق» جاء فيه: «منذ أيام قلائل قام شعب العراق بعمل ضخم تاريخي خطير، هو ثورته الباسلة ضد الاستعمار وأعوانه، أما هنا فى السودان فقد طغى الفرح، وعم البشر على كل وجه» . . . وفى نهاية المقال طالبت الجريدة الحكومة أن تبادر بالاعتراف بحكومة الجمهورية العراقية، استجابة لمشيئة الشعب السوداني «قبل أن ترغمها الحوادث إرغاما» (٦٩). وبالنظر إلى لهجة جريدة (العلم) نجد أن نبرتها تتفق ونبرة السياسة المصرية، ولا غرو، فان هذه الجريدة قد قامت على أكتاف الاتحاديين وبتمويل مصري، وإن كانت هذه الجريدة تعبر عن آراء كثير من أبناء الشعب السوداني الذى سره قيام الثورة فى العراق.

أما صحيفة الزمان المستقلة، فقد كتبت مقالا افتتاحيا بعددها الصادر بتاريخ ١٩٥٨/٧/١٥ أشادت فيه بالثورة العراقية التى أنهت واحدة من التدخلات الأجنبية والمؤامرات فى الشرق الأوسط، ومما جاء فى المقال «اليوم يفقد الاستعمار ركناً من أركانه، واليوم تهتز قواعد إسرائيل، إسرائيل التى لم يكن سبب لوجودها إلا وجود أمثال نورى السعيد، ونظام نورى السعيد داخل الكيان العربي، إن الشعوب العربية كلها اليوم تبتهج لهذا النصر الذى حققه شعب العراق وجيش العراق للأمة العربية . . . الخ»(٧٠)

وكتبت جريدة (الأيام) المستقلة مقالا بعددها الصادر فى ١٥ / ٧ / ١٩٥٨ تحت عنوان «أحداث العراق» تتبعت فيه الثورات التى قامت فى العراق من قبل، حيث ذكرت أن هذه الثورة لم تكن الأولى فى العراق، بل سبقتها ثورات وانقلابات أخرى ، وأوضحت أن السبب فى قيام مثل هذه الثورات هو انتهاج الحكومات سياسات التسلط والطغيان، وحبس أنفاس الشعب واستعباده وسلب إرادته، وفى النهاية تساءلت الجريدة عما إذا كانت أهداف الثورة إعادة الحياة الديموقراطية للعراق أم لا؟![٧١]. ..

كما كتبت جريدة الأيام مقالا آخر فى عددها بتاريخ ٢١ / ٧ / ١٩٥٨ تحت عنوان «حكومتنا والموقف العالمى»، أخذت فيه على مجلس الوزراء - السودانى - اجتماعاته المستمرة لدراسة الموقف فى العراق دون أن يتخذ قراراً بشأن الثورة العراقية، ثم تهكمت على الحكومة قائلة «ومن يدرى فإن مندوب السودان فى الأمم المتحدة قد يقف غدا عندما تجتمع الجمعية العمومية ليعلن أنه لن يستطيع أن يقطع برأى حكومته لأن حكومته مازالت تدرس»!. [٧٢]

أما جريدة (الرأى العام)(*). المستقلة فقد كتبت فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٥٨/٧/١٥ مقالا جاء فيه «ما مبعث هذه الفرحة التى طغت على مجتمع العاصمة منذ أن أعلنت أنباء العراق؟ وما سر هذه النشوة التى كانت تسرى على الألسنة وهى تروى قصة الانقلاب؟ ليس لهذا غير سبب واحد، لقد أحس كل حر أن شعب العراق قد تحرر بهذه الوثبة، فلنبتهل إلى الله أن يوفق رجال العراق فى عهدهم الجديد على إقامة حكم عادل، وأن يقي الثورة إراقة الدماء، وأن تكون ثورة مصر البيضاء المثل الذى تستوحيه» [٧٣].

وكتبت جريدة (الصراحة) المستقلة بعددها الصادر بتاريخ ١٥ / ٧ / ١٩٥٨ مقالاً تحت عنوان «مرحبا بالجمهورية العراقية» ومما جاء فيه «لم يكن شعور الشعب السودانى أمس بإعلان الجمهورية العراقية أقل من سروره قبل ذلك بإعلان استقلال

جمهورية السودان، ولم يكن فرحنا معشر الشعب السوداني بالانقلاب العراقي أمس أقل من فرحنا يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالانقلاب المصرى . . . إن ثورة العراق الراهنة تؤمن إستقلالنا وحريتنا، وتقدم للطامعين فى الحكم درساً واضحاً عن مصائر الخيانة، ومصارع الخونة . . . ويجب أن يصدر اعتراف سريع من حكومة الخرطوم بالجمهورية العراقية»(٧٤).

وفى ٢٠ يوليو ١٩٥٨ كتبت جريدة (صوت السودان)(*) مقالاً تحت عنوان «الاعتراف والتعضيد» جاء فيه «لقد بلغ الاعتراف بثورة العراق فى ساعة واحدة من قيامها كل مكان فى أرض العراق، إننا عندما نتريث دون الاعتراف بجمهورية العراق إنما نجامل الدول المعتدية التى ظلت تتقول على حقوق شعب العراق إلى أن استخلصه منها أمس بثورته . . . إننا نطالب بالاعتراف بجمهورية العراق، بل إننا نطالب بتعضيدها والعمل على تأمين سيادتها ضد النذر المطلة عليها من أمريكا وبريطانيا» (٧٥).

وكان أعنف المقالات التى نشرت ضد موقف الحكومة السودانية من الثورة العراقية قد صدر عن جريدة (السودان الجديد) المستقلة، بعددها بتاريخ ١٩٥٨/٧/٢٠، وقد جاء تحت عنوان «إلى متى هذا السكوت» ومما جاء فيه «مازالت حكومة السودان تتبجح بأسطورة الحياد المزعوم وعدم الانحياز الخارجي، وهل عدم الانحياز معناه عدم الاعتراف بالحكومات التى ترتضيها الشعوب؟ إن الشعب السوداني قد أيد وبارك جمهورية العراق الراسخة، ومن الحكمة أن تبادر حكومة السودان بترجمة هذا التأييد رسمياً، أما هذا السكوت، هذا التردد، هذا التريث المزعوم، فلا يعني سوى الانحياز الصارخ» (٧٦).

ومما يلاحظ على الصحف السودانية أنها فى معظمها كانت تنتهج خطاً واحداً وهو مباركة الثورة العراقية وتأييدها، حتي الصحف التى كان يشك فى ولائها للحكومة باركت هذه الثورة، وأخذت على الحكومة عدم الاعتراف بالثورة، ودعت إلى الاعتراف الفورى بها حتى لا تتخلف عن ركب الدول العربية الأخرى التى اعترفت بالثورة،

وحتي لا يكون سكوتها كما ذكرت جريدة السودان الجديد «دليل على الانحياز الصارخ».

ولم تجد الحكومة العراقية المخلوعة تعاطفاً من أى من الصحف السودانية سوى جريدة (الأمة) التى أخذت على نورى السعيد شدته وبطشه بالشعب العراقى مما أدى إلى نشوب الثورة، ولكنها من ناحية أخرى تعاطفت مع ملك العراق فيصل الثانى، ففى مقال تحت عنوان «صلوا معى من أجل فيصل» نشرته الجريدة بتاريخ ١٥/٧/ ١٩٥٨، جاء فيه «قد رددت الأنباء بما فيها راديو بغداد نفسه أن الملك فيصل قد قتل، وأن الأمير عبد الإله صُلب وقتل، ثم أحرقت جثته فى ميدان عام، وأيضاً نورى السعيد، وإن صح ذلك فالثورة إذن ثورة دماء قبل أن تكون ثورة مبادئ . . . فلنصل من أجل فيصل أن يرحمه الله، ولنصل جميعا من أجل الثورة لكي تكون بيضاء من أجل العراق وشعب العراق» (٧٧).

٢ - موقف الأحزاب والرأى العام السودانى من الثورة العراقية:

مما لاشك فيه أن الرأى العام فى أى دولة يستطيع التأثير - إلى حد كبير - على الحكومات فى اتخاذ بعض القرارات التى تمس ميولـه وعواطفه، حتى فى الدول التى تتصف بالديكتاتورية، وفيما يختص بالرأى العام السوداني وموقفه من الثورة العراقية، فقد أكدت التقارير على أن الرأى العام السوداني رحب ترحيباً كبيراً بأحداث الثورة، فما كادت تصل إلى السودان أنباء ثورة العراق ونجاحها وإعلان الجمهورية حتى أخذ الرأى العام السوداني يطالب حكومته بضرورة الإسراع فى الاعتراف بها، وأخذت طوائفه المختلفة تعبر عن تلك الرغبة بشتى الطرق، لأن هذه الجمهورية الناشئة - فى نظرها - «أضحت حقيقة ملموسة ثابتة لا مجال للمناقشة فى أمرها» (٧٨).

أما عن موقف الأحزاب السودانية والمستقلين فقد باركوا جميعاً - عدا حزب الأمة - هذه الثورة، فالمستقلون أعلنوا استياءهم من الحكومة لترددها وتباطؤها فى

الاعتراف بالوضع الجديد وحكومة الجمهورية العراقية، وذكروا «أنه طالما أن هذه الثورة قد نجحت فلا داعي لتباطؤ حكومة الجمهورية السودانية فى الاعتراف بالجمهورية الجديدة، وطالما أن الشعب السوداني يؤيد عن بكرة أبيه قيام جمهورية العراق، فعلى الحكومة أن تسارع إلى التعبير عن هذا التأييد، تعبيراً علنياً وذلك بالاعتراف فورا بالجمهورية العراقية الفتية» (٧٩).

أما الحزب الوطني الاتحادى فقذ صرح السيد إسماعيل الأزهرى رئيس الحزب أن حزبه يبارك الثورة العراقية «ويتمنى التوفيق والسداد لتحقيق أماني شعب العراق الشقيق فى الحرية والرخاء» (٨٠). كما عقدت الهيئة البرلمانية للحزب اجتماعاً أقرت فيه الاعتراف بالجمهورية العراقية، وأرسلت برقية تهنئة إلى مجلس السيادة العراقي، ودعت إلى الاتصال بالأحزاب الأخرى لمطالبة الحكومة بالاعتراف بالجمهورية العراقية.(٨١)

وعن موقف حزب الشعب الديموقراطي (أحد أحزاب الائتلاف) فقد صرح السيد على عبد الرحمن رئيس الحزب بأن كثيرين كانوا يُنبئون بأن شيئاً ما فى العراق لابد أن يحدث، لأن أسلوب الحكم هناك كان ينطوى على الكثير من وسائل الضغط والكبت . . . ثم مضى قائلاً «إنى أعتقد أن ما حدث فى العراق إنما هو الانتفاضة الأخيرة للتخلص من رواسب الاستعمار» (٨٢).

كما أدلى السيد (استانسلاوس بيا ساما) رئيس حزب الأحرار الجنوبى ببيان للصحف وقال فيه إن الجيش العراقي لم يقم بانقلابه الأخير إلا بعد أن وجد نفسه مضطرا إلى ذلك . . . ثم قال «إنه يأمل أن تعترف حكومة السودان بالجمهورية العراقية العربية مادامت أصبحت حقيقة قائمة لا يمكن إنكارها» (٨٣).

أما الجبهة المعادية للاستعمار، فقد عقدت إجتماعا يوم الأحد ٢٠ / ٧ / ١٩٥٨ لنصرة ثورة العراق والاحتجاج على حوادث الأردن ولبنان، ولمطالبة الحكومة بسرعة الاعتراف بحكومة الجمهورية العراقية (٨٤).

أما حزب الأمة - وهو الحزب الأكبر فى الائتلاف الحاكم - فقد واجه موقفاً صعباً إزاء الاعتراف بالجمهورية العراقية، حيث طالب تسعة عشر نائباً من أعضاء حزب الشعب - ثاني أحزاب الائتلاف - من زعيم الحزب الشيخ «على عبد الرحمن» بوجوب وقوف الحزب موقفاً حازماً من حزب الأمة، حتى لو أدى ذلك إلى فض الائتلاف. (٨٥)

وقد أصدر حزب الأمة بيانا دعا فيه إلى التريث قليلاً قبل إعلان اعترافه بحكومة الثورة فى العراق، وذلك ريثما تتجمع لديه المعلومات الكافية لإصدار مثل هذا القرار.. معرباً عن ترحيبه سلفاً بالنظام والحكومة اللذين يرتضيهما شعب العراق، وأن سياسته الأصلية تقوم على احترام رغبات الشعوب (٨٦). كما أوحى حزب الأمة إلى الحكومة باتخاذ بعض الإجراءات الوقائية كالرقابة على الضباط الاتحاديين، والضباط السودانيين الذين نقلوا من الجيش المصرى إلى الجيش السودانى (٨٧). خوفا من أن يحدث فى السودان ما حدث فى العراق.

هذا عن موقف الرأى العام والمستقلين والأحزاب السودانية من الثورة العراقية، وهو موقف - كما ذكرت - مؤيد للثورة، طالبت فيه جميع القوى والأحزاب الحكومة بضرورة اتخاذ قرار فورى بالاعتراف بالنظام الجديد فى العراق، ولم يشذ عن هذا الاتجاه سوى حزب الأمة.

٣- موقف الحكومة السودانية من الثورة العراقية

كانت الحكومة السودانية - كما رأينا - تسير على طريق التعاون مع نظيرتها العـراقية، ولذلك فما أن قامت الثورة العراقية إلا وأعرب رئيس الحكومة السودانية «عبد الله خليل» عن أسفه الشديد على ما حدث فى العراق (٨٨).

وقد انقسمت الحكومة الائتلافية ممثلة فى حزب الأمة وحزب الشعب على نفسها حيال الثورة العراقية، فريق موالٍ للغرب يتزعمه عبد الله خليل ومحمد الخليفة شريف، وفريق انتهج سياسة الحياد وتزعمه عبد الرحمن عبد الله، حيث أعلن الفريق

الثاني ضرورة التريث قليلا فى مسألة الاعتراف بحكومة الثورة فى العراق حتى ينجلى الموقف، ومراعاة - أيضاً - لشعور الملك حسين الذى يدعى بأن العراق جزء من الاتحاد العربى [٨٩].

ومن ناحية أخرى اجتمع ممثلو الجناح الموالى للغرب بزعامة عبد الله خليل فى ١٩/ ٧ / ١٩٥٨ وقرروا ما يلى :

١- إنه فى حالة قيام حرب فعلى السودان أن يقف على الحياد بعض الوقت.

٢- عدم الاعتراف برجال الثورة العراقية والعمل داخل صفوف الحزب لكيلا تعترف حكومة السودان بالجمهورية العراقية. [٩٠]

وإلى جانب ذلك نسبت بعض التصريحات إلى رئيس وزراء السودان عبد الله خليل بشأن أحداث العراق ولبنان، وقد أحدثت تلك التصريحات ردود أفعال غاضبة فى الشارع السودانى، وكان التصريح الذى نسب للسيد عبد الله خليل يقول إنه حينما علم من السفير الأمريكى بالخرطوم بنزول القوات الأمريكية فى بيروت، قال رئيس الوزراء لمندوب وكالة الأنباء العربية «بأن هذه الأنباء سارة للغاية، وإنها نقطة التحول فى الأزمة الخطيرة الراهنة، وإنه ما زال مستعداً للشروع فى زيارته المؤجلة إلى لندن بمجرد انجلاء الموقف وإعلان قرارات دول حلف بغداد»، وقد وصف عبد الله خليل فى تصريحاته الأنباء القائلة بأن موضوع الاعتراف بحكومة الثورة فى العراق هو قيد النظر بأنه محض افتراء، كما كذب الأنباء القائلة بأن حكومة الثورة فى العراق قد أبلغت السودان بوقوع الانقلاب، واختتم رئيس الوزراء تصريحاته قائلاً «بأنه كان يراقب بمزيد من الاهتمام استعدادات الأسطول البريطانى والقوات العسكرية، وأنه جد متفائل حول التطورات المقبلة»[٩١].

وقد أثار هذا التصريح موجه سخط شديدة فى جميع الأوساط السودانية، وعلقت عليه معظم الصحف، وطالبت تنحية عبد الله خليل عن الحكم، وتعرض رئيس الوزراء إلى هجوم عنيف من بعض نواب حزب الأمة [٩٢]. فما كان من عبد الله خليل إلا أن أصدر بيانا يكذب فيه ما جاء فى وكالة الأنباء العربية، وقد تم نشر البيان بمعرفة الهيئة

البرلمانية لحزب الأمة، التى ذكرت فيه «أنه ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن ما نسب إلى السيد عبد الله خليل غير صحيح وفيه روح الدس، بما لا يتفق ومصالح السودان، وسياسة حزب الأمة الأساسية الأصيلة، التى أعلنها ويعيش من أجل تحقيقها . . . ومادام التصريح المدسوس يدور حول السياسة الخارجية فإن الهيئة البرلمانية ترى وجوبا عليها، أن تعلن على الشعب السوداني الكريم سياسة الحزب الخارجية التى لم يحيد عنها لاقتناعه بأنها الضمان الوحيد لصيانة استقلال ومصالح هذه البلاد».[٩٣]

وكخطوة فى سبيل الحصول على تأييد الحكومة السودانية، سلمت السفارة العراقية فى الخرطوم مذكرة إلى وزارة الخارجية السودانية بتاريخ ١٩٥٨/٧/٢٠ أوضحت فيها ولاء السفارة للنظام القائم فى العراق، وبتلقيها أول قرار خارجي اتخذته الثورة بالتحلل من الاتحاد العربى [٩٤].

ونتيجة لذلك، ونتيجة أيضاً للضغط الحزبي والشعبي فى السودان، لم تجد الحكومة بداً من الاعتراف بالجمهورية العراقية، وأبلغ ذلك للسفارة العراقية بالخرطوم وزير الخارجية، كما أرسل رئيس مجلس السيادة السوداني إلى رئيس مجلس السيادة العراقي برقية ضمنها اعتراف حكومته بالحكومة العراقية، وأخطرت وزارة خارجية السودان رؤساء البعثات الدبلوماسية السودانية فى الخارج باعترافها بحكومة الثورة العراقية [٩٥].

وقد عللت الحكومة السودانية سبب تأخرها فى إعلان الاعتراف بالثورة العراقية بما يلي:

١- لأن حكومة الثورة لم تخطر حكومة السودان بقيامها واستقرار الأمور لها.

٢- لأن سفارة السودان ببغداد لم تكن فى مركز يسمح لها بإرسال التقارير التى تمكنها من الوقوف على حقيقة الحال فى العراق بسبب قطع المواصلات بين بغداد والخارج.

٣- لأن القائم بأعمال السفير العراقي فى السودان لم تصله المعلومات والتعليمات التى تمكنه من تحديد مركزه وإخطار الحكومة بذلك.

٤- لأنه لم يصل من الحكومة العراقية إلى نظيرتها السودانية ما يفيد باعتماد هذا القائم بأعمال السفير أو عزله وتقديم سفير خلافه.

٥- لأنه ليس مما يليق بحكومة مسئولة أن تقدم على الاعتراف تحت مثل كل هذه الظروف (٩٦).

ومهما يكن من أمر، فإن قرار الحكومة السودانية الاعتراف بحكومة الثورة فى العراق لاقى استحساناً لدى الرأى العام السوداني، وعبر عنه أحد الساسة بقوله «إن اعتراف الحكومة يعتبر خطوة طيبة لتلتقى الحكومة السودانية مع الشعب السوداني والشعوب العربية «وعبر السياسيون عن أملهم» بأن تتبعها خطوات أخرى نحو سياسة عربية خالصة تقوم على المودة والإخلاص بين الشعوب العربية والسودان» (٩٧).

وقد سعت الحكومة السودانية عقب الاعتراف بحكومة الثورة العراقية إلى محاولة توفيق وجهات النظر بينها وبين العراق والأردن ولبنان، وقد أوفد عبد الله خليل رئيس الوزراء السيد زين العابدين صالح عضو مجلس الشيوخ السوداني إلى لبنان والأردن والعراق لهذا الغرض، وحتي تكون آراء هذه الدول موحدة داخل الجامعة العربية كما كانت فى سالف الأيام قبل التغيير الذى حدث فى العراق ولبنان(٩٨).

مما سبق يتضح أنه كان لأحداث العراق أثرها وصداها فى جميع الأوساط السودانية، فكانت الأحزاب الاتحادية والمستقلة والمعادية للاستعمار، فضلا عن الرأى العام السوداني فرحة مبتهجة لتلك الأحداث وإعلان الجمهورية فى العراق، آسفين لأنباء لبنان، ساخطين على الاعتداء الأمريكي على لبنان ودخول القوات الأمريكية واحتلالها ميناء ومطار بيروت، أما الحكومة السودانية الائتلافية - حزب الأمة وحزب الشعب - وعلى رأسها عبد الله خليل - وخاصة حزب الأمة - فقد تكشف موقفها للسودانيين، وكانت فى موقف لا تحسد عليه، ولكن الأحداث أجبرتها فى نهاية الأمر على الاعتراف بالحكومة العراقية الجديدة، وكان ذلك نتيجة للضغط الشعبي والحزبي الجارف داخل السودان.

ز- موقف مصر من التقارب العراقى السودانى

مما هو جدير بالذكر، أن السودان من الأهمية بمكان بالنسبة لمصر فى شتى المجالات - السياسية والعسكرية والاقتصادية - وإن أى تحول فى السياسة السودانية تجاه مصر لابد وأن يكون له مردوده داخل أروقة السياسة المصرية، ومن هذا المنطلق كان اهتمام مصر البالغ بالتقارب العراقي السوداني، فمنذ اللحظات الأولى لهذا التقارب، بدأت مصر فى تتبع ذلك الأمر لاتخاذ الخطوات الملائمة، خشية جر السودان إلى معسكر العراق الذى يمثل فى نظر مصر المعسكر الغربي الاستعماري.

ففي إشارة أولية لهذا التقارب، حصلت السفارة المصرية ببغداد على برقية من السفير العراقي بالقاهرة إلى الخارجية العراقية، رداً على برقية كانت قد بعثت بها الأخيرة إليه، للنظر فى ماهية العلائق القائمة بين العراق والسودان والحكومة الليبية آنذاك، فأجابها السفير العراقي فى برقيته قائلاً « أؤكد أن الوضع القائم الآن بين مصر والسعودية وسوريا من ناحية، وبين العراق من ناحية أخري، لا أثر له فى كل من ليبيا والسودان، وقد لمست العلاقات الحسنة والأثر الطيب الذى يحتله العراق فى السودان، وقد صرح لي بذلك رجال لهم أهميتهم السياسية الرسمية - يقصد فى السودان - ورجال السياسة العامة الذين يمارسون النشاط الحزبي فى هذا القطر العربى، إن الشعب السوداني والحكومة السودانية كلاهما مؤيد لسياستنا العامة، راغب فى التعاون معنا، شاعر بأهميتنا الدولية . . . وقد تقدمت إلى الحكومتين السودانية والليبية باقتراح إرسال وفود عسكرية وثقافية واقتصادية إلى العراق . . . وقد لاقى هذا الاقتراح تأييداً تاماً، فقد وافقت الحكومة السودانية على إرسال عشرة من الطلاب السودانيين للدراسة فى المعاهد العراقية»(٩٩).

وقد قامت الخارجية المصرية على الفور بالتحقق من أمر ما جاء فى برقية السفير العراقي بالقاهرة إلى خارجيته، حيث أرسلت الخارجية المصرية إلى وزير مصر المفوض بالخرطوم تخبره بما جاء فى البرقية سالفة الذكر، وتطلب موافاتها بما يمكن الحصول عليه من معلومات فى هذا الشأن(١٠٠).

وقد تابعت السفارتان المصريتان فى بغداد والخرطوم نشاط العراق فى السودان وإرسال التقارير إلى الخارجية المصرية لاتخاذ ما تراه مناسباً من إجراءات فى هذا الشأن، ففي الخرطوم تابع مكتب المخابرات الجوية نشاط القائم بأعمال السفارة العراقية بالخرطوم، الذى سعى لدى عبد الله خليل رئيس الوزراء - عن طريق محمد الخليفة شريف أحد أعضاء حزب الأمة - للعمل على التعاون العراقي السوداني، فاخبره محمد الخليفة شريف، إن الوقت لم يحن بعد نظراً لتغلغل النفوذ المصرى فى السودان والذى يقف كعائق فى سبيل هذا التقارب، وخاصة فى وجود خبير الرى المصرى فى السودان والذى يعتبر حكومة داخل حكومة، وطمأنه بأنه بعد الانتهاء من النفوذ المصرى لن يكون أمام السودان سوى أن يتعاون مع العراق(١٠١).

ومحاولة منه لتتبع محاولات التغلغل العراقي فى السودان، كتب السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» تقريراً شاملاً حول هذا الموقف، وما يجب على مصر عمله حتى لا تقع السودان فى حبائل الدعاية العراقية، فبدأ السفير حديثه مشيراً إلى تصريح كان قد أدلى به الرئيس جمال عبد الناصر إلى إسماعيل الأزهرى عند زيارته لمصر فى أبريل عام ١٩٥٦ «إن مصر تلتزم الحياد بين الأحزاب السياسية، وسوف لا تحيد عن هذه السياسة أبداً مادام السودانيون يسيرون فى طريق تدعيم استقلالهم، أما إذا أحست مصر بأن فريقاً من السودانيين يعمل من أجل التمكين للنفوذ الأجنبى فى السودان، فإنها لن تقف مكتوفة اليد، وإنما سوف تتدخل بما يصون للسودان استقلاله»(١٠٢). ثم ذكر السفير بأن هذه السياسة قد أتت ثمارها إلى ما بعد العدوان الثلاثي على مصر ثم تساءل «هل تظل مصر ملتزمة بموقف الحياد المطلق فى الوقت الذى دخلت فيه الميدان السياسي قوى خارجية تحاول أن تجذب السودان إلى الغرب وإلى المحالفات العسكرية؟»(١٠٣). مشيرا فى ذلك إلى العراق، ومن ورائه الولايات المتحدة وبريطانيا، حيث ذكر أن تلك الدول وخاصة العراق قد بدأت فى حملة كبيرة للتأثير على الرأى العام والسير به بعيداً عن نطاق التحرر العربى، وأوضح أن هذه الحملة

للأسف الشديد قد وجدت صدى فى نفوس أقطاب حزب الأمة، كما أنها تحاول إغراء الأحزاب ذات الميول المصرية المحتاجة للمال كالشعب الديموقراطى(١٠٤). ثم أضاف السفير قائلا بأنه إذا كانت مصر ترى أن تقف مع كل هذا على الحياد المطلق، فإنه يرى أن تعمل بطريق غير مباشر بواسطة السفارة، فلا تغلق كل الأبواب فى وجوه بعض الأحزاب والشخصيات السودانية الموالية لمصر، وأن توحي مصر إلى سوريا، أو المملكة العربية السعودية - مثلاً - من أجل تدعيم سفارتها فى الخرطوم، وإلى مساعدة من ترى مساعدته من الأحزاب أو الشخصيات ممن تتعهد وتعلن وقوفها بعيداً عن الأحلاف والتزام الحياد الإيجابى، ومن يبدى استعداده لعقد تحالف ثنائى، إن لم يكن مع مصر فمع سوريا أو المملكة العربية السعودية، ولا مانع أن تقوم مصر بسداد ما قد يدفعونه على أن تظل مصر ملتزمة - فى الوقت ذاته - بموقف الحياد، وأن تعمل من بعيد لتحقيق هذه الأهداف(١٠٥).

وفى ذات التقرير نصح السفير الوزارة بأنه لو أقفلت أبواب مصر وأبواب الدول الموالية لها، فقد تضطر الحكومة أو الأحزاب - السودانية - إلى قبول قروض أو مساعدات اقتصادية من العراق الذى تقف وراءه إنجلترا، ولا يمكن أن يعاب على مثل هذه الحكومة أنها تحصل على معونات من دولة عربية مثلها، كما أنها قد تضطر - وهذا غير مستبعد أبداً - إلى قبول المعونة الأمريكية بحجة النهوض باقتصادياتها، طالما أنها غير مقيدة بشرط، وستكون هذه هى البداية لزيادة ترابط السودان بالغرب(١٠٦).

وفى نهاية التقرير، تساءل السفير عما إذا كان الموقف كما أوضحه «بما ينطبق عليه قول السيد الرئيس من أن مصر لن تقف مكتوفة اليد إذا ما أحست بأن هناك فريقاً من السودانيين يعمل من أجل التمكين للنفوذ الأجنبي فى السودان»، وإنه إذا كان الأمر كذلك «فهل آن الأوان لإعادة بحث موقف مصر للوصول إلى الطريقة التى تحول دون تجاوبهم واستجابتهم للغرب؟» (١٠٧).

وقد علقت الخارجية المصرية على هذا التقرير بقولها «لا شك فى أن الأمر فى حاجة إلى دراسة عاجلة، قد يترتب عليها الإبقاء على سياسة الحياد أو تعديلها»(١٠٨).

وقد كان السفير المصرى محقا فى تخوفه من أن تسير الحكومة السودانية فى ركاب الغرب، إذ كان الغرب يسعى إلى ذلك، حيث أقرت مذكرة أعدها بعض موظفي وزارة الخارجية الأمريكية، بأن هدف الولايات المتحدة هو العمل على الحفاظ على استقرار السودان وتحويله تجاه السياسة الغربية (١٠٩).

وفى نفس التقرير أكد موظفو الخارجية الأمريكية على ضرورة أن تكون الحكومة الأمريكية مستعدة بصورة إيجابية للمطالب الاقتصادية والمساعدات الفنية التى ربما تنتج عن الزيارة المقبلة لبعثة التعاون الدولى International Cooperation Administration Mission إلى السودان(١١٠).

ولمواجهة تحركات الغرب - المحتملة - فى السودان، كانت مصر قد سعت فعلا لدى بعض الدول الموالية لها - سوريا والمملكة العربية السعودية - للضغط على الجانب السودانى حتى لا يتقرب من العراق والمعسكر الغربي بوجه عام، ففي لقاء بين السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» والشيخ «عبدالرحمن الحليسى» وزير المملكة العربية السعودية المفوض، أوضح الأخير أن المملكة العربية السعودية ستجعل من استثمار الأموال فى السودان شرطاً أساسياً هو عدم دخول السودان فى حلف بغداد، حيث أن جلالة الملك سعود أوصاه بالعمل على ذلك، ولذا فقد قال لعبد الله خليل بأن عليه زيارة المملكة العربية السعودية قبل سفره للعراق، «مخافة أن يجره نورى السعيد إلى الحلف وتضيع الفرصة» (١١١).

وقد استمرت مصر فى متابعة محاولات التقارب العراقي / السوداني حتى بُعيد قيام الثورة العراقية، وذلك من خلال التعاون مع حكومة الثورة العراقية، حيث أوضحت إدارة الشئون الأفريقية، أنه من المفيد اتصال سفارة ج.ع.م. فى بغداد بالسلطات العراقية كى توافيها بصفة ودية بما قد يعثر عليه من صور ومكاتبات أو وثائق أو مستندات أو ما

أدلى به كل من السيد فاضل الجمالي وزير الخارجية السابق، ويونس بحرى المذيع العراقي نظرا لصلتهما الوثيقة بالحكومة السودانية، لأن الأول كان فى زيارة للسودان فى أبريل ١٩٥٨، والثاني كان يقوم بالدعاية المضادة للجمهورية العربية المتحدة، إذ ربما يمكن العثور على مباحثات رسمية أو شبه رسمية بين السودان والعراق (١١٢).

ويُستدل مما سبق على أن الحكومة المصرية كانت تولي الأوضاع فى السودان من الاهتمام ما هو جدير به - آنذاك - خشية جره إلى الأحلاف الغربية بصفة عامة، وحلف بغداد بصفة خاصة، إذ كان العراق - آنذاك - يرى أن التقارب مع السودان مما يزعج مصر وهذا ما يريده، وكانت مصر ترى أن ابتعاد السودان عن مصر مما يضر بالمصالح المصرية، ولذلك سعت - الحكومة المصرية - جاهدة لإفشال هذا التقارب الذى كان يعني بالنسبة لها ضرراً بمصالحها، وقد نجحت - إلى حد ما - فى تحقيق أهدافها، فضلا عن قيام الثورة العراقية عام ١٩٥٨، مما أحدث تراجعاً فى السياسة السودانية، والعودة بها إلى التقارب مع مصر مرة أخرى، وهو الأمر الطبيعى.

ومهما يكن من أمر، فقد بدأت العلاقات السودانية المصرية فى التحسن التدريجي بعد الثورة العراقية، إذ أدرك الساسة الذين كانوا يؤيدون التقارب مع العراق أنه لا مفر من مسايرة السياسة المصرية، وكان على رأس الداعين لهذا الاتجاه عدد لا بأس به من قادة حزب الأمة الحاكم فى السودان، ومن بينهم السيد «الصديق المهدي» الذى أخذ يردد فى كل مجالسه ومقابلاته حرصه الشديد على توثيق العلاقات مع ج. ع. م.، وعلى رغبته فى حل المسائل المعلقة بين البلدين على النحو الذى يكفل صالح البلدين، ويسأل عن الطريق الذى يمكن أن يسلكه لتحقيق هذه الرغبة التى أصبحت ضرورة (١١٣).

كما نشرت جريدة الأيام - وهي معروفة بميولها الغربية - مقالاً ذكرت فيه «أنه لا استقرار للحكم فى السودان إلا إذا تم حل المسائل المعلقة بين مصر والسودان، حتى ولو ضحى السودان ببعض حقوقه» (١١٤).

وفى لقائه بالقائم بالأعمال المصرى بالنيابة بالخرطوم «يحيى عبد القادر» قال السيد بشير محمد سعيد نقيب الصحفيين السودانيين وصاحب جريدة الأيام، إنه يعتقد أن هذا الوقت هو أنسب وقت لنجاح المفاوضات فى القضايا المعلقة بين مصر والسودان، وأن أهم الأسباب - فى نظره - هو أحداث العراق، حيث جعلت هذه الأحداث الحكومة والرأى العام السوداني يشعر بأنه لا استقرار إلا إذا ما تحسنت العلاقات مع ج.ع.م. (١١٥).

ومما سبق يتضح أن العلاقات المصرية السودانية دائما ما يكون مآلها إلى التقارب والتفاهم والعلاقات الطيبة، وإن ما عدا ذلك من أمور فيعد من باب «الطوارئ» وسرعان ما تزول هذه «الطوارئ» وتبقى العلاقات الطيبة بين البلدين، لأن ما يربط مصر والسودان أقوى من المصالح. ومن هذا المنطلق يتبادر إلى الذهن سؤال وهو: هل كان التقارب العراقى السودانى للمصلحة العامة للدول العربية أم لمصلحة قُطرية؟ .

قبيل الإجابة عن هذا السؤال يجب أن نقرر شيئا مهماً وهو، أن أى تقارب بين دولتين عربيتين لا يمكن أن يُزعج أى دولة أخرى ما دام هذا التقارب سوف يؤدى فى النهاية إلى مصلحة الأمة العربية جمعاء، وأما أن يكون هذا التقارب لمصلحة قُطرية أو لمصلحة فئة دون غيرها وللإضرار بقطر آخر من الأقطار العربية فهذا ما لا نقبله أو نرضى به، وعلى هذا، فإن التقارب العراقي السوداني يقيناً كان من باب المصلحة القُطرية وليست المصلحة العربية العامة، وكان هدف هذا التقارب معروفاً وواضحاً وهو محاولة إبعاد السودان عن مصر، وإدخاله فى دائرة الأحلاف الغربية، وحتى لا يبقى العراق هو البلد العربي الوحيد فى حلف بغداد، وعلى ذلك، فإن هدف العراق الأساسي - كان - إبعاد السودان عن محور مصر، السعودية، سوريا، وضمه إلى حلف بغداد، ومما يدل على ذلك ما دار من نقاش أثناء جلسة مجلس الوزراء السوداني فى ٢/ ٧/ ١٩٥٦، وحينما تطرق المجلس إلى مشكلة العملة - ربط الجنية السودانى بالجنية المصرى - والعروض التى قدمتها مصر بهذا الشان، قال ميرغنى حمزة إن الملك فيصل الثانى عرض عليه

مساعدة العراق، فاعترض عليه وزير الخارجية - آنذاك - مبارك زروق بأن ذلك سوف يؤدى إلى إدخال السودان حلف بغداد بصورة غير مباشرة. (١١٦)

وعلى جانب آخر، نجد أن الحكومة السودانية نفسها أرادت أن تنتفع من التنافس المصرى العراقى قدر المستطاع، إذ يذكر عبد الله خليل رئيس الوزراء فى لقائه مع الملحق العسكرى بالسفارة المصرية بالخرطوم، «إن العراق لديه أموال وأن السودان يريد هذه الأموال لتمويل مشروعاته الزراعية والاقتصادية» (١١٧). ويؤكد على ذلك سفير السودان فى البلاد العربية «جمال محمد أحمد» إذ نصح حكومته بأن تنتفع بالأوضاع السياسية الموجودة على الساحة العربية، خاصة أثناء زيارة رئيس الوزراء السوداني للعراق، فيذكر «إن الشىء الذى يمكننا الانتفاع به فى الوقت الحاضر هو استغلال موقف نورى السعيد الشخصى فى العراق، إنه صاحب أكبر نفوذ فى بلده، ولن يصعب عليه مطلقا أن يوعز لبعض الرأسماليين أن يستغلوا بعض أموالهم فى الزراعة فى السودان»(١١٨).

مما سبق يتضح أن المصلحة كانت المحرك الرئيسى فى مسالة التقارب العراقي السوداني، وهي مصالح تخص الطرفين فقط، دون أن يوضع فى الاعتبار المصلحة العامة للأمة العربية بأسرها، فالعراق كان يبحث عن زميل فى المجموعة العربية لكى يلحق به فى حلف بغداد، بينما كان السودان يبحث عن بديل لمصر فى تمويل مشروعاته الاقتصادية، حتى يخلع عن نفسه عباءة السياسة المصرية وليشعر باستقلاليته التى حصل عليها مؤخرا.

الخاتـمة

من خلال دراستنا لموضوع مصر فى العلاقات العراقية السودانية من عام ١٩٥٥ حتي عام ١٩٥٨ تبين لنا عدة أمور:

- إن حلف بغداد كان أكبر محاور هذا التقارب، وأن اهتمام العراق الأكبر بالسودان يرجع فى المقام الأول إلى محاولة ضم السودان إلى الحلف، فضلاً عن إبعاد السودان عن مصر وحلفائها.

- إن الدوافع التى دفعت السودان إلى طريق التقارب مع العراق، كانت دوافع ذات صبغة مصلحية، إذ إن السودان كان ينظر إلى العراق كبديل لمصر فى تمويل مشروعاته التنموية وحتى يتحرر من قيود السياسة المصرية.

- إن التقارب العراقي السوداني لم يقدر له النجاح نتيجة لوقوف مصر فى طريق ذلك التقارب خوفاً على مصالحها، ونظراً لوجود جبهة سودانية داخلية موالية لمصر تعمل ضد ذلك التقارب، حيث أدركت أن مآله فى النهاية هو جر السودان إلى الأحلاف الغربية.

ويقينى أن العراق لم يتحرك فى هذا الاتجاه إلا نكاية فى مصر، وبتحريض من القوى الغربية الكبرى، التى كان يزعجها الدعاية المصرية ضد حلف بغداد، وضد كل ما هو غربي، وخاصة نورى السعيد حليف الغرب القوى فى المنطقة، فحتى قبيل محاولة التقارب العراقى السودانى، كانت بريطانيا تقف موقف المدافع عن نورى السعيد وسياسته، وتذكر المصادر، أنه حينما ذهب وفد سودانى إلى العراق، وكان من بين أفراد الوفد « الطيب محمد خير» سكرتير ثان الحزب الاتحادى، الذى أحرج نورى السعيد، حيث طعن فى الحلف العراقي التركى، احتجت الخارجية البريطانية لدى حكومة الأزهرى لهذا المسلك، وطالبت الحزب الاتحادى باتخاذ إجراءات سريعة ضد الطيب محمد خير، يكون فيها ترضية كافية لنورى السعيد وحكومته، وإلا تعتبر الحكومة

البريطانية، إن أقوال وتصريحات الطيب محمد خير صادرة عن الحزب الاتحادي، وتساءلت، هل هو يتحدث باسم الحكومة؟ أم أن مصر هي التى دفعته لهذا كله حتى يحرج السيد نورى السعيد؟ (١١٩).

وقد بعثت الحكومة السودانية برد إلى نظيرتها البريطانية بتاريخ ١٥/٥/ ١٩٥٥ تعلن «إن الطيب محمد خير لم تكن له صفة رسمية، ولم يتحدث باسم الحكومة، ولا تدرى الحكومة إن كان يتصل بمصر أم لا». (١٢٠)

وبعد ذلك اتجهت السياسة البريطانية إلى تركيز نشاطها فى السودان لتجعل منه شوكة فى جنب مصر، وقد عمدت إلى تلك السياسة بالسيطرة على حزب الأمة، كما قامت بتنفيذ تلك السياسة السفارة العراقية فى الخرطوم، وكان الهدف من ذلك - كما تذكر التقارير - «هو الحيلولة دون سير السودان فى سياسة خارجية موحدة مع مصر، ودون ربط الجنيه السودانى بالجنيه المصرى» (١٢١). وقد أمكن للإنجليز عن طريق بعض موظفي الداخلية، والتجارة - السودانيين - الموالين لهم، عرقلة مصالح كثير من المصريين، بل ومنعهم من دخول السودان، كما تمكنوا - إلى حد ما - من تقريب العراق من السودان، ونجحت هذه المحاولات، وسافر رئيس وزراء السودان إلى العراق، واتفق على دخول رؤوس أموال عراقية، ومدرسين عراقيين، وكل هذا كان موجهاً ضد مصر (١٢٢).

ومن ناحية أخرى زار السفير الأمريكي بالخرطوم رئيس مجلس الوزراء السوداني «عبد الله خليل» وأوضح له بأن الولايات المتحدة على استعداد تام لتسليح الجيش السوداني بأحدث الأسلحة، كما شكك السفير الأمريكي فى جدوى هدية الأسلحة التى أرسلتها مصر سابقاً للجيش السودانى، ووصفها بأنها «غير صالحة وقديمة»(١٢٣). ويُعد هذا ضرباً من ضروب السياسة الغربية الرامية إلى إبعاد السودان عن مصر، ومحاولة جر السودان إلى الغرب عن طريق العراق، ومما يدل على ذلك أن معظم التقارير - المصرية - كانت تؤكد على أن السفارة العراقية بالخرطوم كانت هى المنفذ للسياسة

الإنجليزية بالسودان، وأنهم كانوا يقومون بذلك العمل حتى لا يحرج من يتصلون بالسفارة الإنجليزية – من السودانيين – باتهامهم بالعمل مع الإنجليز .

ومما يؤكد – أيضاً – على أن أهداف الغرب هو إبعاد السودان عن السياسة المصرية بأى وسيلة، فإنه حينما فشل فى تحقيق ذلك عن طريق العراق، وعقب الثورة العراقية، وحينما انعقد مؤتمر الأمن القومي الأمريكي فى واشنطن فى ٤ نوفمبر ١٩٥٨، أكد المؤتمرون على ضرورة العمل على إبعاد السودان عن سيطرة ج.ع.م.،وفى موضع آخر من نفس التقرير ذكر المؤتمرون أنه «يجب السعي لتوثيق العلاقات بين السودان والدول الأفريقية الصديقة وخاصة أثيوبيا»(١٢٤). وهذا يؤيد ما ذهبتُ إليه بأن الغرب كان المحرك للتقريب بين العراق والسودان على حساب العلاقات المصرية السودانية، وحينما فشل العراق فى ذلك ولىَّ الغرب وجهه شطر أفريقيا عله يجد من الدول «الصديقة» من تساعده فى أداء هذه المهمة.

ومهما يكن من أمر، فإن النتيجة النهائية التى انتهت إليها تلك المحاولات – فى تلك الحقبة – هي فشل التقارب العراقى السودانى – الذى كان يتم على حساب مصر– وعودة العلاقات الطيبة – تدريجياً – بين مصر والسودان، فكما ذكرت آنفاً أن الأمر الطبيعي فى العلاقات المصرية السودانية هو العلاقات الطيبة الودية، لأن ما بين البلدين أقوى وأكبر من المصالح، أما ما عدا ذلك فهو من باب العوارض، التى سرعان ما تزول، فيعود الأمر إلى طبيعته مرة أخرى.

وثمة أمر هام قد عجل بعودة العلاقات الطيبة بين مصر والسودان ألا وهو الانقلاب العسكرى الذى قام فى السودان فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ بقيادة الفريق إبراهيم عبود الذى أعاد المياه إلى مجاريها فى العلاقات المصرية السودانية.

الهوامش

١- وثائق الخارجية المصرية: محفظة ٢٨٩ ملف ٤١ سرى جديد ٥٦/ ٥٧ جـ١ «ملخصات تقارير المخابرات الجوية» ملخص تقارير السودان عن المدة من ٧ -١٤ / ١ / ١٩٥٦ من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية «قائد جناح عصام الدين محمود خليل» إلى اليوزباشى «محمد أبو نار» مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان سرى جداً برقم ١٨ / ١ (٢٢) / ٥٦ بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٦م.

٢- للتفاصيل يُنظر وثائق الخارجية المصرية: محفظة ٢٩١ ملف ٤٠ سرى جدا ٥٦ / ١٩٥٧ جـ٣ تقارير المخابرات الجوية، تقارير المجموعة الأولى الخاصة بالسودان، التقرير رقم (١) ، (٣) بتاريخ ٣/١٧ - ٢٠ / ٣ / ١٩٥٦، من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح عصام الدين محمود خليل إلى اليوزباشى «محمد أبو نار» مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان سرى جداً بتاريخ ٢١/ ٣ ، ٢٦ / ٣ / ١٩٥٦ برقم ١/١٨ (٦٢) / ١٩٥٦م، رقم ١/١٨ (٦٤) / ٥٦.

٣- المصدر نفسه، محفظة ١١٥٠ ملف ٦٩/ ٥/ ٦ «العلاقات السياسية بين السودان والدول العربية» مذكرة أعدها قسم المعلومات بإدارة الأبحاث بوزارة الخارجية بشأن «تقرب الحكومة العراقية للسودان» برقم ١٩٨٩ / سرى بتاريخ ٣/ ٣/ ١٩٥٦.

٤- المصدر نفسه، نفس الملف والتقرير.

٥- المصدر نفسه، نفس الملف والتقرير، وجدير بالذكر أن الذى كان يمثل السودان فى العراق هو السيد جمال محمد أحمد وهو سفير متجول للسودان فى البلاد العربية (العراق ولبنان وسوريا). وكان أول سفير للعراق فى السودان هو السيد «نجيب الراوي» (يُنظر: محفظة ٢٩٦ ملف ٤١ سرى جدا لعام ٥٦ /١٩٥٧م جـ٣ ملخصات تقارير المخابرات الجوية ملخص رقم ٤٨ ، من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح عصام الدين محمود خليل إلى اليوزباشي «محمد أبو نار» مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان بتاريخ ٣٠/ ٦/ ١٩٥٦ برقم ١/١٨ (١٠٣)/٥٦ من تقارير السودان للفترة من أول يونيو ١٩٥٦ - ١٣ يونيو ١٩٥٦م.

٦- المصدر نفسه، محفظة ٣٢٠ ملف رقم ٤٠ سرى جدا ٥٦/ ٥٧ تقارير المخابرات الجوية، تقرير رقم ٣ عن السودان بتاريخ ٢٨/ ١/ ١٩٥٦ ، من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح عصام الدين محمود خليل إلى اليوزباشي «محمد أبو نار» مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان برقم ١٨ / ١ (٢٣) / ٥٦ بتاريخ ٣٠ / ١ / ١٩٥٦ سرى جداً.

٧- المصدر نفسه، محفظة رقم ١١٥٠ ملف ٦٩/ ٥/ ٦ «العلاقات السياسية بين السودان والدول العربية» من السفير المصرى ببغداد «توفيق إسماعيل قطامش» إلى وكيل وزارة الخارجية الدائم بشأن «حضور بعض السودانيين إلى العراق فى احتفالات الإعمار» سرى للغاية برقم ١٤٢ بتاريخ ١٢/ ٤/ ١٩٥٦م.

٨- المصدر نفسه، محفظة ٢٩٧ ملف ٤١ سرى جدا ٥٦/ ٥٧ جـ ٦ «ملخصات تقارير المخابرات الجوية» ملخص رقم ٦٢ عن السودان الفترة من ٢/١٦ - ٣٠-١٢-١٩٥٦م ، من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح عصام الدين محمود خليل إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية، وزارة الخارجية بالقصر الجمهوري، سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/١/١٧ برقم ٢/١٨ (١) /٥٧.

٩- المصدر نفسه، محفظة ٢٨٩ ملف ٤١ سرى جدا ٥٧/٥٦ جـ١ «ملخصات تقارير المخابرات الجوية» ملخص تقارير السودان فى الفترة من ٥٥/١٢/٣٠ - ٦-١-١٩٥٦، من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح عصام الدين محمود خليل إلى اليوزباشى «محمد أبو نار» مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان سرى جدا برقم ١٨ /١ (١٨)/٥٦ بتاريخ ١٩٥٦/١/٢٣

* – ولد عام ١٨٨٨، ودرس الهندسة بكلية غوردون، ثم التحق بالمدرسة الحربية السودانية، خدم بالجيش المصرى من عام ١٩١٠ حتى ١٩٢٤ ، ثم التحق بالجيش السودانى حتى عام ١٩٤٤، وكان أول سودانى يصل إلى رتبة الأميرالاى، وهو أحد مؤسسى حزب الأمة سنة ١٩٤٥، وقد عين سكرتيرا عاما للحزب، عُين رئيسًا للوزارة الإئتلافية التى أعقبت وزارة الأزهرى، وكان لا يميل إلى التعاون مع مصر ويميل إلى التعاون مع الدول الغربية ، يُنظر ترجمته فى / محفظة رقم (٢) السودان، ملف ٧٤٤/٨١/ ٢ جـ «التقارير السياسية للسفارة فى طهران».

١٠- المصدر نفسه، نفس الملف والتقرير

١١- المصدر نفسه، محفظة ٢٩٧ ملف ٤١ سرى جدا ٥٦/٥٧ جـ٦، ملخصات تقارير المخابرات الجوية - ملخص رقم ٦١ عن السودان الفترة من ١٢/٢ - ١٥-١٢-١٩٥٦ ، من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح عصام الدين محمود خليل إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية ــ وزارة الخارجية - القصر الجمهورى سرى جدا بتاريخ ٢٥ /١٢/١٩٥٦ برقم ١٨ /١/(١٨٨)/٥٦.

١٢- المصدر نفسه، نفس الملف والتقرير.

١٣- المصدر نفسه، ملخص رقم ٦٢ عن السودان الفترة من ١٦ - ١٩٥٦/١٢/٣٠م من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح عصام الدين محمود خليل إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية وزارة الخارجية - القصر الجمهورى سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/١/١٧ م برقم ٢/١٨/(١) /٥٧.

١٤- المصدر نفسه، ملخص رقم ٦٣ عن السودان، الفترة من أول يناير - ١٧/ يناير ١٩٥٧م، من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح عصام الدين محمود خليل إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية وزارة الخارجية - القصر الجمهورى سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/١/٢٩م، برقم ١٨ /٢/ (٢)/٥٧.

١٥- المصدر نفسه، نفس الملخص والتقرير.

١٦- محفظة رقم ٢٩٦ ملف ٤١ سرى جدا عام ٥٦/٥٧ جـ٣ «ملخصات تقارير المخابرات الجوية» ملخص رقم ٤٨ ، من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح عصام الدين محمود خليل إلى اليوزباشى «محمد أبو نار» مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان، بتاريخ ٣٠/ ٦/ ١٩٥٦م برقم ١٨/ ١ (١٠٣) /٥٦ من تقارير السودان للفترة من أول يونيو - ١٣/ يونيو ١٩٥٦م.

١٧- محفظة رقم ٢٩٧ ملف ٤١ سرى جدا ٥٦/٥٧ جـ٦ « ملخصات تقارير المخابرات الجوية» ملخص رقم ٦٢، عن السودان الفترة ١٦ - ١٩٥٦/١٢/٣٠ من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية، قائد جناح «عصام الدين محمود خليل» إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية وزارة الخارجية بالقصر الجمهورى سرى جداً بتاريخ ١٧/ ١/ ٥٧ برقم ١٨/ ٢/(١)/٥٧.

١٨- المصدر نفسه، نفس الملخص والتقرير.

١٩- المصدر نفسه، ملخص رقم ٦٤ عن السودان الفترة من ١/١٨ - أول فبراير ١٩٥٧ من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح عصام الدين محمود خليل إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية، وزارة الخارجية بالقصر الجمهورى، سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/٢/١٢ برقم ٢/١٨ (٣) / ٥٧.

٢٠- محفظة ٢٩٠ ملف ٤٠ سرى جدا ٥٦/٥٧ جـ ٨ تقارير المخابرات الجوية، تقارير المجموعة الثانية (٩٠) الخاصة بالسودان فى ١٦ / ٥/ ١٩٥٧ م التقرير رقم (٣) من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية بكباشي طيار «عصام الدين محمود خليل» إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية، ـ وزارة الخارجية ـ بالقصر الجمهورى، سرى جدا برقم ١١٨/(٣٦)/٥٧ بتاريخ ١٩٥٧/٥/٢٣م.

٢١- محفظة ٢٩٧ ملف ٤١ سرى جدا عام ٥٦/٥٧ جـ٧ «ملخصات تقارير المخابرات الجوية» ملخص رقم ٦٩ عن السودان الفترة من ٤/٢٥ - ١٩٥٧/٥/١٨ من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية بكباشي طيار « عصام الدين محمود خليل» إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية بوزارة الخارجية القصر الجمهورى، سرى جدا، بتاريخ ١٩٥٧/٥/٢٨ برقم ١٨/٢/(٨)/٥٧.

٢٢- محفظة ٢٩٠ ملف ٤٠ سرى جدا ٥٦/٥٧ جـ٨ تقارير المخابرات الجوية نفس التقرير السابق بنفس المصدر

٢٣- محفظة ٢٩٧ ملف ٤١ سرى جدا عام ٥٦/٥٧ جـ٧ ملخصات تقارير المخابرات الجوية، ملخص رقم ٦٧ عن السودان فى الفترة من ٢ مارس - ٢١ مارس ١٩٥٧ من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح «عصام الدين محمود خليل» إلى مدير إدارة الشئون الافريقية بوزارة الخارجية بالقصر الجمهوري، سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/٤/٦ برقم ٥٧/(٦)/٢/١٨.

٢٤- محفظة ٣١٩ ملف ١ سرى عام ٥٦/٥٧ جـ٣ «تقارير سياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» مذكرة من السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الخارجية، سرى جدا، بتاريخ ١٩٥٧/٣/٢٥ برقم ٥٨/٢٩٩

٢٥- محفظة ٢٩٧ ملف ٤١ سرى جدا عام ٥٦/٥٧ جـ٧ ملخصات تقارير المخابرات الجوية، ملخص رقم ٦٩ عن السودان، الفترة من ٤/٢٥ - ١٨-٥-١٩٥٧ من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية بكباشي طيار «عصام الدين محمود خليل» إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية بوزارة الخارجية بالقصر الجمهورى، سرى جدا، بتاريخ ١٩٥٧/٥/٢٨ برقم ٥٧/(٨)/٢/١٨

٢٦- محفظة ٣١٩ ملف ١ سرى عام ٥٦/٥٧ جـ١ تقارير سياسية للسفارة المصرية بالخرطوم، من السفير المصرى بالخرطوم لواء أ.ح «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وزير الداخلية بشان سفير العراق فى السودان سرى جدا بتاريخ ١٩٥٦/٥/٢٠ برقم ٢٩٤/١٠٢.

٢٧- المصدر نفسه جـ٣ تقرير من الملحق العسكرى بالسفارة المصرية بالخرطوم بالنيابة «جمال شعير» إلى السفير المصرى بالخرطوم برقم ٤٥/١/٣/١ بتاريخ ١٩٥٧/١/١١ سرى للغاية.

٢٨- المصدر نفسه، مذكرة من الملحق العسكرى المصرى بالخرطوم «محمد سعد الدين زايد» إلى السفير المصرى بالخرطوم برقم ١٧٠/١/٣/١ بتاريخ ١٩٥٧/٢/٨ سرى للغاية

٢٩- محفظة ١٥ السودان ملف ٣/٨٦/٧٤٤ جـ٢ «التقارير الصحفية للسفارة المصرية بالخرطوم- مختلف» تقرير عن الموقف السياسي فى السودان حتى يوم ١٩٥٧/٢/١٦ بناء على التقارير الواردة من السفارة المصرية بالخرطوم، أعدته إدارة الشئون الأفريقية بوزارة الخارجية المصرية، سرى جدا برقم (٥) بتاريخ ١٩٥٧/٢/٢٠.

٣٠- محفظة رقم ٢٩٦ ملف ٤١ سرى جدا عام ٥٦ - ٥٧ جـ٣ «ملخصات تقارير المخابرات الجوية» موجز ما ورد فى تقارير الملخص رقم (٤٧) تقارير المجموعة الأولى رقم (٢٠) والمجموعة

الثانية رقم (١٨) فى ٢١ /٥/٥٦ إلى ١٩٥٦/٥/٢٢، ورقم (١) فى ١٩٥٦/٥/٢٣. من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية «عصام الدين محمود خليل» إلى اليوزباشي محمد أبو نار مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان، سرى جدا بتاريخ ١٩٥٦/٦/٧ برقم ٥٦/(٩٧)/١/١٨

٣١- محفظة ١١٥٠ ملف ٦/٥/٦٩ «العلاقات السياسية بين السودان والدول العربية» من السفير المصرى بجدة إلى وكيل وزارة الخارجية الدائم «بشأن تقرب العراق للمملكة العربية السعودية بواسطة السودان» سرى بتاريخ ١٩٥٦/٥/١٠ برقم ٣٩ سرى

٣٢- محفظة ٣١٩ ملف ١ سرى عام ٥٧/٥٦ جـ٢ «تقارير سياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» تقرير أعده السيد «محمد يحيى حسن» القنصل العام بالسفارة المصرية بالخرطوم، مرفق بتقرير من القائم بالأعمال المصرى بالنيابة بالخرطوم «يحيى عبد القادر» إلى السيد وزير الداخلية، سرى جدا بتاريخ ١٩٥٦/٦/١٣ برقم ٣٢٧/١٠٢

٣٣- المصدر نفسه، نفس التقرير

٣٤- المصدر نفسه جـ٣ «مذكرة من السيد قنصل مصر العام فى الأبيض «أنور فريد» إلى سفير مصر بالخرطوم «محمود سيف اليزل» سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/١/٢٢ برقم ٣١

٣٥- محفظة ١٤ السودان ملف ١/٧/٢٤٦ جـ ٢ تقارير الخرطوم السياسية، مذكرة من السفير المصرى بالسودان «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن السياسة الخارجية للحكومة السودانية فى ٥ يناير ١٩٥٧ برقم ٧٣٥

٣٦- محفظة ٣١٩ ملف ١ سرى عام ٥٧/٥٦ جـ٣ « تقارير سياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» تقرير من الملحق العسكرى بالسفارة المصرية بالخرطوم بالنيابة «جمال شعير» إلى السفير المصرى بالخرطوم برقم ٤٣/١/٣/١ بتاريخ ١٩٥٧/١/١٠

٣٧- محفظة ١٥ السودان ملف ٨٦/٧٤٤ /٣ جـ٢ « التقارير الصحفية للسفارة فى الخرطوم - مختلف» تقرير من مكتب السيد الملحق العسكرى بالسفارة المصرية بالسودان برقم ١٧٠/١/٣/١ بتاريخ ١٩٥٧/٢/٨ مرسل إلى وكيل وزارة الخارجية عن طريق السفير محمود سيف اليزل خليفة، بتاريخ ١٩٥٧/٢/٩ سرى جدا.

٣٨- المصدر نفسه، نفس التقرير، وتقرير من إدارة الشئون الأفريقية بعنوان « الموقف السياسى فى السودان حتي ١٩٥٧/٣/٩ بناء على التقارير الواردة من السفارة المصرية بالخرطوم - سرى جدا - بتاريخ ١٩٥٧/٢/١٤.

٣٩- محفظة ١٥ السودان ملف ٣/٨٦/٧٤٤ جـ٢ «التقارير الصحفية للسفارة فى الخرطوم - مختلف» تقرير عن الموقف السياسي فى السودان حتى يوم ١٩٥٧/٢/١٦ بناء على التقارير

الواردة من السفارة المصرية بالخرطوم «أعدته إدارة الشئون الأفريقية بوزارة الخارجية المصرية» سرى جدا برقم (٥) بتاريخ ١٩٥٧/٢/٢٠.

٤٠- محفظة ٢ السودان، ملف ٢/٨١/٧٤٤ جـ٦ «التقارير السياسية للسفارة فى الخرطوم عن السودان» من السفير المصرى فى السودان إلى وكيل وزارة الخارجية «بشأن السياسة الخارجية للحكومة الأئتلافية الجديدة» سرى للغاية بتاريخ ٢٠ مارس ١٩٥٨ برقم ١٤٧.

٤١- محفظة ٣١٩ ملف ١ سرى عام ٥٧/٥٦ «تقارير سياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» مذكرة من السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن مقابلة الشيخ عبد الرحمن الحليسي وزير المملكة العربية السعودية المفوض يوم ١٩٥٧/٢/٢٤ بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٥٧ برقم ٧٧٥/١٠٢ سرى جدا.

٤٢- محفظة ١٢ السودان ملف ٢/٨٦/٧٤٤ جـ ٢ التقارير الصحفية للسفارة فى الخرطوم عن السودان تقرير صحفى إسبوعى أعده مكتب الصحافة والاستعلامات بسفارة ج.ع.م. بالخرطوم فى الفترة من ١٠- ١٩٥٨/٨/١٦.

٤٣- محفظة ٢٩٦ ملف ٤١ سرى جدا عام ٥٧/٥٦ جـ٣ ملخصات تقارير المخابرات الحربية، ملخص رقم (٤٦) عن تقارير السودان للفترة من ٩-٢٠ مايو ١٩٥٦ من مساعد مدير المخابرات الحربية قائد جناح «عصام الدين محمود خليل» إلى اليوزباشي «محمود أبو النار» مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان، بتاريخ ١٩٥٦/٥/٣١ برقم ٥٦/(٩٣)/١/١٨

٤٤- محفظة ٣١٩ ملف ١ سرى عام ٥٧/٥٦ جـ٣ «تقارير سياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» تقرير من السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الخارجية «سرى جدا» بتاريخ ١٩٥٧/٣/١ برقم ١٨٤/١٠٢ بشأن المؤتمر القومى للأحزاب والهيئات والنقابات السودانية المعارضة، ومن الهيئات التى ضمها هذا المؤتمر ذكر التقرير، الحزب الوطني الاتحادى، الجبهة المعارضة للاستعمار، اتحاد العمال، اتحاد الصحافة، الإخوان المسلمون، حزب الشعب الاتحادى، المؤتمر الدائم لقضايا الوطن العربى . . وغيرها.

٤٥- المصدر نفسه، نفس التقرير.

٤٦- محفظة ٢٩٧ ملف ٤١ سرى جدا ١٩٥٧/٥٦ جـ٦ «ملخصات تقارير المخابرات الجوية» ملخص رقم ٦٢ عن السودان الفترة من ١٦ - ٣٠ /١٩٥٦/١٢ من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح «عصام الدين محمود خليل» إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية - وزارة الخارجية - القصر الجمهورى سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/١/١٧ برقم ٢/١٨ /(١)/٥٧.

٤٧- المصدر نفسه، التقارير فى الفترة من ٢-١٥ /٢/ ١٩٥٧ سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/٣/٣ برقم ١٨/٢(٤)/٥٧.

٤٨- محفظة ٣١٩ ملف ١ سرى عام ٥٧/٥٦ جـ٣ «تقارير سياسية للسفارة المصرية بالخرطوم»، تقرير من الملحق العسكرى المصرى بالخرطوم «محمد سعد الدين زايد» إلى سفير مصر بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» سرى جدا برقم ٤٩٨/١/٣/١ بتاريخ ١٩٥٧/٤/١٣.

٤٩- المصدر نفسه، نفس التقرير.

٥٠- المصدر نفسه، تقرير من السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «زيارة السيد عبد الله خليل، ومحمد أحمد محجوب للبلاد العربية» سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/٤/١ برقم ١٠٢ /٨٠٦.

٥١- محفظة ٢٩٧ ملف ٤١ سرى جدا عام ٥٧/٥٦ جـ٧ «ملخصات تقارير المخابرات الجوية» ملخص رقم ٦٨ عن السودان فى الفترة من ٢٢ مارس - ٢٤ أبريل ١٩٥٧، من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية بكباشي طيار «عصام الدين محمود خليل» إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية - وزارة الخارجية - القصر الجمهورى - سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/٥/٩ برقم ١٨/ ٢ (٧)/٥٧.

٥٢- محفظة ١١٥٠ ملف ٦/٥/٦٩ «العلاقات السياسية بين السودان والدول العربية» صورة برقية واردة من السفير المصرى بدمشق إلى خارجية القاهرة بتاريخ ١٩٥٦/٢/٢٤، وكذلك مذكرة من إدارة الأبحاث بوزارة الخارجية (قسم المعلومات) بشأن تقرب الحكومة العراقية للسودان» برقم/١٩٨٩ سرى بتاريخ ١٩٥٦/٣/١٣.

٥٣- المصدر نفسه: تقرير من السفير المصرى بالخرطوم لواء أ.ح محمود سيف اليزل خليفة إلى وكيل وزارة الخارجية المساعد للشئون السياسية - سرى جدا.

٥٤- محفظة ١٢٦٢ ملف ١٨/٣٦٧/٢ جـ١ تقارير الخرطوم السياسية «مختلف» مذكرة من السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «زيارة السيد زين العابدين صالح للبنان والأردن والعراق» بتاريخ ١٩٥٨/١٠/١٩ برقم ٤٦٣.

٥٥- محفظة ١٥ السودان ملف ٣/٨٦/٧٤٤ جـ٢ « التقارير الصحفية للسفارة فى الخرطوم - مختلف» تقرير إدارة الشئون الأفريقية بوزارة الخارجية المصرية رقم (٧) سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/٣/٩.

٥٦- المصدر نفسه، نفس التقرير.

٥٧- محفظة ٣١٩ ملف ١ سرى عام ١٩٥٧/٥٦ جـ٣ «تقارير سياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» مذكرة من السفير المصرى بالخرطوم محمود سيف اليزل خليفة إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن مشروع معاهدة بين العراق والسودان سرى للغاية بتاريخ ١٩٥٧/٣/٢٥ برقم ٥٥/٢٩٩.

٥٨- محفظة ١١٦٥ ملف ١٤/٢/٦٩، مذكرة من مدير إدارة الشئون الأفريقية إلى السيد وكيل الوزارة المساعد للشئون السياسية، سرى للغاية وعاجل، بتاريخ ١٩٥٧/٣/٦.

٥٩- محفظة ٣١٩ نفس الملف ونفس التقرير السابق.

٦٠- محفظة ٢ السودان ملف ٢/٨١/٧٤٤.جـ٧ «التقارير السياسية للسفارة المصرية فى الخرطوم عن السودان» من السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «تصريح السيد عبد الله خليل وحلف البحر الأحمر وعزل مصر» سرى جدا بتاريخ ٨ مايو ١٩٥٨ برقم ٢١٥.

٦١- المصدر نفسه، نفس التقرير.

٦٢- المصدر نفسه، نفس التقرير.

٦٣- المصدر نفسه جـ٦، من السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الشئون الخارجية «سرى للغاية» بتاريخ ١٠ مارس ١٩٥٨ برقم ١٣٥ «بشأن « تصريح عبد الله خليل وحلف البحر الأحمر وعزل مصر».

٦٤- المصدر نفسه، جـ٦، من الوكيل المساعد لشئون الأبحاث والتفتيش إلى وكالة الوزارة للشئون الشرقية بشأن : سياسة عبد الله خليل ومحمد أحمد أبو سن نحو ج.ع.م. سرى للغاية، بتاريخ ١٩٥٨/٣/٢٦ برقم ٣٣٠٩ .

٦٥- المصدر نفسه، جـ٦ من السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الخارجية «سرى للغاية» بتاريخ ١٠ مارس ١٩٥٨ برقم ١٣٥ بشأن «تصريح السيد عبدالله خليل وحلف البحر الأحمر وعزل مصر».

٦٦- محفظة ١٤ السودان ملف ٣/٨١/٧٤٤ جـ٢ التقارير السياسية للسفارة فى الخرطوم «مختلف» من السفير المصرى بالخرطوم محمود سيف اليزل خليفة إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «تقرير عام سرى للغاية» بتاريخ ١٠ مايو ١٩٥٨ برقم ٢١٩. وهذا التقرير أعده مكتب الملحق العسكرى بالخرطوم عن زيارة السيد فاضل الجمالي وزير خارجية العراق برقم ٤٧١/٢/٥٨/١ بتاريخ ١٩٥٨/٥/٢.

٦٧- محفظة ١٢ السودان ملف ٣/٨٦/٧٤٤ جـ١ «تقرير صحفي إسبوعي عن الفترة من ١٣ – ١٩ يوليو ١٩٥٨»، أعده السيد «سيد الشاذلى» بالمكتب الصحفى بسفارة ج.ع.م بالخرطوم.

(*) جريدة العلم صدر أول عدد منها فى ١٣ نوفمبر ١٩٥٣، وذلك عن طريق إعانة دفعها السيد الدرديرى أحمد اسماعيل بوصفه وكيلا للوزارة لشئون السودان فى مصر حينئذ للشبان المثقفين فى الحزب الوطني الاتحادى، لتكون صحيفة ناطقة بلسان الوطنى الاتحادى، وكانت اتحادية متطرفة حتى يونيو ١٩٥٥ ثم صارت مستقلة، وكان تمويلها يتم عن طريق مكتب الاتصال المصرى منذ أواخر عام ١٩٥٤ إلى أن صارت مستقلة فمولت عن طريق معسكر الأزهرى (يُنظر : محفظة ٢٩٦ ملف ٤١ سرى جداً عام ٥٦ / ٥٧ «ملخصات تقارير المخابرات الجوية» تقارير المجموعة الرابعة رقم (١) من السودان بتاريخ ١٠ / ٩ / ١٩٥٦

٦٨- محفظة ١٥ السودان ملف ٣/٨٦/٧٤٤ جـ٢ «التقارير الصحفية للسفارة فى الخرطوم - مختلف» تقرير من الوزير المفوض المصرى بالسودان محمد سامى إلى وكيل وزارة الخارجية عن التقرير الصحفى الذى أعده السيد «سيد الشاذلي» عن المدة من ٢٠-١٩٥٨/٧/٢٦ تحريرا فى ٢٦/ ٧/ ١٩٥٨.

٦٩- محفظة ١٢ السودان نفس الملف والتقرير السابق.

٧٠- نفس المصدر، والتقرير.

٧١- محفظة ١٥ السودان ملف ٣/٨٦/٧٤٤ جـ٢ نفس التقرير السابق.

٧٢- محفظة ١٢ السودان نفس الملف والتقرير السابق.

*- كانت آنذاك تعتبر الجريدة الثانية فى السودان بعد الأيام بالنسبة للتوزيع، وهى تعتبر لسان حال كل حكومة، وكانت كذلك أيام الاستعمار البريطانى، وكان صاحبها «إسماعيل القبانى» يعتبر الكاتب الانتهازى الأول فى السودان، وهى مستقلة، وكانت تؤيد الحزب الوطنى الاتحادى، وكلما رأت إلى ذلك وسيلة (محفظة رقم ٦٩٢ ملف رقم ٤١) نفس التقرير السابق.

٧٣- محفظة ١٢ السودان ملف ٣/٨٦/٧٤٤ جـ١ نفس التقرير السابق.

٧٤- محفظة ١٥ السودان ملف ٣/٨٦/٧٤٤ جـ٢ نفس التقرير السابق.

*- ظهرت عام ١٩٤٢ كمؤسسة تجارية (شركة مساهمة) أصحاب أسهمها من الختمية، ومنهم السادة على الميرغني زعيم الختمية، والدرديرى محمد عثمان، وميرغنى حمزة، وغيرهم، وكانت تنطق بلسان حال دائرة السيد على الميرغنى، وكانت تمولها دائرة الميرغني وكانت تحصل على إعانة من مصر عن طريق دائرة المهدى، وهى وقت قيام الثورة كانت تعبر عن أهداف حزب الشعب الديمقراطى (يُنظر : محفظة ٢٩٦ ملف رقم ٤١ سرى جدًا نفس التقرير السابق).

٧٥- المصدر نفسه، نفس التقرير.

٧٦- محفظة ١٢ السودان ملف ٣/٨٦/٧٤٤ جـ١ نفس التقرير السابق.

٧٧- محفظة ٣٢٠ ملف ١ سرى عام ٥٦/٥٧ جـ ٧ «التقارير السياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» تقرير من الوزير المفوض المصرى القائم بالاعمال بالنيابة بالخرطوم «محمد سامى» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن إعتراف حكومة السودان بالجمهورية العراقية بتاريخ ٢٧ يوليو ١٩٥٨ برقم ١٥٢٦/٧٢٢.

٧٨- المصدر نفسه، نفس التقرير.

٧٩- المصدر نفسه، تقرير من الوزير المفوض المصرى القائم بالأعمال بالنيابة بالخرطوم «محمد سامي» إلى وكيل وزارة الخارجية «بشأن: صدى حوادث العراق ولبنان فى السودان» سرى جدا بتاريخ ١٧ يوليو/ ١٩٥٨ برقم ١٠٢/٣٢٨.

٨٠- المصدر نفسه، نفس التقرير.

٨١- المصدر نفسه، نفس التقرير.

٨٢- المصدر نفسه، نفس التقرير.

٨٣- المصدر نفسه، تقرير من الوزير المفوض المصرى القائم بالأعمال بالنيابة بالخرطوم «محمد سامي» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « إعتراف حكومة السودان بالجمهورية العراقية» بتاريخ ٢٧ يوليو ١٩٥٨ برقم ١٥٢/٧٧٢.

٨٤- محفظة رقم (٥) بغداد ملف ١/١٠٣٧/٣٤٧ «إعلان الجمهورية العراقية» مذكرة من الوزير المفوض المصرى والقائم بالأعمال بالنيابة بالخرطوم «محمد سامي» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن صدى حوادث العراق ولبنان فى السودان سرى جدا بتاريخ ١٧ يوليو ١٩٥٨ برقم ٣٢٨.

٨٥- محفظة رقم ٣٢٠ ملف ١ سرى عام ٥٦/٥٧ نفس التقرير السابق.

٨٦- محفظة رقم (٥) بغداد نفس الملف والتقرير السابق.

٨٧- محفظة ٣٢٠ ملف ١ سرى ٥٦/٥٧ جـ٧ «التقارير السياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» تقرير أعده السيد «يحيى عبد القادر» مستشار السفارة بشأن «استعراض الموقف السياسي واحتمالاته» مرفق بمذكرة الوزير المفوض المصرى والقائم بالأعمال بالنيابة بالخرطوم «محمد سامي» إلى وكيل وزارة الخارجية سرى للغاية بتاريخ ١٩٥٨/٧/٢٧ برقم ١٠٢/٣٣٩.

٨٨- محفظة ١٤ السودان ملف ٣/٨١/٧٤٤ جـ٢ «التقارير السياسية للسفارة فى الخرطوم - مختلف» تقرير أعده مكتب الملحق العسكرى بالخرطوم برقم ١/٥٨/٢/٦٩٥ بتاريخ ١٩٥٨/٧/٢٠ سرى للغاية، أرسل به الوزير المفوض والقائم بالأعمال المصرى بالنيابة بالخرطوم «محمد سامي» إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ٢٧ يوليو ١٩٥٨ سرى للغاية برقم ٣٣٥.

٨٩- نفس المصدر ونفس التقرير.

٩٠- محفظة ٢ بغداد نفس الملف والتقرير السابق.

٩١- المصدر نفسه، نفس التقرير.
٩٢- محفظة ٣٢٠ ملف ١ سرى ٥٦/ ٥٧ جـ٣ «التقارير السياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» تقرير من الوزير المفوض المصرى القائم بالأعمال بالخرطوم بالنيابة «محمد سامي» إلى وكيل وزارة الخارجية، بشأن «صدى حوادث العراق ولبنان فى السودان» سرى جدا بتاريخ ١٩٥٨/٧/١٧ برقم ١٠٢/٣٢٨.
٩٣- محفظة ١٥ السودان ملف ٧٤٤ /٣/٨٦ جـ٢ «التقارير الصحفية للسفارة فى الخرطوم- مختلف» تقرير من الوزير المفوض المصرى بالسودان «محمد سامي» إلى وكيل وزارة الخارجية عن التقرير الصحفي الذى أعده السيد «سيد الشاذلي» عن المدة من ٢٠ - ٢٦ /١٩٥٨/٧ تحريرا فى ٢٦ /١٩٥٨/٧.
٩٤- محفظة ٣٢٠ ملف ١ سرى عام ٥٦/٥٧ جـ٧ «التقارير السياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» تقرير من الوزير المفوض المصرى القائم بالأعمال بالنيابة بالخرطوم «محمد سامي» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن إعتراف حكومة السودان بالجمهورية العراقية» بتاريخ ٢٧ يوليو ١٩٥٨ برقم ١٥٢٦/٧٧٢.
٩٥- محفظة ١٥ السودان نفس الملف والتقرير السابق.
٩٦- محفظة ٣٢٠ ملف ١ سرى عام ٥٦/٥٧ جـ ٧ نفس التقرير السابق.
٩٧- محفظة ١٢٦٢ ملف ١٨/٣٦٧/٢ جـ ١ « تقارير الخرطوم السياسية - مختلف» مذكرة من السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «زيارة السيد زين العابدين صالح للبنان والأردن والعراق» بتاريخ ١٩٥٨/١٠/١٩ برقم ٤٦٣.
٩٨- محفظة ١١٥٠ ملف ٦/٥/٦٩ «العلاقات السياسية بين السودان والدول العربية» مذكرة من السفير المصرى ببغداد «توفيق إسماعيل قطامش» إلى وكيل وزارة الخارجية الدائم بشأن «العلاقات بين العراق وكل من ليبيا والسودان» سرى للغاية، بتاريخ ١٩٥٦/٦/٢٣ برقم ٢٧١ مرفق معه صورة مذكرة من السفير العراقي بالقاهرة إلى وزارة الخارجية العراقية برقم س س ٥٦/٢١٤ بتاريخ ٥/٦/ ١٩٥٦.
٩٩- المصدر نفسه نفس الملف، مذكرة من الوكيل المساعد للشئون السياسية بوزارة الخارجية المصرية إلى وزير مصر المفوض بالخرطوم، بتاريخ يونيه ١٩٥٦ برقم ٥٤٧.
١٠٠- محفظة ٢٩٠ ملف ٤٠ سرى جدا ٥٦/٥٧ جـ٦ تقارير المخابرات الجوية، تقارير المجموعة الأولى رقم (٦٠) الخاصة بالسودان، تقرير رقم (١) فى ١٩٥٦/١٠/٢١ من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية، قائد جناح «عصام الدين محمود خليل» إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية، وزارة الخارجية - القصر الجمهورى، سرى جدا برقم ١/١٨ (١٦٣) / ٥٦ بتاريخ ١٩٥٦/١٠/٢٥.

١٠١- محفظة ١٥ السودان ملف ٣/٨٦/٧٤٤ جـ٢ «التقارير الصحفية للسفارة فى الخرطوم - مختلف» تقرير من السفير المصرى بالخرطوم محمود سيف اليزل خليفة إلى وكيل وزارة الخارجية «سرى للغاية» بشأن موقف مصر فى السودان بتاريخ ١٩٥٧/٣/٢ برقم ٧٧٨.

١٠٢- المصدر نفسه، نفس التقرير.

١٠٣- المصدر نفسه، نفس التقرير.

١٠٤- المصدر نفسه، نفس التقرير.

١٠٥- المصدر نفسه، نفس التقرير.

١٠٦- المصدر نفسه، نفس التقرير.

١٠٧- المصدر نفسه، تقرير أعدته إدارة الشئون الأفريقية بوزارة الخارجية المصرية سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/٣/٩ برقم (٧) سرى جدا.

١٠٨- وثائق الخارجية الأمريكية

F.R.U.S. 1955-57 Vol. XII (U.S Government Printing Office, Washington 1991) Staff Study prepared in the Dept. of State, Washington, October 30,1957, P.641

١٠٩- محفظة ٣١٩ ملف ١ سرى عام ٥٧/٥٦ جـ٣ «التقارير السياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» مذكرة من السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «مقابلة السيد الشيخ عبد الرحمن الحليسي وزير المملكة العربية السعودية المفوض يوم ٢٤/ ٢/ ١٩٥٧» بتاريخ ٢٤/ ٢/ ١٩٥٧ برقم ١٠٢ / ٧٧٥ سرى جدا.

١١٠- محفظة ١ السودان ملف ٧٤٤/ ٨١/ ٢ جـ ٨ «التقارير السياسية للسفارة فى الخرطوم عن السودان» مذكرة من مدير إدارة الشئون الافريقية إلى السيد السفير الوكيل المساعد للشئون السياسية الشرقية، سرى جدا بتاريخ ١٩٥٨/٨/١٠.

١١١- محفظة ٣٢٠ ملف ١ سرى عام ١٩٥٧/٥٦ جـ٧ «التقارير السياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» تقرير أعده السيد يحيى عبد القادر مستشار السفارة، بشأن «إستعراض الموقف السياسى واحتمالاته» مرفق بمذكرة من الوزير المفوض والقائم بالأعمال بالنيابة بالخرطوم «محمد سامى» إلى وكيل وزارة الخارجية رقم ٣٣٩/١٠٢ سرى للغاية بتاريخ ١٩٥٨/٧/٢٧.

١١٢- المصدر نفسه، نفس التقرير.

١١٣- محفظة ١٢٦٢ ملف ١٨/٣٦٧/٢ جـ١ تقارير الخرطوم السياسية «مختلف» مذكرة من القائم بالأعمال بالنيابة بسفارة ج.ع.م. بالخرطوم «يحيى عبد القادر» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن مقابلة السيد بشير محمد سعيد ورأيه فى إمكانية نجاح المفاوضات فى الظروف الراهنة بتاريخ ١٩٥٨/٩/٧ برقم ١٠٢/٣٩٩.

١١٤- محفظة ٢٩٦ ملف ٤١ سرى جدا عام ٥٧/٥٦ جـ٣ «ملخصات تقارير المخابرات الجوية، ملخص رقم ٥٠ عن تقارير السودان الفترة من ٢٧ / ٦ - ١٩٥٧/٧/٩» من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح «عصام الدين محمود خليل» إلى مدير الإدارة الإفريقية بالقصر الجمهورى - سرى جدا برقم ١٨/ ١/ (١١٣)/ ٥٦ بتاريخ ٢٤/ ٧/ ١٩٥٦.

١١٥- محفظة ٣١٩ ملف ١ سرى عام ٥٧٥٦ جـ٣ «التقارير السياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» مذكرة من السفير المصرى بالخرطوم « محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «مقابلات»، بتاريخ ١٩٥٧/١/٣١ برقم ١٠٢/٧٥٤ سرى جدا.

١١٦- نفس المصدر، تقرير من السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «تقرير من سفير السودان فى البلاد العربية - عن زيارة رئيس الوزراء للعراق» سرى للغاية بتاريخ مارس ١٩٥٧ برقم ٥٢ سرى.

١١٧- محفظة ١٥السودان ملف ١/٥/٤/١ جـ٣ (٥٤ - ١٩٥٥) إدارة المخابرات العامة - معلومات عن السودان .

١١٨- المصدر نفسه، نفس التقرير

١١٩- محفظة ٢٩٧ ملف ٤١ سرى جدا، عام ٥٧/٥٦ جـ٧ «ملخصات تقارير المخابرات الجوية» ملخص رقم ٦٨ عن السودان، عن الفترة من ٢٢ مارس - ٢٣ ابريل ١٩٥٧ من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية، بكباشي طيار «عصام الدين محمود خليل» إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية - وزارة الخارجية - القصر الجمهورى - سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/٥/٩ برقم ١٨ / ٢ (٧)/٥٧.

١٢٠- المصدر نفسه، نفس التقرير.

١٢١- محفظة ٣١٩ ملف ١ سرى عام ٥٧/٥٦ جـ٣ «التقارير السياسية للسفارة المصرية بالخرطوم» مذكرة من السفير المصرى بالخرطوم «محمود سيف اليزل خليفة» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «أسلحة أمريكية للسودان» بتاريخ ١٩٥٧/١/١٦ برقم ٣٣/٩٩.

١٢٢- محفظة ٢٩٧ ملف ٤١ سرى جدا ٥٧/٥٦ جـ٦ «ملخصات تقارير المخابرات الجوية» ملخص رقم ٦٣ عن السودان الفترة من أول يناير - ١٧ يناير ١٩٥٧ من مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية قائد جناح عصام الدين محمود خليل إلى مدير إدارة الشئون الأفريقية بوزارة الخارجية - القصر الجمهورى - سرى جدا بتاريخ ١٩٥٧/١/٢٩ برقم ٢/١٨ (٢٢)/٥٧.

١٢٣- Foreign Relations of the U.S. 1955/1957

١٢٤- Ibid., P. 198

المصادر

وثائق الخارجية المصرية

أولا: محافظ السودان

١) محفظة رقم ١ السودان ملف ٢/٨١/٧٤٤ جـ٨ «التقارير السياسية للسفارة فى الخرطوم عن السودان».

٢) محفظة رقم ٢ السودان ملف ٢/٨١/٧٤٤ جـ٦ «التقارير السياسية للسفارة فى طهران».

٣) محفظة رقم ٢ السودان ملف ٢/٨١/٧٤٤ جـ٧ «التقارير السياسية للسفارة فى الخرطوم عن السودان».

٤) محفظة رقم ١٢ السودان ملف ٣/٨٦/٧٤٤ جـ١

٥) محفظة رقم ١٢ السودان ملف ٢/٨٦/٧٤٤ جـ٢ «التقارير الصحفية للسفارة فى الخرطوم عن السودان».

٦) محفظة رقم ١٤ السودان ملف ١/٧/٢٤٦ جـ٢ «تقارير الخرطوم السياسية».

٧) محفظة رقم ١٤ السودان ملف ٣/٨١/٧٤٤ جـ٢ «التقارير السياسية للسفارة فى الخرطوم - مختلف».

٨) محفظة رقم ١٥ السودان ملف ٣/٨٦/٧٤٤ جـ٢ «التقارير الصحفية للسفارة فى الخرطوم - مختلف».

٩) محفظة رقم ١٥ السودان ملف ١/٥/٤/١ جـ٣ (٥٤ - ١٩٥٥) «إدارة المخابرات العامة - معلومات عن السودان».

ثانياً: محافظ بغداد

١) محفظة رقم ٥ بغداد ملف ١/١٠٣٧/٣٤٧ «إعلان الجمهورية العراقية».

ثالثاً: الأرشيف السرى الجديد

١) محفظة رقم ٢٨٩ ملف ٤١ سرى جديد ٥٦/٥٧ جـ٦ «ملخصات المخابرات الجوية».

٢) محفظة رقم ٢٩٠ ملف ٤٠ سري جدا ٥٦/٥٧ جـ١ «تقارير المخابرات الجوية».

٣) محفظة رقم ٢٩٠ ملف ٤٠ سرى جدا ٥٦/٥٧ جـ٨ «تقارير المخابرات الجوية»

٤) محفظة رقم ٢٩١ ملف ٤٠ سرى جديد ٥٦/٥٧ جـ ٣

٥) محفظة رقم ٢٩٦ ملف ٤١ سرى جدا ٥٦/٥٧ «ملخصات تقارير المخابرات الجوية».

٦) محفظة رقم ٢٩٦ ملف ٤١ سرى جدا ٥٦/٥٧ جـ٣ «ملخصات المخابرات الجوية».

٧) محفظة رقم ٢٩٧ ملف ٤١ سرى جدا ٥٦/٥٧ جـ٦ «ملخصات المخابرات الجوية».

٨) محفظة رقم ٢٩٧ ملف ٤١ سرى جدا ٥٦/٥٧ جـ٧ «ملخصات المخابرات الجوية».

٩) محفظة رقم ٣١٩ ملف ١ سرى ٥٦/٥٧ جـ١ «تقارير سياسية للسفارة المصرية فى الخرطوم».

١٠) محفظة رقم ٣١٩ ملف ١ سرى ٥٦/٥٧ جـ٢ «تقارير سياسية للسفارة المصرية فى الخرطوم».

١١) محفظة رقم ٣١٩ ملف ١ سرى ٥٦/٥٧ جـ٣ «تقارير سياسية للسفارة المصرية فى الخرطوم».

١٢) محفظة رقم ٣٢٠ ملف ١ سرى ٥٦/٥٧.

١٣) محفظة رقم ٣٢٠ ملف ١ سرى ٥٦/٥٧ جـ٧ «التقارير السياسية للسفارة المصرية فى الخرطوم».

١٤) محفظة رقم ٣٢٠ ملف ٤٠ سرى جدا ٥٧/٥٦ «تقارير المخابرات الجوية»

١٥) محفظة رقم ١١٥٠ ملف ٦/٥/٦٩ «العلاقات السياسية بين السودان والدول العربية».

١٦) محفظة رقم ١١٦٥ ملف ١٤/٢/٦٩ «إدارة إفريقيا».

١٧) محفظة رقم ١٢٦٢ ملف ١٨/٣٦٧/٢ جـ١ «تقارير الخرطوم السياسية - مختلف».

وثائق أجنبية

١) F.R.U.S. 1955 /1957, vol. XII Near East Region, Iran, Iraq , U.S. Govt. Prinitng Office, Washington, 1991.

٢) F.R. U.S. 1958/1960, Near East Region, U.S. Govt. Printing Office, Washington 1993.

دوريات

- أخبار اليوم - السبت ١٩٥٨/٨/٩.

حركة القوافل والأشخاص عبر الحدود المصرية ـ الشامية خلال القرن التاسع عشر

صبري أحمد العدل

باحث بمركز البحوث الوثائقية بدار الوثائق القومية

حركة القوافل والأشخاص عبر الحدود المصرية ـ الشامية خلال القرن التاسع عشر

اتسمت الحركة على الحدود المصرية ـ الشامية خلال القرن التاسع عشر بأنها فى الغالب حركة للقوافل التجارية بين مصر وبلاد الشام، وذلك استمراراً للعلاقات التجارية بين البلدين منذ أقدم العصور. ففى الفترة السابقة على القرن التاسع عشر انتقلت معظم التجارة بين مصر وبلاد الشام عبر الطريق البحري – لما تميز به من سهولة وسرعة – إلا أن زيادة نشاط القرصنة بالبحر المتوسط خصوصاً قراصنة مالطة أدى إلى تركز التجارة الخارجية لمصر، وخصوصاً التجارة مع الشام فى أيدى التجار الشوام المسيحيين ،والذين كانوا يفضلون ارتياد الطريق البحرى نظراً لأن القراصنة كانوا لا يعتدون على سفنهم على اعتبار أنهم عناصر تشترك معهم فى الدين ،كما أن الطريق البرى لا يخلو من أخطار الاعتداءات المتكررة من جانب البدو [١].

وخلال تلك الفترة كانت القاهرة محطة تجارية كبيرة و سوقا ترد إليها منتجات البلاد المختلفة من آسيا و أفريقيا و أوروبا كما كانت تصدر ما يزيد عن استهلاكها إلى البلاد المجاورة لها و منها بلاد الشام [٢]. و كان التجار الشوام يعيشون فى أحياء الموسكي و الخليج وسوق الحمزاوي و الجمالية [٣] ، ووكالة التفاح [٤] .

و منذ بداية القرن التاسع عشر رسم محمد علي سياسته التجارية الجديدة على أساس الاتصال المباشر بمصادر الإنتاج و التجارة . كما أنشأ عددا من المجالس التجارية بهدف تنظيم حركة التجارة و مراقبة نشاط التجار ، فأنشأ مجلس تجار المحروسة عام ١٨٢٦ ، و فى السنة نفسها أنشأ ديوان التجارة بالإسكندرية للإشراف علي الحركة التجارية . فكان هذا المجلس بمثابة همزة الوصل بين التجار و المصدرين و الحكومة . و قد ازدهرت التجارة فى هذه الفترة و صدَّرت مصر القمح و الأرز و الشعير

والفول والقطن والكتان والمواد المصنعة إلى الدول الكبرى كإنجلترا و فرنسا والنمسا . و كان يقابل حركة الصادرات حركة مثلها فى الواردات شملت المواد الأولية كالفحم و الحديد و المنسوجات ولوازم الجيش و الأسطول .

و قد التزم محمد علي إدارة الجمارك المصرية من السلطان العثماني مقابل ٧٥٠٠ كيسا فى سنة ١٨١٠ ، ثم ازدادت إلى ٩٥٠٠ كيسا فى عام ١٨٢٣ تدفع لخزانة البحرية العثمانية على أقساط متساوية كل ثلاثة أشهر.

و كانت أهم الجمارك المصرية فى الإسكندرية و دمياط ورشيد على ساحل البحر المتوسط ، وفى السويس والقصير على ساحل البحر الأحمر وفى القاهرة جمارك بولاق و باب النصر ومصر القديمة . و قد أدار محمد علي هذه الجمارك بنظام الالتزام ماعدا جمركى السويس و القصير حيث كان يديرهما المحافظ المعين فى كل جهة . وكان لكل جمرك أمين ومعاون و صراف وكاتب يقوم بالعمل سواء كان من موظفي الحكومة أو من رجال الملتزم ، و كانت الحكومة تعين «قواسين» تحت تصرف الملتزم لتحصيل رسوم الجمارك المتأخرة من التجار (٥) .

وفى عهد خلفاء محمد علي شهد النشاط التجارى تطورا ملحوظا خصوصا بعد تطور وسائل المواصلات و إنشاء خطوط السكة الحديدية، و حفر قناة السويس، وتأسيس شركات الملاحة . فكان لكل ذلك تأثيره على حركة الصادرات و الواردات. لكن على مستوى حركة التجارة البرية بين مصر و الشام فقد كان لافتتاح قناة السويس أثره الواضح على انخفاض حركة التبادل التجارى بين البلدين عبر الطريق البرى ، وكذلك انخفاض الاهتمام بالطريق البرى إذا ما قورن بالموانئ البحرية ، و قد أفسح ذلك المجال أمام عمليات تهريب البضائع عبر هذا الطريق.

وكان جمرك العريش و نقطة الحجر الصحى (الكورنتينة) هما المحطتان الرئيسيتان للقوافل القادمة من بلاد الشام فى طريقها إلى مصر . و كان جمرك العريش

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر يتبع جمرك بولاق من الناحية الإدارية ، وحين ألغي جمرك بولاق عام ١٨٥٥ انتقلت تبعيته إلى جمرك باب النصر بالقاهرة . أما كورنتينة العريش فقد كانت تتبع مصلحة الصحة البحرية و الكورنتينات بالإسكندرية ، وقدلعب جمرك و كورنتينة العريش دورا هاما فى ضبط الحركة على الحدود كما سنرى.

طرق القوافل بين مصر وبلاد الشام :

كانت أهم الطرق التى تربط مصر ببلاد الشام خلال القرن التاسع عشر هى :

ـ طريق العريش :

هذا الطريق كان يبدأ من «الصالحية» قبل افتتاح قناة السويس ،وبعد افتتاحها صار يبتدئ من «القنطرة»باتجاه الشرق بانحراف تدريجى نحو البحر المتوسط ،حتى يصل إلى منطقة تسمى «الخشوم» (مفارق الطرق) ،والتى عندها يتفرع الطريق إلى ثلاثة دروب هى :

- الدرب السلطانى، يقع على اليمين .
- درب الطوايات، يقع على اليسار .
- الدرب الوسطانية،يقع فى الوسط .

وكان التجار وأصحاب القوافل كثيراً ما يفضلون طريق العريش بدروبه المختلفة نظراً لاختصاره وقلة رماله ،لكنهم أحياناً ما يفضلون طريق الفرما، الذى كان يبدأ من «رفح» بمحاذاة الساحل حتى «الفرما»، وذلك نظراً للطف هوائه والخوف من ذبابة سامة تنتاب طريق العريش بين «بير العبد»و«قطيه» فى أيام معينة فى فصلى الربيع والصيف[٦].

ـ الطريق المصرى:

وهو طريق تجارى يربط مصر ببلاد الشام عن طريق «المقضبة»وقد أبطل استخدام هذا الطريق مع افتتاح قناة السويس .وكان هذا الطريق يبدأ من «خان يونس» ثم يمر بـ «المقضبة»، ومنها إلى «العريش» ، وعند العريش يتفرع إلى فرعين أحدهما يتجه غرباً إلى «الإسماعيلية»، والآخر يتجه باتجاه جنوب غرب إلى «السويس»مارا بـ «الحسنة» و«وادى الحج» (٧).

وخلال العصر العثمانى ،تركت الحكومة العثمانية مسألة تأمين وضبط الطرق التى تسلكها القوافل بين مصر وبلاد الشام فى أيدى الملتزمين ،الذين كان لهم حق تحصيل الضرائب على البضائع القادمة مع قوافل الشام ،وهذه الضرائب تمثل «الرسوم الجمركية»على هذه البضائع .

بالإضافة إلى هذه الضرائب كان هناك «رسم خفارة»على الأفراد والقوافل القادمة من الشام والمتجهة إليها ،وكان هذا الرسم يحصل فى«قطيه»ويسمى« مال قطيا »بينما كان يطلق على الالتزام كله «مقاطعة قوافل شام وحلب» (٨).

وخلال القرن التاسع عشر اهتمت الحكومة بشكل مباشر بمسألة تأمين وضبط حركة المرور علي الطرق التى ترتادها القوافل من القاهرة و حتى حدود مصر مع بلاد الشام . فاتخذت الحكومة المصرية العديد من الإجراءات التى تهدف إلى السيطرة على حركة المرور على الطرق و ضبطها لمنع هروب القوافل و الأشخاص عبر الحدود المصرية إلى بلاد الشام. و حتى افتتاح قناة السويس كان هناك كثير من محطات التفتيش على طول الطرق المؤدية إلى بلاد الشام ، كانت مهمتها الرئيسية هي التأكد من وجود أوراق مع أصحاب القوافل تثبت أدائهم للرسوم الجمركية المفروضة علي مايحملونه فى قوافلهم من بضائع. وكان يطلق على هذه المحطات اسم «الرباطات» (جمع رباط)، وكان مقر هذه المحطات الثابتة هى العريش ورفح والصالحية وبلبيس (٩).

وبالإضافة إلى نقاط التفتيش الثابتة على الطرق ،كانت هناك قوة عسكرية تابعة لمحافظة العريش موزعة على عدد من المحطات مهمتها حراسة الطرق وحفظ الأمن على مداخل الحدود و الطرق الرئيسية المؤدية إليها .وكانت هذه المحطات موزعة على طول الطرق من رفح حتى بير العبد ، وكان تعدادها أربع محطات هى : رفح ، و المغارة، والمقضبة، وبير العبد. وقد بلغ تعداد عساكرها فى عام ١٨٦٨ حوالى (١٢٠) فردا[١٠].

وكانت القوة المخصصة لحراسة الطرق والحدود فى عام ١٨٤٥ تتألف من مجموعة من عساكر «الباشبوزق» [١١]، و«الخيالة» ، وبلغ تعداد عساكر الخيالة حوالى (١٤٣) خيالا ، يعملون تحت قيادة مصطفى أغا ، وكان مقرهم قلعة العريش[١٢]. وقد ازداد تعداد قوة عساكر الخيالة إلى (١٥٠) خيالا فى عام ١٨٤٩[١٣]، لكن هذه القوة تم انتدابها فى مهمة حراسة المحمل وقافلة الحج المصرى فى عام ١٨٥٣، فتم استبدالها بقوة أخرى من عساكر الخيالة والهجانة (راكبى الجمال) الذين تم اختيارهم بمعرفة رفاعى أغا القائد الجديد لهذه القوة من قبيلة الأخارسة نظراً لمعرفتهم بالدروب والمسالك الجبلية التى يسلكها أصحاب القوافل المتهربة من دفع الرسوم [١٤].

وكان محافظ العريش فى العام السابق (١٨٥٢) وقد فشل فى تجربة تعيين ٢٥ هجانا من أفراد قبيلة السواركة التابعين لشياخة «الشيخ على العبادى» لحفظ الأمن على الطرق الواقعة من جبل «الحلال» وحتى شاطئ البحر المتوسط ، على أن يحصل الشيخ المذكور وقبيلته على رواتبهم فى حالة نجاح التجربة فى حفظ أمن الطرق ومنع عمليات هروب القوافل عبر الحدود .

لكن فشلت التجربة واستمرت عمليات الهروب مما أدى إلى عدم حصول شيخ القبيلة المذكور على رواتب له ولأفراد قبيلته المعينين لهذه المهمة [١٥]. وكان فشل هذه التجربة راجعا إلى طول المساحة الحدودية للقائمين بحراستها مع قلة عدد القوة المخصصة لحراستها ،إضافة إلى خوف شيخ القبيلة من المجازفة بالاحتكاك مع أفراد من قبائل ذات نفوذ ،وخصوصاً قبيلة الترابين التابعين لحكومة الشام ،الذين يمتهن

أفرادها التهريب عبر الحدود ، وكثيراً ما أغاروا على قبيلة السواركة ولم تحمهم الحكومة المصرية .

كما كانت هناك مشكلة دائماً ما تواجه رجال دوريات الطرق والحدود وهى نفاد ما معهم من مياه ، مما يضطرهم فى بعض الأحيان إلى الرجوع إلى أقرب مصدر مياه للتزود بالماء، وكان ذلك بالطبع يعوق عمليات المطاردة [١٦]. وحلا لهذه المشكلة اقترح محافظ العريش أنه عند مرور عساكر الدوريات بأحد مناطق العربان التابعين للحكومة المصرية يقوم شيخ القبيلة التى تقع عملية المطاردة بـ « دركه» [١٧]، بتقديم أفراد الهجانة اللازمين لمساعدة الدورية وتقديم المياه اللازمة لها مقابل راتب عن الفترة التى تقضيها الدورية بمنطقة درك قبيلته[١٨].

وكانت الحكومة المصرية تعتبر «الطريق السلطانى» الطريق الرسمى لسير القوافل المتجه من وإلى الشام ،نظراً لأنه الطريق الذى تقع عليه محطات حراسة الطرق، لهذا كانت تصدر أوامرها لمحافظة العريش للتنبيه على أصحاب القوافل بالالتزام بالسير على هذا الطريق ، وعدم استخدام الطريق الساحلى الذى يفضله أصحاب القوافل فى فصل الصيف هربا من حرارة الجو وخلوه من الحراسة[١٩].

ومع افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ تناقص حجم القوة العسكرية المكلفة بحراسة الطرق والحدود مع الشام نظراً لانتقال المنافذ الرئيسية للجمارك والحجر الصحى إلى الضفة الغربية للقناة . فقد تناقص عدد أفرادها فى عام ١٨٨٠ إلى (٣٨) فردا نتيجة لذلك[٢٠].

وكان الاحتلال البريطانى لمصر نقطة تحول فيما يتعلق بالتشكيل الإدارى لتلك القوة المخصصة لحماية الطرق والحدود مع الشام. حيث تم تشكيل فرقة خاصة للأمن العام وحراسة الطرق والحدود أطلق عليها «فرقة جندرمة العريش» فى سبتمبر سنة ١٨٨٣ [٢١]. وعين على إدارتها حكمدار (قومندان) برتبة يوزباشى[٢٢] . وكان تعداد هذه القوة فى بداية تشكيلها حوالى ٦٤ من الجنود المدربين [٢٣]، يعاونهم عشرون من

الهجانة من السكان المحليين [٢٤] وخبير بالمسالك والدروب الجبلية من البدو [٢٥]. وكانت الحكومة المصرية تشجع أفراد هذه القوة بصرف مكافآت سنوية لهم كانت تخصص من ميزانية الحكومة [٢٦].

ورغم كل هذه الإجراءات التى اتخذتها السلطات الحكومية بهدف إحكام السيطرة على طرق القوافل بين مصر و الشام و منافذ الحدود بينها ،إلا أن القوافل لم تكن تلتزم بأوامر الحكومة ، فكانت تعمد إلى السير عبر الطرق الخالية من الحراسة ، مما جعل الإدارة تعاملهم معاملة القوافل الهاربة .

كما تعرضت القوافل للسلب و النهب من قبل اللصوص من العربان ، ففى عام ١٨٣١ تعرضت قافلة قادمة من غزة فى طريقها إلى القاهرة للهجوم من قبل عربان المعازة الذين أعملوا فيها القتل و النهب ، لكن قوجة أحمد أغا المكلف بحراسة طرق الشام تمكن من اعتقال عشرة أشخاص من القبيلة المذكورة من بينهم شيخ القبيلة كرهائن حتى يظهر الجناة [٢٧].

و كان الاعتداء علي سالكي الطرق المتجهة إلى الشام مصدر قلق لحكومة غزة أيضا ، حيث شكى صالح أغا متسلم غزة من اعتداء العربان على سالكى هذه الطرق من الموظفين و الأهالي ، و طلب من الحكومة المصرية اتخاذ التدابير الفعالة لمنع هذه الاعتداءات و منع تسلط عربان الصالحية بالذات على سالكى الطرق حفاظا على أمنها[٢٨].

و كانت هذه الاعتداءات من قبل العربان على سالكى الطرق تضطر الحكومة فى بعض الأحيان إلى استخدام القوة العسكرية لردع هؤلاء المعتدين، كما حدث مع عربان الرتيمات الذين هاجموا قافلة قادمة من غزة كانت تسلك الطريق المصرى و محملة بالأقمشة الحريرية و الصابون و السكر فقاموا بسلب كل ما وجدوه بالقافلة ، و يبدو أن حجم القافلة كان ضخما حتى قيل بأن السكر و الحرير قد كثر فى بلاد الرتيمات لدرجة

أنهم كانوا يجدلون قيود إبلهم من الحرير ، و يسقونها ماء السكر ، و لما خشيت الحكومة من انهيار التجارة بين مصر و بلاد الشام ، نتيجة هذه الهجمات ، أرسلت إليهم فرقتين عسكريتين تمكنتا من تطويقهم بعد مطاردة واسعة قتل فيها من الرتيمات عدد كبير ، حتى اضطر كبراؤهم فى النهاية إلى القدوم للعريش طالبين الأمان فأعطى لهم[٢٩] .

وعلى طريق العريش قام عربان العزازمة بنهب قافلة كانت متجهة إلى القاهرة لكن تم القبض على مشايخهم ، ووضعوا بالسجن ، لكنهم ثقبوا حائط السجن و فروا ليلا متجهين إلى غزة [٣٠].

و هكذا يتضح أن الحكومة المصرية كانت مهتمة بأمن الطرق المؤدية إلى بلاد الشام علي أساس أن هذه الطرق هي شرايين الحركة التجارية ، التى لابد من الاهتمام بسلامة السير عليها ، لهذا وضعت نقاط التفتيش الثابتة و محطات الحراسة المتحركة علي هذه الطرق .

تنظيم حركة الدخول و الخروج عبر الحدود :

اهتمت الحكومة المصرية بوضع ترتيبات خاصة لتنظيم حركة الدخول والخروج سواء للقوافل أو الأفراد ،وذلك بهدف منع هروب القوافل و تهريب البضائع والحيوانات خارج الحدود أو داخلها دون إجراءات رسمية . ومن هذه الترتيبات ،إنشاء جمرك العريش ، الذى كان ينظم حركة دخول و خروج البضائع . و كذلك إنشاء نقطة للحجر الصحى (الكورنتينة) لتحصيل العوائد الصحية على الأفراد و الحيوانات وعمل الإجراءات الصحية اللازمة للوقاية من الأوبئة خارج أو داخل الحدود . كما أقامت الحكومة قلما خاصا لجوازات السفر (الباسبورتات – Passports) و ألحقت هذا القلم بالكورنتينة منذ عام ١٨٥٢ حيث صدر قانون جوازات السفر[٣١] .

و بالنسبة لتنظيم حركة دخول و خروج القوافل ، فقد كانت أولى الإجراءات التى تتخذ مع القافلة القادمة من بلاد الشام هى الإجراءات الصحية ، حيث تحيط بالقافلة

على الفور قوة من عساكر الهجانة و الخيالة و عساكر نقطة الحجر الصحي حيث يقتادوها إلى مقر نقطة الحجر الصحى ، و هناك تتخذ معها الإجراءات الصحية اللازمة للتأكد من سلامة أفرادها و حيواناتها و خلوهم من أية أمراض وبائية [٣٢]. ثم تحصل العوائد الصحية و بعدها تنطلق القافلة إلى نقطة جمرك العريش حيث تدفع الرسوم الجمركية بعد مراجعة أرقام البضائع والتأكد من مطابقة الأرقام الواردة بالأوراق مع عدد الطرود الموجودة بالقافلة بالفعل، و بعد ذلك يتم الإفراج عنها .

والقوافل المتجهة من مصر إلى بلاد الشام ، كانت لها ثلاث محطات جمركية رئيسية، الأولى هى جمرك باب النصر بالقاهرة ، و الثانية هي جمرك العريش ، و الثالثة جمرك السويس. و فيما يتعلق بجمرك باب النصر ، فقد كان هذا الجمرك هو المحطة الأولى للقوافل القادمة من الشام ، خاصة بعد إلغاء جمرك بولاق عام ١٨٥٥ الذى كان يعمل عمل جمرك باب النصر[٣٣]. و فى جمرك باب النصر يقوم موظفو الجمرك بفرز وتفتيش الطرود والبضائع المصدرة إلى الشام ، حيث يتأكدوا من كمية أو حجم البضاعة الموجودة بالفاتورة (الرقية) مع ما هو موجود مع التاجر ، ثم يقوم «الكشافون» بفرز وتفتيش الطرود بدقة للتأكد من عدم وجود أصناف أخرى غير مبينة بالفاتورة أو (الرقية) ثم يقوم أمين الجمرك بتحرير كشف ببيان وكمية هذه البضاعة و اسم التاجر المصدر والمستورد لها، و اسم عريف القافلة التى ستحمل هذه البضاعة [٣٤]. وبعد ذلك يقوم شخص مختص بحزم الطرود بطريقة معينة، ثم يقوم أمين الجمرك بنفسه فى معظم الأحيان بختم الطرود المحزومة بختم الجمرك ،ثم يتم تحصيل الرسوم والعوائد على هذه البضاعة[٣٥]. وبعد ذلك يحصل التاجر على تصريح مدون به كل البيانات الخاصة بالبضاعة ومختوم عليها بخاتم الجمرك. وعلى التاجر أو وكيله أو عريف القافلة التى تحمل البضائع أن يبرز هذا التصريح عند طلبه فى نقاط التفتيش أثناء سيره على الطرق المؤدية إلى الشام.

وعندما تصل القافلة من القاهرة يقوم كشافو الجمرك بالكشف عن وجود تصريح المرور المدون به كمية البضائع وعدد الطرود واسم التاجر المصدر، والمستورد، ثم يقوم أمين الجمرك بمضاهاة كمية البضاعة المدونة بالتصريح مع البضاعة الموجودة مع القافلة فى الواقع وذلك بعمل «جشنى» (اختبار بفتح عدد عشوائى من الطرود) على البضائع للتأكد من صحة البيانات المدونة بالتصاريح ومطابقتها للواقع . وإذا وجد خلاف بين عدد الطرود وكمية البضائع كما هو مدون بالتصريح ،عندئذ تحجز البضاعة الزائدة بالجمرك، وكذلك مع بضائع القوافل التى لاتحمل تصاريح مرور ،يتم حجزها بالجمرك لحين وصول رد مصلحة عموم الجمارك حول كيفية التصرف فى البضائع المحجوزة بالجمرك (٣٦).

والقوافل الواردة من الشام عبر الجدود المصرية عبر رفح والعريش ،فعند وصولها تحيط بها قوة من عساكر الهجانة والخيالة بالإضافة إلى عساكر الحجر الصحى فى شكل حلقة «كردون»لمنع اختلاطهم مع الأهالى ، كإجراء صحى وقائى ، وبعد ذلك يقوم «الحكيمباشى» وناظر الكورنتينة بالتأكد من خلو القافلة من أى أمراض وبائية ، بينما يقوم «الحكيم البيطرى» بالتأكد من خلو الحيوانات المصاحبة للقافلة من أية أمراض معدية، وكذلك الحبوب والغلال والخضر والأصناف الأخرى التى تستخدم كطعام للإنسان، وخلوها من الموانع الصحية . وعند ثبوت صلاحية هذه البضائع من ناحية الصحة، وخلو الأفراد والحيوانات من الأمراض الوبائية ،يحصل صاحب القافلة على الشهادة الدالة على براءة القافلة من الحجر الصحى « براتكه ـ Pratique » بمعرفة ناظر الكورنتينة(٣٧).

وعقب الإجراءات الصحية تتجه القافلة إلى جمرك العريش حيث يجرى معها الإجراءات اللازمة من تحصيل الرسوم الجمركية ، والتأكد من سلامة الأوراق والتصاريح التى تحملها القافلة ومطابقتها لواقع الحمولة التى تحملها القافلة .

وكان جمرك السويس أحد المحطات التى تصلها القوافل الواردة من العريش عبر طريق الحسنة فى وسط سيناء، حيث كان بعض أصحاب القوافل يفضلون ارتياد طريق الحسنة ،إما للتهرب من الإجراءات التى قد يصادفوها بطريق العريش ، وإما لوجود حزازات بينهم وبين قبائل العريش، كما حدث مع سالم أحد عربان الترابين ،الذى توجه عبر هذا الطريق بقافلة مكونة من خمسة عشر جملا محملة بالصابون ، وعند ضبطه بمعرفة جمرك باب النصر تبين أنه لا يحمل تصريحاً بالبضائع التى يحملها وليس معه براءة صحية (براتكه)، وأكد لأمين الجمرك أنه جاء عبر طريق الحسنة لوجود مشاحنات بين عربان قبيلته وبين عربان السواركة وعربان العريش (٣٨).

وكانت أهم البضائع التى تأخذ طريقها إلى بلاد الشام عبر السويس البضائع الهندية مثل اللؤلؤ والمرجان واليسر والكشمير والحبهان والقرفة والقرنفل والبن وجوز الطيب والفلفل ،والبضائع المصرية كالأقمشة والشبة والبلح والعجوة. (٣٩) وفيما يتعلق بدخول وخروج الأفراد المسافرين عبر الحدود المصرية ـ الشامية فقد كان هناك منذ مطلع القرن التاسع عشر إثباتات شخصية للأشخاص كانت تسمى «تذاكر المرور» . وكان يتم استخراج هذه التذاكر للمسافرين خارج مصر، و كان على الشخص الذى يرغب فى السفر للخارج أن يقدم طلبا بذلك لمديريته أو محافظته التابع لها ، يطلب فيه رغبته فى السفر مع ذكر اسم البلد الذى يرغب السفر إليه ، فتقوم المديريه أو المحافظه بالتحرى عنه ، و إذا ثبت خلو طرفه من الدعاوى و القضايا ، فإن عليه أن يقدم ضمانا كافيا لعودته إلى مصر ثانية . و قد ظل إجراء تقديم الضامن و الضمان حتى ظهور قانون الباسبورتات.(٤٠) و بعد تقديم هذا الضمان ووجود الضامن يحصل الشخص على تذكرة صحية (بطنطه – Patente) (٤١).

وكان يوجد بالعريش – باعتبارها منفذا حدوديا – قلما خاصا بجوازات السفر وجوازات المرور مهمته مراجعة جوازات السفر الخاصة بالمسافرين الأجانب ، و تذاكر المرور الخاصة بالمصريين ، ثم ختمها بشعار الحكومة المصرية ، إلا أن الخاتم الخاص

بهذا القلم لم يكن موجودا حتى عام ١٨٨٢ ، حين أرسلته «مصلحة الصحة البحرية والكورنتينات» لمحافظة العريش، و كان مدير قلم الجوازات يكتفي بالإمضاء قبل عام ١٨٨٢ دون الختم على الأوراق. و من مهام هذا القلم أيضا إصدار الجوازات الجديدة للأفراد الراغبين فى السفر إلى خارج القطر (٤٢). وكان رسم«الباسبورت» الواحد عام ١٨٨٣ حوالى خمسة قروش (٤٣) .

وقد أوكلت مهمة إدارة قلم الباسبورتات إلى ناظر الكورنتينة و أحيانا إلى الحكيمباشي لدرايتهما باللغات الأجنبية ، حيث لا يخلو الأمر من مرور أشخاص أجانب عبر الحدود . و كان الناظر أو الحكيمباشي يتقاضي عن ذلك أجرا إضافيا بلغ فى عام ١٨٨٣ حوالي ٢٥٠ قرشا شهريا (٤٤).

– عمليات التهريب عبر الحدود المصرية – الشامية :

كانت حدود مصر مع بلاد الشام منذ بداية القرن التاسع عشر معلومة لكل من الطرفين المصرى والشامى الممثل فى الدولة العثمانية ،وكانت هناك علامات حدودية بالفعل فاصلة بين الطرفين ،لكن لم تكن هذه العلامات موضوعة على طول الحدود،منها عامودى الحدود عند رفح ،والعلامات الطبيعية المتمثلة فى بعض النباتات الطبيعية كشجرة السدر الشهيرة عند رفح ، بالإضافة إلى الهضاب والجبال التى تشكل فى بعض المناطق الفاصلة بين مصر والشام علامات حدودية بارزة تفصل بين المجتمع القبلى فى سيناء ونظيره على حدود الشام .

وقد حاول محمد على بشتى الطرق أن يكافح تهريب البضائع وبخاصة من جهة السويس وطريق الشام .وكان التهريب يتخذ طرقاً مختلفة ، فكان العساكر والضباط يدسون البضائع وسط أمتعتهم عند سفرهم إلى الشام أو الحجاز ،فعالج محمد على ذلك بأن أعطاهم تذاكر تبين مفردات أمتعتهم .وعالج أيضاً التهريب عن طريق البحر بأن أعد نظاماً يقضى بعدم خروج مراكب الصيد من مرساها من بعد غروب الشمس حتى مشرقها ، وأقام عليها حراساً ،ومن يخالف ذلك يعدم حرقاً (٤٥) .

وقد اتخذت الحكومة المصرية كثيرا من الإجراءات التى تهدف إلى السيطرة على حركة الدخول والخروج عبر الحدود سواء للقوافل أو الأشخاص وكان محافظ العريش يشدد على قائد القوة المخصصة لحفظ الطرق بضرورة سير قوات الهجانة للمرور على « حدود الصحراء والحدود السورية » لإحداث « الضبط والربط على الحدود » ، ومن هروب الأشخاص عبر الجبال والدروب الغير مطروقة[٤٦] .

لكن هذه الإجراءات التى اتخذتها الحكومة المصرية بهدف إحكام «الضبط والربط على الحدود» لم تكن كافية ،ويرجع ذلك إلى عدة عوامل هى :

١ـ اتساع المساحة الحدودية مع بلاد الشام ،وقلة عدد أفراد القوة العسكرية المنوط بها حفظ وتأمين الحدود .كما أن هذه القوة كانت فى بعض الأحيان يتم سحبها لمرافقة وحراسة قافلة الحج المصرى خصوصاً قبل شق قناة السويس، وسفر الحجاج عن طريق البحر[٤٧] .

٢ـ القلاقل التى يثيرها وجود العربان على الحدود ، حيث كانت تعوق عمل أجهزة الدولة على الحدود المصرية ـ الشامية .منها مثلا تعدى عربان الشام على عساكر الحدود المصرية ، وعلى العربان القاطنين داخل الحدود المصرية[٤٨] ، وكذلك تدخلهم فى عمل وشئون الجمرك والكورنتينة[٤٩].

٣ـ تواطؤ بعض الموظفين مع الأشخاص والقوافل بهدف إدخالهم الحدود أو خروجهم منها دون إجراءات رسمية أو دفع رسوم أو عوائد ، حتي أنه فى أحد شهور عام ١٨٦٢ مر على الجمرك حوالى ٤٧٢ شخصا دون دفع أية رسوم[٥٠] .

و خلال القرن التاسع عشر ظهرت حالات عديدة لتهريب البضائع و الأشخاص ، بل و حتي الحيوانات سواء من مصر أو من بلاد الشام . و قد اتخذت عمليات التهريب حيلا و أشكالا عديدة منها :

١ـ هروب القوافل المحملة بالبضائع :

كان بعض أصحاب القوافل يتعمدون السير من المسالك الجبلية البعيدة عن مقر جمرك العريش و نقطة الحجر الصحي تهربا من دفع أية رسوم على ما يحملونه من بضائع . وكان عساكر حراسة الطرق و الحدود يقومون بمطاردةالقوافل الهاربة ويحضرونها إلى مقر الحجر الصحي و الجمرك لاتخاذ الإجراءات اللازمة معها .

ففى عام ١٨٥٧ تم ضبط قافلة تضم ٢٧ جملا مخملة بأنواع مختلفة من البضائع القادمة عن طريق السويس ، وثلاثة قوافل أخرى أصحابها من عربان « الحويطات » و«الترابين البرابرة » محملة بـ (١٠٣) طردا من الصابون المهرب من الشام ،وقد تم ضبطهم بواسطة عساكر الهجانة ، وعند سؤالهم عن سبب مجيئهم دون إجراءات رسمية أجابوا بأنهم جاءوا عبر الطريق العلوى طريق «الفرما » ، ولم يمروا على العر يش ، ولم يرهم أحد ،كما أن هذا الطريق على حد تعبيرهم خالى من الحراسة أو نقاط التفتيش (الرباطات) (٥١).

وقد تعددت شكاوى أمين جمرك باب النصر من كثرة وفود القوافل المهربة بالبضائع عبر جمرك العريش إلى جمرك القاهرة ،فطالب بضرورة ضبط الطرق لمنع عمليات التهريب .كما أرسل قائمة بالبضائع المهربة التى تم ضبطها عند دخولها القاهرة، ووصل عدد الطرود المهربة بهذه القائمة حوالى ١١٩٠ طردا من مختلف أنواع البضائع (٥٢).

ولم تكن عمليات التهريب قاصرة على البضائع فقط ،بل شملت عمليات التهريب سرقة الملح من الملاحات الموجودة بالقرب من العريش وتهريبه عبر الحدود إلى مدن بلاد الشام التى تفتقر إلى هذه السلعة (٥٣).

ومع نهاية القرن التاسع بدأت تظهر أنواع جديدة من المهربات ،والتى تمثلت فى المخدرات ،وأن لم تحظ باهتمام السلطات المصرية فى ذلك الوقت ، نظراً لعدم وجود

القوانين الصارمة التى تمنع جلبها ،اللهم إلا القانون الصادر فى مارس سنة ١٨٨٤ والذى كان يحرم زراعة أو جلب الحشيش ، ويغرم من يقدم على هذا العمل غرامة لا تتعدى ٢٠٠ قرشاً (٥٤).

وتطالعنا الوثائق بالبدايات الأولى لتهريب الحشيش عبر الحدود الشرقية المصرية. ففى عام ١٨٩٤ تم ضبط جمل محمل بالحشيش خاص بأحد العرايشية ،فتم بيع الجمل والحشيش لصالح خزينة الدولة (٥٥) . حيث كان القانون المذكور يسمح ببيع الحشيش المضبوط لمن يشتريه شريطة أن يقوم ببيعه فى ظرف خمس عشر يوماً إلى أحد الموانئ العثمانية (٥٦).

على أية حال ، فإن هروب القوافل واتخاذها طرقاً و مسالكاً جبلية من الأمور الشائعة فى الوثائق الخاصة بمحافظة العريش . كما أن أصحاب القوافل الذين يلجأ ون للتهرب من دفع الرسوم الجمركية ، غالباً ما يؤكدون أنهم لا يعلمون بوجود حراسة على تلك الطرق التى يرتادوها .

٢ـ البضائع المخبأة داخل الطرود :

وهى تلك البضائع التى يعمد أصحاب القوافل التى تمر بصورة قانونية إلى وضعها داخل جيوب سرية بالطرود التى تم حزمها بجمرك إقلاع القافلة. فالقافلة فى هذه الحالة تتبع الطريق القانونى وتمر على الجمرك، لكن عند تفتيشها يجد الموظف المسئول أن البضاعة المدونة بالتصريح غير مطابقة للواقع .

وقد استغل أصحاب الجمال و عرفاء القوافل ،أن القانون المصرى طوال القرن التاسع عشر لم يكن يسمح بفتح الطرود المغلقة والمحزومة بمعرفة جمرك باب النصر إلا فى وجود أصحابها، فقاموا بدس بضائع خاصة بهم داخل هذه الطرود عن طريق وضعها فى جيوب سرية (٥٧).

وقد شكى قنصل أسبانيا فى عام ١٨٥٧ بسبب قيام موظفى جمرك العريش من فتح بضاعة خاصة بأحد رعايا أسبانيا، لكن رد جمرك العريش بأن البضاعة التى مرت على الجمرك الخاصة بالتاجر المذكور كانت غير مطابقة لما فى التصريح ،بل كان هناك زيادة فى كمية البضاعة عما هو موجود بالتصريح ،ومن ثم صار فتحها(٥٨).

وهناك حالات كثيرة حول هذا النوع من عمليات التهريب والتى رصدها جمرك العريش ضمن الوثائق الخاصة بمحافظة العريش ، فعند تفقد طرود أحد العرايشية ، وهى خاصة بعدد من التجار، وجد بروز واضح بأحد الطرود من إحدى جوانبه ، فتم فتحه فوجد به أقمشة زائدة عما بالتصريح الخاص بالقافلة، فتم حجز هذه البضاعة الزائدة، وأعيد حزم الطرد كما كان عليه بمعرفة شخص مختص من موظفى الجمرك(٥٩).

وخلال رحلة أخرى لنفس الشخص على رأس قافلة تضم ٤٦ جملا محملة بالبضائع من القاهرة فى طريقها إلى أحد مدن بلاد الشام ،فعند تفقد أحد الطرود وجد بها ٤٧ قطعة زائدة عما هو مدون بالتصريح مما اضطر موظف الجمرك إلى فتح باقى الطرود وتفتيشها ،وحجز البضاعة الزائدة(٦٠).

كما شمل هذا النوع من التهريب أساليب التمويه ومحاولة خداع رجال الجمرك. كما حدث مع أحد الجمال المحملة بالقمح الوارد من غزة ،وعند تفتيشه تبين أنه محمل «بالتنباك» وليس القمح كما تذكر الأوراق التى يحملها صاحب الجمل ،ولهذا تم حجز التنباك وأرسل إلى إدارة «السيناتاه» (٦١).

ومن الآثار السلبية التى أحدثتها عمليات تهريب البضائع ،ما حدث فى عام ١٨٨١ من وصول شحنة قمح مخلوط ببذور نبات سام ينتمى إلى فصيلة «النجيلية» حسب تقرير «المعمل الكيماوى باسبتالية مصر» ، وهذا النبات السام غالباً ما ينمو فى مزارع القمح بمدن بلاد الشام فأصدرت الحكومة المصرية أنئذ أوامرها للأهالى والمزارعين بعدم تناول أى خبز مصنوع من هذا النوع من القمح ، كما منعت المزارعين من استخدام بذور هذا النوع من القمح(٦٢).

ولا شك من وجود آثار سلبية لعمليات التهريب على الإقتصاد المصرى من خلال إغراق السوق المصرى بأنواع مختلفة من البضائع التى لم تسدد رسومها الجمركية، والتى كانت أسعارها تنافس مثيلاتها من البضائع التى تدخل القطر المصرى بالطريق الشرعى ،كما أكد ذلك أمين جمرك باب النصر (٦٣).

٣ ـ هروب الأشخاص :

إن مسألة هروب الأشخاص عبر الحدود المصرية ، كانت من المسائل الصعب التحكم فيها من قبل أجهزة الدولة خلال القرن التاسع عشر ، إذا ما وضعنا فى الاعتبار دور العربان المساعد فى تهريب هؤلاء الأشخاص ، وصعوبة التحكم فى دخول وخروج الأشخاص ،بشكل دقيق فى ظل الإمكانات البسيطة التى تملكها الأجهزة الحكومية المنوط بها التحكم فى حركة الدخول والخروج .

وكانت هناك أسباب عديدة تدعو الأشخاص إلى الهروب خارج القطر المصرى :

- التخلص من الخدمة العسكرية .
- التخلص من أعمال السخرة التى كانت تمارس على بعض الفئات والطبقات .
- التخلص من دفع الضرائب داخل مصر .
- الهروب من تنفيذ الأحكام .

ففى عصر محمد على ونتيجة لفرض أعمال السخرة والضرائب الباهظة على الفلاحين اضطروا للفرار فى جماعات وهربوا خارج الحدود المصرية إلى الأقطار الشامية المتاخمة لمصر فرارا من هذه المكاره ، وتخلصا من الخدمة العسكرية ، ووصل عدد الفارين من مصر إلى حوالى ستة آلاف من الفلاحين المصريين،وقد خشى محمد على من عواقب هذه الهجرة على الحياة الاقتصادية فى مصر،فطلب من عبد الله باشا والى صيدا أن يقوم بإرجاع هؤلاء الفارين فرفض عبد الله باشا طلب محمد على محتجاً بأنهم رعايا عثمانيين ولهم أن يقيموا أنى شاءوا ،فغضب محمد على من هذا الرد وكتب يتوعده وينبئه أنه قادم ليعيدهم جميعاً ويزيدهم واحد وهو عبد الله باشا نفسه(٦٤).

و قد شمل الهروب أيضا عمليات التهرب من دفع الرسوم الجمركية نظرا لادعاء بعض الهاربين بأنهم من الفقراء [٦٥] . فقد تم ضبط قافلتين إحداهما بها ١١ شخصا بما فيهم رئيس القافلة ، و الثانية بها خمس أشخاص ، و تسجل الوثائق حالات كثيرة لهروب الأشخاص عبر الحدود المصرية – الشامية خلال القرن التاسع عشر .

ففى ٤ محرم ١٢٦١هـ / ١٤ يناير ١٨٥٤م تم ضبط ثلاثة أشخاص من الشرقية عند هروبهم من الحدود المصرية بقصد التوجه إلى بلاد الشام، و تم ترحيلهم إلى بلادهم[٦٦]. كما تم ضبط أشخاص من العربان قادمين من الشام و قد سلكوا طرقا غير معتادة تهربا من دفع الرسوم و العوائد، و قد لاحقهم العساكر و الهجانة، لكنهم تعدوا على العساكر و ضربوا اثنين منهم و أخذوا سلاحهما[٦٧].

لكن أكثر عمليات الهروب كانت بين الجنود السودانيين خلال القرن التاسع عشر. فهناك أوامر كثيرة بسرعة البحث عن الأشخاص من « العساكر » السودانيين. ففي جماد أول ١٢٧١هـ/ ١٨٥٤م ورد أمر من الداخلية بسرعة البحث عن « ٢٤ نفر جهادى هاربين من العساكر السودانية»[٦٨]. و قد استطاع البعض الهروب عبر الحدود بتذاكر مرور مزورة ، و مروا على الجمارك و الحجر الصحي دون أن يكتشف تزويرهم ودخلوا الحدود الشامية[٦٩] .

كما استطاع البعض الهروب عبر الدروب و المسالك غير المعتادة مثلما حدث عندما مرت الدورية علي الحدود فوجدت حوالي (٢٠) شخصا متوجهين إلى الشام من الطرق غير المعتادة بالقرب من جهة رفح ، و حينما اقترب منهم رجال الدورية فروا هاربين داخل الحدود الشامية[٧٠] .

لكن الطريف فى الأمر أن يهرب الرجال المكلفين بالقبض علي الهاربين، و هذا ما حدث فى عام ١٨٥٥ حينما هرب تسعة أشخاص ممن يعملون تحت قيادة رفاعى أغا المسئول عن أمن العريش و الحدود و الطرق المؤدية إليها ، و توجهوا شطر بلاد الشام بعد أن حصلوا على كامل رواتبهم[٧١].

٤ـ تهريب الحيوانات :

كانت الحكومة المصرية تشجع عملية دخول الحيوانات داخل القطر المصرى ، لكنها كانت تضع ضوابط معينة لخروج الحيوانات خارج القطر المصرى نظرا لأهمية الحيوانات للثروة الزراعية فى مصر .

و قد أصدرت الحكومة المصرية قرارا فى عام ١٨٥٣ بمنع خروج الخيول الإناث من القطر المصرى ، و أخذت التعهدات اللازمة علي رؤساء القوافل بمنع قيامهم باصطحاب الخيول الإناث و بيعها فى بلاد الشام(٧٢). و لا شك أن مثل هذا القانون كان يهدف إلى الحفاظ على سلالة الخيول الموجودة بمصر من ناحية ، و زيادة أعداد الخيول اللازمة للجيش من ناحية ثانية ، حيث كان سلاح الخيالة يعتمد اعتمادا كاملا على الخيول .

و منعا لتفشي الأمراض التى قد تضر بالثروة الحيوانية، أخضعت الحكومة المصرية الحيوانات، و حتى الحبوب والخضر و الأطعمة لنظام الحجر الصحي بهدف الحفاظ على الصحة العامة فى مصر(٧٣) .

و كان هدف الدولة دائما هو الإكثار من حجم الثروة الحيوانية ، لهذا عملت على تشجيع استيراد الحيوانات من الخارج ، و لهذا لم تفرض رسوما جمركية و اكتفت فقط بأداء أصحابها لعوائد الحجر الصحي . و حين قام محافظ العريش بتحصيل جمارك على الأغنام الواردة من الشام و الخاصة بأهالي العريش بواقع خمسة قروش عن كل رأس، قام أهالى العريش بالشكوى لدى الحكومة المصرية من تصرف المحافظ ، و أكدوا فى شكواهم أن هذا الأمر لم يحدث فى تاريخ جمرك العريش(٧٤) .

و الواقع أن الحكومة المصرية لم تضع رسوما جمركية علي الحيوانات الواردة من بلاد الشام، و خاصة الأغنام. حيث كانت التعليمات الواردة لجمرك العريش من القاهرة تأمر موظفي الجمرك بعدم التعرض للأغنام الواردة من الشام، و عدم فرض أية رسوم عليها(٧٥).

و لهذا كانت عمليات التهريب تتم من داخل الحدود المصرية إلى الحدود الشامية. لكن على أى الأحوال كان تهريب الحيوانات فى غالب الأحيان لا يتم عن قصد خاصة إذا كان الحيوان هو وسيلة النقل لتهريب الأشخاص و البضائع. و من خلال حالات تهريب الحيوانات التى تصادفنا فى الوثائق نلاحظ أن هذه الحيوانات المهربة حينما تصل إلى العريش تكون فى حالة صحية سيئة نتيجة لقطعها مسافات طويلة مع عدم وجود الأعلاف الكافية مع أصحابها . فقد حدث فى عام ١٨٥٧ أن تم ضبط ٢٣ فرسا بصحبة عدد من الأشخاص و هم يحاولون الهرب عبر الحدود ، لكن إسماعيل أغا قائد فرقة الهجانة بالعريش اقترح إعدام هذه الخيول نظرا لفقر أصحابها وعدم توفر الأعلاف اللازمة لها لدى محافظة العريش[٧٦] . كما تم ضبط أربعة أشخاص وبصحبتهم ٣٤ فرسا يحاولون الهرب عبر الحدود، وبعد ضبط الخيول والأشخاص، تمكن ثلاثة أشخاص منهم من الفرار من أيدى رجال الهجانة، فتم اقتياد الخيول إلى إسطبل المحافظة بقلعة العريش، لحين صدور الأوامر بشأنها [٧٧].

وهكذا يتضح أن اهتمام الحكومة المصرية بعدم خروج الحيوانات خارج القطر المصرى كان لسببين:

الأول : أهميتها ـ وخصوصاً الخيول ـ بالنسبة للجيش المصرى .

الثانى : أهميتها بالنسبة للثروة الزراعية والإقتصاد المصرى .

٥ ـ معاملة القوافل والأشخاص الهاربين :

بالنسبة للقوافل التى كان يتم ضبطها بمعرفة رجال الدوريات والهجانة التابعين لمحافظة العريش ، فكان يتم اقتيادها إلى مقر الحجر الصحى « الكورنتينة » حيث تخضع للحجر الصحى ، و تحصل منها عوائد الحجر الصحى بواقع ٣٠٠ ٪ وأحياناً ٥٠٠ ٪ من قيمة العوائد الصحية الرسمية [٧٨] .

وبعد تحصيل العوائد الصحية من القافلة الهاربة و إخضاعها للحجر الصحى ، يتم اقتيادها إلى مقر جمرك العريش حيث تدفع الرسوم على ما معها من البضائع بواقع ٢٠٠٪ من قيمة الرسوم الأصلية (٧٩) .

وفيما يتعلق بالبضائع التى يتركها أصحاب القوافل و يفروا هاربين ، فقد كان يتم فى هذه الحالة بيعها بمعرفة جمرك العريش عن طريق المزاد العلني و إذا وجدت أسلحة ضمن هذه المتروكات فكانت تدخل ضمن عهدة محافظة العريش لحين طلبها من نظارة الداخلية . و بعد بيع المتروكات يحصل أفراد « الضبطية » و المبلغين عن القافلة الهاربة علي نصيب من ثمنها بعد البيع كمكافأة لهم على همتهم و يقظتهم ، و تشجيعا لهم علي أداء عملهم بكل همة و نشاط (٨٠).

و تشجيعا للعربان و الأهالى على مساعدة رجال الإدارة الحكومية فى ضبط الأمن و الحركة على الحدود ، قامت الحكومة بمنح الشخص الذى يقوم بالتبليغ عن قافلة هاربة جزءا مما يتم تحصيله من هذه القافلة من رسوم و غرامات ، و منح الشخص الذى يضبط قافلة أو بضائع هاربة من أداء الرسوم الجمركية ٢٥٪ من قيمة ما يتم تحصيله من رسوم. كما يحصل الشخص الذى يقوم بضبط « عسكرى » هارب من الحدود مبلغا قدره مائة قرش(٨١).

و كانت هذه الإجراءات بمثابة محاولة من الحكومة المصرية لإشراك العربان والأهالي فى تحمل مسئولية أمن الحدود المصرية لتحويلهم من عنصر اضطراب على الحدود إلى عنصر فعال و مساعد للإدارة .

و هكذا يمكننا الوصول إلى عدة حقائق حول طبيعة حركة القوافل و الأشخاص عبر الحدود المصرية ـ الشامية خلال القرن التاسع عشر :

أولا : أن الحركة على الطرق المؤدية إلى بلاد الشام كانت منظمة تنظيماً جيداً ، ولم تكن هذه الحركة تسير بشكل عشوائى فقد كان هناك نقاط تفتيش وحراسة على

طول الطرق بهدف تأمين هذه الطرق ومنع تعدى اللصوص على القوافل ، ومنع تهرب القوافل من أداء الرسوم والخضوع للإجراءات الصحية .

ثانياً : أن فكرة الحد الفاصل بين مصر والشام كانت موجودة طوال القرن التاسع عشر ، و كثيراً ما كان يتوقف رجال « ضبطيات » الحدود عن مطاردة القوافل الهاربة بسبب دخولها حدود غزة خشية الدخول فى مشكلات إدارية مع حكومة غزة.

ثالثاً : أن كثرة عمليات التهريب عبر الحدود لم يكن سببها سوء تنظيم القوة المنوط بها حفظ و تأمين الحدود ، ولكن طول المساحة الحدودية وقلة إمكانيات هذه القوة وسلوك العربان و المهربين هى الأسباب الرئيسية لكثرة عمليات التهريب عبر الحدود .

رابعاً : كان لعمليات التهريب عبر الحدود آثار سلبية على المجتمع والاقتصاد

المصرى من خلال وصول بعض شحنات القمح المسموم كما رأينا ، وتهريب الحيوانات وما له من تأثير على الثروة الزراعية ، وهروب الفلاحين خارج البلاد و ما له من آثار على الاقتصاد الزراعى فى تلك الفترة .

خامساً : كان اهتمام الحكومة بضبط الحركة على الطرق و الحدود مع بلاد الشام يهدف فى الأساس إلى حماية شريان التجارة بين مصر والشام .

الهوامش

(١) سحر على فهمى ، العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى فى القرن الثامن عشر ، سلسلة تاريخ المصريين (١٧٨) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠ ، ص ٢٣٧ .

(٢) أمين مصطفى عفيفى عبد الله ، تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٢٨٤ .

(٣) سحر على فهمى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(٤) أمين مصطفى عفيفى ، المرجع السابق ، ص ٢٨٤ .

(٥) أمين مصطفى عفيفى عبد الله ، المرجع السابق ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠٢ .

(٦) نعوم شقير ، تاريخ سيناء القديم و الحديث...، القاهرة ، ١٩١٦، ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٧) نفسه ، ص ٢٦١ .

(٨) عبد الحميد سليمان ، تاريخ الموانئ المصرية فى العصر العثمانى، سلسلة تاريخ المصريين، العدد (٨٩) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٢٣٠ ، ٢٣٤ .

(٩) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٩ ج١ ، ص ٢٣ صادر لوكيل سر سوارى ، وثيقة ٦ بتاريخ غاية ربيع أول ١٢٧٤ هـ/ ١٨ نوفمبر ١٨٥٧ م . و سجل ٤٢ ، ص ٢٤ صادر لكمرك باب النصر ، وثيقة واحد بتاريخ واحد محرم ١٢٧٢ هـ/ ١٣ سبتمبر ١٨٥٥ م .

(١٠) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٤١ ، ص ١٠ صادر لمديرية القليوبية ، وثيقة ٢ بتاريخ ٥ ربيع آخر ١٢٧٩ هـ/ ٣١ سبتمبر ١٨٦٢ م .

(١١) باشبوزق أو باشى بوزق : اصطلاح تركى يعنى جندى غير نظامى . راجع :
Redhous , James ,W.,Turkish and English lexicon ,Istanbul,1979 , p. 398 .

(١٢) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ١ ، ص ١٦ صادر للجهادية ، وثيقة ٧ بتاريخ ١٢ جمادى الأولى ١٢٦١ ه / ٢٠ مايو ١٨٤٥ .

(١٣) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ١٢ ، ص ٥ صادر لديوان داورى بالإسكندرية ، وثيقة ٤ بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى ١٢٦٥ هـ / ١٩ أبريل ١٨٤٩

(١٤) صادر تحريرات محافظة العريش، سجل ٢٠ ، ص ١٩ صادر لمجلس أحكام مصر ، وثيقة ٦ بتاريخ ١٩ ذو الحجة ١٢٧٠ هـ / ١٤ سبتمبر ١٨٥٤ م .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢ صادر للمالية ، وثيقة ٢٤ ربيع أول ١٢٦٩ هـ / ٦ يناير ١٨٥٦م .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ١٩ صادر لمجلس أحكام مصرية ، وثيقة ٦ بتاريخ ١٩ ذو الحجة ١٢٧٠هـ / ٤ سبتمبر ١٨٥٥ .

(١٧) كان لكل قبيلة من قبائل سيناء منطقة معروفة لديها ولدى القبائل الأخرى ، ولا يمكن لقبيلة أن تتعدى حدودها إلى حدود القبيلة الأخرى ، وكانت هذه الحدود تعرف لدى الحكومة باسم الدرك .

(١٨) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٢ ، ص ١٠ صادر لمجلس أحكام مصر ، وثيقة ١ بتاريخ ٨ محرم ١٢٧٠ ه/ ١٢ أكتوبر ١٨٥٣ م .

(١٩) وارد تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٤ ، ص ١٢ وارد كمرك باب النصر ، وثيقة ٦ بتاريخ ٩ شوال ١٢٧٦هـ/ ١٧ يوليه ١٨٥٣ م . وصادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٩ ج ١ ، ص ١١١ صادر لديوان الداخلية ، وثيقة ٧٠ بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٢٧٤ هـ/ ٧ يناير ١٨٥٨ م . و ص ٣٥ صادر إلى محافظة السويس ، وثيقة ٢ بتاريخ ٢٠ رمضان ١٢٧٤ هـ/ ٥ مايو ١٨٥٨ م .

(٢٠) نظارة المالية ، ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٨٨٠ ، ص ١٠١ .

(٢١) دفتر وارد جندرمة العريش ، سجل ٥٥ ، ص ١ وارد من سعادة لواء عموم الجندرمة ، وثيقة ١ بتاريخ ١ سبتمبر ١٨٨٣ .

(٢٢) نفسه .

(٢٣) دفتر وارد جندرمة العريش ، سجل ٥٥ ، ص ١ وارد من سعادة لواء عموم الجندرمة ، وثيقة ٢ بتاريخ ٣ سبتمبر ١٨٨٣ .

(٢٤) كوبيا قسم الإدارة ، محافظة العريش ، سجل ١ ، ص ٤١٣ .

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٤١٢ .

(٢٦) نظارة المالية ، ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٨٩١ ، المطبعة الأهلية ببولاق ، القاهرة ١٨٩٠ ، ص ٢٣٤ .

(٢٧) بطاقات الدار ، بطاقات الأمن العام ، درج ٥٨ ، وثيقة ٢٥٢ بتاريخ ٣ رمضان ١٢٧٤ هـ .

(٢٨) المصدر نفسه ، وثيقة ١٠٣ من ديوان الخديوى لطاهر باشا وكيل الضبطية ، ١١ رمضان ١٢٤٧ هـ.

(٢٩) نعوم شقير، المرجع السابق ، ص ٥٨٠ .

(٣٠) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٤ ، ص ٨٥ صادر لديوان المالية ، وثيقة ٢ بتاريخ ١٨ ربيع الأخر ١٢٦٢ هـ / ١٧ أبريل ١٨٤٦ .

(٣١) مجلس أحكام مصر ، دفتر مجموع أمور إدارة و إجراءات ، ص ٢١٨ ، منشور الديوان الكتخداوى فى رجب ١٢٦٨ هـ/ أبريل مايو ١٨٥٢ م .

(٣٢) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٩ ج١ ، ص ١١١صادر لديوان الداخلية ، وثيقة ٧٠ بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٢٧٤ هـ / ٧ يناير ١٨٥٨ م .

(٣٣) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٢ ، ص ١٠٣ صادر للمالية ، وثيقة ٨٢ بتاريخ ٢٢ شعبان ١٢٧١ هـ / ١١ مايو ١٨٥٥ م .

(٣٤) وارد تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٦ ، ص ٥٩ وارد من المالية ، وثيقة ٨٦ بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٢٧٧هـ / ٢٢ نوفمبر ١٨٦٠ م .

(٣٥) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٥ ، ص ١٦ صادر لكمرك باب النصر ، وثيقة ٥ بتاريخ ١٨ جمادى الأولى ١٢٧٦ هـ / ١٤ ديسمبر ١٨٥٩ م. وصادر تحريرات محافظة العريش، سجل ٢٩ ج١ ، ص ٧٥ صادر لديوان الداخلية ، وثيقة ٣٦ بتاريخ ٥ جمادى الآخر ١٢٧٤ هـ / ٢٢ يناير ١٨٥٨ م .

(٣٦) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٩ ج١، ص ٥٨ صادرلمحافظة السويس ، وثيقة ٥ بتاريخ غرة ذو الحجة ١٢٧٣ هـ / ٢٨ يوليو ١٨٥٧ م، ص ١٢٧ صادر لديوان المالية ، وثيقة ٩٧ بتاريخ ٥ شعبان ١٢٧١ هـ / ٢٤ أبريل ١٨٥٥ م .

(٣٧) وارد تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٦ ، ص ٢٥ وارد من السيناتاه ، وثيقة ١٩ بتاريخ ٢٤ مارس ١٨٨٣ .

(٣٨) صادر تحريرات محافظة العريش، سجل ٢٩ ج١ ، ص ٢٣ صادر لوكيل سر سوارى ، وثيقة ٦ بتاريخ غاية ربيع أول ١٢٧٤ هـ/ ١٨ نوفمبر ١٨٥٧ م .

(٣٩) المصدر نفسه ، ص ٥٧ صادر للداخلية ، وثيقة ٣٦ بتاريخ ٤ جمادى الآخر ١٢٧٤ هـ / ٢١ يناير ١٨٥٨ م .

(٤٠) وارد تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٣ ج١ ، ص ٤٤ وارد من الداخلية ، وثيقة ٥ بتاريخ ١٧ ربيع الأول ١٢٩٩ هـ / ٩ يناير ١٨٨٢م.

(٤١) وارد تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٨ ج ١ ، ص ٥٠ وارد من الداخلية ، وثيقة ٣٤ بتاريخ ١١ ربيع الآخر ١٣٠٠ هـ/ ٢٠ أبريل ١٨٨٣ م . وصادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٧ ، ص ٥٨ صادر لمجلس صحة بحرية ، وثيقة ١١بتاريخ غاية جمادى الأولى ١٢٧٧هـ / ١٤ ديسمبر ١٨٦٠ م.

(٤٢) وارد تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٨ ج١ ، ص ٩٠ وارد من الحكيمباشي ، وثيقة ٢٢ بتاريخ ٢ أبريل ١٨٨٣ .

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ١٥١وارد من السيناتاه ، وثيقة ٤٨ ، بتاريخ ٤ شعبان ١٣٠٠ هـ/ ١٠ يوليو ١٨٨٣ م.

(٤٤) المصدر نفسه ، ص ٩٠ وارد من الحكيمباشي ، وثيقة ٢٢ بتاريخ ٢ أبريل ١٨٨٣ م .

(٤٥) أمين مصطفى عفيفى عبد الله ، المرجع السابق ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

(٤٦) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٩ ج١ ، ص ١٣٥ صادر لوكيل سر سوارى، وثيقة ٣٠ بتاريخ ٩ شعبان ١٢٧٤ هـ / ٢٦ مارس ١٨٥٨ م . و صادر تحريرات محافظة العريش، سجل ٣٦ ج١ ، ص ٤ صادر إلى اليوز باشى ، وثيقة ٢ بتاريخ ٢٥ صفر ١٢٩٩ هـ / ١٧ يناير ١٨٨٢م.

(٤٧) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٦ ، ص ٥١ صادر لناظر الداخلية ، وثيقة ٢ بتاريخ ١٣ شعبان ١٢٧٣ هـ / ٩ أبريل ١٨٥٨ م.

(٤٨) وارد تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٨ ج١ ، ص ٣ وارد من الداخلية ، وثيقة ٢٢ بتاريخ ٢٥ يوليو ١٨٨٢ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٥٤ صادر من مجلس الصحة البحرية، وثيقة ٧ بتاريخ ٢٦ جمادى الأخر ١٣٠٠ هـ / ٢ يوليو ١٨٨٣ م ، ص ٨٦ وارد من السيناتاه ، وثيقة ٣٦ بتاريخ ٦ أبريل ١٨٨٣

(٥٠) صادر تحريرات محافظة العريش ، ٢٩ ج١ ، ص ٢٣ صادر لكمرك باب النصر ، وثيقة ٢ بتاريخ ٩ ربيع أول ١٢٧٤ هـ / ٢٩ أكتوبر ١٨٥٨ م .

(٥١) المصدر نفسه ، ص ٢٣ صادر لوكيل سر سوارى ، وثيقة ٣ بتاريخ ٩ ربيع أول ١٢٧٤ هـ / ٢٩ أكتوبر ١٨٥٨ م .

(٥٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣ صادر لكمرك باب النصر ، وثيقة ٥ بتاريخ ٨ رمضان ١٢٧٤ هـ / ٢٣ أبريل ١٨٥٨ م .

(٥٣) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٠ ج١ ، ص ٣٠ صادر لقسم الإيرادات ، وثيقة ٩ بتاريخ ١ صفر ١٢٩٨ هـ / ٣ يناير ١٨٨٣ م .

(٥٤) قيد المنشورات بمحافظة العريش ، سجل ٣٦١ ، ص ٢١ وارد من الداخلية ، وثيقة ٣٩ بتاريخ ١٤ جمادى الأولى ١٣٠١ هـ / ١٤ مارس ١٨٨٤ م .

(٥٥) وارد عرضحالات محافظة العريش ، سجل ١ ، ص ٦ ، وثيقة ٣٨ بتاريخ ١٠ أغسطس ١٨٩٤.

(٥٦) قيد المنشورات بمحافظة العريش ، سجل ٣٦١ ، ص ٢١ وارد من الداخلية ، وثيقة ٣٩ بتاريخ ٤ جمادى الأولى ١٣٠١ هـ / ٣ مارس ١٨٨٤ .

(٥٧) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٩ ج١ ، ص ٢٣ صادر لكمرك باب النصر ، وثيقة ٥ بتاريخ ٨ رمضان ١٢٧٤ هـ / ٢٣ أبريل ١٨٥٨ م .

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ صادر قلم أفرنجى للداخلية ، وثيقة ٢ بتاريخ ٢ رمضان ١٢٧٤ هـ/ ١٧ أبريل ١٨٥٨ .

(٥٩) المصدر نفسه ، ص ١٢٧ صادر لديوان المالية ، وثيقة ٩٧ بتاريخ ٥ شعبان ١٢٧٤ هـ/ ٢٢ مارس ١٨٥٨ م .

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ٥٧ صادر لديوان الداخلية ، وثيقة ٣٦ بتاريخ ٤ جمادى الأخر ٢٧٤ هـ/ / ٢١ يناير ١٨٥٨ م .

(٦١) السيناتاه : هى الإدارة الخاصة بالحجر الصحى داخل مصلحة الصحة البحرية والكورينتينات . راجع : وارد تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٨ ج١ ، ص ١٥١ وارد من السينا تاه ، وثيقة ٥٢ بتاريخ ٣ ربيع الأخر ١٣٠٠ هـ / ١٢ فبراير ١٨٨٣ م .

(٦٢) وارد تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٣ ج١ ، ص ١٢٢ وارد من الداخلية ، وثيقة ٥٠ بتاريخ ١٢ رمضان ١٢٩٩ هـ/ ٢٨ أغسطس ١٨٨٢ م .

(٦٣) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٩ ج١ ، ص ٣ صادر لوكيل سرسوارى ، وثيقة ٣ بتاريخ ٩ ربيع أول ١٢٧٤ هـ / ٢٩ أكتوبر ١٨٥٧ م .

(٦٤) عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٨٩، ص ٢٢١ .

(٦٥) وارد تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٦ ، ص ٣٨ وارد من السيناتاه ، وثيقة ٢٦ بتاريخ ١٩ أبريل ١٨٨١ .

(٦٦) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ١ ، ص ٦ ، وثيقة ٥٨ بتاريخ ٤ محرم ١٢٦١هـ / ١٤ يناير ١٨٤٥ م .

(٦٧) بطاقات الدار : بطاقات الأمن العام ، درج ٦٣ دفتر ١٩٤٦ أوامر ، أمر إلى مديرية الشرقية ، وثيقة ٢ بتاريخ ١١ رمضان ١٢٤٩ هـ .

(٦٨) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٢ ، ص ١٦٢ صادر للداخلية ، وثيقة ٥ بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٢٧١ هـ / ٩ فبراير ١٨٥٩ م .

(٦٩) بطاقات الدار : بطاقات الأمن العام ، درج ٥٨ دفتر ٧٣٣ تركى ، وثيقة ٥٣٧ بتاريخ ١٩ ذو القعدة ١٢٤٢ هـ .

(٧٠) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٠ ج١ ، ص ٤٨ صادر لديوان الداخلية ، وثيقة ٤٨ بتاريخ ٢٠ ربيع أول ١٢٩٨ هـ / ٢١ فبراير ١٨٨١ م .

(٧١) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٦ ، ١٤٧ صادر لمحافظة مصر ، وثيقة ٦٩ بتاريخ ١٦ ذو الحجة ١٢٧١ هـ / ٣١ أغسطس ١٨٥٥ م .

(٧٢) مجلس أحكام مصر ، دفتر مجموع أمور إدارة وإجراءات ، ص ٢٥٦ باب منع خروج الخيل النتاية خارج القطر المصرى ، ترجمة قرار معطى من مجلس الأحكام ، بتاريخ ربيع الثانى ١٢٦٩ هـ / يناير ١٨٥٣ .

(٧٣) وارد تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٦ ، ص ١١٨ وارد من حكيمباشى ، وثيقة ٣٥ بتاريخ ١٤ شعبان ١٢٩٨ هـ / ١٣ يوليو ١٨٨١ م .

(٧٤) وارد تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٨ ج١ ، ص ٤٥ وارد من السيناتاه ، وثيقة ٤٦ بتاريخ غرة شعبان ١٣٠٠ هـ / ٧ يونيو ١٨٨٣ م .

(٧٥) وارد تحريرات العريش ، سجل ٤٢ ، ص ٧ وارد من باشمعاون خديوى ، وثيقة ٢ بتاريخ ٢٤ شعبان ١٢٨٠ هـ / ٥ فبراير ١٨٦٤ م .

(٧٦) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٠ ج٢ ، ص ٧ صادر لديوان الداخلية ، وثيقة ٢٩ بتاريخ ١٥ جمادى الآخر ١٢٧٤ هـ/ ٢ فبراير ١٨٥٨ .

(٧٧) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٩ ، ص ٩٥ صادر سايرة ، لمتسلم غزة ، وثيقة ٢٥٠ بتاريخ ٢٥ محرم ١٢٧٩ هـ / ٢٤ يوليو ١٨٦٢ م .

(٧٨) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٢ ، ص ٣١ صادر للمالية ، وثيقة ٢٦ بتاريخ ١٨ صفر ١٢٧١ هـ / ١٢ نوفمبر ١٨٥٤ م .

(٧٩) وارد تحريرات محافظة العريش ، سجل ٤٢ ، ص ٣١ وارد من المالية ، وثيقة ٣٥ بتاريخ ٢٤ محرم ١٢٨١ هـ / ١٨٦٢ م .

(٨٠) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٣٩ ، ص ٩٥ صادر سايرة ، متسلم غزة ، وثيقة ٢٥٠ بتاريخ ٢٥ محرم ١٢٧٩ هـ / ٢٤ يوليو ١٨٦٢ م . و سجل صادر تحريرات محافظة العريش ، ص ٤٨ صادر لديوان الداخلية، وثيقة ٤٨ بتاريخ ٢٠ ربيع أول ١٢٩٨ هـ/ ٢١ فبراير ١٨٨٠ م.

(٨١) صادر تحريرات محافظة العريش ، سجل ٢٠ ، ص ١٩ صادر لمجلس الأحكام ، وثيقة ٦ بتاريخ ١٩ ذو الحجة ١٢٧٠ هـ / ١٤ سبتمبر ١٨٥٤ م .

نشأة الصناعة المصرية الحديثة
فى النصف الأول من القرن العشرين

د. على عبد العزيز سليمان

وكيل أول وزارة التعاون الدولى

نشأة الصناعة المصرية الحديثة
فى النصف الأول من القرن العشرين

مقدمـــة :

نجحت قوى الامبريالية العالمية واحتلال مصر عام ١٨٨٢ فى هدم دعائم الصناعة المصرية التى أسسها محمد على باشا ، بانى مصر الحديثة ، وكانت اتفاقية التجارة بين الدولة العثمانية وإنجلترا(بلطة ليمان١٨٣٩) المعول الأول فى هدم الصناعة الوطنية حيث منحت إنجلترا حرية التجارة فى أقطار الدولة العثمانية على أساس ضريبة جمركية قدرها (٨٪)من القيمة ، ثم امتد هذا الامتياز إلى باقى الدول الصناعية فيما بعد. وكانت اتفاقية لندن عام ١٨٤٠ المعول الثانى لهدم هذه الصناعة الناشئة حيث أنها فرضت على مصر تقليص حجم الجيش، المستهلك الأول للمنتجات الصناعية ، وإلغاء الاحتكارات الحكومية وهو ما فتح بدوره باباً واسعاً لدخول السلع الأجنبية ، كما أعفى نظام الامتيازات الأجانب من تطبيق القوانين الوضعية عليهم مما جعلهم يسيطرون على أعمال التجارة و أعطاهم ميزة كبيرة تجاه المواطنين فى كل مجالات العمل الاقتصادى، وقد زاد الطين بلة تورط الخديوي إسماعيل فى الدين مما فرض على الحكومة -تحت ضغط الدول الدائنة- تعيين وزيرين أجنبيين للمالية والأشغال حتى يسيطرا على إيرادات الدولة والمنصرف من الميزانية وذلك فى عام ١٨٧٧، وأدى هذا الوضع المتردى والاضطرابات السياسية الناتجة عن الصراع بين القوى الوطنية والقصر إلى الاحتلال.

وفيما يلى نحاول رصد أهم المتغيرات الحاكمة لتطور آداء الصناعة المصرية فى النصف الأول من القرن العشرين مبينين عوامل النجاح والإخفاق التى مرت بها الصناعة المصرية .

أولاً : مسيرة الصناعة قبل الاستقلال :

عمل الاحتلال البريطانى جاهداً على ربط مصر فى دولاب تقسيم العمل الدولى وذلك بقيامها بدور المزرعة التى تمد العالم الخارجى بالقطن والبصل وغيره من خيرات الأرض وتستورد منه السلع المصنعة ، وقامت سلطات الاحتلال بالترويج لفكرة أن المصرى لا يستطيع أن يكون صانعاً ماهراً وأن عليه أن يرضى بكونه مزارعا متميزا .

وفى ظل الاحتلال والامتيازات الأجنبية تدفقت الإستثمارات الأجنبية على مصر للاستفادة من دورها الجديد، ولشراء الأصول والشركات التى باعتها مصر سدادا للديون ، فمن مجموع رؤوس أموال الشركات المساهمة عام ١٨٩٧ والتى بلغت (١٣ر٧ مليون جنيه) وصلت نسبة رؤوس أموال البنوك العقارية وشركات الاستثمار الزراعى إلى ٧ر٣ مليون جنيه أو ما نسبته (٥٣ر٤٪) من مجموع رؤوس أموال الشركات المساهمة، كما بلغت نسبة شركات النقل ومرافق المياه فى المدن والفنادق نحو ٢١ر٨ ٪ باستثمارات قدرها ٣ مليون جنيه ، أما المشروعات الصناعية فقد شغلت المركز الثالث باستثمارات قدرها ٢ مليون جنيه أو(١٤ر٦ ٪) من المجموع الكلى ، وأخيراً جاءت المشروعات والبنوك التجارية باستثمارات قدرها ١ر٤ مليون جنيه بنسبة (١٠ر٢٪) من المجموع.

من ناحية أخرى عكست أرقام التجارة الخارجية الوضع التابع للإقتصاد المصرى، فقد تزايد الاعتماد على العالم الخارجى فى استيراد الإحتياجات الأساسية من المواد الصناعية ، حيث وصلت نسبة المنسوجات ومنتجاتها إلى ما بين(٢٥-٣٠ ٪) ، والمواد الغذائية إلى مايزيد قليلا على (٢٠٪) ، كذلك اعتمدت البلاد على استيراد الوقود (الفحم) من الخارج ، وبلغت قيمة وارداته حوالى عشر إجمالى الواردات.

وقد احتل القطن نسبة كبيرة من الصادرات وصلت إلى أكثر من (٩٠٪) منها ، بينما احتل الأرز والبصل حوالى(١ ٪) لكل منهما .

ومما لاشك فيه أن السياسات التى اتبعها «اللورد كرومر» مهندس الاستعمار البريطانى العتيد كان لها أثرها فى تدهور الصناعة المصرية والقضاء على أى أمل فى النهوض بها ، حيث قام بفرض ضرائب إنتاج تساوى فى قيمتها الضرائب الجمركية المنخفضة التى تفرض على الواردات (وهى ٨ ٪) وذلك حتى لا تتمتع الشركات المحلية بأى حماية جمركية حقيقية. ومن الغريب أن يذكر كرومر الوضع المتردى لحال الصناعة المصرية - بمنتهى الأسى الكاذب - فى تقرير عام ١٩٠٥ الذى رفعه إلى حكومته فى لندن.

وقد تعرضت البلاد خلال تلك الفترة لنهب كبير لثرواتها فى صورة فوائض أعمال التجارة والتصدير وأرباح المرافق والخدمات فى المدن والتى كانت فى يد احتكارات أجنبية ، هذا إلى جانب أعباء الدين العام التى كبلت فرص أى نمو فى البلاد ، وهكذا كان الميزان التجارى لفترة ماقبل الحرب العالمية الاولى يعكس فائضا يمثل الأموال التى نزحت من مصر إلى الخارج.

ثانيا : موقف القوى الوطنية من قضية التصنيع

١ـ ٢ : ارتباط الاستقلال السياسى بالاستقلال الاقتصادى

ندد كل من« مصطفى كامل» و «محمد فريد» بالسياسة الجمركية التى فرضها المستعمر على الصناعة الوطنية ، حيث عبر محمد فريد بقوله إن المبادىء الاقتصادية تقضى بفرض المكوس على الأصناف التى يوجد مثلها فى البلاد ، وعدم فرض شىء منها على ما تحتاج البلاد إليه من حاصلات أو ما يكون ضروريا منها للفقراء ، فهل يعقل أن تؤخذ عوائد جمركية على الفحم الحجرى مثلا ، أو الآلات الزراعية أو الحديدية على العموم ، ومع افتقار البلاد إليها ؟ ، وهل من المعقول أن يؤخذ على الحنطة والدقيق مثل ما يؤخذ على الخمور ؟ إن هذه الأمور المخالفة للعقل والعلم لا توجد إلا فى مصر حيث الاحتلال يدير الأمور لغاية واحدة هى دفع فوائد الديون

وتوظيف من لم يجدوا الكفاف فى بلادهم بأرقى الوظائف هنا وبأعلى المرتبات ، وفى هذا الكلام الرائع الذى قيل منذ اثنين وتسعين عاما ما يشير إلى إرتباط الدعوة إلى التصنيع بنمو الحس الوطنى.

٢ــ ٢ : لجنة التجارة والصناعة والدعوة للتصنيع

ولقد تزايد الوعى بأهمية التنمية الصناعية نتيجة جهود رائد الصناعة المصرية «طلعت حرب» والذى دعا إلى إنشاء «بنك الأمة» عام ١٩١١ وراح يشحذ همم أبناء مصر المخلصين للمساهمة فى إنشاء هذا البنك الذى قام بدور طليعى وهام فى تطور الصناعة المصرية كما سنرى فيما بعد ، ولقد ساعد قيام الحرب العالمية الأولى فى تأكيد أهمية إنشاءصناعة وطنية ، حيث أدى نقص الواردات من السلع الصناعية فى فترة الحرب إلى بدء أول مجهود صناعى منذ الاحتلال ، فنشطت الصناعات الغذائية، وصناعات الغزل والنسيج وكثير من الحرف التى كانت على وشك الإندثار بسبب منافسة المصنوعات الأجنبية ومن ناحية أخرى أدى انقطاع المواصلات بسبب الحرب إلى فقدان أسواق التصدير وانخفضت صادرات القطن من ٣٤ مليون جنيه فى السنة السابقة للحرب إلى ٢٠ مليون جنيه عام ١٩١٥/١٤ وهو ما أكد أهمية تنويع قاعدة الاقتصاد القوى بإنشاء صناعات جديدة.

وجاء تشكيل لجنة التجارة والصناعة فى عام ١٩١٦استجابة لرغبة الأهالى فى تشجيع الصناعة والحرف ، وكان لهذه اللجنة فضل كبير فى وضع السياسات الاقتصادية المشجعة للصناعة والنمو الاقتصادى فيما بعد الاستقلال، ورأسها إسماعيل باشا صدقى وشارك فى عضويتها محمد طلعت (أفندى) حرب وأثمرت توصيات اللجنة على إنشاء مصلحة للتجارة والصناعة تتبع وزارة المالية (عام ١٩٢٠) وتبنى إجراءات لتشجيع الصناعات والحرف.

٣ـ٢ : أثر الحرب على مسيرة التصنيع

ومع نهاية فترة مابعد الحرب العالمية الأولى أصيب المصريون بخيبة أمل كبيرة وأحس الجميع بأنه لا أمل للصناعة فى ظل الاحتلال. (حدثت انتكاسة كبيرة للصناعة بعودة منافسة السلع الأجنبية لها من جديد مع عدم وجود الحماية اللازمة من جانب الحكومة).

وساعدت الدعوة إلى الاستقلال فى زيادة المطالبة بصناعة وطنية وبأهمية النهضة الصناعية كضرورة للاستقلال الاقتصادى و السياسى معا، ولقد تجلى هذا المعنى بوضوح خلال ثورة ١٩١٩ ، وقد عبر عبد الرحمن الرافعى عن ذلك بقوله:

« أخذت الأمة تدرك - بتأثير الحركة الوطنية وتقدم الوعى القومى - أن بتبعيتها الاقتصادية للأجانب تعطل استقلالها السياسى ، وأن البلاد التى تعتمد فى حياتها على الزراعة فحسب هى بلاد متأخرة فى عداد الأمم الفقيرة إذ تعيش عالة على الدول الأجنبية فى حاجاتها الصناعية والمالية». وكانت كل هذه المتغيرات مقدمات هامة نحو إنشاء بنك مصر الذى كان له الدور المتميز فى إرساء دعائم الصناعة المصرية .

ثالثا : دور بنك مصر فى النهضة الصناعية :

٣ـ١: فكرة البنك

جاء إنشاء بنك مصر نتيجة للدعوة التى تبناها طلعت حرب والتى أعلن عنها فى كتابه « علاج مصر الاقتصادى ومشروع بنك المصريين أو بنك الأمة »، والذى أنهاه فى الفترة من (أبريل /مايو) عام ١٩١١، وفى هذا الكتاب شخص طلعت حرب مشكلة مصر الاقتصادية فى« أن مصر لا تنقصها الأموال، ولا تفتقر إلى رجال الأعمال القادرين على إنشاء اقتصاد وطنى قوى ، وإنما ينقصهم الاقتناع بأهمية التصنيع ، واستثمار أموالهم فى مجالات الصناعة إلى جانب الاستثمار فى المبانى والعقارات»، موضحا أن المشكلة تكمن فى تفضيل المصريين استثمار أموالهم أو الجزء الأكبر منها فى الأراضى والعقارات والتى مثلت (٧٢٪) من إجمالى الأموال المستثمرة خلال تلك الفترة.

وتنبع أهمية إنشاء بنك مصري من كونه ليس بنكا تجاريا فحسب ولكن فى نفس الوقت ، وكما جاء فى التقرير النهائى للمؤتمر المصرى الأول (١٩١١) « ويكون له أهدافا اجتماعية منها إقراض الفلاحين بفوائد بسيطة ومناسبة ، والعمل على تشجيع وإقامة الصناعات الوطنية وحمايتها ».

وتأتى هذه الأهداف التى أعلنها البنك فى ظل غياب سوق منظمة للإئتمان الزراعى، وتفاقم مشاكل المديونية الزراعية والتى استنزفت جزءاً كبيراً من ثروات البلاد فى صورة فوائد باهظة كانت تصل إلى مايزيد على (٣٦٪) سنويا.

وبرغم وجاهة فكرة إنشاء «بنك الأمة» إلا أنها قوبلت بالكثير من العقبات من جانب الطبقة الحاكمة وأصحاب المصالح ممثلين فى دوائر الاحتلال والبنوك الأجنبية إلا إن تلك العقبات لم تمنع إنشاء البنك يوم ٧ مايو ١٩٢٠ والذى جاء تتويجا لجهود وطنية صادقة تبلورت فى ثورة ١٩١٩ فكان البنك كما يقول مؤرخنا الكبير عبد الرحمن الرافعى «الثمرة الاقتصادية للثورة».

٣-٢ : البنك وعملياته :

أنشئ بنك مصر برأسمال متواضع لم يتعد ثمانين ألف جنيه موزعة على ٢٠ ألف سهم اكتتب فيها ١٢٣ فرد ا ٠ ولم يكن غريبا أن يكون معظم المستثمرين الكبار من ملاك الأراضى ، حيث مولت فوائض الزراعة عملية التحول الصناعى ٠ ولقد كان لارتباط البنك بأصحاب الملكيات الزراعية أهمية كبيرة فى سياسته الائتمانية حيث ساهم بصورة متزايدة فى تمويل تجارة القطن. وهناك من ينسب أزمة السيولة التى تعرض لها البنك عام ١٩٣٩/١٩٣٨ إلى سياسة إقراضه الزراعى وليس الصناعى. وسرعان ما ارتفع رأسمال البنك ليبلغ نحو (نصف مليون جنيه عام ١٩٢٥) تضاعفت إلى مليون جنيه عام ١٩٢٧ أى بعد مضى (٧ سنوات) وصلت بعد ذلك إلى (٢ مليون جنيه) عام ١٩٥٥ ، وقد ارتفعت احتياطيات البنك وأرباحه المحتجزة من سبعة آلاف

جنيه إلى (٥٧٨ ألف جنيه) عام ١٩٣٠ ، تزايدت إلى (٨٩٩ ألف جنيه) عام ١٩٣٧ ثم إلى (مليون وتسعمائة ألف جنيه) عام ١٩٤٥ ، وبلغت نحو٣ر٤ مليون جنيه عام ١٩٥٠، وساعدت تلك الزيادة البنك على توزيع نسبة مجزية من الأرباح على المساهمين. وقد وصلت حقوق المساهمين إلى ٤ر١ مليون جنيه عام ١٩٢٩ وبلغ حجم القروض نحو (٥ر٦ مليون جنيه عام ١٩٥٥)، وبهذا التطور المشهود لأداء بنك مصر أصبح رائدا للبنوك المحلية ، وأنهى خلال سنوات الاحتكار الأجنبى لأعمال البنوك.

وقد وضع البنك ضمن أولوياته الهامة الإهتمام بتمويل الصناعة المصرية وتقويتها ، فقام بإنشاء مطبعة بنك مصرفى عام١٩٢٢ برأسمال قدره خمسة آلاف جنيه، كان نصيب البنك فيها نحو (٥ر٦٥٪)، تلى ذلك إنشاء شركة مصر لحليج الأقطان فى عام ١٩٢٤، وقد كانت مساهمة البنك فيها (١ر٢٣٪) ، وفى عام ١٩٢٥ أسس البنك شركتى مصر للنقل والملاحة ، ومصر للتمثيل والسينما ساهم البنك فيهما بنحو (٨٤,٧ ٪) ، (٢ر٨١٪) على التوالى .

وقد كان تأسيس شركة مصر للغزل والنسيج هى الإنطلاقة الكبرى للصناعة المصرية فى عام ١٩٢٧ ، وهو العام الذى شهد زيادة رأسمال البنك إلى (مليون جنيه) كانت مساهمة البنك فى شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى (٣٠٠ ألف جنيه) وفى نفس العام أسس البنك شركة مصر حلوان للغزل والنسيج برأسمال قدره عشرة آلاف جنيه بنسبة مساهمة قدرها (١ر٧٤٪)، وبحلول عام ١٩٣٠ قام البنك بإنشاء شركة مصر لتصدير الأقطان ، وشركة مصر للطيران ، وشركة بيع المصنوعات المصرية عام ١٩٣٢ ، وفى عام ١٩٣٤ قام البنك بتأسيس شركات مصر للملاحة البحرية ، ومصر للسياحة، وفى عام ١٩٣٨ تم إنشاء شركة مصر للغزل والنسج الرفيع بكفر الدوار برأسمال قدره ٢٥٠ ألف جنيه (وصلت إلى ٢ مليون جنيه عام ١٩٥٩)، وجاءت مساهمة البنك فيها بنحو (٤٨,٧ ٪) وشركة مصر لأعمال الأسمنت المسلح، وشركة مصر صباغى البيضا برأسمال قدره ٢٥٠ ألف جنيه وصلت إلى ٢ مليون جنيه عام

١٩٥٩ ، وبلغت مساهمة البنك فيها (٣٦٪) ، وشركة مصر لصناعة وتجارة الزيوت، وفى عام ١٩٤٠ قام البنك بإنشاء شركة مصر للمستحضرات الطبية ، ومصر للحرير الصناعى عام ١٩٤٦ برأسمال قدره ٢ مليون جنيه ارتفعت إلى ٣ مليون جنيه عام ١٩٥٩، وبلغت مساهمة البنك (٨٫٦٪)، (مع ذلك لم يشارك البنك فى الفترة منذ قيام الثورة حتى تأميمه إلا فى شر كتين هما شركة مصر للألبان عام ١٩٥٦ وشركة مصر شبين الكوم للغزل والنسيج برأسمال ٢ مليون جنيه بلغت مساهمة البنك فيها بنحو (٢٥٪)).

وهكذا نرى أن بنك مصر فتح الطريق الحقيقى لتنمية الصناعة المصرية ، وهو الإتجاه الذى سارت عليه الحكومة بعد ثورة ١٩٥٢.

وتأكدت هوية «بنك مصر» كبنك للوطن حين جعل اللغة العربية هى الأساس فى معاملاته وحسابات شركاته بما فيها الشركات المشتركة، كما سعى إلى رفع كفاءة المصريين وذلك عن طريق إرسال البعثات التدريبية للخارج، وكذلك عن طريق إنشاء المشروعات المشتركة واستجلاب الخبراء وتعيين مساعدين مصريين لهم ، كما جاء اهتمام البنك بالثقافة مبكرا جدا حيث أنشأ مطبعة مصر بعد عام واحد من إنشائه وأنشأ استديو مصر الذى مازال أهم مراكز صناعة السينما فى العالم العربى.

٣ـ ٣: دور البنك فى دعم السياسة الصناعية للحكومة

و جدير بالذكر أن بنك مصر قام بدور رائد وطليعى بالتعاون مع الحكومة فى تمويل الصناعات الصغيرة وذلك عن طريق تخصيص ما قيمته ١٠٠ألف جنيه أودعتها وزارة المالية لدى البنك لهذا الغرض ، واشترطت ألا تتجاوز السلفة الواحدة عن ١٠٠٠ جنيه ولمدة خمس سنوات ، ونتيجة لنجاح المشروع ارتفع المبلغ المخصص إلى ٢٥٠ ألف جنيه عام ١٩٢٧. وسمحت وزارة المالية بإقراض الصناعات الكبيرة بشرط ألا تزيدعن عشرة آلاف جنيه، وأعطت للبنك إمكانية زيادة السلفة لتصل إلى خمسة عشر ألف جنيه وذلك بعد موافقة وزارة المالية واستئذان مجلس الوزراء فيما يزيد عن ذلك.

وكانت طريقة الحصول على القرض تتمثل فى قيام صاحب المصنع بتقديم طلب للبنك ثم يحول الطلب لمصلحة التجارة والصناعة لبحث مدى جدواه ، حيث يتقرر بعد ذلك إن كان صاحب المصنع يستحق القرض أم لا ، مع الأخذ فى الحسبان أن الفائدة لم تتعد ٦٪ على السلف الصناعية ، هذا ، وقد قدم البنك نحو ٢٤٦ قرضا للمشروعات الصغيرة (عام ١٩٣٢) بما قيمته ٨٠٤ ألف جنيه، ارتفعت بعد ذلك إلى (١٫١٣٧٫٠٠٠ جنيه) عام ١٩٣٨ ، وذلك رغم أزمة الكساد الكبير عام ١٩٣٨ ، ويمثل هذا أكبر دليل على قدرة البنك فى الحفاظ على المنهج التوازنى له بين كونه بنك ، ومشروع وطنى.

ولقد قام البنك بدور المستشار الاقتصادى للحكومة ، فقام بإعداد تقرير رفعه للحكومة المصرية عام ١٩٢٩ تحت عنوان «إنشاء الصناعات الوطنية وتنظيم التسليف الصناعى» ويعتبر هذا التقرير بحق أول برنامج شامل للتصنيع فى مصر. ولقد عدد التقرير الصناعات التى تتمتع فيها مصر بميزة نسبية واضحة ، وبين طرق إنشائها واحتياجات ذلك ٠ ولعل هذا الدور المميز لطلعت حرب هو وراء مقولة «بنت هانسن» أن طلعت حرب يمكن أن يعتبر أول وزير للصناعة فى مصر الحديثة.

رابعا : دور رجال الاعمال

ومع تزايد المشروع الاقتصادى الوطنى وبدء تشغيل مشروعات بنك مصر الصناعية تزايد دخول رجال الأعمال المصريين مغامرة الصناعة. وساعد على ذلك حصول مصر على استقلالها (المنقوص) عام ١٩٢٢ ، وقيام الحكومات الوطنية وبالذات الحكومات الوفدية وحكومة إسماعيل صدقى بمساعدة تلك المشروعات على النهوض والنمو، مما أدى إلى نهضة صناعية خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين ومكن الصناعة من أن تعبر سنوات الكساد العالمى الكبير دون خسارة كبيرة.

وشهد عام ١٩٢٢ إنشاء اتحاد الصناعات المصرية على يد مجموعة من الأجانب المتمصرين والذين بدأوا فى دخول مغامرة الصناعة منذ أوائل القرن العشرين وبالذات فى الصناعات التى تتمتع فيها مصر بميزة نسبية مطلقة مثل صناعة مواد البناء أو المشروبات والأغذية والسجائر، إلى جانب بعض الصناعيين المصريين التقليديين مثل صناع المنسوجات الحريرية (عائلة اللوزى فى دمياط). وترأس اتحاد الصناعات فى سنواته الأولى السيد هنرى نوس H.Naus رئيس شركة السكر والتقطير المصرية واستمر فى رئاسته للاتحاد حتى وفاته فى نهاية الثلاثينات. وضم مجلس الإدارة السبعة خمسة من الأجانب ممثلين لصناعات السيراميك (السيد سورناجا)، الملح والصودا ، الخميرة والبيرة (كوتسيكا)، الأهلية للنسيج ،بينما تولى إسماعيل باشا صدقى منصب نائب رئيس الاتحاد.

ويمكننا إبراز دور رجال الأعمال المصريين فى تدعيم الصناعة الوطنية والنهوض بها وعلى رأسهم (طلعت حرب) فى إصدار التشريعات الاقتصادية التى مكنت الصناعات القائمة من التدعم والنهوض ، فقد نجح رجال الأعمال وعلى رأسهم إسماعيل صدقى - مهندس الصناعة الوطنية فى عام ١٩٢٥ - فى إلغاء رسم الانتاج المفروض على الصناعة الوطنية منذ عهد كرومر ، وفى إقناع الحكومة فى أواخر العشرينيات بتبنى تعريفة تفضيلية لنقل المواد الخام ،والبضائع الصناعية على السكك الحديدية ، وكذلك إعطاء الإنتاج المصرى الأفضلية على البضائع المستوردة فى مناقصات الحكومة حتى ولو زاد سعره بـ (١٥ ٪) عن مثيله الأجنبى، كذلك نجح رواد الصناعة المصريين الأوائل من رجال الأعمال فى الدعوة إلى زيادة التعريفة الجمركية، وتم ذلك عام ١٩٣٠ فى ظل حكومة الوفد الثالثة .

وبفضل جهود هؤلاء الرجال استطاعت الصناعة أن تكتسب وضعاًجديداً كمصدر من مصادر الثروة والدخل فى البلاد ، مما أعطاها دعما إضافيا فى جذب انتباه القيادات السياسية فى البلاد ، وانغماس بعض السياسيين فى إنشاء وإدارة الشركات الصناعية الجديدة (مثل إسماعيل صدقى ، حافظ عفيفى ، أمين يحيى ...).

كذلك كان لرجال الصناعة الفضل الأكبر فى إلغاء الإمتيازات الأجنبية التى تمتعت بمقتضاها شركات الكهرباء والمياه والمواصلات الأجنبية بميزات خاصة عن الشركات المصرية حرمتها من الدخول فى هذه المجالات ، وقد تفاعلت الحكومة مع دعوة رجال الأعمال والصحافة المصرية التى سجلت هجوماً واسعاً على شركة السكر والتقطير المصرية والتى كانت تسيطر عليها مصالح فرنسية والتى حققت أرباحا هائلة على حساب المستهلك ، وكذلك شركة الملح والصودا التى كانت تسيطر عليها مصانع إنجليزية والتى غالت فى أسعار الملح ، وقامت بتخفيض إنتاجها من الصودا الكاوية مما تسبب فى عدم توفر الصابون ، وانخفاض استهلاكه ٠

كذلك اهتم رواد الصناعة الأوائل بقضايا رفاهية العامل ، وحماية حقوقه ، وكان لمحمد فريد السبق فى هذا المجال حيث دعا إلى تكوين اتحاد العمال، والاهتمام بأحوالهم واستجلب اتحاد الصناعات خبيرا من عصبة الأمم يساعد على وضع قانون للعمل فى نهاية الثلاثينات ، وتم بالفعل إصدار أول قانون للعمل فى ظل حكومة الوفد عام ١٩٤٢.

كذلك كانت هناك دعوة قوية لانشاء التعاونيات الانتاجية ، وتبنى الوجيه عمر لطفى فى أوائل القرن عدة مبادرات فى هذا المجال ، وتم إنشاء شركة التعاون المالية التى استمرت فى لعب دور هام فى تجميع مدخرات صغار المستثمرين منذ عام ١٩٠٩ وحتى بعد إنشاء بنك مصر.

وعليه لم تكن الدعوة للصناعة دعوة صماء بل كان لها جانب اجتماعى واضح يدعو إلى تحسين ظروف العمل والإبتعاد عن الاحتكارات والإمتيازات الأجنبية المجحفة.

خامسا : الأداء الصناعى فى النصف الأول من القرن العشرين

٥ـ ١ : الأداء الصناعى فى فترة مابين الحربين

تمخضت جهود التصنيع فى فترة مابين الحربين عن تغير كبير فى هيكل الصناعة والاقتصاد المصرى ، فإلى جانب شركات بنك مصر العشرين كانت هناك أمثلة أخرى للمشروعات الوطنية وفى مجالات جديدة مثل مصانع ياسين للزجاج فى شبرا ، وشركة الورق الأهلية بالإسكندرية ، وشركات الأسمنت ... وغيرها.

ويسجل سمير رضوان زيادة إسهام رأس المال الوطنى فى الشركات الجديدة ليصل إلى ٣٤٫٥ من إجمالى رؤوس أموال الشركات المؤسسة مابين عامى ١٩١٤و١٩٣٣. ثم زادت هذه النسبة إلى ٤٧ من مجموع رؤوس أموال الشركات المؤسسة بين عامى ١٩٣٤ و١٩٣٩ ، ومن الهام ملاحظة أن الكساد العالمى الكبير الذى أطاح بالشركات الصناعية فى العالم أجمع لم يوقف النمو الصناعى فى مصر فى الثلاثينات ؛ ولعل ذلك يرجع إلى سياسات الحماية التى اتبعتها الحكومات المتعاقبة من عام ١٩٣٠ ، وكذلك التدخل المباشر لدعم الصناعات الأساسية ، (مثل الإعانة المقدمة لشركة السكر والتقطير المصرية).

ويبيِّن الدكتور جمال سعيد على أنه بالرغم من انخفاض الأسعار الناتجة عن الكساد استمرت واردات الآلات والمعدات فى الزيادة فى فترة الثلاثينات من ١٥٧٣٦ جنيها عام ١٩٣٠ إلى ٣٥٧٠٠٠ جنيها عام ١٩٣٩ ٠ وزاد عدد المنشآت الصناعية من ٧٠٣١٤ منشأة صناعية عام ١٩٢٧ إلى ٩٢٠٢١ عام ١٩٣٧ ٠ كذلك زاد عدد المشتغلين فى الصناعة بأنواعها من ٢١٥٤٠٠ عامل عام ١٩٢٧ إلى ٢٧٢٥٠٠ عامل عام ١٩٣٧ أى بزيادة قدرها ٢٦٫٥٪ ٠ مع ذلك كان معظم هؤلاء العمال يعملون فى منشآت صغيرة ، ولم تزد المنشآت التى تستخدم عشرة عمال فأكثر عن ٣٪ من الإجمالى، أى حوالى ٣٧٥٠ مصنعا وورشة. وانحصرت المشروعات التى يزيد رأسمالها على ألفى جنيه فى ١٫٢٪ من إجمالى المصانع والورش.

وساعدت سياسة التصنيع فى زيادة الاكتفاء الذاتى فانخفضت واردات الأسمنت من ١٩٢٠٠٠ طن عام ١٩٣٠ إلى ٣٥٦٧٥ طن عام ١٩٣٩ ، وفى ذات الفترة زاد الانتاج المحلى من حوالى ١٩٦٠٠٠ طن إلى ٣٥٤٠٠٠ طن أى أن نسبة الاكتفاء الذاتى وصلت إلى ٩٠٪ ، ووصلت نسبة الاكتفاء الذاتى فى صناعة الأثاث والصابون أيضا إلى ٩٠٪ وفى إنتاج الكبريت ٨٠ وفى الزيوت النباتية ٦٠ وفى الصودا الكاوية ٥٠ هذا إلى جانب إكتفاء كامل من السكر والسجائر والكحول وملح الطعام.

ولعل النجاح الأول لسياسة التصنيع كانت فى مجال المنسوجات ، حيث زاد المستخدم من القطن المصرى محلياً فى الصناعة من ٥٣٠٠٠ قنطارا عام ١٩٣٠ إلى ٦٦٢٠٠٠ قنطارا عام ١٩٣٩ (أى بمقدار اثنى عشر ضعفا) ، كذلك زاد الإنتاج المحلى من الأقمشة القطنية بحوالى نفس النسبة من ١٤ ألف متر إلى ١٥٩ ألف متر. وزاد إنتاج الغزل بتسعة أضعاف من ٢٩٠٠ طن إلى ٢٥٨٠٠ طن فى نفس الفترة.

وهكذا دخلت مصرالحرب العالمية الثانية وهى أكثر أمنا لاحتياجها من الملبس والمأكل ومواد البناء ٠

٥ـ٢: أثر قيام الحرب الثانية على الصناعة

تميزت فترة الأربعينيات بإزدهار كبير للصناعة المصرية ، حيث مثلت هذه السنوات النهضة الحقيقية للصناعة الوطنية ، فقد استفادت الصناعة بنشوب الحرب على المسرح الأوروبى وكان معنى هذا إنعدام المنافسة للصناعة الوطنية وكذلك زيادة سيطرة المصريين على الأداء الصناعى، وكانت الزيادة الكبيرة فى استهلاك جيوش الحلفاء دافعا قويا لتنمية الصناعة وتطويرها .

ومن الملاحظ أن مصر خرجت من الحرب وهى دائنة لبريطانيا العظمى بحوالى خمسمائة مليون جنيه ، وهو ما يكفى لتغطية العجز فى الميزان التجارى لدينا لسنوات عديدة ، وكانت قيمة الجنيه المصرى تفوق فى قيمتها قيمة الجنيه الإسترلينى.

٥ـ٣: نحو تمصير الاقتصاد المصرى

ومن بين الملامح الهامة التى تميزت بها فترة الأربعينات تمصير الصناعة المصرية، حيث انطلقت قوى الإرادة المصرية بتوقيع اتفاقية عام ١٩٣٦ ، وما تلاها من اتفاقية مونترو عام ١٩٣٧ والتى ألغت الإمتيازات الأجنبية ، وسمحت للمشرع المصرى أن يبسط سلطانه على الأجانب فى مصر ، وعليه كان إصدار أول تشريع للضرائب على القيم المنقولة والأرباح الصناعية عام ١٩٣٩ ، وفى عام ١٩٤٢ ، ومع عودة حكومة الوفد، صدر أول تشريع يفرض استخدام اللغة العربية فى مكاتبات الشركات ، وقد تم إلغاء صندوق الدين وشراء الدين المصرى، والذى كان بمثابة وصمة فى جبين الأمة ومؤشرا لانتهاء أسباب الاحتلال ، وقد أعقب ذلك صدور قانون الشركات عام ١٩٤٧ والذى حدد ملكية الأجانب في أسهمها بحد أقصى (٤٩٪) ، وألا ينخفض عدد المصريين المستخدمين فى الشركات المساهمة عن (٧٥٪) وألا تقل رواتبهم عن (٦٥ ٪) من إجمالى الأجور والمرتبات.

وفى نفس الوقت بدأت أعداد الأجانب الموجودين فى مصر فى الانخفاض حيث انخفضت أعدادهم من حوالى (١٧٩,٠٠٠) عام ١٩٣٧ إلى (١٣٢,٠٠٠) عام ١٩٤٧ أى بمايزيد على الثلث ، وقد كان لهذه التطورات آنفة الذكر دورها فى استمرار زيادة وجود رأس المال المصرى فى الصناعة المصرية.

ومن المفيد مقارنة وضع الإدارة المصرية خلال الحرب العالمية الأولى ، وخلال الحرب العالمية الثانية ، حيث أن مصر خلال الحرب العالمية الأولى كانت فريسة للإدارة البريطانية الصريحة ، و التى عانى منها الفلاح المصرى طويلا ، وذلك عن طريق الاستيلاء على المحاصيل الزراعية والغلاء والسخرة ، وكل هذه العوامل كانت سببا فى ثورة ١٩١٩ ، أما الحرب العالمية الثانية فقداضطر فيها الإنجليز إلى ممالأة القوى الوطنية وعملوا على تنصيب الوفد (حزب الأغلبية)حتى يستطيعوا ضمان تضامن مصر مع قوات الحلفاء.

٥ـ٤: زيادة الانتاج الصناعى بعد الحرب

وقد تميزت فترة الأربعينات بتطور كبير فى الإنتاج الصناعى المصرى حيث زادت كمية الإنتاج بنسبة ٣٥فى الفترة ما بين (١٩٣٨-١٩٤٥) ، وقد شجعت الحرب على ظهور صناعات جديدة ، وزيادة إنتاج الصناعات الصغيرة عموما زيادة كبيرة ، ومن الصناعات الجديدة التى ظهرت بقوة كبيرة واعتمدت فى إنتاجها على مواد أولية محلية الصناعات الكيماوية والتى كان لها أكبر الأثر فى تطور صناعة السماد التى عملت على تحسين الإنتاج الزراعى، كذلك أنشئت أول شركة للحديد والصلب (شركة الدلتا للصلب) ، وبدء إنتاج مصانع الأدوية. ومع تخفيف قيود الاستيراد وتوفر المواد الخام والألات وقطع الغيار زاد الإنتاج الصناعى زيادة كبيرة مع إنتهاء العمليات الحربية، فزادت القيمة المضافة الصناعية (بالأسعار الثابتة) من ٩٢ مليون جنيه عام ١٩٤٦ إلى ١٠١ مليون جنية عام ١٩٤٧ أى بنسبة نمو مقدارها ٨ر٩ ٪.

واستمرت الزيادة الكبيرة فى العامين التاليين بمعدل ٩ر١١ ، ٥ر١١ على التوالى. ثم انخفض معدل النمو إلى ٦ر٥٪ عام ١٩٥٠، ومع بداية الحرب الكورية وزيادة المواجهة مع بريطانيا فى منطقة القناة توقف الإنتاج الصناعى تقريبا عن النمو فى السنتين التاليتين ولم يستعيد الإنتاج الصناعى نموه السريع إلا بعد منتصف الخمسينات. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى جاءت فترة الرواج التى واكبت تلك الفترة بزيادة كبيرة فى إعداد الشركات الجديدة فى الصناعة المصرية وذلك على عكس ما كان حادثاً فى فترة العشرينيات من عدم كفاية التمويل المتاح للاستثمار الصناعى. ويكفى الإشارة إلى شركة الحرير الصناعى التى أنشأها بنك مصر فى عام ١٩٤٦برأسمال قدره ٢مليون جنيه تم تغطية ضعفه فى أيام قلائل ، وزاد عدد الشركات المساهمة من ٢٨٧شركة مساهمة عام ١٩٤٢ إلى ٤٤٥ شركة عام ١٩٤٩، ٤٠منها شركات صناعية ، وقد وصل معدل تكوين الشركات إلى درجة الحمى مع التهاب الأسعار، وزيادة معدل الربحية حيث زاد الرقم القياسى لأسعار السلع الصناعية عام ١٩٤٤إلى ٣٣٠عن مستواه فى عام ١٩٣٩،ثم واصل الإرتفاع ليصل إلى ٤٢٨,٥٥عام ١٩٥٠.

سادسا : تقييم نصف قرن

حققت الصناعة المصرية طفرة حقيقية فى النصف الأول من القرن العشرين.

ولقد تابعنا فى هذه الدراسة مسيرة الصناعة المصرية عبر نصف قرن والتى أكدت الارتباط الوثيق بين جهود الاستقلال وجهود التصنيع. ولقد قاوم الاستعمار جهود التصنيع حتى آخر مدى ، ولم تتوطد أركان الصناعة إلا فى ظل الحكومات الوطنية فى عهد الاستقلال ٠ ومن الإنصاف أن نرصد أن رجال الصناعة الأوائل قد حققوا الكثير فى ظل ظروف عالمية ومحلية صعبة ٠ وجاءت الحرب العالمية الثانية لتتيح ظرفا مواتيا سمح للصناعة المصرية بالنمو والاعتماد على الذات فى تكوين احتياطيات هائلة سهلت لها عملية الاستثمار والتراكم فى فترة مابعد الحرب ، وهو ماضمن عدم انتكاس تجربة الصناعة المصرية على النحو الذى حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. ومع زيادة الاستثمارات الصناعية فى فترة مابعد الحرب ، إلا أن مصر تميزت بقدر كبير من عدم الاستقرار السياسى تمثل فى استمرار معركة الجلاء وقيام حرب فلسطين والتدخل الدائم للقصر فى السياسة وتلاعب الملك لصالح أحزاب الأقلية مما أدى إلى توقف الاستثمارات والنمو وبدا الأمر كما لو أن البلاد تترقب بداية عصر جديد.

المصادر والمراجـــع

أولا : العربية

ـ البنك الدولى، تقرير عن التنمية فى العالم ، الدولة فى عالم متغير، واشنطن، ١٩٩٧.

ـ بنك مصر، إنشاء الصناعات الأهلية وتنظيم التسليف الصناعى : مشروع بنك صناعى مصرى، مطبعة مصر، ١٩٢٩ .

ـ بنك مصر ، كتاب اليوبيل الذهبى، ١٩٧٠ .

ـ جمال الدين محمد سعيد، التطور الاقتصادى فى مصر منذ الكساد العالمى الكبير، مطبعة البيان العربى، القاهرة ، ١٩٥٥ .

ـ سمير رضوان، التصنيع فى مصر (١٩٣٩ - ١٩٧٣) ، السياسة والأداء، ترجمة د. صليب بطرس، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١ .

ـ عاصم الدسوقى، «محمد على باشا» ، مجلة النداء، العدد التجريبى الثانى، يوليو ١٩٩٦ .

ـ عبدالرحمن الرافعى ، ثورة ١٩١٩ ، الجزء الثانى، الطبعة الثانية، الدار القومية للطباعة، القاهرة ١٩٦٦ .

ـ عبد السلام عبد الحليم صبح، الرأسمالية الصناعية ودورها فى مرحلة المشروعات الحرة، ١٩١٦-١٩٥٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.

ـ على الجريتلى، تطور النظام المصرفى فى مصر، فى بحوث العيد الخمسينى للجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والأحصاء والتشريع ١٩٦٠ .

ـ على سليمان، سلسلة مقالات، قضية الصناعة فى مصر، الأهرام الاقتصادى، ١٣ أكتوبر - ٥ نوفمبر ١٩٨٦.

ـ على سليمان، دور القطاع الخاص فى التنمية مع التطبيق على مصر، مركز بحوث ودراسات الدول النامية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٠.

ـ محمود أنيس، الدخل القومى فى مصر، مجلة مصر المعاصرة، ديسمبر ١٩٥٠.

ـ مصطفى كامل السيد، الرأسماليون والدولة فى مصر .. ملاحظات أولية فى التحولات السياسية الحديثة فى الوطن العربى، أبحاث الندوة المصرية الفرنسية المشتركة الأولى، مركز البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة ١٩٨٩ .

ـ نبيل عبدالحميد سيد أحمد، النشاط الاقتصادى للأجانب وأثره فى المجتمع المصـرى، ١٩٢٢ - ١٩٥٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ .

ثانيا : الأجنبية

-Arthur W. Lewis, The Theory of Economic Growth, (Homewood, III, Richard Irwin) , 1955 , Ch. 3 .
-Bent Hansen and Donald C.Meade, Growth and Technical Change in the Egyptian Economy, (Homewood, III. Richard Irwin), 1976 .
-Bent Hansen, The Political Economy of Poverty, Equity and Growth in Egypt and Turkey, New York, Oxford U. Press, 1991 .
- Eric Davis, Challenging Colonialism : Bank Misr and Egyptian Industrialization 1920 - 1941 , (Princeton N. J., Princeton University Press), 1983 .
- Joseph S. Schumpeter, Theory of Economic Development , Cambridge, Mass. Harvard U.P, 1943.
- Marius Deeb, "Bank Misr and The Emergence of the Local Bourgeoisie in Egypt, in Elie Kedourie, ed, The Middle Eastern Economy Studies in Economics and Economic History, (Forest Grove, Oregon : Frank Lass and Co.) 1976 .
- Robert Tignor, State Private Enterprise and Economy in Egypt, 1918 - 1952, Princeton, N. J., Princeton University Press, 1984.

عبــد الله النديــم

التكوين والفكر

د. لطيفة محمد سالم
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية آداب بنها

عبدالله النديم
التكوين والفكر

تمثل شخصية عبدالله النديم علامة مضيئة فى تاريخ مصر الحديث لما تركته من بصمات واضحة فى أكثر من مجال، وتضم السطور القادمة تقييما لها، ولأهم ما خلفته لنا من آثار مازالت تنبض بالحياة، وقداتبعت الدراسة منهجًا متميزا، تمكنت عن طريقه من إعطاء بانوراما شاملة لتلك الشخصية ، ومن ثم أصبح من السهل الوصول إلى أساسياتها وركائزها وأغوارها. وبدأت الدراسة باستعراض عام لحياة النديم تناولت فيه الظروف التى عاشها حيث كان لها دورها فى التكوين والبلورة والنضوج عبر مراحل سنوات عمره، ثم انصب التركيز على فكره وأبعاده فى الإصلاح، وتلك الاتجاهات التى أفرزتها أيديولوجيته ورؤيته المتفتحة، وأخيرا ضمت أهمية سلافة النديم من منطلق أنها تسلط الأضواء على شخصيته وتبرز العلاقة بينها وبين واقع المجتمع فى عصره.

التكوين

فى منطقة وسط مدينة الإسكندرية التجارية، وبأحد أزقة حى الجمرك، ولد عبدالله مصباح ـ الذى عرف باسم عبدالله النديم- عام ١٨٤٥ م (١٢٦١ هـ) لأب لا يمتلك سوى مخبز صغير يكتسب منه القروش التى تمسك رمق أسرته، ورغم أنه كان فى حاجة لتمرين ابنه على العمل ليشاركه أعباء الحياة، فإنه ترك ذلك جانبًا وأرسله إلى الكُتَّاب، فأظهر تفوقًا ملحوظا لدرجة أنه مع بلوغه سن التاسعة كان قد حفظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلى مدرسة جامع الشيخ إبراهيم باشا لاستكمال تعليمه، وعُدَّ هذا الجامع بمثابة أزهر الإسكندرية، ولكن لم يتواكب عبدالله مع الدراسة نظرا للجمود والتعقيد اللذين سيطرا عليها، فتركها بعد خمس سنوات لينزل إلى معترك الحياة العملية، وخاصة أن الظروف المعيشية الصعبة التى كان يحياها أسهمت فى إعاقة استمراره فى التعليم، ومع ذلك أثرت هذه الفترة فى تكوينه الثقافى الذى اعتمد أساسا على دراسة العلوم الدينية.

وفرض الاتجاه الأدبى نفسه على عبدالله، فارتاد الندوات، وجلس على المقاهى، والتقى بالأدباء، ودخل فى المنافسات الأدبية، ووجد ذاته فى هذا المجال بعد أن قدمت مواهبه خدماتها له، ومنذ ذلك الحين ذاع صيته واشتهر باسم النديم، واتسعت اتصالاته، وتناقلت الألسن أخباره، وراح يتنقل بين المدن والقرى ليمارس هواياته. ولما كان لابد له من مورد يتعيش منه عمل تلغرافيا فى مكتب تلغراف بنها، ثم انتقل إلى القاهرة وعمل بمكتب تلغراف القصر العالى - مقر والدة الخديوى إسماعيل - وواتته الفرصة ليمارس صنعته الأساسية التى برز فيها وهى الأدب، وخاصة أن المجتمع القاهرى له سماته المميزة التى مكنته من الاستفادة منها جيدا، وكثر تردده على المجالس الأدبية سواء التى زخرت بها القصور أو التى عقدت فى الأحياء الشعبية، وتوثقت صلته بروادها.

ولما كان الأزهر منارة العلم، وكل نفس تواقة للالتحاق به، والنديم يجمع بين تلك الرغبة وبين الأصول التعليمية التى سبق أن تلقاها فى الإسكندرية، فقد راح يتردد عليه ويحضر دروسه، مما أثراه معرفة وزاده ثقافة، ثم تعرف على الأفغانى وأصبح أحد مريديه بعد أن توثقت الرابطة بينهما، ولكن اضطرته الظروف لترك القاهرة بعد طرده من وظيفته نتيجة لعدة اعتبارات مما كان له الأثر على شخصيته، حيث زادت من حساسيته تجاه جبروت الأسرة المالكة، ونبتت فى نفسه بذور الثورة، واستقر به المقام فى المنصورة، وفيها عاود نشاطه الأدبى، ثم انتقل إلى إحدى قراها، ومارس التدريس لأولاد عمدتها، واختلط بفلاحيها وعايشهم وأحس بآلامهم، وما لبث ان انقلب على عمدتها، فتركها إلى المنصورة، وساعده أحد المعجبين به، ففتح له متجرا للخردوات، فاتخذ منه صالونا أدبيا، وبالتالى لحقته الخسارة، فعاد إلى سيرته الأولى وراح يتنقل مرة أخرى بين البلاد.

وانتهى به المطاف فى طنطا، وتوطدت علاقته بمفتش عام الوجه البحرى، وكان ذواقا للأدب، وعليه أصبح النديم الركيزة الأساسية فى مجلسه الأدبى الذى جمع علية القوم، وأعجب به أحد رجال الحاشية، واتخذه وكيلا لدائرته، وعادت مرة أخرى صلته بالقاهرة، وعاود لقاءاته بأستاذه الأفغانى الذى سفر فى انتقاداته لنظام الحكم وتحول عن النهج الذى بدأ به دعوته إلى بث الروح الثورية بين تلاميذه الذين اتفقت ميولهم مع هذا الاتجاه

الجديد، ووجدوا فيه خلاص مصر مما تعانيه، وبطبيعة الحال لمع النديم من بين الصفوف، ومن هنا وجد الأستاذ فى تلميذه الأداة المنفذة لسياسته، فبعث به إلى الاسكندرية فى عام ١٨٧٩ ليتولى المهمة الإعلامية للتعبئة الثورية وفقا للخطة المرسومة.

وبدأت مرحلة جديدة فى حياة النديم بنزوله ميدان العمل الوطنى حاملا معه طاقات متعددة، وما كان عليه إلا أن يفجرها فى مختلف المجالات، وساعدته الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تجتازها مصر أثناء هذه الفترة، هذا بالإضافة إلى نوعية شخصيته التى صقلتها تجارب الحياة وانغمست فى ألوانها وتلطمت مع تياراتها، مما خلق إيجابية مطلقة بين الطرفين، وفى بداية نشاطه السياسى انضم إلى الحركة الماسونية، والتحق بجمعية اتحاد مصر الفتاة، لكنه لم يستمر معها طويلا لرغبته فى الالتصاق المباشر بالشعب، وذلك وفقا لبرنامج أستاذه، فأمسك بالقلم واندفع لميدان الصحافة، فكتب فى صحف مصر والتجارة والمحروسة والعصر الجديد، وعبر عما يجول بخاطره وانتقد الأوضاع، وتحول بحيويته من المجالس الأدبية إلى الصحافة التى وجد فيها قناة اتصال بين أفكاره وبين الناس.

واتباعا للمنهج الذى التزم به، أنشأ الجمعية الخيرية الإسلامية، وعدّها وسيلة من وسائل إيقاظ الرأى العام، حيث اتخذ من منبرها مقرا للقائه بالجمهور، فألقى الخطب التى ترجمت فلسفته مستخدما الرؤية الخاصة «إذا كان القلم مقيدا فاللسان طليقا». أيضا وجه نشاطه للناحية التعليمية إذ ارتبطت الجمعية بوجود المدرسة، وأخضع تلاميذها لاتجاهه الذى وضح جليا فى تلك الأدوار التى قاموا بتمثيلها على المسرح وكانت من صنع قلمه، كذلك بذل الجهد فى إنشاء الجمعية الخيرية القبطية لتكون على غرار الجمعية الأولى. وأصبحت الإسكندرية لا يتردد على لسانها إلا اسم النديم الذى حرك المشاعر، وأشعل الصدور تلهفا على الإطاحة بالأوضاع التى تئن مصر تحت وطأتها، وانتقلت الموجة لخارج الإسكندرية، وحاول توفيق استغلالها ضد رئيس نظاره الذى سلط سيفه على وسائل الإعلام مما اضطر النديم إلى ترك جمعيته.

وجمع اللقاء بين النديم والعرابيين، حيث يكمل كل طرف الآخر، وألقى القادة الثوار على عاتقه مهمة صب المطلوب فى أذهان الناس بطريقته السهلة والمؤثرة والنفاذة، أى أنه أصبح الموصل الجيد للأفكار الثورية، وأدى الرسالة بنجاح بالغ حتى إنه لقّب بخطيب الثورة العرابية، ولم يتوان لحظة عن فعاليته المتقدة، ومن ثم احتل المكانة المرموقة لدى عرابى ورفاقه، وغدا لسانهم والمعبر عن آرائهم على أرض مصر كلها. وأسهم مساهمة فعالة فى تجميع قوى مصر الاجتماعية وتعبئتها للثورة.

وبجوار تنقلاته، وكلماته المتأججة بالحماس والتى سرت بسرعة فائقة، مضى قلمه يصول ويجول فى مجلة التنكيت والتبكيت، ثم فى صحيفة الطائف، وعبر عن أفكاره التى تعددت اتجاهاتها وفقا لخدمة الظروف القائمة، وانخرط فى الأحداث الثورية، وأشعل الحرب النفسية على أعداء الثورة، واستخدم أسلوب المبالغة ليرفع من معنوية المحاربين وينتزع شعور القلق والخوف من الناس، وتمكن من تنظيم الدعاية للحرب ضد الإنجليز، وأعد الحملات الكلامية للوقوف أمامهم، وجنّد كل إمكاناته ليحول دون تقدمهم.

وبهزيمة الثورة العرابية، ودخول القوات البريطانية القاهرة فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ بدأت مرحلة أخرى فى حياة النديم، فقد تمكن من الهرب مستخدما حيله وذكاءه، وتخفى فى صور متعددة، واحتضنه البعض وآواه، وفشلت مجهودات الحكومة فى العثور عليه رغم المكافأة الكبيرة التى رصدتها لهذا الغرض، فما كان منها إلا أن أصدرت حكما عليه تضمن النفى المؤبد خارج مصر وملحقاتها.

وفى المخبأ ألف كتاب «كان ويكون» وعدة كتب أخرى، وكثّف قراءاته، وأخضع نفسه للظروف، وراح يتنقل من مكان إلى آخر فى لباس متنكر وشكل متغير ولغة جديدة، ويبدل ويغير وفقا للأحوال. وتزوج فى هذه الفترة، وتحمّل المعاملة القاسية من زوجته حتى لا ترشد عنه، واستمر يعانى ظروف تلك الحياة الصعبة حتى اشتبه فيه رجلان أثناء وجوده بالجيزة وأبلغا عنه، فاهتمت السلطات بالأمر، وقبض عليه فى خريف عام ١٨٩١، وحقق معه، وصدرت الأوامر بإبعاده إلى يافا.

ولقى الحفاوة من أهل الشام، وزاول نشاطه فى الكتابة وحضور المجالس، وبتولى عباس حلمى الثانى أريكة الخديوية صدر العفو عنه، وعاد إلى مصر فى ٩ مايو ١٨٩٢ ، واستقر به المقام فى القاهرة، ورغم المناخ السياسى القاتم، والخلفيات التى عانى منها، فإنه بدأ دورا جديدا حاول فيه انتزاع السلبية القائمة متحديا القيود التى فرضت عليه عقب عودته، وعن طريق أخيه صدرت مجلة الأستاذ، وفيها هاجم الاحتلال البريطانى وأذنابه، ووقف بجوار الخديوى وتمكن من إحياء الشعور الوطنى، وأصابت مساعيه، تلك التى وضحت آثارها.

وتأزم الموقف مما نتج عنه إنذار المجلة، ومع هذا استمر فى حملته وصوب سهامه لصحيفة المقطم التى أظهرت تجسد الثورة فيه، واتهمته بالتعصب الدينى الذى كان فى حِّل منه، وشهَّرت به الصحافة البريطانية، وانتهى الأمر بضغط المعتمد البريطانى على الخديو لنفيه، فسافر إلى يافا فى صيف ١٨٩٣، واتخذ منها مقرا، ومارس نشاطه المعتاد وأخل بالشروط التى فرضت عليه، فشرع فى انتقاد الاحتلال البريطانى لمصر، وعرج على السلطان العثمانى فاتهمه بالضعف، مما ألجأ الأخير لإصدار أمر بإبعاده من مقره، وحرمانه من أن تطأ قدماه الأرض السلطانية، ولكن سرعان ماتغير الحال بعد عودته للإسكندرية حيث التقى به المندوب السلطانى وأغراه بالرحيل إلى الآستانة وفقا للسياسة التى اتبعت بشأن استقطاب العناصر المثقفة المضادة للدولة العثمانية والإغداق عليها، بهدف أسرها ورصد حركاتها لإسكات أصوات معارضتها.

وسافر نديم وعيِّن مفتشا للمطبوعات بالباب العالى، وأحاطت به العيون من كل جانب، وخمدت تحركاته، ولم يخفف من معاناته سوى لقاءاته مع أستاذه الأفغانى وخصومته للصيادى صاحب النفوذ لدى السلطان الذى أفرغ النديم شحناته فى هجائه، وكتب فيه كتاب «المسامير» يسبه ويلعنه، وكان لذلك انعكاساته، فقد دس الصيادى لعدوه عند السلطان فى وقت حدث فيه تقارب بين النديم والخديو أثناء زيارة الأخير للآستانة مما حال دون عودة النديم لمصر، وما لبث الأمر أن تمكن مرض السل الرئوى منه

وأزمن معه حتى لقى ربه فى أكتوبر ١٨٩٦، وسكت صوته وجف قلمه إلى الأبد. وصدر أمر السلطان بتشييع جنازته رسميا، واشترك فيها كبار رجال الدولة والعلماء يتقدمهم الأفغانى. وهكذا انتهى به المطاف بعيدا، ولم يحقق له القدر أن يوارى فى تراب مصر التى عشقها وضحى بالكثير من أجلها.

الفكر

الواقع أنه بالإضافة إلى الموهبة التى فرضت نفسها على النديم، فإن الظروف الأولى التى عاشها بلورته بشكل متميز، فقد نشأ فى الإسكندرية ولها مؤهلاتها المتعددة التى تسبغها على قاطنيها بما يهيىء لهم حياة تدفعها الحركة والنشاط والمعرفة، وجاء الحى الذى نما فيه ليثقله بالحنكة والمران، فهو حى تجارى يضم التجار الأتراك والشوام والحجازيين والمغاربة، فالتقط منهم الكثير، ثم جاءت دراسته الدينية لتثقفه فى أمور الدين وتسمو بلغته وتطلق لسانه، ومن ثم اندفع مع التيار الأدبى وصب اهتمامه عليه طوال فترة صباه، ولكن لم يستمر الأمر على هذه الوتيرة، فكان لقاؤه بالأفغانى نقطة جوهرية فى حياته، أثمرت عن تفتح ذهنه وتعميق فكره، وليس معنى ذلك أنه لو لم يكن الأستاذ لما كان التلميذ، لأن للنديم كيانه واستعداده وذكاءه وسرعة بديهته، وعليه تجاوب سريعا مما أسفر عن الخطوات العملية الناجحة. أيضا فإنه مع التطور السريع لعقليته اتسم بشخصيته المتميزة، فاتبع طريقا إصلاحيا لم يكن مطابقا تماما لأستاذه حيث اختلف معه فى بعض الآراء.

حمل النديم فكرا ليبراليا، أضفى عليه علامات راسخة ودمغه بطابع فريد، وأثر فى مجريات الأحداث المحيطة به، كما ترك البصمات التى استفاد منها الآخرون. ومما لا شك فيه أنه من الصعب تقسيم هذا الفكر وتصنيفه، إذ يمثل وحدة مترابطة ومتماسكة، ولكن بسبر أغواره والتنقل معه يمكن إيجاد محاولة لتناول جزئياته نصل من خلالها إلى تحديد مفهومه السياسى والاجتماعى والاقتصادى.

وإذا تتبعنا فكره السياسى نجد أن مسألة التدخل الأجنبى وأوتقراطية القائمين على الأمر قد شغلتاه ووجد الهوى فى سماع نقد الأفغانى لهما، وتاقت نفسه للتخلص منهما والبحث عن كيفية ذلك، فاشترك فى المحفل الماسونى بالإسكندرية على اعتبار أن لقاءاته أداة من أدوات العمل الوطنى، وانضم إلى جمعية اتحاد مصر الفتاة حيث اتفق برنامجها مع فكره فيما يتعلق بحكم الشورى، وتنظيم الحقوق والواجبات بين الحاكم والمحكومين، ووجود قانون للانتخاب، وفصل السلطات، ومنح الحريات خاصة للمطبوعات والاجتماعات، وفى ذلك مايدل على منهجه.

وبانضمام النديم إلى العرابيين اندمج مع مبادئهم، وغذاهم بفكره، وأصبح اللسان الناطق باسمهم، وجاب المدن والقرى ليشرح للناس معنى الدستور والحرية والمساواة، وكيف أن الجيش تولى مهمة الثورة على الأوضاع الاستبدادية القائمة، واشتد أزره بتحقيق مطالب العرابيين فى وقفة عابدين، وشجعه هذا على المزيد من التحرك. ومن خلال الجمعية السياسية التى حث على إنشائها بالإسكندرية أمكنه توجيهها وفقا لإيديولوجيته، كما أنه طالب الشباب بالإقلاع عما يقترفونه من أفعال والنزول إلى ميدان العمل السياسى لاحتياج مصر إليهم، وبث فيهم الجرأة من أجل تلك المشاركة.

كذلك وضحت اتجاهاته فى الصحافة التى عدها الركيزة الأساسية لنقل فكره للجمهور، فهو يهاجم شريف رئيس النظار فى مجلة التنكيت والتبكيت عندما أراد مسك الزمام بيده، ويعدد حقوق مجلس النواب، وينتقد سالبيها، ويتعرض لقانون الانتخابات ويطالب بحريتها وعدم تدخل السلطة فيها، ويرى الإطاحة بالرهبة من ذوى النفوذ، وعلى صفحات صحيفة الطائف يبصّر الناس بحقوق الحكومة، وأنها صاحبة التصرف مادامت لم تحد عن البرنامج الذى يتفق مع مصلحة الأمة، مشيرا إلى ما يفهم أن الخديو يملك ولا يحكم، وتدريجيا مضى يسفر فى الهجوم عليه، وهداه تفكيره إلى تكفيره عن طريق الأزهر، كما وجه سهامه إلى إسماعيل واستعرض تصورا شاملا لأوتقراطيته.

وعليه تتضح صورة حكم الفرد المطلق لدى النديم، ثم مالبث الأمر أن نادى بوجوب مصرية الحاكم نظرا للارتباط الوثيق الذى يربطه بشعبه، وإحساسه به، وقدرته على تحقيق آماله، ووصف الطرفين بالروح والجسد، وعكس النفور الذى يسيطر على العلاقة عندما يكون هذا الحاكم أجنبيا. ونراه ينشر محاضر جلسات مجلس النواب ليظهر للقراء نوعية الموضوعات ومناقشتها وأهميتها، حتى يكون الشعب على بيِّنه بعمل هذا المجلس، وطرح فكره عن الشورى إبان الأزمة الدستورية عام ١٨٨١ بشأن الميزانية، فشرح معناها بأسلوبه المبسط، وكتب عن مزايا الحياة النيابية السليمة، وبيَّن كيف يتم التصديق على القوانين بعد مناقشها بالمجلس، وهاجم الحكام الذين يصدرون القوانين وفقا لأهوائهم.

وواصل منهجه ـ خاطب به كل مصرى ـ بالحث على مراقبة الحكومة ومهاجمة النفوذ الأجنبى سواء كانت تشارك فيه الدول الأوربية أو أفرادها، وتكلم عن سيادة القانون، وعدم شرعية الإبعاد والنفى دون حق، وعرَّف الحرية ومدلولها وأنواعها، وانفرد كأول مفكر مصرى يكشف الجانب الاجتماعى لمفهوم الحرية، فيعطيها بعدا اشتراكيا، ويستنكر أن تكون المجالس النيابية مقصورة على أرباب الثروة وأهل الكلام، ويطالب اشتراك الشعب فيها اشتراكا فعليا. وقدتألق تعاطفه الجياش مع العامة بقلمه ولسانه، وأشاد بقدرتهم على ممارسة حقوقهم فى الحياة السياسية وبأنهم متساوون مع الأغنياء.

وعبَّر عن الوطنية بأنها غذاء ينتفع به الجسم بحيث لا يترك عرقا من عروقه إلا وجرى فيه دماؤها، واستبعد من فكره العامل الدينى فتخلص من التعصب، ونادى بتطبيق المبادئ الإسلامية، وطالب بالتسامح والوئام والاتحاد ليتحقق الشكل الذى تتوق مصر إليه. واحتل شعار مصر للمصريين الصدارة لديه، ويعنى أن تخلص مصر لأصحابها، وبيَّن أن ذلك لن يخرج إلى حيز التنفيذ إلا بالإطاحة بالعناصر الأجنبية - ويدخل تحتها الأوربيون والشوام والأتراك - التى اعتبرها أخطبوطا انتشر فى كل مكان وأطبق على الصدور وتسلَّط على الأرزاق وحرم المصريين من حقوقهم كافة.

وهنا تبرز أبعاده بشأن العلاقة مع الدولة العثمانية صاحبة الهوية الإسلامية، والواقع أن مسألة القومية المصرية كانت لها مكانتها لدى فكره، وتمكن بأدواته السلسة من توصيلها إلى الأذهان، وقد اختلف مع بعض معاصريه فى أن التمسك بالوطنية يفوق رباط الدين، وطرح مسألة إنشاء جامعة تضم العناصر الشرقية باختلاف عقائدها بدلا من الجامعة الإسلامية، لكنه فى الوقت نفسه احترم مركز أمير المؤمنين وسبح مع التيار فى هذا الشأن، وهاجم الذين وجهوا النقد للدولة العثمانية، وعدَّها قلعة إسلامية وسط العديد من الدول المسيحية، ومع هذا كان حريصا على الامتيازات التى حصلت عليها مصر بمقتضى الفرمانات، وأعلن موقفه الرافض صراحة من أى تدخل عثمانى قد يقضى على هذه الامتيازات أو حتى ينقصها أو يعوق مسيرة الثورة العرابية، ووضح ذلك جليا أثناء بعثة درويش باشا، وأيضا عندما صدر منشور عصيان عرابى. وهكذا يتبين أن الأساس الذى اعتمد عليه النديم هو مصلحة مصر أولا.

ومعروف أن الاتجاه الثورى فى ذلك الوقت اتخذ وقفة متشددة صوب الدولة العثمانية، ورأى أن العلاقة معها يجب أن تكون فى أضيق الحدود وبما لا يتعارض مع مركز مصر المتميز، فى الوقت الذى راودته فكرة جعل الخلافة الإسلامية فى يد أصحابها العرب وإحياء مركزها فى مصر، ومن ثم ثبت تأصل الروح القومية فيه. والعروبة عند النديم فكرة تتردد كثيرا فى كتاباته، وهى لاتتعارض ولا تتناقض مع مصريته، ولا يقلل الموقف المضاد الذى اتخذه – فترة من الوقت – إزاء شوام مصر الذين حاربواالثورة من منهجه فى هذا الصدد.

أما بالنسبة لفكره بشأن النظام الجمهورى وإمكانية خضوع مصر له، فقد وجد الترحيب منه إذ آمن به، شأنه فى ذلك شأن باقى العرابيين، واشترك فى تلك الاجتماعات التى عقدت لمناقشة كيفية تطبيقه، وعليه تولى الدعاية له وبث قواعده فى عقول الشباب، محتجا بمميزاته ومحللا لحسناته.

ومع تغير موقف الأستانة تجاه الثوار، سيطرت فكرة الجمهورية على أذهانهم، وعقدوا العزم على المناداة بها بعد تخطى الصعوبات القائمة التى تواجهها، خاصة

مسألة الارتباط الدينى بالدولة العثمانية وموقف العلماء من ذلك. إذن فاعتناق النديم لهذا النظام قد أعطى ثوريته القاعدة الشرعية التى اعتمد عليها فكره السياسى.

وعلى صفحات مجلة الأستاذ يقود الأمثلة للحكم الديموقراطى الغربى، ويحلل الأسباب التى ألجأت الدول الأوربية لاحتضان ذلك النوع من الحكم، وكيف تكثر المساوئ بتحكم الحاكم فى الموقف السياسى، ويطرح ما يجول بخاطره بشأن الأحزاب السياسية والمعارضة التى تحاسب النظام القائم، ويبيِّن أن النتيجة دائما إيجابية فى هذا الشأن، وأن التعارض والاختلاف فى عَقائدية الأحزاب يخلق الرأى الصحيح ويجبر على اتباع الطريق السليم، وطالب بتقليد أوربا فى ذلك، وبأن يكون لكل حزب صحيفته المعبرة عن رأيه والناشرة لأفكاره والمعلنة عن برنامجه والمنبهة له من الأخطار المحدقة به. وسعى بأساليبه المختلفة - أبرزها الصحافة والاجتماعات - لبلورة الرأى العام عن طريق بث فكره فى أذهان المصريين، وكان واضحا أن التركيز قد انصب على القاعدة العريضة ذات الوضع الاجتماعى السيئ التى امتزجت مع هذا التفاعل.

واحتل الفكر الاجتماعى للنديم مساحة واسعة لديه على اعتبار أن تركيز الرؤية على المجتمع تبرز مساوئه، وبالتالى يمكن حصدها ووضع العلاج لها، ولم يكن اعتناقه لهذا الخط بجديد على مثقفى زمانه، حيث اتفقوا على طرق هذا الباب الذى يوصلهم إلى نهضة شاملة للمجتمع تفرض نفسها على الوضع وتعطى شكلا متميزا للحياة بأنواعها التى يسعون إليها. وكما هو معروف فإن الإصلاح الاجتماعى هو الداء الشافى لكل مشكلات المجتمع، ومن ثم تتمكن الدولة فى هذا المجتمع من الالتزام بالمنهج الذى يجبرها أفراده على اتباعه بعد أن يصلوا إلى درجة لها ثقلها من الوعى والاستنارة.

وأثرت حياة الجفاف التى عاشها النديم على تكوين تفكيره، ولما كان من قاع المجتمع فقد أدرك تماما المعاناة التى يقاسى منها الفقراء سواء كانوا فلاحين أو حرفيين أو تجارا صغارا، ولهذا استطاع بمقدرة وكفاءة أن يضع يده على جروحهم، فى الوقت الذى عبر وبدقة عن أحاسيسهم، ونادى صراحة برفع الفاقة والحيف عنهم، ودفعته عوامل عمَّقت هذا الاتجاه ووطدته ونمّته تمثلت فى مدرسة الأفغانى وجمعية اتحاد مصر الفتاة والتيار الصحفى السائد. وجميعها استعرضت الأوضاع التى يقع تحتها العامة، وركزت على أن

أيدى الأثرياء هى العليا وصورت بطشها بالفقراء. هذا بالإضافة إلى ثقافته الدينية وتمسكه بالمبادئ الإسلامية التى تدخل تحتها المساواة.

ومن هذا المنطلق أمسك بالخيوط، وكانت الترجمة العملية لتطبيق أفكاره تأسيس الجمعية الإسلامية بالإسكندرية، واعتبرها عصبة من الفقراء يمكنه عن طريقها تنبيه «الوجهاء والأمراء» ، ثم مالبث الأمر أن نجح فى رصد مساوئ الأوضاع الاجتماعية، فى الوقت الذى تولى فيه مهمة تحريك العامة خاصة الفلاحين تحقيقا لمنهج الثورة العرابية، وبدا ذلك جليا فى مجلة التنكيت والتبكيت حيث أطال فى ضرورة التغيير وعدَّد المظالم الواقعة عليهم، وركَّز على المرابين الأجانب وأحكام المحاكم المختلطة، وألقى اللوم على ذوى اليسار، ورسم الدور الذى ينبغى لهم اتباعه لإنقاذ بنى جلدتهم، وشجع فكرة إنشاء بنك وطنى لانتشال البؤساء من الهاوية، وصوب الهجوم على الأتراك أصحاب الملكيات الكبيرة الذين يسحقون فلاحى أراضيهم، وعلَّم الأخيرين كيف يتمردون على أسيادهم، وصور قلمه فى صحيفة الطائف تصويرا دقيقا حياة الذلة والمسكنة التى خضعوا لها بعد أن لمسها وعايشها، وكانت له الجولات مع الضرائب والسخرة والتعذيب. ومما يذكر أنه استخدم الأسلوب الشعبى المتمثل فى العامية بتعدد لهجاتها التى اتخذت شكل الحوار، كما استشهد بالأزجال والأمثال ليتمكن من نقل أفكاره بطريقة يفهمها هؤلاء الناس عند قراءتها عليهم.

وطاف بالبلاد وارتقى منابر المساجد ليحقق الهدف، إذ وجد أن الكلمة المسموعة لها وزنها وأهميتها وجاذبيتها وتأثيرها الفورى، خاصة وهو يمتلك سبيل الإقناع للدرجة التى كان يُبكى فيها مستمعيه، وفى هذه الجولات راح يتحدث عن الحقوق، ويصف البذخ الذى تفيض به حياة أصحاب الثروة وكيف يبذِّرون الأموال وينفقونها فى اللهو والفساد، وأن مصدرها كفاح وشقاء الفلاحين، وبالتالى فإنهم أولى بها. ورغبة منه فى توصيل تلك المعانى ونشرها لمن يعنيهم الأمر، طلب من مسئولى الأوقاف طبعها وتوزيعها

على الخطباء فى مساجد مصر كلها. وكان لاعتناق هذه الأفكار النتائج المثمرة، واستخدم الأسلوب نفسه ليوقظ فقراء المدن.

ومما هو متفق عليه أن شخصيته وسلاسة أسلوبه وفصاحته وحجة بيانه وخفة ظله وإيمانه الراسخ بمبادئه وتحرقه غيظا من المستبدين والمستغلين والظالمين، جعلته يتفانى من أجل تعميق مفاهيم فكره لدى الآخرين، الذين آمنوا بما تحدث به، وتبعوه من كل حدب وصوب بعد أن أحسوا بالثورة فى كل كلمة يكتبها، وفى كل قصيدة ينظمها، وفى كل نكتة يطلقها، وفى كل زجل ينشده، وفى كل خطبة يلقيها، وعليه أصبح أسطورة يتداولها الجميع.

وعمَّق البعد الاشتراكى، وواصل الحملات على الموسرين وجشعهم، وأنهم لا يقنعون بالآلاف بينما الفقراء راضون بالخبز والملح وقانعون بالقرش الواحد، ثم يتعجب هل الأولون خلقوا من ذهب وولدوا قابضين على زمام الدنيا والآخرون خلقوا من تراب وقدر لهم أن يكونوا عبيدا مع أنهم الذين يشكلون الأمة ؟ ويستعرض أطعمة الفريقين ملَّوحا إلى الفرق الشاسع بينهما وأسلوبهما فى الحياة، واستجدى الأغنياء للأخذ بيد الفقراء، ونراه يحذر وينذر من إمكانية ثورة هؤلاء الجياع المظلومين إذا فاض بهم الكيل. أيضا تناول تلك القضية وطرحها من خلال وقائع مسرحية «الوطن وطالع التوفيق» إذ ندد بصفات المترفين وعاب عليهم تقاعسهم عن انتشال المعذبين فى الأرض. وهكذا ندرك الاتجاه الثورى الجارف، والإيمان الكامل بقوي الشعب الكادح ودوره فى المجتمع. ومما يسجل أن الظروف التى واجهته عقب الثورة العرابية لم تقعده أو تقصيه تماما عن المضى على هذا الدرب، إذ استمر ولكن بصورة مخففة بعض الشىء كما وضح من كتاباته فى مجلة الأستاذ.

وانقض على أمراض المجتمع التى عانى منها فحاربها بقلمه ولسانه وعَّدها أساس التأخير، وتلقى كل مرض على حده، وبأسلوبه المتميز تتبعه وفطَّن الأذهان لخطورته، ووضع طرق علاجه، ووبَّخ من يلقون أنفسهم على أعتابه، فهو يهاجم الرشوة «البرطلة»

على مستوى الفرد والدولة ويعدد مفاسدها، ويكشف عن المحتالين على الناس والعاملين فى الشعوذة والتنجيم والدجل والسحر، ويبيِّن كيف يمس تابعيهم الضر، إذ ينقادون إليهم بسهولة ويفقدون إيمانهم وأموالهم، ويسوق الأمثلة المتعددة ليعطى صورة واضحة لما يجرى فى هذا الصدد. وينتقد البدع والخرافات بأنواعها ويركز على ما أدخل على الدين على يد مشايخ الطرق الذين ضلوا السبيل بما يتبعونه فى الموالد والمناسبات الدينية محذرا اتباعهم، مشيرا إلى الالتزام بالأسس الدينية الصحيحة.

ومما يلاحظ أن ما أصاب المرأة من جهالة قد شغل فكره، فاستتبع خطواتها منذ الصغر، موضحا السبل التى تستخدمها السيدات من طاعنى السن لتسميم أفكار الفتيات بتشريبهن العادات والتقاليد السيئة التى تخرج بهن عن الدين والعقل، واستشهد بما تقوم به النسوة من ندب وصراخ وصبغ أنفسهن فى حالة حدوث وفاة، وذلك الزار الذى يقمن به دفعا للشيطان، وما يتخلله من طقوس تؤدى للخراب، وتلك الطريقة التى يتبعنها بالشحاذة على أطفالهن بأسلوب مبتذل اعتقادا فى إطالة أعمارهم، والتجائهن للمشعوذين رغبة فى معرفة الغيب واستخدام الجن، والعناد الذى يتمسكن به خاصة عند الزواج فيما يتعلق بجهاز العرس، ويناشد بالكف عن ذلك. أيضا كانت له وقفته عند الطلاق وتعدد الزوجات، وعاب على المسرفين فيهما، ورأى التمسك تماما بالقرآن الكريم حتى يمكن وضع حد للفوضى السائدة.

وصوَّب سهامه تجاه الذين ينجرفون مع الطبائع الأجنبية ويستمدون منها الرذائل دون الفضائل، موضحا النتائج التى تودى بالمجتمع من اتّباع مثل هذا السلوك، فنقد الأفندية العائدين من أوربا وتنصلهم من قيمهم وتقليدهم للأوربيين بما لا يتفق مع أصالة ودين المجتمع، كما نادى بوقف التقليد الأعمى سواء للأجانب أو لبعض المستويات العليا من المصريين. وفى هذا الإطار استعرض داء شرب الخمر، مشيرا إلى تحريم اللّه له، مفندا أضراره، محللا نتائجه وما تعكسه على الزوجة والأولاد من انهيار، وعلى الأمة من تقهقر واضمحلال. ووضع المكيفات بأنواعها فى المرتبة نفسها، وعرج على لعب الميسر وعدَّه

دمارا للديار، ووجه حديثه لبعض النساء اللاتى انجرفن فى طريق الموبقات، مؤكدا على ضرورة أن تحتل المرأة مكانتها فى المجتمع وتحافظ على دينها وشرفها وطهارتها وتنتهج التقاليد الحسنة. وندد بالزنا، مبينا تحريمه شرعا فى كافة الأديان، مسجلا أنه أشر النكبات والمصائب التى حلت بالمجتمع على اعتباره مقوضا للنظام الأسرى، واستعرض حالات المصابين بأمراضه، وهاجم الترخيص له.

وبطبيعة الحال فإن هذا الوضع قاده للهجوم على الأجانب خاصة المنتمين إلى البحر المتوسط الذين وجدوا على أرض مصر مرتعا يزاولون فيه نشاطهم غير الأخلاقى، حيث احتكروا القهاوى التى يتناول فيها المكيفات، والحانات التى تحتسى فيها الخمور، والملاهى وأماكن اللهو التى تنصب الموائد الخضراء، وبيوت الدعارة التى اكتظت بالعاهرات، والحوانيت التى تعاملت بالربا، واعتبر النديم تلك الأماكن بؤرا للفساد، وأنها أسهمت مساهمة فعالة فى هذه الأمراض التى أصابت المجتمع، وقد تأثر تأثرا بالغا بما أقدمت عليه السلطات البريطانية بشأن تنظيم مهنة البغاء. ولم تقتصر صيحاته على إلغاء الرق الأبيض فحسب بل والرق المتمثل فى العبيد، إذ أبدى نفوره من اقتنائه.

وكان أهم هاجس شغل فكر النديم ليقصى تلك المفاسد جانبا ويصلح المجتمع وينتشله مما يعانيه وينهض به مسألة التعليم، فقد رأى أن كل فرد من حقه أن يقرأ ويكتب حتى يتمكن على الأقل من المعايشة للأحداث من خلال الصحافة التى عدّها منارة المعرفة. واستحوذ أمر إنشاء المدارس على اهتمامه، ورغبة منه فى تنفيذ فكرة التعاون فى هذا الميدان، أسس المدرسة التابعة للجمعية الخيرية الإسلامية بهدف خلق جيل يدين لأفكاره بالتبعية، كما أنه طبق مبادئه بشأن تنشئة وتعليم الأطفال الفقراء والأيتام بنين وبنات عن طريق المعونات التى تولى جمعها من الأثرياء، وبذلك خطا خطوة واسعة فى مسألة التكافل الاجتماعى.

وأسهم فى البرنامج التعليمى وطوّعه وفقا لرؤيته، وقام بالتدريس، وبث فى التلاميذ الروح التى يريدها اتباعا لطريقته المعهودة. وقد استخدم المسرح ليقوم التلاميذ بالتعبير

عن أفكار أستاذهم بواسطة التمثيل، وتمكن عبر هذا الطريق أن يحقق أكثر من هدف، تثبيت المبادئ فى الأذهان حيث إن الأداء التشخيصى له تأثيره النافذ القوى والفعال، واستثمار المبالغ العائدة من الإيراد لمساعدة ذوى الحاجة. وتحققت دعوته فى هذا المجال واتسع النشاط التعليمى للجمعيات، ومافتئ النديم عن المناداة بضرورة تشجيع التعليم والحث على النهوض به وأهميته وذلك فى كلماته التى سجلها وخطبه التى ألقاها.

ومضى فى مساعيه، ونادى بوجوب تعميم التعليم وجعله إلزاميا بفتح مكاتب ابتدائية فى المدن والقرى على نفقة أهلها، وأن يجُبر كل أب على إرسال ابنه إلى المكتب ليدرس فيه نصف النهار ويعمل بصنعة أبيه باقى اليوم. وفى الوقت ذاته لم يغفل دور الحكومة فى إنشاء المدارس العامة المجانية، وكانت له نظريته فى تعليم البنات، إذ طالب به، ولكنه وضع له شروطا بحيث يتواكب مع الحجاب ويتمكن من خدمة الفتاة فى بيتها. ولم ينظر بعين الرضا إلى المدارس الأجنبية. وعدّها من الأدوات الأوربية الهادمة للمجتمع لاختلاف منهجها القومى والدينى مع قيم المجتمع الإسلامى، وبالتالى امتلأ صدره غضبا على نشاط الإرساليات الأجنبية. ولكن لم يمنع ذلك من منادته بالاقتداء بأوربا فيما وصلت إليه من تقدم فى التعليم. ووضع تصورا شاملا للائحة التعليم احتوت على المواد التدريسية والشروط الواجب توافرها فى المعلمين.

وارتبطت مسألة التعليم فى ذهن النديم بالأزهر، فرأى ضرورة إدخال الإصلاحات عليه، وخاصة أنه صاحب تجربة أظهرت الجمود والجفاف اللذين سيطرا على تدريس علومه، وذلك بتغيير الطرق المتبعة، وإخضاع المناهج للمرونة والتشويق وربطها بقضايا المجتمع وبجميع فروع العلم والمعرفة الحديثة، للاستفادة بالمبادئ الإسلامية وتطبيقها عمليا بصورة تنأى عن المشكلات القائمة المعقدة. واعتبر أن إصلاح أمر القائمين على الأزهر لا يقل عن إصلاحه هو نفسه، من ناحية تكوينهم العلمى والثقافى وحالتهم الاجتماعية كشريحة لها مكانتها واحترامها لدى الناس، وأيضا لم يغفل المناداة بإصلاح طلبة الأزهر والأخذ بيدهم والعناية بهم ورفع مستواهم. وبذلك وضع يده على جميع نقاط الضعف وأشار إلى العلاج وعرضه خاصة على صفحات مجلة الأستاذ.

وانصب اهتمامه على اللغة العربية، ونبع ذلك من اعتزازه بالقرآن الكريم وبالقومية التى اعتمدت أساسا على لغة البلاد، وحارب موجة التقليد الأعمى التى سرت بين البعض، وكان استخدام اللغة الأجنبية أحد مظاهرها، ومضى يجاهد لينصر لغة الضاد، مفسّرا ومحلّلا الأضرار الناتجة عن هجرها، ومحذّرا ومنذرا لمن اتبع هذا الطريق، ومبيّنا ومدّللا على أصالتها وحتمية الانتماء إليها، ومشيرا ومبرهنا على أن تفشى الموجة الغربية جاء بناء على سياسة أجنبية لها المصلحة لتقويض الأساس اللغوى لمصر. ثم تحول إلى عرض الاقتراحات التى تقضى على أية ظواهر تمثل العوائق الّتى تعترض لغة البلاد، ونادى بتنقيتها من الشوائب العالقة بها، ووأد الكلمات الدخيلة التى فرضت نفسها عليها سواء كانت تركية أم أفرنجية.

وفى هذا الإطار دعا إلى إنشاء مجمع علمى لغوى يتولى ترجمة الألفاظ الحديثة وإدخالها على اللغة العربية بعد إخضاعها لقواعدها. وفى الوقت نفسه يمكن القول أنه لم يكن متعصبا لها بحيث أراد سد المنافذ وقصر الأمر عليها، لكنه طالب بإتقان اللغات الأجنبية زيادة فى الثقافة والمعرفة بشرط ألا يكون ذلك على حساب اللغة الأم. ومما يذكر أن إحساسه بالنقص لافتقاده معرفة اللغة الأجنبية قد دفعه لهذا المطلب. هذا وينبغى الإشارة إلى أنه رغم حرصه الشديد على تبجيل اللغة العربية، استخدم اللغة العامية فى بعض محاوراته لتوصيل فكره لعامة الشعب. وعندما أراد الإقلاع عن ذلك أوقفه مريدوه وبصّروه بالسلبية المنتظرة، وأقنعوه بأنه لا ضرر يترتب على هذا الأسلوب، فانصاع لهم واقتنع تماما بأن هذا النمط هو الجسر الذى تعبر عليه مبادؤه إلى أكبر قوة فى المجتمع. وعليه يتضح كيف تشعب الفكر الاجتماعى للنديم وانتشر ليعالج الأمراض ويسد النقائص ويعطى صورا متعددة للشكل الذى ينبغى أن يقوم عليه مجتمع مصرى متقدم.

وبالنسبة لفكره الاقتصادى، فلم يكن صاحب نظرية إقتصادية وإنما تدرج مفهومه فى هذا المجال من منطلق فكره الاجتماعى، وقد فرضت الظروف الاقتصادية الصعبة ـ

التى كانت تمر مصر بها ــ على الأذهان ضرورة تغيير تلك الأوضاع التى سيطرت فيها الرأسمالية الأجنبية على الاقتصاد تحميها الامتيازات ويظللها تهاون الحكام. وضاق النديم بذلك، وراح يتحدث عن ضرورة كسر هذه الأوضاع، وهاجم البنوك، واستعرض كساد التجارة الوطنية وكيف أصبحت اسما بلا جسم ولم يبق لها عين ولا رسم، وتناول حالة التجار المصريين وقسوة الدهر عليهم وفقدان أموالهم، وأرجع السبب للضرائب من ناحية، وللتجار الأجانب الذين استحوذوا على الأرزاق وسيطروا على الأسواق واقتنصوا المشترين من ناحية أخرى. ويتعالى بالصيحات لينبه التجار المصريين ويندد بمنفعة الغريب، ويصرح بأن مصر هى البلد الوحيد التى تجزل العطاء لغيرها وتحرم نفسها، ويأتى بالأمثلة التى تعكس الحال عندما ينتقل هؤلاء التجار إلى لندن وباريس وكيف توصد الأبواب أمامهم. ومن ثم يتبين أن أساس فكره اعتمد على إقصاء الرأسمالية الأجنبية التى لعبت بالاقتصاد وأضرت بالعاملين فى ميدانه.

وطبّق المفهوم نفسه على الصناعة إذ أعطى لها أهميتها فى بناء الدولة ونادى بضرورة إعادة مسيرتها ببناء المصانع والعمل على تقدمها، وكثرت صيحاته لتشجيع الصناعات المحلية حيث عدَّ ذلك ضربا لاحتكار الأجانب وحفظا لثروة البلاد وزيادة فى عمرانها، فى الوقت الذى تنكر فيه وأنّب المتهافتين على شراء البضائع المستوردة. وحثَّ أصحاب الأموال على النزول للميدان الصناعى بدلا من صرفها على الخمور والمخدرات والقمار والزنا وغير ذلك من آفات المجتمع. ومن المعروف أن الرأسمالية المصرية صوبت اتجاهها لامتلاك الأرض الزراعية.

وأيقن ضرورة النهوض بالحرفيين بعد أن استعرض طوائفهم وسوء حالتهم والأعباء المالية المفروضة عليهم وتغلغل الصناع الأجانب واكتساحهم لسوق العمالة رغم ارتفاع أجورهم، وركز على وجوب الإطاحة بهم لتخلص مصر للمصريين، وأظهر خوفه على موت الصناعة للدرجة التى رأى أن يعمل التلميذ فى حرفة أبيه بعد عودته من تلقى دروسه حتى تستمر الحرفة ولا تنقرض. ونادى بالعمل على إنشاء نظام يكون أشبه

بالنقابات، يقوم فيه مندوبون عن كل طائفة للعناية بأمر أصحابها، بل ورأى تكوين صندوق دعم تكون أمواله موزعة بأسهم على الصناع ويقبض كل منهم نصيبه من الأرباح، وأن يكون للرأسماليين دورهم فى تقديم المساعدات لتلك القوى العاملة، والتى لاتقتصر على المال فقط، وإنما تشمل أيضا التوجيهات المعنوية وتوصيل المفاهيم التى تتضمن ما ارتقى إليه تقدم الصناعة فى أوربا إليهم، والعمل على انتشالهم مما حاق بهم. فى الوقت الذى نمى النديم فيه لدى هؤلاء الحرفيين نزعات كراهية الأغنياء الذين ينعمون بالرخاء ويزيدون من ثرائهم، بينما الحرفيون يتكففون الأبواب ويلتمسون الإحسان.

وأشار إلى إمكانية تأسيس الشركات المصرية لخدمة الصناعة وطرح أسهمها للشراء، وأنه عن طريقها تتحقق عدة أغراض، فهى تحيى الصناعة، وتوظف الصناع، وتزيد من ثروة البلاد، أيضا آزر فكرة إنشاء بنك مصرى يقدم المساعدات فى هذا المجال. وكان لذلك صداه فتأسست «الجمعية الصناعية المصرية» بهدف إنماء الصناعات، وأسهمت صحيفة الطائف فى توزيع أسهمها، واشترى النديم البعض منها بقصد التشجيع وخاصة لذوى اليسار.

وواصل المنهج، وبدا واضحا فى مجلة الأستاذ خاصة بعد أن نُفِّذت سياسة الاحتلال البريطانى فى شأن الاهتمام بالزراعة وإهمال الصناعة، فراح يحث على الأخيرة ويعرض المقترحات التى ترقى وتنهض بها وأساليب القضاء على معوقّاتها، وضغط على مسألة مقاطعة البضائع الأجنبية التى تطغى على الصناعة المصرية. وهكذا كانت رؤيته لإصلاح المسار الاقتصادى، حقيقة أن هذه المفاهيم نبعت من ذاته، لكنه لم يكن خالقها جميعا، حيث شاركه فى جزء منها بعض المفكرين خاصة قبيل الثورة العرابية، ومع هذا فقد وصل فيها إلى درجة من النضج جاءت بناء على تكيفها بفكره السياسى والاجتماعى لتعطى فى النهاية شكلا متناسقا ومتجانسا لفكره بصفة عامة.

وتشكل سلافة النديم أهمية بالغة نظراً لاحتوائها على موضوعات شغلت فكره وكان مهموما بها، وهى تنقسم إلى جزئين، يقع الجزء الأول فى ١٣١ صفحة - عدا الفهرست - من القطع الكبير، والجزء الثانى فى ١٣٢ صفحة - دون الفهرست - من الحجم نفسه، ويشير فى النهاية إلى أنه سيتبع بجزء ثالث، ولكنه لم ير النور. ويخضع الجزءان لتصميم واحد، ولكن الفرق أن الجزء الأول قرن اسم النديم بالسيد وفقا لما ادعاه لنفسه من أنه ينتسب إلى الحسن بن على، ويقال إن ذلك لم يكن صحيحا وإنما الذى دفعه إليه محاولة لتعويض نشأته الفقيرة وما اعتاد عليه من التصنع وقت اختفائه. أما الجزء الثانى فقط أُسقط هذا اللقب واستعاض عنه بلقب أفندى، وسبق الاسم كلمة المرحوم. واختلف مكان الطبع وتاريخه، فالجزء الأول طبع بمطبعة بمصر على نفقة عبد الفتاح نديم شقيق عبد الله النديم عام ١٨٩٧ - واضح أن الأخ أسند لنفسه كنية أخيه- والجزء الثانى طبع بمطبعة هندية بمصر على نفقة أمين هندية عام ١٩٠١.

والسلافة عبارة عن منتخبات لكتابات النديم جمعها شقيقه عقب وفاته وحفظ لنا بها بعض أعماله التى تناثر الكثير منها بعد أن أسهمت عوامل متعددة فى فقدانها أثناء الظروف الصعبة التى مر بها صاحبها. ومن هذا المنطلق فالسلافة تعد عملا شبه متكامل لأهم ما كتب النديم، وتلقى الأضواء على تلك الثروة العقلية التى امتلكها وتعتبر مرآة لإيديولوجيته حيث جمعت بين طياتها نماذج مختلفة، وتدانت منها قطوف مثمرة عكست فى الوقت نفسه صورة حية لحالة المجتمع المصرى.

ويضم الجزء الأول قسمين، القسم الأول منتخبات الرسائل الأدبية والقسم الثانى منتخبات مجلة التنكيت والتبكيت. ويحتوى الجزء الثانى على منتخبات مجلة الأستاذ ومنتخبات أخرى متفرقة. وتصدَّر الجزء الأول ترجمة للنديم قام بها صديقه أحمد سمير، إذ كان ملما بأحداث حياته لمعايشته له فترة من الوقت، فقد عمل معه مدرسا لعلوم اللغة بالجمعية الخيرية الإسلامية وشاركه العمل فى صحيفة الطائف، واتفق فى الهدف مع عبد الفتاح نديم حول السعى لتجميع تراث النديم تخليدا لذكراه. وختمت الترجمة

بتقريظ عن أخلاق صاحبها وخطبه وتأثيرها وسرعة بديهته فى الاسترسال وكتاباته المتنوعة التى استخدم فيها الأساليب المتعددة.

وحفظ لنا القسم الأول «منتخبات الرسائل الأدبية» مجموعة أعمال وافية تفرعت فرعين، الفرع الأول شمل ست عشرة رسالة بدأها منذ أن وطئت قدماه القاهرة - ١٨٦٠/ ١٨٦١م (١٢٧٧ هـ) - وهو فى صدر شبابه، وقد تعددت أغراضها، واتسمت بالسجع المختلف الأوزان، ويتضح من رسالة «لواء النصر فى أدباء العصر» أنه التقى فى هذه الفترة المبكرة من حياته ببعض المثقفين الذين كان لهم دور فى الأحداث التى انجرف معها قبيل الثورة العرابية وأثناءها مثل محمود سامى البارودى وعبد اللّه فكرى. ويتعرض فى رسالة «التنور المسجور» لحوار بين وسيلتين للمواصلات وهما السفينة والقطار والمفارقات بينهما، والملاحظ أنه يكثر الاستشهاد بالآيات القرآنية. وتعكس رسالة«طالع الكرامة بحسن السلافة» تعاليه وثقته بنفسه. ويدحض فى رسالة «نار الغدو وثأر العدو» الخرافات التى يقدم عليها أحد أصدقائه ويهاجمها ويرى ضرورة محاربتها.

ويتبيّن من رسالة «استعطاف المقر قلب المحرر» أنه قبل انخراطه فى الحياة السياسية جامل الخديو إسماعيل حيث أثنى على الأفراح التى أقامها لأنجاله. وينجلى فى رسالة «درر النحلة وغرر الرحلة» شعوره الفياض تجاه الإسكندرية منبت رأسه، فيرصد لها الكلمات المعبرة عن حبه لها رغم الظروف المرضية التى عاناها وقتها. ويبجّل العمل ويحث عليه فى رسالة «تنبيه اللبيب وتسلية الحبيب». وتشير رسالته إلى صديقيه محمد كمال وأحمد على لحملته الهجومية على عمدة بدواى الذي هضم حقه وأكل عليه أجره وحرق داره، وهى تعطى صورة لطاغية القرية. وتعتبر رسالة «الساق في مكابدة المشاق» عن نفسيته من جراء طرده من وظيفته بتلغراف القصر العالى، وتلوح بأهمية العمل فى حياة الإنسان، كما تسجل سمات العصر السيئة. ومما تجدر الإشارة إليه أنه كتب على لسان البعض لينطق بما يجيش بصدورهم تجاه مواقف معينة، وضح ذلك فى رسالتى السيد عبد الواحد الحريرى والشيخ إبراهيم الإسكندرى.

أما الفرع الآخر من منتخبات الرسائل فتحمل عنوان«رياض الرسائل وحياض الوسائل» وتحتوى على خمس عشرة رسالة كتبها النديم إلى صديقه عبد العزيز حافظ أثناء عمله فى تلغراف القصر العالى، وقد حفظت السلافة المقدمة ورسالتين فقط ولم يعثر على باقى الرسائل. والرسالة الأولى«زند الأذهان وزبد الأدهان» يبرز فيها كلمة«الوطن» ومن المعروف أنه كان فى هذه الأثناء قد أخذ يتردد على الأزهر ويسبح مع التيار الوطنى. ويستعرض فى الرسالة الثانية«حوض الخمر وحوض الجمر» فائدة الأسفار ويتوجه بالنصيحة من خلالها. وبذلك يتبين أن تلك المنتخبات تعد إشعاعا تسلط على المجال الأدبى الذى بدأ النديم به حياته.

وإذا انتقلنا إلى القسم الثانى «منتخبات التنكيت والتبكيت» نجد أن السلافة قدمت لنا أهم مقالات هذه المجلة، وقد ظهرت فى أول يونيو ١٨٨١ عقب حوالى أربعة أشهر من حادثة قصر النيل أول انطلاقة للثورة العرابية. وفى مقدمة أول عدد منها دوى صاحبها بصيحته يطلب من الآخرين التعاون معه لتحقيق مبادئه فى الإصلاح. واستخدم أسلوبا متميزا استرعى فيه انتباه القراء والسامعين. ومنذ العدد الأول انتهج التورية، وضح ذلك فى مقال «مجلس طبى على مصاب بالإفرنجى»، فقد أراد إعطاء صورة للتدخل الأجنبى فى شئون مصر خاصة السيطرة المالية، والأمل فى النفاذ من هذا المرض. هذا فى الوقت الذى قصد أيضا تلك الآثار الاجتماعية الضارة لوجود الأجانب فى مصر.

وعلى صفحات العدد نفسه يكتب مقالا حمل عنوان «عربى تفرنج» ودار مغزاه حول فقدان الأمل فى الشباب الذين انجرفوا مع الحياة الأوربية، وإمكانية عودة هذا الأمل برجوعهم عما اتبعوه ومحافظتهم على لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم والاستفادة بالشىء النافع من أوربا ونقله لمصر للإسهام فى تقدمها. ويُظهر فى مقال «سهرة الأنطاع» داء الكيف الذى أصاب البعض، ويحث الهمة على الاحتذاء بالتقدم الذى وصل إليه الغرب وينادى بالاهتمام بالصحافة لما لها من أهمية فى تثقيف وتنوير الأذهان. ويشير

فى مقال «تخريفة الجنون فنون» إلى الجهل المتفشى بين العامة وإيمانهم بالخرافات وتصديقهم للأكاذيب. ويصور حالة الفلاحين فى مقال «محتاج جاهل فى يد محتال طامع» ومابلغوا من سذاجة وصلت حد فقدانهم لحقوقهم واللعب بهم، وآفة الربا التى لجأوا إليها وكيف يقعون فى براثن المرابين الأجانب. ويتهكم فى مقال «غفلة التقليد» على هؤلاء الذين يتبعون خطا المثقفين من الناحية الشكلية دون محاكاة الجوهر.

وفى العدد الثانى الصادر فى ١٩ يونيو ١٨٨١، يهاجم المتفرنجين ـ خاصة الذين يستخدمون اللغات الأجنبية ـ فى مقال«إضاعة اللغة تسليم للذات أيها الناطق بالضاد». ويدافع عن اللغة العربية مبررا مميزاتها، وعقد مناظرة بين المثقفين وخرج منها بمقال «رسالة فى الحكم بين متناظرين» أظهر فيه أهمية اللغة ومقوماتها ووظائفها. ويعود ليركز على مكانة الصحافة فى مقال «جرائد الأخبار ومدارس الأفكار» ويستعرض نشأتها وارتباطها بالرقى ودورها فى بلورة الرأى العام. وينتقد فى مقال «هف طلع النهار» الذين ينفقون أموالهم فى أماكن اللهو ويسرفون فى الفساد بأنواعه، ويبين أسباب السقوط فى هذه الهاوية ومضار ذلك عليهم.

ويسب المحسوبية فى مقال «كم فى الزوايا خبايا» مصرّحا بأن الحكم الجديد الذى تعيشه مصر يُقصى هذا المرض جانبا ويضع الأمور فى نصابها. وينعطف على العوامل التى أجهضت الصناعة المحلية فى شكل إجابة على سؤال ورد للمجلة وضعه تحت عنوان «جواب على سؤال ورد إلى التبكيت» وأبرز دور الأجانب الإيجابى فى ذلك المجال، والمهمة الملقاة على حكومة الثورة لتصحيح الأوضاع. ويشن حملته على المنجمين فى مقال «تخريفة. خد من عبد اللّه واتكل عل اللّه»، ويحرك الوعى بشأن الاعتماد على الطب فى علاج الأمراض.

وتمضى السلافة فى التقاط بعض الأعداد المتفرقة من المجلة، فيدعو النديم إلى الفضيلة فى مقال«إنذار صادر عن لسان الإنسانية»، ويعقد المقارنة بين الحيوان والإنسان فى مقال «تسمية البهيم بالمتوحش ظلم من الإنسان» ويضع الأسس الصحيحة التى

ينبغى أن يخضع لها الإنسان. ويتعرض لآفات المجتمع وأصحاب الرذائل فى مقال«حوادث خارجية» ليبصّر القراء بهم. ويدعم القواعد لحرية القلم والكلمة فى مقال «حر الكلام الحر» ويناقش قيودها، ويلوم الزمن لغدره بالشرفاء فى مقال «اتبع الحق وإن عز عليك ظهوره» معددا الصفات السيئة لبعض البشر ونتائجها على الآخرين. ويبيّن دور الخطابة فى مقال «ألسن الخطباء تحيى وتميت» ويبرز أهميتها فى الإصلاح السياسى والاجتماعى ويستشهد بإحداها. والواقع أن النديم برع فى اختيار موضوعات مقالاته، وتمكن من خلالها مخاطبة المثقفين والعامة بأسلوبه المتوخى الدقة والإحكام والذى يحمل بين طياته الأغراض المتعددة. وينتهى الجزء الأول من السلافة بمقتطفات من شعره.

أما الجزء الثانى من السلافة فيفتقد التنظيم الذى حظى به الجزء الأول. ويبدأ بإشارة النديم بعظمة الخالق ويثنى على رسوله(ص) ويشرح البسملة وسورة الفاتحة، ثم يبرز قلمه الطريقة المثلى«فى معاملة الوالدين» وفضلهما على الأبناء وضرورة تفانى الأخيرين من أجلهما وتنفيذ ماجاء بكتاب اللّه والاقتداء بأفعال آل بيت الرسول(ص)، وكذلك يبين الطرق «فى معاملة الأخوة والأخوات» وأهمية صلة الرحم، ودور الأخ الأكبر، والأساليب المتقدمة فى التربية، وواجبات الأخ الأوسط والأخ الأصغر. ويشير إلى المركز الذى يحتله ذوو العلم فيما كتبه عن «وظائف العلماء فى العالم» مبتدئا بالأنبياء مارا بالحكماء والعلماء فى ميادينهم المختلفة. ويتعرض لبعض الشرائح خاصة الذين يمثلون ثقلا فى المجتمعات، فيكتب عن «طبقة الملوك والأمراء»، «طبقة الوزراء»،«طبقة التجار والأغنياء»، ثم يميل على المثقفين ويخص بالذكر «طبقة الكتاب والمنشئين»، ويظهر أهمية كل فئة. ومما يذكر أن كلمة «طبقة» التى استخدمها لم تكن تحمل المعنى الحالى .

وكانت الشذرة التى سجلتها السلافة من مسرحية«الوطن وطالع التوفيق» هى الوحيدة التى وصلت إلينا من الفن المسرحى للنديم، وجمعت اللغة العربية الفصحى

والعامية وفقا لنوعية الشخصية المحدثة، حيث استحضر نماذج مختلفة من المدينة والقرية، وأتقن الحوار وفقا للهجة أصحابه، وحرص من خلال هذا العمل على الدعوة للنهوض بالمجتمع، وأظهر سلبياته وطالب بلفظها، ووصف العلاج وأعطى الدواء فى صور شتى، واستحوذ عليه البعد الاجتماعى. وفى إطار اهتمامه بهذا المجال كتب عن الفن تحت عنوان «فريق التمثيل العربى» مبينا مكانته وما يعكسه من آثار طيبة لسهولة صب الأفكار فى الأذهان عن طريقه.

ويتضح أسلوبه الثورى المتقد فى مقال «لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا» وقد اختار هذا العنوان لأنه يجرى على لسان بعض الأوربيين فى مخاطبتهم للشرقيين، وكتبها مباشرة عقب أزمة النظارة بين الخديو والإنجليز، وكانت أول مقالة يتعرض فيها للناحية السياسية ويعلن فيها صراحة مؤازرته لعباس حلمى الثانى، ويدعو للالتفاف حوله، ويشعل نار الحركة الوطنية ضد الاحتلال ويهاجمه، ويرد على افتراءات الأوربيين، ويبرز الاتجاه الإسلامى، ويتعرض للدولة العثمانية، فى الوقت الذى يركز فيه على الوحدة الوطنية، ويدحض أساليب الإمبريالية، ويطالب بمقاومة التدخل الأجنبى بأنواعه، ويأتى بوسائل ذلك.

وضم هذا الجزء بعضا من خطب الجمعة التى كان يلقيها فى المساجد أثناء اختفائه، ودارت حول الأمراض المتفشية فى المجتمع مثل الربا والخمور ومساوئها وما تجره على المصابين بها. وعندما فكر فى إخضاع كتابته للغة العربية الفصحى انطلاقا من الحرص على إحيائها والإطاحة بكل دخيل عليها، كتب مقالا تحت عنوان «عقد اتفاق» تنفيذا لتلك السياسة، ولكن القراء بعثوا إليه يرجونه إلغاء الاتفاق لما فى كتاباته العامية من دور في المجتمع خاصة فيما يتعلق بانتشال المرأة من الأفكار البدائية المحيطة بها، وقد كانت لها المكانة لديه، فاهتم بمشاكلها كما يتبين فى مقال «عرض حال نساء السكارى لأزواجهن» وعليه واصل طريقته المعهودة.

وشرح سياسة التعليم فى مقال «مدرسة البنين» وما يجب أن تسير عليه، ورغّب الشباب فيه وبث فيهم روح الوطن وحب الاستقلال، ونصحهم بعدم التعصب للدين، وهاجم الآباء الذين يرسلون أبناءهم إلى المدارس الأجنبية حيث كان له الموقف المعارض منها، وحرص على غرس الفضيلة فى النفوس مقتفيا التعاليم الدينية. وطالب أصحاب الأقلام فى مقال «الانسجام» باتباع الأسلوب البسيط السلس والاقتداء بكلام الله عز وجل. ويمضى ليجيب على أسئلة وصلته اختصت بقصص القرآن مثل برهان يوسف، وإرم ذات العماد.

واحتوى هذا الجزء من السلافة على بعض من كلمات النديم وقد عدت أمثالا، وهى تكمن فيها النصائح وتتفق مع منهجه النقدى الإصلاحى، أيضا عرض الأسلوب التربوى والتعليمى بشكل متميز فى مقال «تربية الأبناء» واقترح التزود من التمدن الأوربى فى هذا المجال، خاصة فى مزج الدين بعلوم الحياة. وعقد المقارنات بين تقدم الغرب وتأخر الشرق فى مقال «بم تقدموا وتأخرنا والخلق واحد» واستعرض الأقوال حول ذلك ورد عليها، وحصر الأسباب وأفاض فى شرحها، وأشار إلى ارتباط التقدم بما نادى به من إصلاح.

ويسجل فى مقال «أشتات الشرق وعصبيات أوربا» فضل العرب على العالم وقوة العصبية والمناداة بالعمل لصالح الوطن، ويتعرض للأحزاب ولأنظمة الحكم فى أوربا ويقارن بينها وبين الشرق الذى فاض به الفساد، ويطرح وسائل العلاج، ومن الملفت للنظر أنه يثنى على بريطانيا مصرحا بأنها تسعى للأخذ بيد المصريين، وأن عليهم أن يتجاوبوا ويرتفعوا بمستواهم ويحاكوا الأوربيين فى سلوكهم خاصة السلوك السياسى، وربما لجأ لتلك الطريقة حتى يهدئ من روع المعتمد البريطانى الذى كثيرا ما صرح للندن بما يسببه النديم من قلق للسلطات البريطانية فى مصر، وفى الوقت نفسه ليكون قلمه طليقا فى التعبير عن رغبته من منطلق أسلوب التورية.

وكان آخر مقال سجل فى هذا الجزء من السلافة تحت عنوان «إنما يقبل النصيحة من وفق» وفيه يتحدى النديم ويتصدى لصحيفة المقطم التى أعلنت الحرب عليه ويتهمها

ببذر بذور الشقاق وإثارة الفتنة بين الشرقيين ويحذر من ذلك، ويؤكد على الرباط المقدس الذى يربط المصريين بحاكمهم، ويوجه النصائح بحسن معاملة الأجانب والرقى بالمجتمع خاصة عن طريق التعليم. ويختتم هذا الجزء بباب الأدبيات حيث أبيات شعر جمعت بين الطابع الدينى والغزل والترحم على أيام الشباب والتضرع والتبتل.

ومن هذا العرض الموجز لما تضمه سلافه النديم بين دفتيها من تراث، يتضح أنه لولا حفظها له لافتقدنا الكثير منه، ورغم وجود مجلة التنكيت والتبكيت ومجلة الأستاذ بمخزن الدوريات بدار الكتب، إلا أن عامل الزمن قد لعب دوره ببعض الأعداد، كما أن السلافة احتضنت أعمالا ليس لها قرين فى أى مكان آخر، وبالتالى أصبحت المصدر الأساسى الذى يعتمد عليه الدارسون فى أبحاثهم الخاصة بتلك الشخصية. فبالإضافة إلى أنها - أى السلافة - تمدنا بمعلومات شيقة، فإن كل كلمة فيها تحمل معنى تكمن وراءه حقيقة النديم لمن يريد البحث عنها.

ومما سبق تتضح لنا الصورة البانورامية لشخصية عبدالله النديم وتتبين الظروف التى أسهمت فى تكوينه، وانعكاس ذلك على فكره الذى اتسع ليشمل مختلف مناحى الحياة ويبلور اتجاهاته المتعددة، والتى كانت إحداها سلافته، وهى تمثل أهمية بالغة لما احتوته من منتخبات.

المصادر والمراجع

* الوثائق

– محافظ الثورة العرابية، محفظة ٧، دوسيه ٣٨، محفظة ٨، دوسيه ٥٣/د/٨٥، محفظة ٩، دوسيه ٥٨، محفظة ١١، دوسيه١٦٦، دوسيه ١٧٦/ب، محفظة١٤، دوسيه ٢٩٧.

* المصادر

– سليم خليل النقاش، مصر للمصريين، الجزء الخامس، الإسكندرية١٨٨٤.

– عبد الفتاح نديم، سلافة النديم فى منتخبات السيد عبد الله النديم، الجزء الأول، مطبعة الجامعة بمصر، ١٨٩٧، الجزء الثانى، مطبعة هندية بمصر، ١٩٠١ .

* المذكرات

– أحمد شفيق، مذكراتى فى نصف قرن، الجزء الأول، مطبعة مصر، ١٩٣٤.

– عبد الله النديم، مذكرات جمعها محمد أحمد خلف الله تحت عنوان (عبد الله النديم ومذكراته السياسية)، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٥٦ .

* الدوريات

– الأستاذ، ١٨٩٢، ١٨٩٣ .

– الإسكندرية، ١٨٨١ .

– التجارة، ١٨٧٩ .

– التنكيت والتبكيت، ١٨٨١ .

– الطائف، ١٨٨١، ١٨٨٢ .

– الكوكب المصرى، ١٨٨١ .

– المحروسة، ١٨٨٠، ١٨٨١ .

* المراجع

- عبد اللطيف حمزة، أدب المقالة الصحفية فى مصر، الجزء الثانى، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٥٠ .

- على الحديدى، عبد الله النديم خطيب الوطنية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، أعلام العرب رقم٩، مكتبة مصر، د. ت.

- ميخائيل شاروبيم، الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٠٠ .

- Blunt, W. S., Secret History of the English Occupation of Egypt, Second Edition, London, 1907.

إشكالية التخلف الحضارى
عند شكيب أرسلان

د. رؤوف عباس حامد
أستاذ التاريخ الحديث
بكلية الآداب - جامعة القاهرة

إشكالية التخلف الحضارى
عند شكيب أرسلان

الأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩ - ١٩٤٦) من أبرز المفكرين العرب فى النصف الأول من القرن العشرين ، ومن أكثرهم شهرة وذيوعا، يرتبط اسمه بالدفاع عن الإسلام، وحث المسلمين على استعادة مجدهم المفقود، بقدر ما يرتبط بالنضال ضد الاستعمار وفضح أساليبه. وجر عليه ذلك الحرمان من الوطن ، فأغلقت فى وجهه السبل إلى بلده لبنان ، وإلى العديد من البلاد العربية كسورية ومصر وبلاد المغرب العربى ، منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى قبيل وفاته عندما سمح له بالعودة إلى بلاده عام ١٩٤٦ ، ليلقى عصا الترحال بعد أن ظل يعيش فى جنيف بسويسرا ثمانية وعشرون عاما، ثم ليلقى ربه بعد عودته إلى الوطن بشهور قليلة .

ورغم إقامته بعيدا عن وطنه ، كان شكيب أرسلان حاضرا بفكره ، إذ كان يوافى الصحف والمجلات العربية بمقالاته ، وفى طليعتها «المنار» المجلة الإسلامية واسعة الانتشار، و«الفتح»التى كان يصدرها محب الدين الخطيب بالقاهرة ، و«الشورى» المجلة الأسبوعية التى كان يصدرها محمد على الطاهر بالقاهرة أيضا، ومجلة «الرسالة» الشهيرة ، وغيرها من الصحف والمجلات التى كان يراسلها شكيب أرسلان ويوافيها بمقالاته، وجميعها مقالات تنتقد السياسة الاستعمارية، وتحث المسلمين على النهوض ببلادهم وتخليصها من أيدى الغاصبين ، وترد عن الإسلام افتراءات المستشرقين .

كذلك كانت كتبه العديدة التى بلغت سبعة وعشرون كتابا تتناول موضوعات من الأدب والتاريخ والسياسة والشعر، تلقى رواجا كبيرا بين قراء العربية ، واستحق أسلوبه المتميز فى الكتابة أن يخلع عليه لقب «أمير البيان».

وشكيب أرسلان ينتمى إلى أسرة درزية لبنانية عريقة ، تلقى ثقافة عربية حديثة فى مدارس لبنان ، وتعلم على يد أساتذة أفذاذ من أمثال الشيخ عبد الله البستانى

والشيخمحمد عبده، وربطته صلات وثيقة بجمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا، والشيخ على يوسف، وأمير الشعراء أحمد شوقى ، وغيرهم من أقطاب الفكر والأدب فى عصره. شغل عدة مناصب فى الدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ولذلك كان يقف موقفا محايدا من الحركة العربية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، فكان عثمانى النزعة،مؤمنا بفكرة الجامعة الإسلامية ، ولم يتحول إلى الدعوة للعروبة إلا بعد حركة كمال أتاتورك وإلغاء الخلافة. غير أن فهمه للعروبة وتعبيره عنها جاء فى إطار إسلامى، أكثر من كونه قوميا، ولا أدل على ذلك من أن المجلة الفرنسية التى أصدرها فى جنيف عام ١٩٣٠ وظل يحررها حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وكانت تحمل عنوان «الأمة العربية La Nation Arabe»، كانت منبرا للدفاع عن الإسلام والمسلمين، وللرد على افتراءات المستشرقين على الإسلام بالدرجة الأولى ، والدفاع عن القضايا العربية بالدرجة الثانية.(١)

* * *

وكتاب « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟»، شأنه شأن الكثير من مؤلفات شكيب أرسلان ، كتب على صورة مقالات نشرت بمجلة « المنار» عام ١٩٣٠، ثم جمعت المقالات فى كتاب نشر لأول مرة فى نفس العام ، وتكرر طبعه ثلاث مرات كان آخرها عام ١٩٣٩، وانتشر الكتاب انتشارا واسعا فى كل البلاد الإسلامية، وكان يعد من أبرز أعمال شكيب أرسلان ، ومرآة تعكس فكره ، وتحدد موقفه من قضية التخلف الحضارى لبلاد الإسلام ، وكيفية التخلص منه.

والسؤال الذى يحمله عنوان الكتاب تلقاه السيد محمد رشيد رضا من أحد تلاميذه وهو الشيخ محمد بسيونى عمران الذى كان إماما لمهراجا سنبس بورنيو الغربية بجزر الهند الشرقية، طالبا توجيهه إلى الأمير شكيب أرسلان باعتباره «من أكبر كتاب المسلمين المدافعين عن الإسلام»، ليرد عليه على صفحات «المنار» .

وتصادف أن كان شكيب أرسلان - عند تلقيه السؤال - عائدا لتوه من زيارة لإسبانيا شاهد خلالها آثار المسلمين بالأندلس، فحرك المجد القديم الضائع أشجانه فأفاض فى الإجابة على السؤال ليستغرق عدة مقالات وليصبح كتابا من أهم ما كتبه أمير البيان.

* * *

ولم يكن شكيب أرسلان أول مَن تصدى لقضية التخلف الحضارى فى العالم الإسلامى فالقضية كانت دوما مطروحة على بساط البحث منذ مطلع القرن التاسع عشر بحثا عن مشروع «إسلامى» أو«شرقى» للنهضة لتعويض فجوة التخلف التى ازدادت إتساعا بين الشرق والغرب . وساهم فى معالجتها مفكرون من أمثال رفاعة رافع الطهطاوى ، وخيرالدين باشا التونسى ، وبطرس البستانى، وأحمد فارس الشدياق، وغيرهم من الرواد الأوائل الذين تعرفوا على الغرب للوقوف على سر تقدمه، حتى يلتمسوا لأمتهم سبيل الخروج من وهدة التخلف، لتصبح قادرة على مواجهة التحدى الغربى.

ورأى أولئك الرواد أن تفوق الحضارة الغربية مرده إلى العلم والتقدم المادى. ولما كانت العلوم الغربية الحديثة ذات أصول إسلامية أخذها الأوربيون عن العرب وطوروها، فإن سعى العرب لاكتسابها يعيد لهم بضاعتهم. ولم يفصل هؤلاء المفكرين بين منجزات الحضارة الغربية وبين نظمها الاجتماعية والسياسية ، ولم يجدوا بأسا فى أن يطعم النظام الاجتماعى الإسلامى بما هو إيجابى عند الغرب، وما لا يتعارض مع قيم المجتمع الإسلامى المستمدة من تراثه. ورغم تفاوت آراء هؤلاء الرواد فى تحديد القدر الذى يمكن اقتباسه من حضارة الغرب، إلا أنهم لم يروا فيها شرا ، وسعوا للتوفيق بينها وبين حضارة الإسلام بحثا عن صيغة «هجين» من الحضارتين ، تصلح أساسا لبناء مشروع إسلامى للنهضة [٢].

ولكن أولئك الرواد ظنوا أن محاولة عبور فجوة التخلف فوق جسور من اقتباس علوم الغرب ومظاهر قوته المادية، توفر للشرق القدرة على التقدم واللحاق بركب الغرب، دون أن يضعوا فى اعتبارهم الأطماع الاستعمارية الأوربية التى بدت واضحة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، والتى أثرت على رؤية جيل آخر من المفكرين لقضية التخلف الحضارى، جيل جمال الدين الأفغانى وتلاميذه. فقد نظر الأفغانى إلى القضية من زاوية الدين الذى عده دعامة الحضارة الإسلامية ، والذى لا يتحقق النهوض الحضارى إلا فى إطاره . ومن ثم وجبت العودة بالدين إلى أصوله الصحيحة، وتخليصه مما علق به من شوائب عصر التخلف . فالإسلام يحض على العلم، ولا يتعارض معه، والعلم مفتاح المدنية،لذلك وجب على المسلمين توحيد صفوفهم بالتخلص من الخلافات المذهبية بينهم ، والانضواء تحت لواء واحد، والعمل على تحقيق الاستفادة بالجوانب المادية من حضارة الغرب التى لا تتعارض مع قيم الإسلام ، للتزود بأسباب القوة التى تساعد على مواجهة الاستعمار (٣) .

ومحاولات واجتهادات الجيل الثانى من الرواد صاغت إطار الفكرة الاسلامية، التى وضعها جمال الدين الأفغانى أساسا، وطورها محمد رشيد رضا على صفحات «المنار» التى أصبحت مدرسة هذا الاتجاه الفكرى، وعبرت عنه أصدق تعبير . وهى المجلة التى اختارها شكيب أرسلان ليخصها بمقالاته ، وعلى صفحاتها كانت رؤيته لأسباب تأخر المسلمين وتقدم غيرهم .

ولكن أحدا من هؤلاء الرواد لم يقدم تحليلا علميا كاملا لظاهرة التخلف الحضارى الذى عانى منه الشرق الإسلامى كله من واقع استقراء تاريخه ، فمعظم من تصدوا لهذه الظاهرة رصدوا أعراضها العامة ولم يعنوا بتشخيص دائها ، بما فى ذلك شكيب أرسلان الذى أسرف فى وصف الأعراض دون أن يشخص المرض، فجاء تصوره للعلاج بعيدا عن حقيقة الداء .

بل إن من يكتبون عن الحضارة الإسلامية من المؤرخين المعاصرين، يتتبعون تطورها عبر القرون الخمسة الأولى للإسلام حتى بلوغها الذروة فى نهاية تلك الحقبة ، ثم يقفون طويلا أمام تأثيرها على أوروبا فى مجالات العلوم والفنون على وجه الخصوص. ولكنهم لا يفسرون لنا أسباب الركود الحضارى الذى عانى منه العالم الإسلامى بعد ذلك ، أو أسباب التدهور الحضارى السريع فيما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر الميلاديين. ويتركون القارئ فى حيرة من أمره ، دون أن يقدموا تفسيرا لأسباب التخلف الحضارى[٤]، ربما من قبيل تعزية النفس عن مأساة التخلف بالإشادة بالمجد القديم ، والتهوين من شأن التقدم الحضارى الغربى بالتأكيد على دور منجزات الحضارة الإسلامية فى تحقيقه ، ولو كان ذلك فى بداياته الأولى. ولذلك سوف تظل دراسة الحضارة الإسلامية مبتورة مبتسرة، ما لم تتضمن البحث فى عوامل اضمحلالها وتدهورها من واقع الدراسة المستفيضة لتاريخ القرون الستة الأخيرة ، بهدف التوصل إلى تشخيص دقيق لظاهرة التخلف الحضارى .

* * *

وما يذهب إليه شكيب أرسلان – فى هذا الكتاب – من أن « أسباب الارتقاء كانت عائدة فى مجملها إلى الديانة الإسلامية » ، وأن فقد المسلمين لجوهر الإسلام ، حتى أنه «لم يبق من الايمان إلا إسمه، ومن الإسلام إلا رسمه ..» ، إنما هو علة تخلفهم ، مقولة تتردد كلما حل بالمسلمين خطب أو نزلت بهم نازلة عجزوا عن أن يجدوا لها تفسيرا . فها هو ذا المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى يرجع أسباب استيلاء الحملة الفرنسية على مصر (عام ١٧٩٨) إلى إهمال الناس للدين الحنيف، وخروجهم عن طاعة اللّه ، فسلط عليهم الفرنجة ليسومونهم سوء العذاب .

حقا كان الإسلام طاقة هائلة ، جمعت العرب بعد أن كانوا أشتاتا، وفتحت أمامهم الآفاق، ولكن تلك الطاقة الهائلة ما كانت لتستمر فى تحريك العرب والمسلمين لولا ما تضمنه الإسلام من مبادئ تحث على العمل وتحرض على طلب العلم ، وتقدر العقل

وتجعل له مكانا مرموقا وكلها مبادئ تمثل المقومات التى تقوم عليها المدنية . والإسلام المعاصر لايملك التخلى عن هذه المبادئ التى خلدها القرآن ، وحفظتها السنة الصحيحة، ولكن تغيرا فى الظروف الموضوعية للمجتمع الإسلامى على مر تاريخه ، جعل تلك المبادئ تفقد قدرتها على دعم صرح الحضارة الإسلامية ، ولا يتعلق الأمر من قريب أو بعيد بالإيمان الذى يعد أمرا ذاتيا يخص الفرد لا الجماعة ، وتقديره لله وحده .

فبفضل هذه المبادئ السامية تفتحت آفاق المسلمين ، وانكبوا على التعلم من الشعوب التى فتحوها . فنقلوا عن الفرس معارفهم وعلومهم التى تمثل خلاصة التراث الإنسانى الأسيوى السابق على الإسلام ، وكذلك فعلوا مع الروم الذى نقلوا عنهم علوم الإغريق وفلسفتهم التى تمثل خلاصة التراث الحضارى القديم لعالم البحر المتوسط . تعلم المسلمون من الفرس الوثنيين والروم المسيحيين ، وشجع الخلفاء حركة النقل والترجمة ، دون أن يتصايح المتصايحون بالتحذير من « الفكر المستورد » ، بل كان الفكر والعلم المنقولان من الفرس والروم دعائم قامت عليها المدنية الإسلامية ، عندما أضاف المسلمون إليها ما أبدعته قرائح علمائهم ومفكريهم . وكذلك فعل المسلمون فيما يتعلق بالاقتصاد ونظم الحكم والادارة والجيش وبعض القيم الاجتماعية . فلم يجد المسلمون غضاضة من اقتباس الكثير من تلك المؤسسات من الفرس والروم ، مع تطويعها لحاجات المجتمع الإسلامى ، وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه لينمو الإطار القانونى للمجتمع (الشريعة) بصورة تجعله يواكب إيقاع التغير فى المجتمع .[٥]

وهكذا تقدم المسلمون حضاريا على مدى أربعة قرون ، دون أن يكونوا على قلب رجل واحد - كما ظن شكيب أرسلان - فقد كان الصراع مريرا حول شرعية السلطة بين الأمويين والشيعة والخوارج ،وبين العباسيين وبعض الفرق الإسلامية . ولم يكن الصراع سلميا ، بل كان دمويا عنيفا ، سفكت فيه دماء المسلمين وفى طليعتهم بعض أهل البيت ، وتبادل القوم التكفير وإهدار الدماء . وتقاسمت العالم الإسلامى خلافة واحدة؛ العباسية ، والفاطمية ، والأموية (فى الأندلس) ، راحت كل واحدة منها تكيد

للأخرى وتدعى لنفسها الشرعية وحدها . ورغم ذلك ، كان العالم الإسلامى وحدة حضارية واحدة ، متجاوزا بذلك مظاهر التنافس والصراع . بل كل التنافس عاملا إيجابيا فى اجتذاب العلماء وتشجيعهم ، ورعاية الفنون والآداب إلى غير ذلك مما تحفل به كتب التاريخ .

فقد العالم الإسلامى وحدته ، ولكنه لم يفقد قدرته على استيعاب الحضارة الإنسانية التى ورثها عن الشعوب التى دخلت تحت رايته ، ولم ينضب معين الإبداع العلمى والفكرى والفنى فيه ، بل كان له فى كل إقليم خصوصيته التى تميزه عن غيره من الأقاليم الأخرى ، كما حدث فى العمارة - مثلا - التى تميزت فى فارس عنها فى الشام عنها فى مصر عنها فى المغرب بسمات مستمدة من التراث الفنى القديم لكل بلد من تلك البلاد . حتى فى الفقه ، نجد تنوعا فى الأحكام بما يتلاءم مع ظروف المجتمع فى كل بلد من البلاد ، ليس بين الفقهاء وبعضهم البعض فحسب ، بل وعند الفقيه الواحد عندما ينتقل من مجتمع إلى آخر كما هو الحال فى فقه الشافعى ، فأحكامه فى العراق تختلف عنها فى مصر ، وقبلت العقلية الحضارية الإسلامية عندئذ هذا التنوع داخل إطار حضارى إسلامى عام .

كان سر التقدم يكمن فى إعلاء شأن العقل الذى وضعه الإسلام فى أسمى مكان، وإعلاء شأن العقل يعطى الفكر والعلم مجالا فسيحا، ويفتح الباب على مصراعيه للاجتهاد فى أمور الدين والدنيا على السواء، دون أن يدعى أحد سدنة العقيدة ، فالإسلام دين بلا كهنوت أو هيئة دينية ، وحتى الفقهاء الذين أثروا الشريعة الإسلامية باجتهاداتهم فى عصور الازدهار كانوا - كغيرهم من عباد الله - يعملون لكسب رزقهم أو يتاجرون أو يحترفون الحرف والصناعات أو التعليم. ولم يكن بينهم من يتميز بلباس معين عن سائر الناس ، أو يدعى امتلاك مفاتيح الإيمان، ولم يبدأ ظهور فئة رجال الدين إلا فى عصر الاضمحلال فى ظروف تاريخية معينة سنأتى إلى ذكرها .

واقترن التقدم الحضارى الإسلامى بثراء مادى استمر طوال القرون الخمسة الأولى للإسلام، فحركة الفتوح الإسلامية ضمت أهم الأقاليم الزراعية فى العالم القديم إلى حظيرة الإسلام ، كما أتاحت للمسلمين فرصة التحكم فى طرق التجارة الدولية ، ولعب دور الوساطة التجارية بين الشرق والغرب، فضلا عن احتكار تجارة التوابل والحرير والذهب وغيرها من السلع الثمينة التى درت أرباحا طائلة على التجار والأمراء ، وملأت مكوسها وضرائبها خزائن بيوت المال الإسلامية .

وكانت سيطرة المسلمين على طرق التجارة الدولية ، وسيادتهم للبحر المتوسط- الذى أصبح فى القرن العاشر الميلادى بحيرة إسلامية - من أهم الدوافع التى حركت أوروبا لشن الحروب الصليبية التى كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى كسر احتكار المسلمين للتجارة الدولية إذا لم يتحقق لهم انتزاعها من أيديهم ، وإن أخفت أغراضها وراء شعارات دينية لحث ملوك أوربا وأمرائها وكنيستها على خدمة أطماع الطبقة البورجوازية الوليدة (٦) .

وهكذا كان الإبداع الحضارى الإسلامى يستند إلى أسس مادية تتمثل فى الرخاء الاقتصادى الذى عاشت فى ظله دول الإسلام الثلاث الكبرى : الدولة العباسية فى المشرق الإسلامى ، الدولة الفاطمية فى مصر والشام وشمال أفريقيا ، الدولة الأموية فى الأندلس . وهو رخاء ساعدت على تحقيقه الظروف الموضوعية للعالم الإسلامى ، هيأ للحكام فرصة رعاية العلم والعلماء وتشجيع الإبداع الفنى والأدبى ، وإقامة دور العلم ، وتخصيص الأرزاق لطلابه وإقامة دور العلاج ، وإيواء العجزة ، وغير ذلك من ألوان الخدمات الاجتماعية التى أقامتها الدولة ، أو أقامها الموسرون من الناس، وهو ما اعتبره شكيب أرسلان لونا من ألوان التكافل الاجتماعى .

ولم يحدث التدهور الحضارى لأسباب بعيدة عن تلك الأسس المادية التى قام عليها البناء الحضارى الإسلامى ، فقد تضافرت عوامل خارجية وداخلية معا على تقويض دعائم الرخاء الاقتصادى الذى شهده العالم الإسلامى فى القرون الخمسة

الأولى للإسلام ، وأدت إلى جمود التطور الحضارى عند الحد الذى بلغه فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ثم تدهوره الوئيد حتى القرن الحادى عشر الهجرى .

وجاءت بداية الجمود عندما تعرضت مصادر التجارة العالمية للمنافسة من جانب قوى خارج نطاق العالم الإسلامى، كبروز دور الصين فى البحار الشرقية، ونشاط القوى الأوربية فى البحر المتوسط الذى بلغ ذروته بالحروب الصليبية، وثبتت أقدام التجارة البيزنطية وتجارة المدن الايطالية فى حقل الوساطة التجارية بين الشرق وأوربا ، بما ترتب على ذلك من انقطاع جانب من الموارد التجارية التى ذهبت إلى الخارج بعيدا عن دار الإسلام. وبلغ هذا العامل ذروة التأثير على التطور الحضارى الإسلامى بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح وسيطرة البرتغاليين على مصادر التجارة الشرقية ، وإحكام إغلاق مداخل البحار العربية فى وجه التجارة الإسلامية .

وترتب على ذلك بالطبع نقص خطير فى الموارد المالية للكيانات الإسلامية الثلاثة الكبرى، فلجأت إلى تعويض النقص باتباع سياسات مالية جائرة كزيادة الضرائب والمكوس ومصادرة أموال التجار والتوسع فى الاقتراض من بعض التجار ، وعندما لم تحل تلك السبل الأزمة التى تفاقمت بإهمال رعاية المرافق الاقتصادية كوسائل الرى وطرق المواصلات وغيرها، وبدأت تظهر حركات الاحتجاج المناوئة لتلك السياسات الظالمة ، لجأت الكيانات الإسلامية إلى الاعتماد على العسكر لقمع الحركات المناهضة .

وجاء أولئك العسكر من عناصر بدوية؛ الأتراك فى المشرق الذين كانوا وافدين جدد على دار الإسلام وعلى الإسلام نفسه ، فجلبوا معهم من تراثهم البدائى التقليدى المتخلف ما أصاب البناء الحضارى الإسلامى فى الصميم. وحدث نفس الشىء فى المغرب فبدأت تزحف العناصر البدوية على الجندية حاملة معها جراثيم العصبية والإحن.

ولما لم تجد الكيانات الإسلامية سبيلا لدفع رواتب الجند مع احتدام الأزمة الاقتصادية التى اقترنت بحروب طويلة على مدى ما يقرب من القرنين ونصف القرن

ضد الصليبيين ثم ضد المغول بما صاحب ذلك من استنزاف للموارد الاقتصادية شل حركة التطور الحضارى، لجأت الدولة إلى إتباع نظام الإقطاع العسكرى، فأعطيت الأقاليم إقطاعا لأمراء الجند ، وقسمها هؤلاء إلى أقسام أصغر وزعوها على جنودهم لقاء واجبات الدفاع عن الدولة .

وترتب على ذلك أمران فى غاية الخطورة ؛ أولهما ، تقلص النظام الاقتصادى النقدى الذى صاحب ازدهار التجارة ، والتركيز على الإنتاج الزراعى المعيشى الذاتى الاكتفاء ، وتلك سمة أساسية من سمات المجتمع الإقطاعى . وثانيهما ، استشراء ظاهرة التفكك السياسى، إذ سرعان ما استقل أمراء الجند بالأقاليم التى يحكمونها مع الاحتفاظ للخليفة بالسيادة الاسمية ثم ما لبثت الكيانات الإسلامية الصغيرة أن تناحرت وتحاربت إلى حد الاستعانة بالصليبيين ضد بعضهم البعض على نحو ما حدث فى الشام . هذا فضلا عما تعرضت له المراكز الحضرية الإسلامية من دمار على يد الصليبيين والمغول ، ثم على يد الترك والبدو فى عصور التفكك السياسى .

وكان لابد أن يترك ذلك كله آثاره السلبية على التطور الحضارى ، فقد أغلق باب الاجتهاد فى الدين ربما لخشية مسلمى ذلك الزمان من تسرب بعض عقائد الشعوب حديثة العهد بالإسلام إلى الفقه الإسلامى ، وربما لأن الفكر العقلانى لم يعد له مكان فى مجتمع ذلك العصر ، فانفضت سوق العلم ، ونضب معين الفلسفة ، وتدهور مستوى الفن ، وسادت النزعات الصوفية التى تجد للناس مسارب للهرب من واقعهم إلى عالم الغيب ودنيا الشعوذة[٧].

وبمجىء العثمانيين وسيطرتهم على معظم دار الإسلام ، تم تكريس التخلف الحضارى على أيديهم ، فقد فرضوا العزلة التامة بين دار الإسلام والعالم الخارجى ، وبذلك لم يعد بإستطاعة المسلمين متابعة العلاقة الجدلية مع الغرب والوقوف على تقدمه الحضارى الذى تزامن مع التدهور الحضارى الإسلامى ، كما أن العثمانيين كانوا أصلا أهل بداوة لا عهد لهم بصنع الحضارة ، والدولة عندهم لها وظائف لا تتجاوز حدودها

هى صد غائلة الأعداء، وحفظ الأمن داخل البلاد، فى نظير تحصيل الضرائب من الرعية والفصل فى المنازعات التى تقوم بين الناس، أما ماخلا ذلك من أمور تتعلق بحياة الناس الاقتصادية والاجتماعية، فقد تركها العثمانيون للرعية يديرونها وفق ما استقرت عليه عاداتهم وتقاليدهم .

وانعكس ذلك كله على الإبداع الحضارى ، فبارت سوق التفكير العقلانى الذى كان وراء تلك الإنجازات الحضارية الرائعة فى عصر الازدهار ، وأصبح علماء المسلمين يعتقدون أن ما أبدعه «السلف الصالح» يمثل ذروة لا يستطيع بلوغها أحد ، أو يأتى فيها بجديد، وأن كل ما يستطيعونه هو إعادة صياغتها وشرح الغريب من ألفاظها ، وبذلك اتجهوا للتقليد ومقاومة أى محاولة للابتكار باعتبارها معول هدم لما بناه «السلف الصالح» يرمى صاحبها بالزندقة والإلحاد.

واقتصر مفهوم العلم على العلوم النقلية (الشرعية) ، أما العلوم العقلية (الطبيعية) فلم يعد يهتم بدراستها إلا نفر قليل . ولم تكن الفنون أحسن حالا ، فجمدت على ما كانت عليه، وتدهور مستوى أداء أصحابها وندر الإبداع بينهم .

ولما كان الأتراك رجال سيف ، وافدون جدد إلى الإسلام ، فإن معرفتهم بالشريعة الإسلامية كانت محدودة ، وعندما آل إليهم أمر دار الإسلام ، كان لابد أن يستعينوا بالعلماء والفقهاء المتخصصين الذين يتوفر لهم العلم بالشريعة الإسلامية ، وهكذا ابتدع الأتراك تكوين «هيئة دينية» تقف حارسة للشرع الإسلامى ، وتعنى بتطبيق أحكامه ، فتحول الدين على أيديهم إلى «حرفة» وإلى سلك كهنوتى لم يعرفه الإسلام من قبل فالسلطان يعين من يصبح «شيخ الإسلام» الذى يرأس الهيئة الدينية، يعاونه عدد من المفتين الذين يتقاضون رواتب مقابل القيام بأعباء وظائفهم ، وأصبح لهم زى خاص يميزهم عن غيرهم . ولم يتمتع رجال الهيئة الدينية باستقلال عن السلطة الإدارية ، بل كانوا دائما طوع بنانها ، يعملون فى خدمة أغراضها ، ويقدمون الفتاوى التى توافق هوى السلاطين وتخدم أغراضهم السياسية، وتشهر سلاح المروق عن الدين فى وجه

خصومهم . فكانوا دائما أداة السلطة فى مواجهة كل محاولة للإصلاح والتجديد، وعونا لها فى تجميد أوضاع المجتمع على ما كانت عليه ، فكان ابتداع تلك الهيئة وممارساتها من سمات عصر الاضمحلال الحضارى .

فقد نصب رجال «الهيئة الدينية» أنفسهم أوصياء على العقول ، وأحكموا إغلاق منافذ الاجتهاد ، وكان معظمهم على قدر متواضع من المعرفة بالفقه والشريعة ، فطبعوا أحكامهم بطابع الجهل البغيض ، ووثقوا روابطهم مع الطرق الصوفية التماسا للكرامات التى تجعلهم متقبلين عند عامة الناس ، وتغطى عجزهم عن تطوير الفقه بالإضافة إليه . وكان ذلك تطورا بالغ الخطورة على المستوى الحضارى السائد ، إذ انحطت قيم العمل السامية التى حض عليها الإسلام ، وحلت محلها قيم التواكل والاتجاهات القدرية (٨).

لذلك لا نعجب عندما نجد المسلمين وقد تقوقعوا حول أنفسهم ، يجترون ذكريات عصور الازدهار الحضارى الإسلامى لعجزهم عن محاكاتها . وعندما يفقد الناس الحافز على التقدم ، وينظرون إلى الخلف لا إلى الأمام ، يفتح الباب على مصراعيه أمام النعرات الطائفية والعصبية والصراعات المذهبية ، مما يضعف من تماسك المجتمع ويحوله إلى خلايا مبعثرة تقوم على أسس عصبية أو مذهبية أو حتى عرقية، وهى ظاهرة لها ما يبررها فى ضوء تفشى النظام الإقطاعى فى الدولة العثمانية، وحلول الاقتصاد الريعى محل الاقتصاد النقدى، ومن ثم عدم الاهتمام بوسائل الإنتاج كتحسين الرى واستغلال الأرض الزراعية استغلالا مناسبا ، وعدم تشجيع الصناعة القائمة والتى كانت حرفية أساسا. حتى البقية الباقية من كبار التجار حولت استثماراتها إلى «الإلتزام» مكتفية بما يدره من ريع مضمون ، وما يوفره من وجاهة اجتماعية على نحو ما حدث فى مصر تحت الحكم العثمانى .

وكما كانت عوامل التقدم الحضارى الإسلامى تقوم على أسس مادية إلى جانب القيم والمبادئ الإسلامية التى تحث على العمل وتعلى شأن العقل وتطلق للفكر العنان فيما لا يتعارض مع أسس العقيدة الإسلامية ، كانت أسباب الاضمحلال الحضارى

أيضا مادية صرفة أثرت على المبادئ الإسلامية الإيجابية وأدت إلى العصف بالاتجاه العقلانى ، ومن ثم كان الركود والجمود والتخلف .

وعندما كسر الغرب الاستعمارى طوق العزلة ، وطرق بعنف أبواب العالم العربى- قاعدة الإسلام- مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ، وأحس صفوة الناس بالفارق الكبير بين المستوى الحضارى المادى الغربى والمستوى الحضارى العربى الإسلامى ، فهموا أن تعويض التخلف مفتاحه التزود بالعلم الحديث ، واحتاج رفاعة الطهطاوى - مثلا - أن يذكر قرآءه بالحديث الشريف الذى يحض المسلمين على طلب العلم ولو فى الصين ، وأنه إذا كان الإسلام قد أجاز التعلم من الصينيين الوثنيين ، فهو لا يجد حرجا من التعلم من الفرنجة الكتابيين . كما احتاج الطهطاوى فى تصديه للدفاع عن محمد على باشا - الذى هوجم لاستخدامه الخبراء والمعلمين الأجانب - أن يذكر الناس بأن هؤلاء إنما يقدمون العون للمسلمين فى مجالات معينة حددها لهم ولى الأمر وأن وجودهم لا يتعارض مع الشرع الحنيف .

ولكن هذا الإحساس الذى توفر للصفوة عن ضرورة اقتباس جوانب التفوق المادى الغربى للنهوض بالمجتمع الإسلامى لم يمتد إلى عامة الناس ، لأن واقعهم لم يتغير ، حتى تلك الإصلاحات التى أدخلها رجل كمحمد على لم تستطع أن تصمد طويلا ، وما لبثت أن تهاوت أمام ضربات الإمبريالية الأوربية ، ولم تجد من يقف دفاعا عنها ، لأن الجماهير سيقت إلى تحقيقها دون أن تحس بعائدها الاجتماعى . وبذلك كانت محاولة التحديث فى إطار المشروع الوطنى للتنمية الذاتية الذى تبناه محمد على تغير ملامح الواقع الاقتصادى الاجتماعى القائم دون أن تغير جوهره ، فبقيت قيم المجتمع الإقطاعى على ما كانت عليه فى عصر الانحطاط تفعل فعلها بين الناس ، وذلك على الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلت فى إطار حركة التنوير، وفتح النوافذ أمام منجزات الحضارة الحديثة .

وجاءت الهجمة الإمبريالية لتكرس التخلف الحضارى من جديد ، ولا تسمح إلا بتحول محدود للبنية الأساسية للمجتمع العربى بالقدر الذى يتيح لها ربط البلاد بروابط التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية . وأضيف إلى أثقال التبعية تمزيق المنطقة إلى كيانات سياسية بنيت عليها مصالح لفئات اجتماعية معينة ارتبطت بالاستعمار وخدمت سياسته على نحو ما سنرى .

* * *

وهكذا تتناقض النظرة الموضوعية لتطور الحضارة الإسلامية فى ازدهارها واضمحلالها مع مقولة شكيب أرسلان حول إرجاع الأمر إلى الدين والإيمان ، يرقى المسلمون مدارج الحضارة بهما ، ويتخلفون عندما يضعف اهتمامهم بهما ، فقد رأينا كيف كانت عوامل الرقى الحضارى الإسلامى تستند إلى أسس مادية ، وكيف أن تقوض تلك الأسس لظروف موضوعية معلومة هو المسئول عن التخلف الحضارى للمسلمين الذين لم يتزعزع إيمانهم بالدين رغم كل ما أصابهم من محن . بل يناقض شكيب أرسلان نفسه عندما يعارض من يرجعون التقدم والتأخر إلى الدين فى سياق حديثة عن نهضة اليابان فيقول :«إن لهذه الحوادث أسبابا وعوامل متراكمة ترجع إلى أصول شتى ، فإذا تراكمت هذه العوامل فى خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد ، وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بإزاء شرها» . وفى هذا تناقض مع إرجاع التقدم الحضارى للدين وحده ، وتعليل التخلف بنقص الإيمان وتغير ما بنفوس المسلمين ، وتأكيد ضمنى على الأساس المادى للتطور الحضارى .

ويعلل لأسباب هذا التغير بإحجام المسلمين عن السعى والعمل ، وتقاعسهم عن التضحية بالنفس والحرص على الشهادة ، ويعقد مقارنة غير منطقية بين الفتوح الإسلامية التى كان الناس يشاركون فيها وهم أحرص على الموت منهم على الحياة ، وبين الحرب العالمية الأولى التى سقط فيها الملايين من الضحايا من كل طرف من الأطراف المتحاربة . فالفتوح الإسلامية كانت تحركها الرغبة فى نشر الدين الحنيف ، أما

الحرب العالمية الأولى فكانت أمرا آخر ، كانت صراعا إمبرياليا بين معسكرين كل منهما يسعى للسيطرة على شعوب آسيا وأفريقيا ، ومن ماتوا فى تلك الحرب إنما كانوا يدافعون عن مصالح بلادهم القومية ، وشتان بينهم وبين المسلمين الذين حاربوا من أجل نشر الإسلام ، فالقياس هنا بعيد عن المنطق ، خارج عن إطار الموضوعية .

ويشتط شكيب أرسلان عندما يرى أن الأمة الإنجليزية حققت السيادة على كثير من بلاد العالم «بالأخلاق وبالمبادئ الوطنية العالية»، ويقصد بذلك الشعور القومى، وهو هنا يتجاهل دوافع الاستعمار التى ترتبط بدرجة معينة من درجات التطور الرأسمالى يحتاج فيها القوم إلى تأمين الأسواق فيما وراء البحار وتأمين مصادر المواد الخام وطرق التجارة الدولية بالسيطرة على الشعوب المختلفة ونهب ثرواتها والإنجليز أو غيرهم من الشعوب المستعمرة (بكسر الميم) إنما يساهمون فى خدمة مصالح بلادهم الاستعمارية مدفوعين بالروح القومية التى لا تنمو إلا مع نمو الرأسمالية. ورغم ذلك يعد المؤلف انتشار الوعى القومى بين الشعوب الإسلامية عائقا فى طريق تقدمها !!

ويرجع «أمير البيان» بعض أسباب تأخر المسلمين إلى تعاون بعضهم مع المستعمر ضاربا المثل بتعاون بعض قبائل المغرب ضد الأمير عبد الكريم الخطابى قائد ثورة الريف، واشتراك القوات الأردنية فى قمع الثوار الفلسطينيين ، ولا يفسر لنا الدوافع التى تجعل بعض العناصر المحلية تقف إلى جانب الاستعمار ضد أبناء بلادهم بغض النظر عن ديانتهم ، فالمسألة هنا لا تخص المسلمين وحدهم ، ولكنها ظاهرة شاعت فى كل البلاد التى خضعت للاستعمار ، حيث ترتبط مصالح بعض النخب الاجتماعية بمصالح الاستعمار الذى يحرص على اجتذابهم إليه بمنحهم بعض المكاسب المادية على حساب مواطنيهم ، ومن ثم يقفون فى صف الاستعمار ويضربون مواطنيهم بسيفه ، ففى بقائه فى مواقعه ضمان لحماية مصالحهم المادية . وهكذا يضع شكيب أرسلان يده على ظاهرة تعاون رجال الدين الإسلامى مع سلطات الإستعمار فى سورية من ذوى «العمائم المكورة .. والرقاب الغليظة والبطون العظيمة» ، فيستنكر عليهم مواقفهم، ولا يضع فى

اعتباره أن هؤلاء كانوا من كبار الملاك أصحاب المصالح المادية الذين تهمهم مصالحهم المادية الشخصية ، فضلا عن كونهم قد درجوا على خدمة صاحب السلطان وأنهم دائما على استعداد للفتوى بما يخدم الحاكم - مهما كان ذلك الحاكم - طالما بقيت مصالحهم مصانة ، وأوضاعهم المادية على ما هى عليه ، وهم يمثلون أحد أغراض عصر التخلف الحضارى الذى ابتدع للإسلام«هيئة دينية» على نحو ما تقدم .

غير أن المؤلف يبرز أثناء تعداده لأسباب تخلف المسلمين ظاهرة هامة اقترنت بواقع الأمة العربية على وجه الخصوص فى القرنين التاسع عشر والعشرين وهى تبحث لنفسها عن مخرج من مأزق التخلف الحضارى وعن سبيل لمواجهة العدوان الاستعمارى الغربى، فيتحدث عن الجبن والهلع اللذين أصابا المسلمين وكذلك اليأس والقنوط ، فقد « وقر فى أنفسهم أن الإفرنج هم الأعلون على كل حال ، وأنه لا سبيل لمغالبتهم» . وهو هنا يشير إلى ما يمكن أن نسميه «عقدة النقص»التى لا زمت العرب فى علاقتهم بأوروبا عندما جاءتهم مستعمرة بعد انقطاع الصلات مع أوروبا خلال قرون العزلة الثلاثة (من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر) أى منذ الفتح العثمانى حتى الحملة الفرنسية ، فقد كانت الفكرة التى ترسبت فى أذهان العرب عن «الفرنجة» هى تلك التى بقيت من ذكريات الحروب الصليبية ، فهم أولئك الأجلاف الذين يفتقرون إلى الحضارة ويلحقون الدمار بكل شئ ، وهم الذين انتصر العرب عليهم وأسروا ملوكم. ومن ثم كان العرب ينظرون إلى الفرنجة نظرة استعلاء تأثرا بتلك الذكريات ولم يدر بخلدهم أن الفرنجة قد تغيروا كما تغير العرب أنفسهم طوال تلك القرون ، ولا أدل على ذلك من موقف أمراء المماليك فى مصر عندما جاءهم نبأ نزول الفرنسيين بالإسكندرية عام ١٧٩٨ ، فاستهانوا بالأمر ووعدوا بإلقاء « الفرنجة » فى البحر ، وتلقينهم الدرس الذى لقنوه لأسلافهم الصليبيين وعندما حاقت الهزيمة بالمماليك وانتصر «الفرنجة» أدرك القوم- فيما بعد - أن الدنيا قد تغيرت ، وأن أجلاف الأمس أصبحوا أكثر تقدما من المسلمين. وطوال القرن التاسع عشر ، سعى العرب هنا وهناك لسد فجوة التخلف دون جدوى فالشقة أصبحت أوسع مما كانوا يتصورون ، ونير الغرب أثقل كواهلهم ، فتحولت نظرة

الاستعلاء القديمة إلى «عقدة نقص» نحو الغرب تمثل مزيجا من الانبهار به والإحساس بالعجز تجاهه ، مما كان له أثاره السلبية على استجابة العرب للتحدى الغربى وعلى اتجاه « التغريب » على وجه الخصوص .

ويحاول شكيب أرسلان أن يحل عقدة النقص تلك بالتأكيد على أن تفوق الغرب يكمن فى العلم الحديث والصناعة الحديثة ، وهما أمران لا يستعصيان على الشعوب الشرقية ، ويضرب المثل على ذلك بما حققته اليابان منذ عام ١٨٦٨ ويرى أن المسلمين يستطيعون أن يبلغوا ما بلغته اليابان من تقدم علمى وصناعى مع الاحتفاظ بدينهم وتقاليدهم وكان حرص «أمير البيان» على ضرب المثل باليابان استجابة لذكر اليابان بالذات فى السؤال الأصلى الذى وجه إليه وكانت إجابته هذا الكتاب ، ولذلك ورد ذكر تجربة التحديث اليابانية فى أكثر من موضع، وكانت محصلتها أن المسلمين يستطيعون أن يفعلوا ما فعلته اليابان للنهوض ببلادهم ، وأن ما صنعته اليابان يمكن أن يحذو المسلمون حذوه .

لقد استطاعت اليابان أن تعيد بناءها القومى فى جيل واحد على حين عجزت معظم البلاد الإسلامية عن ذلك ، ولعل العوامل الجغرافية من موقع ومساحة كانت خير عون لليابان على انتهاج هذا السبيل ، فهى محدودة المساحة ، وتتمتع بسواحل طويلة جعلت الشعب اليابانى يرى الخطر الغربى - القادم من أعالى البحار - رأى العين ، ويحس به إحساسا يفوق إحساس الشعوب الإسلامية ، وبذلك كان من السهل حشد الجماهير اليابانية وراء الحركة السياسية التى دقت نواقيس الخطر ، على حين كانت البلاد الإسلامية متسعة الأرجاء ، لا تتباين فيها طبيعة السطح فحسب بل يتباين فيها السكان أيضا ، وتأخر تكوينها القومى إلى مطلع القرن العشرين ، ووجهت الحركة القومية فى البلاد العربية منها ضد الحكم التركى وليس ضد السيطرة الغربية ، لذلك عجزت البلاد الإسلامية أن تنظم نفسها «كأمة» واحدة فى مواجهة التحدى الغربى ، على حين نجحت اليابان فى تحقيق ذلك .

أضف إلى ذلك أن اليابان تمكنت من تطوير السوق الوطنية المستقلة الخاصة بها - إلى حد ما - فى وقت مبكر، مما جعل النمو الاقتصادى الحديث ممكنا ويسر سبيل التحول الرأسمالى ، على حين وقع العالم الإسلامى بين براثن الاستعمار ، ومن ثم كانت أسواقه ترتبط بالسوق العالمية (والإمبريالية خاصة) وكان على بلاده أن تستقل بسوقها الوطنية أولا، بما يترتب على ذلك من تغير فى طبيعة الإنتاج الذى يقتصر على إنتاج المواد الأولية . ولا يتحقق لها ذلك إلا بالاعتماد على الذات والسعى لسد هوة التخلف التقنى بإمكاناتها الذاتية واعتمادا على مواردها .

كما أن أهم عوامل تميز التجربة اليابانية عن ظروف العالم الإسلامى أن اليابان استطاعت - فى ظروف تاريخية معينة - أن تتحول إلى قوة إمبريالية ، ومن ثم استطاعت أن تحقق نموا اقتصاديا سريعا بفضل ما نهبته من ثروات البلاد الآسيوية التى وقعت تحت نيرها . أما البلاد الإسلامية فكانت عرضة للنهب الاستعمارى ، وكان تخلفها نتيجة طبيعية لما تعرضت له من استنزاف اقتصادى . ومن هنا لا تعد تجربة التحديث اليابانية نموذجا تفيد به شعوب العالم الثالث - ومن بينها المسلمين طبعا - وتتخذ منه مثلا يحتذى به [٩].

وفى معرض انتقاده لدعاة التغريب ونبذ القديم نجد شكيب أرسلان ينعى عليهم إنكارهم لتقاليد بلادهم ويضرب المثل بتمسك الأوربيين بقومياتهم واعتزازهم بها وحرصهم عليها ، وهو قياس لا يستقيم مع المنطق ، لأنه يفهم منه أن المؤلف يعد المسلمين قومية واحدة ، وهو منزلق خطر ، لأن الديانة شئ والقومية شئ آخر، ولو أخذنا بهذا المنطق لكانت هناك قوميات فى العالم لأهل كل ديانة ، فالمسيحيون قومية، واليهود قومية، وبذلك نعطى الصهيونية حجة قوية تبرر مشروعها الاستعمارى فى قلب الوطن العربى. وهكذا يختلط مفهوم القومية عند المؤلف ويتشوش، فها نحن اليوم نرى مصالح المسلمين العرب تتناقض مع مصالح المسلمين الإيرانيين والمسلمين الأتراك والمسلمين الأفغان .. إلخ .

إن تأخر النضج القومى العربى وضعف الحركة العربية عائق كبير فى التوصل إلى مشروع نهضوى عربى ، لا يستطيع العرب أن يجتازوا أزمة التخلف الحضارى بدونه ، ومقولة «الأمة الإسلامية الواحدة» التى تستخدم من جانب البعض تقف عائقا فى طريق تنمية الوعى القومى العربى الذى يعد شرطا أساسيا لتحقيق آمال الأمة العربية فى التحرر من السيطرة الأجنبية والتخلص من التخلف الحضارى .

وفى هجومه على دعاة التغريب نلمح فهما خاطئا عند شكيب أرسلان للتوجه العلمانى ، فهو يرى أن من يدعو إلى نبذ القديم وتبنى النموذج الحضارى الغربى إنما ينبذ الإسلام ويتنكر له ، وهو أمر غير وارد عند العلمانيين من المسلمين الذين لا يرون أن فى الأخذ بمنجزات العلم الحديث الذى يتوفر لدى الغرب ما يتعارض مع إيمان الفرد بدينه، غير أن المؤلف ينزلهم منازل الكفار رغم أنه يقترب منهم كثيرا عندما يهاجم دعاة الجمود والتمسك بالقديم ، ونبذ كل محاولة للتجديد ، ويدعوهم إلى الاستفادة بمنجزات العلوم العصرية مؤكدا أن ذلك لا يمس الدين والعقيدة والتقاليد فى شئ ، وأنهم بجمودهم هذا يدفعون بلادهم إلى البقاء فى فلك التبعية للغرب نتيجة تخلفها . ويرحب «بكل جديد لا يعارض العقيدة ، ولا تخشى منه مفسدة» . فهو هنا تلميذ مخلص لجمال الدين الأفغانى الذى كان يذهب هذا المذهب ،كما أنه يكرر أطروحة أصحاب الاتجاه العلمانى من المسلمين فى صياغة لفظية مختلفة .

وإذا كان شكيب أرسلان قد عنى – فى تحليله لأسباب تأخر المسلمين – بأعراض التخلف الحضارى الإسلامى دون أن يقدم تشخيصا للداء من واقع استقراء التاريخ، وانساق أحيانا وراء التعميم ، فقد فعل نفس الشئ عندما وصف العلاج فهو يرى أن ترقى المسلمين ونهوضهم إنما يتحقق بالجهاد بالمال والنفس والعمل. وهى وصفة تتمشى مع بعض ما عرضه المؤلف من أسباب التخلف، فالتقاعس والجبن يقابلهما الجهاد والعمل، وإهمال الخدمات الاجتماعية ودعم الأعمال الوطنية إنما يتحقق بالجهاد بالمال، والكسل والتواكل يقابلهما العمل. ولو كان الخروج من مأزق التخلف بهذه البساطة

لأمكن تحقيقه بقليل من الوعظ والإرشاد وحث الهمم ، ولهان الأمر ، ولكن المسألة أعقد من ذلك بكثير .

لقد رأينا كيف تحقق التخلف الحضارى نتيجة تراكم عوامل معينة فى ظروف تاريخية محددة ضربت خلالها محاولة تحقيق تحول رأسمالى تجارى لصالح الإقطاع ، وفرض على المجتمع الإسلامى تسلط عناصر بدوية احترفت الجندية ثم انفردت بالسلطة وترتب على ذلك التفكك السياسى نتائج سلبية على النمو الاقتصادى وعلى الاتجاه العقلانى ، وأغلق باب الاجتهاد أو كاد وحل التقليد محل الإبداع ، فكان التدهور الحضارى والاضمحلال . ثم جاءت السيطرة الغربية لتضرب محاولة إقامة مشروع وطنى للتنمية فى بعض البلاد العربية وتفرض التبعية الاقتصادية والسياسية على المنطقة كلها .

ولذلك ليس هناك من سبيل للتخلص من ربقة التخلف إلا بالتحرر الوطنى من السيطرة الأجنبية وتحقيق التنمية الاقتصادية بالاعتماد على الذات تخلصا من التبعية للإمبريالية ، مع التخطيط لتنمية اجتماعية سليمة ، والعمل على نقل التكنولوجيا الحديثة . وكل ذلك لا يمكن تحقيقه إلا من خلال مشروع عربى (وليس إسلاميا) للنهضة ينطلق من أساس قومى ، وبذلك تبدأ الخطوة الأولى على الطريق نحو التخلص من التخلف ، عندما تتوفر الأسس المادية القويمة لمشروع نهضوى حضارى رصين .

الهوامش

(١) راجع ترجمة شكيب أرسلان فى كتاب : محمد كرد على ، المعاصرون ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٨٠ ، ص ١٦ وما بعدها .

(٢) للمزيد من التفاصيل حول تلك الآراء والاتجاهات راجع البرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ، ترجمة كريم حزقول ، بيروت .

(٣) حظى اتجاه الجامعة الإسلامية وفكر جمال الدين الأفغانى باهتمام الكثير من الباحثين ، راجع :

Keddie, Nikki, An Islamic Response to Imperialism, Political and Religious Writtings of Al- Afghani, Berkeley and Los Angeles Univesity of California Press, 1968

(٤) من أمثلة تلك الكتب التى تعزف منظومة واحدة عن الحضارة الإسلامية : محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية ، دار الكتب المصرية ،القاهرة ١٩٣٦ ، أنور الرفاعى: الإسلام فى حضارته ونظمه ، دمشق ١٩٧٤ : عطية القوصى : الحضارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٨٢ .

(٥) حول التقدم العلمى عند المسلمين وتأثرهم بتراث الشعوب السابقة عليهم راجع :أحمد أمين، ظهر الإسلام وكذلك محمد عبده ،الإسلام دين العلم والمدنية.

(٦) حول الأوضاع الاقتصادية فى العالم الإسلامى فى العصور الوسطى راجع

Ashtor, E.A., Social and Economic History of Near East in the Middle Ages, University of California Press,1976

(٧) محمود إسماعيل: سوسيولوجية الفكر الإسلامى،جزآن، الدار البيضاء ،١٩٨٠ .

(٨) حول تكوين وتطور الهيئة الدينية راجع Watt, W.M , Islamic Political Thought , Edinburgh University Press, 1968

(٩) حول هذه المسألة راجع ،رءوف عباس حامد: المجتمع اليابانى فى عصر مايجى١٨٦٨ – ١٩١٢ ، دار ميريت، القاهرة ١٩٩٩ ،الطبعة الثالثة ،وللمؤلف أيضا التنوير فى مصر واليابان ، دراسة مقارنة ، نفس الناشر ، ٢٠٠١.

الكتب المؤلفة باللغة الروسية

عن تاريخ مصر الحديث والمعاصر

فؤاد حسن حافظ

مستشار سابق بمحكمة النقض

الكتب المؤلفة باللغة الروسية عن تاريخ مصر الحديث والمعاصر

الكتب المؤلفة باللغة الروسية عن تاريخ مصر الحديث والمعاصر تكاد أن تكون مجهولة لنا إلا فى بعض ترجماتها إلى اللغة العربية التى أجريت فى روسيا ذاتها أو فى مصر أو فى لبنان . وقد تيسرلى الإطلاع على كثير منها حال زياراتى للمكتبات العامة فى موسكو وفى لينينجراد (بطرس بورج) وفى كييف لمعرفتى باللغة الروسية . ولهذا صار فى استطاعتى التعريف بها بصفة عامة وببعضها بصفة خاصة حتى نتمكن من الوصول إليها ونقلها إلى اللغة العربية كى نستفيد منها فى مؤلفاتنا التاريخية .

وهذه الكتب تنقسم إلى ثلاث مجموعات: الأولى تعتمد أساسا على مراجع مصرية وإنجليزية وفرنسية وهى أقلها أهمية لأن هذه المراجع فى متناول أيدينا إنما تنحصر أهميتها فى الوقوف على وجهة نظر مؤلفيها فى الأحداث ، والثانية التى تعتمد على مراجع ووثائق روسية وهذه هامة لأن هذه المراجع ليست فى متناول أيدينا، والثالثة التى تعتمد على المشاهدة المباشرة وهذه متوسطة الأهمية إلا إذا كان المشاهد مشاركا فى صنع الأحداث فتكون هامة أيضا .

وعلى العموم فإن هذه الكتب قليلة العدد نسبيا ، ويرجع ذلك إلى أن اهتمام روسيا بمصر فى العهدين الحديث والمعاصر وخاصة فيما قبل ثورة يولية سنة ١٩٥٢ كان محدودا، لتباعدهما جغرافيا وحضاريا ولأن مصر كانت منذ سنة ١٥١٧ وحتى سنة ١٩١٤ (فيما عدا فترة على بك الكبير والحملة الفرنسية) جزءا فعليا ثم إسميا من الدولة العثمانية التى كانت علاقتها بروسيا غير ودية بل كانتا غالبا فى حالة حرب . وعقب أستقلال مصر بعد انفصالها عن الدولة العثمانية ورفع الحماية البريطانية عنها فى سنة ١٩٢٢ لم تعترف بروسيا التى صارت سوفيتية نتيجة لنجاح ثورتها فى ١٩١٧ ، ولم تعترف مصر بها إلا فى سنة ١٩٤٣ أثناء الحرب العالمية الثانية فكانت الإتصالات بينهما منقطعة حتى ذلك الحين ، وسأعود إلى هذا الأمر فيما بعد مفصلا .

وبعد ذلك أبدأ بالتعريف بهذه الكتب متناولا فى أثناء ذلك بعض أحداث العلاقات المصرية الروسية التى تتصل بتأليف هذه الكتب .

وأبدا بعهد **على بك الكبير** حاكم مصر (سنة ١٧٦٣ حتى ١٧٧٣) الذى استقل بها عن الدولة العثمانية فى سنة ١٧٦٨ فقد تحالف مع روسيا حال حربها ضد هذه الدولة (سنة ١٧٦٨ / ١٧٧٤) لإتحاد مصالحه مع مصالح روسيا ضدها ، أى ضد الدولة العثمانية . وشجعه على ذلك وقربه منه دخول الأسطول الروسى إلى البحر المتوسط عن طريق جبل طارق لتطويق هذه الدولة وضربها من الخلف . فقد تراسل مع قائد هذا الأسطول الأميرال **أليكسى أورلوف** طالبا المساعدة فى خروجه على الدولة العثمانية ومحاربته لها والتى نال بعضها . وكان مبعوثه هو وزير خارجيته **هاجوب أو يعقوب** الأرمنى فى حين كان مبعوث هذا الأميرال هو الضابط البحرى الروسى **بليتشيف** . وقد ألف عن بعثته والنشاط الروسى فى البحر المتوسط فى عهده كتابا صغيرا طبع فى بطرس بورج سنة ١٧٧٣ . وقد انتهت محاولة على بك الكبير بالفشل وسجلها صديقه اليونانى **سوفير لوزينيان** فى كتابه ثورة على بك الكبير ضد الدولة العثمانية الذى ألفه باللغة الإنجليزية وطبع فى لندن سنة ١٧٨٣ .وقد اهتم به الروس فنقلوه إلى الروسية وطبعوه فى بطرس بورج فى سنة ١٧٨٩ أى بعد صدوره بست سنوات فقط فيصح اعتباره من الكتب المؤلفة بهذه اللغة . وأما الحرب بين روسيا والدولة العثمانية فقد انتهت بإنتصار روسيا وإبرامها معاهدة صلح قينارجى سنة ١٧٧٤ .

وشهدت هذه الحرب قدوم أول مصرى إلى روسيا وهو الفقيه والرحالة **على بن محمد الجزايرلى** المعروف بإبن الترجمان صاحب عرضحال «استغاثة أبى مدين الغوث» الذى ادعى أن يؤدى «تلاوته فى صف الجهاد إلى النصر» فقد ذهب إلى عاصمة الدولة العثمانية وعرض الأمر على سلطانها فاستحسن أن يتوجه بنفسه إلى ميدان القتال لتلاوته - فتوجه رغما إليه حيث أسر ومات أسيرا فى موسقو أى فى روسيا وذلك فى سنة ١٧٧٣ (يراجع فى ذلك كتاب « عجائب الآثار للجبرتى» فى طبعته فى سنة ١٩٩٧

بالجزء الثانى ص ٧١٣ ، ٧١٤) وجدير بالذكر أنه تمت ترجمة هذا الكتاب جزئيا إلى اللغة الروسية . وأما أول من زار مصر فى العصر الحديث من الروس غير حجاج ديرسينا فهو الكاتب الروسى الأوكرانى **فاسيلى جريجور اقتش بارسكى** ضمن رحلاته إلى الشرق فى سنة ١٧٤٧ والتى ألف عنها كتابه «رحلات» المطبوع فى كييف فى سنة ١٧٧٨ بعد وفاته .

كما ترتب على هذه الحرب تعيين أول قنصل لروسيا فى مصر وهو **فون تونوس** الذى أتى إليها فى سنة ١٧٨٣ ولكنه سحب منها لقيام حرب أخرى بينها وبين الدولة العثمانية (سنة ١٧٨٧ / سنة ١٧٩١) غير أنه عاد إليها فى سنة ١٧٨٨ لكى يتصل بالأمراء المماليك ليقوموا ضد هذه الدولة . ولكنه فشل فى مهمته فلقى حتفه فى سنة ١٧٨٩ . وإن كانت هذه الحرب انتهت بإنتصار روسيا وإبرامها مع الدولة العثمانية معاهدة صلح زشتوى فى سنة ١٧٩١ . وقد روى تفاصيل اتصال روسيا بالمماليك بمصر منذ سنة ١٧٧١ حتى هذه السنة الصحفى الروسى السوفيتى **بطرس برمينوف** فى كتابه الرائع «إبتسامة أبى الهول » المطبوع فى موسكو فى سنة ١٩٩١، والذى أقترح ترجمته إلى اللغة العربية إن لم يكن قد ترجم إليها بالفعل .

وفى عهد **محمد على باشا** والى مصر (سنة ١٨٠٥ / سنة ١٨٤٨) زار مصر كثيرون من الأوروبيين لاستطلاع أحوالها ولمقابلته والتعرف على شخصيته التى نالت إعجابا كبيرا وعمت الآفاق . وكان ضمن هؤلاء بعض الروس ومنهم **إسكندر نوروف** مؤلف كتاب « رحلة إلى مصر والنوبة سنة ١٨٣٤ / سنة ١٨٣٥ »المطبوع فى بطرس بورج فى سنة ١٨٤٠ ، **وإيفور كوفالفسكى** مؤلف كتاب « رحلة إلى داخل إفريقيا » المطبوع فى بطرس بورج فى سنة ١٨٤٩ ، **وإسكندر رافالوفتش** مؤلف كتاب «رحلة إلى مصر السفلى وفى داخل الدلتا » المطبوع فى بطرس بورج فى سنة ١٨٥٠ . ووصف الحكم المصرى فى الشام فى هذا العهد **قسطنطين بازيلى** قنصل روسيا فى فلسطين فى كتابه «سوريا ولبنان تحت الحكم العثمانى» المطبوع فى بطرس بورج فى سنة ١٨٦١ والمترجم إلى العربية بمعرفة دار التقدم بموسكو فى سنة ١٩٨٩ .

ويجدر بالذكر أنه فى هذا العهد (عهد محمد على باشا) توجه إلى روسيا العالم المصرى الشيخ **محمد عياد الطنطاوى** لتدريس اللغة العربية بمعهد اللغات الشرقية فى عاصمتها بطرس بورج منذ سنة ١٨٤١ وبقى بها حتى وفاته فى سنة ١٨٦١ وتتلمذ عليه كثير من المستشرقين الروس . وفيما بعد ترجم حياته فى كتاب عنها شيخهم أغناطيوس **كراتشكوفسكى** (سنة ١٨٨٣ / سنة ١٩٥١) إستنادا إلى أوراقه - ولهذا الكتاب ترجمة عربية فى مصر معروفة ومتداولة .

ويجدر أيضا ذكر أنه فى هذا العهد أرسلت روسيا قناصلها إلى مصر وكان أولهم **جورج سفينى** الذى أرسل إليها فى سنة ١٨١٩ وبقى بها حتى سنة ١٨٢٠ وكان من خلفائه **دوهامل** (سنة ١٨٣٤ /سنة ١٨٤٠) وقد نشر مراسلاتهما جورج قطاوى ورينيه قطاوى بالفرنسية بمطبوعات الجمعية الجغرافية المصرية . وكان القناصل الروس يسحبون عند قيام الحروب بين روسيا والدولة العثمانية . فقد تم ذلك نتيجة الحروب الروسية العثمانية (سنة ١٨٢٧ / سنة ١٨٢٩) التى نشبت بسبب تدمير الأسطول البريطانى والفرنسى والروسى للأسطول العثمانى والمصرى فى معركة نفارين البحرية ١٨٢٧ (وهذا أول اشتباك بين قوات مصرية وقوات روسية) وقد انتهت بإبرام معاهدة أدرنة بعد هزيمة الدولة العثمانية . ثم نتيجة للحرب الروسية العثمانية (سنة ١٨٥٣ / سنة ١٨٥٦) المعروفة «بحرب القرم» وفيها جرى تدمير الأسطول الروسى للأسطول العثمانى والمصرى فى معركة سينوب البحرية بالبحر الأسود فى سنة ١٨٥٣ وهى الحرب التى انضمت فيها بريطانيا وفرنسا إلى الدولة العثمانية واشتركت فيها لأول مرة قوات برية مصرية والتى انتهت بإنهزام روسيا وبإبرام معاهدة صلح باريس فى سنة ١٨٥٦ .

ويجدر بالذكر أن محمد على باشا كان معجبا بقيصر روسيا بطرس الأكبر مجدد روسيا (سنة ١٦٨٢ / سنة ١٧٢٥) وأمر بترجمة كتاب للكاتب والفيلسوف الفرنسى الأشهر **فولتير** روسيا فى عهد **بطرس الأكبر** إلى اللغة العربية ليطلع عليه ويحاكى إصلاحاته .

وفى عهد **إسماعيل باشا** خديو مصر (سنة ١٨٦٣ – سنة ١٨٧٩) زار مصر بمناسبة إفتتاح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ شخص روسى مرموق ليس كاتبا ولا مؤرخا ولا رحالة بل فنان رسام ألا وهو الروسى الأرمنى الأصل **إيفان أيفا زوفسكى** (سنة ١٨١٧/ سنة١٩٠٠) الذى اشتهر برسم المناظر البحرية خاصة ورسم لوحات عديدة عن هذا الإفتتاح وعن بعض معالم مدينة القاهرة . وأرى أن من الواجب جمعها ونشرها معا. وأعتقد أن بعضها نشر عندنا بمصر فى « الكتاب التذكارى لإفتتاح قناة السويس» .

وعن أواخر عهد الخديو إسماعيل باشا وعن عهد الخديو توفيق باشا (سنة ١٨٧٩/ ١٨٩٢) وأوائل عهد الخديو عباس حلمى باشا (سنة ١٨٩٢ / سنة ١٩١٤) وخصوصا عن ثورة عرابى باشا، الثورة العرابية (سنة ١٨٨١ / سنة ١٨٨٢)، وعما عرف بالمسألة المصرية ألف الكاتب الروسى الإشتراكى المعروف **تيودور روتشين** (سنة ١٨٧١/١٩٥٣) إبان هجرته إلى بريطانيا التى استمرت ثلاثين عاما من سنة ١٨٩٠ حتى سنة ١٩٢٠ ألف كتابه الهام «تاريخ المسألة المصرية سنة ١٨٧٥ / سنة ١٩١٠» باللغة الإنجليزية بعنوان «خراب مصر» وقد عرفناه من ترجمة الأستاذ **عبد الحميد العبادى** له بمصر بالعنوان الأول الذى نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة لأول مرة فى سنة ١٩٣٦ ثم نشر بعدئذ أكثر من مرة . وصار هذا الكتاب هو المرجع الرئيسى لهذا العصر . ولكننا لم نكن نعلم جنسية المؤلف ولا تاريخه فهو من أقطاب الاتحاد السوفيتى وعاد إلى روسيا في سنة ١٩٢٠ وصار سكرتيرا للينين وسفيرا له فى إيران ثم المحرر الأول «لدائرة المعارف السوفيتية الكبرى»فى طبعتها الأولى وقد ترجم بنفسه كتابه أنف الذكر إلى اللغة العربية بعنوان «احتلال مصر واستعبادها» وطبعه فى سنة ١٩٢٥ثم فى سنة ١٩٥٧ بموسكو. ويلاحظ أن المؤلف واصل كتابه مصر حتى سنة ١٩٢٥فى هاتين الطبعتين الروسيتين فى حين أنه توقف فيه حتى سنة ١٩١٠ فى طبعته الإنجليزية. ولهذا اقترح ترجمة هذه الزيادة فى طبعة جديدة باللغة العربية لهذا الكتاب.

ثم كتاب « ثورة عرابى باشا» فى مصر تأليف المؤرخة السوفيتية **آسيا كيلبرج** المطبوع فى موسكو فى سنة ١٩٣٧ وهو كتاب متوسط لفت نظرى أنه يتكون من قسمين الأول

هو متنه والثانى ترجمة من اللغة العربية لبعض من خمسين مقالة ألفها ونشرها بصحيفة الأهرام بأعدادها الصادرة من يوم ١٩٣١/١٠/٧ وحتى يوم ١٩٣٢/١/٢٩ ، رئيس تحريرها الأسبق الأستاذ داود بركات بمناسبة الذكرى السنوية الخمسين للثورة العرابية . ولما كانت هذه المقالات تكاد أن تكون منسية لدينا ولا نستعملها فى كتاباتنا التاريخية فقد اقترحت على أستاذنا المؤرخ الدكتور **يونان لبيب رزق** جمعها فى كتاب مستقل والتعليق عليها بخبرته إستكمالا لعمله الرائد وهو نشره مقالات «ديوان الحياة المعاصرة المصرية» الرائعة التى يتحفنا بها فى صحيفة الأهرام فاستجاب مشكورا ، بل أبان أن نشر هذه المقالات قد أدرج ضمن خطة إصدارات مركز تاريخ مصر المعاصر بالهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية حيث تقوم الأستاذة الدكتورة **لطيفة محمد سالم** بإعداد دراسة تاريخية لهذه المقالات ، وسوف يقوم الأستاذ الدكتور **يونان لبيب رزق** بكتابة مقدمة علمية لها .

ثم كتاب هام جدا هو (التاريخ الدبلوماسى للأزمة المصرية سنة ١٨٨١ / سنة ١٨٨٢) على ضوء وثائق الأرشيف الروسية) الذى ألفه المؤرخ السوفيتى الأرمنى **جريجور ترسيسوف** والمطبوع فى موسكو فى سنة ١٩٨٩ . فهو أول مؤلف يعتمد على هذه الوثائق . ومن قبل ذلك كتب ذات المؤرخ بحثا عن هذا الموضوع استند فيه فى المقام الأول إلى مراسلات **لكس** قنصل روسيا فى مصر فى ذلك العهد مع وزارة الخارجية الروسية وذكر فيه أن روسيا كانت الدولة الأوربية الوحيدة التى عارضت التدخل البريطانى فى مصر عندئذ . وقد قمت بترجمة هذا البحث وعلقت عليه ونشرته مع وثيقتين أخريين فى كتابى«الثورة العرابية - ثلاث وثائق» المطبوع بالقاهرة سنة ١٩٨٢ . وأرشح هذا الكتاب لترجمتة إلى اللغة العربية .

وينبغى ذكر حدثين طريفين غير سياسيين فى سياق العلاقات المصرية الروسية فى أوائل القرن العشرين هما المراسلة بين الإمام **محمد عبده المصرى** (سنة ١٨٤٥ / سنة ١٩٠٥) وبين الكاتب الروسى الأشهر **ليف تولستوى** (سنة ١٨٨٢ / سنة ١٩١٠) إثر

حرمانه من الكنيسة الروسية الأرثوذكسية فى سنة ١٩٠١ والتى نشرت فى كتاب «تاريخ الأستاذ الإمام» تأليف **محمد رشيد رضا** ، ثم زيارة المستشرق الروسى السابق ذكره **أغناطيوس كراتشكوفسكى** لمصر فى سنة ١٩١٠ وتعرفه على أدباء مصر وعلى رأسهم أحمد تيمور باشا (سنة ١٨٧١ / سنة ١٩٣٠) وهو ما أشار إليه فى كتابه « مع المخطوطات العربية» المترجم إلى اللغة العربية .

وعن ثورة سنة ١٩١٩ وما بعدها حتى ثورة سنة ١٩٥٢ المصريتين ألف المؤرخ الروسى السوفيتى **أليكس جولدوبين** كتابا صغيرا عنوانه « الثورة المصرية سنة ١٩١٩» طبع بلينينجراد فى سنة ١٩٥٨ . كما ألفت المؤرخة السوفيتية **أسيا كيلبرج** السابق ذكرها كتابا صغيرا أيضا عنوانه «مصر ونضالها فى سبيل الإستقلال سنة ١٩١٩ / سنة ١٩٢٤» طبع بلينينجراد فى سنة ١٩٥٠ وألف المؤرخ الروسى السوفيتى أليكس جولدوبين السابق ذكره كتابا هاما عنوانه «النضال التحريرى الوطنى للشعب المصرى سنة ١٩١٨/ سنة ١٩٣٦» طبع فى موسكو فى سنة ١٩٨٩ بعد وفاته - وقدم له المؤرخان الأرمنى السوفيتى **بجراط سيرانيان وفلاديير كاشيايف** الروسى الأبيض السوفيتى الآتى ذكرهما. وفى هذا الكتاب حقق المؤلف مسألة هامة هى زعم اتصال لينين زعيم الثورة الروسية لسنة ١٩١٧ بسعد زغلول باشا زعيم الثورة المصرية لسنة ١٩١٩ وعرضه عليه المساعدة فقد ذكر هذه الواقعة مؤكدا لها الكاتبان المصريان **شهدى عطية الشافعى وإبراهيم عامر** فى كتابيهما «تطور الحركة الوطنية المصرية سنة ١٨٨٢ / سنة ١٩٥٩» (وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الروسية فى سنة ١٩٦١) «وثورة مصر القومية» . وفى تحقيقه رجع المؤلف إلى مراسلات لينين وباقى الوثائق الروسية ثم خلص إلى نفى واقعة هذا الإتصال وذكر أن ما حصل هو إعداد وزارة الخارجية الروسية السوفتية مذكرة بتاريخ ١٩١٩/٤/٢٤ عن الثورة المصرية لسنة ١٩١٩ تم عرضها على لينين . وأرشح أيضا ترجمة الكتاب هذا إلى اللغة العربية وأضيف أن مذكرات سعد زغلول باشا لم تشر إلى هذا الإتصال كما نفاه مؤرخنا الدكتور محمد أنيس فى كتابه دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ المطبوع بالقاهرة فى سنة ١٩٦٣ .

وكذلك شرع هذا المؤلف **أليكس جولدوبين** فى تأليف كتاب عنوانه «مصر فى الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩/ سنة ١٩٤٥» إستكمالا لكتابه السابق ولكنه لم يتمه لوفاته فى سنة ١٩٨١. وألف المؤرخ الروسى الأبيض السوفيتى **فلاديمير كاشيليف** السابق ذكره كتابا صغيرا عنوانه «مصر حتى العلمين سنة ١٩٣٩/ سنة ١٩٤٢» طبع بمنسك فى سنة ١٩٧٧ ، ثم كتابا متوسطا بعنوان «مصر- دروس من التاريخ من سنة ١٨٧٩ حتى سنة ١٩٨١» طبع بمنسك فى سنة ١٩٨٤ . ثم كتابا كبيرا عنوانه « مصر من عرابى إلى سعد زغلول سنة ١٨٧٩/ سنة ١٩٢٤» طبع بموسكو فى سنة ١٩٩٢ وأقترح ترجمته إلى لغتنا العربية خاصة لأنه يحتوى مقدمة قيمة عن المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ مصر الحديث والمعاصر وأعمالهم وأولهم طبعا المصريون .

وألف المؤرخ الأرمنى السوفيتى **بجراط سيرانيان** كتاب«مصر ونضالها من أجل الإستقلال سنة ١٩٤٥ / سنة ١٩٥٢»طبع فى موسكو فى سنة ١٩٧٠ وترجمه إلى اللغة العربية الدكتور **عاطف عبد الهادى علام** ونشرته بالقاهرة دار الثقافة الجديدة فى سنة ١٩٨٥ . وعن النضال المسلح للشعب المصرى بمنطقة قناة السويس إثر إلغاء المعاهدة المصرية البريطانية لسنة ١٩٣٦ فى أواخر سنة ١٩٥١ ألف الصحفى **ألبرتو جاكو فيللو** كتاب «موعد فى السويس» والمؤلف صحفى إيطالى وألفه باللغة الإيطالية غير أنه توجد له ترجمة إلى اللغة الروسية فى موسكو فى سنة ١٩٥٣ اطلعت عليها فيصح اعتباره من الكتب المؤلفة باللغة الروسية .

وفى هذه الفترة أى بين ثورتى سنة ١٩١٩ و ١٩٥٢ المصريتين اعترفت مصر رسميا بالإتحاد السوفيتى الذى كان يشمل روسيا السوفيتيه ضمن جمهورياته الإتحاديه وتم الإعتراف فى سنة ١٩٤٣ أثناء الحرب العالمية الثانية إثر إنضمام الإتحاد السوفيتى إلى دول الحلفاء ومن ضمنها بريطانيا التى كانت مسيطرة على مصر ضد «دول المحور» أى بعد ٢٦ سنة من ثورة سنة ١٩١٧ الروسية رغم اعتراف بريطانيا ذاتها بالاتحاد السوفيتى فى سنة ١٩٢٤ وقبل هذا الإعتراف المصرى كان باقيا بالقاهرة بمصر حتى سنة ١٩٢٣ قنصل

روسيا القيصرية ومثلها **سميرنوف** رغم سقوط القيصرية فى روسيا منذ سنة ١٩١٧ كما كان ممنوعا على جميع مواطنى الإتحاد السوفيتى زيارة مصر . يراجع فى ذلك «تقويم الدولة المصرية عن سنة ١٩٣٩» وهو آخر هذه التقاويم التى بدأت فى الصدور منذ سنة ١٩٢١ . وفى المقابل لم تبدأ زيارة المصريين للاتحاد السوفيتى بصفة سائحين إلا فى سنة ١٩٦٩ . ولكن قبل ذلك بقرابة عشر سنوات أرسل الاتحاد السوفيتى خبرائه إلى مصر وأرسلت مصر متدربيها وطلبتها إلى الاتحاد السوفيتى .

وكان أول سفير للاتحاد السوفيتى فى مصر **نوفيكوف** الذى ترك لنا مذكرات عن بعثته ترجمت إلى اللغة العربية بموسكو، ومهد لافتتاح السفارة السوفيتية بالقاهرة المستشرق التتارى السوفيتى **عبد الرحمن سلطانوف** الذى حضر إليها قبل هذا السفير على أن الثقة كانت مفقودة بين الجانبين المصرى والسوفيتى لإختلاف النظام الإجتماعى . ودل على ذلك شك هذا الأخير فى نيات الضابط المصرى **كمال الدين رفعت** عندما حاول الاتصال به فى سنة ١٩٤٥. ودل أيضا عليه تزوير مستندات تزعم اتصال مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر وزعيمها الأسبق بكوكتيف سكرتير السفارة السوفيتية بالقاهرة لطلب المساعدة فى حالة فشل المفاوضات المصرية البريطانية بشأن العلاقات بينهما التى كانت جارية عندئذ فى سنة ١٩٥١ وقبل إلغاء مصر المعاهدة المصرية البريطانية فى أواخر هذه السنة كأن هذا الاتصال جريمة .

وعن ثورة يولية ١٩٥٢ المصرية وما بعدها فإن الملاحظ مبدئيا أن علاقة مصر بالاتحاد السوفيتى مرت بأربع مراحل؛ فقد بدأت سيئة ثم صارت حسنة ثم عادت سيئة ثم عادت حسنة وقد أثر ذلك على كيفية تناول المؤرخين السوفيت للأحداث والسياسات المصرية .

وعن المؤلفات عن هذا العهد فقد ألف المستشرق الروسى السوفيتى **أوليج فغطانوفتش** كتاب «ثورة الضباط الاحرار فى مصر» طبع موسكو فى سنة ١٩٨٤ وله ترجمة فى كتاب الأهالى إلى اللغة العربية رقم ٣٠ فى مطبوعاته فى سنة ١٩٩٠ بالقاهرة

قامت بها عزه الخميسى، هذا وقد عمل المؤلف بمصر عشر سنوات مترجما . وألف الصحفيان الروسيان السوفيتيان **إيخور بيلايف ويفجينى بريماكوف** كتاب «مصر فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر» طبع فى موسكو فى سنة ١٩٧٧ . وقد عملا بمصر طويلا مراسلين صحفيين ولهذا الكتاب ترجمة عربية علما بأن ثانيهما صار رئيس وزراء روسيا. وألف المؤرخ الكرجى السوفيتى **شوطا كوزيجل شيفلى** كتاب« ثورة ١٩٥٢ واندحار السيطرة البريطانية فى مصر» طبع فى موسكو فى سنة ١٩٦٦. وألفت المؤرخة الكرجية السوفيتية **أولجا كاد جايا** «كتاب مصر فى طريق النضال» طبع تفليس فى سنة ١٩٧٧ ، وألف المؤرخ الروسى السوفيتى **أجاريشيف** كتاب «جمال عبد الناصر» وله ترجمة عربية فى موسكو فى سنة١٩٨٣ . وألف الصحفى الروسى السوفيتى **يفجينى بريماكوف** سابق الذكر رئيس وزراء روسيا السابق كتاب « قصة مؤامرة» عن ظروف تدهور العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى فى عهد الرئيس السابق أنور السادات طبع بموسكو فى سنة ١٩٨٤ ، وأذكر أن صديقى المرحوم الأستاذ محمد عبد السلام الزيات رئيس جمعية الصداقة المصرية السوفيتية سابقا عرض علي ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية ولكن الترجمة لم تتم. وألف من قبل عن ذات الموضوع المؤرخان الروسيان **أوليج جيراسيموف وإسكندر كيازيف** «مصر عشر سنوات بعد عبد الناصر» طبع فى موسكو فى سنة ١٩٨٠، كما ألف ثانيهما وحده كتاب «مصر بعد عبد الناصر» طبعة سنة ١٩٧٠ وسنة ١٩٨٠ بموسكو، كما ألف الصحفى الروسى السوفيتى **ديمتربيف** كتابه «السادس من أكتوبر سنة ١٩٨١» عن عهد الرئيس السابق أنور السادات والمترجم إلى اللغة العربية فى موسكو من سنة ١٩٩٠. وألف **فيكتور ناجيتشوك** أول سفير لأوكرانيا فى مصر كتاب «سياسة أمريكا المصرية فى الخمسينات والستينات» طبع فى كييف فى سنة ١٩٨٢.

ثم أذكر مقالات ثلاثة نشرتها نشرة «نحن والعرب» باللغة العربية التى كانت تصدرها دار التقدم السوفيتية بموسكو من سنة ١٩٩٠ وهى «ثورة عرابى باشا وبراعم الحركة العمالية فى مصر سنة ١٨٨٢» تأليف المؤرخ الروسى السوفيتى **غينادى غواريا**

شيكن و«الطريق إلى رمضان كما تراه موسكو بعد ١٥ عاما» تأليف الصحفى والمستشرق الروسى السوفيتى **إيغور توموفييف**، ومذكرات السفير السوفيتى السابق فى القاهرة **فلاديمير فينوجرادوف** من سنة ١٩٧٠ حتى سنة ١٩٧٤ المعنونة « مصر - الزمن الغامض».

وأما عن قضية الشرق الأوسط فقد ألف فيها الصحفى الروسى السوفيتى رئيس وزراء روسيا السابق **يفجينى بريماكوف** سابق الذكر «كتاب تشريح صراع الشرق الأوسط» طبع فى موسكو فى سنة ١٩٧٨، وله ترجمة عربية طبعت فى بيروت فى سنة ١٩٨١، كما ألف عنها المستشرق الأرمنى السوفيتى **نيقولاى هوفانيسيان** كتابه«سياسة الدول الإمبريالية فى الشرق العربى فى سنوات الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ - ١٩٤٥» طبع فى يريفان فى سنة ١٩٨٠، والمؤلف كان مديرا لمعهد الإستشراق الأرمنى.

وكذلك ألف المؤرخ الروسى السوفيتى **ليونيد موفدكو** عن الصراع فى الشرق الأوسط كتابين هما «إلى شرقى وغربى السويس » و «الشرق الأدنى العاصف » وقد طبعهما بموسكو فى سنة ١٩٨٠ وسنة ١٩٨٥ .

ويضاف إليهما كتاب الروسى السوفيتى **لوتسكى** عن «التاريخ الحديث للبلاد العربية» طبع فى موسكو سنة ١٩٤٩ والذى ترجم إلى اللغة العربية وصار معروفا لنا منذ زمن. وكتاب «الجيش والمجتمع والسياسة فى البلاد النامية» تأليف المؤرخ الروسى السوفيتى **جريجورى ميرتسكى** المترجم إلى اللغة العربية والمطبوع بها فى موسكو فى سنة ١٩٨٧.

وأخير ينبغى عدم إغفال كتاب هام عن مصر وأحوالها وليس عن تاريخها هو«مصر والمصريون» تأليف المستشرق الروسى السوفيتى المعروف **أليكسى فاسيليف** الذى ترجم مرتين إلى اللغة العربية مرة فى موسكو ومرة فى بيروت فى سنة ١٩٩٤، وهو كتاب ممتع يمكن تشبيهه بكتاب «المصريون المحدثون » الذى ألفه المستشرق البريطانى إدوار لين فى عهد محمد على باشا .

وأخيرا أشير إلى الندوة التاريخية والحربية المصرية الروسية التى عقدت بموسكو فى سنة ١٩٩٨ بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣. وكتاب « بعد إزالة ختم سرى» الذى ألفه بهذه المناسبة بعض العسكريين الروس عن ذكرياتهم عن هذه الحرب باللغة الروسية. وقد نشر عن الندوة والكتاب تحقيق صحفى بعث به الأستاذ عبد الملك خليل مراسل الأهرام بموسكو ونشرته هذه الصحيفة فى عددها الصادر فى يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٩٨. واقترح ترجمة أعمال هذه الندوة وذلك الكتاب إلى لغتنا العربية.

ومن قبل حرب سنة ١٩٧٣، وعن حرب سنة ١٩٦٧ ألف الصحفيان الروسيان السوفيتان **ايجور سلايف ويفجينى بريماكوف** السابق ذكرهما أكثر من مرة كتاب «إطلاق الحمامة» الذى ترجمناه إلى اللغة العربية والذى ينبغى ذكره وعدم إغفاله.

الملف الوثائقى

وثائق عن حرب فلسطين ١٩٤٨

إعداد وتقديم

د. محمد عبد الرؤوف سليم

د. زكريا أحمد سعد

وثائق عن حرب فلسطين ١٩٤٨

لا شك أن الحركة الصهيونية العالمية استطاعت استغلال الظروف الدولية أثناء قيام الحرب العالمية الثانية ، من أجل تحقيق مخططاتها في فلسطين ، و يتضح ذلك من خلال ما أنجزته القيادة الصهيونية عسكرياً أثناء هذه الحرب ، فقد نجحت في الحصول على موافقة بريطانيا على تكوين تشكيل عسكري يهودي مستقل داخل الجيوش البريطانية العاملة في الشرق الأوسط ، و جند من شباب يهود فلسطين أعداد كبيرة وصل تعدادها إلى ٣٠,٠٠٠ جندي ، دربت على حمل السلاح في مختلف قطاعات الجيوش البريطانية مما كان له أكبر الأثر على تكوين كوادر عسكرية يهودية لعبت فيما بعد دوراً هاماً في إنشاء دولة يهودية في فلسطين ، كما قامت القيادة الصهيونية بتنمية الصناعات العسكرية المحلية في فلسطين ، ليس هذا فحسب بل سعت إلى سرقة السلاح من مخازن الجيش البريطاني ، و كذلك قامت بتهريب السلاح من خارج فلسطين و إدخاله سراً إلى يهود فلسطين .

و في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية تزايد النشاط العسكري الصهيوني في فلسطين و خاصة فيما يتصل بمسألة التسليح ، فمع نقل فائض السلاح العائد إلى أيام الحرب و تصفية المخازن تمكنت القيادات الصهيونية من شراء كميات من السلاح وإن لم تكن بنفس الكميات التي تم الحصول عليها أثناء الحرب و ذلك يرجع إلى انتقال النشاط الرئيسي بالنسبة لشراء الأسلحة في تلك الفترة إلى خارج فلسطين و مع ذلك ظل السببان القديمان لاستمرار شراء السلاح من داخل فلسطين واردين و هما :

أ - الاحتفاظ بعلاقة دائمة بتجار السلاح المحليين لعلها تثمر في حال توقف السلاح من خارج فلسطين .

ب - تقليل كمية السلاح الموجودة في حيازة العرب كي لا توجه ضد اليـهود .

و يؤكد ذلك شكوى القائد العربي فوزي القاوقجي للقائم بالأعمال بالمفوضية المصرية بدمشق في ديسمبر ١٩٤٧ حول قيام بعض الأفراد من أعراب فلسطين بشراء

ثلاثة آلاف بندقية بدون خرطوش لحساب اليهود ،و قد أكد القاوقجي أن اليهود لديهم كميات كبيرة من السلاح الحديث و أن الغرض من شراء هذا السلاح القديم واضح وهو مجرد حرمان العرب من استخدامه .

و في تلك الأثناء أعلنت بريطانيا في عام ١٩٤٧ أنها عازمة على إنهاء انتدابها على فلسطين و سحب قواتها العسكرية و جهازها الإداري في ١٥ مايو ١٩٤٨ ، و أنها سوف تترك فلسطين لمن يقيم فيها، نافضة يدها من مسئولية الانتداب الذي نفذته لصالح الصهيونية على مدى ثلاثين عاما ، و طلبت بريطانيا من الأمين العام للأمم المتحدة في أبريل ١٩٤٧ إدراج المسألة الفلسطينية على جدول أعمال الدورة الشتوية للجمعية العامة و الدعوة إلى جلسة خاصة في أسرع وقت ممكن لتشكيل لجنة خاصة و تقديم الإرشادات لها ، و بالفعل تم تشكيل هذه اللجنة لدراسة المشكلة الفلسطينية و تقديم مقترحاتها حسبما تراها ملائمة لحل المشكلة ، و هو ما أسفر في النهاية عن صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاص بتقسيم فلسطين في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ .

و لقد أثار قرار التقسيم ثائرة الأمة العربية ، و عمتها موجة من السخط و الاستنكار تجلت في اضطرابات شاملة و تظاهرات عنيفة صاخبة في فلسطين وسائر الأقطار العربية، و فيما أثير في البرلمانات العربية من حملات شعواء ، وفي إقبال الشباب العربي على التطوع للدفاع عن أرض فلسطين .

وإزاء مطالبة الرأي العام العربي الحكومات العربية بسرعة التدخل لإنقاذ فلسطين، عقد مجلس الجامعة العربية اجتماعا في القاهرة في ٨ ديسمبر ١٩٤٧ حضره رؤساء الحكومات العربية و مندوب عن الهيئة العربية العليا ، و دام الاجتماع عشرة أيام و قرر خلاله رؤساء و ممثلو هذه الحكومات أن قرار تقسيم فلسطين باطل من أساسه، و قرروا كذلك عملا بإرادة شعوبهم أن يتخذوا من التدابير الحازمة ما هو كفيل بعون الله لإحباط مشروع التقسيم الظالم و نصرة حق العرب و مجابهة كل احتمال من الاحتمالات ، والحيلولة دون قيام دولة يهودية والاحتفاظ بفلسطين عربية مستقلة موحدة .

وعلى الطرف الآخر كان الوضع بطبيعة الحال مختلفا ، حيث استقبل اليهود في فلسطين قرار تقسيم فلسطين بحماس شديد و أخذت الصهيونية توحد صفوفها العسكرية و تجمع قوى منظماتها الإرهابية . و باختصار فإن مشروع التقسيم أعطى الإشارة إيذاناً بالاستخدام الكلي و التام للقوات العسكرية الصهيونية ، وزود هذه القوات في الوقت نفسه بخريطة معترف بها « علنيا » أو « رسميا » لأغراض الاستيلاء على الأرض .

وعلى أية حال فقد دارت معارك قوية في فلسطين في الأشهر الخمس التي تلت قرار التقسيم كان المناضلون فيها من مجاهدي فلسطين و متطوعي الأقطار العربية و من أفواج جيش الإنقاذ الذي تألف كذلك من فلسطينيين و متطوعي العرب .

وبات واضحا أن المواجهة العسكرية بين العرب و اليهود أصبحت حتمية لحسم الصراع في فلسطين ، فبدأت الدول العربية التشاور و التنسيق فيما بينها فعقدت الاجتماعات و المؤتمرات سواء على المستوى السياسي أو العسكري لدراسة الموقف ووضع الخطط المناسبة لإحراز النصر على العدو الصهيوني .

و في ظل هذه الأجواء كان لابد من أن يكون لدى العرب المعرفة الكافية عن القوة العسكرية الصهيونية في فلسطين حتى يمكن تقدير الموقف العسكري بشكل سليم قبل الدخول في أية مواجهات عسكرية مع اليهود ، و في الواقع فإن وثائق حرب فلسطين ١٩٤٨ تكشف لنا عن حقيقة هذا الأمر ، حيث أكدت التقارير المختلفة أن الدول العربية كان لديها الكثير من المعلومات عن تقديرات هذه القوة العسكرية ، ويلاحظ أيضا من خلال الاطلاع على هذه الوثائق تعدد المصادر التي كان يعتمد عليها العرب في جمع هذه المعلومات ، فهناك تقارير القناصل العرب بفلسطين و التي كانوا يبعثون بها إلى عواصم دولهم ، و تأتي أهمية هذه التقارير بحكم وجود هؤلاء القناصل في فلسطين و اتصالهم بعرب فلسطين بشكل مباشر مما كان يتيح لهم فرصة التعرف على تطورات الصراع العربي الصهيوني و تحتوي هذه التقارير على العديد من

الموضوعات المختلفة التي تتناول أوضاع اليهود في فلسطين بوجه عام و نشاطهم الصهيوني بوجه خاص ، كما اهتمت هذه التقارير بتوضيح أحوال عرب فلسطين و أهم احتياجاتهم في مواجهة المخططات الصهيونية و خاصة فيما يرتبط بمسألة تسليحهم ، بل إن بعض هذه التقارير حذر من مغبة التباطؤ في تسليح عرب فلسطين حتى يتمكنوا من الدفاع عن أرضهم .

وإلى جانب ذلك كانت هناك تقارير المخابرات الحربية المصرية و معظمها كان يركز على الاستعدادات العسكرية لليهود داخل فلسطين من حيث تعداد القوات اليهودية و توزيعها على المستعمرات اليهودية ، كما أوردت هذه التقارير معلومات عن بناء هذه المستعمرات و كيف كان الصهاينة يقيمونها على مرتفعات أو مواقع استراتيجية أو تكتيكية يمكنهم من خلالها التحكم تماما والإشراف على القرى العربية و قطع المواصلات عنها ، أما فيما يتعلق بتسليح اليهود فقد جاء بعدة تقارير تقديرات بأهم الأسلحة التي تمكن اليهود من الحصول عليها سواء من داخل فلسطين أو من خارجها.

و لايقل أهمية عما سبق ما كانت تبعث به السفارات العربية بالخارج من تقارير إلى عواصم دولهم عن النشاط الصهيوني و دوره في دعم و مساندة اليهود في فلسطين، وخاصة فيما يتصل بتهريب الأسلحة إليهم أو تسهيل عملية الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

و لعل مما يؤكد أن القيادات العسكرية العربية كان لديها علم بتقديرات القوة العسكرية الصهيونية في فلسطين قبل بدء حرب فلسطين ١٩٤٨ ما جاء بالمؤتمرات العسكرية العربية والتي عقدت قبل قيام الحرب بأيام قلائل (يوجد صورة بما جاء عن هذه المؤتمرات بالوثائق داخل هذا الملف) .

و مع نشوب حرب فلسطين ١٩٤٨ بين الجيوش العربية و الجيش اليهودي ، بدأت القوات العربية تتعرف بشكل فعلي على حجم و قدرات القوات اليهودية من خلال المعارك التي دارت بين الطرفين ، و يبين ذلك التقارير التي كانت تبعث بها

رئاسة القوات المصرية بفلسطين وكذلك تقارير المخابرات الحربية المصرية أثناء فترة الحرب ، حيث أكدت هذه التقارير على القدرة العسكرية للعدو الصهيوني كما جاء بها الكثير من المعلومات عن القوات اليهودية و الأسلحة التي تم استخدامها في المعارك. و من التقارير التي تحمل أهمية خاصة تلك التي كانت مرفوعة من القيادات العسكرية العربية إلى جامعة الدول العربية حول تطورات الموقف العسكري أثناء الحرب سواء فيما يتعلق بالجيوش العربية أو الجيش اليهودي و تزداد أهمية هذه التقارير بعد عقد الهدنة الأولى .

ففي المؤتمر العسكري الذي عقد بالقاهرة بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ ٧ يوليو ١٩٤٨ أي أثناء الهدنة الأولى ، رأى معظم القادة العسكريين العرب أن الموقف العسكري ليس في صالح العرب ، و أهمية تمديد الهدنة حتى تكون هناك فرصة للاستعداد و استئناف القتال مرة أخرى و على الرغم من ذلك أصر القادة السياسيون على استئناف القتال مما ترتب عليه وقوع خسائر عسكرية فادحة في صفوف الجيوش العربية.

وفي خلال الهدنة الثانية تقدم رئيس أركان الجيش العراقي بتقرير عسكري إلى جامعة الدول العربية عن موقف الجيوش العربية في فلسطين استعرض فيه موقف القوات اليهودية و قدراتهم العسكرية وخاصة بعد الانتصارات التي حققوها عقب الهدنة الأولى ، كما تناول التقرير موقف الجيوش العربية و تدهورها العسكري المستمر، وطالب التقرير بضرورة سرعة التدخل من قبل المسئولين و اتخاذ التدابير اللازمة لتوفير العتاد و السلاح و الرجال حتى يكون لدى هذه الجيوش القدرة على الاستمرار وتحقيق النصر على اليهود (يوجد صورة من هذا التقرير بداخل هذا الملف) .

و من خلال ما استعرضناه يمكننا القول بأن الدول العربية كان لديها علم بالقوة العسكرية الصهيونية في فلسطين و أنها دخلت حرب فلسطين ١٩٤٨ و لديها تقديرات عن هذه القوة ، و ذلك خلاف ما هو شائع عن أن العرب دخلوا هذه الحرب و هم

يجهلون إمكانيات عدوهم العسكرية . و لعل ذلك يقودنا إلى القول بأن هزيمة الدول العربية في حرب فلسطين لم تكن عسكرية بقدر ما كانت سياسية .

و قد أوردنا بهذا الملف بعض النماذج من الوثائق المرتبطة بموضوعنا لعلها تساعد في إلقاء الضوء على ما طرحناه من نقاط .

محتويات الملف الوثائقى

- تقرير عن فلسطين من إدارة المخابرات الحربية إلى وزير الدفاع الوطنى.
- تقرير عن المؤتمر العسكرى الذى عقد فى عمان فى أول مايو ١٩٤٨.
- تقرير عن المؤتمر العسكرى الذى عقد فى دمشق فى ١٠ مايو ١٩٤٨.
- مذكرة عن تل أبيب والمستعمرات المحيطة بها.
- مذكرة عن القوات اليهودية فى فلسطين.
- تقرير عن موقف الجيوش العربية فى فلسطين.
- مذكرة عن القوات اليهودية التى استخدمت فى منطقة النقب .
- مذكرة عن النشاط الصهيونى.
- مذكرة حكومة عموم فلسطين عن أوضاع اليهود الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

وزارة الدفاع الوطنى

ادارة المخابرات الحربية

قسم ــــــــ

سرى جدا

مذكرة

مرفوعة الى حضرة صاحب المعالى وزير الدفاع الوطنى

==================

اتشرف بأن ارفع لمعاليكم صورة تقرير عن فلسطين مقدم من :

١ ـ حضرة البكباشى ا ح محمد نور افندى من ادارة المخابرات الحربية

٢ ـ حضرة اليوزباشى عصام حلمى المصرى افندى قائد قوة الحراسة بقنصلتى القدس وحيفا .

وتفضلوا معاليكم بقبول فائق الاحترام ،،،

اميرالاى (ا ح) [توقيع]

مدير المخابرات الحربية

١٩٤٨/٢/٢٣

سري جداً

حضـــرة صاحب العزة مدير المخابرات الحربيــة

كان لي الشرف العظيم أن اكلف بمرافقة الحـرس المصري للقنصليات المصــرية الملكيــة في كل من القدس وحيفا في هذا الوقت العصيب الذي يمر بفلسطين العربية ، واني اذكر فيما يلي تقـريرا موجزا عـن هذه الرحـلة ــ

كانت القوة مكونة من حضرة اليوزباشي عصام الدين المصري افندي ومعه ثمانية وعشرون ضابط صف وعسكري مسلحين باربعة عشر مدفعا رشاش تومي واثني عشر بندقية واربعة وعشـرين طبنجة مع الذخيرة اللازمة للخط الاول والثاني وكانت الحملة مكونة من خمسة لوارى حمولة ٣ طن تحمل المؤن والاسلحة والذخيرة والجنـود .

تحركت الحملة في الساعة ٢٧٠ من يوم الخميس الموافق ٥ فبراير ١٩٤٨ في طريقها الى فلسطين فوصلت الاسماعيلية في الساعة ١٢٠٠ من نفس اليوم ثم استأنفت سيرها عبر القنـال من الاسماعيلية حتى كوبري ابوعجيله عند تفرع طريق العريش فوصلت في الساعة ١١٠٠ حـيث قضت الليلة بهذه النقطة ثم استأنفت سيرها في الساعة ٠٧٠٠ من يوم ٦ فبراير ١٩٤٨ متجهة الى الحدود المصرية الفلسطينية الى العوجه حيث كان في استقبالنا حرس من قوة بوليس فلسطين مكون من صف ضابط بريطاني وثلاثة جنود منهم اثنين من عرب فلسطين لحراسة الحملة اثنـاء مرورها بالمستعمرات الصهيونية في هذه المنطقة وفي الساعة ١١٠٠ من نفس اليوم وصلت الحمـلة الى بير سبع حيث الاجراءات الجمركية وادارة الجوازات وقد كان في استقبالنا قنصل مصر في القدس فرافق الحملة حتى القدس فوصلنا في الساعة ١٦٣٠ الى المفوضية المصرية حيث اعدت جميـــع اسباب الراحة للصف والعساكر والضباط وحيث قدمت وجبة عشاء ساخنة للجميع .

بمجرد وصولنا الى القدس اتخذت اجراءات الحراسة وبدأ الحراس عملهم بهمة ونشاط مشـــــرفين .

وفي الساعة ١٠٠٠ من يوم ٩ فبراير ١٩٤٨ كانت قوة حراسة القنصلية المصرية الملكية في حيفا وهي مكونة من عشرة صف وعسكري وسبعة مدافع رشاش تومي مع الذخيرة والعتاد والمؤن تشق طريقها الى حيفا مصحوبة بحرس بريطاني عربي وكان الجو ممطرا واعلا الجبال مكسوبا لثلوج والطريق محفوف بالمخاطر بالنسبة لوجود عدد من المستعمرات الصهيونية المتاخمة للطريـــــق وقد وصلت الحملة بسلام الى حيفا فوصلتها في الساعة ١٦٠٠ الى القنصلية المصرية الملكيـــة وقد اتخذت اجراءات الحراسة بمجرد وصول القوة وتمت اجراءات راحة الجنود واطعامهم ــ

وفي الساعة ٠٨٣٠ من يوم ١١ فبراير ١٩٤٨ تحركت الحملة عائدة الى القدس فوصلتها في الســـاعة ١٥٠٠

العـــــــودة

في الساعة ٠٨٣٠ من يوم ١٣ فبراير ١٩٤٨ تحركت الحملة في طريق العودة الـــى وادي النيل وقد اعتذرت السلطات البريطانية عن عـدم امكان ايجاد الحرس اللازم لمرافقة الحمـلة فقررنا التحرك بحراسة اسلحتنا وقد ابى قنصل مصر العام في فلسطين الا ان يرافقنـا الى بيــر سـبع وقد حدث للأسف أن صدم أحد اللوارى البريطانية احدى عرباتنا قرب بيت لحم بضواحـــي القدس مما حال دون استمرارها فعملنا على نقلها الى احدى الورش العربية للاصلاح واســـتمرت الحملة في طريقها مارة بلواء الخليل فوصلنا بير سبع في الساعة ١٢٠٠ من نفس اليوم حيث تمـــت الاجراءات الجمركية وودعنا صاحب العزة القنصل العام عائدا الى القدس بحراسة الاسلحة الـــتي كانت معنا مما جعل ضرورة مرافقة حرس من البوليس الوطني الفلسطيني للحملة اثناء مرورها بـــين المستعمرات الصهيونية حتى الحدود المصرية ثم استمرت الحملة حتى كوبري ابوعجيله فوصلنـــــا في الساعة ١٥٣٠ حيث اعيد ملء الخزانات بالبنزين واستمرت الحملة في طريقها الى الاسماعيلية فوصلنـا في الساعة ٢٠٠٠ من نفس اليوم حيث قضينا الليلة في ادارة منطقـــة القنـــال وشـــرق الدلتـــا ــ

(٢)

فى الساعة ١٠٠٠ يوم ١٤ فبراير ١٩٤٨ تحركت الحملة الى القاهرة فوصلتها فى الساعة ١٥٠٠ من نفس اليوم حيث اعيدت العربات الى وحداتها وبذلك تكون الحملة قد قطعت فى هذه الرحلة ما مجموعه ١٤٦٠ كيلومترات .

الحـالة العامة بفلسطين

بمجرد وصول الحرس المصرى الى بير سبع طير الخبر الى لواء الخليل اقرب البلاد العربية اليها فما أن رأى الاهالى مقدم العربات يتقدمها سعادة قنصل مصر العام بفلسطين بعربته يرفرف عليها العلم المصرى المحبوب حتى اطلقت الاهالى الاعيرة النارية من مدافع التومى والمسدسات والبنادق ابتهاجا بمقدم الحرس المصرى وعم البشر الجميع وتعالى الهتاف بحياة الفاروق منقذ العروبة وحامى فلسطين والمعين الاول لها واغرورقت عيون الحرس المصرى بدموع العطف المشبع بروح الحب الالهى الكامن الذى يربطه بهم صلة الدم والدين ، حقـا كان مشهدا حماسيا لا مزيد عليه دل على ما يكنه هذا الشعب الباسل نحو مليك وادى النيل ورجـاله البواسـل .

دعينا الى فرع اللجنة العربية العليا بالخليل بين دوى المدافع الرشاشة والبنادق وسدت الطرق بالاهلين من العرب البواسل يحيون جنود مصر .

الســلاح وليس الرجــال

دار الحديث بيننا وبين عمدة لواء الخليل الشيخ الجعبرى الذى يتمتع بعزوة لا مثيل لها فى هذا اللواء ويدين الجميع بحبه والاخلاص له وقد خرجت من حديثه بانه غير راض عن بعض الشخصيات التى تؤلف منها اللجنة العربية العليا اذ انها لا تحوى سوى المقربين الى جهة معينة (يقصد سماحة المفتى) وان السلاح يوزع على الاهل والاقارب دون النظر الى خطورة الموقف فى بعض جهات فلسطين التى يهددها الصهيونيون تهديدا مباشرا مثل حيفا ويافا والخليل مما جعل عددا غير قليل من الاهلين يندد ون بهذه السياسة التى توجب التفرقة وتثير الضغائن بين اهالى فلسطين وتجعلهم شيعا يتخاذلون فى وقت هم احوج فيه الى تضافر الجهود وجمع الكلمة والكيل بمكيال عادل للجميع لا فرق بين قريب ومحسوب فالوطن فقط هو الذى توجه اليه العناية والخدمة دون اى اعتبارات اخرى .

ان رجال لواء الخليل مشهود لهم بين انحاء فلسطين بالقوة والجراة والشجاعة وبها ما لا يقل عن خمسة الاف رجل تحت امرة رئيسهم الشيخ الجعبرى ولكن للاسف لم يصلهم عن طريق اللجنة العربية العليا سوى النذر اليسير من الاسلحة والذخيرة فحرام ان تحرم فلسطين من عون هولاء الرجال . وقد علمت من مصادر اخرى ان سماحة المفتى لا يتعطف على زعماء هولاء الرجال بالنسبة لحزازات قديمة وخشية ان ينالهم من المجد ما يمكن أن يوثر فى مركزه كسيد لهذه البلاد وفضلا عن ذلك فان الشيخ عبد القادر الحسينى الذى عين قائدا للواء القدس والخليل لا يتمتع بسمعة عسكرية طيبة بين الكثير من الاهلين فى هذين اللوائين بالنسبة لعدم كفايته فى شئون القتال وعدم معرفته بطرقه الحديثة فضلا عما نسب اليه من ضياع انفس كثيرة نتيجة هذا الجهل اثناء ثورة ١٩٣٦ مما جعل نفر غير قليل يفقدون الثقة فيه .

وقد لمست بنفسى ذلك اثناء وجودى بالقدس حيث قرر الهجوم على مستعمرة يهودية تدعى مونت فيورى وقد اعد لذلك حوالى ٢٠٠ مقاتل من العرب وكانت الفكرة ترمى الى اختراق الاستحكامات والوصول الى داخل المستعمرة ثم حرقها بالبنزين وقد تمكن العرب من اختراق الاسلاك والالغام ونشروا البترول على المبانى ولكن للاسف لم يجدوا الكبريت لاشعال البترول وضاع الوقت سدى فاستنجد الصهيونيون بالقوات البريطانية فاتت على عجل واخذت تضرب على العرب وفشل المهاجمون تاركين وراءهم ستة عشر شهيدا واربعون جريحا ولم يخسر الصهيونيون سوى قتيل وجريح والانتقاد يوجه من الجمهور الى القائد الذى لم يحسن وضع الخطة لتعطيل تداخل البريطانيين بسد الطرق الموصلة مثلا الى غير ذلك من الانتقادات .

(٣)

وفى اليوم التالى لهذا الهجوم قام الصهيونيون بالرد عليه بحرق اكبر مخزن ادوية فى القدس وقد تم نسفه فى الساعة ٥٠٠٠ واشعلت به النيران وحضرت المطافى لاخماد الحريق فوجدت انابيب المياه قد قطعها الصهيونيون حتى لا يتمكنوا من اطفاء النيران وفعلا التهمت النيران المخازن الى آخرها ٠

هكذا يقارن الجمهور الفلسطينى بين القائدين وخططهما ويقولون انه يجب اعادة النظر فى هذه القيادة فيشغل الرجال المشهود لهم بالقدرة على القيادة دون اعتبارات اخرى عائلية ٠

السلاح

يصل السلاح تباعا الى فلسطين والجميع يتلهفون على الحصول عليه مهما كلفهم ذلك ويباع فى السوق السوداء باثمان لا يصدقها العقل ٠

يباع المدفع البرن بمبلغ ٧٠٠ جنيه فلسطينى
" " التومى " ٥٠٠ " "
تباع البندقية بمبلغ ٧٠ " "
يباع المسدس " ٤٠ " "

وقد وصل ثمن طلقة الذخيرة خمسة قروش — وتبيع السيدات حليها او ترهن مصاغها لشراء الاسلحة لرجالها للذود عن حياض بلادهم ضد ظلم الظالمين من صهيونيين واوربيين ٠

وقد حدث اثناء وجودى ما يبكى اذ تقدمت فى احد الايام امراة تبيع اللبن الى منزل سعادة قنصل مصر العام بالقدس فعرضت عليه رهن حلى ابنتها المتزوجة حديثا نظير مبلغ عشرة جنيهات لتشترك مع جيرانها فى شراء بندقية وبعض الذخيرة ولكن سعادة القنصل ابى الا ان يمنحها مبلغ العشرة جنيهات قائلا ردى حلى ابنتك اليها وهذه العشرة جنيهات مساعدة منى " فتقبلتها السيدة باكية شاكرة وهذا مثل واحد من مئات تجرى يوميا فى ربوع فلسطين ٠

ورغم ورود السلاح بكميات وافرة من مصر الا انه مازال غير كاف وخصوصا مدافع البرن والهاون والقنابل اليدوية التى هم فى شدة الحاجة اليها ٠ وقد حيرتهم فى هذه الايام الاخيرة سيطرة السيارات المدرعة اليهودية على الطرق التى تصل الشمال بالجنوب ومضايقة المناطق الجنوبية فالطريق الموصل من بير سبع الى غزه ويافا اصبح تحت رحمة هذه السيارات الصهيونية وقد طلبوا الى بالحاح ان اطلب الى معالى وزير الدفاع ان يدبر لهم من السلاح ما يؤثر على هذه المصفحات ويشل نشاطها فوعدت بتبليغ ذلك ٠

وما يخشاه عرب الجنوب من هذا النشاط الصهيونى ان يحول ذلك بينهم وبين مزروعاتهم الشتوية مما قد يتسبب عنه نقص المحصولات من الشعير ويهدد اهالى الجنوب بالمجاعة ٠

الروح المعنوية

ان الروح المعنوية بين جميع عرب فلسطين عاليه بدرجة مثيرة والجميع مصممين على التضحية بالمال والانفس لنصرة قضيتهم والشيوخ يسبقون الشباب فى هذا المضمار وأن هذا لمما يبشر دون شك بالنجاح ٠ ويحاول الصهيونيين جهد طاقتهم اخماد هذا الشعور بكافة طرق الدعاية وخلق الاشاعات وقد حدث اثناء وجودى بحيفا أن حلقت طائرة صهيونية فى يوم ١٠ فبراير ١٩٤٨ صباحا والقت منشورات على الاحياء العربية بامضاء جمعية شتيرن

(٤)

الصهيونيه وقد اطلعت على احد هذه المنشورات وهى تحث العرب على عدم الانقياد خلف زعمائهم من رجال الهيئة العربيه ويطلبون اليهم الخلود الى السكينه والعيش جنبا الى جنب مع الصهيونين فى وئام وسلام ويذكرونه بما قام به الصهيونين من عمران فى جميع انحاء فلسطين مما عاد عليهم بالخير ثم هددوا العرب بنسف دورهم وحرقها وقتلهم اذا هم استمروا فى عدوانهم على الصهيونين وقد قابل العرب هذا التهديد بفتور وعدم اكتراث وان هذه الروح العاليه التى يتمتع عرب فلسطين بها يجب ان كافئها باجابه رغباتهم التى يلحون فى طلبها وتتلخص فى الاتى

أ ـ توزيع السلاح توزيعا يتفق وخطورة الموقف فى المناطق المهددة

ب ـ زيادة الكميات المرسلة من الذخيرة والاسلحة وخصوصا مدافع البرن .

جـ ـ مساعدة وادى النيل فى ارسال اسلحة مضادة للمصفحات الصهيونيه التى تهدد طرق المواصلات .

د ـ تنظيم القيادة فى جميع المناطق ومدها بالعسكريين الفنيين

هـ ـ تدريب وتنظيم القوات العربيه

الصهيونيون بفلسطين

قد دلت تحرياتنا ومشاهداتنا اثناء هذه الرحلة على ان القوة الاساسيه للصهيونين فى فلسطين هم رجال الهاجناه وهم منظمون تمام التنظيم ومسلحون تسليحا حديثا بالاسلحة الصغيرة ويجيدون استعمالها وجميع الصهيونين القادرين على حمل السلاح فى عداد هذه القوة . وقد علمت من مصادر مختلفة ان عددهم حوالى ٦٠ ألف منتشرين فى انحاء المستعمرات الصهيونيه ومركز العدد الاكبر منهم فى تل ابيب وحيفا والقدس اما فى المستعمرات الجنوبيه بمنطقة النقب فعددهم قليل ولكنهم زودوا اخيرا فى كل مستعمرة بحوالى من اثنين الى ثلاثة سيارات مصفحة صنعت دروعها فى تل ابيب ولقيم هذه السيارات من وقت لآخر بنقل المؤن والذخائر من مستعمرة الى اخرى او لنجدة اى مستعمرة يهددها العرب بالغزو والحق يقال بان هذه المصفحات اضحت موضع تعب لسكان الجنوب فكثيرا ما تقطع طرق المواصلات وتحدث خسائر فى حملات العرب وليس لديهم من الوسائل والاسلحة ما يمكنهم من القضاء عليها .

ورغم تنظيم قوات الهاجناه وتسليحها القوى رغم ذلك فانهم من اجبن خلق الله على ظهر البسيطه وهم يتجنبون دائما مقابلة العرب وجها لوجه اذ فى ذلك القضاء عليهم ـ ويدبرون اعمال نسف العمارات العربيه بمكر ودهاء عظيمين وهذا ما يمتازون به ويتفوقون به على العرب مع توفر الاسباب والمعدات والاخصائيين فى هذا العمل والخطه التى يسيرون عليها الان هى نسف اكبر عدد ممكن من المبانى العربيه مع انزال اكبر خسائر مادية بموارد الثروة الحيوية للعرب بفلسطين فقد نسفوا على سبيل المثال اكبر مستودع ادوية للعرب بالقدس .

وفضلا عن ذلك فان الصهيونيين يعملون جهد طاقتهم فى الاحوال الحاضرة نحو حرمان عرب الجنوب من زراعة اراضيهم حتى يتأثر محصول الشعير هذا العام وما يتسبب عنه من حدوث

٥

مجاعة بينهم • وقد علمت من مصدر موثوق به بان رياسة الهاجاناه قد قررت الاستيلاء على جميع مراكز الحكومة فى ميناء حيفا الكبير فى اليوم التالى لجلاء القوات البريطانية عنها وقد اعدت الخطة فعلا وعينت قوات الهاجاناه التى ستتولى احتلال المرافق الحيوية •

السياسة البريطانية فى فلسطين

يجرى الان بنشاط عظيم اخلاء جميع المهمات العسكرية البريطانية من فلسطين فبعضها يرسل بالحملات الميكانيكية الى منطقة فايد وهذه الحملات لا تنقطع يوميا كذا بطريق ميناء حيفا فقد شاهدت نحوا من سفن النقل الكبيرة تشحن بهذه الجهة المهمات فى طريقها الى قبرص ومالطه كما يجرى الان ترحيل جميع العائلات البريطانية من فلسطين على ان يتم ذلك فى نهاية هذا الشهر • وقد قررت السلطات البريطانية قفل جميع المصالح الحكومية التى لا تتصل بالجمهور كمصلحة المساحة والزراعة وتسريح موظفيها من العرب واليهود وجميع الظواهر فى هذه البلاد تدل دلالة لا شك فيها على ان جلاء البريطانيين عن فلسطين حقيقة لا مراء فيها •

والبلاد فى هذه الاونة فى حالة من الفوضى اى تكاد تكون بلا حكومة والبوليس البريطانى والعربى لا هم له الا المحافظة على الحملات التى تمر بين المستعمرات اليهودية او العربية اما عن حالة الامن فى البلاد فلا امن بها مطلقا • وما تقوم به الحكومة فى حالات القتل والاعتداءات المسلحة سواء بين العرب او اليهود هى تسليم القتيل الى الهيئة التى ينتمى اليها دون تحقيق. كما ان السرقات وحوادث العربات وما الى ذلك من جرائم لا يلتفت اليها والاهالى سواء من العرب او اليهود يحملون السلاح علنا وعلى مراى من رجال البوليس فى الشوارع العامة دون حرج او خوف وقصارى القول فالبلاد فى حالة من الفوضى لا حد لها وقد علمت بأن عددا كبيرا من عرب فلسطين قد رحلوا عنها فى الشهور الاخيرة وقد بلغ عدد النازحين من حيفا وحدها ما لا يقل عن خمسة عشر الفا ومازال عدد من العرب يطلب التاشيرات للسفر خارج فلسطين وفى نفس الوقت قد امرت الوكالة اليهودية بفلسطين بعدم التصريح لليهود بالخروج من فلسطين وهدد رجال الهاجناه كل من يغادرها من اليهود بالعقاب

اما عن السياسة البريطانية القائمة داخل البلاد فترمى الى اذكاء نار الثورة بين العرب والصهيونيين وبين جنود الجيش البريطانى عدد كبير جدا يعطف على العرب وعدد منهم يمدونهم بالمساعدة والارشاد بحكم نقمتهم على الصهيونيين لما اصابهم منهم وكثير من الحوادث تدل على ذلك •

وقد حدث ان شاهد احد الضباط البريطانيين عربيين يحمل كل منهما مدفع تومى يضربون به على مستعمرة يهودية وكانا متلاصقين فافهمهما بانه يجب ان ينتشرا حتى لا يكونا هدفا ظاهرا لليهود كما حدث ان قتل احد العرب يهوديا قرب احدى المستعمرات اليهودية وتصادف مرور عربة البوليس البريطانى فامر العربى بالانصراف بعد ان اخذ سلاحه ولعله اخذه ليبيعه الى احد العربان •

ومن الحوادث المشهورة التى تدل على رغبة البريطانيين فى ازكاء نار الحرب بين العرب واليهود ان دخل جنديان بريطانيان الى احد المنازل المهجورة والتى تقع بين مستعمرة يهودية واخرى عربية واطلقا رصاص مدافع البرن على المستعمرة اليهودية تارة وتارة اخرى على المستعمرة العربية فاعتقد كل من العرب واليهود باعتداء الاخير وفعلا قامت المعركة بينهما كما يشاع بان البريطانيين قد سلموا الى اهالى الخليل ثلاثمائة بندقية

ويقال بان نسف الجريدة اليهودية *Palestine Post* قد دبر بمساعدة البريطانيين رغم ما اذاعه عبد القادر الحسينى من انها من تدبير العرب ولكن المؤكد من كبار رجال العرب فى القدس من العرب بمعاونة الانجليز قد دبروا هذا النسف الذى اعتبر ضربة قاسية وجهت نحو الصهيونيين وهكذا تدل الحوادث على رغبة الانجليز فى زيادة اشتداد الحالة فى فلسطين •

القوات العربية

يتطوع يوميا عدد كبير من عرب فلسطين وينضمون الى المنظمات العربية والواقع ان الحاجة ماسة الى التنظيم والتدريب مع ايجاد القيادات المنظمة التى تجمع بين الرجال ذوى النفوذ بين العرب كل فى دائرة اختصاصه مع العسكريين الفنيين دون اى اعتبارات عاطفية تؤثر على مجهود هذه

٦

الرياسات وما شاهدته بين هذه المنظمات انها فى حاجة ماسة الى الرجال العسكريين كما انها ايضا فى حاجة الى التدريب والسلاح الاوتوماتيكى (البرن) كذا الهاونات والاسلحة المضادة للمصفحات اليهودية كذا التدريب على اعمال النسف والتدمير والمواد التى تستعمل لذلك .

وقد زرت اثناء وجودى بحيفا قيادة حامية لواء حيفا ويقودها الملازم اول محمد الحمد الجليطى وهو شاب لبنانى ترك الخدمة وتطوع للقيام بهذا العمل وقد علمت منه بأن تدريب المتطوعين لا يتعدى استعمال البندقية او المسدس او البرن بالنسبة لعدم وجود الوقت وقلة السلاح فلم ترسل اللجنة العربية العليا اى اسلحة الى حيفا رغم ان اغلبية سكانها من اليهود ولهم فيها مصالح هامة لا تقل عن مثيلها فى تل ابيب ومن المتيسر للعرب فى هذه المنطقة انزال خسائر اقتصادية هامة بالمصالح اليهودية بهذه المنطقة ويمكن للعرب انزال خسائر عظيمة باليهود بهذه المنطقة اذا توفرت لديهم الاسلحة ومواد النسف والذخيرة .

وقد علمت بان ما يقرب من ١٥٠٠ متطوع من سوريا قد وصلوا الى نابلس وقد رأيت بعضهم اثناء وجودى بهذه البلد العربية وهم منظمين ومدربين ومعهم الحملة اللازمة لنقلهم كما علمت بان قائد القوات العربية فوزى القاوقجى سيصل قريبا الى نابلس وسيتخذها مركزا لقيادته وهو اختيار استراتيجى عظيم بالنسبة لحصانته الطبيعية وتوسطه بين القدس وحيفا ويتمتع هذا القائد فى جميع انحاء فلسطين بشهرة فائقة وثقة عالية ولو انى سمعت تلميحا من بعض الشخصيات الفلسطينية البارزة بان تعيينه لا يروق فى نظر سماحة مفتى فلسطين وانصاره خشية ان يؤثر ذلك فى مركز سماحة المفتى .

وقد لاحظت ان المدن العربية غير محصنة كما هو الحال فى المستعمرات اليهودية ولو ان اليهود يحجمون فى هذا الوقت عن مهاجمة هذه المدن مهاجمة جدية ويكتفى العرب حاليا بسد الطرق الموصلة الى مدنهم بعمل بوابات ومتاريس على الطرق مع تفتيش العربات والتاكد من شخصيات المارين وعمل احتياطات موقتة للامن ولكن على ما اعتقد ان ذلك غير كاف وعلى الاقل يجب تحصين المدن العربية البحته المجاورة للمستعمرات اليهودية تقاء ما يحدث من هجوم صهيونى مفاجئ عليها والعرب لا يمكنهم عمل هذه التحصينات لعدم وجود الاسلاك الشائكة والالغام واكياس الرمل اللازمة لعمل هذه التحصينات .

القــــوات الصهيونيـــة

القوات الصهيونية العاملة تتركز فى الهاجناه وعددها ما يقرب من ٦٠٫٠٠٠ رجل مدربين اكمل تدريب ولديهم الاسلحة الصغيرة الاوتوماتيكية كالبرن ومدفع Sten والاخير يصنع حاليا بتل ابيب وجميع المستعمرات الصهيونية بفلسطين محصنة بالاسلاك الشائكة والالغام وبعضها يحوى اربعة دشم خرسانة مسلحة للضرب منها بالبرن كما يوجد فى وسط كل مستعمرة برج مرتفع للمراقبة وبه مزاغل لعدد كبير من الاسلحة الاوتوماتيكية يلجا اليه السيدات والاطفال فى حالة الهجوم وفضلا عن ذلك فان جميع المنازل بداخل المستعمرة محصنة باكياس الرمل وبها مزاغل على المنافذ ورغم كل هذه التحصينات فقد تمكن العرب اكثر من مرة من اختراقها وجميع المستعمرات متصلة ببعضها بالتليفونات واللاسلكى عدا المستعمرات الجنوبية فاتصالها باللاسلكى فقط وفى حالة قطع هذه المواصلات او تلفها يكون الاتصال باشارات ضوئية متفق عليها بينهم .

اما المستعمرات الجنوبية بمنطقة النقب فتحصينها يشبه باقى المستعمرات الا ان السيدات والاطفال قد رحلت منها ويوجد بكل منها حوالى ٤٠ من الهاجناه للدفاع عنها كما زودت كل مستعمرة بعربات مصفحة جهزت محليا فى تل ابيب ويتراوح عددها بين اثنين او ثلاثة تستعمل فى احضار المون والذخائر والتعيين الى هذه المستعمرات عن طريق الجبل فى بعض الاحيان متجنبة المناطق العربية واحيانا اخرى تسير على الطريق العام الموصل الى حيفا وغزا وهذه السيارات موضع عناء شديد لعرب الجلوب .

وقد علمت من احد المصادر الموثوق بها بان الصهيونيين بفلسطين قد اشتروا كميات كبيرة من البصل من سوريا الى تل ابيب ويشاع بانهم ستستعملونه فى عمل القنابل المسيلة للدموع

٧

او للغازات الخانقة كما انه اتضح من التحريات ان كل يهودي يحتفظ في منزله بكمامة واقية وما يخشاه العرب هو ان يلجأ الصهيونيون الى استعمال الغازات الخانقة ضدهم وليس لديهم ما يقيهم منهـــــا .

وقد قام اليهود في الشهور الاخيرة الماضية بعمل دروع من الصلب لجميع ســيارات النقل التي تسير على الطرق العامة بفلسطين وقد شاهدت هذه السيارات تسير ما بين القـدس وتل ابيب ويافا وحيفا والدروع على اجنابها بارتفاع راس الجالس بها كما وضع امام السائق الـواح سميكة من الزجاج الغير قابل للكسر يحيط به شبكة من الاسلاك السميكة وقد صنعت هذه الـدروع بتل ابيب .

اما عربات نقل العرب فلم يجربها اى تحصين وهى عرضة لهجمات اليهود عليها بسياراتهم المدرعة ويحاول اليهود جهد طاقتهم في هذه الايام الاخيرة اقصاء العرب عن منطقة الطالبيه بالقدس محاولين السيطرة عليها حتى يمكنهم قطع مواصلات العرب ما بين القدس وجنوب فلســطين وفعلا نسف الصهيونيون بعض العمارات العربية في هذه المنطقة واغاروا عليها مرارا متتالية مـن المستعمرات اليهودية المجاورة واخيرا ارسلوا الى اهلها انذارا شديدا بضرورة الجلاء عنها والا تنسف دورهم ويقضى عليهم وفعلا رحل عنها عدد كبير من العرب والمسيحيين .

كما علمت بأن لدى الصهيونيين بتل ابيب حوالى إثنى عشر طائرة صغيرة لا تصلح الا للمواصلات وتموين المستعمرات المنعزلة كما ان لديهم اربع مدافع ميدان بتل ابيب للدفاع الساحلى .

موقـــــف سماحة المفتي

ان كثيرا من المتعلمين من رجال فلسطين يعارضون سياسة سماحة المفتي التى ينعتونهـا بانها سياسة ترمى الى مساعدة اعوانه فقط دون اعتبارات اخرى ويقولون بان الحكومة المصــرية قد سلمته ١٥٠٠ بندقية وزعها على انصاره دون تفكير في مصلحة البلاد العليا بتوزيعها على المناطق التى يهددها الصهيونيون كحيفا ويافا مثـلا . كما انهم مستاءين من بطء الجامعـة العربية في مد يد المساعدة اليهم فهم لا يشعرون حتى هذا الوقت باى مساعدة من ناحية الجامعة العربيـة .

ويبدو ان عرب فلسطين لا يريدون متطوعين من الخارج ويقولون بان لديهم الرجال الصالحين ولكن ينقصهم العتاد والتدريب والفنيين العسكريين وهذا في متناول يد الجامعـة العربيـة وان الذين يعطفون على قضية فلسطين بالخطب والصور في المجلات يجب ان يحضروا اليها ليساهموا في الجهاد فقد ملوا هذه الخطب والمقالات .

الخـــــاتمة

ا ـ مما شاهدته وسمعته في فلسطين اجزم بان العرب هناك في حاجة ماسة الى النجدة السريعـة خشية انهيار مقاومتهم وضعف روحهم المعنوية .

ب ـ علاج حالة التموين بالبلاد فهى مشرفة على حالة خطيرة من قلة التموين ونقص الانتاج الغـذائى في المناطق العربيـة وما بذله الصهيونيون من جهد للقضاء على المحصول الشتوى .

جـ ـ العرب في حاجة ماسة الى المواد الطبية فقد نسف اليهود اكبر مخزن للادوية بالقدس كما ان المستشفى العربى بالقدس مازال في حاجة الى تجهيزات غرفة للعمليات وملايات للفـرش والمزيد من الادوات الطبية الضرورية لعلاج المصابين في المعارك التى لا تنقطع يوميا .

د ـ ارسال التعليمات الى قناصل الدول العربية عما يتبع بعد جلاء الانجليز عن البلاد اوعنـد وصول لجنة التقسيم ويبدو ان قنصل مصر العام بالقدس ليس لديه الخطة التى يتبعهـا في الحالات السابقة

هـ ـ سيزداد نشاط الصهيونيون في الاشهر القادمة بتوجيه ضربات قوية الى العرب في منطقـة حيفا والقدس لكسر الروح المعنوية كما انهم وضعوا الخطط لاحتلال المرافق العامة والسـيطرة على شئون البـلاد عقب جـلاء الانجليز مباشرة اى في اليوم التالى للجـلاء ـ

٨

و ــ احتمال استعمال اليهود للغازات السامة او المسيلة للدموع وما سوف يتخــــــذه العرب ازاء ذلك •

ز ــ وجوب الاستفادة من قوة حدود شرق الاردن التى سرحت بضم اكبر عدد منهم الى قوة العرب فهم رجال اشداء البأس مدربين احسن تدريب ويخشى الصهيونيـــون باسهــم ويتجنبون دائما الاحتكاك بهم •

ح ــ يمكن الاستفادة من الاسرى الالمان الذين يفرون من القوات البريطانية او يعمل على استدراجهم للعمل مع العرب فى فلسطين فكثير منهم من الفنيين المدربين احسـن تدريب •

ط ــ وضع مصلحة فلسطين فوق الخلافات القائمة بين سماحة المفتى وبعض الشخصيات ذات النفوذ الكبير فى فلسطين حتى لا يتأثر الموقف من جراء هذا الخلاف فيكلف كــل شخص بالعمل الذى يليق بمركزه دون نظر الى اى قسم ينتمى اليه •

ى ــ انشاء قيادة فى الجنوب (منطقة النقب) على ان يعمل بها المصريون المتطوعــون لمناسبة الجو والارض ومشابهتها بالمناطق المتاخمة لحدود وادى النيل

ك ــ سرعة القضاء على المستعمرات الصهيونية الحديثة والمتاخمة لحدود مصر الشـــــرقية حتى يضمن العرب الحصول على محصولاتهم الشتوية هذا العام فوجود هذه المستعمرات خطـــر كبير عليهــم •

وتفضلوا عزتكم بقبـــول فائق الاحتـــرام ،،،

(توقيع)
بكباشى ا ح
ادارة المخابرات الحربية

١٩٤٨/٢/

تقـــــرير
عن حالة اليهـــود في فلســطين

ان الوضع الحالى بفلسطين وكذا الحوادث المتعددة التى حدثت خلال الفترة الوجيزة اثناء وجودى بها ، جعلتنى المس الاتى :—

اليهود قوم ليسوا بمهاجمين ولكنهم اصحاب مكر وخداع وقد برعوا فى اعمال النسف والتدمـــير زد على ذلك كثرة التدريب ولا يستبعد عنهم القيام بشتى الحيل من بذل المال لضعـــاف النفـــوس او تضحيتهم بشرفهم (استخدامهم نساءهم) نظير تنفيذ مآربهم شرطا ان تكون بكل تكتم وحـرص •

ورغم ذلك فلا يجرؤ اليهود من منازلة العرب وجها لوجه نظرا لما لا قوه منهم من شجاعة واقـــدام وبما اتخذ العرب نحو الفتك بجثثهم اذا ما اتيحت لهم الفرصـة •

وأن الترتيبات الحالية التى لدى اليهود ليست بترتيبات اليوم ، ولكن بالنظر اليها يرى أن النيـة كانت مبيتة عندهم منذ أمد بعيد حتى يجيئ اليوم الذى يتمكنوا من انشاء دولة تجمع اشتاتهم •

فبالنظر الى مستعمراتهم فى جميع اراضى فلسطين نراها قد اقيمت على مرتفعات او مواقع استراتيجية او تكتيكية يمكنها منها التحكم تماما والاشراف على القرى العربية وقطع المواصلات عنهــا •

ولدى اليهود داخل مستعمراتهم ما يكفيهم من مأكل ومشرب يقومون هم بخدمة انفسهم من حـــيث الزراعــة والرعـــى الخ •••

وقد قام اليهود بترحيل النساء من المستعمرات البعيدة عن المدن الرئيسية الى بلدة تل ابيت او الى بلاد اخرى خارج فلسطين (وقد لمست ظاهرة طيبة من القنصلية الملكية المصرية بالقدس وكـذا بحيفا ، من عدم مساعدتهم فى منحهم جوازات سفر الى القطر المصرى)

وقد حل فى هذه المستعمرات اليهودية النائية عدد من الرجال يمكنهم الدفاع عنها اذا ما تطلب الامر يتراوح عددهم بين ١٠ ، اكثر من ذلك حسب اهمية المستعمرة وموقعها بالنسبة للقرى العربيـــة او موقعها الاستراتيجى او التكتيكى •

التســـليح — قد تمكن اليهود على مر الايام من الحصول على كمية وافرة من انواع الاسلحة الاوتوماتيكيـة والعادية ، كالهاون ٣ بوصه والبرن ومدفع الماكينة (فى المستعمرات المهمة) والتومى والاستن والبندقيـة والالغام والقنابل اليدوية وكذا الدخان علاوة على احتفاظهم بكميات من ذخيرة هذه الاسلحـة بعـــدد وافـــر •

وقد تمكن اليهود من شراء ما يقرب من ١٢ طائرة صغيرة من الطائرات المدنية تستعمل لتمويـــن المستعمرات اليهودية البعيدة بما تحتاجه من مؤن واسلحة وذخائر • (وينتظر ان تستعمل فى مهاجمـــة القرى العربية بفلسطين بالقاء بعض انواع القنابل منها اذا ما انسحب الانجليز من فلسطين) كما يستعملها اليهود حاليا بالقاء منشورات تحذر العرب فيها بالكف عن الثورات الحالية •

ولدى اليهود ما يقرب من ١٠ سيارات مدرعة بحالة متوسطة وموزعة على المستعمرات اليهوديـــة المهمــــة •

التـــــدريب — يستنتج من الحوادث التى وقعت ان اليهود برعوا فى تدريبهم على النسف والتدمير وهذا اهم ما يلفت النظر بفلسطين علاوة على ذلك فان باختلاطهم بالقوات البريطانية فى الحرب الماضية امكنهـــم الاستفادة بقدر الامكان عن كيفية تحصين الاغراض المهمة والمبانى الخ وامكنهم تطبيق ذلك فى تحصـــين مستعمراتهم بأسس حربيـــة سليمـــة •

وتدل الحوادث التى قام بها اليهود على انها عملت تحت اشراف قيادة منظمة وتفكير سليم مع استخدام مبدئى السرية والمفاجأة .

الطـرق اليهودية المتبعة للنسف

١ـ النسف ـ تحت ستار تغيير الزى بزى عربى او ملابس عسكرية بوليس او جيش وان للسيدات اليهوديات اليد الاكبر فى بعض الاوقات وذلك بوضع المفجرات فى المكان المراد نسفه
٢ـ استخدام السيارات ـ سرقة بعض السيارات وتغيير معالمها وملئها بالمفجرات والاتيان بها بجوار المبنى او الجهة المراد نسفها ثم تركها بعد اشعال الفتيل بها حتى تنفجر وتصيب الهدف ـ
٣ـ التضليل باستخدام اشياء يمكن اخفاء المفجرات بها ـ كأوعية الالبان ، الجنط ، البرميل الخ

طريقة تحصين مستعمرة يهودية

١ـ تحاط المستعمرة باسلاك شائكة (مزدوج او مفرد) يعلق بها احيانا مصايد المغفل
٢ـ يعقبها حقل الغام (الغام للافراد او العربات) به ممرات معروفة لدى قاطنى المستعمرة فقط
٣ـ فى جميع زوايا المستعمرة اقيمت اما دشم بالمسلح او اكياس من الرمل بداخلها مختلف انواع الاسلحة تتجه نيرانها تجاه الطرق المؤدية الى المستعمرة .
٤ـ حصنت منازلها كذلك باكياس الرمل تتخللها المزاغل التى بها انواع الاسلحة الاوتوماتيكية كذلك .
٥ـ اقيم ابراج فى النقط المشرفة منها لاستخدامها كنقط ملاحظة .

وان المستعمرة اليهودية فى حراسة دائمة ، حيث يقوم افرادها فيما بينهم بالملاحظة والحراسة وخدمة انفسهم .

كيفيـة تموين المستعمرة

١ـ المستعمرة بها ما يكفيها من مأكل ووقود لمدة حوالى الشهران لم يكن اكثر حيث أن معظم المستعمرات بها مستلزماتها من المأكل (المزارع ، المرعى الخ) .
٢ـ تستخدم الطائرات اليهودية فى تموينها بما تحتاجه اكثر من ذلك سواء من التموينات او الاسلحة او الذخيرة او الامداد بالرجال (حيث مهدت الارض لنزول الطائرات)

استـنتاج

كانت نتيجة تنظيم قوات الهاجانا اليهودية والفدائيين منهم ، انهم يحاولون بقدر الامكان عدم المساس بالعرب حاليا وذلك للاحتفاظ بقواتهم واسلحتهم وذخيرتهم للوقت الذى يرونه مناسبا لاستخدامها فيه ويسود فلسطين اشاعة قوية وهي " ان قوات الهاجانا اخذت احتياطاتها من العمل على سرعة احتلال دور الحكومة والمراكز المهمة بمجرد اخلاء القوات البريطانية القدس والمدن الاخرى "

سري جداً

تقـــــرير
عن حـــــالة العـــرب فى فلســــطين

العرب بطبيعتهم قوم محبين للمغامرة متصفين بالشجاعة والاقدام ودفعتهم قضية بلادهم للمغامـرة اكثر من طبيعتهم مندفعين بحبهم لقوميتهم ، واصرارهم على عدم اغتصاب الغاصب بلادهم .

روحهم الوطنية عالية جداً ولقد دلت جميع الحوادث التى وقعت فى فلسطين انهم لا يهابوا اطـلاق النار عليهم ولا الموت ، بل يندفعوا اليه شاعرين ان الوطن يطلب منهم هذه التضحية لتخليصه مـــن ايدى الغاصـبين .

ولكن للاسف الشديد سيكون لاندفاعهم هذا دون تفكير وتريث الاثر السئ فى نفوسهم فيما بعـد ، وفعلا قد ظهر بعض الشئ ان لم يسرع فى معالجته لتفلت الفرصة من ايديهم .

وهناك بعض العقبات الهامة التى لو تحققت ازالتها لكان للعرب قوة عظيمة الشأن لا يستهان بها .

اولا التســــليح

يعوز العرب الاسلحة الاوتوماتيكية التى تتناسب مع اسلحة اليهود كالبرن والتومى ومدفع الماكينة وكذا الهاون وان لهذا السلاح الاخير الاثر الفعال ضد المستعمرات اليهودية المتحكمة تماما على القرى او المدن العربيــة .

زد على ذلك ما تحتاجه هذه الاسلحة من انواع الذخيرة .

ولقد قامت الحكومات الشرقية من جانبها بقسط وافر نحو امداد فلسطين بقدر ما تسمح به الظـــروف من مختلف الاسلحة والذخائر ولكن للاسف الشديد فقد لمست فى جولاتى بين حيفا والقدس ان شعور الاهالى غير مستريح نحو تصرف المسئولين بفلسطين لتوزيعه حيث اقتصر التوزيع على افراد قبائلهــــم والمقربين لهم دون مراعاة القرى او المدن المعدمة التسليح والتى تتعرض لهجمات اليهود باستمرار — ولقد بدأ ينفر الشعور نحو بعض المسئولين من ذوى الشخصيات العربية الكبيرة بفلسطين وانى اخشـــى ان يكون لهذا الشعور الاثر الفعال ضد القضية العربية الفلسطينية ان لم يتخذ الاجراء السريع الحاسم الذى يضمن وصول الاسلحة الى القرى والمدن الفلسطينية التى تحتاج الى اسلحة وذخائر دون غيرها —

ثانيا — التدريب

يصح لى ان اقول ان العرب ينقصهم التدريب كما ينقصهم خبرة استخدام اسلحتهم واستخدام الارض وان طبيعتهم كبدو مع افتقارهم للمرشد الذى يوجههم التوجيه الصحيح تتغلب عليهم دائما فـــى مهاجماتهم المستعمرات اليهودية والتى تعتبر كوحدات صغيرة من جيش منظم ، وتكون النتيجـة فشـل العرب الساحق والاصابات الفادحـة .

فياحبذا لو اشرف على تدريبهم اناس مختصون لهم خبرة وامكن تدريبهم فى مكان بعيد عن الاضطرابات ويصير تغييرهم باخرين كلما كمل تدريبهم لامكن استغلال روحهم العالية وشجاعتهم الطبية اكثر من ذلك وبطريقة صحيحـة

ثالثا — التدريب على اعمال النسف والتدمير .

يعوز العرب التدريب على اعمال النسف والتدمير وكيفية ازالة الاسلاك الشائكة وعمل فتحات فيها مع تخليصها من مصايد المغفل التى تتواجد بها احيانا وكذا كيفية التغلب على تلافى الوقوع فى شرك حقول الالغـام بكيفية انفجارها وانه نتيجة لجهل العرب معرفة التغلب على هذه المشاكل مع اندفاعهم دون تريث فتكون النتيجة خساراتهم الفادحـــة .

رابعا × اختيـــار القائد

ان القيادة فن خطير تعتمد على ثقة الجنود بقائدهم اذا ما فقد القائد هذه الثقة لاحقته ولازمته الخسائر وعلى القائد دائما ان يقارن بين قواته من حيث التسليح وقوة النيران وقوات خصمه والوقـــوف على مدى تدريبه العسكرى مع معرفة نواحى قوته ونواحى ضعفه فيتحين الفرصة لضربه فى ناحية ضعفـــه فى المكان المناسب منها وفى الوقت المناسب ايضـــا •

ولكن للاسف سأذكر واقعة حدثت منذ ٥ ايام تقريبا كان ضحيتها الكثير نتيجة جهل القائد العربى (حاولت قوة من القدس بقيادة احد الاعراب ان تقوم بمهاجمة مستعمرة يهودية تعتبر من المستعمرات اليهودية القوية فاتبع فى هجومه الهجوم البدوى فهجم بحوالى ٧٠ رجل مسلح دفعة واحدة فوقـــع تحت وابل نيران الاسلحة اليهودية التى اكلتهم حشرا •

وانى قد لمست من اقاويل العرب حنقهم على القائد المذكور وعلى سوء تصرفاته مع جهله باساليـــب الحرب الحديثة لاسيما فانه يعتبر بأنه يقوم بمحاربة قوات منظمة ومسلحة باحدث الاسلحة ، ولو أن روح العرب نحو قضيتهم هى التى تدفعهم وراءه ولكنه يخشى بمرور الايام ظهور روح الانقسام وعدم التعـــاون والذى بدأت تلمح به الظروف •

خامسا ـــ السرية

من طبائع العرب الفخر ولكنه يسيء اليهم احيانا دون ان يشعروا بذلك فقلما اراد واكشف عن الاغراض او الهجوم على احدى المستعمرات اليهودية دون الاعلان عنها مما يساعد اليهود بمضاعفـــة الاستعدادات ومقابلة المهاجمة بدفاع قوى يكسر شوكة المهاجم مع تكبيده الخسائر الفادحة فبذلك يضيع مبدأ المفاجـــأة •

سادسا ـــ الاحتفاظ بالقوة الضاربة لاستخدامها فى المكان المناسب وفى الوقت المناسب

تعتبر هجمات العرب الحالية فى فلسطين ما هى الا نوع من انواع الهجمات البدوية او الهجمـــات الفردية والتى يقوم بها العرب دون سابق تنظيم او قيادة مفكرة منظمة مما يكون سببا فى تكبيدهم الخسائر وكان من الاجدر بهم الاحتفاظ بهذه القوة من رجال واسلحة لاستخدامها فى المكان المناسب والوقـــت المناسب مع شيء من السرية مع استخدام مبدئى المناورة والخداع •

الخـــــلاصة يمكن تلخيص احتياجات العرب فى الاتى :ـــ

١ـــ الامداد بالاسلحة الاوتوماتيكية ومدافع الهاون

٢ـــ التدريب على الاسلحة واستخدام الارض

٣ـــ التدريب على اعمال النسف والتدمير التى هى السلاح القوى بفلسطين مع تقدير كمية المفجرات اللازمة للنسف المخرض فقط بأقل كمية ممكنة بدون تأثير انفجارها على المناطق العربية المجاورة

٤ـــ التدريب على كيفية الهجوم على اماكن محصنة قوية

٥ـــ القيادة الحكيمة التى يمكنها ان تستغل روح العرب المعنوية القوية وكذا شجاعتهم النادرة

٦ـــ انشاء مراكز للتدريب على دفعات وان جميع الاعراب يعتبرون انفسهم مجندين •

يوزباشى
امضاء ـــ (عصام حلمى المصرى)
قائد قوة الحراسة بقنصلتى القدس وحيفـــا

تقريـــــــــر

القائم مقام (أركانحرب)حافظ بكرى

عن المؤتمر العسكرى الذى عقد بعمان يـــوم أول مايـــو ١٩٤٨

محتويـــــــــات

وزارة الدفاع الوطنى
رئاسة هيئة أركان حرب الجيش
ادارة العمليات الحربية

صورة رقم (٦)
سرى جدا
— ١ —

صاحب السعادة اللواء موسى لطفى باشا مدير العمليات الحربية والمخابرات

بناء على التعليمات الصادرة لى من حضرة صاحب المعالى وزير الدفاع الوطنى والتى تقضى بانتدابى بصفة ضابط اتصال بين الجيش المصرى وجيوش الدول العربية فى الظروف الحاضرة وبناء على تعليمات معالى الوزير اتصلت بصاحب السعادة عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام للجامعة العربية قبل قيامى لهذه المأمورية لأتعرف منه على بعض التفاصيل الخاصة بموعد سفرى والبلد الذى أقصده وبعض تفاصيل أخرى أتشرف بعرضها يأتى :—

١ — تقابلت مع حضرة صاحب السعادة الأمين العام صباح يوم ٤/٢٨ وطلب الى القيام بطائرة الى دمشق ليس متأخرا عن يوم الجمعة ٤/٣٠ لحضور اجتماع المندوبين العسكريين للدول العربية بدمشق .

٢ — بعد تجهيز جواز السفر طلبت من شركة مصر حجز محل بأول طائرة الى دمشق صباح الجمعة ولكن الشركة أخبرتنى أنه لا توجد طائرات فى ذلك اليوم الى دمشق ولكن توجد طائرات الى بيروت فحجزت محلا بأول طائرة الى بيروت على أن أستأنف السفر منها بالسيارة فى نفس اليوم الى دمشق

٣ — قمت بالطائرة سعت ٠٨٠٠ صباح الجمعة الى بيروت فوصلت اليها سعت ١٠٠٠ وقابلنى بالمطار مدير الأمن العام مكلفا بتقديم المساعدة التى أطلبها . فطلبت تجهيز سيارة للقيام رأسا الى دمشق وقمت فعلا سعت ١١٠٠ فوصلت دمشق فى نفس اليوم سعت ١٢٣٠

٤ — توجهت الى وزارة الدفاع السورية كتعليمات سعادة عزام باشا ولم أجد بها أحدا وطلبت من الضابط المتوجد بها أن يتصل بوزير الدفاع السورى ليخطره بقدومى ولكنه لم يكن موجودا بدمشق فى ذلك اليوم .

٥ — توجهت للمفوضية المصرية بدمشق وتقابلت فيها مع القائم بالأعمال وهناك بطريق الصدفة اتصل بى تليفونيا القائم بأعمال المفوضية المصرية بعمان يستدعينى فورا للقيام بأسرع الوسائل اليها فقمت بالسيارة من دمشق سعت ١٨٠٠ مساء الجمعة فوصلت عمان سعت ٢٢٠٠ .

٦ — تقابلت فى عمان مع سعادة عبد الرحمن عزام باشا وتحدد صباح السبت سعت ٠٨٣٠ لاجتماع الهيئة العسكرية الممثلة لجميع الدول العربية بقصر جلالة الملك عبد الله لبحث الموقف العسكرى .

٧ — قبل اجتماع الهيئة حظيت بصحبة القائم بأعمال المفوضية بعمان بشرف المثول بين يدى جلالة ملك شرق الأردن وقد أبلغنى جلالته تحياته الطيبة وتمنياته القلبية الصادقة لأخيه الفاروق وبارك هذا التعاون بين مصر والدول العربية

- ٢ -

ثم انتحى بي جانبا وأبلغني أنه أخذ وعدا صادقا من الأنجليز بعدم تخليهم عن القدس وبيت لحم والناصرة حتى ١٥ مايو وأنهم لن يسمحوا بأي تعدي من الجانبين على هذه الأماكن المقدسة قبل هذا التاريخ ثم دعا لنا بالتوفيق .

٨- اجتمعت الهيئة العسكرية المشار اليها وموجز ما تم بحثه فيها موضح بالملحق (أ) المرفق بهذا التقرير .

٩- توالت اجتماعات رؤساء الدول العربية ويصحبهم سعادة عبد الرحمن عزام باشا وبعد عرضهم وجهات نظر الهند وبين العسكريين لهذه الدول على مسامع جلالة الملك عبد الله رفعوا التماسا لجلالة مولانا الملك فاروق الأول أن ينخذ القيادة العليا للقوات النظامية جميعها ضابط مصري وفعلا أرسل القائم بأعمال المفوضية المصرية بعمان رسالة شفرية بذلك بناء على طلب وزير خارجية شرق الأردن لوزارة الخارجية المصرية .

١٠- ملاحظاتي الخاصة بعد دراستي القصيرة مع الهيئة العسكرية وممثلينا السياسيين موضحة بالملحق (ب) المرفق بهذا التقرير .

١١- قمت بالطائرة الى القاهرة يوم ٢/٥ ومعي أربعة صور من هذا التقرير بملاحقه للتفضل بعرضه على حضرة صاحب السعادة رئيس هيئة أركان حرب الجيش بالنيابة وحضرة صاحب المعالي الوزير .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟؟

قائمقام (أ.ح)
[توقيع]

عمان في ١٩٤٨/٥/٢

— ٣ —

الملحـــــق (أ)

خلاصة ما بحثته الهيئة العسكريه للدول العربيه بقصر الرغدان
صباح السبت ١٩٤٨/٥/١

١ — اجتمعت الهيئة فى الساعه ٨٣٠ وكان حاضرا الاجتماع الآتين بعـد :—
اللـواء اسماعيل صفوت باشا قائد جيـش التحريـر
رئيس أركان حرب الجيش السورى
رئيس أركان حرب الجيش اللبنانى
رئيس أركان حرب الجيش العراقى
رئيس أركان حرب الجيش الأردنى
القائمقام (أ. ح) حافظ بكرى ممثل الجيـش المصـرى

٢ — استعرضت الهيئة الموقف فى فلسطين كما هو فى الوقت الحاضر على ضوء المعلومات التى أدلى بها قائد جيش التحرير وتناولت الهيئة بالبحث جغرافية فلسطين وطرق المواصلات والموانى ومواقع المستعمرات الصهيونيه وتحصيناتها وتنظيمات الدفاع عنها والتشكيلات الممكن استخدامها كما تطرق بحثها الى موضوع المرافق العامه لفلسطين والموانى البحريه وطرق التموين ومواقع المخازن الهامه والمصانع وخلافه .

٣ — بحثت الهيئة تكتيكات الصهيونين والأسلحه التى يستخدمونها والموارد التى يعتمدون عليها والأبواب والمسالك المفتوحه لتلك الموارد .

٤ — تناولت الهيئة بالبحث عامل الوقت وأفضل الطرق لأستغلاله كما تناولت أيضا الـروح المعنويه ووسائل رفعهـا سواء بين المقاتلين العرب أو فى شعوب الدول العربيه .

٥ — تعرضت الهيئة فى بحثها للعوامل السياسيه القريبه والبعيده والتى يحتمل أن تؤثر على قضيه فلسطين وتدخل الدول العربيه بقواتها المسلحه لعلاجها .

٦ — بحثت الهيئة موقف القوات المسلحه لكل دولة من دول الجامعه العربيه التى يمكن الاعتماد عليها فورا فى التدخل السريع وقد أدلى كل مندوب بما يأتى :—

أ — لبنـــان

٢ كتيبة مشاه كل منها مكون من ثلاث سرايا بنادق وكل سرية مكونه من ثلاث فصائل لكل فصيلة ثلاث أصناف (الجملة ٤٥٠) — ومع كل كتيبه فصيلة معاونه مسلحه بمدافع هاون ٢ر٥ " ومدافع هوتشكس .
١ بطارية مدفعيه مكونه من ٤ مدافع ١٠٥
٤ عربات مدرعـــه .
٤ دبابات ٧ طـــن .
١ جماعة مستشفى ميدان .

هذه القوة موجوده الآن فى مراكز تجمعها عند الحدود اللبنانيه الجنوبيه ومستعده للتحرك من ١٩٤٨/٥/١

ـ ٤ ـ

ومن المنتظر أن تقذف الجمهورية اللبنانيه بقوات آخرى عند الضرورة لامداد هذه القوه

ب ـ سوريا

١ لواء مشاة، مركب من كتيبتين بنفس تشكيل الكتيبه اللبنانيه
١ كتيبة مدرعة، مركبه من ٣٤ عربة قتال مدرعه و ٩ دبابات خفيفه ٧ طن وسرية مشاه (١٤٠) محموله في سيارات.
١ كتيبة مدفعيه ميدان مركبه من ٣ بطاريات لكل بطاريه ٤ مدافع ٧٥ مم
١ قسم اشارة لسواء
١ فصيلة مهندسين (ليس بها جماعة كبارى ولا جماعة تدمير)
١٠ طائرات تعاون من طراز هارفارد (مقاتله وقاذفه)

هذه القوات محتشده على حدود سوريا الجنوبيه ومستعده للتحرك من ١/٥/١٩٤٨
بعد اسبوعين يمكن للجمهوريه السوريه أن تقذف في الميدان بقوة مماثله بنفس التشكيل السابق (عدا الدبابات).

جـ ـ العراق

١ كتيبة محموله باللوريات (٨٥٠ مسلح)
١ كتيبة مدفعيه مكونه من ثلاث بطاريات وكل بطاريه بها أربعة مدافع ٢٥ رطل
١ قسم اشارة
١ سرية مهندسين وبها فصيله كبارى وفصيله تدمير.
١ مستشفى ميدان.
١ سرب طائرات تعاون الجيش.

هذه القوة محتشده على حدود فلسطين بالقرب من بلدة المفرق وجاهزه للتحرك فورا من ١/٥/١٩٤٨.
بعد اسبوعين يمكن للمملكه العراقيه أن تقذف للميدان بقوة مماثله وبنفس التشكيل السابق تماما.

د ـ شرقى الاردن

٤ كتائب مدرعة بكل كتيبه سرية رئاسة مركبه من ٣ عربات مصفحه و ٦ مدفع هاون ٣" و ٦ مدفع ٦ رطل وأربعة سرايا مدرعه بكل سريه ١٢ عربة مدرعه.
٤ سرايا مشاه محموله بكل ١٢٠ مسلح ومعهم ٤ مدفع هاون ٣".
١ قسم اشاره
١ كتيبه مدفعيه مركبه من بطاريتين ١٦ مدفع ٢٥ رطل وبطاريه ٨ مدفع ٣,٧ " ميدان
١ لواء مشاه مركب من كتيبتين بكل ٧٠٠ مسلح ومعهم رشاشات برن (هذا اللواء غير محمول).
١ فصيله مهندسين (بها جماعة كبارى وجماعة تدمير).
١ مستشفى ميدان.

— ٥ —

قسم صغير من هذه القوات موجود حاليا داخل فلسطين للتعاون مع القوات البريطانيه، فى حفظ الأمن الداخلى لغاية ١٥ مايو وباقى القوات محتشده على الحدود وجاهزه للتدخل فورا من ١٩٤٨/٥/١ .

هـ — القوات المصريه

أوضح الممثل العسكرى للجيش المصرى للهيئة العسكريه القوات المجهزه بمنطقة العريش والتى تقدر بمجموعة لواء كاملة وما معها من الأسلحه المساعدة والاداريه.

كما أوضح للهيئة ما يمكن أن تقدمه مصر من المساعدة الجويه للتعاون مع القوات الأرضيه والمساعدات البحريه لتأمين الشاطئ وأن هذه القوات مستعده للعمل من ١٩٤٨/٥/١ .

٧ — بحثت الهيئة العسكريه فى موضوع خطة تدخل القوات المسلحه وموعد هذا التدخل .

وفيما يختص بالخطه لم يكن لدى الهيئة معلومات دقيقه يعتمد عليها اعتمادا صحيحا عن حركات الصهيونيين كما سبق أوضحت ومعظم المعلومات التى أدلى بها قائد جيش التحرير غامضه تفتقر دائما الى اثبات .

وعلاوة على ذلك رأت الهيئة أن تترك التفاصيل النهائيه ترسمها للقائد الذى سيقع اختيار الدول العربيه عليه لاتخاذ القيادة العليا لهذه القوات المسلحه .

أما فيما يختص بموعد تنفيذها فقد تركت الهيئة العسكريه ذلك الى الهيئة السياسيه للدول العربيه لتحديده .

٨ — استدعيت الهيئة العسكريه بتشكيلها السابق للمثول بين يدى جلالة الملك عبد الله واشترك فى الاجتماع الهيئة السياسيه مكونه من رؤساء حكومات سوريا ولبنان والعراق وشرق الأردن ووزير الدفاع السورى كما حضر الاجتماع سعادة عبد الرحمن عزام باشا وقامت الهيئة العسكريه بشرح الموقف بالتفصيل بحثا وافيا من الناحيه العسكريه وجميع الاحتمالات القريبه والبعيده وتركت للهيئة السياسيه تقدير الموقف فيما يختص بعامل الوقت وموضوع توحيد وتنسيق القيادة العليا للقوات المسلحه والعلاقة بينها وبين قوات جيش التحرير .

٩ — رأت الهيئة العسكريه أن موضوع تحديد الخطه العامه وتفصيلاتها وكذا واجبات كل قوة من قوات الدول العربيه النظاميه والمدى الذى يمكن أن تعمل فى نطاقه عند التدخل المسلح يجب أن يترك للقائد العام الذى يقع عليه اختيار دول الجامعه العربيه .وأنه بالنسبه لأن الوقت عامل حيوى هام جدا لأسباب كثيره غير خافيه فان الهيئة ترى أنه يجب أن لا يتأخر البت فى تعيين هذه القيادة بأسرع ما يمكن .

١٠ — بالنسبه لأن كل من مينائى حيفا ويافا هما البابان البحريان لتموين القوات الصهيونيه من جهة البحر فقد بحثت الهيئة العسكريه فيما يجب عمله من الاحتياطات التى تفرضها الأعمال العسكريه للجيوش النظاميه داخل حدود فلسطين لعرقلة عمل هذين المينائين فى انزال المؤن والعتاد بهما للقوات الصهيونيه وتركت موضوع احتمال ضربهما أو ضرب السفن التى تقترب منهما من الجو أو الأرض وكذا موضوع اعلان تحريم اقتراب سفن من أى نوع فى حدود مياههما الأقليميه لجميع الدول للهيئة السياسيه للدول العربيه على أن يتم ذلك القرار قبل ابتداء الأعمال العسكريه للقوات النظاميه .

— ٦ —

١١ — رأت الهيئة العسكريه أن نجاح الأعمال العسكريه فى فلسطين يتوقف الى حد كبير على المجهود الكبير لوحدات المهندسين فى القوات المنظمه وأنه يجب أن تكون تلك الوحدات مجهزه تجهيزا تاما بأدوات تدمير وأدوات اقامة معابر من مختلف الأنواع وأن يعنى عناية فائقة فى استكمال أفرادها وعدداتها وتواجد احتياطى كبير لها •

١٢ — أوصت الهيئة العسكريه بضرورة فرض رقابه شديده على الانباء التى تذاع عن تحركات القوات المنظمه وبالاخص فى الوقت الحاضر حتى لا تتعرض تلك القوات للخطر أو تتأثر نجاح العمليات الحربيه بسبب هذه الاذاعات المخله •

١٣ — انسحبت الهيئة العسكريه من الاجتماع وبقيت الهيئة السياسيه مجتمعيه برئاسة جلالة الملك عبد الله — وقد عقدت الهيئة السياسيه اجتماعا ثانيا بعد الظهر وطلب على أثره وزير خارجيه شرق الأردن من القائم بأعمال المفوضيه الملكيه المصريه بعمان ارسال تلغراف للقاهره يلتمسون فيه تعيين قائد عام مصرى لجميع القوات المسلحه للدول العربيه •

— ٧ —

الملحق (ب)

ملاحظاتي الخاصة

استلفت نظري أثناء اجتماعي بالهيئة العسكريه بعمان ما يأتي :—

أولا — المعلومات

١ — رغم أن قوات جيش التحرير تقوم بعملياتها منذ عدة شهور داخل فلسطين فلا زالت المعلومات عن قوات الصهيونيين وتنظيماتهم ودفاعاتهم وطرق تموينهم ومواقع مخازنهم ومصانعهم يكتنفها كثير من الغموض .

٢ — يوجد كثير من المعلومات لدى الممثلين السياسيين ومثلها لدى السلطات المحليه كما أن كثير من المعلومات تصل عن طريق مندوبي الصحف وشركات الأخبار المحليه والأجنبيه وعند الأهالي وعلى الأخص المقاتلين منهم في الوقت الحاضر أو اللاجئين الفلسطينيين . ولكن معظم تلك المعلومات متضاربه والحاجه ماسه الى ايجاد نظام يكفل تنظيم استقاء المعلومات من أي مصدر ثم تحليلها تحليلا دقيقا والخروج بمعلومات يمكن الاعتماد عليها الى حد كبير لنجاح أي عمليه حربيه .

ثانيا — الروح المعنويه

١ — كانت الروح المعنويه لدى العرب المقاتلين الى عهد غير بعيد عاليه — وبعد نجاح بعض عمليات الصهيونيين وخصوصا الانتقاميه منها في جهات حيفا وضواحي القدس ويافا وما ترتب على ذلك من تدفق سيل كبير من المهاجرين من تلك المناطق وما حولها على البلاد العربيه المجاوره أخذ الرعب يدب في قلوب العرب المتوطنين شمل بعض القادرين منهم على حمل السلاح .

٢ — وعندما شعر العرب بعزيمة الدول العربيه لاستخدام قواتها المسلحه بدأ الشعور يتحول وأعيدت الطمأنينه الى المقاتلين العرب وفي الوقت نفسه أخذ الذعر سبيله الى قلوب الصهيونيين مما دعا وكالتهم أخيرا الى الاستنجاد بهيئة الامم المتحده لوقف هذا الزحف .

٣ — كان للتحركات التي قامت بها الجيوش العربيه لمناطق الحشد بالقرب من الحدود أثر كبير في نفوس الأمم العربيه وقوات العرب المقاتله .

٤ — وصلت صبيحة يوم قيامي من عمان الى القاهره القوات العراقيه المزمع اشتراكها في عمليات فلسطين وكان لحضورها في عاصمة المملكة العربيه الأردنيه أثر كبير في النفوس .

ثالثا — القوات النظاميه

١ — تختلف القوات النظاميه للدول العربيه في تنظيمها وتسليحها فبعضها منظم ومسلح تنظيما وتسليحا فرنسيا مثل قوات لبنان والبعض الآخر على النظام الانجليزي مثل قوات العراق وشرق الاردن والبعض خليط بين هذا وذاك مثل القوات السوريه .

-٨-

٢ - عمليات فلسطين تحتاج كثيرا الى وحدات من المهندسين وأدوات هندسة ميدان وهذه غير متوفرة كثيرا فى كل من سوريا والعراق وشرق الأردن ومعدومة تماما فى لبنان .

٣ - ذخيرة المدفعية بواقع ٢٠٠ طلقة لكل مدفع ٢٥ رطل بالقوات العراقية وقد أبدى رئيس هيئة أركان حرب الجيش العراقي أن حكومته طلبت كميات من هذه الذخيرة من وراء البحار وانها فى طريقها الى العراق ولكنها لم تصل .

٤ - عمليات فلسطين تفتقر الى سرعة تحرك القوات المنظمة على الطرق بداخل فلسطين وهذا يستدعى توفر السيارات لنقل الجنود وتنظيم عمليات النجدة على الطرق .

٥ - اذا تقرر انشاء قيادة عامة عليا لهذه القوات المسلحة فمن الضرورى جدا ايجاد ضباط اتصال عن كل جيش يعملون بين القيادة المذكورة وبين القوات التابعين لها ويكون هؤلاء الضباط معهم وسائل الاتصال اللاسلكى اللازمة .

٦ - تميل حكومتى سوريا ولبنان ميلا شديدا على البدء فى عمليات قواتهما المسلحة قبل ١٥ مايو للفوز بنصر سريع - هذه المسألة يجب أن تترك لقرار القائد الأعلا للقوات النظامية لكى يقدرها التقدير الصحيح بعد التفكير فى الاعتبارات السياسية والعسكرية التى قد تنشأ من هذه الحركة سواء على هاتين القوتين بالذات أو على الروح المعنوية لباقى القوات النظامية أو المتطوعين بصفة خاصة وعلى الشعوب العربية بصفة عامة .

٧ - يميل ممثلونا السياسيون فى البلاد العربية طبقا للمعلومات التى لديهم الى عدم توريط الجيش المصرى فى عمليات فلسطين وترك هذا الشيء أو أكثره على جيش شرق الأردن لجملة اعتبارات أهمها .

أ - انه جيش منظم تنظيما انجليزيا ومسلحا تسليحا جيدا .

ب - أن بريطانيا تشرف عسكريا وماليا على هذا الجيش وأنه اذا قام بعملياته فقد تغمض بريطانيا عينها وتعززها سرا .

جـ - أن شرقى الأردن لها مطامع فى فلسطين سبق أعلنتها .

د - التنافر الشديد بين ملك شرقى الأردن وبين والمفتى .

ولكن التصريحات الأخيرة لجلالة الملك عبد الله وكذلك النطق السامى الملكى لرؤساء الحكومات العربية فى اجتماعهم الأخير بالقاهرة قضى على هذه الشائعات وأصبح ممثلونا السياسيون أميل الى اشتراك قوات الجيش المصرى الى حد ما فى العمليات وعلى الأخص بعد التشريف الذى شرفه جلالة الملك عبد الله بالتماس تعيين القيادة العليا من جيش مصر .

٨ - القوات العراقية تبدوا أقل مما كان منتظرا ولكن عند بحث ذلك مع رئيس أركان حرب القوات العراقية علمت أن الحالة الداخلية فى العراق توجب شدة التحفظ فى استخدام قواتهم العسكرية خارج الحدود وعلى الأخص لوجود عناصر كثيرة من اليهود فى داخلية البلاد نفسها .

٩ - كان جلالة الملك عبد الله يميل الى استخدام قواته النظامية من أول مايو الجارى وذلك بعد اتفاقه مع سمو الوصى على عرش العراق لارسال لوائين من القوات العراقية لحفظ الأمن الداخلى والنظام فى داخل المملكة العربية الأردنية حتى يمكن أن يخلى قوات شرق الأردن جميعا لعمليات فلسطين حتى ولو لم تتقدم باقى الدول العربية بالمساعدة .

ولكن جلالته اقتنع أخيرا بضرورة تعاون كل القوات فى الموعد الذى يتم الاتفاق عليه وطبقا

— ٩ —

للخطه العامه التى توضع بمعرفة القيادة العليا

١٠ — الوقت عامل هام جدا فى عمليات فلسطين بقصد الوصول الى نصر سريع يضع هيئة الأمم المتحده أمام الأمر الواقع ويقطع عليها التردد المشاهد فى اجتماعات مندوبين مجلس الأمن وتلمس الحلول المختلفه .

وهذا العامل أيضا يستخدمه الصهيونيون لنفس الأسباب .

رابعا — قوات جيش التحرير

١ — تعمل هذه القوات فى الوقت الحاضر تحت قيادة اللواء اسماعيل صفوت باشا رئيس أركان حرب الجيش العراقى سابقا يساعده فوزى بك القاوقجى ولكن أسلحتها ضعيفه جدا بالنسبه لأسلحه وتكنيكات الصهيونيين وقوة الهاجانا واستحكاماتهم القويه .

٢ — يمكن أن تستفيد القوات النظاميه قبل تقدمها لداخل فلسطين بقوات المتطوعين التى تعمل أمام مقدمات القوات النظاميه وعلى مسافات بعيده فى المراحل الأولى للتقدم بشرط أن يزودوا بأسلحه معاونه خفيفه ويرافقهم بعض جماعات من المهندسين .

٣ — المقاتلين العرب داخل فلسطين روحهم قوية وتنقصهم الأسلحه والتوجيه الصحيح لتستفيد منهم القوات النظاميه الى أبعد حد .

٤ — ظهر أخيرا أن قوات الهاجانا تدفع مبالغ طائله لبعض الخارجين من العرب للحصول على معلومات تفيد عملياتهم — مثل هؤلاء الخوارج لن تخلو منهم أى دوله .

خامسا — المستعمرات الصهيونية

١ — معظم المستعمرات الصهيونية موجوده بكثافة ظاهرة فى :—

أ — المنطقة الساحلية بين حيفا شمالا ويافا وتل أبيب جنوبا وهى حاكمة على الطريق الساحلى والخط الحديدى الموصل من هذين البلدين

ب — منطقة القدس والناصرة وبيت لحم

جـ — جميع الطرق الرئيسية التى تربط كل من القدس وتل أبيب وحيفا .

٢ — السبب فى ذلك هو ضمان وصول المواد الغذائية التى ترد من المناطق الشمالية الشرقية حيث تكثر الخضراوات والألبان والأغذية الأخرى .

وكذلك لتأمين الطرق التى تمر فيها قوافلهم المسلحة تحمل الأسلحة والعتاد وقطع الغيار التى يصنع أغلبها فى مصانعهم الموجوده بتل أبيب الى باقى قواتهم الموجوده بالمستعمرات الأخرى .

٣ — جميع سكان المستعمرة بما فيهم النساء مدربين على العمل لو هوجمت المستعمرة من مخابئ تحت الأرض وبأسلحة خفيفة متوفرة لديهم ويمكن أن يستمروا على هذه الحالة الى مده تتناسب مع مواد التموين الموجوده بكل مستعمرة حتى تصلهم نجدات قوات الهاجانا .

٤ — معظم نقط المستعمرة يحمى بعضها بعضا وحول كل مستعمرة نطاق من الأسلاك بعضها مكهرب والأسلحة النارية تطلق من المنافذ والمزاغل الموجوده بالمبانى .

٥ — فيما عدا المناطق التى تكثر فيها المستعمرات بالكثافة المشار اليها فأنه يوجد مستعمرات أخرى

- ١٠ -

٢ ـ خط أنابيب البترول الممتد من العراق يمر بالأراضي الفلسطينية في طريقه الى حيفا وقد اشتدت حاجة الصهيونيين مؤخرا الى البترول وعلى الأخص بعد أن هاجر العمال العرب الذين يعملون في مناطق التكرير بحيفا مما اضطر السلطات هناك الى تقييد صرفه تقييدا شديدا في جميع البلاد العربية المجاورة •

وقد علمت أثناء أقامتي بعمان أن قوات الهاجانا استطاعت بعد مجهود أن تحصل من الشركة على ما يقرب من ٢٠ ألف جالون منه ولا يعرف بالضبط مقدار المخزون لدى الصهيونيين منه •

ثامنا ـ موعد التدخل

١ ـ يؤثر على تحديد هذا الموعد ثلاث عوامل • ـ

أ ـ العامل السياسي وهذا متروك أمره للهيئات السياسية

ب ـ العامل العسكري وهو يقضي بالتدخل فورا بقصد الحصول على نصر حاسم سريع يقضي على آمال الصهيونيين في أقامة دولة يهودية ووضع هيئة الأمم المتحدة أمام الأمر الواقع

جـ ـ عامل الروح المعنوية بين البلاد العربية وهذا يقضي بسرعة التدخل أيضا •

تاسعا ـ توحيد القيادة العليا

١ ـ من أهم الأمور توحيد القيادة العليا بين الجيوش العربية وتنسيقها وهذا يتطلب سرعة البت حتى لا يسبقنا الوقت •

٢ ـ أذا عينت القيادة العليا من مصر ففي هذا المزايا الآتية • ـ

أ ـ أظهار الكفاءة المصرية ورفع شأن قواتها المسلحة بين الدول العربية •

ب ـ هذه القيادة ستكون موضع احترام وتقدير كافة القوات العسكرية للبلاد العربية وبالأخص سوريا ولبنان وشرق الأردن •

جـ ـ يستطيع القائد المصري العام ألا يورط القوات المصرية أكثر مما تستلزمه سلامة تلك القوة ونصيبها في العملية.

عاشرا ـ المواصلات اللاسلكية

١ ـ يوجد بالقدس الآن تحت تصرف القنصلية المصرية جهاز لاسلكي للاتصال برئاسة الجيش المصري بالقاهرة ومن المحتمل أذا تحرجت الحالة بفلسطين في الأيام القليلة المقبلة بسبب تدخل القوات المسلحة أنسحاب هذا الجهاز بأفراده الى جهة أخرى خارج فلسطين •

١ ـ طلب مني القائم بأعمال المفوضية المصرية بعمان ضرورة أرسال جهاز لاسلكي آخر لتلك المدينة على أساس أنها أصبحت مركز الاتصالات المباشر للقاهرة وأني أعزز هذا الطلب على أن يتم بغاية السرعة وفي هذه الحالة يمكن أن تنشأ مواصلات بين مفوضيتنا بعمان والقدس والقاهرة

— ١ —

الموقف العــــام

فى المؤتمر العسكرى الذى عقد بقصر رئاسة الجمهورية السوريه بدمشق سعت ١٥٠٠ يوم الاثنين ١٠ مايو سنة ٩٤٨ برئاسة الفريق صالح صائب باشا رئيس اركان حرب الجيش العراقى وحضرة رئيس اركان حرب الجيش العربى الاردنى واللواء نور الدين محمود باشا من الجيش العراقى واللــــواء اسماعيل صفوت باشا ومندوبى الجيش السورى واللبنانى والمصرى واستمر لنهاية الساعه ١٩٠٠ اعيد النظر فى الموقف العسكرى العام ويتلخص فيما يلى . —

العــدد

١ — قدرت القوات اليهوديه مابين هاجانا واشترن وارجون التى تقاتل من مستعمراتها المنتشــرة فى انحاء فلسطين بحوالى ٤٠ الف .

٢ — قدرت العربات المصفحة بما فى ذلك ماتم صنعه داخــل فلسطين بحوالى ٤٠٠

٣ — قدرت الدبابات الموجــوده لدى القوات اليهوديه بحوالى ٥٠ معظمها اصله جرارات زراعية

٤ — قدرت الطائرات بحوالى ٢٠ طائرة خفيفه ومسلحه تسليحا خفيفا ولم تشاهد اى قاذفات او مقاتلات خفيفة .

٥ — لم يستدل لغاية الآن على وجود مدفعية ثقيلة او مدفعية ميدان من اى نوع ولم تشاهد فى اى معركة من معارك فلسطين الداخليه .

٦ — قدرت القوات الاحتياطيه السريعة الحركة (قوة البالماخ) بحوالى فرقتين احداهما آليه والاخرى مدرعــة وهذه القوات لم تظهر لغاية الآن فى الميدان ولا يعرف محل تجمعــاتها ولكن يعتقد ان مراكزها بمنطقة تل ابيب وغير معلوم عددها ولا تشكيلها .

٧ — قدر احتياطى آخر وراء البحار وغير معلوم عدده وينتظر ابحاره من الموانى الاوربيه القريبه

٨ — معظم المستعمرات محصنه تحصينا قويا بالاسمنت المسلح وتعمل منها الرشاشات والاسلحه الاتوماتيكيه الاخرى ومحاطة بسياجات بالاسلاك الشائكه من الاسلاك بعضها مكهرب وبداخل هــــذه التحصينات اقبية تحت الأرض واتضح ان المدفع ٧٥ مم لم يؤثر على مبانى هذه الحصون .

تكتيكات العــدو

١ — انحصر نشاط اليهود لغاية الآن فى اقامة التحصينات حول مستعمراتهم وحماية القوافل التى تعمل بين تل ابيب وحيفا ومنطقة الحوله وبين القدس وباقى المستعمرات المبعثرة داخــل فلسطين بالمنطقه اليهوديه بواسطة العربات المصفحة .

٢ — نظمت مستعمراتهم بحيث تعطى دفاعا متبادلا بين مبانى المستعمرة الواحدة كما نظمت الحراسة فيها بشكل عسكرى .

٣ — يهتم اليهود بالمحافظه على طرق المواصلات التى تربط مستعمراتهم لضمان تموينها ومعظم قتالهم الآن الغرض منه المحافظة على تلك الطرق والاستيلاء على جميع النقط التى تتحكم فيها لضمان وصول التموين والعتاد منها واليها .

— ٢ —

٤ ــلم ينجح اليهود للآن فى قتالهم فى العراء مع قوات تعادلهم عددا من العرب رغم تفوق اليهود فى الاسلحه وخفة الحركة ٠

٥ ــ يمتاز اليهود بسرعة تحركاتهم من منطقة لأخرى بوفرة مالديهم من العربات ٠

٦ ــيعمل مع اليهود الآن نساءهم بشكل مجندين وتدل المعلومات الاخيرة انهم اعلنوا تعبئة عامة تشمل القادرين على حمل السلاح من الرجال والنساء بين سن ١٧ و ٢٥ سنة ٠

٧ ــ معظم قوات اليهود مدربة تدريبا حسنا ولهم خبرة بفنون القتال مكتسبة من اشتراكهم فى الحرب الاخيرة ٠

موارد اليهود

١ ــ التموين يصلهم من منطقة الدولة كما يصل ايضا من البحر عن طريق ميناء تل ابيب وتدل المعلومات الاخيرة انهم اجروا تحسينات فى تلك الميناء ولهم بعض الزوارق المسلحه لحراسة الميناء

٢ ــ منطقة المصانع تقع فى او بالقرب من تل ابيب وفيها تصنع قطع الغيار للاسلحه والسيارات والادوات الاخرى

٣ ــ يوجد بعض المصانع والمنشئات العسكريه داخل البساتين بحيث يتعذر رؤيتها من الجو

٤ ــ كثير من اسلحة اليهود وعتاد هم مشترى من مخلفات القوات العسكريه المتحالفه ٠

التشكيلات والقياده ٠

١ ــ لا يعرف لغاية الآن نظام التشكيلات اليهوديه ولكن المعلوم انهم يعملون فى قولات قويه ولم يصطدموا لغاية الآن بقوة مماثلة ٠

٢ ــ روحهم المعنويه عاليه ويعملون بنظام دقيق ٠

٣ ــ قيادتهم غير معلوم مقرها بالضبط ولا اشخاص القواد ويمتازون بالتكتم الشديد ولهم اعوان ماهرين حتى بين عرب فلسطين انفسهم ٠

— ٣ —

قــواتنـــا

أ ــ القوات الغير نظاميه

١ ــ حوالى ١٥٠٠ متطوع بجهة صفد ــ ديرحنا ــ النبى يوشع ــ عكا (تحت قيادة قائد المنطقه الشماليه)
٢ ــ " ٢٠٠٠ متطوع بجهة تل كرم ــ جنين ــ نابلس ــ ليجون (تحت قيادة القاوقجى)
٣ ــ " ٥٠٠ متطوع عبارة عن حاميات مبعثرة بين يافا وبيسان واللد
٤ ــ قوات شعبية ليس لها قيادة منظمة ولا ارتباط ولا يعتمد عليها كثيرا
٥ ــ اسلحة هذه القوات عبارة عن بنادق قديمة ومختلفة الماركات وبعض الرشاشات والهاون وبعضها ثمانية مدافع ٧٥ مم
٦ ــ الذخائر بانواعها قليله ومحدودة

ب ــ القوات النظاميـــه

١ ــ سبق اوضحتها فى تقريرى السابق عن كل من لبنان وسوريا والعراق وشرق الاردن
٢ ــ فيما يختص بالقوات السوريه قد تبين من زيارتى لقوتها الاليه فى تشكلاتها ما يأتى :ــ
أ ــ كتيبة المصفحات مركبه من سرية بها ١٧ مصفحة خفيفة طرز مارمون مسلحه بمدفع ٤٠ مم ومدفع برونلج ورشاش FM ٢٤ / ٢٩
وسرية اخرى مركبة من ٦ مصفحة خفيفة مارمون و ١١ مصفحة ددج تصفيحها محليا وهذه السريه تسليحها خليط من الهوتشكس والبرونلج و ٤٠ مم
وسرية دبابات رينو ٣٥ تزن ١٠ طن مكونه من ١٣ دبابه ومسلحه بمدفع ٤٠ مم وفـــى بعضها مدافع هوتشكس والبعض الآخر برونلج وليس بهذه السرية اى اجهزة لاسلكى خـــلاف دبابة القائد ــ هذه الدبابات تستطيع العمل لمدة سبعة ساعات ولها حاملة دبابات ولديهم منها ٩ حاملة ولكل دبابة ١٠٢ طلقه ما بين شرابنل وطرقى وخارقة دروع بخلاف ذخيـرة البرونلج
وسرية مشاه محمولة (١٤٠ مقاتل) سلاحها الرشاشات والهاون ٦٠ مم والبنادق
وسرية شؤون ادارية
ب ــ كتيبة المدفعية سبق ذكرت تشكيلها فى تقريرى السابق واضف عليه ان قوة البطارية ٤ ضبـاط و ٨١ عسكرى والمدافع تحمل على سيارات او تجر فى ميدان المعركة ولكل مدفع ٢٠٠ طلقـــة فى الخط الاول و ٣٠٠ طلقه فى الخط الثانى
جـ ــ حالة السيارات السوريه لا بأس بها وان كان الكاوتش فى حالة متوسطة
د ــ التدريب فى وحدات المدفعيه غير معتنى به وبالاخص ضبط وربط النيران
هـ ــ الادوات معظمها فرنسى بحالة متوسطة
و ــ بنادق وحدات المدفعية من الطراز القديم بخزنة ذات خمسة طلقات
٣ ــ لم يتيسر لغاية الآن زيارة القوات العراقيه او الاردنية لمعرفة تفاصيل اسلحتها المختلفه وكفاءة قواتها من الناحيـة العسكريـــه .

ـ ٤ ـ

مناطق التجمع ومراكز الحشد

١ ـ لازالت القوات النظاميه متجمعة فى مراكزها السابق الاشارة اليها بتقريرى السابق وجاهزة للتحرك منها الى اماكن الحشد فى ظرف ساعتين من صدور الامر الى كل منها

٢ ـ بسبب الاعتبارات والتيارات السياسيه لم يصدر لغاية الآن اى امر لتحرك هذه القوات الى المراكز التى تبدأ منها العمليات الحربيه

٣ ـ لم تتخذ لغاية الآن اية اجراءات تمهيديه لاستكشاف مناطق الحشد وتأمين المعابر التى سوف تجتازها كل قوة عند بدء عملياتها داخل فلسطين

٤ ـ لم يعمل اى استكشاف جوى او تصوير جوى لمعرفة المناطق العسكريه الحيوية التى يجب ان تكون هدفا ابتدائيا لستر تقدم القوات الارضيه او لتدمير روح العدو المعنويه وتعطيل تحركاته عند بدء القتال ٠

تنسيق الخطط العسكريه

١ ـ دارت مناقشات طويله حول تحديد الغرض قبل تنسيق الخطط العسكرية وهل هو القضاء على العدو نهائيا او حصره وتجويعه حتى يستسلم او الفوز بنصر جزئى سريع حاسم لصالح القضيه السياسيه

٢ ـ تم الاتفاق فى المؤتمر العسكرى على ان الغرض من اشراك القوات النظاميه فى القتال هو سرعة الحصول على نتائج عسكرية لصالح قضية فلسطين من وجهة نظر دول الجامعة العربيه قبل ان يكون تدخل هيئة الامم المتحدة او مجلس الامن حقيقية فعليه ٠

٣ ـ روعى لتنفيذ هذا الغرض عامل الوقت واوضاع القوات النظاميه وكفاءتها كما روجعت الاهداف على خريطة فلسطين التى يجب الاستيلاء عليها او تدميرها تحقيق الغرض المطلوب

٤ ـ دارت مناقشات كثيرة حول تفاصيل الخطة ومراحلها والواجبات المطلوبة من كل قوة بعد دراسة مواقع استحكامات العدو وطبيعة ارض العمليات ٠

واتفق المؤتمر على الخطة الآتيه :ـ

أ ـ القوات اللبنانيه

تتقدم داخل اراضى فلسطين على الطريق الساحلى لعزل المستعمرات الشماليه عن حيفا ومراقبة حدود لبنان وانشاء اتصال بينها وبين القوات السوريه ٠

ب ـ القوات السوريه

تتقدم عبر الاراضى اللبنانية لداخل فلسطين لقصد عزل مدينة صفد والمستعمرات الواقعه شمالها وجنوبها الى بحيرة طبريه عن باقى فلسطين وانشاء اتصال بينها وبين القوات اللبنانيه

جـ ـ القوات العراقيه والاردنيه

تشكل منها قوة ضاربة قوية تجتاز نهر الاردن متجهة الى العفوله لقطع شريان المواصلات اليهوديه بين حيفا وبيسان وبين تل ابيب وباقى المستعمرات المتصلة بها ٠

— ٥ —

د — القوات المصـــــريه

تتقدم الى المجدل مع تأمين جناحها الايمن عند بير سبع — الخليل لتطهير هذه المنطقـــه

هـ — يعاون السلاح الجوى القوات الارضيه لبلوغ اهدافها وتأمين تحركاتها .

و — يعاون السلاح البحرى المصرى فى تأمين الشاطئ وبراقبة عدم نزول او افلات اى قوات من البحر على الجناح الأيسر للقوات المصـــريه

ز — ينشأ اتصـــال وثيق بين قيادة القوات النظاميه وقيادة قوات التحرير لضمان تعاون القوتين فى عملهما المشترك .

ح — يتولى الجيش العربى الاردنى مراقبة مداخل مدينة القدس

ط — تتخذ التدابير الضروريه لضمان عدم تدخل القوات الشعبيه بقصد النهب والسلب او تعطيل تحرك القوات النظاميـــه مع كفالة ادارة البلاد المحتلة بطريقة تضمن سلامة القــوة .

ى — تقوم الطائرات بضرب تمهيدى قبل سعت الصفر على المراكز الصناعيه الهامه لليهود وبالاخـــص منطقة تل ابيب .

ك — تبقى منطقة حيفا وميناها خارج الحدود بالنسبة لاى عمليات حربيه .

العـــوامل والمؤثـــرات .

١ — لازالت الحالة السياسيه تؤثر بشكل واضح على الخطط العسكريه وبالاخص الموعد الذى يجب ان تنفذ فيه لجملة اعتبارات اهمها .

أ — المدى الذى يجب ان تصل اليه القوات النظاميه فى تدخلها المسلح .

ب — ماينتظر ان تقوم به القوات النظاميه اذا تدخلت قوات خارجيه .

جـ — الاحتياطات التى لم تتخذ للآن لقفل موانى حيفا وتل ابيب فى وجه الامدادات اليهوديه او مهاجرى اليهود غير الشرعيين الذين قد يتسربوا الى فلسطين عن طريق هذين المينائين .

د — مايجب ان يتخذ داخل البـلاد العربيـــه المشتركة قواتها فى القتال فعلا لتأمين الجبهة الداخليـــة ضد عناصر اليهود المتطرفة .

هـ — تبادل الثقه بين البلاد العربيه وبعضها البعض من اول الشوط لآخره لتنفيذ الغرض المشترك

القيــــاده العامــــــة .

١ — بعد ان تأخر الرد المصرى صرح صاحب السعاده وزير الدفاع العراقى للمؤتمر انه قد تعين اللواء نور الدين محمود باشا قائدا عاما للقوات النظاميه تحت اشراف الفريق صالح صائب باشا وان يكون اسماعيل صفوت باشا رئيس اركان حرب القوات .

٢ — اعلن رئيس اركان حرب القوات الاردنيه انه مفوض من قبل جلالة الملك عبد الله ان يعترض على هذا التعيين وان القائد العام هو جلالة الملك عبد الله

٣ — تقرر ان يترك تحديد شخصية القائد العام مؤقتا وان يقوم اللواء نور الدين محمود باشا باعمال القياده تعاونه هيئة اركان حرب تمثل الجيوش النظاميـــه .

— ٦ —

٤ — راى الجانب المصرى بعد بحث طويل ان رئاسة اركان حرب القوات ينبغى ان تسند لضابط مصرى كبير كفوء لادارة العمليات تحت اشراف وتوجيه القائد العام .

ساعة الصفر

١ — تقرر ان تكون ساعة الصفر هى سعت يوم

٢ — يتولى الآن اللواء نور الدين محمود باشا تحضير التعليمات المطلوب اصدارها لحشد القوات فى مناطق الحشد واجراء الاستكشافات الضروريه ومن المنتظر ان تصدر بين ساعة واخرى .

٣ — يجب ان تكون جميع القوات على استعداد للتحرك لمناطق الحشد فى ظرف ساعتين ومطلوب اصدار امر انذارى بذلك للقوات المصريه على ان يكون ذلك ابتداء من سعت ١٢٠٠ يوم ١٢ /٥

٤ — تعطى تعليمات سريعه لقوات المتطوعين بالتقدم فى فلسطين لعمل ستارة امام القوات النظاميه واستكشاف مراكز المقاومة او تطهير الجيوب وتكون هذه القوات على اتصال وثيق بقيادة القوة النظاميه التى تعمل امامها .

مركز الرئاسة للقياده العامه .

١ — مفتوح حاليا بجهة المفرق

٢ — مطلوب تعيين الاتى بعد للعمل بمركز رئاسة القياده اعتبارا من سعت ١٢٠٠ يوم ١٣ /٥

أ — ضابط يمثل سلاح الطيران المصرى .
ب — " " السلاح البحرى
جـ — " اركان حرب مساعد
د — ٢ ضابط اشارة احدهما بالقياده والاخر بدمشق
هـ — ٢ جهاز لاسلكى
و — طيارة خاصة من السلاح الجوى
ز — الخرائط اللازمة
ح — عمل اصطلاحات كوديه

قائم مقام (١٠ ح)

ممثل الجيش المصرى بالقياده العامة

دمشق
١١/٥/١٩٤٨

صورة منه بتقرير هاتفيد امر معالى الوزير تحفظ بالملف
١٣/٥/٤٨

— ١ —

الموقف العـــام

فى المؤتمر العسكرى الذى عقد بقصر رئاسة الجمهورية السوريه بدمشق سعت ١٥٠٠ يوم الاثنين ١٠ مايو سنة ١٩٤٨ برئاسة الفريق صالح صائب باشا رئيس اركان حرب الجيش العراقى وحضرة رئيس اركان حرب الجيش العربى الاردنى واللواء نور الدين محمود باشا من الجيش العراقى واللـــواء اسماعيل صفوت باشا ومندوبى الجيش السورى واللبنانى والمصرى واستمر لنهاية الساعه ١٩٠٠ اعيد النظر فى الموقف العسكرى العام ويتلخص فيما يلى : —

العـــدد

١ — قدرت القوات اليهوديه ما بين هاجانا واشترن وارجون التى تقاتل من مستعمراتها المنتشرة فى انحاء فلسطين بحوالى ٤٠ الف .

٢ — قدرت السريات المصفحة بما فى ذلك ماتم صنعه داخل فلسطين بحوالى ٤٠٠

٣ — قدرت الدبابات الموجودة لدى القوات اليهوديه بحوالى ٥٠ معظمها اصله جرارات زراعية

٤ — قدرت الطائرات بحوالى ٢٠ طائرة خفيفه ومسلحه تسليحا خفيفا ولم تشاهد اى قاذفات او مقاتلات خفيفة .

٥ — لم يعتقد لنهاية الآن على وجود مدفعية ثقيلة او مدفعية ميدان من اى نوع ولم تشاهد فى اى معركة من معارك فلسطين الداخليه .

٦ — قدرت القوات الاحتياطيه السريعة الحركة (قوة البالماخ) بحوالى فرقتين احداهما الية والاخرى مدرعة وهذه القوات لم تظهر لنهاية الآن فى الميدان ولا يعرف محل تجمعاتها ولكن يعتقد ان مراكزها بمنطقة تل ابيب وغير معلوم عددها ولا تشكيلها .

٧ — قدر احتياطى آخر وراء البحار وغير معلوم عدده وينتظر ايراده من الموانى الاوربيه القريبه

٨ — معظم المستعمرات محصنه تحصينا قويا بالاسمنت المسلح وتعمل منها الرشاشات والاسلحه الاتوماتيكيه الاخرى ومحاطة بسياجات متواليه من الاسلاك بعضها مكهرب وبداخل هـــذه التحصينات اقبية تحت الارض واتضح ان المدفع ٧٥ مم لم يؤثر على مبانى هذه الحصون .

تكتيكات العـــدو

١ — انحصر نشاط اليهود لنهاية الآن فى اقامة التحصينات حول مستعمراتهم وحماية القوافل التى تعمل بين تل ابيب وحيفا ومنطقة الحوله وبين القدس وباقى المستعمرات المبعثرة داخـــل فلسطين بالمنطقه اليهوديه بواسطة العربات المصفحة .

٢ — نظمت مستعمراتهم بحيث تعطى دفاعا متبادلا بين مبانى المستعمرة الواحدة كما نظمت الدراسة فيها بشكل عسكرى .

٣ — يهتم اليهود بالمحافظه على طرق المواصلات التى تربط مستعمراتهم لضمان تموينها ومعظم قتالهم الآن الغرض منه المحافظة على تلك الطرق والاستيلاء على جميع النقط التى تتحكم فيها لضمان وصول التموين والعتاد منها واليها .

— ٢ —

٤ — لم ينجح اليهود للآن فى قتالهم فى العراء مع قوات تعادلهم عددا من العرب رغم تفوق اليهود فى الاسلحه وخفة الحركة •

٥ — يمتاز اليهود بسرعة تحركاتهم من منطقة لأخرى بوفرة مالديهم من العربات •

٦ — يعمل مع اليهود الآن نساءهم بشكل مجندين وتدل المعلومات الاخيرة انهم اعلنوا تعبئـــة عامة تشمل القادرين على حمل السلاح من الرجال والنساء بين سن ١٧ و ٢٥ سنة •

٧ — معظم قوات اليهود مدربة تدريبا حسنا ولهم خبرة بفنون القتال مكتسبة من اشتراكهم فى الحرب الاخيرة •

موارد اليهود

١ — التموين يصلهم من منطقة الحولة كما يصل ايضا من البحر عن طريق ميناء تل ابيب وتدل المعلومات الاخيرة انهم اجروا تحسينات فى تلك الميناء ولديهم بعض الزوارق المسلحه لحراسة الميناء

٢ — منطقة المصانع تقع فى او بالقرب من تل ابيب وفيها تصنع قطع الغيار للاسلحه والسيارات والادوات الاخـــرى

٣ — يوجد بعض المصانع والمنشئات العسكريه داخل البساتين بحيث يتعذر رؤيتها من الجو

٤ — كثير من اسلحة اليهود وعتادهم مشترى من مخلفات القوات العسكريه المتحالفه •

التشكيلات والقياده •

١ — لا يعرف لغاية الآن نظام التشكيلات اليهوديه ولكن المعلوم انهم يعملون فى قولات قويه ولم يصطدموا لغاية الآن بقوة مماثلة •

٢ — روحهم المعنويه عاليه ويعملون بنظام دقيق •

٣ — قيادتهم غير معلوم مقرها بالضبط ولا اشخاص القواد ويمتازون بالتكتم الشديد ولهم اعـــوان ماهرين حتى بين عرب فلسطين انفسهم •

— ٣ —

قــواتنـــا

أ — القوات الغير نظاميه

١ — حوالي ١٥٠٠ متطوع بجهة صفد — ديرحنا — النبي يوشع — عكا (تحت قيادة قائد المنطقة الشماليه)
٢ — " ٢٠٠٠ متطوع بجهة تل كرم — جنين — نابلس — لجون (تحت قيادة القاوقجي)
٣ — " ٥٠٠ متطوع عبارة عن حاميات مبعثرة بين يافا وبيسان واللد
٤ — قوات شعبية ليس لها قيادة منظمة ولا ارتباط ولا يعتمد عليها كثيرا
٥ — اسلحة هذه القوات عبارة عن بنادق قديمة ومختلفة الماركات وبعض الرشاشات والهاون ومعها ثمانية مدافع ٧٥ مم
٦ — الذخائر بانواعها قليله ومحدودة

ب — القوات النظاميـــه

١ — سبق اوضحتها في تقريري السابق عن كل من لبنان وسوريا والعراق وشرق الاردن
٢ — فيما يختص بالقوات السوريه قد تبين من زيارتي لقوتها الاليه في تكناتها ما يأتي : —

أ — كتيبة المصفحات مركبه من سرية بها ١٧ مصفحة خفيفة طرز مارمون مسلحه بمدفع ٤٠ مم ومدفع برونتج ورشاش FM ٢٤/٢٩
وسرية اخرى مركبة من ٦ مصفحة خفيفة مارمون و ١ مصفحة ددج تصفيحها محليا وهذه السريه تسليحها خليط من الهوتشكس والبرونتج و ٤٠ مم
وسرية دبابات رينو ٣٥ تزن ١٠ طن مكونه من ١٣ دبابله ومسلحه بمدفع ٤٠ مم وفـــي بعضها مدافع هوتشكس والبعض الآخر برونتج وليس بهذه السرية اى اجهزة لاسلكي خـــلاف دبابة القائد — هذه الدبابات تستطيع العمل لمدة سبعة ساعات ولها حاملة دبابات ولديهم منها ٩ حاملة ولكل دبابلة ٢٠١ طلقه مابين شرابنل وطرقي وخارقة دروع بخلاف ذخيـرة البرونتج
وسرية مشاه محمولة (١٤٠ مقاتل) سلاحها الرشاشات والهاون ٦٠ مم والبنادق
وسرية شؤون ادارية

ب — كتيبة المدفعية سبق ذكرت تشكيلها في تقريري السابق واضف عليه ان قوة البطارية ٤ ضبـاط و ٨١ عسكري والمدافع تحمل على سيارات او تجر في ميدان المعركة ولكل مدفع ٢٠٠ طلقـــة في الخط الاول و ٣٠٠ طلقه في الخط الثاني

جـ — حالة السيارات السوريه لا بأس بها وان كان الكاوتش في حالة متوسطة

د — التدريب في وحدات المدفعيه غير ممتلي به وبالاخص ضبط وربط النيران

هـ — الادوات معظمها فرنسي بحالة متوسطة

و — بنادق وحدات المدفعية من الطراز القديم بخزنة ذات خمسة طلقات

٣ — لم يتيسر لغاية الآن زيارة القوات العراقيه او الاردنية لمعرفة تفاصيل اسلحتها المختلفه وكفاءة قواتها من الناحيـة العسكريـــة .

— ٤ —

مناطق التجمع ومراكز الحشد

١ — لازالت القوات النظاميه متجمعة فى مراكزها السابق الاشارة اليها بتقريرى السابق وجاهزة للتحرك منها الى اماكن الحشد فى ظرف ساعتين من صدور الامر الى كل منها

٢ — بسبب الاعتبارات والتيارات السياسيه لم يصدر لغاية الآن اى امر لتحرك هذه القوات الى المراكز التى تبدأ منها العمليات الحربيه

٣ — لم تتخذ لغاية الآن اية اجراءات تمهيديه لاستكشاف مناطق الحشد وتأمين المعابر التى سوف تجتازها كل قوة عند بدء عملياتها داخل فلسطين

٤ — لم يعمل اى استكشاف جوى او تصوير جوى لمعرفة المناطق العسكريه الحيوية التى يجب ان تكون هدفا ابتدائيا لستر تقدم القوات الارضيه او لتدمير روح العدو المعنويه وتعطيل تحركاته عند بدء القتـال ٠

تنسيق الخـطط العسكريه

١ — دارت مناقشات طويله حول تحديد الغرض فهل تنسيق الخطط العسكرية وهل هو القضاء على العدو نهائيا او حصره وتجويعه حتى يستسلم او الفوز بنصر جزئى سريع حاسم لصالح القضيه السياسيه

٢ — تم الاتفاق فى المؤتمر العسكرى على ان الغرض من اشراك القوات النظاميه فى القتال هو سرعة الحصول على نتائج عسكرية لصالح قضية فلسطين من وجهة نظر دول الجامعة العربيه قبل ان يكون تدخل هيئة الامم المتحدة او مجلس الامن حقيقيـة فعليـة ٠

٣ — روعى لتنفيذ هذا الغرض عامل الوقت واوضاع القوات النظاميه وكفاءتها كما روجعت الاهداف على خريطة فلسطين التى يجب بالاستيلاء عليها او تدميرها تحقيق الغرض المطلوب

٤ — دارت مناقشات كثيرة حول تفاصيل الخطة ومراحلها والواجبات المطلوبة من كل قوة بعد دراسة مواقع استحكامات العدو وطبيعة ارض العمليات ٠

واتفق المؤتمر على الخطة الآتيـه ٠ —

أ — القوات اللبنانيـه

تقتحم داخل اراضى فلسطين على الطريق الساحلى لعزل المستعمرات الشماليه عن حيفا ومراقبة حدود لبنان وانشاء اتصال بينها وبين القوات السوريه ٠

ب — القوات السـوريه

تتقدم عبر الاراضى اللبنانية لداخل فلسطين لقصد عزل مدينة صفد والمستعمرات الواقعه شمالها وجنوبها الى بحيرة طبريه عن باقى فلسطين وانشاء اتصال بينها وبين القوات اللبنانيه

جـ — القوات العراقيـه والاردنيه

تشكل منها قوة ضاربة قوية تجتاز نهر الاردن متجهة الى العفوله لقطع شريان المواصلات اليهوديه بين حيفا وبيسان وبين تل ابيب وباقى المستعمرات المتصلة بها ٠

— ٥ —

د ـ القوات المصــــريه

تتقدم الى المجدل مع تأمين جناحها الايمن عند بيرسبع ـ الخليل لتطهير هذه المنطقـــه

هـ ـ يعاون السلاح الجوى القوات الارضيــه لبلوغ اهدافها وتأمين تحركاتها .

و ـ يعاون السلاح البحرى المصرى فى تأمين الشاطئ ومراقبة عدم نزول او انزال أى قوات من البحر على الجناح الايسر للقوات المصريه

ز ـ ينشأ اتصـــال وثيق بين قيادة القوات النظاميه وقيادة قوات التحرير لضمان تعاون القوتين فى عملهما المشترك .

ح ـ يتولى الجيش العربى الاردنى مراقبة مداخل مدينة القدس

ط ـ تتخذ التدابير الضروريه لضمان عدم تدخل القوات الشعبيه بقصد النهب والسلب او تعطيل تحرك القوات النظاميــه مع كفالة ادارة البلاد المحتلة بطريقة تضمن سلامة القسوة .

ى ـ تقوم الطائرات بضرب تمهيدى قبل سمت الصفر على المراكز الصناعيه الهامه لليهود وبالاخـــص منطقة تل ابيب .

ك ـ تبقى منطقة حيفا وميناؤها خارج الحدود بالنسبة لاى عمليات حربيه .

العـــوامل والمؤثـرات .

١ ـ لازالت الحالة السياسيه تؤثر بشكل واضح على الخطط العسكريه وبالاخص الموعد الذى يجب ان تنفذ فيه لجملة اعتبارات اهمها .

أ ـ المدى الذى يجب ان تصل اليه القوات النظاميه فى تدخلها المسلح .

ب ـ ما ينتظر ان تقوم به القوات النظاميه اذا تدخلت قوات خارجيه .

جـ ـ الاحتياطات التى لم تتخذ للآن لقفل موانى حيفا وتل ابيب فى وجه الامدادات اليهوديه او مهاجرى اليهود غير الشرعيين الذين قد يتسربوا الى فلسطين عن طريق هذين الميناءين .

د ـ ما يجب ان يتخذ داخل البـلاد العربيــه المشتركة قواتها فى القتال فعلا لتأمين الجبهة الداخليـة ضد عناصر اليهود المتآمرة .

هـ ـ تبادل الثقه بين البلاد العربيه وبعضها البعض من اول الشوط لآخره لتنفيذ الغرض المشترك

القيـــادة العامــــــة

١ ـ بعد ان تأخر الرد المصرى صرح صاحب السعادة وزير الدفاع العراقى للمؤتمر انه قد تعين اللواء نور الدين محمود باشا قائدا عاما للقوات النظاميه تحت اشراف الفريق صالح صائب باشا وان يكون اسماعيل صفوت باشا رئيس اركان حرب القوات .

٢ ـ اعلن رئيس اركان حرب القوات الاردنيه انه مفوض من قبل جلالة الملك عبد الله ان يعترض على هذا التعيين وان القائد العام هو جلالة الملك عبد الله

٣ ـ تقرر ان يترك تحديد شخصية القائد العام مؤقتا وان يقوم اللواء نور الدين محمود باشا باعمال القيادة تعاونه هيئة اركان حرب تمثل الجيوش النظاميــه .

- ٦ -

٤ - رأى الجانب المصرى بعد حديث طويل ان رئاسة اركان حرب القوات ينبغى ان تسند لضابط مصرى كبير كفؤ لادارة العمليات تحت اشراف وتوجيه القائد العام .

ساعة الصفر

١ - تقرر ان تكون ساعة الصفر هى سعت   يوم

٢ - يتولى الآن اللواء نور الدين محمود باشا تحضير التعليمات المطلوب اصدارها لحشد القوات فى مناطق الحشد واجراء الاستكشافات الضروريه ومن المنتظر ان تصدر بين ساعة واخرى .

٣ - يجب ان تكون جميع القوات على استعداد للتحرك لمناطق الحشد فى ظرف ساعتين ومطلوب اصدار امر انذارى بذلك للقوات المصريه على ان يكون ذلك ابتداء من سعت ١٢٠٠ يوم ١٢ /٥

٤ - تعطى تعليمات سريعه لقوات المتطوعين بالتقدم فى فلسطين لعمل ستارة امام القوات النظاميه واستكشاف مراكز المقاومة او تطهير الجيوب وتكون هذه القوات على اتصال وثيق بقيادة القوة النظاميه التى تعمل امامها .

مركز الرئاسة للقيادة العامة .

١ - مفتوح حاليا بجهة المفرق

٢ - مطلوب تعيين الآتين بعد للعمل بمركز رئاسة القيادة اعتبارا من سعت ١٢٠٠ يوم ١٣ /٥

أ - ضابط يمثل سلاح الطيران المصرى .

ب - " " السلاح البحرى .

جـ - " اركان حرب مساعد

د - ٢ ضابط اشارة احدهما بالقيادة والآخر بدمشق

هـ - ٢ جهاز لاسلكى

و - طيارة خاصة من السلاح الجوى .

ز - الخرائط اللازمة

ح - عمل اصطلاحات كوديه

دمشق
١١ /٥ /١٩٤٨

قائمقام (٠١ ر)

ممثل الجيش المصرى بالقيادة العامة

سرى جداً

المعلومات
٥/٤ – ٢٨٨
رفقاً
لا واحد

عن تل ابيب والمستعمرات المحيطة بهـــا

تل ابيب

وبها المواقع الاتيـــة :

أ – محطة كهرباء روتنبرج – قريبة من محطة السكة الحديد .

ب – محطة الاوتوبيس العمومية – محطة مدينتا الانشاء والترتيب وتقع امام محطة روتنبرج مباشرة من الجهة الجنوبية تقريبا فى ارض منخفضة . ويحيط بها محلات لتخزين البضائع والواردات ومنطقة صناعية . وتعتبر هذه المحطة نقطة اساسية تتفرع منها خطوط السفر بالاوتوبيس من تل ابيب الى جميع انحاء فلسطين .

ج – جسر يمر عليه خط السكة الحديدية الى تل ابيب ويمر تحته طـــريق رئيسى يبدأ من منطقة محطة الاوتوبيس وينتهى عند طرق مستعمرة ساروتا .

د – محطة السكة الحديد – قريبة من محطة الكهرباء فى الجهة الشمالية الشرقية منها على بعد ٢٠٠ متر تقريباً .

هـ – دائرة بوسطة تل ابيب – شمال غربى المحطة على اكبر شارع بتل ابيب هو شارع اللنبى .

و – ثلاجة كبيرة – مكونة من عدة ادوار حديثة الانشاء مجهزة بجميع المقتضيات الفنية الحديثة – ويخزن بها جميع ما يلزم لبلدة تل ابيب والمستعمرات المجاورة لها من لحوم وخضروات وفواكه – وتقع هذه الثلاجة فى ساحة المحطة على ناصية الشارع الذى يتجه من تل ابيب الى حيفا والمستعمرات .

وبالقرب منها مطحنة كبيرة يكفى انتاجها من الدقيق لتموين تل ابيب والمستعمرات بسهولة . وتقدر تكاليف هذين البنائين بما يزيد عن ٢٥٠٠٠٠ جنيه خـــلاف ما يخزن بها من مؤن .

وعلى الطريق العام الذى تقع فيه الثلاجه توجد عدة محلات صناعية مختلفة مرزعة فى ساحة فضاء وتبعد عن المطحنة بنحو ٤٠٠ – ٥٠٠ متر

مستعمرة ساروئـــــا

تعتبر هذه المستعمرة من اكبر واقدم المستعمرات التى انشأها الالمان فى فلسطين منذ خمسين سنة . وقد استولى عليها اليهود قبل نهاية الانتداب لجعلها مقرا لجنودهم ومركزا مناسبا لحكومتهم .

(٢)

محلة فلورنتين .

تابعة لبلدية يافا اسما وسكانها جميعهم من اليهود وعدد سكانها حوالى عشرة آلاف من العمال والصناع . وهى منطقة صناعية ترتبط بتل ابيب فى جميع اعمالها . وقد كانت مركزا لعصابة اشترن . وقد حاول اليهود كثيرا لضم هذه المحلة لبلدية تل ابيب .

وتمتد هذه المنطقة من شارع يافا - تل ابيب حيث توجد معامل واكثر الالبانية حتى شارع ابى كبير مخترقا شارع سلمه .

ويوجد فى ناحية شارع سلمة المقابلة لمحى شارع هرتزل محطة بنزين وفى الجهة الشرقية من هذه المحلة (عمارة شركة الصناعات الكيماوية الامبراطورية) وخلف هذه العمارة توجد عدة مصانع للسكب والخراطة والسمكرة وغيرها من المصانع التى تساهم فى المجهود الحربى اليهودى . وتقدر هذه المساحة بحوالى مائة فدان .

وعقب تصريح بلفور ابتدأ اليهود فى محاصرة يافا من الجنوب والشمال والشرق بأن انشأوا عدة مستعمرات مثل بيت فيغان وهداريم وبيتر . وزيادة فى احكام المحاصرة انشأ اليهود طريق معبد يربط هذه المستعمرات ببعضها البعض حتى اصبحت يافا محاصـــرة حصارا كاملا ولا مجال لاتساعها .

وفى مستعمرة بيت فيغان مصنع لبيرة بناؤه مرتفع كان يستعمله اليهود لمهاجمة عرب يافا وتسليط النيران عليهم .

وفى مستعمرة هداريم يوجد مصانع للجلود والحديد وكان بها مدرسة زراعيـــة تحولت الى معسكر لتعليم الرماية - كما ان بها اكبر مستودع للذخيرة .

٨/ ٧/ ١٩٤٨

صاحب السعادة مدير العمليات الحربية

صـــورة الـــى :-
مكتب معالى وزير الدفاع (ورد في ١٠/٧/٤٨)
مكتب رئيس هيئة أركان حرب الجيش
رئاسة القوات المصرية بفلسطين
السلاح الجوى الملكى

وزارة الدفاع الوطنى
ادارة المخابرات الحربية

قسم المعلومات
رقم ٣/٥/ـ ٤٧٦
التاريخ ١٩/٧/٤٨
ورشة X

سرى جداً

صاحب السعادة مدير العمليات الحربية
صورة الى :ـ
مكتب معالى وزير الدفاع
مكتب رئيس هيئة اركان حرب الجيش ٢ عدد
رئاسة القوات المصرية بفلسطين
سلاح الطيران الملكى
ضابط مخابرات غزة
ضابط مخابرات العريش

مذكرة

المعلومات الاتية حصلنا عليها •

القوات اليهودية

١ ـ وصلت بعض قوات المتطوعين من اليهود من خارج فلسطين منذ حوالى شهرين ووضعوا فى معسكرات خاصة للتدريب شرق وشمال شرق مدينة تل ابيب ومنها يوزعون على الوحدات اليهودية والضم الى القوات اليهودية وحدات فدائية وقد قامت فرقة من الفدائيين بمهاجمة قسم بوليس عراق سويدان • ويقوم اليهود باعداد كتيبة اخرى منهم فى معسكرها بيكفارعام •

٢ ـ تتكون الكتيبة اليهودية من اربعة سرايا بنادق ثلاث سرايا بنادق والرابعة سرية معاونة وعدد افرادها ٥٠٠ صف وعسكرى ومسلحة بعدد ٦ بيات و ٤ برن و ٨ سباندو وبها عدد من عربات نصف جنزير مسلحة بمدفع ٢٠ م •

٣ ـ فى اثناء الهدنة وصلت حوالى ٦ طائرات مسر شميدس و ٤ طائرة داكوتا و ٣ دبابة شرمان (استولى عليها اليهود من الجيش البريطانى) وعدد ١٢ دبابة هتشكس وك وجميع هذه المعدات موجودة الان فى معسكرات التدريب شمال شرق تل ابيب وعلى بعد ٤ اميال منها •

٤ ـ تقدر القوات اليهودية بالمواقع الاتية كما يلى •

ك ٦ مشاه يهودية (ميكانيكية) فى رحاما
ك ٧ " " " " دوروت
ك ٢ " " " " نفارعام (وهى من جنوب افريقيا)
ك ٤ " " " " نير حاييم

٥ ـ كتائب البالمخ

قوة البالمخ منظمة فى كتائب تتكون الكتيبة من ٥٠٠ صف وعسكرى ومسلحة بعدد ٦ بيات و ٨ مدافع اسبندد المانى و ٤ برن ومدافع ستن وبنادق تشيك وانجليزى • ولكل فصيلة جهاز رقم ١٩ وتقدر عدد قوات البالمخ ب ٧٠٠٠ رجل مشكلة فى حوالى ٧ كتائب منها ٤ فى النقب وتتكون كتيبة البالمخ من ٦ فصائل كل منها تحتوى على ٣ جماعات والجماعة تتكون من ١٥ رجل ومعها واحد برن وواحد بيات وباقى الرجال مسلحين بالاستن والبنادق ولكل فصيلة مدفع هاون •

٦ ـ توجد فرقة من عصابة الارجون تعمل منفصلة عن قوات الهاجاناه بمنطقة النقب عددها حوالى ١٠٠٠ رجل مشكلة فى كتيبتين تتجولان بين مستعمرة النقب ومعها عربات مصفحة وتتكون من جماعات وتتكون الجماعة من ٦٠ الى ٧٠ رجل •

٧ ـ معظم الذخيرة اليهودية المستعمله من تشيكوسلوفاكيا ولديهم ذخيرة خارقة للدروع •

٨ ـ درب اليهود فى منطقة النقب اثناء الهدنة على الهجوم والتسلل ليلا •

٩ ـ يوجد معسكر للتدريب بجوار مستعمرة سارونا قرب تل ابيب • ويوجد ١٠ مدفع ض/ د بين ريشون ورحابوت جنوبا يوجد خط دفاعى ممتد من الشرق الى الغرب من خان شيليو روزنوكان الى الشرق حيث يوجد سلك شائك من الكونسرتينا مع خنادق دفاعية • وعلى بعد ٢٠٠ متر توجد مواقع دفاعية مثيلة •

مكتب • الدفاع الوطنى
وارد رقم ٤٢٢٢
تاريخ ١٩/٧/٤٨ ساعة ٠٥ر٢

صـــورة من التقرير المقدم من امير اللواء الركن ، رئيس هيئة الاركان العراقية
الى حضـرة صاحب السعادة امين الجامعة العربيــة

عـــــــــن

موقـــف الجيـوش العربيـــــة فـــى فلســـطين



سرى للغاية

٤٨/٨/١٢

تقرير عن موقف الجيوش العربية فى فلسطين
بتاريخ ٤/٨/١٩٤٨

بمناسبة ايقاف القتال فى فلسطين للمرة الثانية فيما يلى ملحوظاتى عن الموقف العسكرى واقتراحاتى لتلافى النواقص التى ظهرت خلال المعارك فى فلسطين للاخذ بها من قبل المسئولين فى المستقبل فيما اذا استؤنف القتال .ـ

اليهود

أ ـ القوات المسلحة

كانت تقدر القوات اليهودية المحاربة فى تل ابيب قبل بدء الحركات بحوالى (٦٠) الف مقاتل موزعة كما يلى .ـ

أ ـ جيش الهاجاناه ـ وهو الجيش اليهودى النظامى والمدرب تدريبا جيدا على الاسلوب البريطانى ويقسم الى ثلاثة اقسام .ـ

اولا ـ البالماخ (او القوة المدرعة الالية) وتقدر ب (١٠٠٠٠ محارب) وهى فرقة الية وهى اسرع وانظم قوة ضاربة مدربة ومسلحة تسليحا حديثا هيأها اليهود لاستخدامها فى الحركات التعرضية الواسعة فى المناطق المختلفة بالاستفادة من سرعة حركتها ـ

ثانيا ـ جنود الميدان ـ ويبلغ عددهم (٢٠٠٠٠) وهى وحدات نظامية مدربة على الدفاع المحلى فى المستعمرات ويمكن عند الحاجة نقلها بالاليات وتحشيدها فى المناطق المطلوبة واشراكها فى المعارك الدفاعية والهجومية .

ثالثا ـ حرس المستعمرات ـ وهم الحرس المحليون فى المدن والمستعمرات يتراوح عددهم بين (٥ ـ ٨) الاف وهم من كبار السن بين ٣٨ ـ ٤٠ سنة

رابعا ـ القوات الاحتياطية ـ وتقدر ب (٢٠) الف

وتقدر نسبة الفتيات فى هذه القوات بمقدار الثمن

ب ـ عصابة ارغون تسفاى ليومى

وتقدر قوات هذه العصابة ب (٥) الاف شخص وهم اقل تدريبا من الهاجاناه

جـ ـ عصابة شتيرن ـ وتقدر ب (٢٥٠٠) شخص وهؤلاء مدربين على اعمال النسف والاغتيالات علاوة على تدريبهم العسكرى .

د ـ وخلال مدة الحركات والهدنة ازدادت هذه القوات فقد ثبت ان الوكالة اليهودية دعت للخدمة جميع القادرين على السلاح من اعمار ١٦ ـ ٣٨ سنة علاوة على تدفق عدد كبير من المهاجرين خلال فترة الهدنة .

٢ ـ التسليح

ا ـ ثبت بنتيجة القتال ان هذه القوات المحاربة مسلحة تسليحا جيدا بجميع انواع الاسلحة الخفيفة بما فيها (البنادق والرشاشات ستين وتومى برن ومتوسطة) وجميع مدافع الهاون ٢ و ٣ و ٤ العقدة كما ظهر لديهم مدافع ضد الطائرات عيار ٢٠ ملم ولم يثبت بصورة قطعية وجود مدفعية الميدان عيار ٧٥ مم وانهم حصلوا على بعض هذه الاسلحة خلال فترة الهدنة .

٢

ب — وظهر ان بعض الاسلحة الخفيفة وعتادها قد صنع محليا وكذلك الهاونات على اختلاف عياراتها واعتدتها وهذا مما يدل على وجود معامل للاسلحة والعتاد وقنابل الطائرات والالغام على اختلافها —

جـ — ولديهم عدد من المدرعات المتنوعة اكثرها صنع محليا بالاستفادة من السيارات والساحبات وظهرت الدبابات الخفيفة والثقيلة من نوع شرشل فى المعارك التى وقعت بعد الهدنة الاولى مما يدل على حصولهم على اسلحة ثقيلة خلال فترة الهدنة ايضا —

٣— الطائرات اليهودية

لليهود طائرات متنوعة الاشكال مختلفة التسليح عددها غير معلوم الا ان قلة استخدامها فى الحركات دليل على قلتها او لندرة الوقود والمواد الاحتياطية وقد ظهرت فى اول الحركات طائرات الاوستر والفيرجايلد والريد والمسيرشمت ١٠٩ وكانت تقوم باعمال فردية مستخدمة قنابل من صنع محلى لم يكن لها أثر كبير فى الاهداف التى قصفتها •

غير انه ظهر لديهم بعض الطائرات القاصفة الثقيلة من ذوات الاربع محركات لم يتأيد بعد نوعها وربما كانت قلاع طائرة او لانكسترا وهالفاكس وكان ظهور هذه الطائرات بعد الهدنة الاولى وتبين ان القنابل التى استخدموها اخيرا كانت من النوع الذى تستخدمه القوات الجوية الكبيرة بالنظر الى التدميرات التى احدثتها مؤخراً •

ان القوة الجوية اليهودية آخذة بالازدياد بالعدد وبالانواع الجيدة ويحتمل ان يكون لها تأثير اكبر فى الحركات القادمة • الا أن تأثيرها فى الحركات السابقة كان قليلا جدا اذ كانت الفائقية الجوية بجانبنا فلم تتمكن من التدخل فى حركات الجيوش

٤— تحصين المستعمرات

معظم المستعمرات اليهودية وعلى الاخص الواقعة على الطرق التقريبية المؤدية الى تل ابيب وحيفا والحدود الفلسطينية المعرضة لهجمات الجيوش العربية محصنة تحصينا لا بأس به • تحيط بها الاسلاك الشائكة وقد استخدم الاسمنت المسلح لانشاء الملاجئ وابراج المراقبة واستفادوا كثيرا من الالغام التى بثوها حول المستعمرات وعلى الطرق المؤدية اليها وقد هيأوا مخازن للتموين والذخيرة فى المستعمرات الكبيرة لجعلها مكتفية بذاتها وقادرة على الدفاع والصمود لمدة معينة لحين التجاد ها بقوات أخرى • وبذلك اصبح من الصعب احتلال هذه المستعمرات الا باستخدام مدفعية فائقة وقوة جوية كما وان اليهود عنيدون فى الدفاع من وراء استحكاماتهم ومن مستعمراتهم •

٥— التموين

أ— استفادوا كثيرا من مخلفات الجيش البريطانى فى معسكراته التى انسحب منها والواقعة فى مناطقهم فاشتروا منهم كميات كبيرة من السيارات والاليات والمهمات الاخرى ومواد الوقود المختلفة والدبابات الثقيلة من نوع شرشل •

ب— كما ان بسيطرتهم على جميع موانئ الساحل الفلسطينى تمكنوا من جلب ما يحتاجونه من المواد من مختلف انحاء العالم بحرا وتزداد قابليتهم على المقاومة والصمود بوجه الجيوش العربية الى وقت اطول •

جـ— وقد اذيع اخيرا بأن اليهود استولوا على مصافى النفط فى حيفا واخذوا يتصرفون بالنفط الخام الذى يقدر ب (٤٠) الف طن الذى تركه الانكليز فى مصافى حيفا

— ٣ —

وهــذا مما يجعلهم فى موقف حسن من وجهة وقود السيارات والطائرات .

د — وباستيلائهم على ميناء حيفا وعكا ويافا والناصرة والمناطق العربية الاخرى وسيطرتهم على الممتلكات العربية واجلائهم السكان العرب عنها ، افادهم كثيرا فى الحصول على مــواد التموين ومصادر اقتصادية جديدة لها تأثير كبير فى مجهــودهم الحـربى .

موقف الجيوش العربيــة :

١ـ) الجيش اللبنانى .

تبلغ قوته اربعة افواج وبطريتين مدفعية وبضع مصفحات ودبابات خفيفة .
يحتل جبهة واســعة من رأس الناقورة حتى مرجعيون . وبالنظر لقلة موجوده وضعف تسليحه وقلــة عتــاده فلــم يتمكن من اجتياز الحدود الى داخل فلسطين فقــد اتخذ وضعــــا دفاعيــا طيلــة مدة الحركات ولا يقوى حاليا على القيام بحركات هجوميه بالا شتراك مــــع الجيوش العربية ما لــم تلحــق بــه قوات احتياطيــة اخــرى مؤلفة من مشاة ومدفعية كافيــة

٢ـ) الجيـــش الســورى .

تبلــغ قــوتــه لوائين مشاة مــع قطعاتهما الملحقة والساندة وبعض القطعات المدرعــة .
تسليحه وتــدريبــه لا بأس بــه ويرابــط الآن فى منطقتى بانياس وبنات يعقــوب وجســر بنــات يعقــوب ولــديــه مناضلين مع قــوة نظامية فى منطقــة ســمخ .
ولقــد بذل جهودا عظيمه نقام بحركات تعرضية فتمكن من احتلال مشمار هايردن وســمخ الا انــه بالنظــر لقلة قــوته وموقف عتــاد اسلحته لم يتمكن من القيام بحركات تعرضيــة واســعة والاندفــاع الى اهداف رئيســية .
وسيقتصر حركاتــه فى المستقبل على القيام بهجمات محلية ومشاغلة قــوات يهــودية وذلك ممــا يخفــف الضغط على الجيوش العربيــة الاخــرى عند قيامها بحركات تعرضية واســعة النطــاق .

٣ـ) الجيــش العــراقــى .

تبلغ قــوته اربعــة جحافل الويه رفــوه آلية مع قطعات ملحقة وعلى ذلك فتكون القوات قــد بلغــت فــرقــة ونصــف .
ويحتــل منطقــة واســعة جــدا تمتــد من جســر المجامع — جنــين — طولكرم — قلقيلية كفــر قاســم — ديــر نظام — . ولــديه قوات ومناضلين امام هذه المناطق بمسافات تتراوح بــين ٥ — ١٠ كيلومتر على طــول الجبهــة .
وبالنظــر لسعــة الجبهــة واهمية هذه المناطق من الوجهتين التعبوية والسوقية فقد وزعت قــواتــه على تلك المناطــق .
وبهذه القوة يتمكن من الدفاع عن هذه المناطق والقيام بحركات هجومية فيما اذا تم له التعاون من الجيوش العربية الاخرى التى يقتضى قيامها بدورها بحركات تعرضية واسعة فى مناطقها فى فى وقت واحد لمشاغلة وجلب قوات من العدو ولتخفيف الضغط عن القوات العراقية الهاجمــة
ولقد كان على اهبه للقيام بهجوم واسع الا ان الموقف الحرج الذى احدثه انسحاب قوات الجيش العربى فى جناحه الايسر من منطقتى اللد والرمله . اجبره الى الاحتفاظ بقوه احتياطية مــن قواته وراء جناحه الايسر لــدرء الخطر المحتمل مــن تلك الناحيــة .

- ٤ -

٤ـ) **الجيش الاردني** .

قوته ـ ثلاثة الوية (٦ افواج) مع قطعات ملحقة وساندة .
يحتل مواضع في منطقة بيت سيرا ـ باب الواد ـ اللطرون ـ والقدس القديمة ولديه قوات تحاصر اليهود في القدس الجديدة .
تدريبه وتسليحه جيدان جدا ويعتبر من اقدر الجيوش العربية على القتال .
احتلت قواته القدس القديمة وبالنظر لقلة قوته فقد اضطر الى اتخاذ خطة دفاعية ضد هجمات اليهود الشديدة في منطقة اللطرون وباب الواد والقدس الجديدة ومنع العدو من فك الحصار عن القدس وفتح طريق القدس ـ تل ابيب ولم يتمكن اخيرا من الاحتفاظ بمنطقة اللد والرملة فانسحب منها بتضييق من قبل قوات كبيرة من العدو وبذلك تعرض جناح الجيش العراقي الايسر الى خطر الالتفاف من ذلك الاتجاه .

٥ـ) **الجيش المصري** :

تقدر قوته بثلاثة الوية من قطعات ملحقة وساندة ومدرعة .
تسليحه وتدريبه يعتقد جيدان .
يحتل منطقة بيت جبرين ـ اسدود ولديه قوات من المناضلين في الخليل وبير السبع وبيت لحم . ولم يتمكن من التقدم شمال الخط المذكور اعلاه بمسافات كبيرة منذ احتلاله اسدود بتاريخ ٢٩/ ٥/ ١٩٤٨ بالنظر لانشغاله في تطهير ومهاجمة المستعمرات اليهودية التي تهدد خطوط مواصلاته والتي تركها وراءه اثناء تقدمه الاول (حسب ادعائه) ولا يقوى على التقدم شمالا ما لم تهيأ قوات ثانية لحماية خطوط مواصلاته وتطهير المستعمرات الواقعة في تلك المنطقة .

٦ـ) **قوات فوزي** .

مؤلفة من متطوعين من مختلف البلاد العربية يقودها ضباط عراقيون وسوريون . ترابط هذه القوات في منطقتي المالكية ولوبيا .
اما تسليحها فردي اذ تستعمل هذه القوات اسلحة مختلفة الانواع من انجليزية وفرنسية والمانية مما يصعب تموينها بالعتاد كما ان عتاد الاسلحة الانجليزية والفرنسية قد نفذ وقد ظهر بنتيجة المعارك الاخيرة ان هذه القوات ضعيفة ولا يمكن الاعتماد عليها في احتلال الاهداف والاحتفاظ بها ولا تتمكن من القيام بواجبات القوات النظامية كما انها لا تحسن اعمال العصابات .
فمن الضروري اعادة تنظيمها بحيث تكون سريعة الحركة والتنقل فيستفاد منها في القيام بقتال العصابات والغارات امام الجيوش النظامية وعلى اجنحتها وبذلك يمكنها مساعدة الجيش السوري واللبناني في منطقتهما وتسهيل مهمتهما .

٧ـ) **القوات الجوية العربية** .

أ ـ **القوة الجوية السورية** .ـ وتقدر بعشرة طائرات .

وتتألف القوة الجوية السورية من طائرات الهرفرد الامريكية الصنع ذوات المقعدين ولقد ساندت الجيش السوري على قدر طاقتها الا ان حداثتها وصعوبة الحصول على الاسلحة والقنابل والعتاد حال دون قيامها بواجبها كثيرة في معاونة الجيوش الاخرى وقذف الاهداف السورية المشتركة . ان اغلب طياريها حديثي العهد بهذا السلاح .

ب ـ القوة الجوية العراقية

وتتألف من سرب ورف قاصف ورف مقاتل

وتحتوى على طائرات أنسن تستعمل كقاصفة والكلاديتر كمقاتلة •

وقد قامت بإسناد الجيش العراقى فى حركاته وساندت الجيش السورى والاردنى فى مناسبات واحوال عديدة كما وقامت بالاضافة الى هذه الواجبات بقصف الاهداف السوقية المشتركة احيانا كثيرة بمفردها •

ان طائراتها قديمة جدا وبطيئة وادامتها صعبة لحدوث الغيار طيلة الايام وبدون انقطاع

جـ ـ القوة الجوية المصرية

تقدر بسرب قاصف وآخر مقاتل •

تحتوى القوة الجوية المصرية على طائرات سبيتفاير المقاتلة وطيارات الداكوتا التى تستخدم كقاصفة •

وقامت بإسناد قطعاتها وقصفت تل ابيب مرارا واسندت الجيش الاردنى فى بعض المناسبات •

د ـ الفائقية الجوية

كانت الفائقية الجوية لحين ابتداء الهدنة الاخيرة بجانب القوات الجوية العربية بدليل ان الطائرات اليهودية لم تتمكن من عرقلة اعمال القوات الجوية العربية ولا حركات الجيوش العربية فكانت تتسلل احيانا ليلا مستفيدة من الظلام لقصف بعض المدن والاهداف • ومن الناحية الاخرى فان قواتنا الجوية كانت تعمل بحرية تامة فى اى اتجاه وضد اى هدف •

٨ ـ الاسلحة والذخيرة

أ ـ بالنظر لعدم تيسر معامل للسلاح والعتاد فى البلاد العربية وصعوبة الحصول على الذخائر الحربية من الخارج بسبب الازمة الحاضرة فان اسلحة وعتاد الجيوش العربية تعتبر محدودة وهى فى تناقص مستمر كلما استمر القتال وطال امده وذلك لعدم امكان او صعوبة تعويضه • وعلى النقيض من ذلك حالة اليهود فهم علاوة على وجود معامل لصنع بعض الاسلحة والاعتدة محليا فالبحر مفتوح لهم لتهريب وجلب مختلف الاسلحة والذخائر بشتى الطرق وبذلك يمكن اعتبار حالة العدو من وجهة التسليح وتموينه بالعتاد فى تحسن مطرد على مر الايام سواء اكانت حربا ام هدنة •

ب ـ لذا من الضرورى اخذ هذه القضية بنظر الاعتبار وتأمين العتاد اللازم خلال فترة الهدنة هذه لمختلف الجيوش والا فستمر ايام الهدنة فلا تستفيد منها الجيوش العربية وتعود على اليهود بفوائد جمة كما استفادوا من فترة الهدنة الاولى •

النتيجة

يظهر مما تقدم ان حالة اليهود الحربية فى تحسن وازدياد مستمر على مر الزمن من وجهتى العدد والتسليح وعلى العكس من ذلك فان حالة الجيوش العربية بصورة عامة أصبحت فى تناقص ولا سيما من الذخيرة والسلاح والرجال لاشك انه يصعب عليها الاستمرار فى القتال اذا بقيت على تلك الحالة ولم يتخذ المسئولون التدابير اللازمة لتوفير العتاد والسلاح والرجال لتقويتها وجعلها قادرة على الاستمرار واحراز النصر الاخير على اليهود

٦

ولا اقصد من بيانى هذا تثبيط العزائم والهمم بل انما اجلب الانتباه الى تلك الحقائق والنواقص لمعالجتها ولمضاعفة الجهود وتشديد العزائم والاستفادة من فترة الهدنة للتهيؤ واحضار قوات تتمكن من انزال ضربات قوية بالعدو بأقل وقت ممكن
وهناك امثلة تاريخية كثيرة تظهرالعزائم والجهود المبذولة ومواجهة الاخطار والنكبات بصبر وجلد من تأثير فعال فى نيل النصر وكسب المعركة الاخيرة على العدو واهم هذه الامثلة ما قامت به فئة قليلة بزعامة الغازى مصطفى كمال فى انقاذ البلاد والشعب التركى بعد الحرب العالمية الاولى فعلينا ان نتخذ من ذلك مثلا اعلى وأن لا ندع لليأس والفتور سبيلا الى انفسنا مهما عظمت الاخطار التى سنجابهها فى المستقبل فى حالة استئناف القتال بل يجب ان يكون رائدنا الايمان بالنصر وسحق عدونا بأى ثمن فعليه اقترح القيام بما يلزم حول المقترحات التالية بأسرع ما يمكن :-

اولا – تأمين الاسلحة والذخائر

١– الدبابات – بالنظر لامتلاك العدو بعض الدبابات فيجب الاهتمام بالحصول على الدبابات لتأمين التفوق بالدرع ان امكن

٢– اسلحة ضد الدرع – ومن الضرورى جلب اسلحة كافية ضد الدرع مع كميات وافرة من الاعتدة اللازمة لها لامكان مقاومة الدبابات والمدرعات المعادية فان استخدام الدرع من قبل اليهود بحرية ودون مقاومة له تأثير كبير على نتائج المعركة علاوة على تأثيرة على معنويات جنودنا •

٣– الاسلحة الخفيفة – يقتضى تأمين مختلف الاسلحة الخفيفة والهاون لتجهيز وتسليح قوات احتياطية جديدة وللتعويض عن الخسائر •

٤– القوة الجوية – أن القوة الجوية المتيسرة لدى الجيوش العربية غير كافية لاسناد الحركات الهجومية الواسعة النطاق وضرب مناطق العدو الخلفية وقواعده ومن الضرورى زيادة الاسراب القاصفة والمقاتلة العاملة مع الجيوش •

٥– الاعتده – وللتعويض عن المصروف من الاعتدة المختلفة فى المعارك يقتضى التثبت والسعى للحصول على الاعتدة المختلفة بكميات كافية لا سيما عتاد المدفعية وقنابل القوة الجوية اذ يتوقف كثيرا نجاح الهجوم والقضاء على المقاومة بسرعة على اسناد المدفعية والقوة الجوية •

وعليه فاذا اريد استئناف القتال والحصول على نتيجة حاسمة وسريعة فمن الضرورى توفير الاسلحة والاعتدة كما مبين اعلاه وعدم التساهل او التقاعس فى ذلك فالجيوش العربية فى حالة تناقص مطرد من وجهة التسليح والذخيرة كلما استمر القتال بينما يتمكن اليهود من ايجاد الاسلحة والذخيرة والاستزادة منها كلما طال امد الحرب او الهدنة •

ثانيا – التقويات

وللتعويض عن الخسائر فى الافراد والضباط وامداد الجيوش بالتقويات من الضرورى تأسيس مراكز تدريب فى مختلف البلاد العربية والمباشرة منذ الان بتدريب التقويات من الضباط والجنود على مختلف انواع الاسلحة لكى تكون جاهزة ومستعدة للتعويض عن الخسائر باسرع ما يمكن •

٧

ثالثا ـ القوات الاحتياطية

من الضروري جدا تأمين القوات الاحتياطية التالية لاستخدامها من قبل مقرات الجيوش والقيادات المختلفة لمعالجة المواقف الحربية ولامكان السيطرة والتدخل في الحركات .

أ ـ احتياط محلي مناسب لكل جيش من الجيوش العربية يكون بنسبة ثلث القوة المقاتلة

ب ـ احتياط عام بأمرة القيادة الشمالية تخصص من الجيشين السوري واللبناني

جـ احتياط عام بأمرة القيادة العامة ـ ويتألف من قوتين على اقل تقدير يؤخذ من كل من الجيشين العراقي والاردني او المصري ان امكن

رابعا ـ القيادة

لغرض توفيق حركات الجيوش ولسهولة السيطرة عليها وتوجيهها نقترح تشكيل القيادات التالية :ـ

أ ـ القيادة العامة

تتألف قيادة عامة تتولى السيطرة على حركات الجيوش وتدبير شؤونها الحربية وتسهيل اعمالها وضمان التعاون فيما بينها على ان تنفذ قراراتها واوامرها ووصاياها بصدق واخلاص

ب ـ القيادة الشمالية

تشكل قيادة خاصة للجيوش التي تعمل في القسم الشمالي من فلسطين وهي الجيشين السوري واللبناني وقوات فوزي ومن مزاياها

اولا ـ تأمين وحدة القيادة فيما بين الجيوش المذكورة

ثانيا ـ سهولة تعاون هذه القوات فيما بينها بالنظر لكونها تعمل في منطقة واحدة

ثالثا ـ تأمين وحدة الهدف في حركاتها

رابعا ـ تسهيل التوفيق والتعاون في حركاتها مع الجيوش الاخرى بالنسبة الى الاهداف التي تعينها القيادة العامة .

ترتبط هذه القيادة بالقيادة العامة وتتلقى منها الوصايا .

خامسا ـ اعادة تنظيم جيش الانقاذ

ان قوات فوزي القاوقجي بوضعها الحالي كما اسلفنا لا يمكن الاعتماد عليها ولا تقوى على القيام بأي واجب دفاعيا كان ام هجوميا فحالة اسلحتها ودرجة تدريبها لا يمكنانها من القيام بواجبات القوات النظامية كما انها لا تصلح بتنظيمها الحالي لقتال العصابات .

لــذا اقــترح اعادة تنظيمها على الوجه التالي :ـ

أ ـ تنظيم المقر الخلفي واعني به الخدمات الادارية

ب ـ تنظيم المقر الامامي واعني بذلك قيادة القوات

جـ ـ تنظيم الوحدات على اساس سرايا مستقلة للعمل كعصابات

د ـ تأسيس مطابخ فيها لاطعام المناضلين

— ٨ —

هـ — تأسيس مداخر ومستودعات لتجهيز الجنود بالملابس والخيم وتموين القوات بالاسلحة والاعتدة اللازمة بصورة منتظمة ومستمرة .
و — فتح دورات لمنتسبي القوة لتدريبهم على الأعمال المطلوبة وللتعويض عن الخسائر من الضباط والمراتب .
ز — تجهيز الوحدات والتقوية الآلية الكافية لتجعلها سريعة الحركة والتنقل
ح — تاسيس الخدمات الطبية اللازمة كمستشفيات الميدان ومحطات اخلاء الخسائر في الخلف

سادسا — المال .

وبدون المال لا يمكن القيام بأي عمل او تامين اي استعداد عسكري .
لذلك فمن الضرورة ان تفكر كل دولة عربية بايجاد المال اللازم للاستعدادات الحربية ونفقات القتال في فلسطين وذلك بتخصيص الاعتمادات الكافية في ميزانيتها السنوية للنفقات الحربية .
ولما كانت بعض الدول العربية لا تمكنها حالتها المالية من توفير المال اللازم لذلك نرتأي قيام الدول العربية الاخرى والغنية نسبيا بتقديم قروض مالية الى تلك الدول الفقيرة لتساعدها على تحمل اعباء التسليح والاستعداد والانفاق على القتال على الوجه الاكمل وبدون ذلك سوف تكون تلك الدول عاجزة عن التهيؤ والاستعداد وغير قادرة على القيام بما يتطلب منها في القتال .

سابعا — عقد مؤتمر حربي .

لاجل التهيؤ والاتفاق على خطة مشتركة نرى من الضروري اجتماع القواد العسكريين في القاهرة منذ الآن لمناقشة جميع الامور المحتمل حدوثها واحضار الخطة الواجب اتباعها في حالة استئناف القتال .

امير اللواء الركن
توقيع (. . .)
رئيس هيئة الاركان العراقية

رئاسة القوات المصرية بفلسطين

مكتب المخابرات

مذكرة

معلومات خاصة بقوات العدو التى استخدمت أخيرا

فى منطقة النقب

عام :- لا يمكن تحديد القوات اليهودية التى استخدمت أخيرا فى منطقة النقب أو تسليحها أو خسائرها على وجه الدقة . فقط يمكن تقديرها تقريبيا على الوجوه الآتيـــة :-

أ- القوات الجوية

كان التفوق الجوى للعدو ظاهرا وسيطرته على الجو واضحة بدليل قيامه بالعمليات الآتية :-

١- الاغارة على المجدل وبورسعيد وغزه ومطار العريش فى وقت واحد بعدد من الطائرات .

٢- الاغارة على طول جبهتنا من المجدل الى بيت جبرين وبير سبع بأفواج متتالية من الطائرات ليلا ونهارا

٣- قيامه بعمل مظله جوية على قطعه البحرية التى هاجمت سفننا بجانب قيامه بعمليات الاغارة والاستكشاف فى الجبهات الأخرى .

٤- قيامه بغارات مركزة بلغت ٢٢ غاره فى خلال اربعة وعشرين ساعة على المجدل فى الوقت الذى كانت طائراته تقوم بغارات مماثلة على منطقة غزه والعريش وبير سبع .

٥- استخدامه أنواع شتى من القنابل كبيرة الحجم والحارقة مما كان له أثر كبير فى تدمير مطار العريش والسكة الحديدية كما أحدثت خسائر فادحة فى العربات ترتب عليها شل حركات قواتنا .

٦- القائة قنابل مسيلة للدموع لهدم الروح المعنوية للجنود واحداث الذعر فى الصفوف ومنع القوات من تأدية واجباتها على الوجه الأكمل .

٧- استخدام العدو عدة مطارات قريبة من جبهة القتال كمطارات ضير وتل أبيب ورامات دافيت والعفولـــه علاوة على استخدامه عدة أراضى نزول تصلح لاستخدام القاذفات الثقيلة ومجهزة للطيران الليلى وهى موجودة فى قلب النقب وقريبة من مواقعنـــــا مما سهل للعدو الاستمرار فى الجو مدة طويلة ومكنه من اصابة الاهداف بسهولة ليلا ومفاجأة قواتنا نهارا .

٨- استخدامه قاذفات من طراز المحركات الاربعة يحتمل أن تكون ثلاثة طائرة وأخرى من ذات المحركين يحتمل أن تكون من طراز هنيكل ١١١ ودا كوتا ودى هافيلاند ٨٩ كما استخدم طائرات من طراز القاذفات المقاتلـــة يحتمل أن تكون بوفيتر وطائرات مقاتلة من طراز مسر شميدت وسبيت فاير المسلحة بمدافع ٢٠ مم عــــلاوة على مدافع رشاشة كما يحتمل استخدامه لطائرات قتال من طراز ياك الروسى .

٩- تقدر قوات العدو الجوية بالنسبة لنشاطه الجوى بما لا يقل عن :-

أ- سرب كامل (حوالى ٢٠ طائرة) من قاذفات القنابل المختلفة الانواع .

ب- سربين (حوالى من ٣٠ الى ٤٠) طائرة من القاذفات المقاتلة وطائرات القتال المختلفة الانواع)

جـ- عدد يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ طائرة خفيفة من طراز مدنى لاغراض الاستكشاف ولأعمال النقل والتموين بين المستعمرات .

— ٢ —

١٠— تقدر خسائر العدو فى الطائرات خلال هذه العمليات بما لا يقل من ثمانية طائرات ما بين قاذفات قنابل وقاذفات مقاتلة ومقاتلات .

ب— القوات الارضيـــــة

وهى تمتاز بتفوقها الزائد فى القوة الضاربة وخاصة المدرعة لدرجة انها كانت مشتركة على طول خطوطنا الدفاعية من بيت لحم الى المجدل ومن اسدود الى رفح ومن العرجة الى الظاهرية فى وقت واحد . ويمكن توضيحها كالآتـــــى :—

١— قوات مدرعة سريعة الحركة ومجهزة تجهيزا كاملا وتشمل دبابات من طراز دبابات المشاة والمسلحة بالمدافع ٢ رطل و٧٥ مم علاوة على اسلحة اوتوماتيكية أخرى من عيار ٢٠ مم و٣" و عربات مصفحة من نوع حديث ذات برج دائرى متحرك مسلحة بمدافع مورتر ورشاشات من طراز لا فيت ومصفحات أخرى ذات نصف جنزير ومصفحات أخرى عاديـــــة .

٢— قوات نقل مصفحة وهى عبارة عن عربات مصفحة محليا مختلفة الاحجام معدة لنقل الجنود ومجهزة بفتحات يمكن استخدام الاسلحة للضرب منها وهى كثيرة العدد صالحة للسير فى معظم أنواع الاراضى .

٣— مدفعية العدو وتشمل مدفعية ثقيلة (استخدمت فى جبهة بيت لحم) وأخرى من طراز ١٣ رطل تطلق قنابل ش . ف وشرابنل . ولو أنها قليلة العدد نسبيا الا أنها محملة على عربات خاصة لسهولة الحركة والضرب منها .

٤— مدافع الهاون وهى كثيرة العدد ومختلفة الانواع (العيار) ويستخدمها العدو بمهارة فائقة وعلى نطاق واسع لسد العجز الموجود لديه بسبب قلة مدفعيته . كما يستخدم بعضها المجهز تجهيزا خاصا لقذف الالغام (الراجمات) .

٥— الأسلحة الاتوماتيكية وهى بنسبات وافرة جدا ويستخدمها العدو بدلا من البنادق لكثرتها أكثرها من طراز لا فيت واسباندو ورشاشات الالستن المصنوعة محليا وأنواع أخرى أمكنه الحصول عليها حديثا منها عدد كبير من عيار ٢٠ مم .

٦— قوات المشاة التى استخدمت فى هذه العمليات عبارة عن قوات مدربة تدريبا تاما وخاصا العمليات الليلية كما أنهم على درجة عالية من التدريب الراقى وهم عبارة عن كتائب منظمة معظم أفرادها وضباطها من الخارج كما أن لديهم مستشارون عسكريون من الدول الكبرى وممن سبق لهم الاشتراك فى الحرب الاخيرة . وتقدر القوات اليهودية التى اشتركت فى العمليات الاخيرة بما لا يقل عن مجموعة لوائين مشاه خلاف القوات المدرعة هذا علاوة على القوات التى كانت موجودة بمنطقة النقب من قبل والتى لا تقل عن لوائين ويقدر عدد جنود اللواء بحوالى ١٥٠٠ جندى بخلاف الاسلحة المساعدة الاخرى . ويضاف الى ذلك القـــوة المكلفة بحراسة المستعمرات وهى تتراوح ما بين ٥٠ و ٢٠٠ فى كل مستعمرة حسب حجمها .

جـ— القوات البحريـــــة

أمكن للعدو أن يستخدم قوة بحرية فى العمليات الاخيرة اذ قام بمهاجمة سفننا المكلفة بحراسة الشواطئ بأربعة نسافات دفعة واحدة وهى مجهزة تجهيزا تاما سواء بالمدافع البحرية أو المدافع المضاد للطائرات أو بقوارب الطوربيد .

— ٣ —

٢ - استخدم العدو عدة قوارب سريعة للمطاردة ومنها ما هو مجهز تجهيزا خاصا لقذف الطوربيد

٣ - وجميع بحارة هذه القطع من المدربين تدريبا فنيا عاليا على الاعمال البحرية المختلفة ٠

د - الخلاصـــــــة

يتضح مما تقدم أن جميع هذه القوات والمعدات الوافرة والذخيرة التى لا حد لها لم تكن موجودة لدى العدو من قبل ولكنه تحصل عليها خلال الهدنه من الخارج كما أمكنه الانتفاع بجميع ما اشتراه من الجيوش البريطانية قبل جلائها أما خسائر العدو فى هذه العمليات الاخيرة فى الجبهـــــة المصريـــة فلا تقل بأى حال من الاحوال عن ١٠٠٠ ما بين قتيل وجريح من مختطفى الشعوب ٠

كما خسر العدو عدد ٦ ستة دبابات مشاه

(امضاء) لواء

قائد عام القوات المصرية بفلسطيـــــن

بتاريخ ٢٧/١٠/١٩٤٨

صورة طبق الأصل من التقرير المرفق بالتلغرام [illegible] /١٠/ ٩٤٨ [illegible]

[illegible]
[illegible]

٢٨/١٠/٩٤٨

[illegible]
[illegible] ٢٨/١٠

ادارة المخابرات الحربيـــــــــة **سرى جدا**
قسم المعـــــلومات

مكتب معالى وزير الحربية والبحرية

رقم القيد ١/٨ – ١٩٧٨
صورة الى :-

التاريخ ٣١/١٠/١٩٤٨
مكتب رئيس هيئة اركان حرب الجيش
السلاح البحرى الملكى

وصلت الينا المعلومات التاليـــــة

فى فلسطين

١ ــ تألف حزب عربى برئاسة شخص يدعى ابو غوش ويعاونه ضابط من الهاجاناه ويقاتل هذا الحزب فى صفوف اليهود ضد العرب •

٢ ــ اصدرت اسرائيل نقد باسمها وطوابع بريد والجنيه الاسرائيلى يقدر ب ٢٢ شلن •

٣ ــ يوجد ببلغاريا حوالى ٤٢٠٠٠ يهودى لها هجرة الى فلسطين وقد هاجر فى اواخر سبتمبر الماضى ٥٠٠٠ منهم اليها • وفى رومانيا يوجد حوالى ٣٠٠٠٠٠ يهودى سيصير نقلهم الى فلسطين على ٥ او ٦ بواخر اعدت لهذا الغرض• وفى كل شهر سيسافر من رومانيا الى فلسطين ٥٠٠٠ يهودى• وقد هاجر من كوبا ١٥٠٠ سنهم اقل من ٣٥ سنة عن طريق يوجوسلافيا • واليهود فى مراكش يهاجرون الى فلسطين عن طريق فرنسا ومنهـــا الى قبرص ثم الى فلسطين•

تضغط حكومة جنوب افريقيا الحالية على اليهود وهم يخشونها وقد منعت تصدير النقود الى الخارج •

٤ ــ ستقوم علاقات دبلوماسية وتمثيل سياسى بين رومانيا ودولة اسرائيـــــل المزعومة وبمجرد قيام هذه العلاقة ستكون الهجرة الى فلسطين من اسهل ما يمكن من رومانيا

٥ ــ تنوى الدولة اليهودية برنامجا لدخول ٣ ملايين يهودى الى فلسطين ويكون للمشردين منهم الاولوية فى الهجرة •

٦ ــ يرفض يهود الكونغو البلجيكية بيع بضائعهم للدول العربية ويصدرونها الى جميع دول العالم بما فيها اسرائيل •

٧ ــ تنقسم عصابة شتيرن الى قسمين احدهما يسمى شتيرن والآخر يسمـــــى (ليمن) ويشاع ان الفريق الثانى هو الذى ارسل الانذار الى الكونت برنادوت وقتـــله •

٨ ــ تصرف الوكالة اليهودية مبلغ ٢٠٠٠٠ دولار على كل طالب يكتـــب تعهدا بخدمة الدولة اليهودية لمدة ١٠ سنوات ــ وذلك لتعليمه ليكون طيارا •

٩ ــ ارسلت الهاجاناه مندوبين عنها فى رومانيا لانشاء مراكز لتدريب الشبان اليهود هناك ويلاقى هؤلاء المندوبين مساعدات كبيرة لاداء مهمتهم•

حكومة عموم فلسطين
وزارة الخارجية

الموضوع — معلومات عن اليهود

وصلتني المعلومات التالية من مصادر يوثق بها غاية الثقة ولذا انقلها اليكم للمعلومية ولأجراء ما قد ترونه مناسبا على ضوئها :

١ — معلومات اقتصادية

أ — يشكو اليهود شكوى مرة من قلة اللحوم في مناطقهم حتى اصبح سعر الكيلو اللحم ٨٠٠ مليم.
ب — لا صحة للاشاعات القائلة انهم يشكون ضائقة في البترول والوقود عامة .
ج — ستظل الاراضي اليهودية والعربية في المنطقة اليهودية ، أو على الاقل معظمها ، ستظل مهملة (بور) لعدم وجود الايدي العاملة والبال الكافي لفلاحتها في هذا العام .
د — استورد اليهود ٢٠٠ ألف طن قمح من امريكا و ٣٠٠ ألف طن من روسيا .
هـ — اتفقت بعض الشركات الامريكية مع اليهود للتنقيب عن البترول في النقب اليهودي .
و — يزداد موقف حكومة اسرائيل حراجة بازدياد عدد المهاجرين اليهود لعجزها عن تأمين المأوى والمأكل والملبس وغير ذلك من ضروريات لهذه الاعداد الكبيرة . وقد استحضرت اسرائيل آلات من امريكا بامكان الواحدة منها بناء خمسة بيوت صغيرة في اليوم من الخشب والاسمنت .

٢ — معلومات سياسية

أ — اول ما يلاحظه المرء في الرأي العام اليهودي المقت الشديد للانجليز .
ب — يقوم اليهود بنسف الاحياء والقرى العربية التي لا يمكنهم الانتفاع منها لغايتين ، الاولى افقار العرب والثانية جعل اللاجئين يترددون في العودة الى بلادهم .
ج — عدد كبير من العرب الموجودين في حيفا وعكا والناصرة وابي غوش والدروز اجمالا يتعاونون مع اليهود وبعضهم يحمل السلاح مع قواتهم المسلحة .
د — يحتل اليهود الفلسطينيون المراكز الممتازة في حكومة اسرائيل مما أثار ثائرة اليهود الاجانب الذين شعروا بروح التفرقة الموجودة عند الزعماء الصهيونيين الذين قادوا الحكومة في فلسطين .
هـ — الشيوعية متفشية بشكل فاضح في فلسطين اليهودية ، ويمكن إعتبار اسرائيل الآن محور النشاط الشيوعي في الشرق العربي .
و — ثبت ان لدى اليهود فرق تدمير في دول اوروبا وامريكا مهمتها الاساسية نسف أي معدات عسكرية مرسلة الى الدول العربية والعمل على عدم وصولها بأي وسيلة من الوسائل .
ز — دائرة الاستخبارات اليهودية قوية جدا ولها عملاء يهود وغير يهود في جميع البلاد العربية وتصل الجرائد والمجلات العربية من جميع البلاد العربية الى اسرائيل بصورة منتظمة .
ح — مراقبو الهدنة — أو على الاصح بعضهم — يعملون لمصلحة اليهود .
ط — المعنويات اليهودية عالية جدا وسبب ذلك توالي انتصاراتهم وعدم انقطاع وصول الامدادات لهم من روسيا .

(٢)

ى ـ يعتقد ان بعض الدول وافقت على وجود الدولة اليهودية للتخلص من اليهود الموجودين في اراضيها وقد دخل فلسطين من تركيا وحدها ٣٠ الف يهودى •

ك ـ يصرح اليهود ان في نيتهم تأسيس دولة تمتد من النيل الى الفرات وتضم طور سينـــا وفلسطين وشرق الاردن وسوريا ولبنــان •

ل ـ لدى اليهود ستة أحزاب سياسية تتطاحن على النفوذ وتتحد في الحرب لبلوغ الهـــدف الصهيوني •

م ـ ما زال اليهود يرهبون الجامعة العربية الى حد ما ، وبأمكان الجامعة أن تقـــض مضاجعهم اذا أعيد بناؤها على إساس أقوى •

٣ ـ معلومات عســـكرية

أ ـ بلغ سلاح الطيران اليهودى قبل شهر تقريبا :

٥٠ طائــرة مطاردة من طراز مسر شمت وسبتفاير •

٨ طائرات من طراز سكاى ماستر •

٥٠ قاذفة قنابل من طراز بوفايتر وبتشكرافت •

ويتقاضى الضابط الطيار راتبا شهريا قدره ٢٥٠ جنيها بالاضافة الى الطعام والســكن والامتيازات الاخرى •

ب ـ عند بدء العمليات الحربية ضد القوات المصرية في ١٥ اكتوبر سنة ١٩٤٨ بلغت القوات اليهودية حوالى ١٠٠ الف من اليهود الشرقيين والروسيين والبولنديين والايطاليـــين والفرنســـيين •

ج ـ لدى اليهود فرقتان مدرعتان ومدرعاتها من طراز هوتشكس وشرمان وتايجر وهمبر ولديهم سيارات كشافة ذات اربع عجلات و ٨ عجلات Scouts Cars مثل التي كانـــت تستعملها وحدات البانزر الالمانيـة •

د ـ لدى اليهود الآن ٢٠ مطارا كبيرا منها ٦ في منطقة بئر السبع •

هـ ـ لدى اليهود مدفعية جديدة من عيار ٧٥ مم و ٩٥ مم و ١٠٥ مم و (٢٥ رطلا) وذخيرتها متوفـرة •

و ـ اصبحت معظم البنادق التي تحملها القوات اليهودية من الطراز السريع الحديث •

ز ـ يعمل في مركز رئاسة اركان حرب القوات اليهودية ضباط من الروس والامريكيين والانجليز وعددهم (٥٠) •

ح ـ يوجد لدى اليهود الآن من الوحدات البحرية ١٠ طرادات ومدمرات صغيرة ويعتقـــد انه اصبح لديهم غواصات ايضا وقيل ايضا أنهم تمكنوا من اختراع الطوربيد البشـــرى الذى استعملته اليابان في الحرب الاخيرة •

ط ـ اقام اليهود مصانع لرشاشات الستن والذخيرة على مختلف انواعها تحت الارض •

ى ـ معظم رجال المدفعية جىء بهم من رمانيا وتشيكوسلوفاكيــا •

ك ـ لدى اليهود ١٢٠ مستشفى ميدان •

(٣)

ل ـ يعتمد اليهود على الاسلحة السريعة الثقيلة من طراز لافاييت وبهاندو ولمكرز • وقد قاموا بتجربة نجحت فى الهجوم الخاطف وهى استعمال سيارة جيب مصفحة جزئيا وتحمل رشاشى سباندو فى المقدمة واثنين فى المؤخرة •

م ـ اشترك يهود مصريون وعراقيون ويمنيون وسوريون ومراكشيون فى القتال ضد الجيوش العربية فى فلسطين •

ن ـ لا حصار بحرى على اسرائيل •

س ـ رواتب الجيش اليهودى كما يلى ٥ر٣ جنيه للنفر وضابط الصف و ٦ جنيهات للملازم و ٨ جنيهات لليوزباشى و ١٧ جنيها لرئيس اركان حرب • وللاجانب امتيازات خاصة :

ع ـ تقوم القوات اليهودية بتمرينات يومية على الاساس الآتى : ـ

كل سرية من المشاة يتعاون معها بطارية مدفعية ووحدة دبابات صغيرة وفرقة ألغام وسرب طائرات اما فرقة الفدائيين (الكوماندز) فقد اصبحت ذات خبرة مدربها الاجانب وطول تدريبها اخطر فرقة فى الجيش اليهودى يرأسها ضابط انكليزى برتبة بريجادير (تاج وثلاثة نجوم) كان يعمل اثناء الحرب الكبرى الثانية فى مدرسة التدريب العسكرية الانجليزية بالقرب من عكا وقد درب وقتها عدد كبير من قوات الهاجانا وهو متزوج من فتاة يهودية •

ف ـ خسر اليهود فى المدة الواقعة بين ١٥/١٠/١٩٤٨ و ٧/١/١٩٤٩ حوالى عشرة آلاف قتيل وجريح •

ص ـ يخشى اليهود القوات المتطوعة من المجاهدين وغيرهم •

ق ـ تستخدم السلطات اليهودية الرجال والنساء للمجهود الحربى فى الخطوط وورائها •

ر ـ يؤمن اليهود بمبدأ الهجوم وهم لا يتوقعون هجوما عربيا على دولتهم ولذا تراهم يعملون ليل نهار استعدادا للمبادرة • فمن الخطأ اذن ان تقف الدول العربية موقف الدفاع • بل عليها الاستعداد للمبادرة بهجوم لا يتوقعه اليهود • وأبعد ما يتوقعه اليهود انزال جنود غزاة على شواطئهم • فماذا لا تكون هذه خطتنا او جزءا منها •

ش ـ لدى اليهود مدافع مضادة للطائرات روسية وتشيكوسلوفاكية عجيبة فى نوعها لم ير مثلها فى الشرق بعد •

ت ـ يضمر اليهود كل سوء لأهل الخليل لذا يجب مضاعفة قوات الدفاع عن تلك المنطقة • ان لموقع الخليل قيمة ستراتيجية عظيمة ومن الضرورى ان تحتفظ السلطات العربية بهذا الموقع بأى ثمن اذا كانت هى تفكر فى العودة الى الميدان للثأر ولإنقاذ فلسطين •

ـ(الاقتراحات)ـ

أ ـ من الضرورى حث القرى العربية المجاورة للحدود اليهودية اتباع نظام المستعمرات اليهودية العسكرية كبناء ابراج المراقبة وبناء الاستحكامات والخنادق الاحتياطية ومد الاسلاك الشائكة وتشجيعهم على التدريب العسكرى وبث الألغام •

ب ـ تشكيل وحدات غوريلا لتعرض هجمات اليهود بنسف جسورهم وتعطيل مواصلاتهم وتخريب مصانعهم

ج ـ العمل على ايجاد مصانع ذخيرة فى البلاد العربية وللاسلحة الخفيفة •

منير ابو فاضل
المفتش العام لجيش الجهاد المقدس

٧/٤/١٩٤٩



التقارير العلمية

تقرير عن
مركز
تاريخ مصر المعاصر

إعداد

أ. فاطمة عبد الحميد

مدير عام مركز تاريخ مصر المعاصر

تقرير عن مركز تاريخ مصر المعاصر

بداية أود أن أعطى نُبذة عن تاريخ المركز وتطوره . فقد أنشئ المركز فى ١٩٦٤/٦/٢٥ بمقضتى قرار وزير الثقافة والإرشاد القومى باسم[مركز دراسات التاريخ القومى] ويتبع مصلحة الاستعلامات ثم صدر القرار الوزارى رقم ١٤٥ بتاريخ ١٩٦٧/٧/٢٧ بتغيير اسم المركز إلى [مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر] وصار المركز تابعا للسيد وزير الثقافة وفى عام ١٩٦٨ أصبح إدارة عامة داخل الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق المصرية .

الهدف من إنشاء المركز :

هو تأصيل دراسات تاريخ مصر المعاصر والعمل على نشر الثقافة التاريخية لتنمية الوعى بالتاريخ وذلك بالتعاون مع الهيئات والأفراد .

ويشرف على المركز لجنة علمية رفيعة المستوى من كبار الأساتذة المتخصصين ويرأسها أ.د. يونان لبيب رزق وعضوية كل من أ.د. رؤوف عباس حامد ، أ.د.عمر عبدالعزيز عمر، أ.د.جمال زكريا قاسم ، أ.د.عبد الوهاب بكر محمد ، أ.د. لطيفة محمد سالم، أ.د. محمد صابر عرب ، د. يواقيم رزق مرقص ، أ. فاطمة عبد الحميد .

ولكى يحقق المركز الهدف من إنشائه فقد بذلت اللجنة العلمية المشرفة على المركز وجميع العاملين به جهدا كبيرا لقيام المركز بالمسئوليات المنوطة به وهى :-

- التحقيق العلمى للتراث الفكرى للزعماء وكبار رجال السياسة والمذكرات واليوميات لنشرها ودراسة الوثائق وترتيبها وتصنيفها وتحليلها .

- إقامة الندوات العلمية لموضوعات تاريخية لها أهميتها مثل ندوة فلسطين التى عقدت يومى ٢٣ ، ٢٤ فبراير ٢٠٠٠ والتى اقترحت اللجنة العلمية طبعها فى كتاب وهى عبارة عن إحدى عشر بحثا عن قضية فلسطين وقد تم طبعها فى كتاب صدر حديثا.

- إقامة المواسم الثقافية التى تهتم بالعديد من القضايا الفكرية والظواهر السياسية لإلقاء الضوء على المشكلات والظواهر السلبية فى المجتمع وكيفية الاستفادة من دروس الماضى عبر تاريخ مصر المعاصر. والموسم الثقافى الذى أقامه المركز هذا العام كان بعنوان [الانتخابات البرلمانية فى مصر فى ظل دستور ١٩٢٣] فبراير ، مارس إبريل ، مايو، يونيه ٢٠٠١ . وقد تم اختيار هذا الموضوع لما له من أكبر الأثر على المجتمع المصرى ومدى تحقيق الديمقراطية فى الأمس واليوم للوصول إلى غد مشرق تظلله الديمقراطية الحقيقية التى يحلم بها كل مصرى يعيش على أرض هذا الوطن.

وقد أُلقيت في الموسم الثقافى ستة محاضرات هى :

١- استخدام المصريين لحقوقهم الانتخابية - د. عزة وهبى و المستشار طارق البشرى .

٢- عضوية البرلمان بين كبار الملاك ورجال الأعمال - أ. سعد فخرى عبد النور و أ.د. رفعت السعيد.

٣- إدارة الانتخابات فى ظل دستور ١٩٢٣ - أ.د. عبد الوهاب بكر و أ.د. جمال زكريا قاسم .

٤- تطور ظاهرة المستقلين عبر التاريخ - أ.د. يونان لبيب رزق و أ.د. نازلى معوض

٥- الانتخابات البرلمانية فى مصر - أ. صلاح عيسى و أ.د. رؤوف عباس حامد

٦- الأحزاب والانتخابات من ١٩٢٣ - ١٩٥٢ - د. أحمد الشربينى و أ.د. حمادة إسماعيل .

ومن أهم الأعمال التى يقوم بها المركز خلال هذا العام :-

أولا : مشروع جمع تراث الدكتور طه حسين

وهذا العمل الضخم يشرف عليه أ.د. رؤوف عباس حامد ويهدف هذا المشروع إلى جمع تراث الدكتور طه حسين وذلك بجمع كل ما كتبه من الدوريات فى مختلف المجالات وقد انتهت المرحلة الأولى من المشروع وهى جمع المادة العلمية والتقسيم الموضوعى للمقالات وترتيبها زمنيا وسوف يصدر هذا العمل فى ستة مجلدات ونظرا لضخامة الجزء الخاص بالسياسة فى مقالات د. طه حسين فقد خصص له ثلاثة مجلدات يكتب المقدمة والدراسة التحليلية والنقدية لها المشرف العام على المشروع أ.د. رؤوف عباس حامد ويتعاون معه الأستاذ إبراهيم عبد العزيز الذى يقوم بكتابة المقدمة والدراسة التحليلية والنقدية لأدب الدكتور طه حسين . كما شارك فى المشروع أ.د. سعيد إسماعيل على بكتابة الدراسة التحليلية لجميع مقالات التعليم نظرا لخبرته الطويلة فى هذا المجال ، ولإلقاء الضوء على نظام التعليم فى مصر والدور المؤثر للدكتور طه حسين فيه ويكتب د. مصطفى عبد الغنى دراسة تحليلية للمقالات المتنوعة فى كتابات الدكتور طه حسين. ويبذل فريق العمل من الباحثين بمركز تاريخ مصر المعاصر قصارى جهدهم ليظهر هذا العمل فى أكمل صورة ترقى إلى مستوى الوثيقة لتراث الأستاذ الدكتور طه حسين .

ثانيا : مشروع الثبت الببليوجرافى لكتب تاريخ مصر المعاصر خلال الفترة ١٩١٤ إلى ٢٠٠٠ ويشرف على هذا العمل أ.د. عبد الوهاب بكر .

يهدف هذا المشروع إلى عمل حصر شامل لكتب تاريخ مصر المعاصر فى الفترة الزمنية التى حددها البحث ؛ يكتب لكل كتاب بطاقة فهرسة تحتوى على جميع البيانات الببليوجرافية وقد بلغ عدد الكتب ٢١٣٤ كتاب وتم حصرها من خلال الكتب المودعة بدار الكتب والوثائق القومية كما يكتب تنويه عن كل كتاب للتعريف بمحتواه لكى يستفيد الباحث الذى يعمل فى هذا المجال من هذا الثبت الببليوجرافى ، وقد

انتهت المرحلة الأولى من هذا المشروع وهى جمع البيانات وكتابة البطاقات وبدأت المرحلة الثانية وهى عمل تصنيف موضوعى لهذه الكتب وتحت كل عنوان فرعى توضع الكتب الخاصة به مثل التاريخ الدبلوماسى والسياسى، المرأة، علاقات مصر الخارجية ، تاريخ مصر العام ، التاريخ العسكرى والحربى ، القضية الفلسطينية ، تاريخ الفكر ، تاريخ الإعلام و الصحافة ... وهكذا

ثالثا : مذكرات عبد الرحمن فهمى ويشرف على هذا العمل أ.د. يونان لبيب رزق

جارى العمل فى تحقيق هذه المذكرات وذلك فى الجزء الرابع والخامس مع استكمال الأجزاء التى تحتاج إلى توثيق وذلك من الدوريات والمراجع وجميع المصادر المختلفة التى تفيد هذا العمل .

رابعا : مشروع حركة الترجمة فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين

ويشرف على هذا العمل أ.د.محمد صابر عرب ود. عز الدين إسماعيل

قررت اللجنة العلمية إصدار القسم الأول من هذا المشروع بعنوان [الترجمة فى مصر خلال القرن التاسع عشر «عصر التنوير»] وقد قام الباحثون بجمع المادة العلمية من الوثائق والرسائل الجامعية والمراجع والدوريات الموجودة بالهيئة وقد تم توجيههم إلى خارج الهيئة لجمع كل ما يتعلق بالموضوع وتصويره من جامعة القاهرة، جامعة عين شمس ، جامعة الأزهر ، متحف التعليم ومركز اللغات والترجمة بالأهرام كما اعتمدت اللجنة خطة البحث ويقوم الباحثون الآن بكتابة المادة العلمية طبقا للخطة الموضوعة والتقسيمات الداخلية بها .

خامسا : مجلة مصر الحديثة

وهذه المجلة سوف تصدر سنويا ويرأس تحريرها أ.د. جمال زكريا قاسم ويشاركه هيئة تحرير من أعضاء اللجنة العلمية المشرفة على المركز .

وتعنى هذه المجلة بنشر البحوث والدراسات ذات المستوى الرفيع وتخضع البحوث والمواد العلمية التى تقدم للمجلة للتحكيم العلمى وفق ضوابط موضوعية .

المواسم الثقافية والمؤتمرات العلمية(●)

●ثمانون عاما على ثورة ١٩١٩

افتتح مركز تاريخ مصر المعاصر أول مواسمه الثقافية بثورة ١٩١٩ ،حيث اغتنمت اللجنة العلمية المشرفة على المركز فرصة مرور ثمانين عاما على قيامها فكان أول لقاء ثقافى فى مارس ١٩١٩ .

وقد اشتمل برنامج الموسم الثقافى على ست محاضرات كان أولها فى ٢٢ مارس ١٩٩٩ للأستاذ **سعد فخرى عبد النور** الذى قدم افتتاحا للموسم فكانت محاضرته تحت عنوان «**الوحدة الوطنية فى ثورة ١٩١٩**»، التى أكد من خلالها أننا جميعا ننتمى إلى هذه الأمة واستشهد على ذلك بأحداث الثورة فكان السلطان فؤاد على الرغم من تعيينه من قبل الإنجليز إلا أنه كان لديه شعور وطنى ، ففى جميع المراحل التى مرت بها الثورة كان الشعب يلجأ إليه فيستقبلهم، وانطبق الحال على جميع أمراء مصر بلا استثناء محمد على توفيق ابن الخديو توفيق وأخو عباس كان يستقبل فى بيته سعد زغلول والقائمين بالحركة.

الموظفون ،التجار ، المثقفون ،رجال الدين ،جميعهم سواء كانوا مسلمين أو أقباطا انضموا للحركة الوطنية ، الشيخ البكرى والشيخ أبو الوفا ، القمص سرجيوس يثور ويخطب فى الأزهر على مدى ساعتين ،الشيخ أبوالعيون يخطب فى كاتدرائية الأقباط ، رجال الفن ، المثالون . لقد أثبتت ثورة ١٩١٩على الصعيد العملى أن الدين لله والوطن للجميع.

كانت المحاضرة الثانية للأستاذة الدكتورة **لطيفة محمد سالم** تحت عنوان «**إرهاصات ثورة ١٩١٩**» ، وقد تناولت فى ورقتها الملابسات والظروف التى عاشتها مصر

(●) أعد التقارير عن المواسم الثقافية والمؤتمرات العلمية مجموعة من باحثى المركز وهم: آمنة حجازى ، عبدالرازق عيسى، حنان محمود، حسام عبد المعطى بإشراف أ.د. عبدالوهاب بكر، ود. محمد رفعت إمام.

إبان الحرب العالمية الأولى على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتى مثلت إرهاصات ثورة ١٩١٩ وعدت إيذانا بمقدمات هذه الثورة.

قدم الأستاذ **لمعى المطيعى** المحاضرة الثالثة تحت عنوان**«رؤية نقدية لشخصيات ثورة ١٩١٩»**، قام فيها بتناول شخصيات جديرة بإلقاء الأضواء عليها وهى سعد زغلول، محمد طلعت حرب ، إسماعيل صدقى ،عدلى يكن ، مصطفى النحاس، محمد محمود، صفية زغلول وأخيرا هدى شعراوى ، وقد اعتبرهم الأبطال الحقيقيين لثورة ١٩١٩ فعن طريقهم تم التحرير السياسى والاقتصادى والاجتماعى للوطن ٠

وتحت عنوان **«القصر وثورة ١٩١٩»** قدم د٠ **سامى أبو النور** محاضرته موضحا فيها دور القصر منذ عباس حلمى الثانى ومحاولاته المستميته لتخليص العرش من مظاهر التبعية للوجود الاحتلالى ، وعلى الرغم من أن سياسة الملك فؤاد عند توليه السلطة كانت صادرة عن تعضيد سلطة القصر فى مواجهة الاحتلال ، وسعيا لذلك احتوى القوى الوطنية بتبنيه قضية الاستقلال إلا أنه باندلاع ثورة ١٩١٩ تراجع القصر عن تأييده للحركة الوطنية ، ليبعد عن نفسه شبهة أن يكون عاملا محركا للثورة .

وعن دور **«الصحافة المصرية فى ثورة ١٩١٩»** تحدث د. **رمزى ميخائيل** ، مبينا مشاركة الصحفيين والإداريين وعمال المطابع بأشخاصهم فى أعمال الثورة والتى بدون شك قد تحملوا عواقبها . وانتقل فى حديثه إلى صدور قانون منع التجمهر فى ١٨ أكتوبر ١٩١٤ مع إعلان الأحكام العرفية فى الثامن من نوفمبر وما صاحبهما من فرض الرقابة العسكرية البريطانية على الصحافة ، إلى جانب الرقابة المدنية والتى اكتملت بإعلان الحماية فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ ، فشدد الاحتلال قبضته الحديدية . ومنذ توقف الصحف الحزبية الثلاثة الكبرى الشعب/ الجريدة/ المؤيد بدأت إرهاصات الثورة وجاء تأليف الصحفيين لنقابتهم فى إبريل ١٩١٩ .

وأخيرا جاءت محاضرة أ.د. **أحمد ابراهيم دياب** ليصف لنا «**أثر ثورة ١٩١٩ على السودان**» وليؤكد أن آثار ثورة ١٩١٩ لم تكن وقفا على مصر وحدها بل تعدتها لغيرها من البلاد والشعوب وذلك عندما أيقظت النشاط الوطنى فى السودان .

وبعد أن ختم مركز تاريخ مصر المعاصر موسمه الثقافى الأول قام بنشر المحاضرات الست فى كتاب بعنوان **ثمانون عاما على ثورة ١٩١٩** ، قام الأستاذ الدكتور **يونان لبيب رزق** مقرر اللجنة العلمية للمركز بكتابة مقدمة له موضحا فيها أن هذا العمل هو باكورة أعمال اللجنة العلمية المشرفة على مركز تاريخ مصر المعاصر، كما كتب الأستاذ **سمير غريب** رئيس مجلس الإدارة تقديما لهذا الموسم الثقافى .

* * *

***حرب فلسطين بعد خمسين عاما**

بين يومى ٢٣- ٢٤ فبراير ٢٠٠٠ ، عقد مركز تاريخ مصر المعاصر ندوة تحت عنوان «فلسطين بعد ٥٠ عاما على حرب ١٩٤٨».

رأس الجلسة الأولى الأستاذ الدكتور **يونان لبيب رزق** وتحدث فيها كل من الأستاذ الدكتور محمد عبد الرؤوف سليم عن « لجنة التحقيق » ، والدكتور سامى أبو النور عن « دور القصر أثناء حرب فلسطين » ، والدكتورة عايدة السيد سليمة عن «أثر حرب فلسطين على الهوية العربية لمصر» .

وفيما يتعلق بدراسة د. **سامى أبو النور** ، فقد تطرق فيها إلى المحاور التالية : القصر بين الاتجاهات الإسلامية والعربية ، القضية الفلسطينية فى دائرة اهتمامات القصر، الجيش المصرى فى حرب فلسطين ، صفقة الأسلحة الفاسدة بين الجيش والقصر. وانتهى فى دراسته إلى أن حرب فلسطين واشتراك الجيش المصرى فيها ، وما ترتب على ذلك من نتائج كانت بمثابة الخطوة الأولى للتمهيد لثورة يوليو ١٩٥٢ .

وقدمت د. عايدة السيد سليمة ورقتها تحت عنوان «**أثر حرب فلسطين على الهوية العربية لمصر** » ، وفى محاولة منها للتأريخ لحركة الفكر القومى العربى منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، توصلت إلى أن مصر ظلت بعيدة عن تلك الفكرة حتى عقدت معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا ، تلك المعاهدة التى نتج عنها سلوك مصر لسياسة خارجية منفصلة عن بريطانيا ، ومن ثم أصبح هناك التزاما مصريا بالقضايا العربية بوجه عام والقضية الفلسطينية بوجه خاص .

أما الجلسة الثانية ، فقد رأسها أ.د. **رؤوف عباس حامد** وتحدث فيها د. **عماد جاد** عن «إعادة قراءة شبكة العلاقات الإقليمية والدولية خلال حرب فلسطين » ، وأ. د. **عبدالوهاب بكر** عن « الحقيقة التاريخية حول قضية الأسلحة الفاسدة» وأ..د. **عبد الله عزباوى** عن « النتائج السياسية لحرب فلسطين».

وفى ورقته ، فند د. **عبد الوهاب** قضية الأسلحة الفاسدة ووصفها بالأسطورة . ووصل إلى أن أسباب هزيمة الجيش المصرى فى فلسطين كانت الجهل بالعدو ، الجهل بالخطط الحربية ، سوء التدريب ، فشل القيادة ، ذكاء العدو ، أخطاء مسئولى وضع الخطط الحربية وأركان الحرب ، دائرة التخطيط ، ضعف الجيش وعدم صلاحيته للقتال .

وعالجت ورقة د. **عبد الله عزباوى** أثر الحرب على المسألة الوطنية والصراع الاجتماعى فى مصر ، بما فى ذلك إعلان الأحكام العرفية وقيام موجة الاعتقالات ، تأثير الحرب على الحركات الأيديولوجية المصرية وعلى العلاقات المصرية البريطانية، وقيام تنظيم الضباط الأحرار وثورة يوليو ١٩٥٢ ، وانعكاسات الحرب على «الفكر القومى العروبى» فى مصر .

ورأس أ.د. **جمال زكريا قاسم** الجلسة الثالثة فى اليوم الثانى من الندوة واشترك فيها أ.د. **عادل حسن غنيم** بموضوع عن «**جيش الانقاذ**» ، أ.د. **محمد خالد الأزعر** عن «**قوات الجهاد المقدس فى حرب فلسطين**» ، د. **زكريا أحمد سعد** عن« **الكونت فولك برنادوت** ».

رصد د. **عادل غنيم** ظاهرة اشتراك المتطوعين فى الحرب العربية الإسرائيلية وركز على قوات الإنقاذ من حيث تشكيلها وتعدادها وتوزيعها وأماكن تواجدها والمعارك التى خاضتها واختتم د. غنيم دراسته برؤية تقييمية لجيش الإنقاذ على ضوء الرؤى العربية والإسرائيلية .

وتحدث د. **محمد خالد الأزعر** فى بحثه عن نشأة الجهاد المقدس ثم علاقته بثورة ١٩٣٦ . وتطرق إلى قرار تقسيم القدس وإعادة إحياء الجهاد المقدس ثم استعراض الجهاد المقدس فى ميدان القتال حتى تصفيته .

وتناول د. **زكريا أحمد** موضوعا عن «العرب وجهود الوسيط الدولى فولك برنادوت». تطرق فيه إلى تعيين فولك برنادوت وسيطا دوليا ومساعيه لعقد الهدنة بين العرب وإسرائيل والتسوية السلمية فى فلسطين ، ثم استعرض الهدنة الثانية ومقترحاتها النهائية .

أما الجلسة الرابعة والأخيرة، فقد رأستها أ.د. **لطيفة سالم** وتحدث فيها أ.د. **عبد العزيز نوار** عن «العراق فى النصف الأول من القرن العشرين وانعكاسات المسألة الفلسطينية على سياساته»، وتحت عنوان إنعكاسات حرب ١٩٤٨ على العلاقات المصرية الأردنية قدم أ.د. **عبد المنعم الجميعى** بحثا تناول فيه التنافس الملكى بين مصر والأردن حول ملء الفراغ فى القسم المتبقى من فلسطين ، رد فعل الجامعة العربية بعد حرب ١٩٤٨ ، موقف الأزهر من الأوضاع المتوترة فى المنطقة العربية ، رد فعل الصحف المصرية، موقف الدول العربية من النكبة.

وفى ورقته تحت عنوان «**حزب الوفد المصرى وحرب فلسطين ١٩٤٨**» ، شرح د. **أحمد حامد السيد**موقف حزب الوفد من اقتراح اللجنة الأمريكية البريطانية لتقسيم فلسطين ، والذى تمثل فى إصدار بيان إلى الأمة فى ٦ مايو ١٩٤٦ يستنكر فيه المشروع موضحا مساوئه كما تناول سياسة الوفد تجاه القضية الفلسطينية وموقف حكومات الأقلية من ذات القضية .

واختتمت الندوة بمجموعة من التوصيات خلاصتها أن هذه الندوة كانت بمثابة محاولة نفخ نيران الذاكرة العربية لعلها تستيقظ فتحاول استنقاذ بعض ما فقدته هذه الأمة وهى محاولة استعادة دروس مضى عليها نصف قرن .

***

*** ثانى المواسم الثقافية للمركز كان تحت عنوان مصر واستشراف المستقبل... قضايا قديمة حديثة ، بدأ هذا الموسم فى العاشر من أبريل ٢٠٠٠ وعلى مدى خمس محاضرات كان آخرها فى الثانى عشر من يونيو ٢٠٠٠.**

جاءت المحاضرة الأولى للأستاذ الدكتور **سمير حنا صادق** تحت عنوان «**بين العلم والخرافة**» لتؤكد أن مصر صاحبة الحضارة الرائعة تستحق ثقافة تعتمد على العلم وتحارب كل ما هو خرافى ، حتى نستطيع أن نحقق أهدافا عظيمة فى مجالات الصحة والتعليم والاتصالات والمعلومات والأمن القومى ، ومن ثم تتضاءل الفجوة الهائلة بيننا وبين العالم المتقدم، تلك الفجوة التى تتسع يوما بعد آخر .

كانت «**العلاقة مع الغرب بين نظرية المؤامرة والتحدى الحضارى**» عنوان المحاضرة التى قدمها الأستاذ الدكتور **عبد المنعم سعيد على** الذى أبرز من خلالها خطوط ومسارات المؤامرات على عالمنا العربى والإسلامى من قبل أمريكا والغرب الأوربى التى وصفها بالمؤامرات الإمبريالية المحكمة .

وقد بلورها بشكل سريع فى مؤامرة الأحداث اليومية مثل حادث طائرة مصر للطيران ١٩٩٩ ، المؤامرات الكبرى على الأمة العربية والإسلامية :العراق والكويت ، البوسنة وكوسوفو ، الأزمة التركية السورية ، أثيوبيا وجنوب السودان ... الخ.

قدم الأستاذ الدكتور **يونان لبيب رزق** ورقته«**الأحزاب المصرية بين البرامج والزعامات الشخصية**» موضحا خلالها أن مصر عرفت ثلاث تجارب حزبية ؛ الأولى ١٩٠٧ - ١٩١٤ والثانية ١٩١٩ - ١٩٥٣ والثالثة هى التجربة الأخيرة التى تعيشها والتى

قارب عمرها من الربع قرن اتضحت من خلالها ثمة سمات اشتركت فيها التجارب الحزبية الثلاثة فى أنها لم تخرج عن كونها متشابهات (تكرار) ، ومن هذا المنطلق فهى لم تتأثر بفارق الزمن فيما بين أوائل القرن العشرين وأواخره .

«**الإحتكام إلى العقل بين طه حسين ونصر حامد أبو زيد**» عنوان المحاضرة الرابعة وكانت للأستاذ **محمود أمين العالم** والتى وضح من خلالها ضرورة استخدام العقل أو العقلانية فى تناول قضايانا الخلافية وغير الخلافية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأدبية وغيرها .

وأُختتم الموسم الثانى بمحاضرة للأستاذ الدكتور **حامد عمار** تحت عنوان «**بين العودة للكتاتيب والانطلاق نحو التعليم العصرى**»، أوضح فيها أن نظام التعليم ومؤسساته هى ساحة هامة من الساحات التى تموج بها المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية وما تضطرب به من صراع وتباين فى الرؤى والفكر .

***

*** الانتخابات البرلمانية فى مصر فى ظل دستور ١٩٢٣ كانت المحور الرئيسى الذى دارت حوله محاضرات الموسم الثقافى الثالث لمركز تاريخ مصر المعاصر ، والذى بدأ فى التاسع عشر من فبراير ٢٠٠١ وانتهى فى الرابع من يونيو ٢٠٠١ .**

فى المحاضرة الأولى تحدثت د. عزة وهبى عن «**استخدام المصريين لحقوقهم الانتخابية** » حيث أدار اللقاء المستشار **طارق البشرى**.

تناولت د. عزة الموضوع متخذة من دستور ١٩٢٣ نقطة محورية فى التاريخ السياسى المصرى وهو نقطة الارتكاز والبدء ، ثم تناولت الممارسة للحقوق الانتخابية عبر هذا التاريخ الطويل منذ ١٩٢٣ وحتى الآن وذلك من خلال إلقاء الضوء على أهم النقاط .

تحدثت د. عزة عن كيف قُنِّنت القوانين الانتخابية والوثائق الدستورية للحقوق النيابية للمصريين . كما ألقت الضوء حول الممارسة السياسية للحقوق الانتخابية ، ورصد الظواهر وثيقة الصلة بهذه الممارسة مثل حجم المشاركة السياسية وأيضا ظاهرة المستقلين وظاهرة العصبيات والتكتلات الانتخابية وأثرها فى السلوك الانتخابى ، وأيضا مشاركة المرأة ومشاركة الأقباط .

كما ناقشت بعض التقنيات الدستورية والقانونية والسياسية التى عاقت ممارسة الحقوق السياسية ورصد عدد من الظواهر مثل الجداول الانتخابية والدوائر الانتخابية والطعون والإشراف القضائى . وأخيرا ناقشت بعض القيود السياسية التى حالت دون ممارسة بعض الفئات لحقوقها السياسية مثل قوانين العزل السياسى .

كانت المحاضرة الثانية للأستاذ **سعد فخرى عبد النور** تحت عنوان «**عضوية البرلمان بين كبار الملاك ورجال الأعمال الجدد**» ، التى ألقى فيها الضوء على قوانين الإصلاح الزراعى ، وعن دستور ١٩٢٣ ودستور ١٩٣٠ ثم الدستور الحالى لعام ١٩٧١ «دستور التصحيح » كما أطلق عليه !!

وعند حديثه عن رجال الأعمال الجدد ألمح أن هذا المصطلح لاوجود له فى أى دستور من الدساتير أو أى قاموس من القواميس وهو ترجمة لكلمة أجنبية وهى (بزنس مان)ـ فى قانون المال ـ سواء كان عقار أو منقول فرجال الأعمال الجدد هم فى حقيقة الأمر رجال مال ، ومصر مليئة بهذه النوعية من الرجال أمثال محمد طلعت حرب منذ عام ١٩٢٠ حتى قيام الثورة .

وفى المحاضرة الثالثة تحدث أ.د **عبد الوهاب بكر** «**حول إدارة الانتخابات فى ظل دستور ١٩٢٣** ». مشيرا إلى أن مصر شهدت فى ظل دستور ١٩٢٣ حوالى عشر هيئات نيابية والمقصود هنا بالهيئة النيابية هى تلك الدورة البرلمانية التى مدتها خمس سنوات بعد ظهور نتيجة الانتخابات ، وسنوات هذه الهيئات هى ١٩٢٤ , ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ ، ١٩٤٢ ، ١٩٤٤ ، ١٩٥٠ .

ولا توجد هيئة من هذه الهيئات أكملت المدة الكافية فى البرلمان ، فالهيئات الثلاث الأولى استمرت أقل من ثلاث سنوات بدلا من مدتها الطبيعية وهى خمس عشرة عاما ، وذلك نتيجة للظروف السياسية التى كانت تمر بها البلاد .

كما ناقش وصول الوفد للسلطة وإحساسه بوجود الشارع السياسى بجواره مما جعله يشعر بأنه يمكن أن يكون هناك نوع من الصدام إذا واجه الملك ، وجاء هذا سريعا فى الدورة البرلمانية الأولى حول الخلاف على حقوق الوزارة وحقوق الملك .

وأخيرا ناقش اتحاد أحزاب الأقلية والقصر ضد الوفد وشعبيته واستخدم فى ذلك أساليب غير قانونية وغير دستورية فى منع الوفد من الوصول للسلطة بوسيلتين هما:

١- الإعتداء على الدستور عن طريق الانقلابات الدستورية التى تجريها إحدى وزارات الأقليات .

٢- استخدام جهاز الإدارة فى حالة الاضطرار لإجراء انتخابات جديدة عن طريق تزييف الانتخابات .

كانت المحاضرة الرابعة للأستاذ الدكتور **يونان لبيب رزق** تحت عنوان **«تطور ظاهرة المستقلين عبر البرلمانات المصرية»** .

حيث تتبع فى هذه المحاضرة ظاهرة المستقلين فى انتخابات ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣٦ ، ١٩٤٥ ، وسعى لتفسير أسباب وجودهم واستمرارهم .

وفى المحاضرة الخامسة تحدث أ. **صلاح عيسى** عن **« تطور دور الطبقة الوسطى فى الانتخابات»** فعلى امتداد قرنين ومنذ الحملة الفرنسية وأول حركة مقاومة تصدت لها بقيادة نقباء الحرف والتجار بدأ دور الطبقة الوسطى المصرية السياسى بكل ما فى ذلك من إيجابيات وسلبيات وفي خلال هذه الفترة تغير تركيب هذه الطبقة فخرجت منها شرائح ودخلت إليها شرائح تأثرا بالتغيرات الكثيرة فى مصر والعالم من حولها .

وفى المحاضرة السادسة تحدث د. **أحمد الشربينى** عن «**الأحزاب والانتخابات من ١٩٢٣ : ١٩٥٢** ».حيث تناول الخبرة الانتخابية للشعب المصرى التى دخل بها القرن العشرين وهذه الخبرة ناشئة عن الحياة النيابية التى بدأت بإنشاء الخديو إسماعيل لمجلس شورى النواب فى سنة ١٨٦٦ ، وإذا كان انتخاب أعضاء هذا المجلس قد اقتصر على المشايخ والعمد والأعيان فإن قانون الانتخابات المصاحب لدستور ١٨٨٣ الذى نقل مصر من الحكم المطلق للحكم الديمقراطى النيابى البرلمانى قد خطا بالحق الانتخابى للأمام فأقر حق الانتخاب غير المباشر لبعض شرائح المجتمع المصرى .

وعلى الرغم مما تقدم من حق الاقتراع لكل مصرى يبلغ سن العشرين فإن الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى لم تشهد ما يمكن أن يسمى بمعارك انتخابية على الرغم من ظهور الأحزاب المختلفة ومواقفها المتناقضة بشأن قضيتى الجلاء والدستور باعتبارهما أهم قضايا ذلك الوقت .

ولكن الأمر أصبح جد مختلف بعد دستور ١٩٢٣ فى ظل المنافسة بين الأحزاب على الوصول للحكم وفى ظل المناخ الليبرالى الذى أتاحه دستور ١٩٢٣.

* * *

* الفلسفة وتاريخ العلوم فى مصر فى ١٠٠ عام

فى الفترة (٥-٧ ديسمبر ١٩٩٩) عقدت الجمعية الفلسفية المصرية بالإشتراك مع مركز التراث العلمى بكلية العلوم جامعة القاهرة ندوة الفلسفة وتاريخ العلوم فى مصر فى ١٠٠ عام بقاعة ابن سينا بمكتبة كلية العلوم .

دارت محاور الندوة حول التيارات الفلسفية فى مصر-الفلسفة والعلم فى مصر-دراسات تاريخ العلم فى مصر فى ١٠٠ عام .

وعلى مدى أحد عشر جلسة قدم المحاضرون عدداً من الأبحاث القيمة. فى الجلسة الأولى وتحت عنوان (الفلسفة وتاريخ العلوم فى مصر فى مائة عام) تحدث الأستاذ الدكتور **حسن حنفى** عن (الفكر الفلسفى فى مصر فى مائة عام) وأعقبه أ.د. حامد عبد الرحيم عيد بورقة بعنوان (تاريخ العلم فى مصر فى ١٠٠ عام) .

كانت الجلسة الثانية مخصصة للفلسفة اليونانية والفكر الشرقى القديم ، وفيها تحدث أ.د. **مصطفى النشار** عما إذا كان هناك تاريخ عربى للفلسفة ، ثم تحدثت الدكتورة هالة أبو الفتوح فى موضوع عن الفكر الشرقى القديم ، وناقشت الدكتورة **هدى الخولى** موضوع الفلسفة اليونانية فى مصر ، وكانت ورقة د. **كريستيان فان نسبن** عن الفلسفة المسيحية فى مصر . أما السيد **يحيى زكرى** فقد ختم هذه الجلسة بورقة عنوانها (الفلسفة اليهودية فى مصر بين الفهم النصى والفهم الفلسفى).

فى الجلسة الثالثة وعنوانها (الكلام والفلسفة) تحدث أ.د. **عبد الأمير الأعسم** عن الدراسات الرشدية فى مصر وتبعه أ.د. **عبد اللطيف العبد** فتحدث عن الفلسفة الإسلامية فى مصر. وناقش أ.د. **عبد المعطى بيومى** (علم الكلام فى مصر بين التقليد والتجديد) وكان أ.د. **مصطفى لبيب** قد سبق هذه الورقة ببحث عنوانه (الفلسفة الإسلامية فى مصر ، الموضوع والمنهج ، وناقش أ.د. **السيد رزق حجر** الاتجاهات والآراء فى الفلسفة والكلام .أما الدكتور **يوحنا قلته** فقد قدم ورقة بعنوان (حوار الأديان فى مصر) .

كانت الجلسة الرابعة مخصصة لدراسة التصوف والأصول وتاريخ الأديان وفيها تحدث أ.د. **إبراهيم ياسين** عن« التصوف فى مصر ، التصوف النظرى نموذجاً » ، تلاه أ.د. **عبد الحميد مدكور** عن أصول الفقة فى مصر ، وكانت ورقة أ.د. **محمد حسن خليفة** عن تاريخ الأديان فى مصر ، وقدم أ.د. **محمد الشرقاوى** ورقة بعنوان (مقارنة الأديان فى مصر بعض التواريخ) ، وكانت ورقة أ.د. **أسامة خليل** عن (الفلسفة فى مصر

بين النقل والإبداع) أما الأستاذ الدكتور **صلاح قنصوة** فقد ناقش (مساهمة مصر فى فلسفة العلم).

وفى اليوم الثانى للندوة افتتحت الجلسة الخامسة والتى كان عنوانها (الفلسفة الحديثة والمعاصرة) ببحث بعنوان (نظرية العلم الإسلامية) للأستاذة الدكتورة **سهام النويهى** رئيس الجلسة ثم قدمت أ.د. **قدرية إسماعيل** بحثاً بعنوان (الفلسفة المعاصرة فى مصر ، إسهامات متواضعة) ، وناقش الدكتور **محمد مدين** موضوعا بعنوان (الفلسفة الحديثة فى مصر ، التحليل نموذجاً) ، وقدم الدكتور محمد هاشم دراسة بعنوان (ظاهريات التأويل فى مصر) ، وناقش الدكتور **بهاء درويش** فى ورقته(فلسفة العلم فى مصر) ، وعن الماركسية كنموذج قدم الدكتور **أنور مغيث** ورقة عن الفلسفة الحديثة فى مصر ، ثم ناقش الدكتور **الزواوى باغورة** موضوع البنيوية فى مصر. وكان الزمان عند **عبدالرحمن بدوى** هو ختام الجلسة فى دراسة الدكتور **ظريف حسين** .

فى جلسة الفلسفة والعلوم الإنسانية تحدثت الأستاذة الدكتورة **وفاء إبراهيم** عن (فلسفة الفن فى مصر) وتبعها الدكتور **رمضان بسطاوى** بورقة عن (النقد الأدبى فى مصر) ثم ناقش الدكتور **أحمد عبد الحليم** قضية (فلسفة الأخلاق فى مصر) وعالج الدكتور **محمد عثمان الخشت** فى ورقته التى قدمها للندوة (فلسفة الدين فى مصر). أما الأستاذ الدكتور **جهاد عودة** فقد قدم نماذج للفلسفة السياسية فى مصر ، وكان هذا الموضوع هو عين ما تناوله الدكتور **أيمن محمد** فى ورقته التى حملت عنوان (الفلسفة السياسية فى مصر) .

كان المنطق ومناهجه هو موضوع الجلسة السابعة من تلك الندوة فتحدث الأساتذة الدكاترة **على عبد المعطى** عن (مناهج البحث فى مصر) ، **وأحمد فؤاد** باشا عن (فلسفة تاريخ العلم والتقنية) **وأحمد القاضى** عن (العلم بين الازدهار والأفول فى الحضارة الإسلامية) **وإسماعيل عبد العزيز** عن (مساهمات مصر فى المنطق)، وختمت الدكتورة **عطيات أبو السعود** الجلسة بورقة بعنوان (فلسفة التاريخ فى مصر ، بعض النماذج).

وفى جلسة (فلسفة وتاريخ العلوم) تحدثت أ.د. **سهام النويهى** عن (فلسفة العلم الإسلامى)، وقدم الدكتور **عبد الحكيم بدران** دراسة عن (أكاديمية البحث العلمى وتاريخ العلم فى مصر) وهى دراسة يغلب عليها الطابع التقريرى ، وإن كان هذا لم يقلل من أهميتها .

وتحدثت الأستاذة الدكتورة **يمنى طريف الخولى** عن (فلسفة العلم فى مصر من أين وإلى أين ؟).أما أ.د. **جلال حسان** فقد ناقش دور الناشرين المصريين خلال مائة عام فى تاريخ العلم واختتم الدكتور **عبد الفتاح غنيمة** الجلسة بورقة عن تاريخ علوم المياه فى مصر .

وفى اليوم الثالث للندوة بدأت الجلسة التاسعة والتى كانت مخصصة (للرواد والمستشرقين) بورقة للدكتور **محمد هاشم** تحدث فيها عن (المستشرقون والرواد فى الجامعة المصرية) ثم قدم أ.د. **ماهر عبد القادر** ورقة بعنوان (عرب ومستشرقون فى مصر) ، وتحدثت أ.د. **آمنة نصير** عن (المستشرقون إيجاباً وسلباً) . أما أ.د. **نشأت حمارنة** فقد قدم ورقة عن (ماكس مايرهوف وأثره فى دراسة العلم العربى) وكانت ورقة أ.د. مصطفى شحاته عن (تطور الدراسات الطبية فى مصر) فى جلسة تحقيق المخطوطات وكانت ورقة الدكتور يوسف زيدان عن (جمع ونشر التراث الصوفى) خلال ١٠٠ سنة.

وفى الجلسة الأخيرة تحدث الدكتور **هانى المرعشلى** عن (عبد الرحمن بدوى) باعتباره رائدا للفلسفة الحديثة فى مصر.

* * *

*** المؤتمر الأول للوثائق والأرشيف**

تحت شعار «وثائقنا القومية مصادر للمعلومات فى عصر العولمة » انعقدت فعاليات المؤتمر الأول للوثائق والأرشيف فى الفترة من ١٢ – ١٣ فبراير ٢٠٠٠.

وقد شارك فى المؤتمر عدد من الباحثين الذين قدموا أبحاثاً تناولت التوثيق وقضاياه المختلفة .

فى بحثه بعنوان الوثائق العربية والقومية ، ماهيتها – أماكنها – أهميتها تحدث أ.د. **محمود عباس حمودة** معرفاً الوثيقة والإطار الواجب دراسته من خلالها مصنفاً بعد ذلك أهم الأرشيفات الموجودة فى دور الحفظ فى العالم العربى .

وفى كلمته أمام المؤتمر دعا أ.د. **محمد فتحى عبد الهادى** إلى تعاون الأقسام العلمية المتخصصة فى الوثائق والمكتبات وضرورة تكامل الفرعين (المكتبات – الوثائق) والتنسيق بينهما بالخطط الدراسية والنشاط العلمى . أما أ.د. **السيد حامد** فقد كان عنوان دراسته (الوثائق والأنثروبولوجيا والعولمة) .

وعرضت د. **وفاء صادق** فى بحثها المعنون (الأدلة الأرشيفية) عدة اقتراحات لمحتوى الدليل الأرشيفى وأشكاله المختلفة (كتاب – برمجيات – أقراص مدمجة – إنترنت) . وعن الأدراج العربية المسيحية كمصادر للمعلومات فى عصر العولمة عرضت السيدة سميحة عبد الشهيد صورة عن سبل رعاية الكنيسة والأوقاف القبطية والممتلكات البطريركية والأماكن الخاصة بالأقباط من أديرة ومنازل ، وطرق الاحتفالات الدينية والدنيوية عند الأقباط.

وتقدمت السيدة **عفاف رجب عبد القادر** ببحث عنوانه (المتكاملة الأرشيفية من نشأتها الى إتاحتها) أما السيد **مصطفى إبراهيم المدنى** فقد انتقد الواقع القانونى السئ الذى يحكم علاقة أرشيفات الجهاز الإدارى للدولة بدار الوثائق القومية .

وعرض السيد **مجدى جرجس** لأرشيف بطريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة مبيناً أن الحفظ حتى عام ١٨٥٣ كان عشوائياً حتى وُلد الأرشيف الضخم للبطريركية فى ذلك العام الذى وافق تولى كيرلسّ الرابع منصب البطريرك . وقدم السيد **محمد حسن** من كليه الآداب بنى سويف لبرنامجى RAMP وذاكرة العالم كنماذج لجهود المنظمات والهيئات الدولية فى عولمة الوثائق والمحفوظات ، وذكر أن البرنامج الأول قد جاء نتيجة للتعاون بين منظمتى (اليونسكو) والمجلس الدولى للأرشيف CICA أما البرنامج الثانى فقد كان ثمرة لتعاون المؤسستين السابقتين أيضاً .

وفى الورقة التى قدمها السيد **محمد حسن جاد الله** بعنوان (رؤية عامة للمؤسسات الأرشيفية ودورها فى عصر العولمة) عرض الباحث ماهية هذه المؤسسات وأهميتها ودورها فى عصر العولمة .

وعن البرديات العربية كأحد المصادر الرئيسية للمعلومات فيما يخص الحضارة الإسلامية فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة عرض الدكتور **سعيد مغاورى** الباحث بالمجلس الأعلى للآثار ورقته فى هذا الصدد .أما الدكتور **عماد بدر الدين أبو غازى** فقد عرض لأرشيفات الصور الفوتوغرافية وأهميتها كمصدر للمعلومات فى مجالات الدراسات التاريخية والسوسيولوجية ودراسات الفولكلور ، وكيفية نقد الصور وتحليلها لاستخلاص المعلومات منها

وقدمت الأستاذة **شكرية يوسف** مدير الأعمال الفنية بدار الوثائق القومية دراسة بعنوان (المقتنيات الأرشيفية كمصادر للمعلومات – دراسة تطبيقية على دار الوثائق القومية). وعرض السيد عثمان مصطفى لدور الإنترنت فى تغير واقع التعامل مع الأرشيفات القومية بدرجة سمحت لمساحات واسعة من الجمهور بالتعامل مع الأرشيف أو الأجهزة الخدمية الملحقة به والمساعدة له .وقد اختتم السيد **أشرف محمد عبد المحسن الشريف** الندوة بدراسة نظرية عن ترتيب الوثائق الأرشيفية .

وتتضح أهمية هذا المؤتمر فى التوصيات التى اختتم بها أعماله والتى نجملها فيما يلى:-

١- التوصية بعقد المؤتمر العلمى للوثائق والأرشيف سنويا .

٢- يُوصى المؤتمر بأن تنفصل دار الوثائق القومية عن دار الكتب بحيث تكون كيانا مستقلا تابعا إما لرئاسة الجمهورية أو رئاسة الوزراء .

٣- تبنى السيدة الفاضلة سوزان مبارك حملة قومية لرعاية مشروع تطوير دار الوثائق القومية .

٤- التوصية لدى الجهات المعنية بالانتفاع بخريجى أقسام الوثائق والمكتبات فى دور الوثائق ومراكز المعلومات الإدارية .

٥- توفير بعض الحوافز المناسبة للعاملين فى مجال الوثائق فى صورة بدلات وكذلك منحهم صفة الضبطية القضائية .

٦- عقد سمينار دورى لدراسات الوثائق والأرشيف فى جامعاتنا .

٧- توجيه نظر وسائل الإعلام إلى تعديل النظرة إلى الأرشيفيين بوصفهم مشاركين فى منظومة البحث العلمى على مستوى الدولة .

٨- التوصية بالعمل على إعداد ببليوجرافية تضم الإنتاج الفكرى للوثائق والأرشيف بما فيها الرسائل غير المنشورة .

٩- توجيه نظر الجهات المعنية إلى ضرورة إنشاء مراكز أرشيفية وسيطة لحفظ وثائق المحليات والتخفيف عن كاهل دار الوثائق حتى يمكن تنفيذ عمليات الانتقاء والاستبعاد لخلق ضبط أرشيفى فعال .

١٠- توجيه نظر الباحثين إلى أهمية الدراسات البينية والتكاملية فى التخصصات ذات الصلة .

١١- يوصى المؤتمر بتشكيل لجنة من المتخصصين لمتابعة تنفيذ توصيات المؤتمر .

* * *

*** المصريون والسلطة عبر العصور**

فى المؤتمر السنوى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية الذى عقد فى الفترة من ٢٨ - ٣٠ مارس ٢٠٠٠ كان « المصريون والسلطة عبر العصور»هو العنوان الذى دارت حوله فعاليات هذا المؤتمر الهام ، وقد توزعت أعمال الندوة بين سبع جلسات صباحية ومسائية .

فى الجلسة الأولى التى تولى إدارتها أ.د. **سعيد عبد الفتاح عاشور** قُدمت ثلاث ورقات كانت أولاها للسيد **نبيل عبد الفتاح** وكانت بعنوان (السلطة وتوظيفات الدين)، وأعقبته الدكتورة **ماجدة أحمد عبد الله** ببحث بعنوان (إخناتون فى مواجهة سلطة كهنة آمون) ، ثم تحدث السيد **مجدى جرجس** عن (الأقباط والسلطة الكنسية) .

واختتم الجلسة الأولى الدكتور **محمد صبرى** بورقة بعنوان المشايخ والغزو العثمانى لمصر .

فى الجلسة الثانية تكلم أ.د. **محمود إسماعيل** عن (التحالف الأيديولوجى بين الفقيه والسلطان فى العصور الإسلامية المتأخرة من منتصف القرن الخامس إلى أوائل القرن العاشر الهجريين) .

وعن التحالف بين الفقيه والحاكم فى مصر قبيل الحملة الفرنسية تحدث الدكتور **يحيى محمود** . ثم قدم الأستاذ الدكتور **سمير طه** ورقة بعنوان السلطة فى مصر أثناء الثورةالعرابية ، وكان ختام الجلسة للدكتور **عصام ضياء الدين** بورقته بعنوان الصراع بين السلطة والشيخ حسن البنا .

فى الجلسة الثالثة تحدث أ.د. **سيد الناصرى** عن(موقف الفلاح من السلطة فى مصر قبل الفتح الإسلامى) وأعقبه السيد **محمد حاكم** بورقة عن (مقاومة الفلاحين للسلطة فى عصر محمد على)، وجاءت ورقة الدكتور **سيد عشماوى** لتناقش قضية «الفلاحون والسلطة السياسية فى مصر... دراسة تاريخية للحركات الفلاحية فى مصر

١٩٤٥ - ١٩٥٢». وختم الجلسة الدكتور **محمود عبد الظاهر** بورقة بعنوان (السلطة ويهود مصر فى النصف الأول من القرن العشرين).

أدار الأستاذ الدكتور **إسحق عبيد** الجلسة الرابعة بعد ظهر يوم الأربعاء ٢٠٠٠/٣/٢٩ وكان أول المتحدثين هو الدكتور **محمود السعدنى** من جامعة حلوان عن (المصريون فى مواجهة البطالمة والرومان) أما الدكتور **عماد أبو غازى** فقد كانت ورقته عن(المصريون والسلطة فى عصر الولاة). وجاءت ورقة الدكتور **خليل عبد المنعم فرج** لتناقش موقف المصريين من سلطات الإحتلال الفرنسى أثناء الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١ . وعن (المصريون والسلطة فى كتابات الشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتى)تحدث الدكتور **زكى البحيرى** ليختم الجلسة الرابعة .

افتتح الجلسة الخامسة الأستاذ الدكتور **قاسم عبده** بورقة عن (طبيعة السلطة فى عصر سلاطين المماليك) ، وأعقبه الأستاذ الدكتور **على كورخان** بورقة بعنوان (السلطة فى مصر فى مرآة الرحالة الأجانب فى القرن ١٩) .

وعن(فكرة الجمهورية فى مواجهة الخديوية) ، وهى الفكرة التى ظهرت إرهاصاتها أثناء أحداث الثورة العرابية (١٨٨١ - ١٨٨٢) تحدث أ.د. **عبد المنعم الجميعى** .

ثم اختتم الجلسة الخامسة أ.د. **عبادة كحيلة** عن (المصريون فى فكر جمال حمدان) ، وكان حديثه عن كتاب جمال حمدان (شخصية مصر) .

كانت الجلسة السادسة فى اليوم الثالث برئاسة الدكتورة **نللى حنا** من الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وقد نوقشت فيها الأوراق المقدمة من الدكتور **مجدى عبد الحافظ** (بين الرعوية والمواطنة فى فكر رفاعة الطهطاوى) و **أنبرو دبريدج** (المؤرخون والسلطة فى العصر المملوكى (العينى - المقريزى- ابن حجر العسقلانى) ود. **زكريا الرفاعى** (العامة والسلطة... قراءة فى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) ، ود. **فطين أحمد فريد** (موقف المصريين من الجندية ١٨٠٥ - ١٨٨٦).

رأس الجلسة السابعة أ.د. **عمر عبد العزيز** وتحدثت فيها أ.د. **لطيفة سالم** عن (حزب الأغلبية والسلطة ١٩٤٤ - ١٩٥٢) ، ود. **عبد اللطيف الصباغ** (السلطة

السياسية والاقتصاد، دراسة فى علاقة الحكومة بشركة مصر للطيران ١٩٣٢ - ١٩٥٦) وأ.د. **حمادة إسماعيل** (نقابة المحامين والصراع مع السلطة ١٩٥٤ - ١٩٥٨). وكان آخر المتحدثين هو أ.د. **عبد الوهاب بكر** الذى قدم ورقة بعنوان (المجتمع وأزمة تجاوزات السلطة فى التاريخ المعاصر) .

فى الجلسة الثامنة والأخيرة التى أدارها الأستاذ **محمود أمين العالم**،كانت الورقة الأولى بعنوان (المصريون وثقافة السلطة)وتحدث فيها السيد **شوقى جلال**، وتبعه الدكتور **صلاح السروى** بحديثه عن (ثنائية المثقف والسلطة فى الرواية المصرية : دراسة فى نماذج مختارة)، وعن (سلطة الشرطة فى مصر المعاصرة من خلال رواية حمدى البطران يوميات ضابط فى الأرياف) تحدث الأستاذ الدكتور **عبد الله عزباوى** محللاً هذه الرواية التى هزت الرأى العام فى تسعينيات القرن العشرين وأدت الى تقديم مؤلفها للمحاكمة التأديبية ، أما آخر المتحدثين فكان الدكتور **هاشم توفيق**، وكانت ورقته عن (المسرح والسلطة فى مصر) .

. ***

* الدين والدولة ، فى العالم العربى ، توافق أم صراع ؟!

عقد فى الفترة من ٢٨ :٣٠ أبريل ٢٠٠١ م المؤتمر السنوى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية والذى عقدت جلساته بالمجلس الأعلى للثقافة ، وكان موضوعه الدين والدولة فى العالم العربى توافق أم صراع ، اشترك فى جلسات المؤتمر عدد كبير من الباحثين العرب والأجانب بجانب الباحثين والمؤرخين المصريين .

فى اليوم الأول للمؤتمر قدم أ.د **عبد المنعم الجميعى** بحثا بعنوان « دور الدين فى التوجه السياسى للدولة العثمانية» حيث ذكر أن الدولة العثمانية اتخذت من الدين الإسلامى غطاء لتوجهاتها السياسية ، وقسم المتحدث دور الدين فى التوجه السياسى للدولة العثمانية إلى مرحلتين، الأولى يمكن ربطها بالفتوحات العثمانية والتى قامت

باسم الدين ـ والمرحلة الثانية وهى تتعلق باستغلال السلطان العثمانى لتأثير الدين فى نفوس العرب مثل محاولات السلطان تقوية مركزية الدولة أمام الدول الأوربية عن طريق الجامعة الإسلامية .

كما قدم الباحث الروسي **قسطنطين بنشنكو** بحثا عن (المسيحيون الأرثوذوكس العرب والدولة العثمانية ...طبيعة العلاقات المشتركة) حيث ذكر أنه وقع نزاع بين الأرمن والأرثوذكس الروم للسيطرة على الأماكن المقدسة فى القدس ، وحاول كل منهم الاستعانة بالإدارة العثمانية فى هذا الصراع ، وكان الروم الأرثوذكس على علاقة قوية بروسيا لأنها حامية الأرثوذكسية مما نتج عن ذلك حرب القرم .

وفى ورقته تحدث الباحث المغربى د. **عبد الفاضل الصافى** عن موضوع (الدين والمتغيرات السوسيو اقتصادية والفكر السياسى عند الشوام العثمانيين فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) حيث طرح سؤالا وهو هل لعب الدين دورا فى رسم الحدود السياسية فى لبنان ؛ وبالتالى فى بقية بلاد الشام خصوصا وأن هذا التقسيم جاء بعد العديد من المشكلات الطائفية ؟ وكانت الإجابة أن الدين كان بريئا من التقسيم الذى حدث فى بلاد الشام والعوامل الدنيوية كانت هى الدافع وراء هذه التقسيمات .

كما تحدثت د **سفتلانا كيريلينا** عن(المؤسسات الإسلامية فى مصر العثمانية فى القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر) فتحدثت عن القضاء ودوره وعن الافتاء والمفتون ونوعية فتاواهم كما تحدثت عن أهمية المؤسسة الدينية فى مصر .

ومن مصر طرح أ.د **عادل حسن غنيم** رؤيته حول(المجلس الإسلامى الأعلى فى فلسطين ودوره الوطنى والاجتماعى فيما بين الحربين العالميتين) فتناول جهود المجلس لإنقاذ أراضى فلسطين من الوقوع فى يد اليهود سواء بشراء الأراضى وضمها للأوقاف الإسلامية أو استعادة الكثير من أراضى الأوقاف التى كان اليهود يطمعون فيها، أو منع اليهود من الاستيطان فى الأراضى التى قاموا بشرائها إلى غير ذلك من الجهود. كما

تناول أيضا دور المجلس الاجتماعى و بخاصة فى مجال التربية والتعليم سواء بإنشاء المعاهد والمدارس المختلفة أو بإيفاد الطلبة إلى الخارج ، وأيضا بمساعدة آخرين للدراسة خارج فلسطين.

فى نفس الاطار السابق تحدث د. **خليل عبد المنعم فرج عامر** عن(جماعة الشيخ عز الدين القسام فى فلسطين ١٩٢٢ - ١٩٣٦). التى أسسها عز الدين القسام فى مدينة حيفا الفلسطينية بعد لجوئه إليها عام ١٩٢٢ قادما من سوريا بعد الاحتلال الفرنسى لها واشتراكه فى الجهاد ضدهم ، وهو ما ميزه عن رجال الحركة الوطنية الفلسطينية الذين كانوا يرون وجوب ممارسة العمل السياسى السلمى للحصول على الحقوق الوطنية ، وقادت جماعة القسام ثورة ١٩٣٦.

وتحدث أ.د. **عبد الله عزباوى** عن(المؤسسة الدينية العربية ودورها فى حركات التحرر الوطنى والاجتماعى) واتخذ من السنوسية فى ليبيا وجمعية العلماء فى الجزائر نموذجا فبالنسبة للسنوسية قامت كحركة تصوف فى المقام الأول واعتمدت فى نشاطها على الزاوية التى لعبت دورا كبيرا فى حركات التحرر الاجتماعى .

وقدر للسنوسية أن تلعب دورا كبيرا فى محاربة الاستعمار الإيطالى فى ليبيا بعد خروج العثمانيين عام ١٩١٢ ، ونتيجة لهذا الدور فقد تمكن إدريس السنوسى من تولى عرش البلاد بعد حصولها على استقلالها عام ١٩٥١ .

أما بالنسبة لجمعية العلماء فى الجزائر والتى أسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس فى عام ١٩٣١ فكانت فى الأساس حركة سلفية عملت على مقاومة الاستعمار الفرنسى عن طريق مقاومة التصوف الذى يدعو إلى التواكل ، وإحياء الروح العربية الإسلامية عن طريق التعليم. وعن(جمعية العلماء فى الجزائر) تحدث د. **سيد عشماوى** الذى تناول ابن باديس من خلال أفكاره ومواقفه ، وأنه كان من أقدر الفصائل الإسلامية ثقافة ووعيا بمعرفة الواقع وأشدها التصاقا بالتراث العقلانى المستنير للسلف الصالح وتمثلا للتجارب الإنسانية .

وناقشت أ.د **لطيفة محمد سالم** (دور التيار الدينى فى الثورة العرابية) وذلك من خلال دور الأزهر فى الثورة العرابية والأسباب التى دفعت رجال الدين للانخراط فيها، كما ركزت على رموز الصفوة المستنيرة مثل محمد عبده الذى تزعم حركة الإصلاح وأسهم فى بلورة الرأى العام ، وكذلك النديم الذى انعكست نشأته الدينية على شخصيته فوجد فيه قادة الثورة الأداة التى تحقق لهم ما يسعون إليه .

وتناول د. **زكى البحيرى** (الاتجاهات الثورية فى الحركة المهدية)حيث ناقش من أين نبعت فكرة المهدية بأيدلوجيتها الثورية التى وجهت ليس فقط ضد من خرجوا عن الدين وأصوله وإنما أيضا ضد الحكم التركى .

وناقش د .**خالد الناغية** (دور الزعامة الدينية فى السودان فى ظل السيطرة البريطانية ١٩١٤ – ١٩٢٤) فقد اعترف قادة السودان من أمثال السيد على الميرغنى والسيد عبد الرحمن المهدى والشريف يوسف الهندى بأن مصلحتهم وأمالهم العليا فى المستقبل تتمثل فى السيطرة البريطانية ، وقاموا بدور كبير فى مناهضة نفوذ جمعية اللواء الأبيض .

وناقش د. **إبراهيم العدل** موضوع (جماعة الخلافة الإسلامية بوادى النيل ١٩٢٤: ١٩٢٦) فتناول إنشاء الجماعة وأهدافها والهيكل التنظيمى لها وعلاقتها السياسية بمختلف القوى صاحبة التأثير فى البلاد .

وتناول أ.د . **عبد الوهاب بكر** (الدعوة والسلطة فى مصر وتركيا فى النصف الأول من القرن العشرين) فعرض لحالة الشيخ البنا فى مصر وبديع الزمان سعيد النورس فى تركيا ، وهى دعوة دينية استهدفت تبصير المسلمين بدينهم ودعوتهم للتمسك بسنن السلف الصالح والعودة للدين الصحيح . ولكن البنا أراد أن يقيم جسرا بين الدين والسياسة.

وناقش أ.د **حمادة اسماعيل** (دور الإخوان المسلمين فى القضية الوطنية) كما تناول د. فطين أحمد فريد (الاخوان المسلمون وحركة الجيش) حيث عرض للتنظيم السرى

داخل الجيش والضباط الأخوان وحرب ١٩٤٨، وقرار مجلس قيادة الثورة بحل جماعه الاخوان المسلمين والصدام الذى وقع في فبراير ١٩٥٤.

وأخيرا قدم د. **محمد رفعت الامام** ورقة تحت عنوان(الصراع الأيديولوجى والسياسى داخل طائفة الأرمن الأرثوذكس بمصر خلال النصف الأول من القرن العشرين) حيث ذكر أن أرمن مصر ينتمون إلى ما أطلق عليه تاريخيا « أرمينية الغربية» وقد تم تنظيم الرعايا غير المسلمين وفقا للنظام الإدارى العثمانى فى هياكل شبه مستقلة تسمى «ملل» تحل محل السلطة المباشرة لحكومة السلطان وتمثل بؤرة التمركز الاجتماعى. وعرض الباحث للصراع داخل طائفة الأرمن الأرثوذكس الذى تحول من الطابع الإدارى إلى الطابع السياسى.

وقد أثار المؤتمر العديد من التساؤلات والمناقشات التى أثرت الابحاث المقدمة، وطالب الحضور بإخراج بحوث المؤتمر فى كتاب حتى تعم الفائدة منه ، كما طالبوا باستمرار وتدعيم المؤتمر السنوى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

* * *

* حدود مصر الشرقية

أقام المجلس الأعلى للثقافة ندوته السنوية تحت عنوان حدود مصر الشرقية فى الفترة من ١٩ إلى ٢٠ يونيو ٢٠٠١ على مدى أربع جلسات:

كانت الجلسة الأولى برئاسة أ.د **سعيد عاشور** قدم فيها أ.د **رأفت عبد الحميد** ورقة تحت عنوان «الفكر المسيحى المصرى فى مناطق الجوار الشرقية » والتى جاء فيها أن مصر استقبلت المسيحية ليست مجرد دعوة ولا كديانة جديدة فقط ؛ ولكن مصر كعادتها حرصت أن تستقبل الوافد إليها بشخصيتها المتميزة فتفعل فعلها فى الوافد ليصبح فى النهاية مذابا فى محيط من الحضارة المصرية المؤثرة ، ومن هنا امتزجت المسيحية وتفاعلت مع الحضارة المصرية فكانت الإسكندرية -على سبيل المثال- بمدرستها العريقة هى المنارة .

وقد خلص الباحث فى ورقته إلى أن مصر مصرت المسيحية بروحها وبفكرها وبعقائدها بنظرة خاصة صوفية -أفلاطونية .

كانت الورقة الثانية تحت عنوان (صناعة حدود مصر الشرقية بين عامى ١٨٤١ - ١٩٠٦) للأستاذ الدكتور **يونان لبيب رزق** ودارت أهم محاور تلك الورقة أن فكرة الحدود كانت دخيلة على الدولة العثمانية ومصر حتى ذلك الوقت ، وأن هذه الفكرة بنيت مع نشوء الدولة الحديثة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى سعى محمد على لتكوين تلك الدولة المركزية .

وتناول المتحدث فرمان ١٨٤١ باعتباره أول خريطة فى التاريخ العثمانى تعين حدود مصر الشرقية والغربية بل والجنوبية أيضا ، وعلى الرغم من كونها خطوطا عريضة وغير واضحة ، فإنها رسمت حدودا تمارس من خلالها أسرة محمد على حكمها المختلف عن الأستانة . ومع أزمة فرمان ١٨٩٢ ، حددت الحدود من شرق العريش إلى نقطة تقع غرب العقبة بثلاثة أميال . وفى إبريل ١٩٠٦ بدأ تعليم خط الحدود الذى انتهى فى أكتوبر ١٩٠٦ من العلامة واحد عند رفح إلى العلامة ٩١ عند طابا وبذا كسبت إنجلترا الجولة من الدولة العثمانية .

كانت (المواجهة المصرية الإسرائيلية فى البحر الأحمر) هي عنوان الورقة التى تقدم بها أ.د. **عبد العظيم رمضان**. وقد ألقت هذه الورقة الضوء على أنه كيف تم لإسرائيل المزعومة فى ذلك الوقت منذ خمسين عاما إلى أن تتحول إلى إسرائيل الحالية التى تبطش هنا وهناك . وكيف أن الأمر انتهى إلى أن تصبح إسرائيل حقيقة واقعة بعد إعلان الدولة اليهودية فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، تلك الدولة التى لم يعد أمامها سوى أن يصبح لها منفذ على البحر الأحمر كما أن لها منفذا على البحر المتوسط ، وتحدث عن كيفية تصدى مصر بحكم موقعها وتاريخها للوجود الإسرائيلى على البحر الأحمر فى جزيرتى « تيران » «وصنافير» .

ثم تحدث المحاضر عن عدوان ١٩٥٦ الذى شاركت فيه إسرائيل ذلك العدوان الذى انتهى بشكل لم يكن مطروحا من قبل وهو أن تكون سيناء تحت الاحتلال الإسرائيلى .

وانتقل إلى الحديث عن مايو ١٩٦٧ وتورط عبد الناصر فى إغلاق مضيق تيران البحرى وجاء يونيو ١٩٦٧ لتحقق إسرائيل لأول مرة نصر حقيقى احتلت من خلاله سيناء، الضفة الغربية، الجولان. وختم ورقته عن حرب ١٩٧٣ والمفاوضات التى أفضت إلى تحرير سيناء بشكل نهائى .

وقدم أ.د **سعيد عاشور** كلمة تحت عنوان (الحدود الشرقية لمصر فى العصور الوسطى) التى بدأها بتعريف الحد (هو الحاجز بين الشيئين - وحد الشئ منتهاه - والحد أيضا المنع).

وتحدث من خلال كلمته عن موقف حدود مصر الشرقية فى ضوء الدين فانتشار المسيحية ـ على سبيل المثال ـ جعل البعض يُؤْثِر الهجرة إلى الصحراء للتفرغ للعبادة ، أو اللجوء إلى الحدود للفرار من الاضطهاد ، ومع الفتح العربى وجدت العديد من الأديرة على حدود مصر الشرقية عاش أصحابها فى هدوء وسلام .

كما تحدث عن الإسلام والحج حيث حدود مصر الشرقية إلى سيناء ومن سيناء إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز.

واشتملت الجلستان الثانية والثالثة على حدود مصر الشرقية فى العصور الفرعونية واليونانية والرومانية والإسلامية على ثمان ورقات؛ سوف نكتفي بعناوينها وأسماء من قدموها بحكم خروجها عن إطار تاريخ مصر الحديث والمعاصر فكانت الجلسة الثانية برئاسه أ.د **محمد إبراهيم بكر** وتحدث فيها :د. **محمد عبد المقصود** عن آثار شمال سيناء فى العصر الفرعونى ، أ.د **مصطفى العبادى** عن بوابة مصر الشرقية فى العصر اليونانى الرومانى، أ.د **فاروق القاضى** عن بلوزيون (الفرما) وأهميتها فى العصرين البطلمى والرومانى . ود. **محمد عبد السميع** عن الكنائس فى شمال سيناء فى العصر

البيزنطى والرومانى. وكانت الجلسة الثالثة برئاسة أ.د **حسنين ربيع** وتحدثت فيها أ.د. **سيدة إسماعيل كاشف** عن الصحراء الشرقية والعلاقات المصرية العربية فى العصر الإسلامى؛ وأ.د **زبيدة عطا** عن منظور الأمن المصرى على الحدود الشرقية فى العصور الوسطى ، أ.د **قاسم عبده قاسم** عن الصراع حول مصر أثناء الحروب الصليبية ، أ.د **أيمن فؤاد سيد** عن الموانئ المصرية على البحر الأحمر فى العصر الإسلامى .

وقداختتمت أعمال الندوة بالجلسة الرابعة والأخيرة التى شملت أربع ورقات فى التاريخ الحديث والمعاصر أولها كانت للأستاذ الدكتور **عبد الوهاب بكر** ، تحت عنوان (الأمن العام فى الصحارى الشرقية فى العصر الحديث ١٩٠٦ - ١٩١٦) ألقى فيها الضوء على دخول الصحراء الشرقية لدائرة اهتمام بريطانيا بعد افتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩ « بشكل نظرى، ومع عام ١٨٨٢ شرعت توجه اهتمامها بشكل عملى؛ ومع إنشاء بريطانيا لمصلحة أقسام الحدود سيطرت على الصحراء الشرقية المجاورة لقناة السويس أمنيا وحدوديا .

وجاءت ورقة أ.د **لطيفة محمد سالم** تحت عنوان (المثقفون الشوام فى مصر ١٨٦٠ - ١٨٨٢)والتى بدأت بعام ١٨٦٠ مع نزوح الكثير من الشوام إلى مصر وقسمت الورقة إلى عنصرين الأول «صحوة الاستنارة» شرحت فيه الخطوات العملية التى اتبعها المثقفون الشوام فى مصر، والعنصر الثانى «صراع الاتجاهات» ملقية الضوء على التغير الذى طرأ على موقف المثقفين الشوام من الثورة العرابية .

وتحت عنوان(مصر والبحر الأحمر فى العصر العثمانى) جاءت ورقة أ.د **السيد فليفل** وركز فيها على كيفية محاولة تلمس الاتجاهات العامة لإدارة مصر سياستها تجاه حدودها الشرقية الجنوبية (البحر الأحمر المفتوح وما وراءه من بلدان) خلال فترة خضوعها للسيادة العثمانية ، لينتقل من خلالها إلى محاولة استكشاف الخطوط الرئيسية للاستراتيجية المصرية تجاه البحر الأحمر .

وتأتى الورقة الأخيرة فى أعمال هذه الندوة للأستاذ الدكتور **محمد محمود الديب** التى شرح فيها (الحدود السياسية وتطبيقاتها على الحد السياسى الشرقي لمصر)موضحا كيف أن «الحد» معنى سياسى وشرعى وقانونى ، وكيف أن الحدود رسمت لتؤدى وظائف بعينها ، وقد بلورها فى أربع مفاهيم استراتيجية كان أولها مع الحرب العالمية الأولى وظهور نظرية «الحد الأمن».

وثانيها فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية وسيادة « المعيار الإثنى».

وثالثها بعد الحرب العالمية الثانية حيث كان المعيار هو « الفكرة الاقتصادية». ورابعها هو استخدام معيار القوة والقهر وما يتبعهما من انتصار الغالب على المغلوب ، فتنقلب حدود الهدنة إلى معيار سياسى .



عروض الكتب

المؤلف : رؤوف عباس

الكتاب : التنوير بين مصر واليابان «دراسة مقارنه فى فكر رفاعة الطهطاوى وفوكوزاوايوكيتشى»

دار النشر : ميريت للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٠

لقد أتيح للقارئ العربي، منذ فترة مبكرة من القرن التاسع عشر أن يطلع على كثير من الكتابات التى تناولت بعض التجارب الأوربية، ثم تضاعف هذا الاهتمام بشكل ملحوظ مع نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث شهدت مصر نهضة ثقافية وخصوصا فى مجال الصحافة، التى تناولت الكثير من تجارب الغرب ثم كان للعائدين من البعثات التعليمية الدور الرائد فى هذا المجال، حيث كتبوا عن تجاربهم فى أوروبا وانطباعاتهم عن الحياة الأوربية وخصوصا فى مجالات التنمية السياسية والاجتماعية إلا أن معرفة المصريين بتجارب بعض الشعوب الآسيوية بقيت نادرة أو منعدمة تقريبا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وما واكبها من أحداث مريرة وخصوصا عندما أقدمت الولايات المتحدة الأمريكية على استخدام القنبلة الذرية ضد اليابان (أغسطس ١٩٤٥) حيث أعلنت وكالة الأنباء اليابانية وقتئذ أن «أنامى» وزير الحربية اليابانية قد انتحر فى مقره الرسمي تكفيرا عن فشله فى أداء واجبه...

لقد أقدمت الولايات المتحدة على حسم الحرب لصالح الحلفاء بهذه الطريقة البربرية بعد أن تأكدت أن اليابانيين ماضون فى قتالهم بطريقة أكسبتهم احترام العالم وخصوصا الشعوب التى وجدت نفسها فى جبهة الحلفاء دون أن يكون لها فيها ناقة ولا جمل.

لعل الشعب الياباني قد اكتسب شهرته الواسعة بسبب مقاومته الباسلة وما صاحبها من مأساة شغلت حيزا كبيرا فى الأدبيات العربية ثم كان تجاوز اليابانيين لهذه المأساة وفى أقل من ثلاثة عقود وظهور التجربة اليابانية فى التنمية والتى كانت مثار تقدير واحترام العالم كله.

لكل هذه الاعتبارات يأتي كتاب الأستاذ الدكتور رؤوف عباس (التنوير بين مصر واليابان) دراسة مقارنة فى فكر رفاعة الطهطاوى وفوكوزاوا يوكيتشى.

والمؤلف أحد رواد جيل الوسط، الذين عنوا بالبعد الاجتماعي والثقافى فى الكتابة التاريخية إضافة إلى ثقافته الواسعة التى أكسبته خبرة عظيمة فى التقاط نموذج الآخر وخصوصا إذا ما كان هذا النموذج له شبيه فى الثقافة العربية.

لقد أتيح للمؤلف أن يتابع التجربة اليابانية عن قرب حينما عمل أستاذاً زائراً بمعهد اقتصاديات الدول النامية (١٩٧٢ - ١٩٧٣) وأثمرت هذه الرحلة القصيرة عن دراسة فريدة ومبتكرة فى المكتبة العربية(المجتمع الياباني فى عصر مايجي ١٨٦٨ - ١٩١٢) فكانت أول دراسة عربية تعتمد على أسس علمية ومصادر أولية للتجربة اليابانية.

ثم تضاعفت عناية المؤلف بالتجربة اليابانية وخصوصا فى مجالها التنويرى، حيث التقط «فوكوزاوا يوكيتشى» كرائد من رواد الفكر التنويرى ولاحظ بعض أوجه الشبه بين فكره وفكر رفاعة الطهطاوى وداعبته فكرة كتابة دراسة مقارنة لفكر هذين الرائدين العظيمين ثم جاءت زيارته لليابان أستاذا زائرا للمرة الثانية ١٩٨٩ - ١٩٩٠ لكي يجمع مصادر هذه الدراسة التى انتهى منها مع منتصف ١٩٩٠، حيث صدرت فى طوكيو (بالإنجليزية) فى نوفمبر من نفس العام. ولما كانت هذه الدراسة قد حظيت بشهرة كبيرة فى الأوساط العلمية اليابانية من حيث التعليق والعرض والنقد، لذا كان من الضرورى إصدار طبعة عربية تتناسب واهتمام المثقف العربي فكانت هذه الطبعة التى لا تعد ترجمة حرفية للطبعة الإنجليزية وإنما هي إعادة كتابة وتحقيق، حيث لا يشعر القارئ أنها مجرد ترجمة للنص الإنجليزى.

* الإطار التاريخي:

يبدأ المؤلف بتحديد الإطار التاريخي للدراسة بحكم أن تجربة «فوكوزاوا يوكيتشى Fukuzawa Yukichi» (١٨٣٥ - ١٩٠١) ويقابله فى التجربة التاريخية

المصرية رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) من حيث دورهما الريادى ومن حيث تأثيرهما كل فى مجتمعه. وإذا كان كل منهما قد تأثر بتجربة بلاده التاريخية وعايشها بهمومها وطموحاتها إلا أن كليهما قد تأثر بالنموذج الغربي مع حرصهما على خصوصية الثقافة الوطنية باعتبارها أساسا مرجعيا لكل مشاريع التحديث.

لقد استطاع المجتمع الياباني أن يتجاوز العصر الإقطاعي وأن يسترد الإمبراطور سلطته المفقودة لصالح الدولة المركزية الحديثة وهو ما عرف بعصر مايجي وخلال مرحلة التحول هذه ظهر فوكوزاوا وتشكلت ثقافته وتبلورت أفكاره.

لقد ساهمت عوامل كثيرة فى تهيئة الظروف الموضوعية للتحول من الإقطاع إلى الرأسمالية حيث شهدت بدايات القرن التاسع عشر ظهور طبقة من الرأسماليين التجاريين لعبت دورا فاعلا فى تطور الاقتصاد الياباني مما أثر بشكل ملحوظ على الحياة الثقافية ثم راحت الوحدة السياسية تشهد قدرا من التجانس، الذى ضاعف من تقوية الشعور الوطني فى الوقت الذى كانت فيه اليابان تشهد نقلة هائلة فى مجال قراءة ثقافة الآخر الأوربي، حيث سقط الحظر، الذى كان مفروضا على المجتمع وتكونت حلقات لدراسة ما أنجزه العقل الأوربي. ومع بدايات القرن التاسع عشر كان بعض علماء اليابان قد أتقنوا صناعة الأسلحة وبرعوا فى الطب بمساعدة الهولنديين.

وفور نجاح الولايات المتحدة الأمريكية فى إجبار اليابان على فتح موانيها أمام التجارة الدولية سنة ١٨٤٥ أبرمت حكومة طوكيو معاهدات تجارية مع عدة دول أوربية وأعقب ذلك تدفق السلع الأجنبية على البلاد ليعجل بانهيار الاقتصاد الوطني بسبب التضخم فى الأسعار مما اضطر حكومة طوكوجاوا إلى المغالاة فى فرض الضرائب والتوسع فى الحصول على قروض من التجار مما نجم عنه أزمة اجتماعية خانقة أعقبها حوادث اغتيال واضطراب واضح فى المجتمع خلال السنوات السابقة على عصر مايجي، وهكذا سقط نظام طوكوجاوا ١٨٦٨م، حيث أعقبه ما عرف بعصر مايجي، الذى عنى بالقوة العسكرية وتصفية النظام الإقطاعى بطرق سلمية مما مكن النظام من

إحداث إصلاح إدارى وتعليمي امتد إلى الزراعة والصناعة والتجارة من خلال محاولات جادة للاستفادة من التجارب الغربية فى هذه المجالات.

لقد اعتنق نظام مايجي فكرة التوسع الخارجي وقاد ذلك اليابان إلى التوسع على حساب الجيران لتجد سوقا مضمونة لصناعتها الوليدة وللحصول على المواد الخام الرخيصة.

وبينما استطاعت اليابان بفضل موقعها الجغرافى أن تنجح فى بناء الدولة القومية الحديثة وأن تدخل نادى الدول الكبرى عند نهاية الحرب العالمية الأولى - وهي ظروف لم تتح لمصر التى تقع فى قلب العالم القديم وفى مفترق الطرق بين آسيا وإفريقيا وأوروبا مما جعلها أمام اختيارين لا ثالث لهما: إما أن تحقق درجة من القوة تمكنها من أن تصبح قوة إقليمية، أو أن تقع ضحية للقوى الكبرى صاحبة المصالح فى الهيمنة على ذلك الإقليم البالغ الأهمية من الناحية الاستراتيجية وقد صاغ هذان الخياران تاريخ مصر، منذ أقدم العصور فعندما يشتد ساعدها وتقوى تصبح الدولة المركزية الإقليمية فإذا أصابها الوهن كانت ضحية لغيرها من القوى الإقليمية أو الخارجية.

وقد انحسر دور مصر كقوة إقليمية مع الغزو العثماني ١٥١٧ إلا أنها قد اكتسبت خبرة وخصوصا من أحداث الحملة الفرنسية مما مكنها من أن تعبر عن نفسها فى اختيار محمد علي ١٨٠٥ وتبنى مشروع النهضة، التى سبقت النهضة اليابانية بنحو نصف قرن ولكنها عجزت عن أن تؤتي أكلها بسبب الوضع الجيوبوليتيكي الذى جعل مصر مطمعا للقوى الاستعمارية الكبرى.

وعلى الرغم مما حققه محمد علي من نجاحات مذهلة فى شتى مجالات التنمية خلال ما يقرب من نصف قرن إلا أن أسبابا كثيرة نجم عنها تعثر هذا المشروع مما فتح الباب خلال عصر خلفائه أمام رؤوس الأموال الأجنبية حيث تضاعفت المطامع

الأجنبية وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت مصر قد أصبحت مجالا للمنافسة بين كافة الدول الاستعمارية مما نجم عنه وقوع مصر تحت الاحتلال البريطاني ١٨٨٢م..

يرصد المؤلف أوجه الشبه بين التجربة اليابانية والتجربة المصرية فيما يتعلق بمرحلة التحول من المجتمع التقليدى إلى المجتمع الحديث إلا أنه لا يعترف بفكرة التماثل بين التجربتين، حيث قاد التحول فى التجربة اليابانية فريق من النخبة العسكرية الإقطاعية التى حركتها الرغبة فى إنقاذ البلاد من مهانة الخضوع للسيطرة الأجنبية بينما التجربة المصرية نجمت عن مشروع تبناه الحاكم الفرد الذى ينشد لنفسه مجدا شخصيا وكانت وراء التجربة اليابانية مرحلة تحول اقتصادى واجتماعي امتدت ما يقرب من نصف قرن بينما كانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى مصر عند بداية التحول تكاد تكون ثابتة عند أنماطها التقليدية.

وإذا كانت إصلاحات مايجي تمثل قوة الدفع التى حققت نموذجا هائلا فى الرأسمال الياباني فإن إصلاحات محمد علي ثم إسماعيل كانت قريبة الشبه بجراحة التجميل، حيث مست المظهر دون الجوهر.

وعلى حين اعتمدت اليابان على تعبئة الجماهير فى إطار الشعور الوطني، غيبت الجماهير عمدا فى التجربة المصرية ويظل هناك فارق جوهرى فبينما كانت اليابان بلدا مستقلا فإن مصر كانت ولاية من ولايات الدولة العثمانية ولعبت اليابان دور القوة التوسعية الاستعمارية متتبعة نفس أساليب الغرب على حين كانت حركة الجيش المصرى خارج حدوده إما خدمة للدولة العثمانية أو محاولة لتحقيق طموح سياسي لحاكم مصر ومن ثم كان حصاد التحرك المصرى خارج الحدود سلبيا بينما كان التوسع الياباني الخارجي مكملا لعناصر القوة على الصعيدين الاقتصادى والسياسي.

فوكوزاوا والطهطاوى

يتعرض المؤلف لسيرة فوكوزاوا والطهطاوى من حيث ظروف التنشئة الاجتماعية ومصادر الثقافة.

فالأول بذلت أسرته جهدا لتشجيعه على الانخراط فى المجال الديني لعله يصبح كاهنا بوذيا فى ظل نظام إقطاعي صارم إلا أنه تمرد على هذه الحياة مفضلا عليها العناية بالتراث الصيني وعندما كان فى التاسعة عشرة من عمره شهد قدوم الأسطول الأمريكي ثم عمل خادما لابن أحد الإقطاعيين، حيث تعلم الهولندية ثم تمرد على هذه المهنة ليقرر الانتقال إلى «أوساكا» ليلتحق بمدرسة عنيت بالعلوم الهولندية، حيث أتقن علم التشريح والطب والفيزياء والكيمياء.

وفى عام ١٨٥٨ عمل مدرسا للغة الهولندية ثم أقدم على تعلم اللغة الإنجليزية وفى عام ١٨٦٠ ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية كخادم فى السفينة التى أقلت الوفد الياباني، حيث أتيحت لفوكوزاوا فرصة رؤية التجربة الأمريكية وبعد غيبة لمدة ستة أشهر عاد ليرى بلاده وقد عمتها هيستريا العداء للأجانب وعكف على إعداد قاموس ياباني إنجليزى لذا اختارته الحكومة مترجما بالشئون الخارجية وفى عام ١٨٦٢ زار أوروبا ضمن وفد ياباني حيث زار فرنسا وانجلترا وهولندا وبروسيا وروسيا والبرتغال وزار القاهرة والإسكندرية وهو فى طريقه إلى أوروبا.

ولعل هذه الفترة شهدت النضوج الفكرى لفوكوزاوا حيث شعر بحاجته إلى التعرف على الحياة اليومية الشائعة بين الأوربيين ونشر كتابه الشهير «أمور غربية» عام ١٨٦٦ وقد دعم الكتاب شهرة فوكوزاوا وفتح باب النجاح أمام مؤلفاته الأخرى، التى نشر سبعة منها قبل سقوط حكومة طوكوجاوا عام ١٨٦٨ وجميعها تتناول العلوم الغربية والحياة اليومية فى الغرب اعتقادا منه بأن ذلك هو الأسلوب الأمثل لخلق أمة متحضرة.

ورغم أن فوكوزاوا كان يبث الدعوة لقيم غربية بعينها ومبادئ فلسفية تنويرية إلا أنه ظل وطنيا حتى النخاع وشهد منجزات اليابان الحديثة وفى مقدمتها صدور دستور مايجي ١٨٨٩.

لقد كان الرجل علامة مضيئة فى تاريخ اليابان حيث عمق من رغبة اليابانيين فى إعادة اكتشاف أنفسهم فى ضوء معرفتهم الجديدة بالغرب وتمثل كتاباته المزج بين القيم الموروثة والقيم المكتسبة.

وعموما فقد كان فوكوزاوا إصلاحيا تنويريا أثر فى المجتمع الياباني فى مرحلة من أخطر مراحل تاريخه وراحت أفكاره ومبادئه تنتقل إلى المجتمع محدثة حالة من حالات التغيير والرغبة فى التطوير والتحديث، لهذا فقد عده اليابانيون رائدا كبيرا من رواد التنوير.

أما الطهطاوى. فهو على النقيض من فوكوزاوا، حيث لم يترك أوراقا تتضمن سيرته الشخصية قبل ذهابه إلى باريس واعظا للبعثة التعليمية الأولى، التى أرسلها محمد علي وإن كانت بعض المعلومات قد تواردت عن نشأته الأولى، حيث ولد عام ١٨٠١ فى مدينة طهطا فى صعيد مصر ثم التحق بالأزهر ١٨١٧ وفى عام ١٨٢٢ أنهى دراسته بالأزهر وعمل واعظا بإحدى فرق الجيش المصرى ثم رشح عام ١٨٢٦ إماما للبعثة التعليمية التى أرسلها محمد علي للدراسة فى باريس وعلى الرغم من ذلك فقد انكب الطهطاوى على تعلم اللغة الفرنسية وقراءة التاريخ القديم والفلسفة اليونانية والجغرافيا والرياضيات إضافة إلى قراءته فى الفكر الفرنسي وانبهر بما كتب عن فولتير وكوندياك وروسو ومونتسكيو وراح يرصد بعين فاحصة الحياة الفرنسية وخاصة الجانب السياسي والاجتماعي فيها.

وعقب عودة الطهطاوى ١٨٣١ ترجم بعض الكتب الفرنسية فى الهندسة والجيولوجيا والجغرافيا والطب وفى عام ١٨٣٤ نشر كتابه الشهير «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» الذى قدم فيه رصدا دقيقا للمجتمع الفرنسي وقد ترك هذا الكتاب أثرا هائلا فى الفكر العربي لدرجة أنه أعيد طبعه أكثر من عشر مرات وترجم إلى التركية عام ١٨٣٩.

لقد تمكن الطهطاوى وبمهارة شديدة أن يقدم للقارئ العربي أسس الحضارة الغربية كما قدم أعمال كبار المؤلفين الأوربيين وعني بشكل خاص بالفكر السياسي والاجتماعي وكان لكتاباته عن المرأة والأحوال الدينية والعادات والتقاليد السائدة فى فرنسا أكبر الأثر فى تقديم صورة المجتمع الفرنسي كنموذج يحتذى به.

لقد اختير الطهطاوى ١٨٣٥ ناظرا لمدرسة الترجمة (مدرسة الألسن والمحاسبة) التى أنشئت بناء على اقتراح تقدم به الطهطاوى إلى محمد علي باشا واتسع مجال الدراسة فيها ليشمل الأدب والقانون والشريعة والفلسفة واللغات الأوربية مع عناية خاصة باللغة الفرنسية كما عمل مفتشا على المدارس وعضوا بلجان التعليم ومحررا بجريدة «الوقائع المصرية».

وعموما فقد ساهم الطهطاوى فى النهوض بالمجتمع عن طريق التزود بمعارف الغرب وأسباب القوة والنزعة عنده وخلال عصر عباس الأول (٨٤٨ - ١٨٥٤)، محمد سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣) تراجع مشروع الدولة الحديثة كما كان يخطط له محمد علي وبالتالي تراجع دور الطهطاوى حيث أغلقت مدرسته ١٨٥١ (الألسن) كما أبعد إلى السودان حيث عين ناظرا على إحدى المدارس الابتدائية. إلا أن عام ١٨٦٣ تحديدا يعتبر نقطة تحول جديدة فى حياة الرجل حيث تولى إسماعيل الحكم وكان شديد الحماس للثقافة الغربية وخاصة الفرنسية فأعاد افتتاح مدرسة الألسن وقلم الترجمة وعين الطهطاوى ناظرا لهما واتسع دوره، حيث أسندت إليه مهمة تحرير مجلة «روضة المدارس» كما انتهى من كتابه «مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية» حيث حدد معالم الطريق الذى يرشحه لمصر لتسلكه فى نهضتها وأوضح كيفية الاستفادة من ثقافة الغرب مع الحفاظ على الموروث الثقافى الجيد وصاغ بطريقة مبهرة المفاهيم الأساسية للوطن والوطنية، ثم أعقب ذلك نشر كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين» الذى لخص فيه خلاصة فكره الاجتماعي والثقافى ثم تضاعف وعي الطهطاوى بالقضية الوطنية ولعب دورا هاما فى صياغة المشروع الوطني السياسي ثم

كان كتابه «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز»، وقد كتب الطهطاوى كتبا أخرى مثل «أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل» وعموما فكما كان لفوكوزاوا دور كبير فى تنوير وتحديث الفكر اليابانى من خلال ترجمات من الإنجليزية والهولندية وغيرهما من اللغات الأوربية كان كذلك الطهطاوى بما ترجمه من الفرنسية فى شتى مجالات المعرفة كما كان لكثرة كتاباته أكبر الأثر فى التاثير ليس فى جيله فقط وإنما فى الأجيال اللاحقة، حيث ما يزال الزجل مشروعا عظيما للفكر العربي الحديث.

فكر جديد لمجتمع يمضي نحو التحديث

لقد راح الدكتور رؤوف يحدد ملامح مشتركة بين كل من فوكوزاوا والطهطاوى فى مجال الفكر السياسي وخصوصا فيما يتعلق بالأفكار التقليدية التى تبرر سلطة الحكم.

ففي اليابان كانت فكرة الميبون التى جعلت علاقة الحاكم بالمحكوم على نحو مناظر لعلاقة الأباء بالأبناء، لذا مارس الحكام سلطات مطلقة على المحكومين. وساد الاعتقاد بأن البشر غير متساوين وتضمن الإطار السياسي للكنفوشية فكرة تفويض السماء، التى يستمد منها الحاكم حقه المقدس ولم يكن هناك ما يبرر خلع الحاكم الظالم إعمالا لفكرة تفويض السماء.

وفى مصر كان التمايز موجودا بين الناس. وعلى الرغم من أن الحاكم كان ملزما باستشارة أهل الرأى إلا أن هذا المبدأ قد عطل تماما وتدهورت أحوال البشر بينما كان الحكام يمارسون نوعا من الحكم يضاعف من تدهور الحياة لدى المصريين.

وفى اليابان راحت مقولات فوكوزاوا وأفكاره تنتشر بسرعة مذهله «إن السماء لا تخلق إنسانا يعلو على غيره... فالناس عندما ولدوا كانوا سواسية» وأخذ الرجل على عاتقه نشر ثقافة المساواة بين البشر وراح يؤكد أن الثروة والنفوذ لا تتحددان بقرار من السماء بل تأتي نتاجا لما يبذله الناس من جهد.

لقد ربط فوكوزاوا بين الاستقلال والشخص لكل فرد والاستقلال الوطني. وتساءل: كيف يستطيع من لا يقدر على الاعتماد على نفسه أن يحصل على استقلاله الوطنى؟ وأخذ يناشد اليابانيين الحرص على تحمل مسئوليتهم تجاه أمتهم بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية: «يجب علينا أن نتعامل مع التراب الوطني تعاملنا مع بيوتنا وأن نضحي بأرواحنا وأموالنا من أجل الوطن».

ولم يمض وقت طويل حتى كانت أفكار فوكوزاوا قد وجدت صداها، حيث قامت حركة شعبية مطالبة بالحرية وحقوق الشعب.

وفى إطار نظرى فلسفي راح فوكوزاوا يدعو لفكرة القانون الطبيعي، الذى تقوم عليه نظرية العقد الاجتماعي، على اعتبار أن الحكومة قد جاءت وفقا لعلاقة تعاقدية مع الشعب وقد رأى الدكتور رؤوف عباس أن ذلك يعد فكرا ثوريا، حيث يقوم على افتراض أن حقوق السيادة للشعب وحده ومن ثم فإن الحكومة (أية حكومة) يمكن تغييرها فى أى وقت.

وعلى الرغم من ذلك فقد عارض فوكوزاوا التعجل فى إقامة المجالس النيابية أو الإطاحة بالحكومة الأوتقراطية، معتبرا نظام مايجي حكما تقدميا.

لقد ذهب فوكوزاوا إلى أن مهام الحكومة يجب أن تقتصر على الأمور العسكرية وإصدار القوانين التى تحفظ النظام وحماية مصالح الشعب وبرر أفكاره بأن التوازن الدقيق بين الحكومة والشعب سر من أسرار التقدم الحضارى وتماشيا مع موقفه التوفيقي ذهب إلى أن الحكومة سوف تتطور تدريجيا نحو الانتقال من الأوتوقراطية إلى الديمقراطية.

ورغم أن فوكوزاوا لم يشغل أى منصب حكومي طوال حياته إلا أنه لعب دورا هاما فى تدعيم نظام مايجي من خلال تبريره لسياسة الحكومة ولكنه انفرد بالدعوة إلى الاستقلال الوطني والاعتماد على الذات واحترام النفس وتنقية الموروث الثقافى ورفض القيم التى تدعم استبداد الحكام على حساب الشعب.

وأعتقد أن فوكوزاوا قد أدرك أهمية التوفيق بين الواقع السياسي وأفكاره التنويرية التى توشك أن تحدث صداما حتميا بين الشعب والحكومة، لذا فقد اختار ألا يمضي بأفكاره نحو مصير يجهله مفضلا أن يهادن الحكومة وهو موقف يختاره السياسيون غالبا.

وإذا كان فوكوزاوا قد اقتبس من الثقافة الأوربية كثيرا من أفكاره فإن الطهطاوى قد اتخذ نفس المرجعية مع اتفاقهما على الحفاظ على الموروث والأخير قد عنى بشكل ملحوظ بالحرية كما تضمنها الدستور الفرنسي ولعله قد انبهر بالمبادئ الدستورية التى سادت بين البشر ووقف عندها وأضاف إليها شروحا وهو يترجم الدستور الفرنسي وخصوصا وأن كثيرا من المبادئ وجد لها الرجل أساسا فى الشريعة الإسلامية وخصوصا مبدأ العدل كأداة لتحقيق الصالح العام والتزام الحاكم بتوفير أسباب الحياة للناس إلا أن أفكارا جديدة تلمسها الطهطاوى ومنها ضرورة مشاركة الناس فى الحكم وأن القوانين يجب أن تتغير بتغير الظروف وأنها تصاغ وفقا للأحوال الجغرافية وأن حب الوطن يعد ركيزة كل الفضائل السياسية والعكس.

ولم تكن هذه الأفكار عند الرجل مجرد أقوال مقتبسة من الثقافة الفرنسية وإنما كانت تمثل قناعات يرى أنها ضرورة من ضرورات رقي الشعوب وتقدمها.

لم يكن الطهطاوى بهذه الأفكار خارجا على حدود الموروث من الشريعة الإسلامية وإنما كان يرى أن كل هذه الأفكار لها أساس من الإسلام الصحيح.

وإذا كان الطهطاوى قد قبل بسلطة الحاكم الفرد إلا أنه استعار من الدستور الفرنسي فكرة الفصل بين السلطات، حيث يرى أن أعباء الحكم لا يستطيع حملها فرد واحد ويذهب إلى أن العلاقة بين الحاكم والرعية تقوم على الحقوق والواجبات فللحاكم على الناس حق الطاعة شريطة أن يؤدى واجباته تجاههم وواجب الحكومة إقامة العدل وتحقيق المساواة والحرية وحماية أرواح الناس وممتلكاتهم وفقا لشرع الله.

ولعل الطهطاوى فى مجمل آرائه لا يدعو إلى الخروج على الحاكم ولا الثورة عليه ولا يرى أن العنف وسيلة صالحة للتغيير وهي نفس الأفكار التى دعى إليها فوكوزاوا.

لقد ميز الطهطاوى بين خمسة أنواع من الحرية: الحرية الطبيعية، وحرية التصرف والسلوك والحرية الدينية، والحرية السياسية. أما الحرية الطبيعية فتتمثل فى حق المواطن فى إشباع حاجاته الجسدية والبيولوجية، وحرية السلوك التى تتعلق بالعادات والأخلاق. والحرية الدينية التى تتمثل فى حرية الاعتقاد والرأى واعتناق المذاهب بما فى ذلك الأفكار السياسية، أما الحرية المدنية فتتصل بحقوق المواطنين تجاه بعضهم البعض.

أما الحرية السياسية فقد اعتبرها الطهطاوى من خصائص الدولة، التى تضمن للمواطنين حريتهم. وبصراحة شديدة يقرر الرجل: بأنه لا يوجد فرق كبير بين مبادئ الشريعة الإسلامية ومبادئ القانون الطبيعي الذى يرتكز إليه التشريع فى أوروبا الحديثة.

لقد كان الطهطاوى أول من صاغ مصطلح الوطن، فى إطار الموروث التاريخي لمفهوم الأمة الإسلامية ليضع بذلك ولأول مرة حجر الزاوية فى بناء الفكرة القومية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ودعا فى كتابه «مناهج الألباب» إلى التسامح الديني وأكد على حقوق الأقباط واليهود بالخضوع لشريعتهم فيما يتصل بالأحوال الشخصية.

واللافت للنظر أن الطهطاوى لم يقدر خطورة التوسع الغربي فى الوطن العربي، حيث بهرته المعارف الأوربية وأبدى تسامحا كبيرا مع الأجانب المقيمين فى مصر، مهما كانت دوافع إقامتهم وإذا كانت أفكار فوكوزاوا قد أغفلت تماما تراث الثقافة السياسية اليابانية إلا أن أفكار الطهطاوى اتخذت طابعا إصلاحيا فى محاولة لتوظيف الموروث الثقافى لتمرير الأفكار الجديدة ورغم أن كليهما (فوكوزاوا والطهطاوى) قد تأثرا بالليبرالية إلا أنهما اتسما بالبراجماتية، حيث أيدا النظام الأوتقراطي فى بلديهما، وبينما كان موقف الطهطاوى متسقا مع خطه الفكرى إلا أن موقف فوكوزاوا اتسم بالتناقض مع مبدأ العقد الاجتماعى كأساس للعلاقة بين الناس والسلطة.

وفى الوقت الذى رأى فيه فوكوزاوا أنه من الضرورى استقلال العلماء ذوى الثقافات الرفيعة عن الحكومة وقيامهم بتوجيه مجتمعهم إلا أن الطهطاوى ربما كان يعمل فى خدمة الحاكم مما اضطره أحيانا إلى التحايل لتمرير أفكاره وهذا الخلاف الجوهرى فى الرأى يعد طبيعيا فقد كان فوكوزاوا كاتبا ومعلما مستقلا يعيش على عائد كتاباته بينما كان الطهطاوى يعيش فى ظل«ولى النعم» على حد تعبير المؤلف.

لقد راح المؤلف بطريقة تحليلية، نقدية يقيم مقارنة علمية بين الطهطاوى وفوكوزاوا.

لقد كان مفهوم الحضارة عند الأخير يتسم بالحيوية والحركة وأن المظاهر الخارجية للحضارة كالطعام والملبس والقوانين إلخ.. تختلف من مجتمع إلى آخر وأن على كل مجتمع أن يعمل على خلق روح الحضارة الخاصة به، التى تعد علاقة تعاقدية بين الناس وأن تحقيقها يعد هدفا حيويا للبشر.

ترتبط الحضارة فى فكر فوكوزاوا بالتطور العقلي والخلقي للشعب مؤكدا على ضرورة التمييز بين ما هو موروث وما هو مكتسب حفاظا على استقلال البلاد.. وقد قدم تفسيرا عاما للحضارة اليابانية وتحليلا تاريخيا لها بهدف الوصول بها إلى المستوى الذى وصلت إليه الحضارة الغربية.

بينما نظر الطهطاوى إلى التاريخ من نفس زاوية فوكوزاوا، باعتباره حركة تقدمية يقطعها الإنسان على طريق الحضارة ورأى أن دراسة التاريخ تؤكد أن الحضارة مجرد مرحلة من مراحل التطور وليست ذروة ذلك التطور ووضع يده على العوامل التى أوصلت أوروبا إلى الرقى الحضارى وأكد على أهمية التواصل مع أوروبا والاستفادة من كل فروع المعرفة التى توصلت إليها.

لقد ميز الطهطاوى بين مكونين من مكونات الحضارة: المكون الروحي الذى يتصل بالأخلاق والعادات والسلوك ويتمثل فى الدين والشريعة والمكون الآخر مادى

يتصل بالمنافع العمومية وأن الوصول إلى درجة عالية من الرقى الحضارى يقضى بالمزج بين العنصرين وإلا كان التطور مخلا.

وفى إطار المبادئ القانونية والقيم الخلقية أشار إلى أن الاندفاع نحو العقلانية دون تحفظ يتعارض أحيانا مع الشريعة الإسلامية.

ويصل المؤلف فى نهاية كتابه الممتع إلى نتائج مؤكدة:

لقد استقى فوكوزاوا والطهطاوى معظم أفكارهما المتصلة بالتاريخ والحضارة من كتابات المؤرخين الغربيين فكلاهما تأثر بما كتبه جيزو عن الحضارة الأوربية وأضاف إليه فوكوزاوا قراءاته الإنجليزية ومنها كتاب عن تاريخ الحضارة فى إنجلترا وقد اتفقت وجهات نظرهما حول التناقضات الأساسية بين ثقافة بلديهما الوطنية التقليدية وبين الثقافة الأوربية واتفق الرجلان على أن المظاهر الخارجية للحضارة الغربية لا تحقق التقدم كما رأيا فى التقدم الحضارى السبيل للحفاظ على الاستقلال الوطنى.

وأبرز المؤلف الخلافات الجوهرية بين أفكار فوكوزاوا والطهطاوى فيما يتصل بتكوين الشكل الوطني المتميز للحضارة فى بلادهم فبينما سعى فوكوزاوا إلى صياغة نظام أخلاقي جديد من خلال ما أسماه «روح العصر» تمسك الطهطاوى بالقيم الخلقية الإسلامية كإطار لا غنى عنه لعملية التطور الحضارى الحديث غير أن الرجلين اتفقا على مبدأ الانتقاء عند الاقتباس من الحضارة الغربية.

أ.د. محمد صابر عرب

المؤلف : عبد الوهاب بكر

الكتاب : أحوال الأمن فى مصر المعاصرة

دار النشر : مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان عام ٢٠٠٠

يقع الكتاب فى ٢٣٤ صفحة من القطع العادى ، وهو صادر عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان عام ٢٠٠٠ ويحمل رقم ٥ من دراسات المركز .

وينقسم الكتاب إلى أحد عشر فصلاً ، بالإضافة إلى المقدمة والنتائج والتوصيات والمراجع ويدخل تحت المقدمة أهمية قضية الأمن وارتباطها بقضايا المجتمع ، وكيف أن الأمن يضم عنصر الجريمة والإجرام وعنصر مكافحتهما ، ومدى ضرورة البحث فى هذا المجال ، والصعوبات التى تُواجه رصد حركة تغير الجريمة نظراً للوسائل التكنولوجية الحديثة .

ويتعرض الفصل الأول « أحوال الأمن العام قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢» للبورجوازية المتمثلة فى كبار ملاك الأراضى التى تولت قيادة الحركة السياسية على مدى النصف الأول من القرن العشرين ، وفى مقابلها رَصَد الفصل موقع باقى شرائح الملاك والمعدمين على خريطة البنية الاقتصادية فى الريف ، وأظهر الفصل هيمنة رأس المال الأجنبى على الاقتصاد المصرى بأدواته المختلفة فى وقت أُقصى فيه رأس المال المصرى الذى انصب على امتلاك المزيد من الأراضى مما كانت له نتائجه التى أثرت على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. ويصور الفصل الأوضاع فى المدينة ، تلك التى ارتبطت بالصناعة ، وظروف ازدهارها إبان الحرب العالمية الأولى ، ثم انتكاسها عقب الحرب ، وانعكاس ذلك على السوق والعمال ، وازدياد سوء الحالة مع الأزمة الاقتصادية فى الثلاثينات ، ثم صحوة الانتعاش المؤقتة التى صاحبت الحرب العالمية الثانية . ويتتبع الفصل توزيع الدخل القومى وما اعتراه من خلل ، والأزمات الاقتصادية وارتباط ذلك بارتفاع معدل الجنايات التى تأثرت أيضاً – سواء بالزيادة أو النقصان –

بالظروف السياسية التى تعرضت لها مصر منذ الحرب العالمية الثانية وحتى عام ١٩٥٢، ثم يخضع الفصل تقرير الأمن العام للنقد ويُحلل ما جاء فيه .

ويتناول الفصل الثانى « حركة الجريمة فى السنوات الأولى من الثورة ١٩٥٢ - ١٩٥٦ » مشكلة تداخل الإحصائيات الجنائية لعام ١٩٥٢ مما صَّعب الفصل بين الثورة وما قبلها ، واستمرار ارتفاع معدل الجريمة فى الستة شهور الأولى من الثورة لاستمرار الأوضاع على ما هى عليه اقتصادياً واجتماعياً فى هذه الفترة ، حيث لم تتوافر فى البداية العناصر الخاصة بانخفاض الجريمة ، وأهمها المشكلات السياسية إذ تعددت القضايا الخارجية والداخلية التى استنفدت قوى مصر ، والمشكلات الاقتصادية حيث كُثفت المحاولات من أجل التخلص من التركة الاقتصادية المثقلة التى ورثتها الثورة، بالإضافة إلى ارتفاع الإنفاق العسكرى رغبة فى إنشاء جيش قوى نظراً للظروف المحيطة بها مصر ، وما تبعه من زيادة ضريبة الدفاع . ويتطرق الفصل إلى قضية الدفاع، وكيف أن الاتحاد السوفيتى قد تقاضى نصف ثمن المعدات العسكرية لمصر نظير قرض له مواصفاته فى مقابل أن تُقدم مصر القطن والمنتجات الزراعية للكتلة الشرقية، ومن ثم أصبح دخل مصر مرهوناً بذلك . وُيبَين الفصل أنه من أجل جذب مصر لرؤوس الأموال الأجنبية ، عملت على رفع استثماراتها على حساب الجموع الفقيرة التى وقع على كاهلها العبء الاقتصادى ، وعليه ازدادت معدلات الجريمة . ويستعرض الفصل تقرير حالة الأمن العام لسنة١٩٥٥ وُينقده ويتابع الإحصاءات التى تُصور حجم الخلل الاجتماعى أثناء هذه الفترة ، ويشير الفصل إلى الجرائم الجديدة التى ظهرت وارتبطت بأوضاع النظام الجديد مثل تهريب الأموال للخارج والتجسس على البلاد والتخريب.

ويتتبع الفصل الثالث « الجريمة فيما بعد العدوان الثلاثى وحتى نهاية عهد عبد الناصر» الأحداث التى مرت بها مصر بين عامى ١٩٥٧ ، ١٩٦١ داخلياً وخارجياً ، وكيف اتُخذت خطوة التأميم فى العام الأخير ، وانهارت الوحدة مع سوريا ، ويُحلل الفصل أثر مغامرة مصر العسكرية فى حرب اليمن عام ١٩٦٢ ، وما أقدمت عليه الدولة

لمعالجة مشكلة الميزانية سواء بفرض المزيد من الضرائب أو الاقتراض ، وظهور أزمة المدفوعات عام ١٩٦٤ وأسبابها واللجوء إلى الاقتراض من الاتحاد السوفيتى الذى قدم بعض المساعدات فى هذا المجال ، وارتفاع حجم الإنفاق العسكرى نتيجة إرسال مصر قواتها للجزائر عام ١٩٦٣ ولشمال العراق عام ١٩٦٤ ، وانعكاس ذلك على سوء الحالة الاقتصادية، وبالتالى ما تركه من أثر على الأمن ، فارتفعت نسبة الجريمة وزاد عدد الجنايات فى الفترة بين عامى ١٩٥٧ ، ١٩٦٧. ويأتى الفصل بالإحصاءات الخاصة بأنواع الجنايات المختلفة والجنح التى صعد مؤشرها نتيجة الخلل الاجتماعى القائم الذى يرجع إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية والاضطراب السياسى ، ويُركز الفصل على الرشوة ، ويُبيَن كيف عاقت الاستثمار ، ويُشير إلى غيرها من الجرائم الذى زاد بعضها وانخفض البعض الأخر، وينقد تقارير الأمن لأعوام ١٩٥٧ ، ١٩٦١ - ١٩٦٦، ويكشف ما وصلت إليه الحالة الأمنية من ترد، ويرجع ذلك إلى سوء الأحوال الاقتصادية والنسبة المرتفعة من السكان التى تعيش تحت خط الفقر. ويتعرض الفصل للمعونة الأمريكية والظروف التى مرت بها فى مصر، بالإضافة إلى الأعباء الاقتصادية مما كان له الأثر فى ارتفاع عدد الجرائم بصفة عامة وعدد الجنح بصفة خاصة ، ويُركز على المخدرات والبغاء . وينتقل الفصل إلى هزيمة عام ١٩٦٧ وتنحى عبد الناصر وعودته ، وغضب الشارع المصرى، والصراع الخفى بين الحكومة ومراكز القوى ، وأثر الهزيمة على الاقتصاد، واتساع حركة الجريمة ، ويستعرض الفصل تقارير الأمن لأعوام ١٩٦٧ - ١٩٧٠ ويُعلّق على بعض الجنايات مثل جناية الإفلاس ، وكيف أن مرحلة حرب الاستنزاف عملت على المزيد من سوء الأوضاع الاقتصادية ورد الفعل على الحالة الأمنية .

وُيبرز الفصل الرابع «الأمن فى مصر فى الفترة ١٩٧١ - ١٩٨١» الدور الإيجابى الذى لعبه السادات بعد رحيل عبد الناصر على المستوى السياسى، ويشرح كيف كانت الأحوال الداخلية وخاصة الاقتصادية فى حاجة إلى علاج، حيث تعددت

المشكلات، وبداية الخطوات فى هذا الشأن ، وذلك بالسماح بالتعددية الحزبية ، واتباع سياسة الانفتاح الاقتصادى التى تمخض عنها ولادة أثرياء جدد غمروا الأسواق بالواردات الأجنبية مما أثار باقى شرائح المجتمع، بالإضافة إلى ذلك التميز الذى اختصت به الشرطة لتكون الأداة المنفذة للحكم. وضم الفصل خطة قواعد السياسة الاقتصادية للسادات والمصاعب التى واجهتها مما عرقل معدل التدفق السريع لرأس المال الأجنبى على مصر ، أيضاً خسائر القطاع العام الفادحة ، وزيادة عدد السكان مع قلة إنتاج الطعام، وعليه تدفق الاستيراد ، فكان الضغط على ميزان المدفوعات ، وبالتالى الحد من قدرة مصر على تمويل الاستثمارات الجديدة. ويتناول الفصل قضية الدعم وعجز الدولة عن تحمل عواقب إلغائه وأعباء الدفاع، وارتفاع الإنفاق العسكرى، ويُشير إلى الأمن، ويركز على جريمة تهريب النقد التى برزت كنتيجة لسياسة الانفتاح الاقتصادى، وجريمة المخدرات وزيادة معدلها، ويأتى بالجداول الخاصة بالجنايات وحركة الجريمة، ومدى الارتباط بين الجريمة وبين الأحوال السياسية والاقتصادية ، ويخُتتم الفصل بتقويم للسياسة الاقتصادية إبان هذا العقد .

ويُعطى الفصل الخامس «الجريمة فى مصر فى الثمانينات والتسعينات» صورة للحالة الاقتصادية التى ورثها مبارك عن السادات ، وتفاقم الكثير من المشكلات ، وأهمها مشكلة الغذاء الذى شكل الاستيراد ركناً أساسياً فيه ، ويأتى القمح على رأس القائمة، ثم مشكلة الديون الخارجية التى اضطرت مصر إلى الاستقطاع من دخلها لسداد الأقساط والفوائد، وارتفاع معدل التضخم ، وارتفاع الأسعار ، وعليه تكون نتيجة العجز عن الشراء ارتكاب الجرائم. ويُسجل الفصل الجداول الإيضاحية لتطور هذا الارتفاع الذى صاحبه تقلص الدعم مما ترك الأثر السيئ على الفقراء ، بالإضافة إلى البطالة التى ارتفع مؤشرها، وبالتالى انعكس الأمر على حركة الجريمة ، فتصاعدت جناية السرقة فى وقت صنفت فيه تقارير الأمن العام الجريمة بما يخدم مصلحة الدولة. وقد جاء بالفصل عرض لنوعية مرتكبى الجرائم بهدف السرقة، وأشار إلى التطور

التنظيمى فى حركة هذه الجناية والذى تمثل فى التشكيلات العصابية، وينتهى الفصل بجدول عن حركة الجريمة فى مصر أثناء هذه الفترة .

ويتعرض الفصل السادس «مصداقية تقارير الأمن» إلى أن التقارير السنوية الصادرة عن مصلحة الأمن العام هى الأساس للتعرف على أحوال الأمن فى مصر ، ولكن يعتريها القصور حيث إن القائمين عليها يسعون لاختيار البيانات التى تُسجل نجاحهم وتُرضى رؤساءهم ، وإن حدث وكانت هناك تقارير غير طيبة ، فإنها تُواجه العقبات فى الوصول إلى المستويات العليا، إذ يكون الخوف هو الدافع إما لحجبها أو التغيير فيها . ووفقاً لذلك فقد حرص مسئولو الأمن على تأكيد خفض عدد الجرائم حتى تبدو الأمور مستقرة ، كما أن بعض التقارير ركزت على مزايا ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وشغف واضعوها بالاستشهاد بما حدث قبل الثورة والحديث عن الصراع الطبقى وقتها، بالإضافة إلى ظاهرة التملق لوزراء الداخلية ، كما استبعدت تقارير الأمن بعض الجنايات منذ عام ١٩٦٣ ، وعليه انخفضت أعدادها ، رغم زيادة عدد السكان وسوء الأوضاع الاقتصادية مما أفقدها المصداقية . ويعرض الفصل لتقريرين لوكيل وزارة الداخلية لعامى ١٩٥٢ ، ١٩٦١ ويُبين الفرق بينهما وسيطرة النفاق السياسى على التقرير الأخير ، فى وقت جرت فيه عمليات من ناحية التأميم ، وهبطت أسعار القطن من ناحية أخرى مما كان له رد الفعل على الجريمة . وقد أرجع ذلك إلى نظام الترقية فى الشرطة ، إذ وُضعت مسألة الاختيار فى الحسبان ، وبالتالى فإن إرضاء أصحاب المناصب العليا هو من المهام الأساسية للراغبين فى الاستمرار ، وعليه يكون العمل على تخفيض عدد الجرائم دون أن تخضع مثل هذه التصرفات للمراجعة .

وُيصور الفصل السابع «معايير التقييم» مسئولية جهاز الأمن فى حفظ الأمن ومنع الجريمة ، والأدوات المستخدمة فى ذلك ، ويرتكز الدور الرئيسى فى هذا الصدد على ضبط الوقائع وتقديمها للنيابة وجمع الأدلة التى تُساعدها فى أداء مهمتها ، وإن لم تكن تلك الأدلة قوية تحفظ القضية ، وهذا الحفظ هو المعيار لتقييم عمل جهاز الأمن حيث

يعنى فشله . أما نجاحه فيكون بقوة الأدلة التى تُدين المتهم ليُحال للقضاء ، وبالنسبة للحفظ فإنه نوعان ، حفظ مؤقت لعدم معرفة الفاعل أو لعدم كفاية الأدلة ، وحفظ قطعى ويُشترط فى حالات معينة. والنوع الأول يُشير بأصابع الاتهام إلى جهاز الأمن لتقصيره، وأنه فى الفترة من عام ١٩٥٢ إلى ١٩٩٨ انخفضت نسبة الحفظ المؤقت تدريجياً . ويأتى الفصل بالرسوم البيانية والتوضيحية التى تُمثل المحفوظ من عدد الجنايات وأنواعها ، ويستعرض نظام التقييم الذى وضعته الوزارة عام ١٩٥٨ ، وقد اعتمد على أن إحالة القضايا إلى المحاكم يُعد معياراً للتقييم فيما يختص بالجرائم، وتم توحيد المعايير عن طريق مقابلة بعض جنايات الريف ببعض جنح الحضر ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا، كما أن تقارير الأمن توقفت فى عامى ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ عن تقديم جداول الجنايات ونسبة ما حُفظ منها مع المقارنة بالنسبة السابقة لها ، وكان فى ذلك نوع من التقصير .

ويرصد الفصل الثامن «الظاهرة الإجرامية فى مصر» العناصر التى تقوم عليها الظاهرة الإجرامية ، ومدى تطبيقها على مصر ، ويأتى بالأمثلة لجرائم اغتصاب الإناث التى وقعت فى عام ١٩٩٩ ، ويُحلل أبعادها وركنيها المادى والمعنوى ، وأن المواد الخاصة بها فى قانون العقوبات لا تردع ، وأنه لم يتحقق الهدف من التعديل الذى أُدخل عام ١٩٨٠ ، لذا فقد أُلغيت المادة التى تعفى المغتصب من العقاب إذا تزوج المغتصبة عام ١٩٩٩ ، ومع ذلك فالظاهرة قائمة رغم ما أثبتته تقارير الأمن العام من تحجيم الواقع. ويتعرض الفصل لأسباب جريمة الاغتصاب ودوافعها فيما يختص بالجانى من ناحية ، والعوامل الاجتماعية والسياسات التشريعية والقضايا من ناحية أخرى.

وُيوضح الفصل التاسع «العنف المسلح فى مصر» أن القانون الجنائى لم يُفرق بين الجريمة الجنائية والجريمة السياسية فى مجال التجريم ، حيث العبرة بالقصد الجنائى دون أى اعتبار للباعث . ويتعرض الفصل لجرائم العنف السياسى عبر تاريخ مصر

الحديث والمعاصر ، ويُعرف الجريمة السياسية والعنف المسلح فى مصر ، ويُقسمه إلى قسمين، الأول اختص بالنصف الأول من القرن العشرين وانصب على العمليات الفردية، والثانى اختص بالنصف الثانى من القرن نفسه ، وبدأ مع جماعة الإخوان المسلمين ، وتمثل فى اتباع نظام عنف خاص استند على قواعد الرغبة فى الاستيلاء على الحكم بالقوة . ورغم حل الجماعة عام ١٩٥٤ واعتقال أعضائها ، فقد تمكن سيد قطب من إعادة نشاطها وتنظير العنف للسعى إلى تحقيق غرضها ، ولكن فشل التخطيط وصدر الحكم ضده وضد بعض الإخوان . ثم يتناول الفصل تنظيم صالح سرية الذى استطاع عام ١٩٧٤ أن يُكون خلايا للإطاحة بنظام الحكم وإعلان الحكومة الإسلامية، ولم تلق هذه الحركة النجاح ، وما لبثت أن قامت حركة التكفير والهجرة عام ١٩٧٧ ، ولكن اقتص من أصحابها . ويُوضح الفصل أنه إبان نشاط هذه التنظيمات تكونت نواة تنظيم الجهاد عام ١٩٥٨، وتشعب هذا التنظيم أثناء السبعينات، واجتمع على الجهاد المسلح لمقاومة الحكم والقضاء عليه ، ثم ظهر تنظيم الجماعة الإسلامية بين عامى ١٩٧١ ، ١٩٧٥ ، واتسع نشاطه ، وانضم إلى تنظيم الجهاد عام ١٩٨٠ بهدف إقامة الدولة الإسلامية عن طريق الثورة الشعبية التى تسبقها عمليات اغتيالات للقيادات السياسية، وعليه تم اغتيال السادات فى ٦ أكتوبر ١٩٨١، وأعقب ذلك بداية مرحلة جديدة من مراحل العنف المسلح انفصل فيها التنظيمان، وواصلا طريقهما فى استخدام العنف المسلح . وقد استلزم ذلك نشاطاً مكثفاً لأجهزة الأمن ، وجرت مصادمات عديدة بين الطرفين، وسجل التخطيط الأمنى نجاحه ضد عناصر العنف، وسقط الكثير من الضحايا بين الطرفين. ويُشير الفصل إلى الشائعات حول تجاوزات أجهزة الأمن فى هذا الصدد، وما أقدمت عليه الجماعات المتطرفة سواء ضد المسيحيين أو السائحين أو رموز الفكر أو المنشآت العامة ، والهدف من وراء ذلك ، ويتطرق الفصل إلى غياب جهاز الأمن عن الإلمام بترسانة الأسلحة التى امتلكتها هذه الجماعات، ويعرج على مصادر تمويلها، ويُحلل أن العنف المسلح فى مصر لم يعد له المستقبل، ويستعرض العلاج الذى ينأى بها عنه .

ويُظهر الفصل العاشر «تقييم الأداء الأمنى فى مصر» دور جهاز الأمن ، والربط بين ممارسته لعمله وبين الجريمة وإيجاد علاقة سببية بين التشخيص الحقيقى وأداء هذا الجهاز ، كما أشار الفصل إلى مواطن الخلل فى الجهاز الأمنى من حيث العنصر البشرى ، وانتزاع الاعتراف من المتهمين عن طريق وسائل غير شرعية من تعذيب وتلفيق ، ويأتى الفصل بالحكم القضائى وتقارير حقوق الإنسان التى تثبت ذلك ، وفى الوقت نفسه يُنوه إلى أن هذا الأمر لا ينطبق على كافة العاملين فى الجهاز الأمنى . أيضاً يتعرض الفصل لمسألة التلاعب فى البلاغات المقدمة بهدف تقليل عدد الجنايات وتحويلها إلى جنح، والاهتمام بالأمن السياسى على الأمن الجنائى ، ويُسجل الحوادث التى تُبرهن على وجود تقصير أمنى فى أداء جهاز الأمن ، وكذلك اهتزاز العلاقة بين رجل الأمن والمواطن وترفع الأول على الثانى، والنتائج السلبية لهذا الوضع على الفرد والمجتمع.

ويُمثل الفصل الحادى عشر «النتائج والتوصيات» الحقائق التى توصلت إليها الدراسة وما يجب على جهاز الأمن الالتزام به بشأن تعامله مع كل من الجريمة والناس، والأسس التى يجب توافرها فى رجل الأمن، وقد أبدى المؤلف فى هذا الفصل اقتراحاته الخاصة بإعادة ترتيب أوراق جهاز الأمن فى شكل اتباع نظام جديد له القواعد الصحيحة التى تكفل له النجاح فى أداء مهماته وتقصيه عن العيوب التى اعترته.

وأخيراً هناك المنابع التى استقت الدراسة مادتها منها ، وتمثلت فى محكمة الشعب ومحاكمات الثورة وتقارير حالة الأمن العام منذ عام ١٩٥١ حتى عام ١٩٩٨ والقوانين ، ثم المراجع العربية والتقارير والدوريات والمصنفات الفنية والمراجع الأجنبية . وقد تمكن المؤلف من توظيف مادته جيدا ، وأخضعها للنقد والتحليل والتعليق ، بحيث أعطانا فى النهاية بانوراما كاملة عن أحوال الأمن فى مصر المعاصرة.

أ.د. لطيفة محمد سالم

المؤلف : آمـــنة حجـــازى

الكتاب : الوطنية المصرية فى العصر الحديث ، نشأتها و نموها حتى عام ١٩١٤

دار النشر : الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠.

كانت مصر الحديثة مطمعاً للباحثين فى تاريخها ، فتناولوها من زواياها المتعددة : السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وكانت معظمها استجابة منطقية للمؤثرات التى استوردتها من الغرب عندما تطلع هذا الغرب إلى مصر من خلال غزو الحملة الفرنسية لها فى أواخر القرن الثامن عشر ومستهل القرن التاسع عشر .

هذه الدراسات وإن كانت قد أرخت للحركة الوطنية المصرية وعلاقات مصر بالخارج تبعاً لذلك، إلا أنها قلما تناولت الجذوة التى كانت وراءها ، والتى كانت كثيراً ما كانت تبرز من ثناياها هذه الجذوة هى «الوطنية المصرية» ، وكيف كان لها ذلك رغم الضغوط المختلفة من الداخل والخارج ، وجهود من أذكوها من أبناء مصر، ومن هنا كان اختيار الباحثة للموضوع موفقاً إذ أضافت جديداً إلى تاريخ هذه الفترة، عندما عالجت نشأتها ونموها حتى عام ١٩١٤، رغم أنه قد يبدو لأول وهلة وكأنه عمل عاطفى أملته مشاعر وطنية .

والكتاب من تأليف الباحثة آمنة حجازى(*) إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٠ ويتكون من ٥٥٦ صحيفة ، ويضم ثمانية فصول وخاتمة، وقدم له الأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق.

ولقد أظهرت الباحثة فى بداية بحثها فى الفصل التمهيدى ، الحملة الفرنسية وتأثيرها الثقافى الذى لا ينكر فى هذا ، ومحاولة المصريين استيعاب هذا التأثير، ومردود هذا فى محدودية تأثير منشور نابليون الذى ظن أنه سيكون ذا أثر كبير عليهم،

(*) تقدمت الباحثة بهذه الدراسة لنيل درجة الماجستير فى التاريخ الحديث من كلية البنات جامعة عين شمس، تحت إشراف أ.د. يونان لبيب رزق وقد نالتها عام ١٩٩٧ بتقدير إمتياز.

كما أبرزت استحداث الحياة النيابية إبان وجود الحملة فى شكل «الديوان» الذى شارك فيه المصريون لأول مرة ، مما قاد إلى ظهور الشخصية المصرية التى تجلت فى مفهوم جديد للجهاد عندما ثاروا ضد الفرنسيين مرتين ، مما بلور فكرة الدفاع عن مصر ضد الغرباء ، وهنا أظهرت الباحثة شخصية وطنية جديدة بفكر وطنى جديد وهى شخصية «المعلم يعقوب» ومشروعه لاستقلال مصر حتى عن الأتراك الذين كان ينظر إليهم نظرة الخلفاء وسدنة الإسلام ، وانتهت إلى بزوغ الزعامات الشعبية المصرية وبداية المطالبة بإستقلال مصر .

والتقطت الباحثة الخيط لتسلمه إلى رفاعة الطهطاوى ، وهو بلا شك علامة وطنية، وجعلت منه ومن حسين المرصفى وعلى مبارك منظومة للبحث عن هوية مصر ، وتحديد مفهومها ، ومحاولاتهم لتطبيقها تطبيقات مبكرة مدركة أن الاحتكاك بالغرب والأخذ بأساليبه فى هذه المجالات هو دفعة كانت تلازمهم ، وهذا ما كتبه رفاعة فى كتابه «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» وعرض للإيجابيات فى فرنسا ، وتمنى لوطنه هذا لو طبق ما كان يراه هناك، وأكد على فكرة الاستقلال لأكثر من مرة ، وتنبأ بسقوط الدولة العثمانية ، فكان لذلك شديد الإعجاب بمحمد على الذى كانت لديه نفس الأفكار ولو أنه اعتبره وريثاً للفراعنة ليرده إلى المواطنة المصرية ، هذه النزعة الفرعونية المتأصلة فيه ، والتى أشارت إليها الباحثة فى الفصل السابع عندما تناولت انعكاسات التاريخ المصرى القديم ، واهتمام رفاعة بأثار أجداده ، وأنه رأى أن المصريين أولى بالتعرف على التاريخ الفرعونى وسماه تاريخ أجدادهم ليؤكد على جذور الشخصية المصرية «لأن المصريين من أقدم الأمم المتمدنة ، وكانت هذه المملكة منذ زمن النبيين زاهية مزهرة » ، وهنا عرضت لكتاب علم الدين لعلى مبارك وخرجت منه بفكرة عن وطنية المصريين .

والحقيقة أنه بان من هذا العرض استعداد المصريين لأن يسايروا مناهج العصر إذا ما وجدوا لذلك سبيلا ، وكان كل من حسين المرصفى وعلى مبارك خير دليل على هذا .

ثم والت الباحثة عرض العوامل الحضارية وتقوية التيار الوطنى خلال عصر إسماعيل إلى أحمد عرابى ، تلك الفترة التى كانت آلياتها فى ذلك : المفكرون وما تركوه من آثار دفعت الفكرة الوطنية ، ثم المؤسسات الثقافية كالصحافة والمسرح والكتابات الأدبية ، وأثرها أيضا فى نمو الفكرة الوطنية ، فعرضت لجهود كل من جمال الدين الأفغانى الذى انتهت منه بأنه لم يكن من دعاة الوطنية المصرية الساعية إلى فصل مصر سياسيا عن الدولة العثمانية ، وأن تكون «مصر للمصريين» بعيدة عن العنصر التركى ، إلا أنه قد دفع الروح الوطنية فى نفوس المصريين عن غير قصد .

والشيخ محمد عبده كمثقف مصرى متشبث بالفكر الدينى الوطنى ، وعبد الله النديم الذى نادى «بالجامعة الشرقية» وأدرج تحت لفظ المصريين العرب والترك والچراكسة القاطنين فى مصر ، ويعقوب صنوع الذى آمن بشعار «مصر للمصريين» مسانداً الثورة العرابية ، وكذلك مساندة أديب إسحق لنفس الفكرة .

وكان من الطبيعى أن تلحق الباحثة بهؤلاء المفكرين الصحافة كوسيلة لبث آرائهم وتعريف أكبر عدد من المصريين بها ، وانتهت بأن الصحافة الوطنية أرست دعائم الوطنية المصرية ونزعت عن مصر ثوب الدولة العثمانية ، مما أدى إلى دفع الفكرة الوطنية خطوات إلى الأمام .

أما المسرح المصرى فقد أسهم فى نضوج الوعى بين أفراد المجتمع وإن كان بدرجات متفاوتة ، وكذلك كان دور الأدب فى تقوية هذا الوعى الوطنى .

ولما كان الاحتلال البريطانى لمصر علامة سلبية واضحة فى تاريخ مصر الحديث، فكان له بالطبع أثره فى مسيرة الوطنية المصرية ، ولهذا عكفت الباحثة على عرض المظاهر الإيجابية للوطنية فيما قبل الاحتلال لتتناوله بعد ذلك مع رد الفعل الوطنى فى الفصل الرابع ، ومن المظاهر الإيجابية التى عرضتها الباحثة كانت الحياة النيابية بين الميول الوطنية والسياسات الخديوية ، ولم يكن المجلس النيابى فى أول مرة فى عام

١٨٦٦ أيام إسماعيل سوى واجهة دستورية تتفق مع ميول إسماعيل التحديثية ، مقتبسا فى ذلك طرق الغرب الأوربى فى الحكم ، وهو وإن كان قد شكله ليهيئه فى سقطاته المالية ، إلا أنه ما لبث أن شارك أعضاؤه فى حل مشكلات بلادهم ، ووضعوا أنفسهم على قدم المساواة مع إسماعيل وفق أهداف محدودة تتحد صيغها لتحقيق الحرية والإيفاء بمصالح وحقوق الرعية ، ويكفى أنهم كانوا يقولون « نحن نواب الأمة المصرية ووكلاؤها» ولكن جاء الاحتلال البريطانى ليقتل هذه الروح النيابية بإلغاء دستور شريف باشا وفرض دستور ١٨٨٣ .

تناولت الباحثة الثورة العرابية كهزة أعقبها الاحتلال، وكان تناولها من ناحية فكرتها وكيف بدأت من أصوات وطنية ثائرة من خلال تجمعات وطنية دبت فيها الحياة: كجمعية مصر الفتاة وجمعية حلوان تعانقا معا وعمل الحزب الوطنى رافعا شعار مصر للمصرين على ضم جميع القوى الثائرة على الأوضاع فى مصر والتى عملت فى الخفاء من أجل تغيير الأوضاع المترديه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، وهو وإن لم يأخذ شكل الأحزاب التى نعرفها ولكن يكفى أن أصبح يجمعه إحساس عام تدفعه الوطنية الجارفة ليكافح فى مضمار السياسة ويدخل دهاليزها التى لم يكن لمصر بها علم من قبل .

وما أن هُزم عرابى واحتلت إنجلترا مصر إلا ووأد الاحتلال الشعور الوطنى الوليد للمصريين ، ودعما لهذا الوأد استعانت إنجلترا بنفوذ الجاليات الشامية كبديل للعناصر المثقفة المصرية ذات الاتجاه الإسلامى الوطنى ، إلا أن هؤلاء الشوام لم ينصاعوا تماما للمآرب الإنجليزية ، وإنما كان منهم من ناصروا الوطنية المصرية لأنها حق واضح، ومنهم من ساند الوطنية العثمانية وأبدت الباحثة ملاحظة وجيهة وهى أن جريدة المقطم الناطقة باسم الاحتلال جذبت قطاعا من القراء وعزلتهم عن فكرة الجامعة الإسلامية ، وصبت اهتمامهم فى قالب مصرى حديث فساعدت بطريقة غير مباشرة على تقوية التيار الوطنى المصرى ، وسارت «المقتطف» على نفس الدرب بل واستنهضت همم الشرق

كله لنهضة حقيقية إلى التقدم ، ثم عرجت على صحافة مصطفى كامل من«المدرسة» إلى اللواء العربى والإنجليزى والفرنسى، وعلى هذا أصبحت هناك وطنية مصرية قحة وأخرى إسلامية ودار حوار طريف بين التيارين فصلته الباحثة تفصيلا جيدا، ولم تنس فى ذلك جذوة وطنيه الأقباط الذين دعوا للوطنية المصرية باعتبارهم سلالة الفراعنة وأكدوا الخصوصية المصرية وتأصيل الهوية الوطنية للمصريين ، وهنا بذلت محاولات لتأصيل الوطنية المصرية بين دعاة الفرعونية والفكرة العربية ردا على محاولات الاحتلال الفصم بين شطرى الوطن أقباطه ومسلميه ، وقامت هذه المحاولة على أساس وحدة اللغة والتاريخ والعامل الجغرافى تلك التى أتاحت الاتصال والتفاعل بين مصر وجيرانها العرب إلا أنه ظلت شريحة كبرى من المثقفين المصريين تدور أفكارهم حول تغليب صفة المصرية بهدف تأصيل روح الشخصية الوطنية المصرية .

ولما كانت الصحافة هى الوسيلة الواضحة كسلاح فى هذه الميادين عرضت الباحثة للصحافة والفكر الوطنى المصرى من ١٩٠٠ - ١٩١٤ حيث حملت منذ نشأتها عبء نشر الوعى بين المصريين وكل ما يتعلق بالفكر الوطنى ومراحل تطوره للوصول إلى «مصر للمصريين» وكان ذلك فى الأشكال الآتية : فك عرى الروابط مع الدولة العلية ، وتقوية الشعور الوطنى المصرى وصمود فكرة مصر للمصريين أمام الدعاوى الأخرى .

وعرضت الباحثة لآراء الصحف التى تعرضت لهذا المبدأ وجهودها فى هذا وكيف أن «مصر للمصريين» مثلت تيارين يفهم من أول وهلة أنهما متنافران ، أولهما جعل مصر للمصريين خالصة لأبنائها الحقيقيين دون سواهم ، وثانيهما هو جعل مصر للمصريين فى ظل التبعية لتركيا ، كما رصدت كيف أن الوعى الوطنى يتنامى .

ولم تكن الصحف تقوم فقط بدور نشر الوعى الوطنى أو تنميته وإنما فى نفس الوقت عالجت القضايا الوطنية كقضية الاستقلال وجلاء قوات الاحتلال وكيف اختلفت الآراء حول الوصول إلى حل لها ، ولم تختلف فى ذلك الصحف الوطنية أو

الطائفية ، فأبرزت دور الصحف القبطية فى ذلك ، كما تناولت الصحف مسألة أكثر دقة وهى الجنسية المصرية وكيف بذلت محاولات لفصلها عن الأخرى التركية ، وهذا تركيز على الروح الوطنى المصرى وإفساح المجال أمام الجنسية السياسية المصرية لتثبت أقدامها وتحقق رسوخها داخل الدولة المصرية ولتسهم بدورها فى تدعيم فكرة الوطنية المصرية ، وفى نفس الوقت تعرضت الصحافة لعلاج أفة الفتنة الطائفية التى كانت تغلف هذه الجهود وتهدمها ، واستطاعت احتواءها ، وانبرت الأقلام ضد التعصب الدينى الذى كانت مصر ستتردى فيه آنذاك ، وما كان للمؤتمر القبطى ثم المصرى من آثار اعتبرت تجربة كى لا تدخل فى متاهة التعصب وتداعياته الهادمة ، وما كان بعد هذه الظاهرة الصحية من اختلاف وائتلاف فى الآراء حول الوطنية والقومية المصرية إلى أن ظهرت الأحزاب المصرية التى كرست فكرة الوطنية المصرية ، ففى سنة ١٩٠٧ وما بعدها ظهرت أحزاب الصحف كالحزب الوطنى من صحيفة اللواء بزعامة مصطفى كامل ، وحزب الأمة من «الجريدة» وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية من صحيفة «المؤيد»، وهكذا أمكن القول بأن الصحافة المصرية قد مهدت الأرضية التى سنحت لقيام الأحزاب السياسية من منطلق فاعلية تلك الصحف وقدرتها على تجميع الرأى العام المصرى ، وعملت على تحويل نظريات الوطنية التى كتبت على أوراق الصحف إلى مبادئ مطبقة وحقائق ملموسة .

فهذا الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل يطالب باستقلال مصر تحت راية الدولة العثمانية على اعتبار أن الأخيرة لم تكن ذات سلطة فاعلة آنذاك لإثبات عدم شرعية الاحتلال البريطانى لمصر ، مما دفع الحزب الوطنى إلى الإنزلاق إلى الجامعة الإسلامية مما جعل «مصر للمصريين» فى رداء إسلامى ، واستطاعت الباحثة أن تدلل على هذا بتوفيق ، عندما ناقشت الآراء الأجنبية التى ناهضت فكر مصطفى كامل فى هذا الشأن ، وانتهت إلى أن موقف الحزب الوطنى من فكرة الوطنية المصرية كان ضعيفا فى مجال العمل للنهوض بالفكرة الوطنية خالصة من أية شوائب دينية تربطها

بفكرة الجامعة الإسلامية ، إلا أنه برجاله ومواقفه لنصرة القضية المصرية فى الداخل والخارج والمطالبة بالجلاء والاستقلال استطاع أن يحافظ على الروح الوطنى فى نفوس المصريين .

وحزب الأمة باتجاهاته المعتدلة ونزعته الوطنية مثل استجابة منطقية لتطورات المسرح السياسى نتيجة ثقافته الأوربية الحديثة ، وأنه أظهر تعاطف مع الوطنيين وذلك منذ أن اعتادت طبقة الأعيان على إرسال أبنائها إلى مدارس الحكومة ومع تطور الحركة الوطنية بشكل تصاعدى لعب هؤلاء الأبناء فيها دوراً فعالاً فى شكل حركة النخبة .

أما حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية فكان همه مساندة الخديو فى ظل التبعية العثمانية ، فكان مدافعا عن الإسلام أكثر من كونه منشطا لاتجاه وطنى قومى ، كما تعرضت الباحثة إلى أحزاب صغيرة منها ما كان رد فعل لأحد الأحزاب الكبار كالحزب المصرى ، ومنها من لعب على الحبلين مثل الحزب الوطنى الحر أو الحزب الجمهورى ، وهى لم تلق رواجاً ولم يُكتب لها الاستمرار .

أما الفصلان السابع والثامن فهما بيانان لمرحلة نضج فكرة الوطنية ، وهى مرحلة نجحت الباحثة وخصوصا فى الثامن فى عرض نضج الفكرة والدفاع من أجلها ، إلا أن الفصل السابع حمل عنواناً كان على الباحثة أن تجعله فى مرحلة متقدمة جداً من الكتاب فعبارة الأسس المكونة لفكرة الوطنية لا تحتل مكانا هو آخر الكتاب لاسيما وأن أوله معلومات كان يُمكن أن تعرض فى أبواب سبقته .

وعلى أية حال فقد ضم معلومات تاريخية أخرى تُؤهل القارئ فعلاً للفصل الثامن الذى يليه والتى انتهت به الباحثة من دراستها فهذه الكشوف الفرعونية وموقف رفاعة منها كان يمكن أن تعرض مع رفاعة وفكره والمؤثرات التى تأثر بها إلا أن بقية الفصل وهو تأسيس أسرة حاكمة تتوارث عرش مصر استطاعت من خلاله الباحثة أن تصل إلى تفرد مصر بشخصيتها دون بقية الولايات العثمانية وأن تصل لشكل من أشكال الاستقلالية بواسطة الفرمانات التى حصل عليها رموز الأسرة العلوية ، مما أدى إلى

توسع مصر إلى حدود ما عرف بالإمبراطورية وهى بعد فى كنف السيطرة العثمانية ، فارتفعت مكانتها حتى فى نظر العناصر التركية التى كانت تساكن المصريين فما لبثت أن تساوت معها اجتماعياً وتصاهرت معها بل وانصهرت فيها لتكون مجتمعاً واحداً .

وفى النهاية نصل إلى الفصل الثامن وفيه تعرض الباحثة نتاج نمو الفكرة الوطنية منذ كانت بذرة فى أول الكتاب إلى عود مزهر فى آخره ظهر من كتابات المجيدين من أبناء مصر الذين حللوا وأظهروا ودافعوا عن الوطنية المصرية وعالجوا مشاكلها وما شابها من أفكار وقننوها إلى حد ما ، وذكرت منهم كثيرين ، وكانت موفقة إلى حد بعيد فى التسلسل مع أفكارهم، كما وفقت فى اختيار عام ١٩١٤ نهاية لبحثها فهو إعلان حماية بريطانية ونهاية ولاية عثمانية .

إلا أن الخاتمة – والكتاب أصلا رسالة ماجستير– لا تكون بهذا الحجم الذى كان سببه تلخيص الباحثة لما قدمته تقريباً ، بينما المعروف عن خاتمة البحث أو الدراسة تكون محدودة الصفحات إذ تُعرض النتيجة أو النتائج التى توصلت إليها الباحثة من هذا العمل ، تلك النتائج هى هدف البحث ، وما ستضيفه إلى التآليف التاريخية من جديد ينفرد به .

وفى النهاية هو عمل ضخم أخرج فكرة تكاد تكون متوارية كثيرا عن نظر الكتاب، أو تأتى ضمن الحركات الوطنية ، فاستطاعت الباحثة استخراجها وتجسيدها وتحريكها للناظرين ، وأصبحت فكرة الوطنية المجردة حساً وواقعاً ملموساً.

د. يواقيم رزق مرقص

المؤلف : أ.د. يونان لبيب رزق

الكتاب : الثوابت والمتغيرات فى العلاقات المصرية السودانية

دار النشر : الهلال ١٩٩٤

فى ربيع عام ١٩٩٣ نشر أ.د. يونان لبيب رزق دراسة بعنوان «الثوابت والمتغيرات فى العلاقات المصرية السودانية» فى مجلة المصور المصرية وفى جريدة الخليج الإماراتية، وأثناء نشر هذه الدراسة فى الإمارات توالت التعقيبات من السودانيين المقيمين هناك ، وتولى المؤلف الرد عليها عقب انتهائه من نشر دراسته ثم جمع هذه الدراسة والتعقيبات والردود على التعقيبات وأضاف ملحقاً وثائقياً ليصدر هذا الكتاب الذى نعرضه اليوم .

أولا : الدراسـة

تناول المؤلف فى هذه الدراسة الثوابت وأفرد لها خمسة فصول وتناول المتغيرات وأفرد لها فصلين ، ونعرض الآن لما تضمنته تلك الفصول .

أولا : الثوابت

الفصل الأول : « وحدة الأمن القومى »

يرفض المؤلف فى بداية هذا الفصل استخدام مصطلح «العلاقات الأزلية» فى توصيف العلاقة بين البلدين مصر والسودان واستبدله بمصطلح يراه موضوعياً وهو «خصوصية العلاقة بين البلدين» ودعائم هذه الخصوصية الجغرافيا ومسيرة التاريخ وحركة البشر ، وهذه الدعائم الثلاث كفيلة بوضع ثوابت ، وأول هذه الثوابت «وحدة الأمن القومى» الذى يُؤكد المؤلف على أن فكرة الأمن القومى ليست لطرف دون الأخر وإنما للطرفين ، فالبلدان بلدا مصب لنهر النيل ومصالحهما المائية واحدة ، كما أن مصر هى نافذة السودان للاتصال بدول شمال البحر المتوسط ، والسودان بوابة مصر للاتصال بالقارة الأم إفريقيا كما إنه يشكل العمق الاستراتيجى لها .

فى هذا الفصل يرد المؤلف على الزعم الذى روجه الانفصاليون فى الحركة السياسية السودانية بأن مصر شاركت فى الحملة الاستعمارية التى شنتها أوروبا على إفريقيا خلال القرن التاسع عشر وكان السودان من نصيبها . كما أثبت أيضا أن السودان صمام الأمن لمصر وأبرز المؤلف أربع علامات بامتداد التاريخ الحديث تدل على صحة هذا القول .

الفصل الثانى : « الصدام المستحيل »

يذكر المؤلف أنه عندما تكدرت العلاقات المصرية السودانية فى عام ١٩٩٢ بسبب أزمة الحدود بين البلدين ، اتهم النظام الحاكم فى السودان حكومة مصر بأنها ستخوض حرباً ضد أشقائها السودانيين ، فى هذا الفصل يرد المؤلف على هذا الإتهام رداً تاريخياً موضوعياً لم تكن للانفعالات فيه مكان . فالأزمات لا تُعالج بالانفعالات .

والقصة من أولها تُشير إلى أن الجيشين الذى يزعم البعض إنهما سيتقاتلان كانا جيشا واحداً لأكثر من قرن ١٨٢٢ - ١٩٢٥ وحتى بعد أن نجح طرف ثالث هو بريطانيا فى الفصل بينهما فإن هذا الفصل لم يصل إلى البتر ، وسعت حكومة مصر بعد معاهدة ١٩٣٦ إلى إعادة الوصل بعودة القوات المصرية إلى السودان حتى إننا لا نكاد نجد ضابطا مصريا لم يخدم فى السودان خلال تلك الفترة ، وبعد استقلال السودان بقيت المعاهد العسكرية المصرية تُخصص جانباً من مقاعدها لتخريج الضباط السودانيين . وبعد عام ١٩٦٧ لم تجد مصر أفضل من الأراضى السودانية لكى تأوى إليه قواتها العسكرية وعلى هذا فيجب على الجميع أن يعلموا أن الصدام بين الجيشين يجب أن يكون مستحيلاً .

الفصل الثالث : « الدور الجبار»

ويعنى به المؤلف الدور الثقافى الذى أرسته مصر فى السودان منذ القدم ويشهد على ذلك الدور رواق الدكارنه فى الأزهر الشريف الذى كان مركز تجمع الوفود

السودانية من بلاد التكرور ودارفور وسنار، وفى عصر محمد على زاد على الرواق السابق رواق السنارية. وفى عهد عباس الأول أُنشأ فى السودان أول مدرسة ابتدائية وأُرسلت بعثة من كبار المثقفين المصريين على رأسهم رفاعة الطهطاوى لتنوير السودانيين، وفى عهد إسماعيل ازداد الاهتمام الثقافى المصرى بالسوادن حيث أُنشئت خمس مدارس فى مديريات متعددة. كما استقبلت مصر فى عهده بعثات من السودانيين لتتلقى العلم فى مدارس التلغراف والهندسة والطب والصيدلة وغيرها .

وعلى الرغم مما قامت به بريطانيا لتدمير العلاقات الثقافية بين البلدين فإن مصر استمرت فى تقديم وتدعيم دورها الثقافى فى السودان كما نشطت الجهود الأهلية من المصريين المقيمين فى السودان وأنشأوا عدداً من المدارس الأهلية للحفاظ على الثقافة العربية ، وبعد معاهدة ١٩٣٦ أنشأت مصر عدة مدارس كان أكبرها مدرسة الخرطوم الثانوية عام ١٩٤٦ وفى عام ١٩٥٥ أنشأت مصر فرعاً لجامعة القاهرة فى الخرطوم وذلك دفاعاً عن الثقافة العربية .

ويُلاحظ أنه فى السنوات الأخيرة بدأت حكومة السودان تنال من الدور الجبار حتى إنها ألغت الترخيص الممنوح لجامعة القاهرة لتشغيل فرعها فى الخرطوم .

الفصل الرابع : «مسألة حياة أو موت»

فى بداية هذا الفصل وصف المؤلف العلاقات المصرية السودانية بأنها علاقات خاصة جداً والمجرى المائى العظيم المسمى بنهر النيل صنع هذه الخصوصية ، وهذا ما دفع محمد على إلى إقامة شبكة عظيمة للرى فى مصر وتواكب ذلك مع إرسال حملته للسودان كما أنه أرسل الرحلات الكشفية التى قادها «سليم قبطان» ، كما سعى الخديو إسماعيل إلى العناية بمشاريع الرى وواصل زحفه جنوباً حتى وصل إلى المنابع الاستوائية جنوباً وعندما كادت تقوم حرباً عالمية عند فاشوده أعقب تلك الأزمة عقد مجموعة اتفاقيات مع الدول المجاورة لتعيين الحدود كانت تُراعى مسألة عدم التدخل فى جريان المياه إلى النيل.

وفى العشرينات كان عقد الحسم فى المسألة المائية حيث جرت مفاوضات سعد- ملنر ١٩٢٠ ، عدلى - كرزون ، سعد مكدونالد ١٩٢٤ تضمنت اعتراف كامل من بريطانيا بمصلحة مصر الحيوية فى مياه النيل . وفى عام ١٩٢٦ شكلت لجنة فنية تم خلالها التوصل إلى اتفاق بين ممثلى مصلحة الرى فى مصر والسودان وكان هذا هو الأساس لأول اتفاق حول مياه النيل عام ١٩٢٩ واستمرت القاعدة التى سارت عليها العلاقات المائية المصرية السودانية حتى تم الشروع فى بناء السد العالى فكان عقد الاتفاق الثانى فى نوفمبر ١٩٥٩ .

الفصل الخامس : «الطرف الثالث»

يُؤكد المؤلف فى هذا الفصل أن وجود طرف ثالث بين الشقيقين ظل دائماً عاملاً من عوامل بذر الشقاق بينهما .

فقد ترتب على دخول بريطانيا مصر إجبار الخديو إسماعيل على الاستعانة بكبار الموظفين البريطانيين وتوليتهم مناصب كبيرة فى السودان أمثال السير صمويل بيكر والجنرال تشارلز جوردون ، كما تدخلت بريطانيا بين الشقيقين من خلال معاهدة منع تجارة الرقيق التى عقدتها مع مصر عام ١٨٧٧ بكل المضاعفات التى أثرت بالسلب على العلاقات المصرية السودانية ، كما أدى التدخل الإنجليزى إلى إخلاء السودان وإحداث أول انفصال بين البلدين الذى استمر ١٣ عاماً . وعندما عاد الوصال كان الطرف الثالث شريكاً فيه وفقاً لاتفاقية الحكم الثنائى ١٨٩٩ .

ويرى المؤلف أن دور الطرف الثالث أخذ فى الشحوب بعد أحداث ثورة يوليو ١٩٥٢ التى أقرت حق تقرير المصير ، غير أن الطرف الثالث تغيرت جنسيته فى الثمانينات ليصبح طرفاً عربياً بعد أن عُزلت مصر عن العالم العربى بعد توقيعها معاهدة السلام مع إسرائيل فقامت كل من ليبيا والعراق بدور الطرف الثالث ، وبعد ترنح العراق أمام الضربات الأمريكية الموجعة فى حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ ، انتقل الدور إلى إيران حيث سعت إلى تصدير ثورتها الدينية إلى مصر عن طريق السودان .

ثانيا : المتغيرات

الفصل السادس: « السيادة فى ذمة التاريخ »

السيادة المصرية على السودان وارت التراب ولا نملك اليوم إلا الترحم عليها . هذا ما يُؤكده المؤلف فى هذا الفصل وعندما يسترجع سيرتها فهو لا يهدف من وراء ذلك إحياءها ولكنه يتذكرها ويُذكرنا بها .

إن مصطلح السيادة المصرية على السودان بدأ شيوعه عام ١٨٩٨ واستمر حتى عام ١٩٥١ ومر خلال تلك الفترة بمرحلتين الأولى بين إسقاط الدولة المهدية فى ذلك العام وعقد أول مفاوضات مصرية بريطانية عام ١٩٢٠ ، حيث تمسكت بريطانيا بهذا المصطلح كوسيلة قانونية كى تُواجه بها محاولات التقدم الإيطالى من الشرق والبلچيكى من الجنوب الغربى والفرنسى من الغرب ، وبعد أن وطدت وجودها بعقد مجموعة من المعاهدات والاتفاقات مع الدول الاستعمارية لم يعد للإنجليز ما يدعوهم للتمسك بمصطلح سيادة مصر على السودان . الثانية بدأت هذه المرحلة منذ بداية المفاوضات المصرية البريطانية عام ١٩٢٠ حتى آخر جولات المفاوضات قبيل ثورة يوليو ١٩٥٢.

وبدأت تتلاشى فكرة السيادة على السودان من أفكار المصريين خلال المفاوضات التى جرت بين الجانبين المصرى والبريطانى والتى كانت دائماً تنتهى بالفشل بسبب وضع السودان حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتُشيع هذا المصطلح إلى مثواه الأخير .

الفصل السابع: «وحدة وادى النيل حلم تبدد»

يُعزى المؤلف تبدد حلم الوحدة إلى عدة عوامل منها ما قامت به بريطانيا بعد إخلاء السودان حيث رسمت سياستها الرامية إلى إضعاف الاتجاه الوحدوى فتخلصت من عدد كبير من الأفندية المصريين العاملين فى الإدارات السودانية وحلت محلهم السودانيين ، كما أثرت بريطانيا على التوجه الثقافى لدى جماعة الأفندية السودانيين ،

ونشطت فى إحياء الطائفية السودانية وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تغيرت توجهات صانعى القرار فى القاهرة وُقبل بمبدأ «حق تقرير المصير» لحل القضية السودانية وكان لهذا التغيير مقدماته وأسبابه التى شرحها المؤلف فى كتابة التعقيبات والردود عليها.

يتناول الكتاب التعليقات التى نشرتها جريدة الخليج على هذه الدراسة ، وكُتاب هذه التعليقات من السودانيين المقيمين بالخليج . وعلى الرغم من أن هذه الدراسة نُشرت فى مجلة المصور المصرية ومعروف أن الجالية السودانية فى مصر من أكبر الجاليات عدداً إلا أننا لم نجد منهم أى صدى يعكس رأيهم فى تلك الدراسة .

وقام بالتعقيب على هذه الدراسة الأستاذ هشام عبد الملك والأستاذ محمد سلامة والدكتور محمد أبو عمر والدكتور إبراهيم على الجعلى ، ويُلاحظ أن جميع هذه التعقيبات اتفقت على الاختلاف مع المؤلف واتهمته بالانحياز القطرى والافتئات على حقوق الشعب السودانى والاستهانة بثورته المهدية المجيدة . وقد حاول المؤلف مجدداً تبرئة ساحته من تلك الاتهامات بموضوعية المؤرخ .

الملحق الوثائقى

ضمن المؤلف كتابه بملحق وثائقى نشر فيه أربعة ملاحق هى :-

الملحق الأول : مذكرة شريف باشا إلى السير إيفلين بارنج بتاريخ ٢١ ديسمبر ١٨٨٣ تلك المذكرة التى يُوضح فيها خطر إخلاء السودان ويُؤكد على أهميته بالنسبة لمصر .

الملحق الثانى : إشتراك مصر فى نفقات الدفاع عن السودان ١٢ مارس ١٩٢٥.

الملحق الثالث : إتفاقية مياه النيل ٧ مايو ١٩٢٩.

الملحق الرابع : وفاق بين حكومة جلالة ملكة الإنجليز وحكومة الجناب العالى ١٩ يناير ١٨٩٩.

أ. حنان محمود عزوز
باحث بمركز تاريخ مصر المعاصر

Amira el-Azhary Sonbol
The New Mamluks, Egyptian Society and Modern Feudalism, Syracuse University Press, U. S. A . 2000.

حفل عقد التسعينات من القرن الماضى بالعديد من الدراسات التى تعبر عن طبيعة المرحلة التى روجت لفكرة «العولمة» أو «الكوكبة» التى تنفى الهوية القومية للشعوب أو تهون من شأنها على أقل تقدير، واستخدمت أدوات منهجية تلائم النتيجة المفترضة التى يريد هذا النوع من الباحثين التوصل إليها ،فكانت التفكيكية فى طليعة تلك الأدوات المنهجية ،مع تطعيمها ببعض ما جادت به قريحة ميشيل فوكو بصورة انتقائية مجتزأة، وتطبيق ذلك كله على دراسة تاريخ ما سمى «بالعالم الثالث» ومن بينها مصر.

وتهدف هذه الدراسات –فى رأينا– إلى إقناعنا بألا جدوى من المقاومة وأن علينا أن نسلم بالأمر الواقع ،ونستسلم لما ترتبه لنا «العولمة» أو«الكوكبة» من مصير ،استسلام الضحية للقصاب. وشارك فى هذا الاتجاه بعض الأكاديميين العرب الذين يعملون فى جامعات الغرب انتظارا للمكافأة على ذلك بالتمتع بالشهرة أو تولى المناصب العلمية الهامة ، وهو ما ينتظره منهم من يتولون توجيه البحوث فى الغرب ومن يملكون مفاتيح النشر ، على طريقة «وشهد شاهد من أهلها» •

و **أميرة الأزهرى سنبل** تعد نشازا فى معزوفة الباحثين العرب فى الجامعات الغربية الذين يكتبون التاريخ «حسب الطلب» خدمة للتوجهات السياسية الغربية ،فقد حرصت– فى دراساتها المختلفة –أن تبين أن الوطن العربى عامة ومصر خاصة ذات تراث ثقافى كان أكثر تقدما من الغرب ، وأن مجىء الغرب واستعارة نظمه القانونية كانت له آثاره السلبية على المجتمع العربى عامة ووضع المرأة خاصة .

والكتاب الذى نعرض له يعد محصلة الجهد العلمى الذى بذلته أميرة سنبل على مدى السنوات العشر الماضية، فقد كانت دراسة تطور المجتمع المصرى فى العصر الحديث شغلها الشاغل طوال تلك السنوات، فقدمت العديد من الدراسات المجهرية

لبعض الجوانب القانونية والاجتماعية لذلك التطور، ثم قدمت - فى هذا الكتاب - رؤية شاملة لتطور المجتمع المصرى منذ القرن الثامن عشر حتى الوقت الحاضر .

وإذا كانت المؤلفة قد رفضت - بداية - منهج التفكيك ، فقد طرحت بدلا منه ما يمكن أن نسميه «الاستمرارية والتواصل والتكامل» كأساس منهجى لدراسة تطور المجتمع المصرى . وفى سعيها لتحقيق ذلك استخدمت مصطلح« الخاصة والعامة» - مجردا من سياق استخدامه تاريخيا - لتجعل منه محور التطور الاجتماعى فى مصر على طول الفترة الممتدة من القرن الثامن عشر حتى الآن . وذهبت إلى أن استخدامها للمصطلح لا علاقة له بمفهوم « النخبة» أو «الصفوة » أو « الأرستقراطية» أو «أهل الحكم» فى مواجهة «الرعية» أو «الجماهير» فى الاستخدام المنهجى الحديث لأن التجربة التاريخية المصرية - فى رأيها - لم تستخدم المصطلح بهذا المفهوم ، والمهم هنا هو موقف الأطراف نفسها من بعضها البعض ، فما تعتبره الجماهير من الخاصة كان كذلك، ومالا يعد من الخاصة فمكانه لا بد أن يكون بين صفوف العامة . أما النخبة الحاكمة كشريحة من الخاصة فهى ما أسمته المؤلفة « المماليك» وضمت « الخاصة» - فى رأيها- إلى جانبهم «الملتزمون» والتجار . أما العامة فهم السواد الأعظم من الشعب من أهل الحرف والفلاحة والخدمات وغيرها وهى ترى فى عرضها لتاريخ مصر استمرارية وتواصل للعلاقة الجدلية بين الخاصة والعامة مع إدراكها التام للتغير الذى أصاب تركيب الشريحتين على مر تاريخ مصر منذ القرن الثامن عشر حتى الآن .

كذلك ترى المؤلفة أن هناك استمراراً للنزعة التجارية «المركنتالية» على طول تاريخ مصر ، طالما كان للدولة يد فى صياغة السياسة الاقتصادية وتوجيه الاقتصاد ، ولكنها ترفض مقولات «المجتمع النهرى» وطبيعة السلطة فيه كما صاغها **وتفوجل**، وكذلك مقولات «الاستبداد الشرقى» عنده وعند **ماركس** على السواء . وإذا كانت النزعة التجارية مستمرة ، فلابد أن يكون هناك استمرار للإقطاع ، ليس بمفهومه الاصطلاحى ، ولكن من حيث كونه سلسلة من روابط التبعية المحكمة الحلقات ،

وكل شكل من أشكال علاقة التبعية بين أجنحة من الخاصة وغيرها من العامة أو بين الخاصة وبعضهم البعض أو العامة وبعضهم البعض، صور شكل«جديد» من أشكال الإقطاع .

وفى هذا القالب المنهجى «المبتكر» صبت أميرة سنبل دراستها للمجتمع المصرى الحديث، وإن كانت عملية «الصب» هذه قد كلفتها الكثير من العناء ، لا يقل عنه درجة ما يشعر به القارئ من عناء لمتابعة تشكيل وتنوع «العامة/الخاصة» و«المماليك » و«النزعة التجارية » ومظاهر «الإقطاع الجديد» .

والكتاب يقع فى ٢٩٢ صفحة ويضم تقديمين أحدهما لروبرت فرنيا والآخر لبيتر جران وكلاهما أشاد بالمنهج ، وتناولت المؤلفة فى مقدمتها إشكالية الدراسة وألقت الضوء على المنهج الذى اتبعته فى الدراسة وحاولت أن تحدد مفهوما جديدا لمصطلحات « العامة/الخاصة» إضافة إلى «النزعة التجارية» و « المماليك» و«الإقطاع» واستعانت فى إبراز مفهومها لتلك المصطلحات بالعديد من الدراسات النظرية التى نقدت معظمها واجتزأت من بعضها بعض المفاهيم التى استخدمتها .

وفى الفصول السبعة التى اشتمل عليها الكتاب ركزت المؤلفة على تاريخ مصر الحديث وبصفة خاصة الفترات المهمة منه التى برزت فيها تحولات الدولة / المجتمع وحدثت خلالها تغيرات ثقافية . فناقشت فى الفصل الأول أوضاع المجتمع المصرى فى القرن الثالث عشر حيث كان الانسجام قائما بين الأدوار القانونية والاجتماعية وساد النظام وعلت كلمة القانون ، واتسمت علاقة الدولة بالمجتمع بالترابط القائم على العلاقات الاجتماعية والتلاحم مع القاعدة ، وقد تغير ذلك كثيرا نتيجة الجهود التى بذلتها الدولة لتنفرد بالتشريع ، وثار الجدل حول البنية الإدارية القانونية الجديدة .

وفى الفصل الثانى الذى حمل عنوان « بناء الدولة الحديثة – النزعة التجارية فى ثوب جديد» ناقشت إقامة دولة مركزية على أساس« مركنتالى» فى عهد محمد على باشا، وزعمت أن الطابع العام للدولة لم يتغير حينئذ حتى الأزمة الراهنة ، فقد نمت السيطرة على

الاقتصاد بكامله وتوجيهه الوجهة التى تخدم مصالح شرائح « الخاصة» بما فى ذلك وضع النظم وإصدار التشريعات التى تخدم هذه الغاية، وقد ناقشت المؤلفة فى هذا الفصل مقولات«المجتمع النهرى» و« الاستبداد الشرقى» ورأت عدم صلاحيتها لتفسير ما تحقق فى مصر عندئذ ، وعارضت وصف مصر عندئذ« بالعثمانية» لأن الفترة شهدت تجاوز الإطار العثمانى إلى التغريب والتحديث ، كما شهدت هجرة جماعات كثيرة من البلاد التى تقع فى محيط مصر إليها والإقامة بها .

أما الفصل الثالث فأعطته عنوان« الثنائية المتخيلة» وفيه درست بنية المجتمع من بعد محمد على حتى ثورة ١٩٥٢ ، ثم عنونت الفصل الرابع « الحكم الأجنبى والتجار» وفى الفصلين رصدت الصراع بين « الخاصة» والنظام السياسى الجديد، ونظرة القوى الأجنبية إلى مصر والخطاب السياسى المصرى الموجه ضد الإمبريالية والداعى للوطنية والاستقلال الوطنى فى عهد الاحتلال البريطانى ، وأعادت فى الفصلين قراءة تاريخ الفترة مؤكدة أن ما كان يعد من بين المؤثرات الأجنبية كان فى حقيقة الأمر استمرارا وتكرارا لنسق وطنى محلى. وافترضت أن « الخاصة» والأوربيين قد روجوا عندئذ لخطاب يروج لتخلف مصر ومركزها الفريد . وأبرزت ما أصاب «التجار» من تغير فى تلك الحقبة فجاءت غالبيتهم من أوروبا وغلب على الثقافة السياسية خطاب التبعية الاقتصادية والاختلافات الاجتماعية، مما تطلب إصلاحا قانونيا لعلاج ما أصاب المجتمع من شقاق نتيجة الفوارق الثقافية والاجتماعية، وساعدت مركزية السلطة وقوة قبضتها على زيادة الشقة اتساعا .

وفى الفصل الخامس الذى حمل عنوان «الاشتراكية والإقطاع» أعادت المؤلفة النظر فى عهد جمال عبد الناصر على ضوء المشكلة الاجتماعية الراهنة ، وانتهت إلى أن العسكريين عندما أصبحوا فى السلطة مارسوا ما كان يفعله المماليك ، ورأت فى رأسمالية الدولة مدخلا لفهم تلك الحقبة وظهور «الشللية» بين الخاصة التى توجه سياسة الدولة لخدمة مصالحها . وتزداد الأمور تعقيدا عندما يشترك العامة مع الخاصة

فى زيادة الريع الاقتصادى؛ ومع استمرار النخبة الحاكمة فى توجيه سياسة الدولة لخدمة مصالحها نشأت سلسلة من روابط التبعية بينهم وبين أفراد وشراذم معينة تعد نوعا جديدا من العلاقات الإقطاعية .

أما الفصل السادس فحمل عنوان «التجار الجدد والانفتاح» وتناول تطور المجتمع المصرى بعد هزيمة ١٩٦٧ وما واجهته مصر من صعوبات اقتصادية مما أدى إلى إيجاد توجه جديد نحو الرأسمالية العالمية صحبته موجة من الصراع الاجتماعى ؛ ولاحظت المؤلفة أن ثمرة هذه الظاهرة هو نهاية الثنائية الثقافية التى طال أمدها حتى غلبت على القرن من الزمان لصالح التوجه الإسلامى .

وفى الفصل الأخير «نهاية الثنائية» رصدت المؤلفة ما أسمته بنهاية الثنائية فى مجالات معينة من المجالات الثقافية المعاصرة وحاولت أن تفسر العملية التاريخية البارزة اليوم ، من ذلك الأفكار الجديدة للتيار الإسلامى ، وزيادة استخدام العامية فى الخطاب السياسى والثقافى، وتغير الموسيقى والمسرح نزولا عن المستوى الذى عرفته العقود السابقة على العقد الأخير من القرن العشرين ،وهى لا ترى فى هذه التطورات هبوطا فى الذوق ومجاراة للتيارات الغربية على نحو ما يراه غيرها ، ولكنها ترى فيه تغير فى الوزن السياسى / الثقافى للعامة فى مواجهة الخاصة .

لقد أجهدت المؤلفة نفسها لتثبت خطأ دراسة مجتمعاتنا فى إطار المنهج التفكيكى ، مؤكدة ضرورة الاعتراف بخصوصية مجتمعاتنا الثقافية تحديدا ، نافية ما يذهب إليه أنصار التفكيكية من غياب الهوية عند مجتمعات ما كان يعرف«بالعالم الثالث». ولكن المؤلفة فى سعيها لتأكيد الخصوصية الثقافية لمصر اتخذت من القرن الثامن عشر نموذجا لأصالة الثقافة واعتبرت كل ما أصاب مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى نهاية عصر عبد الناصر وقوع فى براثن الثنائية الثقافية التى لم يتم التخلص منها إلا فى عهد الانفتاح عندما اختفت الثنائية لصالح الأصالة الثقافية ممثلة فى حركة الإحياء الإسلامى والمظاهر الثقافية الجديدة التى لا صلة لها بها فى حقيقة الأمر .

بقى مأزق الإصرار على طرح مضامين جديدة لمصطلحات «العامة / الخاصة»، «المماليك / الإقطاع» التى استمد منها الكتاب عنوانه المثير، ولا أظن أن الكتاب استطاع أن يرسم إطارا واضحا لمضامين تلك المصطلحات كما قدمتها المؤلفة ، فقد استقرت مفاهيمها فى العلوم الاجتماعية منذ زمن بعيد .

أ.د. رؤوف عباس حامد

Gold Schmidt, Jr. Arthur
Biographical Dictionary of Modern Egypt
American University Press, Cairo, 2000

مستر **آرثر إدوارد جولد شميت** (الابن) عرفته المحافل التاريخية فى الجامعات المصرية بعد أن أخذ يتردد عليها خلال النصف الثانى من الستينات للإعداد لرسالته لنيل درجة الدكتوراه فى «تاريخ ودراسات الشرق الأوسط» من جامعة هارفارد ، وحصل عليها بالفعل عام ١٩٦٨ ، والتى بلغ من اهتمام المشتغلين بالكتابة التاريخية فى مصر بها أن قام بترجمتها الأستاذ فؤاد دوارة تحت عنوان «الحزب الوطنى المصرى - مصطفى كامل ومحمد فريد» وصدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٣ .

وتبدو أهمية هذا العمل عندما نلاحظ أن الأستاذ **فتحى رضوان** الذى لا يمارى أحد فى صدق وطنيته ، والذى كان يعتبر نفسه ، كما اعتبره الآخرون ، الابن الوفى لمصطفى كامل ، قد قام بتقديمه والتعليق عليه .

استهل الأستاذ فتحى رضوان تقديمه بالقول «الكتاب الذى أقدمه لقراء العربية والمعنون (الحزب الوطنى المصرى) هو كتاب فريد . ووصفه بالفريد ليس من قبيل الثناء عليه ، أو الإشادة به ، بل من باب تقرير الحقيقة ، لأنه لا يوجد فى المكتبة التاريخية الحديثة ، ولا فى المكتبة الأمريكية المعاصرة كتاب يشبهه . فهو كتاب علمى ، قائم على جمع الحقائق من مصادرها ومراجعها مع ذكر هذه المصادر والمراجع ، أولا بأول فى الموضع المناسب ، وهو فى الوقت نفسه كتاب سياسى ، لا يروى الوقائع رواية المؤرخ العالم ، حسبه أن يذكرها ، أو حسبه أن يذكرها مصحوبة بالتعليق الذى يزيد دلالتها - من وجهة نظر المؤلف - وضوحا ، بل إن المنهج الذى يلتزمه فى التعليق والشرح ، وكلاهما يخدم أغراض المؤلف وغاياته ، التى لا تقتصر على أهداف العالم المؤرخ ، بل تتجاوزها إلى تحقيق معتقداته».

بيد أن ذلك الثناء لم يمنع المفكر والسياسى المصرى المرموق الأستاذ فتحى رضوان، من إعمال الرؤية النقدية لمؤلف جولد شميت ، فيما جاء فى قوله :«وعلى الرغم من أن

المؤلف يتورط فى أحكام خاطئة ، كلما استدعى الأمر إصدار حكم سياسى على المصريين أو العرب أو الشرقيين ، وهى أخطاء فاحشة تنضح بسوء نية غير قليل، ولكنه حينما يتناول الوقائع ويحللها ، نظفر منه بعمل جيد ، يستأهل أن يقرأه المؤرخون، وطلبة التاريخ ، ورجال السياسة»، ثم يعدد بعد ذلك أوجه التفرد فى هذا العمل العلمى .

وتقود المقارنة بين ما كتبه الأستاذ فتحى رضوان عن عمل جولد شميت الأول منذ نحو عشرين عاما وبين ما كتبه الأستاذ أحمد النجمى فى «مصور» ١٢ يناير ٢٠٠٠ إلى تسجيل ملاحظتين :

الأولى : أن الأستاذ رضوان لم يتوقف عند ديانة المؤلف ، وعما إذا كان يهوديا أو غير يهودى، ولكنه توقف عند كونه أمريكيا ، وأنه يعبر فى النهاية عن رؤى سائدة فى العالم الغربى لمصر ومنطقة الشرق الأوسط ، مما رصده الأستاذ فى أكثر من موقع ، وهى رؤى ظالمة بالتأكيد !

الثانية : برحابة صدر عرفناها عن أبناء هذا الجيل ، إذ لم تمنع هذه الرؤى ، رجلا بحجم فتحى رضوان وتاريخه فى العمل الوطنى ، من رصد الجوانب الإيجابية ودعوة المصريين إلى الاستفادة منها ، دون أن ينضم لجمهرة الصائحين «إمسك مؤلف»!

ومن المؤلف إلى الكتاب الذى قامت على طبعه الجامعة الأمريكية فى القاهرة العام الماضى تحت عنوان Biographical Dictionary of Modern Egypt «قاموس السير الشخصية فى مصر الحديثة» ، والذى كان محلا لهجوم الأستاذ أحمد النجمى.

ونبدأ بقضية «موسوعات الشخصيات» التى تعتبر عملا مرجعيا لكل المهتمين بالشئون المصرية ، تاريخية كانت أو سياسية أو اقتصادية ، فنقول إن المكتبة المصرية ما فتئت تعانى من نقص شديد لمثل هذه الأعمال ، مما يمكن أن نرصده بسهولة من المتاح منها بين أيدينا :

١- العمل الضخم الذى قامت على إصداره وكالة أنباء الشرق الأوسط عام ١٩٩٦ تحت عنوان «موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين». والذى ضم ألفى شخصية مصرية ، وعلى الرغم من الجهد الهائل الذى اقتضاه إصدار هذه الموسوعة ، فينبغى الاعتراف أنها كانت عملا تجميعيا بالدرجة الأولى ، ولم تدع وكالة أنباء الشرق الأوسط بأنها أصدرت عملا تاريخيا .

٢- العملان اللذان صدرا عام ١٩٨٩ عن الهيئة العامة للاستعلامات تحت عنوان الموسوعة القومية للشخصيات المصرية الخالدة ، وقد تناولت سير الراحلين ، والموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة ، والتى تعاملت مع من كان من هؤلاء على قيد الحياة وقتها على الأقل !

ويستحق هذان العملان بكل المعايير ثناء عظيما بحكم الجهد الهائل الذى بذل فى إنجازهما والذى حكمته معايير علمية شرحها الدكتور ممدوح البلتاجى، مدير هيئة الاستعلامات وقتئذ فى مقدمة الجزء الخاص بالشخصيات البارزة، وإن كان ثمة ملاحظة فهى الافتقار إلى تحديدات زمنية صارمة ، مما تتطلبه الموسوعات التاريخية .

٣- العمل الذى أصدرته عام ١٩٩٥ جمعية مارمينا العجايبى للدراسات القبطية بالإسكندرية تحت عنوان «قاموس التراجم القبطية»، وهو بدوره عمل تجميعى يتناول سيرة ٥٤٥ شخصية قبطية من الراحلين أو ممن هم على قيد الحياة ، ويشوبه المنطلق الطائفى الذى اعتمد عليه ، مما جعله محلا للنقد .

فضلا عن ذلك فهناك كتب السير الذاتية القديمة منها كتاب زكى فهمى الصادر عام ١٩٢٦ تحت عنوان «صفوة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر رجال مصر» وكتاب إلياس زاخورا الصادر فى ثلاثة أجزاء خلال الفترة بين عامى ١٨٩٧ و ١٩١٦ تحت اسم «مرآة العصر فى أكابر الرجال بمصر» ، وهى الأعمال التى تشى عناوينها بما تحويه والبعيدة عن المنهج العلمى كل البعد .

على ضوء الحقائق السابقة ينبغى النظر للعمل الجديد الذى قدمه آرثر جولد شميت «الابن»، وهى النظرة التى يجب أن تتحلى بالموضوعية، مثلما فعل الأستاذ فتحى رضوان عام ١٩٨٣. وليس بمنطق «إمسك مؤلف» فيما فعله الأستاذ أحمد النجمى، ولنبدأها برصد عدد من الملاحظات :

* فقد جرت العادة أن تقوم هيئات على إصدار مثل هذه الموسوعات، ولأنها بطبيعتها ليست أعمالا تاريخية تتناول حدثا ما أو شخصية بعينها أو فترة بذاتها ، فإن احتمالات التدخل فيها بالرأى أقل كثيرا من الاحتمالات فى مثل تلك الكتابات .

*أنها تكتسب قيمتها ، ليس فحسب من المعلومات التى تقدمها عن الشخصيات التى تتضمن سيرها ، وإنما من الإحالات التى تتضمن الوثائق والدوريات والمؤلفات لكل من هذه السير، مما يتيح للباحثين الراغبين فى الاستزادة الاسترشاد بها ، وأن تكون نقطة البداية لا علامة النهاية فى بحثهم .

*أن يحكمها إطار زمنى محدد ومعايير للاختيار دقيقة ، يضعها المؤلف مع الشروع فى وضع عمله موضع التنفيذ ، ولا يحيد عنها على قدر المستطاع، ففى العلوم الإنسانية يصعب تنحية الإنجازات الشخصية بشكل بات بمحاولة النظر فى التزام جولد شميت بهذه الشروط ، فلا يمكن الزعم أنه قام بهذا العمل إنطلاقا من مؤسسة ، فقد اعترف أنه أنجزه بمبادرة شخصية ، ولكن برر هذا بأنه كان شاغلا من شواغله لنحو ثلاثين عاما ، أى فى أعقاب إعداده لرسالته للدكتوراه عن « الحزب الوطنى»، وأن من أهم أسباب قدرته على الإنجاز الفردى «التطور الهائل الذى دخل على إمكانات الكتابة بالحاسب الآلى (الكمبيوتر) والذى وفر القدرة على تحقيق ما كان يبدو حلما بعيد المنال».

أما قضية الإحالات ذات القيمة العلمية الكبيرة، فينفرد هذا العمل ، دون الموسوعات الأخرى ، بوفرتها، حتى أنها فى بعض الأحيان غلبت فى مساحتها وقيمتها، على المعلومات التى قدمتها عن الشخصيات التى تضمنها القاموس .

ونأتى بعد ذلك لتحديد الإطار الزمنى ، وقد آثر الرجل اختيار عام ١٧٦٠ نقطة بدء للتاريخ المصرى الحديث ، وهو أمر يحمد له ولا يعاب عليه ، فالمعلوم أن اجتهادات عديدة عرفتها عملية التحقيب التاريخى لمصر فى العصر الحديث، فهناك من رآه يبدأ مع الغزو العثمانى للبلاد عام ١٥١٧ انطلاقا من أن ذلك العصر قد بدأ فى أوروبا فى ذات الوقت، القرن السادس عشر، وبكل المعايير لم يكن الحكم العثمانى لمصر سوى امتداد، وبشكل سيئ للعصر المملوكى، وهناك من اختار قدوم الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ كنقطة بداية، وهو اختيار يعوزه الحس الوطنى وهناك أخيرا المدرسة الثالثة التى رصدت عددا من الإرهاصات المصرية التى كانت تكشف عن فترة حمل تستعد مصر بعدها لميلاد العصور الحديثة، وهى الإرهاصات التى أجهضتها حملة نابليون ، ونرى أن المستر جولد شميت آثر الأخذ بمنطق هذه المدرسة فى التحقيب، حين اختار عام ١٧٦٠ كنقطة بداية، ولم يكن فريدا فى هذا فقد سبقه إليه الباحث الأمريكى بيتر جران فى مؤلفه تحت عنوان «الجذور الإسلامية للرأسمالية فى مصر» Islamic Roots of Capitalism والصادر فى أوستن عام ١٩٧٩، والباحث المصرى عبدالله عزباوى فى رسالته التى نال بها درجة الدكتوراه عام ١٩٧٦ تحت عنوان «الحركة الفكرية فى مصر فى القرن الثامن عشر» .

وتبقى أخيرا المعايير التى احتكم إليها آرثر جولد شميت فى اختيار شخصيات موسوعته ؛ منها : أن تكون للشخصية دلالة فى السياق العام لتاريخ مصر الحديث، ولما كانت طبيعة الشخصيات المهمة فى مصر تختلف عنها فى الغرب الأمر الذى دعاه إلى أن يهتم بالزعماء الدينيين والمفكرين والشعراء على غير ما يحدث فى الموسوعات الغربية من الاهتمام بالقادة العسكريين والسياسيين والديبلوماسيين ، ثم أنه يقر بحذف أسماء بعض الشخصيات المصرية التى قامت بدورها خارج البلاد، وضم عديد من الشخصيات الأجنبية التى لعبت دورا فيها ، ولعل ذلك ما دعاه إلى اختيار عنوان عمله ليكون «قاموس السير الشخصية فى مصر الحديثة»، وليس قاموس المصريين فى العصور الحديثة.

وهو يعترف فى هذه الجزئية بأنه تحمل المسئولية وحده فى اختيار شخصيات الموسوعة، وأن المساحة التى احتلتها كل من تلك الشخصيات فيها جاءت تبعا لما قدره من أهميتها .

أ.د. يونان لبيب رزق



الإصدارات الحديثة

الإصدارات الحديثة

- علية توفيق : يوسف الصديق وجمال عبد الناصر وأنا ، مركز الأهرام للترجمة والنشر٢٠٠١.
- يونان لبيب رزق: الأهرام عصر التكوين ١٨٧٦ - ١٩٢٦ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ٢٠٠١ .
- يونان لبيب رزق : الأهرام ديوان الحياة المعاصرة ، الجزء الثالث - القسم الثانى، مركز الأهرام للترجمة والنشر٢٠٠١ .
- رءوف عباس حامد : التنوير بين مصر واليابان ، دراسة مقارنة فى فكر رفاعة الطهطاوى وفوكوزاوا يوكيتشى ، دار ميريت للنشر والمعلومات ٢٠٠١ .
- عبد الوهاب بكر : مجتمع القاهرة السرى ١٩٠٠ - ١٩٥١ ، العربى للنشر والتوزيع، ٢٠٠١ .
- فطين أحمد فريدعلى : العلاقات المصرية الأمريكية من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، مطابع الدار الهندسية،٢٠٠١.
- محمد عفيفى : الدين والسياسة فى مصر المعاصرة «القمص سرجيوس» دار الشروق ٢٠٠١.
- محمد الجوادى : على مشارف الثورة ، دار الخيال ، ٢٠٠١
- محاضر مجلس شورى النواب : دراسة تحليلية وإشراف د. سعيدة محمد حسنى، تحقيق عبد الرازق عيسى ، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية - مركز تاريخ مصر المعاصر ٢٠٠١.
- السيد يوسف : مذكرات معتقل سياسى ، صفحة من تاريخ مصر ، الهيئة العامة للكتاب٢٠٠٠.

- بوركهارت ، جون لويس : العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية فى عهد محمد على، ترجمة : إبراهيم أحمد شعلان ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠.

- أحمد زكريا الشلّق : الحزب الديمقراطى المصرى ١٩١٨ - ١٩٢٣ ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠

- محمد عبدالهادى علام : الدبلوماسية المصرية فى التسعينات ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠.

- لطيفة محمد سالم : النظام القضائى المصرى الحديث ١٨٧٥ - ١٩١٤ ، جزء أول ، ١٩١٤ - ١٩٥٢ ، جزء ثانى ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠.

- عبد الوهاب بكر : أحوال الأمن فى مصر المعاصرة ، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠.

- آمنة حجازى : الوطنية المصرية فى العصر الحديث ، نشأتها ونموها حتى عام ١٩١٤، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠.

- عادل إبراهيم الطويل : محمد توفيق نسيم باشا ودوره فى الحياة السياسية ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠.

- محمد رفعت الإمام : تاريخ الجالية الأرمنية فى مصر فى القرن التاسع عشر ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠.

- محمد لطفى جمعة : مذكرات محمد لطفى جمعة ، شاهد على العصر ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠.

- ياسر عبد المنعم محاريق : المنوفية فى القرن الثامن عشر ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠.

- سامى سليمان محمد السهم : التعليم والتغيير الاجتماعى فى مصر فى القرن التاسع عشر، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠.

- عبد العظيم رمضان : الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠.

- كينيث كونو :فلاحو الباشا ،الأرض والمجتمع فى الوجه البحرى من ١٧٤٠ إلى ١٨٨٥ ، ترجمة سحر توفيق ، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠.

- يونان لبيب رزق : الأهرام ديوان الحياة المعاصرة ، الجزء الثالث - القسم الثالث، مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٩.

- رفعت السعيد : حسن البنا كيف ومتى ولماذا ؟ ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩

- السيد يوسف : الاخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والارهاب فى مصر ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ .

- مصطفى الفقى : تجديد الفكر القومى ،الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ .

- جلال أمين : ماذا حدث للمصريين ، تطور المجتمع المصرى فى نصف قرن ١٩٤٥ - ١٩٩٥ ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ .

- عبد العظيم رمضان : الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ .

- ماجدة محمد حمود : دار المندوب السامى فى مصر ١٩١٤ - ١٩٢٤ ، مجلدان، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ .

- طارق عبد العاطى غنيم : سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ .

- عبد العليم خلاف : كشوف مصر الإفريقية فى عهد الخديو اسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ .

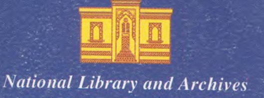
- حسام محمد عبد المعطى : العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ .

- جايل ماير : الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ - ١٩٥٨، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩.

- ج . م. مكفرسون : الموالد فى مصر ، ترجمة د. عبد الوهاب بكر ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ .

قواعد النشر بالمجلة

- تعنى مجلة مصر الحديثة بنشر البحوث والدراسات ذات المستوى الرفيع .
- تخضع البحوث التي تقدم للمجلة للتحكيم العلمى الذى يتولاه أساتذة متخصصون وفق ضوابط موضوعية على أن يستثنى من التحكيم البحوث التى يتقدم بها الأساتذة ومن فى مستواهم من الشخصيات العامة .
- يراعى أن تتراوح عدد صفحات البحث ما بين ٣٠ إلى ٤٠ صفحة ويفضل أن يكون منسوخا على الحاسب الآلى (على ديسك) .
- ألا يكون البحث جزءا مأخوذا من رسالة الدكتوراه أو الماچستير التى تقدم بها المؤلف أو من كتاب له سبق نشره .
- يراعى فى البحوث المقدمة للنشر اتباع القواعد العلمية من حيث التوثيق والهوامش والمصادر والمراجع وإلى غير ذلك من الأصول المتبعة فى البحوث الأكاديمية .
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية عل أن يرفق بها ملخصا لا يتجاوز مئتى كلمة يتصدر البحث .
- لا ترد الأبحاث أو الدراسات أو مراجعات الكتب أو التقارير العلمية إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .
- البحوث والمواد العلمية التى يتم نشرها فى المجلة تعبر عن رأى كاتبها ولا تحمل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو المركز أو أية جهة أخرى يرتبط بها صاحب البحث .
- تقدم المجلة مكافأة رمزية عن البحوث والدراسات والمواد العلمية الأخرى التى يتم نشرها .



Modern Egypt

Annual Referred Periodical of Modern & Contemporary History of Egypt

Modern Egypt

Issue 1 2002

NATIONAL LIBRARY AND ARCHIVE PRESS - CAIRO

2002